


لأبي المطرف أحمد بن عميرة المخزومي
المتوفى 658 هـ

أو

بغية المستطرف وغنية المتطرف
من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرف

جمعها
أبو عبد الله محمد بن هانئ اللخمي السبتي
المتوفى 733 هـ

دراسة وتحقيق
الأستاذ الدكتور محمد بن معمر
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة وهران


دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI


هذا الكتاب

إن التراث الأندلسي بحكم روعته وسحره وتمهيد بعض المستشرقين لسبيله قد جلب إليه اهتمام الباحثين والدّارسين فأقبلوا على دراسته وتحقيقه ونشره، فحظيت العديد من مصادره التي سلمت من آفة الضياع بهذا الاهتمام، ولكن بقيت أخرى مخطوطة في الخزائن تنتظر من يزيل عنها الغبار، ومنها رسائل أحمد بن عميرة (المتوفى سنة 658هـ) هذا الأثر الأدبي والتاريخي النفيس الذي بقي رغم أهميته مخطوطاً لم يحقق.

ونحن نقدم اليوم للباحثين والدارسين هذا النص القيم الذي يحتوي على سفرين يشتملان على **"رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية"** التي أنتجها في الأندلس وبلاد المغرب خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وجمعها له أبو عبد الله محمد بن هانئ اللخمي السبتي (المتوفى سنة 733هـ)، وإنه بإحياء هذا الكتاب وإعداده للقراءة السليمة المفيدة نكون قد أضفنا جديداً إلى الثقافة العربية والإسلامية عموماً والأندلسية المغربية منها خصوصاً، وكشفنا عن نص نادر فيه من الأدب والتاريخ ما ليس في مصدر آخر.


رسائل
ابن عميرة الديوانية والإخوانية






أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban
هاتف +961 5 804810/11/12
فاكس +961 5 804813
ص.ب 9424 - 11 بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت 2290 1107
info@al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
DKI www.al-ilmiyah.com
دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

# رسائل

# ابن عميرة الديوانية والإخوانية

لأبي المطرف أحمد بن عميرة المخزومي

المتوفى 658 هـ

أو

## بغية المستطرف وغنية المتطرف

من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرف

جمعها

أبو عبد الله محمد بن هانئ اللخمي السبتي

المتوفى 733 هـ

دراسة وتحقيق

الأستاذ الدكتور محمد بن معمر

أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة وهران



دار الكتب العلمية

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

DKI

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان

Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon

Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

الكتاب : رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية

Title : RASÂ'IL IBN 'UMAYRA AD-DIWÂNIYYA WAL-IḪWÂNIYYA

التصنيف : أدب - تاريخ

Classification: Literature - History

المؤلف : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي (ت 658 هـ)

Author : Abou Al-Mutarrif Ahmad ben 'Omayra Al-Makhzoumi (D.658H.)

جمعها: أبو عبد الله محمد بن هانئ اللخمي السبتي (ت 733 هـ)

Collected by: Abou Abdullah Muhammed ben Hane' Al-Lakhmi As-Sabti (D.733H.)

المحقق : أ.د. محمد بن معمر

Editor : Prof. Dr. Muhammed ben Mu'ammar

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

| | | |
|---|---|---|
| Pages | 560 | عدد الصفحات |
| Size | 17x24 cm | قياس الصفحات |
| Year | 2014 A.D - 1435 H. | سنة الطباعة |
| Printed in : Lebanon | | بلد الطباعة : لبنان |
| Edition : 1st | | الطبعة : الأولى |

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Est. by Mohamad Ali Baydoun

1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah, Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Solh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN-13: 978-2-7451-7371-3
ISBN-10: 2-7451-7371-5




بسم الله الرحمن الرحيم

## الدّراسة

حين حققت "كتاب تاريخ ميورقة" لابن عميرة المخزومي ونُشر منذ بضع سنوات خلت، اتصلت بهذا الكاتب الشاعر المؤرّخ الرّحّالة وبآثاره اتصالا وثيقا، ووقفت وقوفا دقيقا على ما أسداه من خدمات جليلة للثقافة العربية والاسلامية في جناحها الغربي. ولم ألبث أن شغفت بما أبدعه من منثور ومنظوم فأقدمت على تحقيق مخطوط آخر من تراثه وهو ديوان رسائله أكثر آثاره شهرة.

وليس بخاف على أحد أنّ التراث الأندلسي بحكم روعته وسحره وتمهيد بعض المستشرقين لسبيله قد جلب إليه اهتمام الباحثين والدّارسين فأقبلوا على دراسته وتحقيقه ونشره، فحظيت العديد من مصادره التي سلمت من آفة الضّياع بهذا الاهتمام، ولكن بقيت أخرى مخطوطة في الخزائن تنتظر من يزيل عنها الغبار، ومنها رسائل ابن عميرة هذا الأثر الأدبي والتاريخي النفيس الذي بقي رغم أهميته مخطوطا لم يحقق.

وإنني أقدّم اليوم للباحثين والدّارسين هذا النّص القيّم الذي يحتوي على سفرين يشتملان على رسائل ابن عميرة الدّيوانية والاخوانية التي أنتجها في الأندلس وبلاد المغرب خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وإنّه بإحياء هذا الكتاب وإعداده للقراءة السليمة المفيدة نكون قد أضفنا جديدا إلى الثقافة العربية والاسلامية عموما والأندلسية المغربية منها خصوصا، وكشفنا عن نص نادر فيه من الأدب والتاريخ ما ليس في مصدر آخر.

# أولاً: مؤلف الكتاب

لعل أهم الترجمات التي كتِبت عن أبي المطرّف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي الذي عاش بين سنتي 582-658 هـ/1186-1260م، هي التي كتبت في عصره سواء منها ما كتِب في حياته أو بعد وفاته بقليل، ولعل خيرها تلك التي كتبها ابن عبد الملك المراكشي[1]. ويعتبر العصر الذي عاش فيه ابن عميرة من أحفل العصور بالأحداث التاريخية في الغرب الإسلامي عامة والأندلس خاصة، تلك الأحداث التي احتك وتأثر بها وشارك في صنعها.

وقد أجمع مترجموه على تحليته بالنسب المخزومي ومنهم معاصره وابن بلده ابن الأبّار حيث يقول: " وكان بجزيرة شقر بنو عميرة المخزوميون بيت شيخنا

---

(1) مصادر ترجمته: ابن الأبار، تحفة القادم، تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986، ص 209 – 215. ابن سعيد المغربي، اختصار القدح المعلى، تحقيق إبراهيم الأبياري. القاهرة: دار الكتاب المصري، 1980، ص 42- 52. ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، تحقيق محمد بن شريفة. بيروت: دار الثقافة، 1973، ج1، ص 150- 180. الغبريني أبو العباس، عنوان الدراية، تحقيق رابح بونار. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص 250- 253. العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي. الرباط، 1968، ص 18 وص 263. التجاني، رحلة التجاني. تونس: المطبعة الرسمية، 1958، ص 90- 94. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة. تقديم يوسف علي طويل. بيروت: دار الكتب العلمية، 2002، ج1، ص 62- 66. ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب. القاهرة: دار التراث، 1972، ج1، ص 206- 207. الصفدي، الوافي بالوفيات. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2000، ج 7، ص 89- 95. السيوطي، بغية الوعاة. بيروت: المكتبة العصرية، دون تاريخ، ج 1، ص 319. ابن القاضي، جذوة الاقتباس. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، ج 1، ص 145- 146. المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1968، ج 1، ص 313- 321. ابن زيدان عبد الرحمن، إتحاف أعلام الناس. الدار البيضاء، 1990، ص298- 302. مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب. بيروت: دار الكتاب العربي، 1974، ج 3، ص 322. بن شريفة محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره، الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1966.





القاضي الكاتب أبي المطرف أبقاه الله"[1]. وكانت ولادته في شهر رمضان بجزيرة شقر القريبة من شاطبة، بينها وبين بلنسية ثمانية عشرة ميلا شرق الأندلس، وهي الجزيرة التي تحدث عنها الجغرافيون والمؤرخون الأندلسيون وغيرهم بكل إعجاب لجمال موقعها وسحر طبيعتها.

وأتيحت لابن عميرة الفرصة في هذا العمر الطويل ليصيب من العلم أوفر نصيب سمح به زمانه، ويمكن التمييز في حياته الدراسية بين ثلاث مراحل: الأولى تميز بالإقبال على الثقافة الدينية بوجه عام، والثانية تبرز فيها العناية بالثقافة العلمية العقلية، والأخيرة يظهر فيها الجنوح نحو الثقافة الأدبية، وهو ما أجمله ابن عبد الملك في النص التالي: "وكان في بداية طلبه للعلم شديد العناية بشأن الرواية فأكثر من سماع الحديث وأخذه عن مشايخ أهله، ثم تفنن في العلوم ونظر في المعقولات وأصول الفقه، ومال إلى الآداب وبرع فيها"[2].

ومن شيوخه الأندلسيين الذين أخذ عنهم وتتلمذ لهم، الشيخ أبو الرّبيع سليمان بن موسى الكلاعي(565-624هـ/1169-1226 م)، وهو من أكبر أساتذته وأبعدهم أثرا في حياته، والشيخ أبو الخطاب أحمد بن محمد بن واجب القيسي (537-614هـ/1142-1217م)، والأستاذ أبو عبد الله محمد بن أيوب السرقسطي(530 - 608هـ/1135-1211م)، والأستاذ ابن حوط الله الأنصاري (552-621هـ/1157-1224م)، والشيخ أبو علي بن الشلوبين، والشيخ ابن عات وغيرهم[3]، وأجازه من المشارقة أبو الفتوح الحصري.

بعد أن فرغ ابن عميرة من حياة الدّرس والتحصيل العلمي وانتهى من التنقل بين شقر وبلنسية وشاطبة ودانية ومرسية وغيرها بحثا عن الشيوخ، رجع إلى

---

(1) ابن الأبّار، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1967، ص 168.

(2) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج1، ص 152.

(3) عن أشهر الشيوخ الذين لقيهم ابن عميرة ولازمهم وأخذ عنهم وألمّ بتراجمهم، انظر الرسالة رقم 177 من هذا الكتاب حيث أجاز فيها الشيخ الفقيه طاهر بن رفيع السبتي وابنه الشريف الحسين بن طاهر.

بلنسية بقصد الاستقرار والحصول على وظيفة تناسب ثقافته وطموحه، "ذلك أن ابن عميرة كان منذ البداية يسعى وراء خطة الكتابة لما كانت توفره لصاحبها من الثراء والنفوذ والجاه والسلطان، وللمكانة الرفيعة التي كان يحظى بها الكاتب في المجتمع الأندلسي"[1].

استهل ابن عميرة حياته الإدارية بالكتابة عن والي بلنسية السيد أبي عبد الله محمد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن في سنة 608هـ/1211م، وفي سنة 617هـ/1220م انتقل إلى إشبيلية وكتب عن واليها الموحدي السيد أبي العلاء الكبير. وفي سنة 620هـ/1223م عاد إلى بلنسية وتولى خطة الكتابة عند الوالي السيد أبي زيد عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، وظل متوليا لها حتى سنة 626هـ/1228م وهي السنة التي ثار فيها الرئيس أبو جميل زيان بن سعد بن مردنيش الجذامي على الوالي الموحدي وافتك منه بلنسية، وقد احتفظ الأمير الجديد بابن عميرة كاتبا عنده حتى سنة 628هـ/1230م تاريخ انتقاله إلى جزيرة شقر حيث اشتغل مؤقتا بالكتابة عن واليها أبي عبد الله بن مردنيش. وفيما بين سنة 630 هـ/1232م وسنة 633هـ/1235م اشتغل بوظيفة القضاء في مدينة شاطبة، وفيما بين سنة 633 هـ/1235م وسنة 636هـ/1238م كاتبا في مرسية، ومنها توجه إلى غرناطة آخر مرحلة في طريقه إلى العدوة المغربية حيث ينتهي الفصل الأول من حياة ابن عميرة الإدارية في الأندلس[2].

غادر ابن عميرة الأندلس وعبر البحر إلى المغرب يحدوه الأمل في الحصول على عمل في بلاط بني عبد المؤمن بمراكش بعد أن فقده في بلاده التي اضطربت أحوالها وسقطت الكثير من قواعدها في يد النصارى. وكان حلوله بمدينة سبتة في أول سنة 637هـ/1239م حيث أقام زمنا يسيرا عند واليها صديقه الرئيس أبي علي الحسن بن خلاص البلنسي. وفي السنة نفسها ورد على الخليفة الموحدي الرشيد أبي محمد عبد الواحد بن أبي العلاء إدريس المأمون (630-640هـ/1232-

(1) بن شريفة محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره، ص 85.

(2) بن شريفة محمد، المرجع السابق، ص: 85- 115.



1242م) وصحبه حين قفوله من مدينة سلا إلى حضرة مراكش[1].

واستكتبه الرشيد مدة يسيرة، ثم صرفه عن الكتابة وقلّده قضاء مدينة هيلانة شرق مراكش، وقد تأثر ابن عميرة بهذا العزل عن خطة الكتابة وشكا ذلك إلى أصدقائه في رسائله الإخوانية وقصائده الشعرية التي تفيض بالحزن والأسى وندب الحظ. ويبدو أنه عبّر عن تبرّمه بهذا الإقليم لدى بعض حاشية السلطان فتوسطوا لديه عنده حتى نقله سنة 639 هـ/1241م إلى قضاء الرباط وسلا، وأقام يتولّاه إلى أن توفي الرشيد وخلفه أخوه الخليفة الموحدي العاشر أبو الحسن السعيد (640-646 هـ/1242- 1248م) فأقرّه عليه مدة ثم نقله إلى قضاء مدينة مكناسة الزيتون.

ولما بايع أهل مكناسة الأمير أبا زكرياء الحفصي، كان القاضي أبو المطرّف هو الذي كتب نص البيعة في 20 ربيع الأول 643هـ/1245م، وحين قام إليهم الخليفة السعيد بحنق عظيم بادروا بطلب العفو واعتذروا عما بدر منهم وبايعوه من جديد وكتب نص البيعة ابن عبدون في ذي الحجة من السنة نفسها[2].

وبعد مقتل الخليفة الموحدي السعيد في صفر سنة 646هـ/1248م، اغتنم ابن عميرة تلك الظروف وغادر مكناسة قاصدا مدينة سبتة، وفي طريقه إليها سلبت منه ثروته في فتنة بني مرين الذين بسطوا نفوذهم على المغرب الشرقي وكانت الدولة الموحدية في ذلك الوقت عرضة لهجماتهم. وقد كتب إلى الشيخ أبي الحسن الرّعيني يعلمه بهذه الحادثة وأن ماله المنهوب قد بلغ أربعة آلاف دينار وكان ورقا وعينا وحليا[3].

كان ابن عميرة كثير التطلع إلى إفريقية معمور القلب بسكناها مذ فارق جزيرة الأندلس، لذلك وبعد أن أقام فترة قصيرة في سبتة عند واليها الرئيس الأندلسي ابن خلاص الذي اشتغل بالكتابة عنه فيما يبدو، ركب البحر متوجها إلى إفريقية حيث ينتهي الفصل الثاني من حياته الإدارية في المغرب.

(1) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص 156.

(2) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب (قسم الموحدين)، تحقيق إبراهيم الكتاني وآخرون، الدار البيضاء: دار الثقافة، 1985، ص373.

(3) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص 179.

ووصل مدينة بجاية في شهر جمادى الآخرة سنة 646هـ/1248م ودخل على صاحبها الأمير أبي يحيى ابن الأمير أبي زكرياء الحفصي وكان صاحبها لأبيه. وأقام ابن عميرة في بجاية حوالي سنتين يعلّم ويدرّس، وكان الطلبة أثناء ذلك يقرأون عليه تنقيحات السهروردي في أصول الفقه التي لم يكن يتعرض لإقرائها إلا من له ذهن ثاقب[1].

وقد أجاز ابن عميرة خلال إقامته ببجاية بعض طلبتها، كما استجاز لنفسه وولديه على سبيل التبرك بعض علمائها، وشارك في المجالس العلمية التي كانت تنعقد بمنزل صديقه ابن محرز البلنسي شيخ الجماعة الأندلسية يومئذ، وكان يحضرها أقطاب الأندلسيين وفي مقدمتهم ابن الأبار وابن الجنان وابن سيد الناس وغيرهم. ولم يتوقف ابن عميرة عن نشاطه الأدبي في هذه المدينة حيث كاتب العديد من أصدقائه[2].

انتقل ابن عميرة من بجاية إلى مدينة تونس حيث مال إلى صحبة الصالحين بها والزهاد أهل الخير برهة من الزمان، ثم نزع عن ذلك[3]. وقد تغلبت عليه رغبته في خدمة الملوك فقنع بوظيفة القضاء في الأقاليم، فتقلده في الأربس وفي قسنطينة ثم في قابس حيث طالت مدته. واستدعاه الأمير الحفصي المستنصر بالله محمد بن أبي زكرياء (647-675هـ/1249- 1276م) وصار من خواص الحاضرين بمجلس حضرته ومن فقهاء دولته. واستطاع ابن عميرة أن ينعم في هذه الفترة الأخيرة من عمره بالحياة السعيدة التي كان ينشدها في ظل الأمير الحفصي، سيما وأن تونس كانت تعيش يومئذ عصرها الذهبي من مختلف الوجوه. وظل ابن عميرة بالمنزلة الرفيعة من الدولة الحفصية والمكانة العالية عند أهل العلم والأدب إلى حين وفاته بتونس في 20 من شهر ذي الحجة سنة 658هـ/1260م[4].

وفي ختام هذا التقديم الموجز لحياة ابن عميرة يجدر بنا أن نورد بعض

---

(1) الغبريني أبو العباس، عنوان الدراية، ص 253.
(2) بن شريفة محمد، المرجع السابق، ص 149.
(3) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج 1، ص 179.
(4) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج 1، ص 180.



الشهادات في حقه، فهذا معاصره وابن بلده ابن الأبار قد حلّاه بالعبارات التالية: "فائدة هذه المائة والواحد يفي بالفئة، الذي اعترف بإجادته الجميع، واتصف بالإبداع فماذا يتصف به البديع، ومعاذ الله أن أحابيه بالتقديم، لما له من حق التعليم، كيف وسبقه الأشهر، ونطقه الياقوت والجوهر، تحلت به الصحائف والمهارق، وما تخلت عنه المغارب والمشارق، فحسبي أن أجهد في أوصافه، ثم أشهد بعدم إنصافه، هذا على تناول الخصوص والعموم لذكره، وتناول المنثور والمنظوم على شكره"[1].

وهو عند ابن عبد الملك: "علم الكتابة المشهور، وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدّهور، ولا سيما في مخاطبة الإخوان، هنالك استولى على أمد الإحسان، وله المطولات المنتخبة والقصار المقتضبة، وكان يملح كلامه نظما ونثرا بالإشارة إلى التاريخ ويودعه إلماعات بالمسائل العلمية منوعة المقصد... وكان حسن الخلق والخُلق، جميل السعي للناس في أغراضهم، حسن المشاركة لهم في حوائجهم، متسرعا إلى بذل مجهوده فيما أمكن من قضائها بنفسه وجاهه"[2].

أما صاحب الإحاطة فقد قال في حقّه: "وعلى الجملة فذات أبي المطرف فيما ينزع إليه، ليست من ذوات الأمثال، فقد كان نسيج وحده إدراكا وتفننا، بصيرا بالعلوم، محدثا مكثرا، راوية ثبتا، سجلا في التاريخ والأخبار، ديّانا مضطلعا بالأصلين، قائما على العربية واللغة، كلامه كثير الحلاوة والطلاوة، جمّ العيون غزير المعاني والمحاسن، وافد أرواح المعاني، شفاف اللّفظ حرّ المعنى، ثاني بديع الزمان في شكوى الحرفة وسوء الحظ ورونق الكلام ولطف المأخذ، وتبريز النثر على النظم والقصور في السلطانيات"[3].

وجاء عنه في عنوان الدراية أنه: "الشيخ الفقيه، المجيد المجتهد، العالم الجليل الفاضل، المتقن المتفنن، أعلم العلماء، وتاج الأدباء، له أدب هو فيه فريد

---

(1) المقري أبو العباس أحمد، نفح الطيب، ج 1، ص 315.
(2) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج 1، ص 152 وص 179.
(3) ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، ص 63.

دهره، وسابق أهل عصره، وفاق الناس بلاغة، وأربى على من قبله"[1].

وقال فيه بعض علماء المغرب: "هو قدوة البلغاء، وعمدة العلماء، وصدر الجلة الفضلاء، ونكتة البلاغة التي قد أحرزها وأودعها، وشمسها التي أخفت ثواقب كواكبها حين أبدعها مبدع البدائع والتي لم يَحْظَ بها قبله إنسان، ولا ينطق عن تلاوتها لسان، إذ كان ينطق عن قريحة صحيحة، وروية بدرر العلم الفصيحة، ذللت له صعب الكلام، وصدقت رؤياه حين وضع سيد المرسلين في يديه الأقلام"[2].

تلك هي أبرز معالم سيرة أبي المطرف المخزومي الذي عاش حياة إدارية وعلمية حافلة بالأعمال وزاخرة بالأحداث، حيث تقلّد مناصب سامية في دول مختلفة، وتنقل خلالها في كثير من بلدان الأندلس والمغرب وإفريقية، وعاصر أحداثا سياسية كبرى. ولكنها كانت حياة مضطربة متقلبة وهي ظاهرة عامة اتسمت بها حياته في كل أطوارها، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من أبناء عصره ووطنه. ويبقى ذلك الأديب الطائر الذكر، المولع بالتاريخ والأدب معروفا لدى القاصي والداني بأناقة أسلوبه المزخرف وغزارة لغته.

اشتهر ابن عميرة بثقافته الواسعة والمتنوعة، فقد كان كما وصفه صاحب تاريخ آداب العرب، خزانة من خزائن العلوم[3]، وقد رأينا فيما سبق بعض الشهادات في حقه التي تثبت هذا الرأي. وكان متفننا في منقول ومعقول تلك العلوم، مدققا في أصولها وفروعها محدثا مكثرا، راوية ثبتا، متبحرا في التاريخ والأخبار، مضطلعا بالأصلين، قائما على العربية واللغة، بارعا في الأدب وفنونه، مولعا بعلوم الفلسفة والمنطق والفلك والطب. وكانت هذه الثقافة الدينية والعلمية العقلية والأدبية الواسعة نتيجة حياة طلب وتحصيل طويلة، ناهيك عن تقلده المناصب السامية التي مكنته من استنساخ النوادر ودراستها، واهتمامه بقراءة الجديد من إنتاج معاصريه

(1) الغبريني، المصدر السابق، ص 250.

(2) المقري، نفح الطيب، ج1، ص313.

(3) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب. بيروت: دار الكتاب العربي، 1974، ج3، ص 322.



المشارقة والمغاربة، فجاء إنتاجه العلمي ثمرة لتلك الثقافة التي ألّف في حقولها المعرفية مجموعة من التآليف وهي:

1- **الرسائل**: موضوع هذه الدراسة ولنا إليها رجعة.

2- **كتاب التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات**: وهو كتاب ألّفه في الردّ على "كتاب التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن" من تأليف أحد معاصريه المشارقة وهو أبو محمد عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني من أعلام البلاغة في القرن السابع الهجري وصاحب علم المعاني والبيان، وقد انتهى من تأليفه في شهر رمضان سنة 637هـ/1239م، ويعتبر كتاب التبيان من المصادر المعروفة في علم البلاغة إذ وجد طريقه إلى الغرب الإسلامي بزمن يسير بعد تأليفه، فانبرى ابن عميرة للردّ عليه.

وكتاب التنبيهات مخطوط يقع في 69 ورقة وهو مكتوب بخط مغربي وتوجد نسخة منه بمكتبة الأسكوريال تحت رقم 967، ويبدو أنه كان بخزانة السعديين التي آل كثير من مجلداتها إلى خزانة الأسكوريال بعد حادثة القرصنة المعروفة، كما توجد نسخة أخرى منه بالخزانة العامة بالرباط[1]. وقد ألّفه ابن عميرة أثناء إقامته بتونس، وسلك فيه طريقة عرض كلام صاحب التبيان ملخصا ثم يردفه بالتعقيب والمناقشة التي انصبت على الجزئيات، والكتاب لا يخلو من آرائه البلاغية مما يؤكد تنوع ثقافته وسعة اطلاعه.

3- **تعقيب على كتاب المعالم للفخر الرّازي**: وهو من مؤلفات ابن عميرة المفقودة اليوم، وقد ورد العنوان عند بعض الذين ترجموا له بصيغ مختلفة ولكنها ألفاظ متقاربة. فابن عبد الملك وابن الخطيب يستعملان كلمة "تعقيب"، بينما يصفه ابن فرحون[2] بأنه "ردّ"، أما الغبريني الذي جعله "تعليقا" فقد اطلع عليه وقال عنه: "وقد رأيت له تعليقا على كتاب المعالم في أصول الفقه لا بأس به، وهو جواب

(1) وعلى هذين النسختين اعتمد الدكتور محمد بن شريفة في تحقيق هذا الكتاب والتقديم له، وتم طبعه بمطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء سنة 1991.

(2) ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب، ج1، ص 207.

لسؤال سائل، وهو مكمّل لعشرة أبواب حسبما سأل السائل"[1]. ويدل هذا الكتاب على ولع ابن عميرة بالردّ على أعلام المشارقة من معاصريه، كما يؤكد إلمامه بالعلوم العقلية والجدلية وتضلّعه فيها.

وكتاب المعالم الذي عقّب عليه ابن عميرة هو من تأليف الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرّازي (تـ 606هـ/1209 م) صاحب التآليف العديدة في علم الكلام والأصول وغيرهما، وكان إمام الدنيا في عصره كما يقول ابن الأثير[2]. وتمثل مؤلفاته مدرسة جديدة في الكلام والأصول اتسمت بطرقها المقفلة وقوانينها المغلقة وتقسيماتها الكثيرة، وهي تختلف عن طريقة الأقدمين في الأصلين طريقة الغزالي والجويني التي كان ينتمي إليها ابن عميرة فيما يبدو، سيما وأنه كان كثير العناية بكتاب المستصفى للغزالي.

**4- تاريخ ميورقة**[3].

**5- اقتضاب من تاريخ المريدين:** وهو ثاني كتاب في التاريخ ألّفه ابن عميرة بالإضافة إلى تاريخ ميورقة، ويعتبر من المؤلفات المفقودة اليوم. وقد ورد هذا العنوان عند ابن عبد الملك في الذيل[4] وعند ابن الخطيب في الإحاطة[5]، أما المقري فقد ذكره في النفح قائلا: "وله اختصار نبيل من تاريخ ابن صاحب الصلاة"[6]. ولسنا نعلم هل اطّلع المقري على هذا الكتاب كما اطلع على تاريخ ميورقة ونقل عنه أم لا، كما أننا نجهل الدافع الذي جعل ابن عميرة يقدم على اختصار تاريخ المريدين.

أما الأصل المختصر فهو من تأليف أبي مروان عبد الملك بن محمد بن

(1) الغبريني، المصدر السابق، ص 253.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت: دار الكتاب العربي، 1983، ج 9، ص 302.
(3) قمنا بدراسته وتحقيقه ونشرته دار الكتب العلمية ببيروت سنة 2007 م. وقد تمت ترجمته إلى اللغة الكطلانية ونشرته جامعة جزر البليار بإسبانيا سنة 2008 م، ثم إلى اللغة الاسبانية ونشرته الجامعة نفسها في سنة 2009 م.
(4) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج 1، ص 177.
(5) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 65.
(6) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 314.



أحمد الباجي المشهور بابن صاحب الصلاة المتوفى سنة 577هـ/1181م الذي ألّف كتابين في التاريخ: أولهما كتاب ثورة المريدين الذي اختصره ابن عميرة، والثاني كتاب تاريخ المن بالإمامة الذي حقق السفر الثاني منه عبد الهادي التازي ونشرته دار الغرب الإسلامي، وهو الجزء الباقي من الكتاب. وقد أشار ابن صاحب الصلاة في هذا الجزء من المن إلى كتابه تاريخ المريدين في سبعة مواطن، في ستة منها أورده بعنوان تاريخ المريدين، وفي الموطن السابع والأخير ذكره بعنوان ثورة المريدين[1]. وبهذه التسمية الأخيرة أشار إليه ابن الأبار ونقل عنه في الحلة السيراء[2]. وسمّاه ابن سعيد "تأريخ الدولة اللمتونية" في تذييله على رسالة ابن حزم[3].

يتناول كتاب ثورة المريدين تاريخ المرابطين وقيام المريدين عليهم في غرب الأندلس سنة 539هـ/1144م. وكلمة المريدين هي الاسم الذي عرفت به الطائفة الدينية التي تزعمها أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي الذي ادعى المهدوية، وكان أول الثائرين على المرابطين بالأندلس في وقت رسمه لأتباعه من هذه السّنة القارضة ملك اللمتونيين كما يقول ابن الأبار[4]، وكان شعار المريدين التهليل والتكبير. فهذه المرحلة القلقة المضطربة من تاريخ الأندلس هي التي عالجها ابن صاحب الصلاة في هذا الكتاب، ويبدو أنه كان ينوي الاقتصار على ثورة المريدين ثم وسع آفاقه إلى تدوين تاريخ شامل للدولة الموحدية فكتب عنها تاريخ المن بالإمامة.

**6- المواعظ:** لقد ألحّ الأندلسيون خلال عصر المؤلف في معارضة الكتابة في الزهديات والمواعظ المشرقية والسّير على منوالها، ومنها رسالة ملقى السبيل لأبي

(1) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت: دار الغربي الإسلامي، ط3، 1987، الصفحات: 68- 91- 92- 129- 284- 303- 321.
(2) ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة: دار المعارف، 1985، ج 2، ص208.
(3) المقري، نفح الطيب، ج 3، ص 181.
(4) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج 2، ص 198.

العلاء المعرّي التي عارضها أبو القاسم السهيلي وسمى معارضته: "حلية النبيل في معارضة ملقى السبيل"، وأبو العباس الغمّاز وسمّى كتابه: "مفاوضة القلب العليل على طريقة أبي العلاء المعري في ملقى السبيل"[1]. وأبو القاسم القرطبي وأبو الربيع الكلاعي وغيرهم.

وكان صاحبنا ابن عميرة من المساهمين في هذا الفن، وقد أشار إلى مواعظه ابن عبد الملك في موضعين من ترجمته، جاء في الأول: "وله فصول وعظية على طريقة الإمام أبي الفرج بن الجوزي"[2]، وقال في الثاني: "وله مجالس وعظية كان يصنعها للواعظ الفاضل الصالح أبي محمد بن علي بن أبي خرص رحمه الله"[3]. وقد ساق ابن عبد الملك في الذيل أمثلة من تلك الفصول والمجالس، كما توجد أمثلة منها أيضا في هذا الكتاب[4]، ولا يُعلم إذا كانت تلك المواعظ قد جمعت ودونت في كتاب على غرار ما فعل ابن هانئ في الرّسائل.

(1) العبدري أبو عبد الله، رحلة العبدري، ص 241.

(2) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج 1، ص 169.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 170.

(4) انظر الرّسالة رقم 234 من هذا الكتاب.

## ثانياً: جامع الرسائل ومنهجه في تدوينها

انتهت إلى ابن عميرة رئاسة صناعة الكتابة والترسّل في عصره، وشهد له بالإمامة فيها فحول الكتّاب والمترسلين من معاصريه ومن جاء بعدهم، فقد وصفه ابن سعيد بقوله: "هو الآن عظيم الأندلس في الكتابة وفي فنون من العلوم"[1]. وقد أنتج عددا هائلا من الرسائل الديوانية والإخوانية، ساعدته في ذلك موهبته البلاغية ومقدرته الكتابية، إلى جانب اتخاذ الترسل حرفة، وشغله خطة الكتابة أكثر أوقات حياته لدى الكثير من الأمراء والخلفاء. وكانت ظروف عمله من أكثرها استدعاء للمكاتبات والمراسلات بحكم ما ساد ذلك العصر من فتن واضطرابات[2].

ويبدو أن ابن عميرة لم يكن يهتم بجمع رسائله وتدوينها، رغم كثرة المعجبين بها والراغبين فيها من أدباء عصره، ولعل ذلك كان بسبب نظرته المتواضعة إلى هذه الرسائل التي لم تكن تستحق التدوين والطلب في نظره، وإنما جمعها غيره من تلاميذه ومن أتى بعدهم. ومن هؤلاء صديقه الأديب البلنسي أبو جعفر أحمد بن محمد بن شنيف العقيلي الذي لازم ابن عميرة في إفريقية وجمع مجموعة من تلك الرسائل آلت إلى ابن عبد الملك المراكشي، وهي التي نجدها متفرقة في كتابه الذيل والتكملة في تراجم مختلفة، وفي ذلك يقول: "خلف فوائد جمة وتعاليق أدبية كثيرة وجملة وافرة من كلام أبي المطرف بن عميرة نثرا ونظما، جالسته طويلا وانتفعت به، وصار إليّ معظم ما قدم به بعد وفاته سنة 664هـ/1265م"[3].

(1) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، 1964، ج 2، ص 363.

(2) ابن شريفة محمد، المرجع السابق، ص 254.

(3) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الأول / القسم الثاني، ص 431. وسيرد ذكره في الرسالة رقم 89 من هذه الرسائل والتي حلاه فيها ابن عميرة بصاحبنا الوزير الفقيه أبي جعفر بن شنيف.

كما أورد مجموعة من هذه الرسائل أبو العلاء محمد بن علي بن عبد الرحمن المرادي الشهير بابن المرابط في كتابه زواهر الفكر وجواهر الفقر. ونجد طائفة أخرى من رسائل ابن عميرة في مخطوط لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكتاب الذي جمعه مؤلف مجهول من خواص الرئيس أبي عثمان سعيد، وغير ذلك من المصادر التي سنعود إليها.

ولكن المحاولة الجادة لجمع هذه الرسائل فهي التي قام بها في القرن الثامن الهجري الأديب الشهيد ابن هانئ السبتي الذي نهض بجمع آثار ابن عميرة النثرية والشعرية ودوّنها ورتبها في كتاب من سفرين سمّاه: "**بغية المستطرف، وغنية المتطرف، من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرّف**". ولم يشر إلى هذا الكتاب إلا ابن الخطيب في الإحاطة وبعض من نقل عنه كالمقري في النفح، وقد أشار إليه في موضعين: الأول بمناسبة ترجمته لابن عميرة، والثاني عند ترجمته لابن هانئ السبتي جامع الكتاب[1].

وقد وصلتنا لحسن الحظ بعض النسخ المخطوطة لهذا الكتاب التي لم ترد فيها، مع الأسف، الإشارة إلى اسم جامع الرسائل ولا العنوان الذي ذكره ابن الخطيب وذلك بسبب البتر الذي تعرضت له هذه النسخ من الأطراف. ولكن ثمة ما يؤكد قول ابن الخطيب عن كتاب بغية المستطرف أنه يقع في سفرين، فقد وردت في عنوان الورقة 84 من السفر الأول (نسخة خزانة زاوية بلعمش بتندوف)، تعليقا على تكرار فصل من رسالة جواب أهل سلا على كتاب بيعة تلمسان للرّشيد الموحدي، العبارة التالية: "ذكر بعض هذه الرسالة في السفر الثاني من هذا التأليف". كما وردت في هامش الورقة 13 من السفر الثاني (نسخة ك 232)، تعليقا على تكرار رسالة زيان بن مردنيش صاحب مرسية إلى الأمير الحفصي، العبارة التالية: "تكررت بعد ثبوتها كاملة في السفر الأول هذه الرسالة".

أمّا عن جامع الرسائل فهو أبو عبد الله محمد بن علي بن هانئ اللّخمي السبتي المعروف باسم جدّه، أصلهم من إشبيلية. قرأ على الأستاذ العلّامة أبي

(1) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، ص 65، وج 3، ص 145. المقري، نفح الطيب، ج 6، ص 246.



إسحاق الغافقي، وعلى الأستاذ النحوي أبي بكر بن عبيدة واعتمد عليه، وأخذ عن الإمام الصالح أبي عبد الله بن حريث.

كان إماما في علم العربية مبرّزا متقدما فيه، حافظا للأقوال، مستوعبا لطريق الخلاف، مستحضرا لحجج التوجيه، لا يشق في ذلك غباره، أديبا بارعا، فائق الترسّل، متوسط النظم، سهل مقادة الكلام، بارع الخط، مشاركا في الأصلين، قائما على القراءات، كثير الاجتهاد والعكوف[1]. وعن صفاته الخلقية يضيف المصدر نفسه أنّه كان فريد دهره في سموّ الهمّة، وإيثار الاقتصاد والتحلّي بالقناعة، وشموخ الأنف على أهل الرّياسة، مقتصرا على فائدة ربع له ببلده، يتبلّغ مع الاستقامة، مع الصّبر والعمل على حفظ المروءة وصون ماء الوجه، مليح الخلق، ظاهر الخشوع، قريب الدّمعة[2].

ترك مجموعة من الكتب، منها كتاب "شرح التسهيل لابن مالك" وهو أجلّ كتبه لأنّه أبدع فيه وتنافس الناس فيه. وكتاب "الغرّة الطالعة في شعراء المائة السابعة". وكتاب "إنشاد الضّوال وإرشاد السّوال في لحن العامة"، وهو كتاب مفيد. وكتاب "قوت المقيم". وأرجوزة في الفرائض[3]. وبغية المستطرف موضوع هذه الدراسة. وله ديوان شعر أورد بعضه ابن الخطيب في الإحاطة.

وهذه الثقافة الواسعة وتلك الصفات المحببة في شخصية ابن هانئ كسبت له تقدّما في مدينة سبتة، ولهذا نجده يشارك في حياتها السياسية عندما ذهب في الوفد إلى غرناطة ليقرّر تبعية سبتة لبني الأحمر سنة 705 هـ/1305م. ذلك أنّ أبا عبد الله محمد الملقب بالمخلوع، ثالث ملوك غرناطة من بني الأحمر الذي كان قد تولى الحكم سنة 701 هـ/1301م بعد وفاة والده محمد الفقيه، عرض له أن يعدل عن محالفة السلطان المريني أبي يعقوب ويعود إلى محالفة ملك قشتالة. وأوعز إلى ابن عمّه وصهره الرّئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة بتجهيز حملة بحرية على سبتة، فانطلقت الحملة بقيادة عثمان بن أبي العلاء المريني واستولت

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص 143.

(2) المصدر نفسه، ص 143.

(3) ابن حجر، الدّرر الكامنة. القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1966، ج 4، ص 210.

على المدينة في شهر شوال سنة 705 هـ/1305م. وجاء الرئيس أبو سعيد فاستبدّ بأمرها وأعلن انضواءها تحت لواء ابن الأحمر، وقبض على ابن العزفي حاكمها من قبل السلطان المريني وعلى آله وأرسلهم مع وفد سبتة إلى غرناطة فاستقبلهم ابن الأحمر وأجلّ قدومهم وجلس لهم جلوسا فخما حتّى أدّوا بيعتهم وقضوا وفادتهم[1].

وإلى جانب ابن هانئ السبتي يخبرنا ابن الخطيب عن اثنين آخرين كانا في ذلك الوفد، وهما أبو القاسم قاسم بن عبد الله بن محمد الشّاط الأنصاري (643- 723 هـ/1245- 1323م)، نزيل سبتة وأصيل مدينة بلنسية[2]. وأبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري المعروف بابن عبد المنعم صاحب كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار[3].

وعن وفاة ابن هانئ السبتي يقول ابن الخطيب: توفي بجبل الفتح والعدو يحاصره، أصابه حجر المنجنيق في رأسه فذهب به تقبّل الله شهادته ونفعه[4]. ومن المعروف أنّ نصارى قشتالة بقيادة ملكهم فرناندو الرابع كانوا قد انتزعوا جبل الفتح (جبل طارق) من المسلمين في سنة 709 هـ/1309م، فكان لسقوطه وقع عميق في الأندلس والمغرب معا، فقد كان باب الأندلس من الجنوب وصلة الوصل المباشر بين العدوتين. وظل المسلمون يتحينون الفرص لاسترداد هذا الثغر المنيع، وبعث ملك غرناطة السلطان محمد بن إسماعيل إلى سلطان المغرب أبي الحسن المريني مستنجدا فاستجاب لطلبه. وحاصرت القوات الاسلامية المتحالفة جبل طارق برّا وبحرا واستطاعت في النهاية أن تستردّ هذا الثغر وتطرد الحامية النصرانية في أواخر

(1) عن تفاصيل أحداث سبتة وكيف استولى عليها ابن الأحمر وعودتها لطاعة بني مرين سنة 709 هـ/1309م، انظر ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 270 وما بعدها. الناصري، الاستقصاء، ج 3، ص 82.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص 260.

(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 134.

(4) المصدر نفسه، ج 3، ص 152.



عام 733 هـ/1333م[1] تاريخ استشهاد ابن هانئ[2].

إنّ الطريقة التي جُمِعَت بها رسائل ابن عميرة في النسخ المخطوطة التي وصلتنا لم تكن من وضع صاحبها، فهو لم يكن يهتم بجمعها وتدوينها أصلا، مصداق ذلك ما أجاب به مَن سأله بعض رسائله قائلا: "وإنما هي فِقَرٌ ضئيلة حقيرة، تودّ الذمم أنها منها فقيرة، كما أن كل خاطر يتمنى أنها صفرت من نبلها جعابه، أو ظفرت بغير نبتها شعابه، وإنما يرى منهن بنات فكر لا قرّة فيهن لعين الوالد، ولا نظر لهنّ أولى من نظر الرّائد، فإن سألت أو سئلت، بأي ذنب قتلت، قلنا لأنها خبيثة يظهر عليها أفنها، وخطيئة كفارتها دفنها... ولا شيء أولى بالشوهاء من الخدر، أو جهاز طهوره بالماء والسّدر، ومن يرى هذا الرأي فيما يولد بفكره، ويؤلف من فِقَرِه، إن أجاب الخاطب فقد عقّه، وإن منعه فحينئذ أعطاه حقّه، ويعلم الله أن هذا المطلوب ضالة من فنائي ندّت، وبرأيها دوني استبدّت، وقد بعثت في طلبها الرّوّاد، ونفضت عنها البياض والسّواد، فما برقت بها أسرّة طالب، ولا اجتمعت منها درّة حالب، وسأعيد الطلب ما أمكن الوجدان، وإن قالت نافرة عنّي كما تدين تدان، والولي المبارك يقبل اعتذاري، جزاء بما عصيت له اختياري"[3].

واضح من النّص أنّ ابن عميرة كان يرى أنّ هذه الرسائل لا تستحق التدوين والطلب، وشبّه موقفه هذا من بنات فكره بموقف بعض أعراب الجاهلية الذين كانوا يئدون بناتهم. والذي يحكم هذا الحكم على آثاره وبنات أفكاره وينظر إليها هذه النظرة، فلا غرابة أن يمتنع عن تلبية رغبة الطالب، ما دامت ليست كفؤا للخاطب في نظره، ومن ثمّ الاعتذار إلى هذا السيّد الذي كتب إليه يسأله بعض رسائله بخروجها من يده.

وباستثناء إشارة ابن الخطيب، ومن نقل عنه، إلى تدوين ابن هانئ السّبتي لرسائل ابن عميرة في كتابه الذي سمّاه "بغية المستطرف وغنية المتطرف من كلام

(1) انظر أخبار هذا الفتح عند ابن خلدون في العبر، ج 7، ص 302- 303.

(2) وممّن رثاه قاضي الجماعة الشيخ أبو القاسم الحسني، والشيخ القاضي أبو بكر بن شبرين. ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص 153- 154.

(3) انظر الرسالة رقم (7) من هذا الكتاب.

إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرف"، كما سبق أن ذكرنا، فإنّنا لم نقف مع الأسف في المصادر الأخرى على ذكر لهذا الكتاب يساعدنا على تحديد قدره وتعيين مبدئه ومنتهاه، ومنهجية عرضه للرسائل والهدف من جمعها، وكيف تمكّن من ذلك، والمصادر التي تحصل من خلالها على هذه الرسائل، وغيرها من القضايا التي تهتم بها المصادر التي تعنى بفهرسة الكتب. لذلك سوف نعرض للمنهج الذي اتبعه ابن هانئ في هذا الكتاب بالشكل الذي وصلنا.

لم يسلك ابن هانئ في تدوين رسائل ابن عميرة مسلكا واضحا، ولم يلزم نفسه بمنهج محدّد في عرضها، وهذا ما جعلنا نسجّل الملاحظات التالية حول هذه القضية:

**1-** التصرّف في الكثير من الرّسائل بالحذف أو بالاختصار والاكتفاء بفصول منها. وتعتبر الرسالة رقم (146) التي تحمل عنوان "وفادة النفس السّالكة شعاب الرّجاء، إلى الحضرة المالكة رقاب الأعداء" الواردة في بداية السفر الثاني، والتي خدم بها ابن عميرة الأمير الحفصي، أطول رسالة احتفظ بها جامع الرسائل.

**2-** عدم ترتيب الرسائل ترتيبا زمنيا حسب تاريخ كتابتها سيما وأنّ ابن عميرة قد استغرق نشاطه الكتابي وقتا طويلا.

**3-** عدم ترتيب الرسائل حسب الأبواب والموضوعات. فالرّسالة الدّيوانية تليها رسالة إخوانية أو خطبة دينية، ورسالة في الشكر تتبعها رسالة في العزاء، وأخرى في العتاب تأتي بعدها رسالة في التهنئة.

**4-** حذف التواريخ في أغلب الرّسائل والقليل منها هو الذي احتفظ فيه بتاريخ كتابتها.

**5-** التصرّف في كثير من الرّسائل في اسم المكان الذي صدرت منه الرّسالة، واسم الشخص المكتوب إليه، واستبدالهما بكلمة فلانة وفلان. ولسنا ندري أكان هذا التصرّف من جامع الرسائل أم من ناسخها.

**6-** عدم التزام التتابع والتسلسل في إيراد الرّسائل التي كتبها ابن عميرة إلى شخص واحد، فمثلا نجد الرسائل الكثيرة التي كتبها إلى أبي عثمان سعيد صاحب منورقة متفرّقة في ثنايا السّفرين الأول والثاني.



**7-** تكرار بعض الرّسائل أو فصول منها في السّفرين، وهو ما أشار إليه جامع الرّسائل أو ناسخها في موضعين فقط من الكتاب، ولكنّنا قد رصدنا ذلك في أكثر من عشرة نصوص[1]، ولسنا ندري أكان ذلك سهوا أم متعمّدا.

(1) وقد جاءت على النّحو التالي: الرسائل رقم: 24، 51، 113، عبارة عن فصول مكرّرة من الرسائل رقم: 112، 111، 186. والرسائل رقم: 40، 59، 100، 153، 225، مكررة تحت الأرقام: 115، 90، 140، 274، 269. والرسائل رقم: 65، 66، 107، تكررت منها الفصول الواردة تحت الأرقام: 145، 242، 126.

## ثالثاً: رسائل ابن عميرة في المصادر

لقد آلت إلى ابن عميرة رئاسة صناعة الكتابة والترسّل في القرن السابع الهجري/الثالث عشر ميلادي، ونال ترسّله إعجاب الكثيرين من أبناء عصره ومن جاء بعدهم وازداد عدد الرّاغبين فيه، فأقبلوا على نقله وتدوينه في مصادرهم لأنّهم كانوا يقدّرون ما لآثاره الأدبية النثرية والنظمية من قيمة أدبية وتاريخية، ومن تلك المصادر التي اهتمت برسائله:

**1- كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي:**

يعتبر كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، الذي ألفه أبو عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن عبد الملك المراكشي، من أكبر معاجم الأعلام التي ألفها الأندلسيون والمغاربة قديما، ولا يخفى ما له من قيمة تاريخية وعلمية وأدبية لاحتوائه على نصوص نثرية ونظمية في مختلف الأغراض جاءت مبثوثة خلال التراجم، ومن هذه النصوص رسائل أو فصول من رسائل لابن عميرة ناهزت العشرين رسالة.

وهذه الرسائل التي جمعها ابن عبد الملك نجدها متفرّقة في تراجم مجموعة من الأعلام منها ترجمة ابن عميرة التي احتوت على قطعة من رسالة هنّأ بها المستنصر الحفصي بمناسبة جلبه الماء إلى حضرة تونس، وأخرى من رسالة أجاب بها أبا العباس بن أمية حين أخبره بسقوط بلنسية، وفصل من رحلته مع الخليفة الموحدي الرشيد من سلا إلى مراكش[1]، وفصول وعظية على طريقة أبي الفرج بن الجوزي، ومجالس وعظية كان يصنعها للواعظ أبي محمد بن علي ابن أبي خرص[2]، ورسالة في تهنئة أحد ولاة بني عبد المؤمن[3].

(1) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، 1/1، ص 154- 157.

(2) المصدر نفسه، ص 169- 173.

(3) المصدر نفسه، ص 178.





وتضمّنت ترجمة أبي الحسن الرّعيني رسالتين كتبهما إليه ابن عميرة، الأولى التزم فيها حرف النّون[1]، والثانية حين كان قاضيا برباط الفتح والرّعيني بسبتة[2]. وفي ترجمة أبي الحسن علي ابن أبي نصر وردت رسالة أجابه بها ابن عميرة عن إجازته له ولولديه[3]. وكتب إلى أبي الحسن العشبي رقعة ورسالة[4].

أما بقية الرسائل فقد كتبها ابن عميرة إلى الرّحّالة المشرقي نجم الدّين المازندراني وجماعة من الأعلام في شأن هذا الرّحّالة، وهم أبو العلاء بن حسان، وأبو إسحاق المكادي، وأبو زكرياء الفازازي، وأخوه أبو عمران الفازازي، وأبو زكرياء بن مزاحم، وأبو الحسن العشبي[5].

**2- مخطوط لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكتّاب:**

توجد من هذا المخطوط قطعتان، وهو يقع ضمن مجموع مكتبة الأسكوريال رقم 520، وهو لمؤلّف مجهول من أدباء ميورقة وأحد خواص الرّئيس أبي عثمان سعيد بن حكم القرشي حاكم منورقة (ت 680 هـ/1281م). وقد ضمّنه مجموعة من النصوص الشعرية والنثرية لأبي عثمان ورسائله الإخوانية والمخاطبات التي رُفعت إليه من طرف أدباء وشعراء عصره.

وفي هذا المخطوط أكثر من عشر رسائل مما كتب به ابن عميرة إلى صديقه الرّئيس المذكور[6]، الذي كانت تربطه به علاقة متينة، وقد أشاد به كثيرا في رسائله ومدحه نظما ونثرا مقابل خدماته الجليلة والمتعدّدة التي كان يقدّمها لابن عميرة وغيره، سيما أولئك الأندلسيين الذين تعرّضوا لمحنة الجلاء عن أوطانهم على يد النصارى أو الذين وقعوا في الأسر.

**3- السّفر الثالث من كتاب زواهر الفكر وجواهر الفِقر:**

مؤلف هذا الكتاب هو أبو العلاء محمد بن علي بن عبد الرحمن المرادي

(1) المصدر نفسه، 5/1، ص 348- 350.

(2) المصدر نفسه، 5/1، ص 353- 355.

(3) المصدر نفسه، 8/1، ص 161- 162.

(4) المصدر نفسه، 8/1، ص 203- 206.

(5) المصدر نفسه، 8/2، ص 456- 473.

(6) مجهول، مخطوط لباب الألباب، من الورقة 65 إلى الورقة 79.

الشهير بابن المرابط (ت 663 هـ/1264م)، وقد خصّصه لمعاصريه من كتاب وشعراء الأندلس في القرن السّابع الهجري. ويقع هذا الكتاب، الذي حققه حسن محمود افليفل، والمخطوط الذي قبله ضمن مجموع مكتبة الأسكوريال رقم 520 المشار إليه.

يتألف كتاب الزواهر من ثلاثة أسفار لم يصلنا منها سوى السفر الثالث والأخير الذي تعرّض للبتر في عدّة مواضع من وسطه، وهو يحتوي على 40 رسالة إخوانية، منها 28 رسالة لابن عميرة دارت موضوعاتها حول الثناء والمودّة، والوصايا والشفاعة، والعتاب، والوصف، والهجاء، وهي موجّهة لأبي الحسين بن مفوّز، وأبي محمد البونتي، وأبي عبد الله بن الجنان، وأبي الحسن العشبي، وغيرهم. كما احتوى الكتاب على 17 رسالة ديوانية، منها 9 رسائل لابن عميرة كتبها عن نفسه وعن غيره، وممّن كتب لهم وعنهم، ابن هود، وأمير مرسية أبو بكر بن خطاب، وزيان بن مردنيش وغيرهم[1].

4- اختصار القدح المعلى لابن سعيد المغربي:

يحتوي هذا الأصل المختصر، الذي وضعه ابن سعيد المغربي، على 72 ترجمة خصّصها لأدباء وشعراء عصره وطائفة من أخبارهم ونماذج من نثرهم وأشعارهم. وممّا أورده لابن عميرة في ترجمته بعض المقطعات والقصائد الشعرية، ومقتطفات من رسائله.

ومن تلك المقتطفات، قطعة من رسالة كتبها يذكر فيها خروج شعيب بن لبلة بعد طول حصار، وفصل من رسالة يصف فيه عزيز بن خطاب الثائر بمرسية، وآخر كتبه من سلا إلى أبي محمد العراقي، ورسالة إلى صديق له من أهل شاطبة بعد سقوط بلنسية، وغيرها[2].

(1) ابن المرابط محمد بن علي المرادي، زواهر الفكر وجواهر الفقر، تحقيق حسن محمود فليفل. الرياض: مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1997، القسم الثاني، ص 164- 244.

(2) ابن سعيد المغربي، اختصار القدح، ص 42- 52.



5- عنوان الدراية لأبي العبّاس الغبريني:

أورد أبو العباس أحمد الغبريني (ت سنة 704 هـ/1304م)، الذي عاش في القرن السابع الهجري، في كتابه عنوان الدراية 149 ترجمة للبجائيين وأهل المغرب الأوسط ومن يتصل بهم وهم الغالبية، والأندلسيين المهاجرين إلى بجاية ونواحيها، والغرباء الوافدين عليها من المشرق وعددهم قليل.

وأثناء ترجمته لابن عميرة علّق على رسائله قائلا: "والنّاس يتداولون كتبه -رسائله- ويستحسنونه ويؤثرونه على كتب غيره ويفضلونه، وما رأيت من الكتّاب ما أعجبني مثل كتب الفقيه أبي المطرّف إلا كتب أبي جعفر بن عطية والكتّاب كثير، وكتب هذين الرجلين عندي مقدّم على غيرهما"[1]. ولكنّه لم يثبت منها في كتابه إلا رسالتين، أمّا الرّسالة الأولى فقد كتبها ابن عميرة عن المستنصر الحفصي يستدعي ابن الأبّار من بجاية سنة 657 هـ/1258م، وأمّا الثانية فقد كتبها إلى أبي بكر بن خطاب يوصيه فيها برجل نبيه من أهل بلنسية[2].

6- رحلة التجاني:

لصاحبها أبي محمد عبد الله بن محمد التجاني، وقد قام بهذه الرّحلة في افريقية وطرابلس من سنة 706 هـ/1306م إلى سنة 708هـ/1308م. وأثناء حديثه عن مدينة قابس استشهد بفصلين من رسالتين كتبهما ابن عميرة في وصف هذه المدينة أيام كان قاضيا بها من قبل المستنصر الحفصي، جاء الأول في وصف غابتها، والثاني في وصف شدّة الوباء بها[3].

7- الرّوض المعطار في خبر الأقطار:

مؤلف هذا المعجم الجغرافي هو أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري من أهل سبتة، وقد أورد لابن عميرة في مادة بلنسية مقتطفات من أربع رسائل كتبها بمناسبة سقوط هذه المدينة، ذكر اسم المكتوب إليه في

(1) الغبريني أبو العبّاس، عنوان الدراية، ص 251.

(2) المصدر نفسه، ص 251- 252.

(3) التجاني أبو عبد الله، رحلة التجاني. تونس: المطبعة الرّسمية، 1958، ص 90- 91.

الرسالة الأولى وهو ابن الأبّار، وأهمل ذكر الأسماء الأخرى[1].

**8- صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي:**

لم تقتصر شهرة رسائل ابن عميرة على الغرب الإسلامي بل وصلت إلى المشرق وتداولها الناس هناك، فهذا أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت821 هـ/ 1418م) صاحب موسوعة صبح الأعشى نجده يستشهد بها في معرض حديثه عن الأساليب الكتابية في المغرب والأندلس، وبلغ عدد الرسائل التي استدل بها أكثر من عشر رسائل ديوانية وإخوانية جاءت موزعة في أجزاء الكتاب.

ففي الجزء السادس أورد الرّسالة التي كتبها ابن عميرة عن صاحب أرغون من الأندلس إلى الخليفة الموحدي المستنصر[2]. وفي الجزء السابع أورد خمس رسائل كتبها عن ابن هود في البشارة بفتح حصن، وإلى المذكور عن بعض أتباعه عند ورود كتابه بفتح حصن، وإلى ابن هود أيضا عن نفسه يهنّئه بوصول هديّة الخليفة العباسي، وعن بعض الملوك، وعن أبي جميل زيان إلى ملك قشتالة[3].

أمّا الرسائل الواردة في الجزء الثامن فهي أربع رسائل إخوانية موجهة إلى بعض الفقهاء والعلماء، وواحدة ديوانية كتبها عن الأمير أبي جميل زيان إلى أبي زكرياء الحفصي، بالإضافة إلى افتتاحيتين[4]. واحتوى الجزء التاسع على بيعة أهل شاطبة لابن هود[5]، والجزء العاشر على ظهير بولاية وزارة[6].

**9- نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب:**

أورد أبو العبّاس أحمد المقّري في هذه الموسوعة الأدبية والتاريخية عشرا من رسائل ابن عميرة في مختلف الأغراض. أمّا الوارد منها في الجزء الأول فهي

(1) الحميري أبو عبد الله، الرّوض المعطار، تحقيق إحسان عبّاس. بيروت: مكتبة لبنان، 1984، ص 98- 99.
(2) القلقشندي، صبح الأعشى. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ج 6، 534- 535.
(3) المصدر نفسه، ج 7، ص 37- 38، و94- 98، و98- 99، و110- 111، و116- 117.
(4) المصدر نفسه، ج 8، ص 149- 156.
(5) المصدر نفسه، ج 9، ص 301- 308.
(6) المصدر نفسه، ج 10، ص 306.



التي كتبها إلى أبي جعفر بن أميّة بعد سقوط بلنسية، ورسالة ديوانية عن نفسه إلى الأمير الحفصي، وفصل من رسالة لبعض ذوي الألباب، ورسالة إلى أبي الحسن الرّعيني، وأخرى إخوانية أشار فيها إلى النصارى الغالبين على الأندلس، وسادسة كتبها عن أهل شاطبة، أيام كان قاضيا بها، مهنّئا ابن هود المستولي على الأندلس[1].

كما أورد له في الجزء الثالث رسالتين كتبهما إلى أبي العلاء حسان وأبي الحسن العشبي في شأن الرحالة المشرقي نجم الدّين المازندراني[2]، وفي الجزء الرابع الرّسالة التي خاطب به ابن الأبّار يذكر له سقوط بلنسية[3].

**10- مصادر أخرى:**

وهناك من المصادر من اكتفى أصحابها بإيراد رسالة واحدة لابن عميرة أو فصل من رسالة، منها ابن عذاري في البيان المغرب الذي أثبت له نصّ البيعة التي كتبها إلى أبي زكرياء الحفصي عن أهل مكناسة[4]، وفي شرح مقصورة حازم للشريف الغرناطي نجد فصلا من رسالة ابن عميرة الموسومة بوفادة النفس التي خدم بها أبا زكرياء الحفصي[5]، كما أورد له ابن الخطيب في الإحاطة جزءا من رسالته التي كتبها إلى ابن أميّة في سقوط بلنسية[6].

هذه هي رسائل ابن عميرة التي وجدناها متفرّقة في المصادر المخطوطة والمطبوعة، وممّا يجدر التنبيه إليه أنّ الرّسائل المذكورة لم ترد كلّها في النّسخ المعتمدة في التحقيق ولكن قسما منها فقط هو الذي يتوافق مع هذه النسخ ممّا يدلّ على أنّ هناك رسائل كثيرة لم تدوّن من ترسيل ابن عميرة.

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 305- 321.
(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 145- 147.
(3) المصدر نفسه، ج 4، ص 490- 496.
(4) ابن عذاري، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص 373- 376.
(5) الشريف السبتي أبو القاسم محمد، رفع الحجب المستورة. القاهرة: مطبعة السعادة، 1344 هـ ج 2، ص 155.
(6) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 64.

## رابعا: مادّة الكتاب

يحتوي الكتاب على (278) رسالة، وردت منها (145) رسالة في السّفر الأول، و(133) رسالة في السّفر الثاني موزّعة على الأبواب التالية:

- الرسائل الدّيوانية وعددها (53) رسالة.
- الرسائل الإخوانية وعددها (216) رسالة.
- الخطب والمواعظ وعددها (8) رسائل.
- الألغاز (رسالة واحدة تحتوي على ستة ألغاز).

## أ- الرسائل الدّيوانية

### 1- الرسائل الدّيوانية الأندلسية:

عرفنا من خلال تقديمنا لحياة ابن عميرة أنّه قضى شطرا كبيرا من حياته في ممارسة وظيفتي القضاء والكتابة الدّيوانية متنقلا بين المدن والحواضر الأندلسية والمغربية. فكتب عن الوالي الموحدي السيّد أبي زيد عبد الرحمن والأمير زيان بن مردنيش والأمير ابن هود وابن خطاب بالأندلس، ثم في بلاط الموحدين بمراكش، لينتهي به المطاف إلى دولة الحفصيين بتونس. وقد بقي لنا من رسائله الدّيوانية عدد كبير، منها ما احتوى عليه هذا الكتاب، ومنها ما ورد في المصادر الأخرى التي تقدّمت الإشارة إليها.

إنّ الرسائل الديوانية الواردة في الكتاب متنوّعة، فمنها ما كتبه عمّن خدمهم من ولّاة وأمراء وملوك عصره وعددها (11) رسالة[1]. ونوع آخر من الرسائل كتبه إلى ملوك وأمراء ووزراء في مناسبات رسمية وعددها (30) رسالة[2]. وهناك نوع

(1) انظر الرسائل ذات الأرقام: 6، 12، 68، 101، 107، 116، 126، 151، 152، 158، 179.

(2) انظر الرسائل ذات الأرقام: 43، 66، 91، 97، 102، 103، 133، 139، 146، 147، 149، 150، 155، 156، 157، 160، 161، 162، 165، 172، 178، 180، 187، 203، 219، 220، 233، 250، 253، 265.





ثالث من الإنشاء البياني برز فيه ابن عميرة وهو البيعات ومنها (5) رسائل[1]، والنوع الأخير هو العهود والظهائر وعددها (7) رسائل[2].

أمّا عن نشاط ابن عميرة الدّيواني المتعلق بالأندلس فقد ارتبط بظروف وأحوال سياسية وتاريخية مضطربة عرفتها نهاية الموحدين وما نجم عنها من أحداث. فمن المعلوم أنه في منتصف شهر صفر سنة 609هـ/جويلية 1212م قد حلت بالمسلمين في الأندلس نكبة مروّعة وهزيمة كبيرة في معركة العقاب على يد قوات الممالك الإسبانية المسيحية وحلفائها من أهل الصليب الذين حشدتهم البابوية. وكانت خسائرهم فادحة جدا، وهلك معظم الجيش الموحدي، ولم ينج الخليفة الموحدي الناصر مع عدد قليل من حرسه إلا بأعجوبة. وخلفت هذه الهزيمة في النفوس آثارا لا تمحى، واستقرّ في معظمها شعور بأن الأمر قد ضاع ولا سبيل إلى تلافيه. وفي أيام المستنصر خامس الخلفاء الموحدين (610- 620هـ/ 1213-1223م) تلاشت بقية الأمل في الموحدين، فقد نجم لهم بنو مرين وبدأوا معهم صراع المصير في المغرب، وكان عليهم أن يتجرّعوا الكأس نفسها التي جرّعوها للمرابطين من قبل[3].

ولم يعودوا بيتا متحدا تجمعه رابطة واحدة ولكنهم تحولوا إلى أمراء وأشياخ استأثر كل منهم بقاعدة من قواعد الملك الموحدي أو بوظيفة من وظائفه الرئيسية، وظهرت آفة الصراع والتطاحن على عرش الخلافة الموحدية، وأصبح كل واحد منهم يمني نفسه به ويتمنى في ذات الوقت فساد الأمر على من تولاه. فبعد الخليفة المستنصر قام بالأمر أبو محمد عبد الواحد ولكن سرعان ما خرج عليه الخليفة العادل وبويع بالخلافة، ثم قام أبو العلى إدريس المأمون بالأندلس وخرج على أخيه العادل أيضا وكان ذلك ما بين (620-624هـ/1223-1226م).

إن انتشار الخلافة الموحدية وتصدّع أركانها كان له أبلغ الأثر في العدوة الأندلسية التي أصبحت مكشوفة للعدو ولا يدفع عنها أحد. وأخذ

(1) انظر الرسائل ذات الأرقام: 1، 9، 11، 14، 148.

(2) انظر الرسائل ذات الأرقام: 98، 119، 143، 224، 275، 276، 277.

(3) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، ص: 22.

ذلك الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية حول مصير الأندلس يتحدّد بصورة حاسمة، إذ سار التقدم النصراني في ذلك الوقت ابتداء من العقد الثالث من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي في ثلاث مناطق: الأولى وجهتها غرب الأندلس ويسيطر على مصيرها ملك ليون ألفونسو التاسع، والثانية وجهتها وسط الأندلس ويسيطر على مصيرها ملك قشتالة فرناندو الثالث بينما اختص ملك قطلونية وأرغون بمصير الوجهة الثالثة وهي شرق الأندلس. ورغم ما كان يسود هذه الممالك من خلاف وما يقع بينها من حروب إلا أنها كانت تنبذ ذلك وتقف صفا واحدا إذا تعلق الأمر بحرب مع المسلمين.

وفي تلك الآونة التي انشغل فيها البلاط الموحدي بالمغرب بخلافاته وحروبه الأهلية، وتخاذل السادة والحكام الموحدين عن تأدية واجبهم الأول في شبه الجزيرة الأندلسية التي سرى إليها دبيب التفكك، وتطلعت اسبانيا النصرانية إلى السيطرة على ذلك التراث المنهار، اهتزت الأندلس لهذه الأحداث والتطورات الخطيرة واضطرمت فيها سلسلة جديدة من الثورات القومية على غرار ما حدث في أواخر العهد المرابطي، فظهر عهد أمراء الطوائف للمرّة الثالثة.

وكان أهل شرق الأندلس، الذين اشتهروا بنزعتهم الانفصالية في تاريخ الأندلس منذ الخلافة الأموية، أول من جاهر بالخروج على الموحدين والثورة ضدهم. فظهر بينهم زعيم من بيت عريق في الزعامة والرياسة وهو الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي سليل بني هود ملوك سرقسطة أيام الطوائف الأولى، وكان ظهوره في مدينة مرسية حيث اتخذها قاعدة لإمارته التي استمرت من سنة 625هـ/1227م إلى سنة 635هـ1237م. وقد رأى فيه الأندلسيون يومئذ الرجل الذي كانوا ينتظرونه لجمع كلمتهم والدفاع عن بيضتهم، مصداق ذلك شعر من مدحه من الشعراء كابن مرج الكحل وغيره. وجاء عنه في أعمال الأعلام أنه "كان شجاعا، كريما حييّا وفيا، متوكّلا عليه، سليم الصدر، قليل المبالاة بالأمور، محدودا لم ينصر به جيش، ولا وفق له رأي لغلبة الخفة عليه واستعجاله الحركات



ونشاطه إلى لقاء الأعداء من غير كمال واستعداد"[1]. ولعل استخفاف ابن هود بالأمور واستعجاله في لقاء العدو هو الذي دفع ابن سعيد إلى الحكم عليه بأنه "كان عاميا جاهلا، مشؤوما على الأندلس، كأنما كان عقوبة لأهلها، فيه زويت محاسنها وطوي بساطها، ونثر سلكها"[2].

ويضيف ابن الخطيب أن ابن هود ملك مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وغيرها، بحال اجتماع وافتراق، وانتزاء من أهلها عليه وشقاق. وتلقب بالألقاب السلطانية كأمير المسلمين والمتوكل على الله ومعز الدين، ودعا للخلافة العباسية استرضاء للعامة، فبعث إليه الخليفة العباسي بالخلع والمراسيم وسماه مجاهد الدين[3].

وكان ابن هود حين شعر بقوة جمعه وأتباعه في أول أمره زحف على مدينة مرسية وطرد أميرها الموحدي الذي كان يدّعيها لنفسه وهو السيد أبو العباس ابن أبي عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن وذلك في شهر رجب سنة 625هـ/ 1227م. وعلى إثر ذلك خرج إلى لقائه والي بلنسية السيد أبو زيد عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن فهزمه ابن هود واستولى على محلته ولكنه لم يحاول دخول بلنسية وعاد إلى مرسية. ولما ازدادت قوته وكثر أتباعه جدّ في محاربة الموحدين وأعلن انه سوف يحرر الأندلس من سلطانهم.

وقد أجمل ابن عذاري محاربة ابن هود للموحدين في الأندلس ومطاردته إياهم في النص التالي: "وأول من طاع لابن هود من بلاد الأندلس أهل مرسية فخرج إليه المأمون في سنة 625هـ/1227م فقابله وقاتله فوقعت الهزيمة على ابن هود، وبعد انصراف المأمون عنه إلى إشبيلية قام بدعوته ابن الرّميمي بمدينة المرية ثم طاعت له غرناطة ومالقة فضعف المأمون عن مصادمته لما كان قد أهمّه من أمر الموحدين بمراكش. فلما استقر المأمون بمراكش واشتغل فيها بما اشتغل، اتقدَتْ

(1) ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال. بيروت: دار المكشوف، 1956، ج 2، ص 278.

(2) ابن سعيد المغربي، المغرب، ج 2، ص: 251.

(3) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 277 وما بعدها.

نار الفتنة بالأندلس واشتعلت، وطاعت لابن هود أكثر بلادها ورؤسائها وأنجادها وخلعوا طاعة الموحدين عنها، وقتلوهم في كل بلد منه، وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم"[1].

وإلى جوار ابن هود ثار أمير آخر هو أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن الرّئيس أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش، من بيت بني مردنيش الشهير الذي كان بشرق الأندلس قبل دخول الموحدين الذين حفظوا لأفراده بعد ذلك مكانتهم واعتمدوا عليهم. وقد ثار زيان على الوالي الموحدي السيد أبي زيد عبد الرحمن بن محمد الموحدي أمير بلنسية واضطره إلى اللّجوء إلى صاحب أرغون. وحكم إمارة بلنسية عشر سنوات، من سنة 626هـ/1228م إلى سنة 636هـ/ 1238م، وفيها تغلّب عليه خايمي الأول ملك أرغون، فخرج منها وظل يتقلب بعد ذلك بين شقر ودانية، ثم تغلب على عزيز بن خطاب في مرسية فحكمها مدّة باسم الحفصيين، ثم أخرجه منها بهاء الدولة ابن هود، وانتقل أخيرا إلى تونس حيث أصبح من رجال دولة المستنصر الحفصي[2].

ومن أمراء الطوائف في شرق الأندلس أثناء هذه الفترة أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب وهو من بيت جليل وأسرة نبيلة في مرسية. كان من الشخصيات العلمية البارزة في هذا العصر، واشتهر بالتديّن والنسك والبرّ والتقوى وكثرة الخشوع، حتى صار في دولة ابن هود شيخ مرسية وصاحب الحل والعقد فيها. ولمّا مات ابن هود تأمّر بمرسية وجهاتها وتولّى أمور الحكم في ظروف صعبة، إذ لم يقم بالأمر حتى قعد لأنّ ولايته لم تتجاوز بضعة أشهر، حيث بويع بالإمارة في الرّابع من شهر محرّم سنة 636هـ/1238م، ثم ثار عليه زيّان بن مردنيش وقتله في 18 رمضان من السنة نفسها[3].

أمّا أمراء الطوائف الآخرين في هذه الحقبة فمنهم بنو عيسى الخزرجيون في

(1) ابن عذاري المصدر السابق، ص 288.

(2) ابن الأبّار، الحلة السّيراء، ج 2، ص 127. ابن الخطيب، أعمال الأعلام. ص 272 وما بعدها.

(3) ابن الأبّار، الحلّة السيراء، ج 2، ص 308. ابن سعيد، اختصار القدح، ص 146. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 274.



شاطبة، وبنو عصام في أوريولة، وابن أحلى في لورقة وغيرهم. وقد كانت نهاية إمارات الطوائف الثالثة على يد المسيحيين ولم يبق منها إلّا دولة بني نصر التي استمرّت بعد ذلك في غرناطة.

وإذا كان هؤلاء الأمراء قد جمعتهم غاية تحرير الأندلس من الموحدين والتصدي للعدوان الصليبي، فإنّ تلك الثورات والحركات التي قادوها كثيرا ما كان يسودها التنافس والخصام والفتن مثل ما حدث بين إمارتي ابن هود وابن مردنيش بسبب النزاع الذي قام بينهما حول الحدود. ولم تفلح الوساطات بينهما والدّعوات إلى تجنّب الصّدام وتوحيد الكلمة لمواجهة العدو النصراني كتلك التي قام بها أبو بكر عزيز بن خطاب حين كتب رسالة في هذا الشأن إلى الخطيب أبي عبد الله بن قاسم يشير عليه فيها بأن يندب ابن مردنيش للدّخول في طاعة ابن هود ممثل العباسيين[1].

ومن رسائل ابن عميرة الدّيوانية التي خدم بها هؤلاء الأمراء في الأندلس أثناء هذه الحقبة المضطربة، الرّسالة التي كتبها عن والي بلنسية السيد أبي زيد عبد الرحمن إلى الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف المستنصر سنة 620هـ/1223م في موضوع لاجئ من زعماء مملكة أرغون وهو أبلاشكة آرطال[2]، ( Don Artal de Alagon وBlasco de Alagon) كما تسمّيه الرّواية الاسبانية. وكان هذا النبيل وصيا على الملك خايمي الأول ثم أصبح من المقرّبين إليه في مملكته، بيد أنّ العلاقة ساءت بينهما وتحولت إلى خصومة، فلجأ إلى بلنسية عند واليها الذي كان قبل السيد أبي زيد وعبّر له عن عزمه ورغبته في اللجوء إلى مراكش، وطلب منه أن يستأذن له الخليفة في ذلك.

ولمّا عاد إلى بلده وأعدّ العدّة لسفره ورجع إلى بلنسية بنيّة الرّحيل إلى مراكش، صادف حلول الوالي الجديد أبي زيد الذي كتب في شأنه هذه الرّسالة إلى الخليفة المستنصر، وقد قضى سنتين بين المسلمين في ظل هذا الوالي، أي ما بين

(1) انظر نص هذه الرسالة عند ابن المرابط في زواهر الفكر وجواهر الفقر، ص 63-70.

(2) انظر هذه الرّسالة تحت رقم: 101 من هذا الكتاب.

620- 623 هـ/1223- 1226 م، وخدم الموحدين، ثم عاد إلى بلاده أرغون وعفا عنه الملك خايمي. ورغم مكانة هذا النبيل الأرغوني وما له من تأثير في بلاده (كلّ في حبله حاطب كما تقول الرسالة)، وأهمية الخدمة التي عرضها على الموحدين ضد النصارى، إلّا أنهم لم يحسنوا استغلالها لصالحهم، سيما وأنّ الأجواء السياسية كانت لا تزال غير مستقرّة في مملكتي قشتالة وأرغون. ولم يكن بمقدور الخليفة المستنصر فعل ذلك وهو الذي أخلد إلى الراحة واللهو وآثر طوال مدّة حكمه سياسة الهدنة والسّلم مع النصارى في الأندلس.

وممّا يتعلق برسم هذه الرسالة فهي مفتتحة بلفظ الحضرة كناية عن الخليفة، ويلي ذلك ألقاب الخليفة واسمه ثمّ الدّعاء له والتعبير فيها عن المكتوب عنه بلفظ العبد، واستعمال ميم الجمع في مخاطبة الخليفة للتعظيم، وبعد أن أتى على المقصد ختمها بلفظ السلام، وهي من الرسائل التي استشهد بها القلقشندي في رسوم التعبير عن الخليفة بلفظ الحضرة[1].

واحتفظ لنا الكتاب بأربع رسائل ممّا كتبه ابن عميرة عن زيان بن مردنيش، أولاها كتبها عنه أثناء إمارته على بلنسية، وهي موّجهة من طرف الأمير المذكور إلى أهل بلنسية سنة 628 هـ/1230م في البشرى بفتح حصن قلبيرة[2]، وقد جاءت مختصرة وخالية من الاحتفال بالألقاب. وفي الفترة التي حكم فيها ابن مردنيش إمارة مرسية كتب عنه ابن عميرة الرسالة التي وجّهها إلى والي بجاية الأمير أبي يحيى بن أبي زكرياء الحفصي يعلمه فيها بسفارة الشيخ أبي عبد الله بن الرئيس أبي الحرث الذي كان يحمل بيعة أهل مرسية وشرق الأندلس إلى أبي زكرياء الحفصي[3]. والثالثة موجّهة إلى الأمير أبي زكرياء المذكور ويخبره فيها بانتظام الدّعوة له في شرق الأندلس[4]. والرّابعة موجّهة إليه أيضا ويشير فيها إلى الرّسالة

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 6، ص 534.
(2) هي الرسالة ذات الرقم: 179.
(3) الرسالة رقم: 12.
(4) انظر الرسالة رقم: 151.



السابقة ويخبره بانقياد حصون شاطبة وإذعان قائدها[1]. والرّسالتان الأخيرتان مفتتحتان بعبارة الحضرة العلية ونعوتها وألقابها ثم عبارات التحميد والتصلية والترضية عن الإمام المهدي وخلفائه، وبعد ذلك المقصد والدعاء والتعبير فيها عن المكتوب عنه بلفظ العبد.

ومن هذه الرسائل واحدة كتبها ابن عميرة إلى ابن هود عن بعض أتباعه من شاطبة سنة 632 هـ/1234م، يهنّئه بفتح مدينة لبلة وقتل الثائر بها[2]. واسم هذا الثائر محمد بن شعيب بن محفوظ الذي كان من أعيان اشبيلية وفرّ منها إلى لبلة فاعتصم بها وتسمّى بالمعتصم، وذلك عندما غدر ابن الأحمر بزعيمها المتآمر بها ابن الباجي. وهي مفتتحة بلفظ الحضرة ووصفها والدّعاء لها، ثم التخلص إلى المقصد فالختم بحمد الله الذي نصر الراية العباسية والدعاء للمقام العلي المتوكلي، مع متانة في الأسلوب ودقة في الوصف.

وهناك رسالة كتبها عن أبي بكر عزيز بن خطاب لما كان واليا على مرسية من قبل ابن هود، وهي موجّهة إلى العالم البلنسي الشيخ أبي الحسن علي بن شلبون[3]، جوابا على رسالة له يقرّز فيها ولاءه وتعلّقه به. وفي هذا الجواب نجده يترضّى عن الخليفة العبّاسي ما قبل الأخير في بغداد وهو أبو جعفر منصور الملقب بالمستنصر.

أمّا الرسائل التي كتبها ابن عميرة عن نفسه إلى أمراء عصره في الأندلس فمنها أربع رسائل موجّهة إلى ابن هود، أولاها كتبها إليه في الشّكر والثناء، أيام كان قاضيا بشاطبة في حدود سنة 631هـ/1233م، جوابا على رسالته التي نوّه فيها بدوره في تنظيم البيعة[4]. والثانية كتبها إليه في السنة نفسها باسم سكان شاطبة يهنّئه بوصول التقليد العبّاسي[5]. والثالثة في التهنئة بشهر رمضان[6]. والرّابعة رفعها إليه

(1) انظر الرسالة رقم: 152.
(2) انظر الرسالة رقم: 149.
(3) هي الرسالة ذات الرقم: 158.
(4) انظر الرسالة رقم: 103.
(5) راجع الرسالة رقم: 139.
(6) انظر الرسالة رقم: 150.

إثر مهمّة تفتيشية قادته إلى التحقيق في الشكوى التي قدّمها أهل الحمّة ضد واليهم سنة 634 هـ/1236م[1]. ونجده في هذه الرسائل أقلّ احتفالا بالألقاب ومظاهر الفخامة من التي كتبها إلى الموحدين أو الحفصيين مع التفنن في رسومها حسب مقتضى المقام والحال.

وكتب إلى أبي بكر عزيز بن خطاب رسالتين، واحدة في الشفاعة[2]، والأخرى في التوصية برجل ساءت أحواله[3]. وهما مفتتحتان بلفظ المحل الأعلى لقب المكتوب إليه، ولم نعرف ما إذا كان كتبهما إليه أيام تولّيه مرسية لابن هود أو أيام استقلاله بها. وله رسالة في التهنئة بالخروج من أسر الرّوم إلى الأمير بهاء الدّولة محمد بن محمد بن هود عمّ المتوكل ابن هود[4]. ورسالة إلى الأمير زيان بن مردنيش في الثناء والشكر[5].

أمّا البيعات وهي نوع آخر من آثار ابن عميرة الدّيوانية فمنها رسالتان ممّا كتبه في الأندلس. البيعة الأولى كتبها عن أهل جزيرة شقر وجهاتها إلى الأمير ابن هود بولاية العهد لابنه الأمير أبي بكر الواثق في يوم الخميس الرّابع من شهر ربيع الآخر سنة 629 هـ/ 29 يناير 1232 م[6]. وهي مفتتحة بالحمدلة والتصلية على رسول الله والترضية عن صحابته وسرد نبذ من سيرهم، مع الإشارة إلى اغتصاب الأمويين للخلافة ورجوعها إلى مستحقيها من بني العباس الذين أصبح ابن هود يحكم باسمهم، والإطناب في ذكر أوصاف هذا الأمير (ابن هود) الذي جدّد رسوم الخلافة العبّاسية بالأندلس والقيام بدعوة الخليفة المستنصر العبّاسي. ثم الانتقال بعد ذلك إلى شرح الباعث على هذه البيعة، وأنّ خبرها لمّا انتهى إلى الرّئيس أبي عبد الله ابن الرّئيس أبي سلطان ومن قِبَله من جزيرة شقر وجهاتها من الأعيان

(1) راجع الرسالة رقم: 165.
(2) انظر الرسالة رقم: 102.
(3) انظر الرسالة رقم: 178.
(4) انظر الرسالة رقم: 97.
(5) راجع الرسالة رقم: 219.
(6) انظر الرسالة رقم: 14.



والوجوه والقواد والأجناد والكافة قرّروا أن يدخلوا فيما دخل الجمهور، ثم يختتم هذه البيعة بعبارات الدّعاء.

والبيعة الثانية كتبها لأستاذه وصديقه أبي بكر عزيز بن خطاب حين دعا لنفسه بمدينة مرسية وجهاتها في الرابع من شهر محرّم سنة 636 هـ/1238م[1]. وهي كسابقتها مفتتحة بالتحميد والتصلية، ثم ذكر الباعث على هذه البيعة وهو أنّ أصحاب الحلّ والعقد من أهل مرسية وجهاتها بعد تدارسهم وتذاكرهم في شأن بيعة الأمير الواثق ابن هود التي كانت في أعناقهم وخروجه عن شروطها، اختاروا لتقلّد أمورهم والقيام بمصالح خاصتهم وجمهورهم الأمير عزيز بن خطاب الذي احتفل في وصفه بالألقاب المختلفة وذكر موافقته على اختيار الجماعة له وسرور الناس بذلك، وختمها بألفاظ البيعة والدّعاء.

أمّا النوع الرّابع والأخير من آثار ابن عميرة الدّيوانية وهو الظهائر والعهود فإنّ الذي ورد منها في الكتاب ليس فيه ما يدلّ على أنّها أندلسية بسبب تصرّف جامع الرسائل أو ناسخها في حذف أسماء الأشخاص المكتوب عنهم والذين كتبت لهم وأماكن التعيين.

### 2- الرّسائل الدّيوانية المغربية:

عندما انتقل ابن عميرة من العدوة الأندلسية إلى المغرب الأقصى سنة 637 هـ/1239م كان على رأس الدولة الموحدية يومئذ الخليفة عبد الواحد الرّشيد الذي صحبه في رحلته من الرباط إلى مراكش في السنة نفسها. وكانت معظم أيام هذا الخليفة فتن وأهوال لأنه ورث منذ سنة 630 هـ/1232م حكما مضطربا تصدّعت جبهته الدّاخلية مع بداية سنة 620هـ/1223م تاريخ وفاة الخليفة المستنصر، وهو التصدّع الذي مهّدت له تداعيات هزيمة العقاب والتنافس الخفي الذي كان قائما بين السادة والأشياخ الموحدين[2].

(1) انظر الرسالة رقم: 11.
(2) وقد انكشف هذا التنافس بموت الخليفة المستنصر الذي كان أول ضحاياه، فإلى جانب الرواية المتداولة بين المؤرخين والقائلة بأنّ موت هذا الخليفة كانت بسبب بقرة نطحته، =

وبالرّغم من كل الجهود التي بذلها هذا الخليفة بقصد الإصلاح واستعادة هيبة الموحدين إلا أنّ الأحوال كانت تسير إلى الاختلال والاضمحلال وانكمشت حدود الدولة الموحدية في منطقة محدودة. فقد ضاعت الأندلس من أيديهم، واستبدّ بنو حفص بإفريقية، واستقل يغمراسن بن زيان من بني عبد الواد بتلمسان وما إليها من المغرب الأوسط، وتغلب بنو مرين على القسم الشرقي من المغرب الأقصى وخاضوا معهم حرب المصير، كما أطلّت فتن القبائل العربية من معقل وسفيان والخلط برأسها في سهول المغرب.

وبعد موت الخليفة الرّشيد سنة 640هـ/1242م ازدادت الأحوال سوءا حيث أعلنت كثير من مدن المغرب الأقصى كسجلماسة ومكناسة وسبتة وطنجة تبعيتها للحفصيين، وقد حاول أخوه الخليفة السعيد أن يعيد إلى الدولة شيئا من قوتها ويلمّ شتاتها فنهض في حركته إلى الجهات الشرقية لمواجهة بني مرين ويغمراسن صاحب تلمسان ثم الحفصيين في افريقية، ولكن محاولاته باءت بالفشل وانتهت بقتله على يد الأمير الزياني يغمراسن بن زيان يوم الثلاثاء منسلخ شهر صفر سنة 646هـ/1248م[1]، وهي السنة التي غادر فيها ابن عميرة المغرب متجها إلى افريقية.

تقدّمت الإشارة إلى أنّ ابن عميرة اتصل بالخليفة الموحدي الرّشيد في مدينة الرّباط وصحبه في عودته إلى حاضرة مملكته مراكش، وقد تضمنت إحدى رسائله[2] وصفا مطولا لهذه الرّحلة وكيف انتهت إلى قصر الخليفة. ويبدو أنّ ابن عميرة قد دوّن هذه الرحلة مع رسالة أخرى التزم في جميع كلماتها حرف الرّاء[3]، ورفعهما للخليفة الرّشيد ليبرهن له على طول باعه في الكتابة والإنشاء. ولا شك أنّ هذا الخليفة قد أعجب ببلاغته فاتخذه كاتبا في البلاط الموحدي مدّة يسيرة ثم

---

= هناك رواية أخرى ذكرها ابن عبد الملك، والزركشي نقلا عن ابن خلدون، تقول إنّه مات مسموما وذلك بتدبير من أعيان دولته. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، 1/8، ص 179. الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 20. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 319.

(1) ابن عذاري، البيان (قسم الموحدين)، ص 387.

(2) انظر الرّسالة رقم: 65.

(3) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الأول، ص 176.



صرفه إلى قضاء هيلانة.

وممّا كتبه ابن عميرة عن الخليفة الرّشيد خلال هذا الزمن اليسير في بلاط مراكش، الظهير[1] الذي أنعم به هذا الخليفة في 21 شعبان سنة 637هـ/1239م، بعد مساعي ذي الوزارتين أبي علي بن خلاص، على أهل شرق الأندلس الذين لجأوا إلى المغرب بعد سقوط بلدانهم في يد النصارى، وهو يخولهم بموجبه سكنى مدينة رباط الفتح وتعميرها. ويبدو أنّ الأملاك الممنوحة لهؤلاء المستوطنين الأندلسيين كانت ملكا للسلطة الموحدية، فقد جاء عن هذه الأراضي المحيطة بقصبة الرّباط في المن بالإمامة ما يلي: "وما حواليها أرض محرث براح ومسرح، متملك للمخزن ولأهل سلا ولابن وجاد من أهل اشبيلية، فاشتراه الخلفاء من أربابه وخلص لهم"[2].

وإلى جانب ما أعطاه الظهير لهؤلاء المستوطنين من كامل الحقوق في التوسع في الحرث والتبسّط في مختلف وجوه المعاش والتملّك للأراضي فقد أعفاهم من دفع مستلزمات الخراج. ويعتبر هذا الظهير وثيقة في غاية الأهمّية بالنسبة لتاريخ مدينة الرباط، فهو يدلّنا على أقدم جالية أندلسية استوطنت الرباط، إذ اعتاد مَن أرّخوا لهذه المدينة الحديث عن الجاليات الأندلسية التي هاجرت إلى الرباط بعد هذا التاريخ والتركيز عليها سيما تلك التي نزحت مع مطلع القرن الحادي عشر الهجري/17 م[3].

إنّ المدّة التي ولي فيها ابن عميرة قضاء هيلانة، بعد صرفه عن الكتابة في ديوان الرشيد، كانت قليلة سيما وأنّه قد عبّر عن تبرّمه بهذا الإقليم لبعض أصدقائه الذين تدخلوا لدى الخليفة وساعدوه على الانتقال إلى قضاء الرباط وسلا سنة 639

---

(1) انظر الرسالة رقم: 224.

(2) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 357.

(3) ولابن عميرة ظهير آخر كتبه عن الرّشيد يتعلق بأحد أعيان الأندلس اللاجئين وهو الشيخ القائد أبو بكر بن الشيخ المشرف أبي الحسن بن غالب الذي كان يخدم دولة الموحدين في الأندلس. وهو عبارة عن ظهير توقير وإكرام لهذا الرجل كما رتّب له الرشيد بموجبه جراية طعام ومرتبا شهريا وإسهاما سنويا. ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، ص 243-244.

هـ/1241م[1]. والظاهر أنّه اختار هذه المدينة لمجاورة مواطنيه من مستوطني أهل شرق الأندلس الذين كتب في شأنهم الظهير السابق.

ومن آثاره الدّيوانية في خدمة الموحدين أثناء هذه الحقبة الرسالة الطويلة التي كتبها عن أهل سلا جوابا عن كتاب الخليفة الرّشيد إليهم بوصول بيعة أهل تلمسان بقيادة أميرها يغمراسن بن زيان الذي كان قد استقل بها منذ سنة 633 هـ/1235م[2]. وهي مفتتحة بالدّعاء للحضرة والإطناب في وصف مزاياها ومفاخرها وتأكيد الطاعة والولاء لها ووصف الكتاب الوارد. ثم الانتقال إلى المقصد وهو أنّ الطلبة والجماعة والكافة من أهل الرباط وسلا قد دُعُوا إلى سماع الكتاب في المسجد الجامع يوم جمعة فابتهجوا به لأنّهم كما تقول الرسالة: "عرفوا منه إتيان بيعة تلمسان عفوًا بلا تعب، وابتداءً دون طلب، وهي البلدة العتيقة، بل الرّوضة الأنيقة، جمعت محاسن المدائن منها في مدينة، واشتملت على أكمل عدّة ليومي حرب وزينة، حَشوُها السّلاح والكُراع، وفاخر متاعها لا يضاهيه المتاع، وقد كانت قديما نأت بجانب، وأومأت من الانقياد بوعد غير كاذب، وأولياء الله بكظمها آخذون، ولِلُهَوَيْنا في أمرها منابذون، وبصائر أهل هذا الأمر العلي كسيوفهم محشوذة، والعهود عليهم بالصّبر في مواطن الجلاء مأخوذة، فما أذعنت إلّا بعد أن ظنّ أنّها ماء نضب، بل ذماء ذهب، وها هي الآن قد لبّت قبل النداء، واستحبّت فضيلة الابتداء، وجاءت وهي عروس عليها حليّها، حسّانة أحسن جلاءها وليّها، هذا والسّيف مقروب، والخطي لم تهزّ له كعوب، والخيل ما أرضاها سَيْرٌ ولا أنضاها ركوب".

ثم يصف فرحة أهل الرباط وسلا بهذه البشرى ويختتم الرسالة بالدعاء للخليفة. وهي خالية من التاريخ ولكن من الواضح أنها كُتِبت سنة 639هـ/1241م، وهي السنة التي نُقل فيها ابن عميرة إلى قضاء هذه المدينة، كما ذكر يحيى بن خلدون أنّ استئلاف الرّشيد ليغمراسن بأنواع الألطاف والهدايا ممّا دفعه إلى البيعة

(1) انظر الرسالة رقم: 253، التي يمدح فيها الوزير أبا زكرياء بن عطوش ويشكره على نهوضه به ومساعدته على هذا الانتقال.

(2) انظر الرسالة رقم: 116.



كان خلال هذه السنة[1]. أمّا بيعة أهل تلمسان التي جاء كتاب الخليفة الموحدي يبشر بها، فهي ممّا انفردت بالإشارة إليه هذه الرسالة، إذ لم يرد ذكرها في المصادر المتوفرة لدينا.

وبعد وفاة الرّشيد وخلافة أخيه السعيد (المعتضد) تأخر جماعة من أهل الرباط في تقديم البيعة إليه، فكتب ابن عميرة رسالة توصية[2] حملها وفد عنهم إلى الوزير أبي زكرياء بن عطوش لتقديم الاعتذار إلى الخليفة الجديد عن هذا التأخر. ولم نتمكن من تحديد مدّة هذا التأخر لأنّ الرسالة خالية من التاريخ، ويبدو أنّ ذلك كان في منتصف سنة 640هـ/1242م، لأنّ بيعة الخليفة المعتضد كانت يوم وفاة أخيه الرّشيد في العاشر من جمادى الثانية من السنة المذكورة[3].

ولمّا توصّل ابن عميرة بخطاب إمامي من الخليفة السعيد يقرّه على عمله في منصب القضاء بعدوتي الرباط وسلا، وقد كان هذا الإقرار بمسعى من وزيره ابن عطوش الذي كان يعطف عليه، كتب ابن عميرة رسالة إلى الوزير المذكور يمدحه فيها ويشكره على دوره في هذا المسعى[4]. وفي إشارة إلى هذا الإقرار تقول الرسالة: "وورد بعدها الخطاب الإمامي الكريم زاد الله مصدره شرفا، وأبقى بحر كرمه ونعمه مغترفا، بالإقرار الذي أشار في جانبي أكرم إشارة، وألبسني من نباهة الذكر أجمل شارة، وطوّقني منّة نزلت سهلها فأواني، وتناولت سجلها فأرواني، ونهضت بجدّها والأيام تطلب عثاري، وحاربت بحدّها فأدركت عندها ثأري".

وهناك رسالة أخرى كتبها من مدينة رباط الفتح يهنّئ فيها أحد أصدقائه بتقلّد الوزارة للخليفة الموحدي المعتضد[5]. والرسالة خالية من اسم المكتوب إليه والتاريخ الذي كتبت فيه بسبب تصرّف جامع الرسائل أو ناسخها.

إنّ حياة ابن عميرة الإدارية في الرباط وسلا لم تخل من بعض المتاعب

(1) يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج 1، ص 205.

(2) انظر الرسالة رقم: 203.

(3) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص 359.

(4) انظر الرسالة رقم: 187.

(5) انظر الرّسالة رقم: 265.

سيما وشايات خصومه التي وجدت طريقها إلى الخليفة المعتضد الذي قرّر نقله إلى قضاء مكناسة. وأثناء تولّيه لقضاء هذه المدينة أقدم على عمل سياسي خطير وذلك بإسهامه في محاولة فصل مكناسة عن دولة الموحدين، التي كانت في طريقها إلى الانهيار، وجعلها تابعة للحفصيين وكتب في ذلك بيعته المشهورة إلى أبي زكرياء الحفصي باسم سكان المدينة في 20 ربيع الأول سنة 643هـ/1245م كما جاء في آخرها[1].

وممّا جاء في نصّها إشارة إلى سبق مكناسة إلى الدخول في طاعة الحفصيين قوله: "ومكناسة هي التي ولجت من هذا الباب، وأسرجت وليل الخطب مرخي الجلباب، ورأت فرجة الفرصة فنصّت، وقيّد إليها في يد القهر واترها من عوادي الدّهر فاقتصت، وعلم أهلها أنّه لا يصلح مع التقصير عذرة، ولا تقبل بعد الفتح هجرة، وانّ دعوة الإمارة التي تزفّ بنات الآمال بساحتها، ويخفّ ثبات الجبال عند رجاحتها، وهي الدّعوة اليانعة مواقع سحبها، اللاّمعة مطالع شهبها، المبنيّ على ضرب العدى، وقسمة البأس والندى، حساب كتائبها وكتبها، هي مطمح الهمم ومرقاها، ومجتمع الأماني وملتقاها".

وهذه البيعة هي من حيث الشكل كسائر البيعات التي كتبها ابن عميرة في مناسبات أخرى، فقد افتتحها بالحمدلة والتصلية والترضية والدّعاء ثم الانتقال إلى المقصد وهو الكلام عن اختلال الأمور في المغرب واتفاق أهل مكناسة من كافة الطبقات على مبايعة الأمير أبي زكرياء وولي عهده الأمير أبي يحيى ثم ختمها بالتأكيد على مراعاة القوانين الشرعية في إمضاء هذه البيعة وتاريخ إنشائها.

ولمّا انتهى خبر هذه البيعة إلى الخليفة الموحدي السعيد شرع في الحركة إليهم بجيش عظيم، فخافه أهل مكناسة وبعثوا إليه معتذرين نادمين وجدّدوا بيعتهم له من إنشاء الكاتب ابن عبدون[2]. وبعد رفع الحصار عن المدينة كتب ابن عميرة رسالة أخرى[3] إلى صديقه ابن خلاص صاحب سبتة، الذي كان قد أعلن تبعيته

(1) انظر الرسالة رقم: 9.

(2) ابن عذاري، البيان (قسم الموحدين)، ص 377.

(3) انظر الرسالة رقم: 250.



للحفصيين، يشرح له فيها بعض ظروف هذه الحادثة ويعده بمشافهته في الباقي.

ويبدو أنها كانت ظروفا صعبة وأيّام محنة من أخطر وأهول ما شهده في حياته مصداق ذلك هذا المقطع الوارد في الرسالة: " فقد كانت الحياة منغّصة، والقيم مسترخصة، وعيون الأوجال محدقة، ومخائل الأحوال لإرجافات الإنزال مصدّقة، فأتى الله بالفرج وباب الشدة غضوض، وطرف الرّجاء مغضوض، وأصل الإرادة بالقياس المأخوذ من العادة مرفوض، فالحمد لله على قدر ما أولى من النعماء، وكشف من الغمّاء، حمدا يملأ بين الأرض والسّماء، ويحكم في إمداد نعمه بالمزيد والنّماء"[1].

### 3- الرّسائل الدّيوانية الحفصية:

بقي ابن عميرة في مكناسة بعد حادثة البيعة منتظرا فرصة الانتقال إلى سبتة، وبعد مقتل الخليفة الموحدي السعيد في صفر سنة 646هـ/1248م اغتنم هذه الفترة وغادر مكناسة قاصدا مدينة سبتة حيث أقام مدّة قصيرة عند واليها ابن خلاص الذي اشتغل بالكتابة عنه فيما يبدو، وكان انتقاله إلى هذه المدينة خطوة أولى نحو الهجرة إلى افريقية.

ومنذ أن حلّ بسبتة وهو يحلم بالهجرة والانتقال إلى افريقة مثلما يحلم كلّ مؤمن بزيارة البقاع المقدسة كما عبّر عن ذلك بنفسه، وهذا ما أجمله ابن عبد الملك في العبارة التالية: ولـم يزل مذ فارق جزيرة الأندلس معمور الخاطر بالتخلّص إلى بلاد إفريقية[2]، وهو ما تؤكده رسالته التي كتبها إلى أبي زكرياء الحفصي من سبتة يمدحه فيها ويتشوّق إلى الهجرة والانتقال إلى حضرته[3].

وعندما لـم تتح له الفرصة في شهر جمادى الأولى من سنة 646هـ/1248م

(1) ولابن عميرة رسالة أخرى كتبها عن بيعة مكناسة وظروفها بعد التحاقه بسبتة، وقد أطلق فيها لسانه في شتم الخليفة السعيد الموحدي وتشبيهه لسواده بأبرهة الحبشي، واعتماده في جيشه على فرقة الروم المرتزقة. انظر الرسائل مخطوط ك 233، ص 145.

(2) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج 1، ص 179.

(3) انظر الرسالة رقم: 66.

للسفر على ظهر الأسطول الحفصي رفقة عدد من الأندلسيين المهاجرين إلى تونس، بعث مع صديقه ابن خلاص، الذي سافر في هذا الأسطول بأهله وجملته وذخيرته، رسالة طويلة إلى أبي زكرياء الحفصي سمّاها "**وفادة النفس السّالكة شعاب الرّجاء، إلى الحضرة المالكة رقاب الأعداء**"[1]. فلما مات ابن خلاص أثناء توقف الأسطول بمرسى وهران، عُثِرَ على هذه الرّسالة في متاعه الذي خلص إلى تونس، وتعتبر أطول رسائله التي وصلت إلينا، وهي مزيج من النثر والنظم في غاية من براعة الإنشاء.

وقد استعرض في أولها تاريخ البيت الحفصي مشيدا بأمجاده العسكرية، ثم يتخيل نفسه واقفا في حضرة أبي زكرياء فينشده قصيدة في مدحه، وينتقل بعد ذلك إلى مفاضلات تاريخية بين الدول والملوك يخلص منها بأنّ أبا زكرياء الحفصي هو أفضلهم على الإطلاق لأنّه استطاع إقامة دولة في منطقة صعبة المراس. ويستمر بعد ذلك في الإشادة بأبي زكرياء وعظمته والتنقيص من بعض الملوك المعاصرين له، ويختمها بقصيدة طويلة يمدح فيها أبا زكرياء أيضا ويهجو خصومه الموحدين. والظاهر أنّه قصد إلى الاحتفال بأسلوب هذه الرسالة ومحتواها كي يبرهن بها عن براعته في الإنشاء، كما فعل مع الرشيد الموحدي حين دوّن رحلته من سلا إلى مراكش.

وفي أوائل شهر جمادى الآخرة سنة 646هـ/1248م ركب ابن عميرة البحر من سبتة متوجها إلى بجاية، وقد دوّن هذه الرحلة[2] وقدّمها إلى ولي العهد الأمير أبي يحيى ابن الأمير أبي زكرياء الحفصي الذي كان يومئذ واليا على بجاية، حيث أقام في هذه المدينة منتظرا دعوة أبي زكرياء للمثول بين يديه في تونس، ولكن مقامه طال في بجاية حوالي سنتين بسبب انشغال هذا الأمير عنه.

وخلال هذه المدّة مات ولي العهد صاحب بجاية الأمير أبي يحيى في أواخر سنة 646هـ/1248م فحزن ابن عميرة لوفاته حزنا شديدا ورثاه بقصيدة طويلة[3].

---

(1) انظر الرسالة رقم: 146.

(2) انظر الرسالة رقم: 154.

(3) راجع الرسالة رقم: 233.



وكان يومئذ والده الأمير أبو زكرياء مقيما ببلاد العنّاب (عنّابة) استعدادا للحركة التي كان يروم القيام بها إلى الجهات الغربية فأصابه المرض ثمّ شُفِي منه، فكتب إليه ابن عميرة رسالة يهنّئه فيها بشفائه ويدعو له بطول العمر[1].

وبعد موت ولي العهد أبي يحيى عقد الأمير أبو زكرياء ولاية العهد لابنه الثاني الأمير أبي عبد الله، فنجد ابن عميرة يكتب ثلاث رسائل ديوانية في هذا الشأن عن أهل بجاية أو رجال سلطتها فيما يبدو. أما الأولى والثانية فقد كتبهما جوابا عن وصول خبر هذه البيعة التي انعقدت بتونس وإجراءات عقدها في بجاية[2]. أما الثالثة فهي نص عقد بيعة أهل بجاية بولاية العهد للأمير المذكور[3].

كان الأمير أبو زكرياء الحفصي قد مرض ولما شفي كتب إليه ابن عميرة يهنّئه كما ذكرنا قبل قليل، ثم راجعه المرض واشتدّ به فمات في 23 جمادى الآخرة سنة 647هـ/1249م وهو ببلد العناب، فاجتمع الناس على ابنه أبي عبد الله محمد وأخذ له البيعة عمّه محمد اللحياني على الخاصة وسائر أهل المعسكر، ثم ارتحل إلى تونس فدخلها في ثالث رجب من السنة المذكورة وجدّد بيعته يوم وصوله[4]. وقد كتب ابن عميرة من بجاية عدّة رسائل عن نفسه وعن غيره إلى الأمير أبي عبد الله محمد وأعيان دولته في التعزية بوالده الأمير أبي زكرياء[5].

ومن آثاره الديوانية على عهد الأمير أبي عبد الله رسالتان كتبهما مخبرا عن تهنئته للأمير المذكور بمناسبة جلبه الماء إلى العاصمة تونس من جبل زغوان بواسطة الحنايا الرّومانية التي أعاد تصليحها وترميمها سنة 648هـ/1250م. أما المكتوب إليه المخاطب في الرسالتين بلفظ المجد فلم نتمكن من معرفة اسمه، ولعله من وزراء الدولة الحفصية أو من ذوي الشأن فيها لأنّ هذه الحلية ليست من

---

(1) انظر الرسالة رقم: 43.

(2) انظر الرسالتين رقم: 107 و148.

(3) وردت هذه البيعة في ك 233، ص 78-83.

(4) ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 352-353.

(5) انظر الرسائل ذات الأرقام: 6 و155 و156 و157 و160 و161 و162 و220.

الصّيغ التي يُخَاطَبُ بها الأمراء الحفصيون[1]. أما رسالة التهنئة التي أخبر عنها ابن عميرة وأشار إليها في الرسالتين المذكورتين، فقد أوردها ابن عبد الملك مع رسالة أخرى لابن الأبار في الموضوع نفسه، لأنّ هذا العمل المعماري كان مناسبة لتسابق الأدباء يومئذ في الإشادة به وتسجيله[2].

وهناك رسالة أخرى كتبها فيما يبدو عن عامل إحدى مدن الدولة الحفصية يشير فيها إلى عدم كفاية المال الموزّع على الجند والموظفين[3]. وقد استعمل فيها لفظ البركة وهو شكل من أشكال الرواتب على عهد الموحدين كان يُدفع للجند والموظفين ثلاث مرّات في السنة في كل أربعة أشهر مرّة، ثم أصبحت البركة تُوزع في النظام الحفصي أربع مرات في السنة، في العيدين وربيع الأول ورجب[4].

وبعد أن تغلب الأمير أبو عبد الله الحفصي على بعض المتمرّدين والمنافسين من قرابته رفع نظام الإمارة إلى مرتبة الخلافة وتسمّى بالمستنصر بالله أمير المؤمنين في يوم الاثنين 24 من ذي الحجة سنة 650 هـ/1252م[5]، ودعا أهل الجهات في الدولة الحفصية إلى إرسال بيعاتهم، وكان يومها ابن عميرة قاضيا في مدينة الأربس فكتب عن أهلها عقد البيعة بالخلافة[6].

وهذه البيعة هي من حيث الشكل كسائر البيعات التي كتبها ابن عميرة في مناسبات أخرى، فهي مفتتحة بالحمدلة والتصلية والدّعاء والترضية عن الإمام المهدي وخلفائه عقب الترضية عن الخلفاء الراشدين، ثم الانتقال إلى المقصود وهو عقد البيعة حيث تمّت كما تقول الرسالة " على السمع والطاعة ولزوم السّنة والجماعة، والتمسّك بالدعوة الموعود ببقائها إلى قيام الساعة، في الرّضا والسخط،

(1) انظر الرسالتين رقم: 91 و172.
(2) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج1، ص 154 وج6، ص 27. المقري، أزهار الرياض، ج3، ص 211.
(3) انظر الرسالة رقم: 68.
(4) القلقشندى، صبح الأعشى، ج 5، ص 140.
(5) ابن قنفذ، الفارسية، ص 117. الزركشي، تاريخ الدّولتين، ص 33.
(6) انظر الرسالة رقم: 1.



والمكره والمنشط، والعسر واليسر، والقلّ والكثر، والشدة والرّخاء، والسرّاء والضرّاء... بيعة محكمة القواعد والأساس، مباركة على الناس، سرّها كالعلن من غير فرق، والمعتقد لها يرى أنّه على يقين وحق... أعطوا بها صفقة أيمانهم، وأخلصوا لها صادق إيمانهم، وتقيّدوا بها وقيّدوا مَن وراءهم من أوليائهم وإخوانهم، وابتدروها بنفوس عليها حراص، وعاهدوا الله عليها بيقين وإخلاص، عائذين به جلّ جلاله أن يخلفوه ما وعدوه، أو يستحلّوا أن يحلّوا ما عقدوه، وأشهدوا الله عليها ويده فوق أيديهم، وإليها وإلى الثبوت عليها هداهم وهو إن شاء الله يهديهم". ثم الاختتام بالدعاء.

## ب – الرسائل الإخوانية

ازدهر هذا اللون الأدبي ازدهارا كبيرا في أواخر العصر الموحدي (الثلث الثاني من القرن السابع الهجري)، وأصبح يشكّل ظاهرة أدبية بارزة، مصداق ذلك هذا العدد الضخم من الرسائل الإخوانية الذي تركه ابن عميرة والذي يفوق بكثير ما بقي من رسائله الديوانية، لأنّ كتابة هذا النوع من الرسائل كانت جزءا من حياته اليومية. ولعل الظروف السياسية التي سادت أواخر العصر الموحدي وما تبع ذلك من سقوط المدن الأندلسية وتشتّت أدبائها في بلاد الأندلس نفسها وفي بلاد المغرب وافريقية وما تعمق في نفوسهم من مأساة، قد دفعت ابن عميرة إلى الإكثار من هذه الرسائل سيما وأنّه كان كثير التجوال، حريصا على اصطناع الإخوان واتخاذ الأصدقاء وحفظ المودات والمجاملات حيثما حلّ.

لقد احتفل ديوان رسائله بعدد كبير من أسماء مشاهير عصره ممّن كاتبهم في الأندلس وافريقية والمغرب، وتعددت مخاطباته ومجاوباته مع أعلام الأدب والعلم في وقته كأبي عثمان سعيد بن حكم القرشي، وأبي عبد الله بن الجنان، وأبي الحسن بن هلال العددي، وأبي الحسن بن شلبون، وأبي الحسن بن مفوز، وأبي العباس بن أميّة، وأبي الحجاج البياسي، والحافظ بن سيد الناس، وأبي الحسن الزّعيني، وابن مرج الكحل، وأبي الحسن سهل بن مالك، وأبي الربيع بن سالم، وأبي بكر بن البنّا، وأبي الحسن العشبي، وابن الأبار، وأبي الحسن بن قطرال، وأبي بكر بن محرز، وأبي بكر بن حجاج وغيرهم. وقد تناول ابن عميرة في رسائله

الإخوانية موضوعات وأغراض مختلفة فكتب في الثناء والمودّة والوصايات والشفاعات والشكر والعتاب والمدح والهجاء والتهاني والتعازي والتنصل والاعتذار ووصف الرحلات والأسفار وغيرها.

### 1- الوصايات والشفاعات:

وهي من أكثر الموضوعات حضورا في رسائله إذ كان يكتبها إلى الرؤساء والوجهاء والعلماء في حق اللاجئين الأندلسيين والفقراء والأسرى وذوي الحاجات ومن تقطّعت بهم السبل مستخدما جاهه وقلمه في إعانتهم. فمن رسالة له إلى أبي عثمان سعيد حاكم منورقة في التوصية بلاجئ أندلسي قوله: "وكان فلان قد تقاذفت به أسفار، وتعاورته دُجنّة وإسفار، فارتبع قفرا وريفا، وانتجع صيفا وخريفا، ثم لحق به لمّة من أهله شرب الدّهر بلالتهم، واقتطع ضغثهم وإبالتهم، فكثر العدد، وفني المدد، وما نفع الجد ولا أغنى الرّد، ونفحات رحمة الباب الكريم إليها يصعد الرّجاء، وبها يسعد من عضّه الجلاء، ورضّه الاضطرار واللّجاء، وبعث الآن خدمة سيدنا يعيرها نظره، ويعينها بما حضره"[1].

ومن أخرى في المعنى نفسه إلى عزيز بن خطاب صاحب مرسية قوله: "وممن يدخل تحت هذا التعميم، ويؤمُّ برجائه سمت الباب الكريم، حامل هذه الخدمة فلان، وهو ممن نبا به الوطن، وأنحى عليه الزمن، ودفعه إلى خطوب فرقت نظمه، وعرقت عظمه، فأصبح هزيل غربة، ونزيل كل تربة، يشيم البوارق مقتنعا بالرّذاذ، ويسنح له الأمل فيحيل في طلبه على السير والإغذاذ، وتوجه الآن إلى المحل الأعلى وحاله أبلغ شفعائه، وثناؤه موصول بدعائه"[2].

ومن نتائج استيلاء النصارى على معظم بلاد الأندلس يومئذ أن امتحن عدد من أبنائها بذلّ الأسر، فكان ابن عميرة يتدخل لافتكاكهم، ومن ذلك الرسالة التي كتبها إلى سيّد يوصيه بأديب وقع أبناؤه في الأسر وممّا جاء فيها: "ومؤدّي رقعتي

(1) الرسالة رقم 20.

(2) راجع الرسالة رقم 178. وانظر في هذا الباب الرسالة رقم 117 التي كتبها في حق لاجئ بلنسي.



فلان من أعيان فلانة الذين سبقت لهم في أهل أحسابها شهرة، وبين وجوهها وصدورها مكانة وأثرة، وجرى عليهم وعلى بلدهم ما أبكى المدامع، وفجع القائل والسّامع، واقتسمت بقاياهم في الأسر أيدي الهون والمنون، وصاروا والحديث شجون من أحاديث الشّجون... وهو بالتفرقة من بنيه موله، وما له في غير سفر الأسى متوجه، وها هو يبكي أزيد من عشر، ويقيم من تباريح الشجن بين طي ونشر، ويسّر الله له في خلاص أحد البنين، وجزى الله من أعان فيه جزاء المحسنين، وسائرهم تحت مقاطعة فيها إمساكهم، وعليها يتوقف فكاكهم"[1].

ويكتب في هذا المعنى إلى أبي عثمان سعيد حاكم منورقة في شأن القاضي أبي عثمان الأصولي الذي وقع ابنه في الأسر فيقول: "وعندما بلغت هذا الموضع من الكتاب دخل إليّ من إخواني فلان[2] فذكر يدًا في حق ابنه المأسور أوليتموه إيّاها، ووعدتم بتمامها إذا بلغت أناها، فكلّفني ختم كتابي بشكر عارفتكم هذه التي كلّ من إخوانه لطوقها تقلّد، وبقيدها تقيّد... "[3]. وله رسائل أخرى في هذا الغرض[4].

كما حظي الأدباء والشعراء باهتمام كبير في هذا النوع من رسائل ابن عميرة، إذ كتب في واحدة منها يقول: "وتأدّى إليه من قبل فلان وله المحتد الوسيط، والأدب الذي لا ينزف بحره المحيط، إن فاخر فلا أصل كأصله، أو ناظر فلا فضل بحلية الآداب لعلية الشعراء والكتاب كفضله، وشاهد العيان، يبرز منه فارس الميدان، ويشهد له أنّه واحدَ هذا الأوان، وقصد الجناب المبارك حيث الجود ينسجم، والوفود تزدحم... ولسيدي الرأي الأعلى في أن يضفي عليه ظل اعتنائه، ويسفر له عن وجه مبرّته وإدنائه، على عادته التي قصّر عن شأوها الكرام، وتبارت

(1) انظر الرسالة رقم: 31.

(2) هو الشيخ الفقيه الأجلّ القاضي الأعرف الأفضل أبو عثمان الأصولي الوارد ذكره في مخطوط لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكتاب. الورقة 74.

(3) انظر الرسالة رقم: 59.

(4) انظر الرسائل رقم: 44 و137 و138 و209 و223.

في شكرها الألسنة والأقلام"[1]. ويوصي بأديب آخر فيصفه قائلا: " ومؤدّيه فلان من أدباء الوقت، ومن له شاهد من نفسه يغنيه عن النعت، يروي المكتوب والمأثور، ويسرد المنظوم والمنثور، ويقول فترى طبعا سيّالا، وموردا سلسالا، وصنعة تصنع من النّمريّ إن وقف مختالا، وتخل بالبحتري كلّما وصف خيالا، والشأن بعد هذا في طريقته المثلى، وزكائه الذي بحليته تحلّى"[2].

وفي بعض الأحيان ينزع ابن عميرة إلى إطراف المكتوب إليه وإمتاعه بأسلوب الرسالة كي يضمن النجاح لوصيته ومن ذلك ما خاطب به رئيس شاطبة أبا بكر بن عيسى يوصيه بأديب ليسند إليه عملا من الأعمال في إقليم من الأقاليم التابعة له فيقول: " وهو منحه الله جدّ مستعمل، ولا ردّه مردّ مهمل، ممن كنت أعرفه على وجه مجمل، فلما حصل التفصيل أتانا منه منطق العرب الأصيل، ما شئت من قواف تنثال، وبديهة بها تضرب الأمثال، وقياسات لا تنتج غير الخلف، ومقطعات لا تقف دون الألف، ينتمي من نافع إلى كرم وخير، فإن نسبناه إلى أدبه فهو ابن كثير، وإن تأملنا منزعه ألحقناه بالشاذ، وإن أخذنا بضرب من فكاهته وجدناها من الملاذ، وسمع أن ناسا قالوا إن اللغة تثبت قياسا فأزرى بهذا القول السخيف، وأحدث طريقا في التصريف، وأقدم في الألفاظ على الوضع والتحريف، ولقد كثر به إعجاب الأصحاب، وأطربهم أمره كله أشد الإطراب، وعرفوا من حاله ما أكد له ميثاقا، وأثمر عندهم إشفاقا، وكان قد ذكر له جهات قلب والأغوار، وإنها قاصية الأنظار، وصالحة به في حالي الضرورة والاختيار، وخوطب مجدكم في شأنه بما ذكر من أويته إلى مجدكم الصميم، وانقطاعه إلى سلفكم الكريم، فإن راشه اعتناؤكم طار، وإن أنجده علاؤكم غار، وبالله إنه لمكان الاصطناع، وأهل أن يقطع من التفاتكم بعض الإقطاع، ومجدكم أولى من رق لغربته، ونفّس من كربته، وجعله ببعض الأنظار، وشغله عما ابتلي به من هذه الأشعار... "[3].

وله في هذا الباب رسالة في التوصية برجل مئناث إلى بعضهم جاء فيها:

(1) انظر الرسالة رقم: 50.

(2) انظر الرسالة رقم: 53.

(3) راجع الرسالة رقم: 218. وانظر في هذا الموضوع الرسالتين رقم 254 و256.



"وحاملها فلان نسكه نسك صوفي، وجوهره يقبله كل صيرفي، وقد سُلب ريّاشا وأثاثا، وخُلق يوم خلق مئناثا، فحوله من البنات عدة تجرع صاب الحياة، وتبلغ نصاب الزكاة، ولو تكلّف طلب الصّهر، لما اكتفى بأهل المصر، لكنّه جاءه من رام على إحداهن عقدا، وسئل أن ينقد فما وجد نقدا، فقيل وافق شنّ طبقة، وخطب إلى الفقير من يستحق الصدقة، ولما أحوجته الضرورة، وأخرجته نائبته المذكورة، سأل الإعلام بوسيلته التي عندكم تكرم، وعلى فضلكم تحكم، وهو هذا الرّجل الذي هو بصحبته مشكور، وعلى محبته مفطور، وقد أشركته في كتابي هذا وإنها لشركة، عائدها إن شاء الله تعالى يُمْنٌ وبركة"[1].

ويوصي برجل أندلسي أزمع الذهاب لأداء فريضة الحج فيقول: "وصاحب العجالة فلان تعرفونه بالجزيرة صاحب نحل يتبع بها شعب الجبال، ويروح منها بطين الأحمال، وبعد أن تفرّق القوم أيدي سبا، وطاروا مع الجنوب والصّبا، جال في بقية الأندلس بحيلة إنسانية، وحلية ساسانية، ثم عبر البحر وأزمع الذهاب لأداء فريضة الحج، والبلوغ إلى مواقف العج والثجّ، والله يبلغه وإيّانا من ذلك ما يحطّ عنّا الأوزار، ويظفرنا بزيارة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيمن زار، وغرضه أن يُوَصّى عليه صاحب سفينة يخفّف عنه ما به يطالبه، أو يحمله كما حُمل الكليم وصاحبه، صلّى الله على نبينا وعليهما، وأهدى تحيّاته الطيبات المباركات إليه وإليهما"[2].

وهذه فقرة من رسالة خاطب بها أبا الربيع بن سالم يوصيه بشاب زاهد قال فيها: "هذا الواصل إلى محلّكم الأعلى فتًى مُجدّ في الزّهادة، متوكّف ما وعد الله عنه الذين أحسنوا من الحسنى والزيادة، وعندما أطلّ هذا الشهر المبارك أنشأ للجدّ فيه استئنافا، وأحبّ أن يقرن بصومه اعتكافا، وقصد بذلك الجامع المكرّم هنالك وأرادني تنبيه السّيد المعتمد عليه فلم يسعني إلّا إسعافه، ومن أقرض الله قرضا حسنا فعليه سبحانه إضعافه"[3].

(1) انظر الرّسالة رقم: 200.

(2) انظر الرسالة رقم: 105.

(3) راجع الرسالة رقم: 136.

وفي بعض الرسائل نجد ابن عميرة يحرص على الإشادة بالموصى به والدّعاية له، وتقديمه في صورة تستوجب التقدير والإكرام، والترغيب في الاستفادة ممّا عنده من فوائد وطرائف كما في رسائله التي كتبها في شأن الرحالة المشرقي الشريف نجم الدّين يونس بن مهذب الدّين المازندراني إلى أعيان الحضرة الموحدية، وهذا مثال من توصيته به في رسالته إلى أبي زكرياء الفازازي: "والمشار إليه تولّاه الله بحفظه، من رقعتي وتحيتي تزدان من يده ولفظه، وهو الشريف الأجل نجم الدّين بن مهذّب الدّين وإنّه النّجم في أوجه، والبحر متدفقا بموجه، شرف إلى سماء الكرماء مرقاه، وأدب من ماء الكوثر سقاه، وكأطيب الثمر تخيّره وانتقاه، فهو من المجد في بحبوحته، ومع الدّهر متقلّب في أرجوحته، سَلْ به المنازل والمناهل، والمعالم والمجاهل، والعراق ورافديه، والحجاز ووافديه، طالب ربح في مَالِه، وباغي ثواب لمآله، وإن شاء سيّدي باحثه عن حدثان الدّهر وحديث ما وراء النّهر، ورفع الرواية منه إلى عليم، وكتب بقلمه قصّة كلّ إقليم، فقد خبر الخابور، وسَبَر ناس نيسابور، وعاين خَرابَ بخارى، ودار حيث كان ملك دَارَى، وطاف بمكّة أوّل تربة مسّت جلدة جدّه، وحلّ بيثرب مأواه الأشرف بقصده، ورأى القدس ومسراه ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾، ولقد جاوز جيرون، بعدما شرب من جيحون، وقطع ما بين مصر ونيلها، وغرناطة وشنيلها، فترون منه إن شاء الله من جاب المسالك والممالك، وتشوّف إلى ما هُنا وهُنالك"[1].

وله رسالة طريفة كتبها إلى أحد الرؤساء في التوصية بصوفيين يلعب أحدهما بالصحاف لعبا معجبا[2]، وأخرى إلى بعض العلماء يوصي فيها بطالب تميمي النسب[3]، وكتب إلى بعضهم يوصيه بواعظ فقال: "وحاملها فلان وإنه لمبرز في الوعّاظ، محرزا مدّ الحفّاظ، يُخوّف ويُرجّي، ويُسمع فيشجّي، ويذكّر فيذيب الجامد، ويحرّك المتواجد، وينقل الصحائح والشواهد، ويجمع الفوائد والشوارد،

---

(1) الرسالة رقم: 168. وانظر الرّسائل الأخرى التي كتبها في حقه إلى أعيان آخرين تحت الأرقام: 166 و167 و169 و170 و171.

(2) الرسالة رقم: 163.

(3) الرسالة رقم: 164.



وذكر أنّه يغشى تلك الجهة مقيما أو مجتازا، ويطأ من أرضها سهلا أو عَزَازًا، فأصحبته هذه العجالة مستدركة ما فات، ومحيلة عليه في ودّ سبق ثبوته الإثبات، والمعونة له في داج يرجو صبحه، وباب يأمل فتحه"[1]. وغيرها من رسائله في هذا الباب.

### 2- الثناء والشكر والمودة:

من المواضيع التي ازدهرت في العصر الموحدي وكتب فيها ابن عميرة رسائل كثيرة إلى أصدقائه وإخوانه وذوي الفضل يشكرهم ويثني عليهم، سيما أولئك الذين أحسنوا إليه أو إلى الأشخاص الذين كان يوصي بهم. وهو حين يكتب في هذا الموضوع غالبا ما يعمد إلى الاحتفال بالأسلوب والتكلف فيه.

ومن ذلك هذه الافتتاحية من رسالته التي كتبها إلى سيّد يطلعه على أحواله: "أجل إن السّيد الذي اختار الشرف واستخلصه، ووضع على منكب الجوزاء أخمصه، وعرج إلى سماء العلياء فصافح يمين ثريّاها، وسفر لذكاء عن مثل محيّاها، لَوَاحِدُ الأيّام الذي أذهب نقصها بكماله، وأظهر عجزها عن أن تأتي بمثاله، وخلع عليها من محاسنه ما أعاد شبابها إلى ريعانه، وشعاعها إلى إضاءته ولمعانه، فإن ذكر النّدى فماؤه في صفحة بشره يجول، أو المناقب فعنده منها الغرر والحجول"[2].

وله من رسالة في الشكر: "وشكر الله فلانا فلقد أحسن بي يوم راش نبلي، ووصل بحبال السيّد حبلي، وما زال حتى مهّد لهجرتي قبل الفتح، وأفعم سَجل برّه حال الظّمأ البرح، وأرجو أن يجد مرآتي قابلة لشمسه، وتربتي ملائمة لغرسه، فيعلم أنه قد صادف اصطناعه حاملا لأمانته، عاملا على مكانته"[3]. ومن أخرى إلى سيّد يشكره ويثني عليه: "كتابي إلى سيدي الذي عنايته عليّ لامة، وسلامته لأحوالي كلّها سلامة، أبقى الله لي منه وليّا يصغى لندائي، وصبحا جليا به استضاءتي واهتدائي، ولا زال مكانه لبني الرّجاء مفزعا، وإحسانه على جميع الأولياء موزّعا، من فلانة

---

(1) الرسالة رقم: 181.

(2) راجع الرسالة رقم: 25.

(3) انظر الرّسالة رقم: 27.

وعند الاعتداد به ذو مرّة، ولأفاويق الاعتلاق بحرمته أحفل دِرّة، والشكر لفضله الذي أولاه قبل هات، ووالاه لا من جهة بل من جهات، أردّده شفعا ووترا، وأعدّ المدى الطويل منه فترا"(1).

ومن الذين أكثر ابن عميرة الكتابة إليهم في هذا الموضوع العالم النبيل سعيد بن حكم صاحب منورقة الذي اشتهر بالإحسان في ذلك الزمان وامتدت أياديه المشهورة في كل قاص ودان كما يقول ابن سعيد(2). ومن ذلك هذه الفقرة من رسالة جوابية كتبها إليه: "وقد وصلت المخاطبة الكريمة بما اقتضاه ذلك المجد المؤثل، والفضل المؤمّل، فيا لذلك الإحسان المستفيض، والنّعم البيض، والأيادي الذاهبة بالشكر الطويل العريض، ما أغزر غمامها، وأسلس زمامها، وأعمّ فواضلها وأكثر حاملها، موقعها كقطر الندى، ومحلّها كالرّبى عقب الصّدى، ومن تعاطى حقيقة شكرها رام عسيرا، بل وقف حسيرا، وتكلّف مدى طويلا، بل حدّث نفسه بأن يبلغ مستحيلا، وعند الله ثواب ذلك الجود، والإحسان الموجود"(3).

وكان لابن عميرة أخت تقيم في جزيرة شقر مع أولادها، وبعد استيلاء النصارى على هذه الجزيرة سنة 639 هـ/1241 م وجلاء أهلها عنها، خرجت مع المطرودين فمرضت في الطريق وماتت بمدينة أوريولة وبقي أولادها هناك. ولما انتقل ابن عميرة إلى بجاية كتب إلى أبي عثمان سعيد يرجوه أن يعمل على نقلهم إليه، فقام هذا الأمير بالواجب حيث نقلهم من أوريولة إلى منورقة ومنها إلى بجاية حيث خالهم الذي كتب إليه رسالة طويلة يخبره بوصولهم ويشكره ويثني عليه، نقتبس منها هذه القطعة التي تكلف فيها ابن عميرة السجع والجناس والطباق والمقابلة، كما قارن ممدوحه بطائفة من أسماء الأعلام: "وقد وردت الجملة التي أصدرتها عناية الرئاسة السّنية، وأنالتني ببلوغها فوق الأمنية، فيا لما وصفوه، ولعمري ما أنصفوه، من تفضّلٍ أنساهم مضض البؤس، ومرض النفوس، وهوّن عليهم السفر وشقّته، والجلاء ومشقّته، فكلّ يقول جزى الله عنّي جعفرا، ولا زال

(1) انظر الرّسالة رقم: 38.
(2) ابن سعيد المغربي، اختصار القدح، ص 28.
(3) انظر الرسالة رقم: 132.



كعبه عاليا مظفرا، وينشد في جوار الكريم المهذب، نزلت على آل المهلب، وأين من الهمّة العمانية، كرائم الهمم العدنانية، ومَن للأخلاق المزونية، بالأعراق الحجونية، ولو رام شيئا منها ابن أبي صفرة، لقيل أخطأت كذا منه الحفرة، أما إن الرئاسة العالية وإن رأتها لهنة معجلة، فقد أتت بها غرّاء محجّلة، لحديثها شية الأبلق، ولما قيد منها حقيقة الشكر المطلق، فما أملكها لرقّ الشكور الحامد، وأكلمها لقلب الكفور الجاحد، وددت أنّ عبء شكرها حمله عنّي عسكر من خالد بن صفوان، وكتيبة من صعصعة بن صوحان، وحشر لها خطباء أياد، وقام بها ألف من زياد، واستجيش لها صادا إبراهيم وإسماعيل، وطاءا الوليد ومن نهج له السبيل، وأجاب لها خطيب جابية الجولان، بعد أن حال عليه في تحبير خطبته حولان"(1).

ويكتب إلى صديقه الفقيه أبي الحسن الرّعيني شاكرا فيقول: "وأما شكري لسيدي فما كنت أرضى له إلا قلمه المختال، وفكره السيّال، وتلك اللهجة التي معها للصدق رواء، ولها في يد الحق لواء، وأمّا لفظٌ ليس عليه طلاوة، أو خاطرٌ عليه من العيّ غشاوة، فأقلّ من أن يعد بشكر يد يتوارى بها في النادي، ويتمارى في أنها في سوق الأيادي، فكيف بهذه التي مُلكُ جانبيها كسروي، وكتاب غريبيها رُعيني لا هرويّ"(2).

وكتب إلى القاضي أبي الحسن بن قطرال بفاس يثني عليه ويشكره على برّه وإحسانه إلى الفقيه أبي الوليد بن مثنى إذ يقول: "وإنما فارقني الإفلاس، من يوم ضمّتني معه فاس، فحينئذ ارتفع الشك، وميّز الإبريز الحكّ، وعزيت المنّة لربّها، وسرت العارفة من مهبّها، وجاءت على هذا الصاحب لحاء على فننه، وإنحاءً على زمنه، تُعوّذُه من كلّ فقر، وتنشد مدائحه فلا تخفى على ذي وقر، فللّه ذلك الفضل الذي بهر جمالا، وأبى على تحيّف الأيام إلا كمالا، ولقد أمكن الردّ به على من يقول إنما تستطاع المروءة إذا كانت أموالها فاضلة، وأيدي الثروة دونها مناضلة، فإنا

(1) انظر الرسالة رقم: 110.
(2) الرسالة رقم: 215.

وجدناه يفعم سجلها والرّكيّة بكيّة، ويتكلف أفعالها وإنما هي أقوال محكيّة، وليست بأول يد أصاب بها موضع الاستحقاق، وأبقاها أطواقا في الأعناق"[1].

### 3- التهاني والتعازي:

وهما من الأغراض التي كانت سائدة في هذا العصر ولها دلالة قوية على العلاقات الاجتماعية بين الأصدقاء الذين كانوا يشاركون بعضهم البعض في أفراحهم وأحزانهم. وابن عميرة الذي كان حريصا على أداء الواجبات قائما على حفظ المودات وفروض المجاملات لم يكن يتأخر عن انتهاز فرص تقديم التهاني ولا عن أداء واجب التعازي.

ومن رسائله في التهنئة قوله يهنّئ الأمير أبا زكرياء الحفصي بشفائه من المرض الذي أصابه ببلاد العنّاب (عنّابة) وهو يروم الحركة إلى الجهات الغربية في أواخر سنة 646 هـ/1248م: "فالحمد لله الذي كشف الغماء، وضاعف النماء، وأرانا حياة الأرض إذا أرسل عليها السّماء، عارض ما أوحشت منه إلمامة، حتى أعقبته صحّة وسلامة، ولا تجهّم الزمان باستقباله، حتى أضاءت الدّنيا لزواله، وكما أنّ الصّحة منها داء، فالمرض منه ما هو إن شاء الله شفاء، بُحرانه تُرتل سُورَة النشاط، وتُقتل سَورَة الأخلاط، وتُؤمّنُ غوائل تجاور الأبدان، وتساور الإنسان، فعلى إثرها العفاء، وفي عقبها بفضل الله الشفاء، ومن الله بعدها اللطف الذي هو للآجال نَساء، وللأوجال نسخ وإنساء"[2].

وكتب إلى بهاء الدّولة محمد بن هود يهنّئه بمناسبة خروجه من أسر الرّوم يقول: "فهنيئا له شمل بانتظامه تنتظم الأمور، ويتضاعف الاعتلاء والظهور، ويا نُعمى الأنام، وبُشرى الأيام، بوقته الأفضل، ويومه الأغرّ المحجّل، لقد راقت به المحاضر، وتهادى خبره البادي والحاضر، وسار منه في البلاد ما أقرّ عيون الأولياء، وأرغم أنوف الأعداء، والحمد لله على أمنية بلغ أوانها، ونعمة عظم شأنها، ومسرّة أخذ العبد منها بأوفى حظوظ المرتسمين بالخلوص للدّولة العليّة، والخدمة

---

(1) راجع الرسالة رقم: 257.

(2) الرسالة رقم: 43. وانظر رسالة أخرى في هذا المعنى تحت رقم: 124.



لمقاصده المباركة السّنية، وقد أقام بها هو ومن قِبَلَهُ رسم التهاني، ورتعوا في ظلال الأماني، وأذاعوا هذا الذكر الأطيب في الأقاصي والأداني"[1].

وله أيضا رسالة في هذا المعنى يهنّئ فيها الكاتب ابن عطية بخلاصه من الأسر جاء فيها: "أهلا بالعجالة المقتضبة، والرّسالة الواردة من زعيم الكتبة، بشّرت بطيران واقع نسره، وخلاصة من فاجع أسره، وقررت أن أنفي من إخفار ذمتها فيه أنفت، وبكلفة ما لعلّه يستوفيه كلفت، ويا لهذا الأمل الذي يهوى بأمله من حالق، ويضع دون حظّهم أكبر عائق، وقد أبت حرفته أن ترعى قدرا، أو تعتام إلا صدرًا... وببيتكم شاهد ذلك الناس، وفيكم آل عطيّة اطّرد هذا القياس، ولله سبحانه ألطاف يخفي عيانها، ويدقّ سريانها، تديل الفرج من الشدة، وتعيد الخلِق إلى الجدّة، وتجبر الكسير وقد استحكم وهنه، وتخلّص الأسير بعد أن علق وهنه"[2].

وله من رسالة أيام كان قاضيا بشاطبة كتبها إلى الأمير المتوكل ابن هود يهنّئه بوصول التقليد العبّاسي قوله: "وحين صدر رسول دار السّلام، ومثابة أهل الإسلام، ومقعد الجلالة، ومصعد أنوار الرّسالة، ومعه الكتاب الذي هو غريب، أنس به الدّين الغريب، وبعِيدُ الدّار نزل به النّصر القريب، وآية بأدلتها الصادقة تبطل الشبهة الآفكة، وسكينة من ربّنا وبقيّة مما ترك آل نبينا تحمله الملائكة، اطمأنت القلوب، وحصل المطلوب، ودرّت أخلاف الإيناس، وارتفع الخلاف بين الناس، وعلموا أن السّالك قد أضاءت له المحجّة، والحق لا يعدو من بيده الحجة، وأنّ من أمّرته الخلافة العبّاسية فطاعته تجب قطعا، ومخالفته تحرم شرعا، ولم يبق إلا أن يبرز للعيان شخصه، ويرد على الآذان نصّه، فيكون يومه غرّة الليالي المعتكرات، وعلَم الأيّام النكرات، واليوم الذي تؤرخ به الأعوام المستقبلة، وترفع فيه الأعمال المتقبّلة"[3]. وكتب إليه أيضا رسالة يهنّئه فيها بفتح مدينة لبلة والتغلّب على الثائر بها[4]، وأخرى

---

(1) انظر الرسالة رقم: 97.

(2) الرسالة رقم: 264.

(3) انظر الرسالة رقم: 139.

(4) انظر الرسالة رقم: 149.

يهنّئه فيها بشهر رمضان[1].

ونجد له في هذا الغرض أيضا رسالة يهنّئ فيها أحد أصدقائه بنيل منصب رفيع يقول فيها: "ووفيت حق التهنئة التي أخذتُ سهمي منها مبدّاً، ولم يكن أحد قبلي بها مهنّأً، وقلت للدّهر أما وقد أسعفت فيمن نحبّ ونكرم، وقدّمت من هو بالحقيقة والشهرة المتقدّم، فما عليك ملامة، ولا قِبَلك لذي أدب ظلامة، وإذا أعطي الحق مستحقه، ورقّى من منتحلي الكلام من يملك رِقّه، فقد عدل في القسم، ووسم بي موضع الوسم، وميّز بين الذاتيّ والعرضيّ في صنعة الحدّ والرّسم، والآن عرف السنان عامله، والقلم حامله، ودُفع البرد إلى راقمه، وحصل الدّر في يد ناظمه"[2].

ويكتب إلى أحد أصدقائه يهنّئه بتقلّد منصب رفيع لدى الخليفة الموحدي المعتضد فيقول: "فهنيئا لكم ولها ظفر بالرتبة السنيّة، ونظر كلاكما نال منه أقصى الأمنية، وحين جاء الخبر بهذا التقليد السعيد، ولاحت نكتة المعنى من بيت القصيد، عاد إليّ النشاط الذاهب، واجتمع من شمل جذلي ما قد كان نهبه الزمن الناهب، وعلمت أن معشر فلّ الأيام، الباكين لنوائبها بعيني عروة بن حزام، قد علا حظنا السافل، وطلع نجمنا الآفل، وإن عميد بقيتنا، وصنديد سريتنا، شرّفتنا الخلافة العلية بتشريفه، وصرفتنا في أجلّ خطط النباهة عند تصريفه"[3].

ونتنقل إلى التعازي التي كتب فيها ابن عميرة رسائل عديدة، وغالبا ما يُظهِر فيها التفجّع على الميّت ويذكر مناقبه وخصاله ثم ينتقل إلى الدعاء والترحم عليه مفتتحا ذلك أو مختتما بأبيات من الشعر. وقد يسلك في بعضها سبيل الوعظ فيسرد العبر ويستخلص منها زيف الحياة الدنيا وغرورها، وقد ينهج في البعض الآخر الجمع بين التعزية وبين الوصية والنصيحة. أما الرّسائل التي كتبها في تعزية الأمراء فقد مزج فيها بين عزاء الراحل وتهنئة خليفته.

(1) الرسالة رقم: 150.

(2) الرسالة رقم: 109.

(3) الرسالة رقم: 202، وانظر في هذا المعنى الرسالة رقم: 265 التي كتبها إلى أحد أصدقائه يهنّئه فيها بتقلّد الوزارة للخليفة الموحدي المعتضد أيضا.



ومن نماذج تعازيه الرسالة التي كتبها إلى أبي عثمان سعيد حاكم منورقة يعزّيه في ولده ويعتذر عن التأخير فقال: "وقد كان الخطب الذي أذكى نار الوجد، وأثكل صريح المجد، تقاضاني مخاطبته أولا قاضيا حق العزاء وسنّته، ومذكرا بالصبر الذي مثله حمل لأمته، ولبس جُنّته، وكان الرّسول تركه بيدي أكتبه، ووعد بأنّه يرجع فيصحبه، فوالله ما عاد، ولا قضى ذلك المراد، والآن أنفذت هذه العجالة لأتلافى ذلك الفائت، وأقرّر من ودّي وعهدي الصّحيح الثابت"[1].

ونقتبس من الرسالة التي كتبها إلى الفقيه أبي بكر بن محرز يعزّيه في ولده هذه الفقرة: "ومما زادني شجنا إلى شجن، وأبكاني وحدي لا مع ورقاء على فنن، ما بلغني من وفاة الابن النجيب فلان رحم الله غربته، وسقى تربته، فإنها اشتفّت سُؤرَ جلدي، وصدعت أشعار كبدي، وأثكلتني نجيبا كنت تبيّنته، أنيسا كم أشتقته في مواطن الغربة وتمنيته، وإني لأقدر موقع رزءه من فؤادكم، ثم أرجع إلى معرفتي بطاعتكم للآداب الشرعية وانقيادكم، فأعلم أن الصبر درَعتم، وإلى جانبه انقطعتم وللأمر به والمثيب عليه أطعتم"[2].

ويكتب إلى أولاد صديقه القائد أبي الحسين بن عيسى رئيس شاطبة عند وفاة والدهم فيقول: "ويقلّ لأجلّ الأرزاء هجر العزاء، وتقسّم القلوب إلى أقلّ الأجزاء، فإنّه الرّزء الذي غمّ الأيّام، وعمّ الأنام، وأراق الدّموع، وأحرق الضلوع، وحظر على شمس الأنس الطلوع، فوَالَهْفَاه واحزنَاه، واعميداه واسيّداه، مَن للخطب إذا نزل، والمعضل إذا أشكل، ومن للعفاة إذا يئسوا، والعناة وقد حُبسوا، ومن أبقيت على المعروف، واتخذت خليفة على الضيوف، ولمن يشتكي الزمان، وإلى من يلجأ اللهفان، وأين يتوكف الإحسان، أقْفَر والله رَبْع المجد، وغاض بحر الرّفد، وخرست ألسن الثناء والحمد، فحسبنا الله رجوعا إليه، وإنّا لله توكّلا عليه، وعند الله نحتسبه علم الأعلام، وكافي الإسلام، وسيّد الأنام، المستهل مع شح الغمام، الرّاجح عند خفّة الأحلام، مَن يجود بالنشب، ويضحك عند الغضب، ويجمع معاني

(1) الرسالة رقم: 55.

(2) الرسالة رقم: 245.

الحسب، ويعمُر مغاني الأدب، كان للعصر جمالا، وللخلق ثمالا، وفي اللّأواء عددا ومالا، فقدناه فقد الأمّ واحدها، والأجياد قلائدها، والأرض ماطرها، والدّار قاطنها وعامرها، عمّت مصيبته من غاب وشهد، وجاوز وقعها من القلوب كلّ ما عهد"[1].

وله من رسالة إلى صديقه أبي الحسين الرّعيني يعزّيه في زوجته الفقرة التالية: "وذكر وفاة أم الولد وما عرفته إلا من خطابه، ولقد انزعجت لمصابه، وقرأت ذلك الفصل فهاج لقلبي شجنا، والتقطت من خبره ما كان لي حزنا، وتمثلت تلك الحال وإيحاشها، وهذه الأعمار وما يلقى من عاشها، فترجّعت للخطب وفضاضته، وأفضت دمعي في موضع إفاضته، والله يؤنس سيدي من وحشة أيّ وحشة، ويعيذه من هوام الأيام فإنّا منها بين عضة ونهشة، وإيّاه نسأل أن يرحم فقيده أوسع رحمة، ويجعله بعده في وقاية من النوائب وعصمة"[2].

ولمّا كان ابن عميرة مقيما ببجاية ينتظر الانتقال إلى تونس مات الأمير أبو زكرياء الحفصي فكتب عدّة رسائل في التعزية بهذا الأمير إلى ابنه المستنصر وأعيان دولته، ومما جاء في واحدة منها قوله: " وورد الخطاب العليّ الكريم مفصِحا بالدّاهية الكاشفة عن ساق، الكاسفة للبدور والشموس عن تمام وإشراق، فأيّ رزء دَهم الأنام، وعين أصابت الإسلام، وسهم للرّدى كسر النّصال وحطّم السّهام، بالحادث في مولانا المقدّس المجاهد المرتضى ألحقه الله بسلفه الأطيبين، وسقاه في دار النعيم من التسنيم الذي هو شراب المقربين، أما إنّه الخطب الذي غلب واستحوذ، وطعن فأنفذ، ورمى فأقصد، وقدح فأضرم وأوقد، فلا جلد يبقى، ولا دمع يرقى، ولا قلب إلّا وله وجيب، ولا صدر إلا وفيه زفرة ونحيب، وعندما وَرَد على العبد أظلمت الدّنيا في عينيه، وطفق كالمغشي عليه، وحقّ له هذا الجزع الذي مَحا من القلب العزاء، وسام العين السّهر والبكاء، بل أذهب النّفس شعاعا، ولم يترك بالحياة استمتاعا"[3].

(1) الرسالة رقم: 118.

(2) الرسالة رقم: 186.

(3) الرسالة رقم: 155. أمّا رسائله الأخرى التي كتبها في المعنى نفسه فهي ذات الأرقام: 156 و157 و160 161 و162.



ومن رسائله أيضا في هذا الغرض الرسالة التي كتبها إلى أحد إخوانه يعزّيه في وفاة أبي الحسن بن واجب القيسي[1]، وأخرى إلى صديق له يعزّيه في وفاة والدته[2].

### 4- العتاب:

لم تكن تخلو العلاقات بين الإخوان والأصدقاء من بعض التقصير والهفوات أحيانا فيلجأ الصّديق إلى معاتبة صديقه لإزالة أسباب هذه الجفوة والحفاظ على علاقات الودّ والصّداقة. ولابن عميرة مجموعة من الرّسائل في هذا الغرض يدور بعضها حول تأخير المكاتبة أو قطعها ومنها الرسالة التي كتبها إلى صديق أبطأ عنه كتبه وقد جاء فيها: "أبطأت عنّي كتبكم في هذه المدة أبطأ للنفس به شغل، وللظنون فيه سبل، فليت شعري ما حدث أسلوة المغيب فقد تكون من أجله، أم تيه على الغريب من مقيم في أهله، أم تأنّ من جنس التغافل، أم تجنّ يخدش وجه التواصل، ولا شك أن سيدي إذا رأى عتابي، وانتهى إلى هذا الفصل من كتابي، آسى بجوابه وواسى، وأنصف في أنّه نسي أو تناسى، ولاءم بين الأوراق لكتاب، وبوّب للأخبار ألف باب، ووصف المعاهد وأمنها، والسّلم ويمنها، والدّجن وطيبه، والعيش ناعمه ورطيبه، وأطال حتى في موضع الحذف، وأتى بالحروف الكثيرة مكان الحرف..."[3].

ويكتب إلى صديق آخر في المعنى نفسه، ولمّا لم يجد سببا لهذه القطيعة أوعز ذلك إلى سوء حظه حرصا منه على إحياء المودة وإبقاء الصحبة فيقول: " وقد كانت لي من السّيد عادة حكم بانتزاعها، وصلة فطم من رضاعها، وتركني بعدها أفلس من ابن المذلّق، وعلى نار من القلق كنار المحلّق، أقول لعلّ ومداها ممتدّ، وليت شعري وطريقها لا يفنيه خببٌ وشدّ، وربما افترشت مهاد الاكتئاب، وفتّشت عن الذاتي والعرضي من الأسباب، فلم أجد سوى سوء البخت سببا يكف السّائل،

(1) الرسالة رقم: 222.

(2) الرسالة رقم: 231.

(3) الرسالة رقم: 47.

ويصلح أن يكون الفاعل"[1].

وفي المعنى نفسه كتب إلى آخر يقول: "وأنا أقول مع ذلك إن هذا العماد أرجح قيمة، وأكرم شيمة، من أن يسترجع هبة وهبها، أو يمحو وثيقة بخطه كتبها، أو يكون ممّن يشين صفحة ودّه ملل، أو يخون قدم عهده زلل، إلى أن قطع عنّي كتبه وأرخى بيني وبينه من الإعراض حجبه، ومضت مدّة وأنا أرقب منه برقا يهب وهنًا، أو حرفا يجيء لمعنى، فما لفظة كما كان يلفظ، بل كتب في جانب آخر يثني ويقرظ، فلولا أن فناء الودّ قِبَلي معمور، ودليل الخطاب عندي مهجور، لكنت قد سؤت ظنا، وجئت في طلق العتاب مستنا، لكن دليل الثقة أوجب عليّ أن أتأوّل، ولا أعارض بمظنوني الثاني معلومي الأول"[2].

وعاتبه صديق فبالغ في العتاب ولم يتلطف فأجابه قائلا: "من العتاب أعزّك الله ما يجلو القذى، ومنه ما يجلب الأذى، وماؤه تارة يطفئ الحرق، وربما أورث الشرق، وأرى عتابك قد جرّعنّي الأمرّين، واستقبلني بشرّ الأمرين، وتناوَلتني من خرذله بسعوط، ورميتني من جندله بجلمود على سقوط، فإن كنت أردت به أن تزيد ليل غمّي ظلمة، ولسان حالي عجمة، وفِراش نومي إقلاقا، وفَراش يومي إحراقا، فكل ذلك قد نلت، وبمقتضى هواك منه عملت، وما أحسبك إلّا أفكرت فيما يصدع حصاتي، ويجمع منغّصاتي، وييبّس جبلي، ويبتّ جذلي، ويفسد معاشي، ويستوفي إيحاشي، فلم تجد غيره أدخل في باب الإعياء، وأكثر جمعا لهذه الأشياء"[3].

ولم ينج ابن عميرة من كيد الحسّاد والوشاة الذين كانوا يكدرون صفو العلاقات بينه وبين أصدقائه أحيانا فيلجأ إلى العتاب والاستعطاف لإزالتها ومن ذلك رسالته التي كتبها إلى قاضي الجماعة بمراكش أبي اسحاق المكادي يقول فيها: " مثل السيد الذي راق بكرمه الأنام، ورضّ بشيمه الأيام، ورمى هدف

(1) الرسالة رقم: 72.

(2) الرسالة رقم: 189.

(3) الرسالة رقم: 70. وانظر له رسالة أخرى في هذا المعنى تحت رقم: 114، أجاب بها صديقه أبي عبد الله ابن مرج الكحل حين عاتبه.



المشكلات فقرطس مصيبا، وسما إلى المعلوات فلم يدع فيها لأحد نصيبا، هو أغزر علما، وأرسخ حلما، وأعلى قيمة، وأكرم شيمة، من أن يستخف نهاه واشٍ، أو يمشي إليه ماشٍ، وحاشاه أن يؤاخذ بعثرة دراها، وزلة يسمعها أو يراها، والظن بمجده العالي أن يكرّ على الإساءة بالصفح، ويمحو أثر الخطيئة بخلقه السّمح، هذا إذا جاء خبرها متواترا وكان كالصبح لا يلقى ضوءه ساترا، فكيف إذا كان إفكا مأثورا، أو هباءً منثورا، فما باله أعلى الله قدره، ولا حطّ عن فلك السيادة بدره، صدّ بوجهه وكتابه، وأقعد تحت المولم المُمِضّ من عتابه، ونأى بجانب إليه نأوي وأمرض وبما عنده كان التداوي"[1].

وكان القائد أبو بكر بن عيسى صاحب شاطبة قد كتب إليه يلومه فأجابه ابن عميرة معاتبا بقوله: " إلى أن وافاني كتابه المبرور وهو برق مللت من شيمه، وقطر جهلت جهة غيمه، وطارق انقبضت عنه إنكارا، وقلت له والله ما اتخذت عندنا جوارا، ولا كنت لنا زوّارا، ففيم الإلمام، وما هذا الملام، وكيف نسب إلى غيره التناسي، وكلّم ثم جعل نفسه الآسي، وعتب حتى في كتب لم أودعها تحيّة، ولم استبق من حواشيها لسلامي بقيّة، فقلت ما أعجب طلب الحواشي وقد أهملت متون، ومشى الماشي وخيل قطيعته صفون، أوَ لا يعلم أنّي لم أقبض عناني بهذا الميدان، وأعص فيه نفسا تنهاني عن الهجران، إلا بعد أن استأذنت فحجبت، وكتبت فما أجبت، وشفعت فكأني أغريت، وأثنيت فما خلتني إلا افتريت، وكنت أسمع أنه لا عمل لمن ثقل ظله، وصغر في عين من كان يجله، أجدى من أن يتخفف بالانقباض، ويتكلف ما يحمل من الإعراض، فطلبت الصلة من طريق الجفاء، وصبرت على مرارة الدواء توصلا إلى الشفاء"[2].

وقد يتخذ من المداعبة سبيلا إلى العتاب كما في هذه الرسالة التي عاتب فيها جماعة من أصدقائه بسبتة قطعوا صلته ومكاتبته: "ويا من بسبتة من القطّان، الشّرد عن الأوطان، فيم السّلوة، ولِمَ هذه الجفوة، أنقمتم أمرا، أم استبدلتم زيدا

(1) الرسالة رقم: 225.

(2) الرسالة رقم: 194.

| | |
|---|---|
| يـا غائـبا سـلبتني الأنـسَ غيبـتُه | وكـيف صـبري وقـد كابـدت بيـنهما |
| دعـواي أنـك فـي قلبـي يعارضـها | شـوقي إلـيك فكـيف الجمـع بيـنهما |

ولو اجتمعنا لكففنا الدّمع، وكفينا هذا الجمع، وبطل الشوق حتى كأنه ما أدّ، ولا سكن الفؤاد، ولكن أنّى وكيف، والعين الساهرة لا تحس الطيف، ومن لنا من الأيام بيوم أعتاب، ومن الحوادث بحديث عتاب، وقبلنا أعيت من قارع خيلها، وعارض سيلها، وسام أجدلها أن لا ينقضّ، وجندلها أن يدع الرّضّ، ومن العناء هرم يروضه القوم، وقرم يراد منه الصوم"[1].

ونجده في بعض رسائله يجمع بين الشوق والشكوى كما في هذه الرسالة التي جاء فيها: "وما حالُ من جرّعه البينُ صَابَه، ورماه سهمُهُ فأصابه، فهو يندب زمانا ما له ردٌّ، وطلولا ليس لأحبته بها عهد، ويروم إطفاء اللّوعة ونارها مشبوبة، ويطلب طريق السّلوة وهي عنه محجوبة، أنأيُ عن الوطن والسّكن فبِمَ التعلّل، وإحرام من ميقات الشجن في مشقات الزمن فمتى التحلل، وأنا بين أسى يقدّ مفاض الصّبر، وذكرى أجد لها انتفاض العصفور من القطرِ، فليت شعري نِضْوُ الشجن الطويل، أيرجى له إبلال، ووادي الإذخر والجليل، متى يلمّ به بلال"[2].

وبعد الحنين والشوق تأتي الشكوى وله فيها نصيب موفور، فقد جاء في إحدى رسائله التي أجاب بها أحد إخوانه ما يلي: "وقد صادف مني كتابكم الأخير قلبا عليلا، وبثا طويلا، ولوعة فرت مُديتها، وحمّة عزّت رقيتها، وذلك عذري في أن لم أجب الآن فلانا وما أشار إليه كتبا منه وإلقاء إليكم فأنا أوجب أن أكون فيه المتبوع لا التابع، والمتقدّم لا السّادس ولا السّابع، ولكن الجدّ ناب، والزّند كاب، والقلب رهين حسرة واكتئاب"[3].

ونقتبس هذه الفقرة من الرسالة التي كتبها إلى أحد أصدقائه يشكو من وقائع معينة ويصف حاله قائلا: "وعجالتي هذه تكلفتها والقلم يمج المداد، والقول يمنع القياد، والفكر ضَنٍ بغير عائد، عَمٍ دون قائد، فأما العين فبضروب الأقذاء

(1) الرسالة رقم: 216. وانظر رسالة أخرى له في هذا المعنى تحت رقم: 153.
(2) الرسالة رقم: 260.
(3) الرسالة رقم: 34.



مطروقة، وعن الملائم من محسوسها مصروفة، رأت ما لم ترَ عين، ودعت على البين فلا كان بين... والحال التي أنا عليها الآن سقم بغير عائد، وظلم من زمن معاند، وتفصيل هذا المجمل في رسالة غير هذه استوفيته، وكتابي هذا على نسختها طويته"[1].

ويكتب إلى صديقه الحافظ ابن سيد الناس شاكيا فيقول: "فحتى متى نوًى قطّاعة، وخطوب إمرتها مطاعة، ويا ليتني كنت كمن استعصى على الهوى، وفارق حتى ما يبالي من النّوى، لكنّي على كثرة مَن فارقته، ومع عناق الاجتماع للوداع عانقته، لا أزال ذا نفس مروعة، وكبد مصدوعة، ودمعة مصبوبة، ولوعة مشبوبة، وذكر سيّدي أن قراءة كتابي أحدثت له هياما، وأرسلت دموعه سجاما، وبقي يومه كاسف البال، هائج البلبال". ويستمر في الشكوى من كيد الحاسدين قائلا: "وأشار من أموره إلى ما فهمته، وألمع من الأحوال بما علمته، والحسادة بلاء عظيم، وداء قديم، ولأن يبتلى الإنسان بحاسد محاسنه يكون لشهدها شائرا، ولبردها ناشرا، خير له من حياة يرحمه فيها من يمنع إحسانه، ولا تعدو رحمته لسانه، والصبر للظفر مفتاح، وفي ليل الغمّ والهمّ مصباح، فرحم الله أمرئً دارى أيامه، واحتمل آلامه"[2].

أمّا شكواه من الغربة وتقلب الزمان فقد عبّر عنها في إحدى رسائله قائلا: "والنّوى قد أمرّ طعمها بكل لهاة، وحالت دون كل بغية مشتهاة، وأقبلت لا تقصر الخطا، وأيقظت وكان ينام لو تُرك القطا، ثم خيّمت فما تقوّض، وأخذت وهي لا تعوّض، وصرنا معها موطنا لكل سالك، مماليك مع أفضّ مالك، وكنت أحسب أن أمدها معكم قد قارب الانقضاء، وسيفها ملّ الانتضاء، حين دنوتم بالشخص، وألمعتم بما جرى مجرى النّص، فصال على غربته الغريب، وهمّ بالعهد البعيد اللّقاء القريب"[3].

ولعل أطول رسائل ابن عميرة في هذا الباب هي الرسالة التي كتبها من

(1) الرسالة رقم: 92.
(2) الرسالة رقم: 95.
(3) الرسالة رقم: 106.

مدينة سلا يشكو فيها سوء حظه مع خطتي الكتابة والقضاء في هذه المدينة[1].

## 6- الوصف:

وهو من الأغراض التي طرقها ابن عميرة كذلك وكثر في رسائله، وهو يدور حول نوعين من الوصف، أحدهما وصف رسائل وبلاغة وقصائد إخوانه وأصدقائه من الكتاب والمنشئين والشعراء وغيرهم، والآخر وصف الرحلات والأسفار. فأمّا النوع الأول فغالبا ما يفتتح به رسائله بالإشارة إلى الرسالة أو القصيدة الواردة عليه، وقد يفرد جوابا كاملا لوصفها، فيلجأ إلى وصف بلاغتها وألفاظها ويتفنن في نعتها وتشبيهها بمختلف الأوصاف والنعوت كالحلة، والروضة، والخميلة، والكاعب، والدر، والجوهر، والعروس، والمهاة، والماء، والوشي، والسحر وغيرها من الأوصاف. وأمّا النوع الثاني فهو وصف قائم بذاته لرحلاته ووصف مشاهداته المدونة في رسائله التي كتبها إلى أصدقائه ومخدوميه ورؤسائه.

ومن نماذج النوع الأول رسالته التي أجاب بها كاتبا من أصدقائه يصف فيها مخاطبته وبلاغته فقال: "وافتني مخاطبتكم المبرورة لها من الرّوض نضارته، وفيها من البيان ما تروق عبارته وتشوق إشارته، وكانت الكتابة ترى أنها صنعة تنأى على العلماء بجانب، وتأبى أن يكون عالم يوصف بكاتب، حتى ضمّ شاردَها حرمُكم، وأغار على سرحها قلمكم، فها هي قد ألقت عندكم عَصَاها، وقلبت دُرّا ما كان من حصاها، وصرنا ننظر في أعقابها، ونتتبع معانيها وإنما هي لمالك رقابها، فحقنا أن نقطع ما بيننا وبينها من علاقة، ونحكم في القلم والحبر بما يُحكم في الخمر من كسر وإراقة"[2].

ومن أخرى قوله: "ووصلتني رقعته المبرورة، فشاهدت بها الرّوض المطلول له أرج، وتناولت منها الشمول ليس فيها حرج، وقلت أهلا للزائرة الحسناء، السّنية من بيت السّناء، فدتها المهج، حين أدّتها اللجج، وتحلّى بها النحر، عندما تخلى عنها البحر، واشتملت من المنطق الجزل، والمنزع البعيد من الهزل،

(1) انظر الرسالة رقم: 74.

(2) الرسالة رقم: 18.



على نكت جعلتها سميري وشربتها بضميري، ورضيت لسرّ المسرّة بها شرحي وتفسيري "[1].

وقد يبالغ في وصف قصائد ورسائل أصدقائه من الشعراء والكتاب فيحكم لها بالتفوّق على رسائل الميكالي والبديع والخوارزمي مثلا، وبالسّمو على شعر أبي تمام والبحتري، ونقف له على رسالتين في وصف قصيدتين يذهب في تفضيلهما على معلقة امرئ القيس فيقول في الأولى التي كتبها لأبي سليمان الطرانتي: " فأما القصيدة فدالية بالحسن مدلّة، وذات دلّ لا حاجة بها إلى أن تقام على براعة أدبها أدلة، دفعت في قِفا نبك، وجهرت بالسب لما توصف به من جودة السبك، وأين من الجارية اللعساء، والكاعب الحسناء، ذات شبيبة ولت، وعجوز مُلّ منها وملّت، شربها الرواة حتى مجّوها، ولبسها أهل العصر حتى أنهجوها، فأما هذه فألفاظ كما نظم الجمان، ومعان من بحرها يخرج اللؤلؤ والمرجان، أخذت بمجامع القلوب، وجمعت مابين مجلوب من الحسن وغير مجلوب"[2].

وفي الأخرى: "ووقفت من القافية على أخت قفا رياسة من الأشعار، وشهرة عند عوام النظار، فقد وجدناهم يشهدون بتفضيلها، ويهتدون بضليلها، ويعجبون بأنّه وقف، واستوقف، وبكى واستبكى، وفعل وصنع من هذيانات تحكى، وأشياء لا تمر ببال النّوكى، وأين من المهاة اللعساء، والكاعب الحسناء، والخريدة التي هي كما قالت سكينة كنت أحسن من السماء، وأعذب من الماء، ذات شبيبة ولّت، وعجوز ملّ منها وملت، شربها الرواة حتى فجوها، ولبسها أهل العصور حتى أنهجوها، وأكثرها خبر عن عنيزة وزيارتها، وأمّ الحويرث وجارتها، أو نفض لغبار الكديد، وركض كمثل خذروف الوليد"[3].

أمّا رسائله المتعلقة برحلاته وأحوال السفر والطرق والمدن والآثار وغيرها، فمنها الرسالة التي تصف رحلته من مرسية إلى غرناطة، وهي رسالة إخوانية طريفة

(1) الرسالة رقم: 33. وانظر له في هذا المعنى الرسالة رقم: 176.

(2) انظر الرسالة رقم: 82.

(3) الرسالة رقم: 183. وانظر له في هذا المعنى الرسالة التي أجاب بها أبا القاسم بن عمران تحت رقم: 184، وأخرى كتبها إلى أبي بكر بن حجاج تحت رقم: 252.

كتبها من برشانة في وصف مراحل هذا الطريق[1].

ومنها الرسالة التي قدّمها إلى الخليفة الموحدي الرّشيد ووصف فيها رحلته من سلا إلى مراكش ومن فصولها في وصف المحلة: "وصلناها والشمس يتبيّن زوالها، وطهارة المكتوبة يتعيّن استعمالها، وانتهينا إلى المحلّة، وهي روض يثمر خيلا وأعنّة، وبحر يزخر قنًى وأسنّة، وذوائب الأعلام تخفق، وألسنة عذاباتها تكاد بالنصر تنطق، والأحوال قد استقامت، والأخبية على القاعدين فيها قد قامت، وهي مبيضّة كسقيط الثلج، مصطفّة كبيوت الشطرنج، وأطللنا على أفراق فراق، وأعار ذلك الجوّ الإشراق، وقيل هو أُمّ لتلك البنات، مدينة لم تشدها بل لم تشنها أيدي البناة، قصر ما أبصرته بُصرَى، وإيوان كم تمنّى كسره كسرى، وصنعة أعي أمرها المهندس، وأخفى صباحها الحندس"[2].

وله رسالة طويلة وصف فيها رحلته البحرية من سبتة إلى بجاية[3]، وأخرى وصف فيها رحلته من بجاية إلى قسنطينة ورجوعه إليها جاء فيها: " وقسنطينة مدينة عتيقة، وعقيلة في قصائر القياصر عريقة، وفيها كل آية بنيت بريعها، وصنعة حبيت بديعها، وكل أثر لا يدري أأيدٍ بنت الإيوان صنعته، أم جنّ سخرت لسليمان اخترعته، حتى كأن صخر تدمر من فضلها جُمع، وبناء الهرمين على شكلها صُنع، وحتى كأن الأيام وفت لها على خلاف عادتها، وأرادت أن تبلغ بها أوان سعادتها، وذلك لأنّ تبوّأ المولى منزلها مناخا بذي طواه، ومستقرا لإجمام قواه، واختار هواءها الخالص من الأقذاء، وماءها المصلح للغذاء، وقصرها الذي نجّدته الهمم العالية، وأوجدته الأمم الخالية، وأبقوا منه أثرا نالوا منه بعد اخترام القرون، وخرائب المدائن والحصون، ذكرا هو البقاء الثاني، وفخرا لم يكن في حساب الباني، ولو على قدر هذا الساكن رفع سمك بنائه، وتولّى توسعة فنائه، لتمنّى أن يرفع سقفه مع السقف المرفوع، ويجعل نجومه أجر الصانع وأجر المصنوع، ولقد

---

(1) الرسالة رقم: 88.

(2) الرسالة رقم: 65.

(3) الرسالة رقم: 154.



وقفت على تلك الجُدرَات مرارا، وأطلت النظر إليها اعتبارا"[1].

### 7- المدح والرثاء:

لم يقصر ابن عميرة إنتاجه الأدبي على الكتابة النثرية التي اشتهر بها بل زاحم الشعراء في ميدان القريض ونظم الكثير منه. وبعض شعره نجده في رسائله الإخوانية التي كان يستهلها أو يختتمها بشيء منه، والبعض الآخر قائم بذاته وهو عبارة عن قصائد ومقطعات نظمها في أغراض مختلفة كالمدح والرثاء والإخوانيات والوصف وغيرها.

ومن شعره في المدح قصيدته التي مدح فيها أبا زكرياء الحفصي وأولها:

عـتب الـزمان علـيه حتـى أعتـبا     وأتـاه يجلـو العـذر عمّـا أذنـبا[2]

وفيها يتشوّق إلى الهجرة والانتقال إلى حضرته بتونس. ومدح الأمير المذكور في قصيدة أخرى ووصف جيشه حيث استهلها بموضوع المدح مباشرة من دون افتتاحية الغزل التقليدي أو الشكوى والحنين كما في قصائد أخرى وهذا مطلعها:

أقـبلت نحـوك البـشائر تتـرى     ووجـوه المنـى تلقـتك غـرّا[3]

وحين اتخذ المستنصر الحفصي لقب الخلافة مدحه بهذه المناسبة في قصيدته التي مطلعها:

الـيوم أورق للخلافـة عـودها     ووفـى لهـا ولأهلهـا موعـودها[4]

أمّا في الرّثاء فقد رثى الأشخاص كما رثى المدن، وهو في رثائه للأشخاص يندب الميت ويتفجّع ويتحسّر عليه ويعظمه ويعدّد مناقبه وصفاته من

---

(1) الرسالة رقم: 17. وانظر له رسالة أخرى وصف فيها رحلة أحد أصدقائه من سلا إلى مكناسة تحت رقم: 263.

(2) انظر الرسالة رقم: 66.

(3) انظر الرسالة رقم: 76.

(4) انظر الرسالة رقم: 3. وله في مدح الوزير ابن عطوش قصيدتان انظرهما تحت رقمي: 187 و253.

علم وحلم وشجاعة وغيرها، ويضيف إلى ذلك تعزية أهله. ومن رثائه قصيدته التي يرثي فيها شيخه وأستاذه أبا الربيع الكلاعي الذي استشهد في موقعة أنيشة قرب بلنسية حيث يقول بعد افتتاحية الشكوى ووصف الدنيا وغرورها:

وأعظم من فجعتنا به ... حليف الندى الماجد الواهبُ
وذاك سليمان لا عابث ... إذا الأمر جدّ ولا لاعبُ
ولكن أخو الجدّ يمضي على ... مناهج ليس لها عائبُ
فلله من نفسه جانب ... وللصّحب من أنسه جانبُ
فأي امرئ سار نحو الرّدى ... كما صمّم الصارم القاضبُ
وأي مناقب ملء الزمان ... قام بها بعده النادبُ
فيا نور علم تُفدى به ... شهاب لناظره ثاقبُ
ويا طود حلم تخفّ الحُلوم ... وهو على حاله راتبُ[1]

وقال يرثي الرّئيس أبا الحسين بن عيسى:

رُزءٌ كصاحبه يعزّ نظيره ... ومن الرّزايا كالورى آحاد
ذهب العماد فهل لنا من بعده ... إن ضعضعتنا الحادثات عماد
بدرُ خبا تخبو البدور لنوره ... طود هوى من دونه الأطواد[2]

وقال من قصيدة في رثاء الأمير أبي زكرياء الحفصي:

مَن يعزّي دين النبي البشير ... فلقد جل رزؤه في الأمير
ولقد غاله الرّدى يوم أودى ... بإمام الهدى بخطب كبير
ورمى صدره بأنفذ سهم ... وقعُه في القلوب قبل الصدور
نبأ ما هوى بجانب رَضْوَى ... وهفا ركنه بركن ثبير

(1) انظر الرسالة رقم: 75. ولابن الأبار في شيخه أبي الربيع الكلاعي مرثية بلغت (151) بيتا، جاء القسم الأول منها في رثاء الشهداء الذين سقطوا معه والقسم الثاني في رثاء الكلاعي، وهي ممزوجة بالشعور الوطني والعاطفة الدينية. كما رثاه ابن شلبون أيضا. انظر قصيدة ابن الأبار عند ابن عبد الملك في الذيل، السفر 4، ص 90 وما بعدها، ومرثية ابن شلبون عند ابن الأبار في تحفة القادم، ص 216.

(2) انظر الرسالة رقم: 118.



مازج الماء فاستحال أجاجًا ... كل عذب المذاق منه نمير
وطوى الأرض فادلهمّت وكانت ... في سنًى يخطف العيون ونور
فجفون منها انسكاب الغوادي ... وقلوب فيها احتدام الهجير
أسفا للحياة أبدل منها ... ظلها عند طيبه بالحرور[1]

وأمّا رثاء المدن نظما ونثرا، فهو من الألوان التي ازدهرت في الثلث الثاني من القرن السابع الهجري، حيث تناثر سلك الجزيرة الأندلسية وتساقطت مدنها الواحدة تلو الأخرى، فبكاها ابن عميرة كما بكاها غيره من الأدباء والشعراء ورثوها واستصرخوا فيها المسلمين في كل مكان لإنقاذها. وكانت مدينة بلنسية أوفر حظا في هذا الموضوع لكثرة شعرائها[2]، ومن ذلك قصيدته التي بعثها إلى تلميذه أبي العبّاس بن أمية يندب فيها سقوط هذه المدينة فقال:

أمن بعد رزء في بلنسية ثوى ... بأحنائنا كالنار مضرمة الوَقدِ
يُرجى أناس جُنّة من مصائب ... تطاعن فيهم بالمثقفة المُلدِ
ألا ليت شعري هل لها من مطالع ... معاد إلى ما كان فيها من السّعدِ
وهل أذنب الأبناء ذنب أبيهم ... فصاروا إلى الإخراج من جنّة الخلدِ[3]

ولابن عميرة في رثاء بلده ومسقط رأسه جزيرة شقر شعر كثير يكشف في معظمه عن حزن وحنين، وتشوق وحسرة، ومنه القصيدة التي كتبها إلى صديقه أبي الحسين بن مفوّز والتي نقتطف منها هذه الأبيات:

يا دهر ليتك كنت عنا معرضا ... إذ لا نرى لك غير وجه كالح
أولدت أيام المكاره ثم لا ... نرجوك في ميلاد يوم صالح

(1) انظر الرّسالة رقم: 220. وانظر من قصائده الأخرى في رثاء الأشخاص قصيدة رثى فيها الأمير أبا يحيى بن أبي زكرياء الحفصي تحت رقم: 233، وأخرى رثى فيها أبا القاسم محمد بن أبي علي بن خلاص الذي مات غريقا تحت رقم: 241.

(2) يقول الحميري في ترجمته لهذه المدينة عندما احتلها النصارى: "وقد أكثر أدباؤها بكاءها والتأسف عليها نظما ونثرا". الروض المعطار، ص 97.

(3) انظر الرّسالة رقم: 83. وانظر له رسالة أخرى في المعنى نفسه كتبها إلى ابن شلبون تحت رقم: 84.

وأبيت غير ضغينة من كاشر ... وحميت إلا من سخيمة كاشح
وأزحتنا عن منزل كنّا به ... في ظل عيش بالأماني طافح
شُقر وما شُقر وأيك حوله ... تسلي النفوس بصائح أو صادح
أرض تخيرها لطيب هوائها ... عَبِقون من أرج الثناء الفائح
وأرى النعيم وكل ما يغدو له ... يوما يصير إلى زوال رائح[1]

وله قصيدة أخرى كتبها إلى أبي سليمان الطرانتي يبكي فيها جزيرة شقر وشرق الأندلس وفيها يمتزج الرّثاء بالحنين إلى معالمها وذكريات الماضي إذ يقول:

تذكر عهد الشرق والشرق شاسع ... وذاب أسىً للبرق والبرق لامع
وأتبع ذكر الجزع أنّه موجع ... له أبدا قلب على الجزع جازع
كفى حزنا نأي عن الأهل بعدما ... نأينا عن الأوطان فهي بلاقع
نوى غربة حتى بمنزل غربة ... لقد صنع البين الذي هو صانع
أحنّ إلى أرض تقادم عهدها ... ومن دونها أيدي الخطوب الموانع
وكيف بشُقر أو بزرقة مائه ... وفيه لشقرٍ أو لوُرْقٍ مشارع[2]

## 8- أغراض أخرى:

بالإضافة إلى الموضوعات التي ذكرناها فإنّ ابن عميرة قد طرق أغراضا أخرى في بعض رسائله التي اشتمل عليها ديوانه، ومنها الاعتذار، والهجاء، والألغاز والأحاجي، والخطب الدينية والمواعظ، والإجازات.

ومن رسائله في الاعتذار ما كتبه إلى أبي عمران الفازازي، وكان المذكور قد كتب إلى ابن عميرة خطابا خاليا من اسمه فظنّ أنّه من أحد الأندلسيين، ولمّا كتب إليه الفازازي خطابا آخر يلومه فيه على تأخير الجواب أجابه ابن عميرة برسالة يشرح فيه أسباب التأخير ويعتذر إليه، وممّا جاء فيها: " فلما رأيت كتابكم علمت أن الأول تِربُه، وأنّ شِرْبَ هذا من البلاغة هو شربُه، وخطّأت حدسي ولمت على هذا

(1) انظر الرسالة رقم: 85.
(2) انظر الرسالة رقم: 82.



السّهو نفسي، وقلت لو كنت مُغرِبًا لعرفت من الخيل صهيلها، أو بطلا ميّزت من الظبا صليلها، ولكن ما يقال في فكر ينبط من صمّاء، ويخبط خبط عشواء، ويمري ولا خلف يدرّ، ويسري وكل ضوء عنده يستسرّ، فغريمه ممطول معنًى، والمتمنّى عليه لا يجد متمنّى"[1].

أمّا الهجاء فلم نجد له فيه إلا القليل، ومن ذلك رسالة كتبها إلى أحد إخوانه يهجو فيها كاتبا ينتمي إلى الفلسفة ويسخر منه وينعته بالجهل والعجز فيقول: "فما عسى أن يقال في كاتب يقف قلمه على الأبواب مستكينا، ويقعد بين الأقلام مهينا، ويرى عارا عليه أن تباشر أداته يمينه، أو تضم دواته جنينه، فهو يغضّ الطّرف من الحياء، ولا يدري فرقا بين ذوات الواو والياء، يتمنّى مع ذلك الادّعاء، لو كان من يرعى الرّعاء، وينظر إلى مطالع الخلاص، ولو نقل لصانع الأقفاص، ولكم رام منه فقرة تطلق لسانه، وتظهر إحسانه، فلا يأتيه منها إلّا ما يسخن مناظر عينه، ويزيده شينا إلى شينه، فقد شاهدناه وفي شماله الدّرج الضائع، وبيمينه القلم الضّارع، والدّواة بين يديه، والعيون ناظرة إليه، وهو يتقاعس ويتثاءب، ويتعاصب ويتواثب، ويحدّث بما ليس من خبره، ويعبث بما تطاير من شَعره، والذهن شعاع مفترق، والقلم بالمداد غصّان شرق، والفِقَرُ صمّ بكم، والألفاظ ليس له عليها حكم، حتى إذا أعجله المستحث، وقد حلف له وخاف أن يقع الحنث، أثبت ما لا معنى له فيلج الأذهان، أو هو ذو معنى يضحك الثكلان"[2].

وقد جارى ابن عميرة أهل عصره الذين كانوا يرون في كتابة الألغاز والأحاجي رياضة فكرية وأدبية فشاركهم في كتابتها، وقد احتفظ لنا جامع رسائله بطائفة منها[3].

وننتقل إلى النثر الدّيني الذي كتب فيه ابن عميرة مجموعة من الخطب

(1) انظر الرسالة رقم: 268. وانظر له في هذا الباب الرسالتين رقم: 8 و30.
(2) انظر الرسالة رقم: 71. وله في هذا الباب رسالة أخرى كتبها إلى أديب متكسّب يهجو فيها أحد البخلاء، انظرها تحت رقم: 73.
(3) انظرها في الرسالة رقم: 144.

والمواعظ، فأما الخطب فمنها خطبة في وداع رمضان[1]، وخطبتان في النكاح[2]، وأخرى في صداق القائد أبي عمرو بن عيسى[3]، وهو الأخ الأكبر للقائد أبي بكر بن عيسى الذي كتب ابن عميرة صداقه أيضا، وقد أورد ابن المرابط نص هذا الصداق[4]، والوثيقتان نموذجان للطريقة التي كانت تُكتب بها العقود يومئذ، وقد تولّى ابن عميرة كتابتهما بنفسه تقديرا لمكانة هذين القائدين، ووفاء للصداقة المتينة التي كانت تربطه بهذه الأسرة من الخزرجيين الذين حكموا شاطبة في عهودها الأخيرة.

وعرفت الكتابة في الزهديات والمواعظ انتشارا كبيرا بالأندلس في عصر ابن عميرة كما يتضح ذلك من كتب التراجم، ولمّا وجد الأدب الزّهدي المشرقي طريقه إلى بلاد الأندلس قام علماؤها وأدباؤها بمعارضته ومحاكاته، ومن النماذج المشرقية التي برزت في هذا اللون الإمام الحافظ الواعظ جمال الدّين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي (510-597 هـ/1116-1200م) الذي لقيه أبو بكر محمد بن عفير الأموي في المشرق فرجع إلى الأندلس يحمل طريقته في الوعظ. وقد نحا ابن عميرة في كتابة فصوله الوعظية منحى ابن الجوزي كما يقول ابن عبد الملك[5].

ومن فصوله الوعظية قوله عن مراجعة النفس: " راجع نفسك فإنها بالسّوء أمّارة، وسمها بالصّلاح فليس عليها منه أمارة، واخلع عليها لبوس العجب فإنه يطوف بها في سكك البطالة، ويطيل سفرها في المحظور ولا خير في تلك الإطالة، أعروهنّ يلزمن الحجال، إنها لتقف بك موقف المؤنس، وتخونك خيانة المُومس، فليس من الحقّ أن تلقاها بوجه غير جَهم، وترغب بها عن عسرة معاوية وعصى أبي جهم"[6].

(1) انظر الرسالة رقم: 4.

(2) انظر الرّسالتين رقم: 2 و54.

(3) انظر الرّسالة رقم: 13.

(4) ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، ص 230.

(5) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج 1، ص 170.

(6) انظر الرسالة رقم: 234.



ويقول في فصل آخر أيضا: " يا هذا أما لتقصيرك حدٌّ، أمَا لك إلى الله مردٌّ، أما ينقضي لك في طلب الفانية كدّ، أنت في تدبير دنياك أصنع من سُرفة، وفي أمر آخرتك أخرق من حمامة، إن انبعثت لحقّ نفسك ففند في إهابك، ومتى ذهبت في شهوة بدَنِك كنت السّليك في سرعة ذهابك، أيّها المجاهر بالمعصية أتشهد أنّ من يراك يراك؟، إن قلت نعم فاحذر عاقبة اغترارك، وإن قلت لا فتأخّر قبل أن تحرق بنارك، أين أنت من رجال صدقوا ما عَاهَدوا الله عليه، وسبقوا إلى الأمد الذي دَعَاهُم إليه، اشترى منهم أنفسهم المقبوضة في معترك الهيجاء، ومعترك الأعداء بالجنة التي أكرم فيها مثوى الشهداء، فلمّا تمّ لهم العقد الميمون، وتميّز عندهم الثمن والمثمون، اغتبطوا بصفقة لأحد العِوَضين، فيها حكم النقد، وتنزّهوا عن طلب زيادةٍ على ما تعيّن وقت العقد، ولذلك أعرضوا عن الغنائم، ورأوا أن متاع الدّنيا مثل أحلام النائم"[1].

ويخصّص فصولا للخلفاء الراشدين والصحابة ويمجّدهم ويذكرهم بخير ومنهم بلال بن رباح الذي قال عنه وعن معذّبه أمية بن خلف: "المرء بخيره، لا بغيره، وبفضيلته، لا بفصيلته، تقوى الرّجل سببٌ تهن عنده الأسباب، ونسب تهون معه الأنساب، دُعي إلى الإسلام أخو جُمَح فجمح، وما جنح، وكان في رقّه بلال فرقّ فؤاده، وسَهُل قياده، هذا بحبشيّته في السّعداء، وذلك على قرشيته من البُعداء، اشتفى منه بعذاب أقرضه إيّاه، فقضاه يوم القليب ووفّاه، لم يَرْعَ له ولاية الحق، فأعرض فيه عن حُرمة المستحق، أغرى به سفهاء مكة، فحشر عليه سراة يثرب، أقعده في الرّمضاء حتّى حَمِي، فضربه بسيوف الأنصار حتّى برد"[2].

ونختم الحديث عن الأغراض التي طرقها ابن عميرة بالإشارة إلى الإجازة الوحيدة التي وردت في ديوان رسائله، وقد كتبها سنة 648 هـ/1250م وأجاز فيها عالما وابنه لم يسمّهما، وهي بمثابة برنامج مختصر لأنّه ذكر فيها أشهر شيوخه الذين لازمهم وأخذ عنهم مع الإلمام بتراجمهم، ولكنه لم يستقص فيها جميع

(1) الرسالة نفسها.

(2) الرسالة نفسها. وانظر له في هذا الباب الرسائل ذات الأرقام: 235 و236 و237.

شيوخه وأساتذته الذين تتلمذ عليهم سيما المغمورين منهم وهو ما أشار إليه حين قال: "وفي هؤلاء المسمّين غنية عن سواهم ممّن لا يضبط تصنيفا، أو لا يعدو أن يكون مجهولا أو ضعيفا"[1].

ولعل ذلك كان بناء على طلب سائل الإجازة كما يستفاد من قوله: "وسألني إجازته فيما جمعته من الروايات، وتكلفته من الإنشاءات، وتضمنت رسالته مع ذلك طلبي بتسمية بعض المشايخ، والكتب التي حظيت عند نقلة العلوم بالذكر الذائع والمحل الشامخ"[2]. ورغم ذلك تبقى هذه الإجازة وثيقة قيمة كشفت عن جوانب هامة من بيئة ابن عميرة العلمية وحياته الدراسية التي امتدّت على مدى أربعة عقود.

(1) انظر الرسالة رقم: 177.

(2) الرسالة نفسها.

## خامساً: الخصائص الفنية

لقد أنتج ابن عميرة عددا ضخما من الرسائل الديوانية والإخوانية حتى انتهت إليه رئاسة صناعة الكتابة والترسّل في عصره، واشتهر في هذا الفن، وشهد له بالإمامة فيها فحول الكتاب والمترسّلين من معاصريه ومن أتى بعدهم، فقد وصفه صديقه أبو الحسن الرّعيني بعلم أعلام الجزيرة وبالتقدّم في الكتابة على أهل زمانه، ومن مدحه فيه قوله:

أبـا المطـرف دعـوة مـن خـالص ... لعــلاك غائـــب ودّه وشـــهيده

أنــت الوحـيد بلاغـة وبــراعة ... ولــك البـيان طـريفه وتلــيده

فالنثــر أنــت بديعــه وعمــاده ... والــنظم أنــت حبيبه ولــيده[1]

وهو يشير في البيت الأخير إلى بديع الزمان الهمذاني، والعماد الأصفهاني، وأبي تمام، والبحتري. ونعته ابن سعيد بقوله: "شيخ كتاب زماننا وإمام أدباء أهل أواننا"[2].

وقال عنه ابن الأبار: "فائدة هذه المائة، والواحد يفي بالفئة، الذي اعترف بأمجاده الجميع، واتصف بالإبداع فماذا يوصف به البديع"[3]. وهو عند ابن عبد الملك: "علم الكتابة المشهور، وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدّهور"[4]. أمّا ابن الخطيب فقد أطنب في مدحه ووصف بلاغته وكتابته[5].

أمّا عن الخصائص الفنية التي اتسمت بها كتابته فهي الخصائص نفسها التي عرفت في النثر الفني منذ القرن الرابع الهجري وظلت تتطور بعد ذلك، وكانت سائدة عند كتّاب عصره الذين يمثلون حلقة مهمة ومرحلة متميزة في سلسلة تطور

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص 164.

(2) ابن سعيد، اختصار القدح، ص 42.

(3) ابن الأبار، تحفة القادم، ص 29.

(4) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج 1، ص 152.

(5) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 62.

الأدب الأندلسي، وينتمون إلى مدرسة لها طابعها الخاص، هي أشبه ما تكون بمدرسة القاضي الفاضل والعماد الأصبهاني المشرقية والموازية لها تقريبا من الناحية الزمنية. ثم إن هذه المدرسة هي التي مهدت لظهور جيل من الكتاب عرفهم القرن الثامن الهجري فكانت قدوة مباشرة ونموذجا حيا لهم أمثال ابن الخطيب والشريف الغرناطي وابن شبرين وعبد المهيمن الحضرمي وغيرهم. وفيما يلي الخصائص الفنية التي تميّزت بها رسائل ابن عميرة:

### 1- البدء والختام:

لقد شمل الإصلاح والتغيير الذي أحدثه الموحدون في مختلف النظم ديوان الرسائل فأصبحت الكتابة الديوانية على عهدهم ذات رسوم وتقاليد خاصة وطريقة متميّزة عن غيرها، كما وضّح لنا ذلك القلقشندي في حديثه عن المكاتبات الصادرة عن ملوك أهل المغرب من خلال النماذج التي انتهت إليه، خصوصا رسائل ابن عميرة وابن الجنان، فيذكر أنّها كانت على أسلوبين: الأول أن تفتتح المكاتبة بلفظ من فلان إلى فلان وكان الرّسم فيها أن يقال: "من أمير المؤمنين فلان، ويدعى له بما يناسبه، ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم، والترضية عن الصحابة، ثم عن إمامهم المهدي، ثم يؤتى على المقصود، ويختم بالسلام. والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة، وميم الجمع عن المكتوب إليه"[1]. والأسلوب الثاني أن تفتتح المخاطبة بلفظ أمّا بعد، ويعقبها الحمد لله، ويؤتى على الخطبة إلى آخرها، ثم يتخلص إلى المقصود ويختم بالسلام، أو ذكر المقصود بعد البعدية من غير خطبة[2].

ويضيف المصدر نفسه أنّ هذه الطريقة المغربية في الرسائل الرسمية تنفرد عن نظيرتها المشرقية بأشياء منها: "أنّ المخاطبة تقع للمكتوب إليه بميم الجمع مع الانفراد كما تقع الكتابة عن المكتوب عنه بنون الجمع مع الانفراد، ومنها أنّهم يلتزمون الدعاء بمعنى الكتابة عند قولهم كتبنا بأن يقال: كتبنا إليكم كتب الله لكم

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 7، ص 30.
(2) المصدر نفسه.



كذا، ومنها أنهم يترضون عن الخليفة القائمين بدعوته في كتبهم، ومنها أنهم يذكرون اسم المكتوب إليه في أثناء الكتاب، وكتبهم تختم بالسلام غالبا وربما ختمت بالدعاء ونحوه"[1].

ولم تكن هذه الطريقة التي أفادنا بها صاحب صبح الأعشى مقتصرة على الكتابة في عهد الموحدين وإنما كانت مستعملة أيضا في دواوين الحفصيين ورثة الموحدين، ودواوين الدويلات والإمارات التي قامت في الأندلس بعد زوال الدولة الموحدية، وكما هو معلوم فإنّ ابن عميرة قد اشتغل بالكتابة لدى جميع هذه الدول، لذلك فإننا نجد كل الخصائص والمميزات والرسوم التي أشار إليها القلقشندي مذكورة في رسائله.

وعن الرسائل الإخوانية يذكر القلقشندي أنّ أهل المغرب تميّزوا في إخوانياتهم بأنّهم ربّما خاطبوا الواحد بميم الجمع تعظيما للمكتوب إليه ولا يعرف ذلك لغيرهم. كما اعترف بأنّ صدور هذه الإخوانيات وخواتيمها متعدّدة ولا يمكن ضبطها، ومنها البدء بالدعاء، أو بلفظة كتابي، أو كتبت، أو بالخطاب، أو بالتحيّة والسلام، أو من فلان إلى فلان، أو الجناب الرّئاسي، أو الجناب المبارك، أو الرئاسة المباركة، أو الرئاسة السامية، أو سيدي وعمادي، أو المحل الأعلى، وما إلى ذلك من الألفاظ[2]. وجميع هذه الأساليب وغيرها نجدها في رسائل ابن عميرة الإخوانية.

### 2- الجمل الدّعائية والاعتراضية:

وهي من السمات البارزة في أسلوب ابن عميرة حيث استعملها بكثرة في رسائله الدّيوانية والإخوانية، والمقصود بالجمل الدّعائية تلك العبارات التي تتضمّن الدّعاء بدوام العزّ والسعادة وامتداد السلطان وطول الأجل والسلامة وراحة البال وازدياد القوة وما إلى ذلك من المعاني العديدة. أمّا المعترضة فهي التي تأتي بين الكلام وقد تكون دعائية أيضا في مضمونها.

(1) المصدر نفسه.
(2) المصدر نفسه، ج 8، ص 148.

وقد تميّزت هذه الجمل بالقصر في معظمها إذ لا تتعدّى الجملتين أو الثلاث في أغلب الأحيان، كما أنّها موجودة في جميع رسائله تقريبا. ولعل طبيعة ابن عميرة وميله إلى التديّن ورغبته في دوام المنح والعطاء والعون والحرص على دفع الحسد والوشايات والإبقاء على رباط الأخوة والصداقة والاحترام والتقدير وغيرها من القيم كانت من وراء ذلك.

### 3- الاقتباس والتضمين:

والمقصود به الاقتباس من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والأمثال والحكم وتضمين الشعر، وهو من الأساليب التي استخدمها ابن عميرة كثيرا في رسائله الديوانية والإخوانية، وقد أشرنا إليها في هوامش هذه الرسائل. ونجده تارة يشير إلى ما يقتبس، وتارة لا يشير، بل يستعمل مهارته في المزج والتركيب بين أسلوبه والأقوال التي يقتبسها بكل براعة وحذق حتى لا تكاد تعرف تلك الأقوال المقتبسة وكأنّ الكل من صنعه وإبداعه.

ومن النماذج التي تبيّن طريقته في الاقتباس وهي كثيرة قوله: "وأما فلان فقد ورد من القبول أعذب شرب، ثم خطب المودّة منه أكرم خطب، على حين ضنّ بها على الأكفاء من يعضلها، وبعد أن ألقوا أقلامهم أيّهم يكفلها[1]، فلما رآه أكبر وسيلته، وأبرز إليه عقيلته"[2]. وقوله: "وصاحب العجالة فلان جال في بقية الأندلس بحيلة إنسانية، وحلية ساسانية، ثم عبر البحر وأزمع الذهاب لأداء فريضة الحج، والبلوغ إلى مواقف العج والثجّ[3] "[4]. وقوله من رسالة يصف فيها بلاغة أسرة بني عياش: "فأخذ كتابها بقوّة[5]، واحتاز تراثها بأشرف أبوّة، ومن يجاري أهلَ بيتٍ بلاغةُ آلِ وهبٍ من هباتهم، ومُقل بني مقلة خاشعة لهيئاتهم، وابن المقفع عندهم

(1) اقتباس من الآية رقم 44 من سورة آل عمران.

(2) انظر الرسالة رقم: 16.

(3) اقتباس من الحديث الذي رواه ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم لمّا سُئل أيّ الحج أفضل قال: "العجّ والثجّ". سنن الدارقطني.

(4) انظر الرسالة رقم: 105.

(5) اقتباس من الآية رقم 12 من سورة مريم.



فقع بقرقر[1]، والصّابي صباه تعارض منهم بريح صرصر[2] "[3].

ويتبيّن من ظاهرة الاقتباس الأثر الواضح للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في نفس ابن عميرة، فقد كان حريصا على التمسّك بهما والاعتماد عليهما في نواحي التعبير وأساليب التخاطب لأنّهما الأساس الأول والقاعدة المتينة التي استمدّ منها ثقافته ومعارفه وأفكاره.

### 4- التنويع والمزاوجة بين الشعر والنثر:

إنّ كبار كتّاب العصر الموحدي هم أنفسهم كبار شعرائه المرموقين ومنهم ابن عميرة، لذلك زاحم شعراء عصره في ميدان القريض ونظم الكثير منه. وبعض شعره قائم بذاته وهو عبارة عن قصائد ومقطعات نظمها في أغراض مختلفة كالمدح والرثاء والإخوانيات والوصف، حرص على إيراد قدر كبير منها جامع رسائله[4]. والبعض الآخر، وهو الذي يعنينا في هذا المقام، نجد ابن عميرة قد مزج بينه وبين النثر في رسائله الإخوانية إذ كان يستهلها أو يدبجها أو يختتمها بشيء منه.

إنّ ظاهرة التنويع والمزاوجة بين الشعر والنثر من الظواهر البارزة والسمات الواضحة في رسائل ابن عميرة، كما تعدّ نموذجا طيبا لأدب تلك الفترة، وقد أدرك معاصروه هذه الميزة فيه، فأشار إليها ابن عبد الملك بقوله: "وكان يملح كلامه نظما ونثرا بالإشارات إلى التواريخ"[5]. وقد يكون حرص ابن عميرة على إظهار تفوّقه في فنّي المنظوم والمنثور، وحاجته إلى مزيد من العاطفة والوجدان لأنّهما في الشعر أكثر منهما في النثر، وإعطاء صورة واضحة عن ارتباط هذين الفنّين وتلازمهما وغيرها من الأسباب، من دواعي لجوئه إلى هذه الظاهرة.

(1) اقتباس من المثل العربي القائل: "أذلّ من فقع بقرقرة". الميداني، مجمع الأمثال، ج1، ص 395.

(2) اقتباس من الآية رقم 6 من سورة الحاقة.

(3) انظر الرسالة رقم: 58.

(4) انظر مثلا الرسائل ذات الأرقام: 3، 75، 76، 85، 217، 220، 233، 239، 241، 253، 259.

(5) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج 1، ص 152.

أمّا عن القيمة الفنيّة لشعر ابن عميرة فقد ذكر ابن عبد الملك أنّ طائفة من أهل طبقته كانت تستقصر منظومه وتدفعه عن الإجادة فيه، ولكنه لا يوافقهم على ذلك ويصفه بالبلاغة والبراعة مع اعترافه بأنّ شعره ينزل عن مستوى نثره[1]. وقد أشار ابن عميرة نفسه إلى هؤلاء الذين انتقدوا عليه جمعه بين النثر الممتاز والنظم الجيّد حين قال من رسالة: "كذب من قال اثنان لا يجتمعان لذي أدب، رسائل فاخرة مع شعر منتخب"[2].

## 5- استخدام المصطلحات العلمية والفقهية:

كان ابن عميرة من العلماء والفقهاء وذوي الثقافات العامة والثقافة الدينية بشكل خاص، وعلى العموم فإن أثر هذه الثقافة الواسعة والمتنوعة في أسلوبه وكتابته الأدبية يبدو واضحا والمسحة العلمية عليه تظهر جلية، وهذا المعنى هو الذي نبّه إليه أحد المعجبين به والدارسين لكتابته وهو الغبريني حين قال: "والناس يتداولون كتبه ويستحسنونه ويؤثرونه على كتب غيره ويفضلونه، وبالواجب علم الله أن يكون كذلك لسلوكه حسن منهجه الذي هو فيه أول سالك، وما رأيت من الكتّاب ما أعجبني مثل كتب الفقيه أبي المطرف إلا كتب أبي جعفر بن عطية، والكتّاب كثير، وكُتب هذين الرجلين عندي مقدم على غيرهما، والذي أوجب تقدم الفقيه أبي المطرّف في كتابته إنما هو أن الرجل من أهل العلم فكتابته علمية أدبية، وكتابة غيره مقتصرة على نوع من الأدب، وهذا المعنى هو الذي تميّز به عمّن عداه، وسبق به من سواه"[3]. كما لفتت هذه الظاهرة نظر ابن عبد الملك الذي يقول: "وكان يملح كلامه نظما ونثرا بالإشارات إلى التواريخ ويودعه إلماعات بمسائل علمية منوعة المقاصد تشهد بتمكنه من المعارف على تفاريقها"[4].

ومن ذلك على سبيل المثال قوله: "والرأي في حاضرة البحر إن كنت محوته من خاطرك فبالغ في المحو، وقد سمعت التسبيح فكيف تتمادى في السّهو،

(1) المصدر نفسه، ص 177.

(2) ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، ص 216.

(3) الغبريني، المصدر السابق، ص 251- 252.

(4) ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج 1، ص 152.



والرأي الآخر فيه لا محالة تعذّر، ثم إنّ الإقدام عليه تهوّر، اللهم إلّا بعد أجل كأجل المعترض، ونظر يميّز بين ما بالذات وما بالعرض، ومقدّمات علاجها عويصً، واثباجها ما عن الإشكال فيه محيصٌ، وهذا موقف يطول فيه القول، وفريضة يدخلها العول، وما كلّ غاية يضح طريقها، ولا كل صلاة يصحّ تلفيقها"[1]. وقوله: "من فلانة والدّهر وإن أجرى أمره على أن المستقيم أقصر الخطوط، والمستدقّ هو رأس المخروط، وأنّ الكثير في الأعداد غير التام، والحسناء في المعتاد غير خالية من الذام، فإنّه ربّما فاء، وراجع الوفاء، ورتّب المسبّب على سببه، وصفح للقرن على سلبه، فهو كاسرٌ جابر، ومستقيم جائر، فقد يقع منه الملائم، ولا ينصفه في لومه اللّائم، وأنا معتد من أخي حفظه الله بخير الأخلاء، منجذب نحوه انجذاب الأشياء باضطرار الخلاء"[2]. وقوله: "وكيف غاب عن سيّدي أن هذا المعنى حوله كانت الدّندنة، ومن أجل إسناده وُصلت العنعنة، فالآن أبطل النص كل قياس، وأمكن الجهر على رأي أبي نواس"[3].

وقوله من رسالة في العتاب والاستعطاف: "وما خلتني ولو أخذت غير المأخوذ، وفارقت المشهور إلى المشذوذ، وقلتُ إن الجهمي بالتشبيه مصرّح، والمعتزلي لكلام النفس مصحّح، وزعمت أن الأشعرية تنفي الرّؤية، وأصحاب الحديث لا يرون الرّقية، وأبحت نكاح الأمة لمن يجد الطّول، وحدثت عن ابن عبّاس أنه كان يرى العول، وادعيت الإجماع في مسألة الجدّ، ولم اعتبر الشبهة في درء الحدّ، ورميت بالبلادة إياسًا، وقلت إن أبا حنيفة ما كان يحسن قياسًا"[4]. وغيرها من الأمثلة الكثيرة الواردة في رسائله.

## 6- المحسنات اللفظية:

والمقصود بها المحسنات البديعية بمختلف أشكالها وألوانها، وهي من الخصائص الفنّية التي أسرف ابن عميرة في استخدامها لأنّها كانت مقياسا مهمّا من

(1) انظر الرسالة رقم: 108.

(2) انظر الرسالة رقم: 111.

(3) انظر الرسالة رقم: 213.

(4) انظر الرسالة رقم: 269.

مقاييس الجودة والتفوّق لأدب ذلك العصر نظمه ونثره. ومن عناصر الزخرفة اللفظية السجع وهو توافق الفاصلتين من النثر على حرف واحد، ويكون في النثر كالقافية في الشعر[1]. وهو من الظواهر التي عني بها الأدب العربي منذ القديم حتى صار فنّا يقصد لذاته فيكون له أثر في تزيين الكلام وتحسينه، وكان للأندلسيين باع طويل في استعماله ولكنهم لم يكونوا على درجة واحدة في ذلك، إذ تباينت حظوظهم بين الإجادة والتقصير.

ولابن عميرة نظرية خاصة به في السجع أشار إليها في كتابه التنبيهات بقوله: "وقصر الأسجاع محتقر مخل، وطولها المتفاوت مرذول ممل، فتكون وسطا بين الإفراط والتفريط، والمساواة بينهما عدل لكن لا كل المساواة بحيث تخرج إلى الأوزان الشعرية"[2]. وقد عمد إلى تطبيق هذه القاعدة في رسائله بشكل واضح، ورغم احتقاره للأسجاع القصيرة والطويلة إلّا أنه لم يستطع تجنّبها في نثره فكان يلجأ إليها في بعض الأحيان بل هو إلى الأسجاع الطويلة أقرب.

ويعدّ الجناس من ألوان الزخرفة اللفظية المستعملة بكثرة في رسائل ابن عميرة، ومنه التام وهو تشابه لفظتين في نوع الحروف وعددها وهيأتها وترتيبها، وغير التام وهو ما فقدت فيه إحدى الشروط السابقة. وإذا كان النوع الأول يرد من حين إلى آخر عند ابن عميرة، فإنّه كان لا يكاد يستغني عن الثاني في زخرفة ألفاظه، والأمثلة على ذلك كثيرة جدّا ويمكن ملاحظتها في أغلب الرسائل حيث أشرنا إليها في الهوامش.

ومن ألوان البديع التي استخدمها ابن عميرة أيضا في تزيين المعاني وتحسين العبارات، الطباق وهو الجمع بين المعنى وضدّه في الكلام، وكذلك المقابلة وهي الإتيان بمعنيين أو أكثر ثم بما يقابلها على الترتيب.

(1) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة. بيروت: دار إحياء العلوم، 1998، ص 362.

(2) ابن شريفة محمد، المرجع السابق، ص218.

## سادساً: المخطوط ومنهج التحقيق

سبقت الإشارة إلى المحاولة الجادة التي قام بها في القرن الثامن الهجري الأديب الشهيد ابن هانئ السبتي حين نهض بجمع آثار ابن عميرة النثرية والشعرية ودوّنها ورتبها في كتاب من سفرين سمّاه: "بغية المستطرف، وغنية المتطرف، من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرّف"، وهذا ما أشار إليه ابن الخطيب في الإحاطة وبعض من نقل عنه كالمقري في النفح، وهناك أشخاص آخرون غير ابن هانئ قاموا بجمع هذه الرسائل أيضا، وقد تحصلنا لحسن الحظ على صور من بعض النسخ المخطوطة لهذا الكتاب واعتمدنا عليها في التحقيق وفيما يلي وصفها.

**1- نسخة خزانة زاوية سيدي بلعمش بتندوف:** حين أقدمت منذ بضع سنوات خلت، على تحقيق تاريخ ميورقة لابن عميرة، استعصت علي قراءة بعض الكلمات والعبارات غير الواضحة في النص المصور على القرص المضغوط، فاتصلت بالأخ الفاضل أمانة الله بلعمش أمين الزاوية وصاحب الخزانة ومالك الأصل المخطوط وظرحت عليه المشكلة، فزوّدني مشكورا بنسخة مصوّرة على الورق تحتوي على تاريخ ميورقة لابن عميرة وعلى السفر الأول من رسائله لوقوعهما في مجموع واحد، كما أطلعني على الأصل المخطوط في إحدى زياراتي لمدينة تندوف بمناسبة انعقاد موسم العلامة سيدي المختار بن بلعمش السنوي.

وكانت أوراق هذا المجموع البالغة 126 ورقة غير المحبوكة مضطربة، فأعدت ترتيبها مستعينا بالترقيم الأصلي في بعض الأحيان، وبذلت في ذلك جهدا مضنيا لأنّ الأرقام قد محيت في بعض الأوراق، كما أنّ التعقيبات موجودة في أوراق تاريخ ميورقة (26 ورقة) ولكنها منعدمة في جميع أوراق الرسائل علما أن المجموع المخطوط نسخته يد واحدة، وأنّ الورقة الأخيرة من تاريخ ميورقة الواردة في نهايتها عبارة نسخ وقوبل من خط مؤلفه قد وضعت في آخر المخطوط.

يشتمل السفر الأول من رسائل ابن عميرة الذي جمعه ابن هانئ السبتي على 100 ورقة، ولا ينقصها من أوّلها إلا ورقة واحدة كما يدل على ذلك الترقيم

القديم الموجود بها ولا نستطيع تقدير الورقات المبتورة من آخرها، ولا ينقصها من وسطها أيّ ورقة. وهي عارية عن اسم الناسخ وتاريخ النسخ لبتر آخرها، ويتبيّن من ورقها وخطّها الأندلسي الجميل ناقص الشكل أنها نسخة قديمة.

مقاسها 18×24، وعدد الأسطر في كل صفحة 23 سطرا. وقد كُتبت في أسفل الورقة رقم 90 عبارة التملّك وهذا نصّها: "الحمد لله صلى الله على مولانا محمد وسلّم تسليما على الله يعتمد وبه يثق مالكه عبد العزيز الثعالبي"، ويبدو أنّها كانت في حوزته قبل أن تؤول إلى خزانة الزاوية بتندوف. وببعض هوامشها مقابلات وتصحيحات على نسخة أخرى، وهي خالية من الشروح والتعليقات.

**2- نسخة ك 232 بالخزانة العامة بالرباط:** من محتويات الخزانة الكتانية المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط، وهي السفر الثاني من الرسائل التي جمعها ابن هانئ السبتي، وتشتمل على 92 ورقة، ولا ينقصها من الأول إلا ورقة واحدة كما يدل على ذلك ترقيمها القديم، ولا نستطيع تقدير الورقات المبتورة من آخرها، وقد فقدت خمس ورقات في مواضع مختلفة من وسطها وهي حسب الترقيم القديم الورقات: 59، و60، و79، و94، و95، أما الورقة 80 فهي ليست مفقودة ولكنها وُضعت خطأ في آخر المخطوط حسب الترقيم الجديد فأعدنا ترتيبها. وببعض هوامشها مقابلات وتصحيحات على نسخة أخرى، كما توجد بها بعض الشروح والتعليقات، وقد كتب بداخل غلاف هذه النسخة اسم الفقيه سيدي محمد بن الفقيه سيدي أحمد بن قاسم الاسفي الذي كانت بحوزته قبل أن تؤول إلى الخزانة الكتانية المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط.

وهذه النسخة هي كذلك عارية عن اسم الناسخ وتاريخ النسخ لبتر آخرها، ولكن يبدو من خطّها الأندلسي الجميل ناقص الشكل ومقاسها ومسطرتها أنّ ناسخها وناسخ نسخة زاوية سيدي بلعمش بتندوف شخص واحد، وهو ما تؤكده العبارة الواردة في عنوان الورقة 84 من السفر الأول تعليقا على تكرار فصل من رسالة وهذا نصها: "ذكر بعض هذه الرسالة في السفر الثاني من هذا التأليف"، وكذلك العبارة الواردة في هامش الورقة 13 من السفر الثاني تعليقا على تكرار رسالة وهذا نصها: "تكررت بعد ثبوتها كاملة في السفر الأول هذه الرسالة". ويتبيّن



من كل ذلك أنّ نسخة تندوف التي تشتمل على تاريخ ميورقة لابن عميرة والسفر الأول من رسائله، ونسخة ك 232 وهي السفر الثاني من هذه الرسائل، هما في الأصل مجموع نسخته يد واحدة، أمّا كيف ومتى ولماذا وقع الفصل بينهما فذلك ما لا نستطيع الإجابة عنه.

**3- نسخة ك 233 بالخزانة العامة بالرباط:** وهي من محتويات الخزانة الكتانية المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط أيضا، وتشتمل على 129 ورقة وهي أيضا مبتورة الأول والآخر وتتوسطها أكثر من عشر ورقات مأروضة الوسط، ويبدو أنّها أيضا نسخة عتيقة، وهي مشكولة ولكن في شكلها بعض الأخطاء اللغوية والنحوية، والتعقيبات ليست عامة في جميع أوراق المخطوط، ومسطرتها 21 سطرا في كل صفحة. وكانت هذه النسخة ملكا لرجل يدعى محمد بن الحاج محمد بن طلحة السجلماسي، ثم آلت ملكيتها إلى شخص آخر اسمه أحمد بن محمد بن الحسن. وكان عدد أوراقها لما تملكها هذا الرجل 137 ورقة، ثم ضاعت من وسطها بعد ذلك سبع ورقات كما يستفاد من ترقيمها القديم وهي الورقات: 36، و37، و67، و68، و69، و92، و93.

وهي عارية عن اسم الناسخ وتاريخ النسخ لبتر آخرها، ولكن من المؤكد أنّ ناسخها ليس هو ناسخ القطعتين السابقتين لاختلاف الخط وتمييز الشكل بصورة واضحة. وتتفق هذه النسخة في أغلب محتوياتها مع النسختين الأولى والثانية باختلاف يسير في ترتيب بعض الرسائل، أي أنّها تشتمل على القسم الأكبر من السفر الأول وقسم آخر من السفر الثاني من رسائل ابن عميرة التي جمعها ابن هانئ في كتابه بغية المستطرف.

**4- نسخة د 4502 بالخزانة العامة بالرباط:** من مصورات جائزة الحسن الثاني لسنة 1981 (إقليم أكادير) المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط. وهي قطعة من السفر الأول وتشتمل على 82 ورقة، نسخها حديث، وفي أوّلها تعريف بابن عميرة، ينقص كلماتها الشكل، كما تتخللها أخطاء كثيرة، مسطرتها 21 سطرا في كل صفحة، وخالية من التعليقات والشروح. ولا تتفق هذه القطعة إلا في قسم يسير من محتواها مع المجموعات السابقة سيما السفرين الأول والثاني، وقد يدلنا هذا على

أنّ هناك أشخاصا آخرين غير ابن هانئ قاموا بجمع رسائل ابن عميرة.

إنّ اقتناعي بفائدة تحقيق هذا المخطوط نظرا لأهميته وقيمته التاريخية والأدبية العظيمة، فرض عليّ الالتزام بمنهج التحقيق المتعارف عليه فعمدت إلى قراءته عشرات المرات ثم نسخه مستفيدا ومحققا ومراجعا ومقارنا ومصححا وحدي ومع غيري متبعا في ذلك الخطوات التالية:

**1-** عدم التقيّد في الرّسم الإملائي بالكتابة القديمة وإصلاحها بما يوافق الكتابة الحديثة، ومن أمثلة هذه الاختلافات الواردة في المخطوط نقطة الفاء وهي واحدة من أسفل بدل واحدة من فوق والقاف واحدة من أعلى بدل اثنتين وهي طريقة المغاربة والأندلسيين، وحذف الألف من وسط الكلمة مثل سليمن والحرث بدل سليمان والحارث، وكتابة تاء التأنيث في آخر الأسماء مفتوحة مثل رحمت بدل رحمة وغيرها من وجوه الاختلافات.

**2-** جلّ العناوين الواردة في المخطوط من وضعنا لأنّ جامع الرسائل أو ناسخها غالبا ما يعنونها بعبارة "وكتب رحمه الله"، أو "ومن إنشائه رحمه الله"، أو "ومن رسالة"، أو "ومن أخرى"، ونادرا ما يضيف إلى هذه العبارات اسم المكتوب إليه أو الغرض المطروق في الرسالة.

**3-** قمنا بترقيم الرسائل ترقيما تسلسليا للسفرين معا، وقد ساعدنا هذا العمل في حلّ بعض الاشكالات كالإحالات مثلا.

**4-** تقسيم المتن إلى فقرات يقتضيها المعنى وسياق الكلام.

**5-** التنبيه على الانتقال من صفحة إلى أخرى في أصل المخطوط وذلك بإثبات رقم الصفحة بين خطين مائلين هكذا (//).

**6-** جميع الهوامش من عملنا. وقد بيّنت فيها الفروق بين النّسخ حيث اعتمدت نسختي تندوف (السفر الأول) وك 232 (السفر الثاني) في المتن وقابلتهما مع ك 233 ود 4502، كما عرّفت فيها بأسماء الأعلام والأماكن الواردة في المخطوط.

**7-** حاولت شرح الكلمات الغريبة والغامضة في النص والتعريف بها ما أمكنني ذلك معتمدا على لسان العرب والقاموس المحيط، كما استخرجت الصور



البيانية والمحسنات البديعية، وهو ما تفرضه خصوصية الرسائل التي دوّنها صاحبها بأسلوب أدبي رفيع، تقوم خصائصه على السجع بألوانه، والجناس بمختلف أشكاله، وضروب المقابلة والطباق، وقوة البيان، واستعمال التلميح والإشارة والتورية والاقتباس وغير ذلك من المحسنات البديعية.

**8-** قمت بضبط الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وتخريجها.

**9-** تخريج الأمثال العربية وهي كثيرة من مظانها مثل مجمع الأمثال للميداني.

**10-** وضعت للكتاب الفهارس الضرورية، كما زودته بقائمة بيبليوغرافية تتعلق بمصادر ومراجع التحقيق.

# نماذج من صور المخطوط

صورة الصفحة الأولى من نسخة تندوف





صورة الصفحة الأخيرة من نسخة تندوف

أثر منه ومن ورق الحرير ... ثمرتها وإذا وليتها من الجماعة
عوضا ما لا أطلب، وفي منها المصعب، وبطل [illegible]
المجرب، عديم ركض الجياد، وعظيم فرض الجهاد، والذائب
عن حريم البلاد والعباد، وهو المقام العمري باسمه المستطاب
نسبة، والعمري برجوعه إلى ابن الخطاب صلابة في الدين
وحسبة، قدس الله تربته، ورفع في جنة المأوى رتبته
هو الذي باشر بنفسه جلب الصعاب، ووطئ بباسه غلب
الرقاب، حتى انتظم الغرب والشرق، وأمن على [illegible]
من [illegible] الشرق [illegible] والغزو وتجهيز جيوشه
وبعوثه، والكفر يعوق تعوقه ولا [illegible]، وعلم
السياسة والمجد [illegible] المشائم [illegible]
وخلفه من بعده بنوه [illegible] من شرب لم يستوه، و[illegible]
عن [illegible] ثنايا الجماد لم يستوه، وفي صالح [illegible]
من الأمل [illegible] ولم يدنوه [illegible] الشرق [illegible]
[illegible] ومطالب [illegible] وأضعف [illegible]
ومالة لا أمامهم، وفي المغرب عينه جنة، والأواخر [illegible]
[illegible] من خصب [illegible]، وما زال ذلك يزيد [illegible]
والنعيم منا [illegible] ومن ترحم [illegible] البيت الكريم [illegible]
[illegible] والعض لما عزم [illegible] حتى [illegible]
على [illegible] ونمت [illegible] إلى [illegible]
[illegible] ومنشئ الأيام بأشرف [illegible]
[illegible] من [illegible] وهو الواحد [illegible]
[illegible] إلى حضرته الأقلام وتتنافس [illegible]





أرباب الأموال وبيت مال المسلمين بحيث لا يحيف على أحد
ولا يغيض في الأعداء، والتوجيه عن أبعد غاية وأمد. بحول الله تعالى

## وكتب رحمه الله تعالى

أمضينا بعهد نا هذا لفلان جميع ما مضى عليه العمل وامتضاه
نظر من التنفيذات والعطيات وكتابة النص ما [illegible]
بفلانة أمضاء لا يلحقه مباحثة ولا تعقب، ولا تتركه منافشة
ولا تعسف ولا تسبب.

## وكتب رحمه الله تعالى

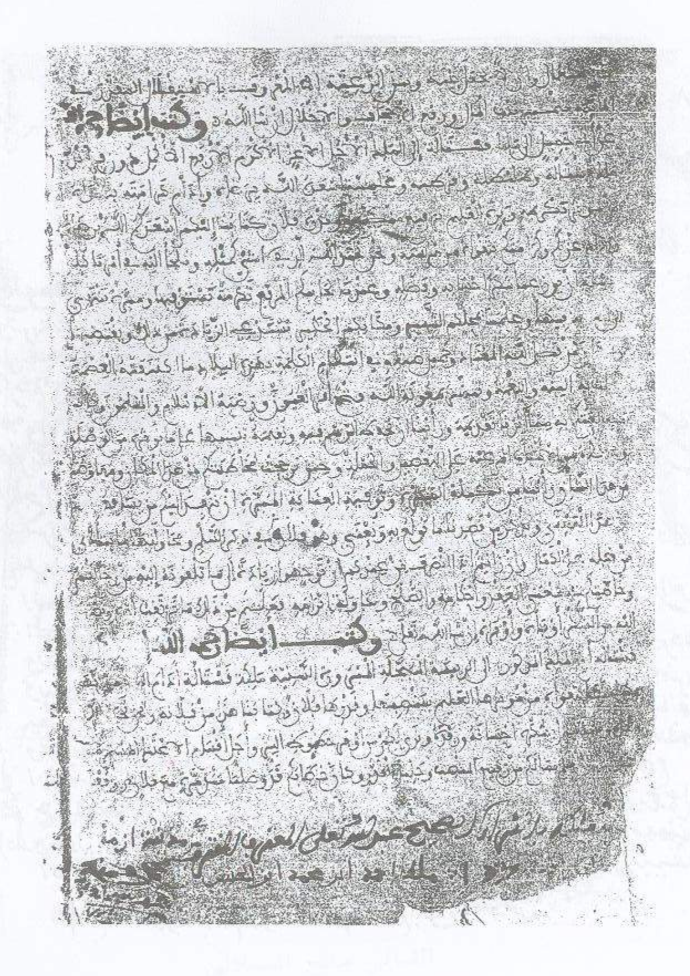
عن إذن فلان يستقر مكتوبنا هذا بيد فلان أدام الله
علاءه، وحفظ كفايته وغناءه، يجد به مكان العزة
مكينا، ومورد الكرامة عذبا معينا، وسبيل الحرمة المتناكرة
واضحا مستبينا، ويتقلد وزارتنا تقلد تهوين والطلاق
ويلبس ما خلع عليه منها لبسة تمكن واستحقاق، وينزل
من رتبتها العلياء منزلة شيمتها ثابت وجمالها باق، ويسوغ
الدار المخزنية التي يسكنها بفلانة تسويغا يملكه إياها
أصح تمليك، ويعود بها من تشريك إن شاء الله تعالى

## وكتب رحمه الله تعالى

تحية كريمة لما من الروض نفحته، وعليها من وجه الصباح
مسحته، تتأدى إلى سيدي مشعشعة الكأس أرجة
الأنفاس، ورحمة الله تعالى وبركاته، والتعظيم لحضرة

صورة الصفحة الأولى من ك 233





صورة الصفحة الأخيرة من ك 233

صورة الصفحة الأولى من د 4502



صورة الصفحة الأخيرة من د 4502

# السفر الأول من كتاب
# رسائل ابن عميرة



-1-

## بيعة أهل الأربس للمستنصر الحفصي بالخلافة

## سنة 650هـ/1252م

[الحمد لله الذي بحمده يسبح الأشياء، وفي نعمته يدخل من يشاء، والصلاة على سيدنا ونبينا محمد صاحب الشفاعة إذا تدافعها الأنبياء، وإمام الجماعة ليلة جمعتهم ايلياء[1]، وعلى آله وأصحابه الذين شهد لهم القرآن أنهم الأشدّاء الرّحماء[2]، ورضي الله عن مهديه[3] الذي أظهر الحق وقد أزرى به الخفاء، وشفي الدين حين أعوزه الشفاء، وعن وليه وحواريه الإمام الأعظم أبي حفص [4] المستودع من أنوار الحكم وأسرار الكلام ما حمله الآباء وورثه عنهم الأبناء: [الوافر]

فلو أن السماء دنت لمجد ... ومكرمة دنت لهم السماء

اللهم وانصر عبدك القائم بأمرك وإنما يقوم به الكفاة الأتقياء، الناصر لدينك حتى يئس منه العداة الأشقياء[5]، خليفتك العامل بما قضى به الأئمة ومضى عليه الخلفاء، واجعله اللهم ممّن يرجوك بالعمل الذي به ينبغي الرجاء، ويخشاك بالعلم و﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾[6]، والحمد لله الذي أولاه نعمة تقصر عنها النعم والآلاء، وولّاه قبلة يرضاها الأولياء وان رغم الأعداء، وفي الذين

---

(1) هي بيت المقدس، انظر عنها الرّوض المعطار، ص68.

(2) اقتباس من الآية رقم 29 من سورة الفتح.

(3) هو المهدي بن تومرت مؤسس الدّعوة الموحدية. انظر عنه كتاب أخبار المهدي بن تومرت للبيذق في مواضع كثيرة.

(4) هو أبو حفص عمر الهنتاتي جدّ الحفصيين، وكان من أصحاب المهدي بن تومرت العشرة. ابن القطان، نظم الجمان، ص 127.

(5) جناس ناقص بين "الأتقياء والأشقياء".

(6) الآية رقم 28 من سورة فاطر.

قالوا ﴿ما ولّاهم عن قبلتهم﴾ انزل الله ﴿سيقول السفهاء﴾[1].

أما بعد، فإن الله جلت كبرياؤه، وتقدست أسماؤه، وخلق الخلق أطوارا، وجعل لهم الأرض][2] /1/ قرارا، وقدّر لهم غاية إليها ينتهون، وقلوبا بها يفقهون، ولم تكن عقولهم تستقل بمعاني إسعادهم، وتدرك مصالح معاشهم ومعادهم[3]، وبعث النبيين مبشرين ومنذرين، ولآيات ربهم مظهرين، وعن سبيل النجاة وصلاح أمر هذه الحياة مخبرين، لتتبين طرق الهدى من مضلات السبل، و﴿لئلّا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل﴾[4]، فدعا إلى الله وحده، وأدّى عنه وعيده ووعده، حتى ضرب الدين بعطن، واتخذ من دار[5] هجرته مع أنصار دعوته أعز وطن، فلاح الحق سراجا وهّاجا، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وحينئذ خُيّر فاختار الرفيق الأعلى، وصار من جوار ربه إلى النعيم الذي لا يبلى.

وقام بعده الخلفاء الراشدون في أمرهم مجتهدين، وبهدي نبيهم صلى الله عليه وسلم مهتدين، ولدعائم الكفر هادّين، ولمعالم الدّين مشيدين، فاستقلوا بإقامة السنة والفرض، وفتحوا شرقا وغربا ما زُوي له عليه السلام من الأرض، ومضوا رضي الله عنهم وقد أحسنوا خلافته، واستأصلوا من الكفر شأفته، وقطعوا بالعمل الصالح طريق العمر ومسافته، وما زالت تلك السّير الرّضية بعدهم تحوّل منازلها عن عمرانها، وتطير ووقوعها أكثر من طيرانها، إلى أن أتى الله بالإمام المهدي رضي الله عنه فجدّد داثرها[6]، وأحيى مآثرها، وكشف عنها الرّيب والرّين[7]، وجمع عليها أولياءه المرتضين، وأولهم بكل معنى، وأولاهم بشرف المقصد الأسنى، إمام زمرته، وحسام نصرته، أبو /2/ حفص كرّم الله وجهه، فاتح الفتوح وحده، وقامع

(1) الآية رقم 142 من سورة البقرة.
(2) الزيادة من ك 233، لأنّ الورقة الأولى من المخطوط مبتورة.
(3) جناس ناقص بين "معاشهم ومعادهم".
(4) الآية رقم 165 من سورة النّساء.
(5) في ك 233: أنصار.
(6) في ك 233: أثرها.
(7) جناس ناقص بين "الرّيب والرّين".



الملحدين المضلّين بعده، وتلك سبيل فروع شجرته الباسقة، وأسرته الحائزة فضل هذه السابقة.

ومنذ طلع بالشّرق خيرة أخيارهم[1]، والباهر المشرق من أنوارهم، أظلم الأفق الغربي[2]، وأعطى قيادة الصعب الأبيّ، واقتسمت الخلافة فبقي للغرب[3] لفظها مجرّدا، واستبدّ الشرق بمعناها خالدا إن شاء الله مخلدا، وليس اللفظ تمجّه الشفاه، من المعنى قد أحرز الكمال واستوفاه، ولما وجب أن تزال الشبهة من أصلها، وتقرّر الإمامة العظمى في نصابها وعند أهلها، ورد الخطاب العلي الكريم وسيلة إلى رضا الرّحمان، ومناديا ينادي للإيمان، ومودعا ذكر الهداية الرّبانية، والبيعة الرّضوانية.

وإنّ الطّائفة المنصورة علمت أن الخلافة بحبلها يجب الاعتصام، وعلى هديها يستقيم النّظام، فكان منها بعد ارتياء مخضته عن الزبدة، ونفحته بطول المدة، رغبة في البيعة السّعيدة المباركة تواردت عليها، ودعوة اقتضى الاحتياط على الإسلام وأهله أن تجاب إليها، وقد حضر الملأ المخاطبون به من أهل فلانة[4] بإحضار واليهم إيّاهم، ودعائه لهم إلى ما أيقظهم بل أحياهم، فتلاحقوا لسماع نصّه الكريم، ولفظه المعبّر بالدّر النّظيم، عن الفضل العظيم، وعندما استهلت فوقهم غمامته، وتليت عليهم علامته، فنظروا منها لسنى الأنجم الزّهر، واقتدوا بها فارتفعت أصواتهم بكلمتي الحمد والشّكر، وسمعوا ما فيه من الوصايا النافعة فقبلوا، وأصغوا إلى مقاصده العالية وبما علموا عملوا، /3/ونودوا إلى البيعة

(1) يشير هنا إلى الأمير أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي، الذي عيّنه الخليفة الموحدي الناصر واليا على افريقية في يوم السبت العاشر من شوال سنة 603 هـ/ 1206م. ابن عذاري، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص 248. ابن خلدون، العبر، مج 6، ص 329.
(2) استعارة تصريحية صرّح بالمشبه به وهو الأفق الغربي وحذف المشبّه، فالذي يظلم هو الليل وليس الأفق.
(3) كلمة "للغرب" ناقصة في ك 233.
(4) هي مدينة الأربس التي تبعد عن مدينة القيروان بثلاث مراحل. انظر عنها الإدريسي في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج 1، ص 292.

المباركة يوم الجمعة ففازوا من حجتها بأكمل وقفاتها، وتلا عليهم كتابها الكريم ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض النّاس**﴾[1] فارتفعوا إلى عرفاتها، وقالوا ﴿**لقد منّ الله على المؤمنين**﴾[2]، واختار لخلافته عليهم القوي الأمين، فله الحمد على أن أنجز أفضل مواعده، وأقرّ الشرع على أصحّ قواعده.

وبايعوا فلانا[3] بالخلافة التي قلّده الله طوقها، ورفعه إليها ولا منزلة فوقها، على السمع والطاعة ولزوم السّنة والجماعة، والتمسّك بالدعوة الموعود ببقائها إلى قيام الساعة، في الرّضا والسخط، والمكره والمنشط، والعسر واليسر، والقلّ والكثر، والشدة والرّخاء، والسرّاء والضرّاء[4]، وعلى ما بويع عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وخلفائه الراشدون والعهد قريب، والإمام المهدي رضي الله عنه والدّين في زمنه غريب[5]، بيعة محكمة القواعد والأساس، مباركة على الناس، سرّها كالعلن من غير فرق، والمعتقد لها يرى أنّه على يقين وحق، يدين[6] بها علّام الغيوب، ويحمل أمرها الكريم على الوجوب، ويجد بها ما يوصف به الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، أعطوا بها صفقة أيمانهم، وأخلصوا لها صادق إيمانهم، وتقيّدوا بها وقيّدوا مَن وراءهم من أوليائهم وإخوانهم، وابتدروها بنفوس عليها حراص، وعاهدوا الله عليها بيقين وإخلاص، عائذين به جلّ جلاله أن يخلفوه ما وعدوه، أو يستحلّوا أن يحلّوا ما عقدوه، وأشهدوا الله عليها ويده فوق أيديهم، وإليها وإلى

(1) الآية رقم 199 من سورة البقرة.

(2) الآية رقم 164 من سورة آل عمران.

(3) هو أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكرياء يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر، بُويع بالإمارة سنة 647 هـ/1249م، واتخذ لقب الخلافة وهو "المستنصر بالله أمير المؤمنين" في يوم الاثنين 24 من ذي الحجة سنة 650 هـ1252م، في الوقت الذي كان فيه ابن عميرة قاضيا بمدينة الأربس. ابن قنفذ، الفارسية، ص 117. الزركشي، تاريخ الدّولتين، ص 33.

(4) كلّها عبارة عن طباق الإيجاب حيث اعتمد المؤلف لتوضيح فكرته على ذكر الكلمة وضدّها.

(5) جناس ناقص بين " قريب وغريب".

(6) في ك 233: يريد.



الثبوت عليها هداهم وهو إن شاء الله يهديهم، وكفى /4/بالله شهيدا وكفى به عليما، وحسبنا الله ربّنا سميعا بصيرا عزيزا حكيما، ﴿**فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما**﴾[1].

اللهم يا واسع العطاء، وسامع الدعاء، ومحكم الأمور ومحكّم القضاء، أبق هذه الخلافة العزيزة أطول البقاء، وألزم أوامرها وصوارمها أقوم الإمضاء وأقوى المضاء، واجعل محبتها ملء الصدّور وجنودها ملء الفضاء، وأذق أولياءها برد النعيم وأعداءها حرّ الشقاء، بفضلك الذي أوليت وبركة عبادك الذين اصطفيت من أنبيائك الكرام وأوليائك الصّلحاء، آمين آمين، والحمد لله ربّ العالمين، وصلواته وسلامه على سيدنا محمد خاتم النبيين.

–2–

## خطبة نكاح

الحمد لله الذي له الأسماء الحسنى، وبيده الخير الأوفى والعطاء الأسنى، وهو الملك الحق الذي بعدله وفضله أقصى وأدنى[2]، والجواد الحق الذي لا غنى إلا لمن به استغنى، ﴿**وأنّه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى**﴾[3]، وقدّر السّكن إكمالا لمنفعة الساكن وتتميما لمصلحة السكنى.

وصلّى الله على سيدنا محمد أكرم الأكرمين، بكل اختيار[4] وبكل معنى، وسيّد ولد آدم من غير أن يوجد في القول استثناء وفي الخلق من يستثنى، دعا إلى الله وإلى النّعيم الذي لا يبلى ولا يفنى، وندب إلى مكارم الأخلاق وصون الأعراض عن عرض هذا الأدنى، ورغّب في النكاح وإلى الأخذ بسنّته /5/ ثنى، وعلى التحصّن بجنته أثنى، وأرشد إلى آدابه المرعية وأحكامه الشرعية بالبيان الذي أمره كلّه عليه يُنبنى[5]، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة زاكية نامية تتوالى

(1) الآية رقم 10 من سورة الفتح.

(2) طباق الإيجاب بين "أقصى وأدنى".

(3) الآيتان 45 و46 من سورة النّجم.

(4) في ك 233: اعتبار.

(5) في ك 233: يُبنا.

شفعا ووترا موحدا ومثنى، وتتصل ما ماس غصن وتثنّى، وسجع حمام فوقه وغنّى.

ـ 3 ـ

## ومن قصيدة في مدح المستنصر الحفصي حين تلقب بالخلافة

[الكامل]

اليوم أورق للخلافة عودها ... ووفى لها ولأهلها موعودها

في ذروة العليا يقوم خطيبها ... ولحضرة الدنيا تسير وفودها

وبعرصة الشرف استقر قرارها ... وعلى بساط العز قام عمودها

ألغيركم في الأرض يرفع طرفها ... عن رغبة فيه ويثني جيدها

هيهات كافلها إليه بوصلها ... تصبو وغير الكفء عنه صدودها

لو شئتموها والجماعة رأيها معها ... وشُوراها يطاع عميدها

لم تعدكم لفظا كما لم تعدكم معنى ... وأصحاب الإمام شهودها

بأكفكم ضربت صوارمها كما ... بلوائكم كانت تقاد جنودها

ولكم وفيكم بأسها وسماحها ... وبكم ومنكم وعدها ووعيدها

فالآن يا بشرى لها ومحمد ... بزمام طاعته إليه يقودها

جاءته في خلع الكمال تريده ... أضعاف ما يختارها ويريدها

وتودّ لو منحته أعمار الأُلى ... كانت عليهم لا تروق برودها

فلو أن نفسا بالمكارم خلدت ... ما كان يعدو نفسه تخليدها

نفس حياة العالمين حياتها ... ووجودهم فيما اشتهوه وجودها

ـ 4 ـ

## خطبة في وداع رمضان

/6/ الحمد لله الذي أولانا فضله العظيم، وهدانا صراطه المستقيم، وبعث إلينا نبيه الكريم، ورسوله الرّؤوف الرّحيم، محمد الذي جلا به ليل الكفر البهيم، وانزل إليه الآيات البيّنات والذكر الحكيم، قرآنا عربيا يشفي السّقيم، ويروي القلوب الهيم، ويضمن للتّالين من حفاظه والمتفكّرين في معانيه وألفاظه الحظ الجسيم



والنعيم المقيم، فطوبى لقلب أحيا به نبته الهشيم، وطرد باستماعه متلوّا وتدبّره رواحا وغدوّا شيطانه الرجيم، وصلّى الله على سيدنا ونبيّنا محمد الذي أتاه الفضل العميم، والشرف الحديث والقديم، وأنزل عليه في كتابه العزيز الترغيب والترهيب والتحليل والتحريم[1]، صلاة دائمة نامية تبلغنا ثواب من ضاعف الصلاة عليه والتسليم.

معاشر المدعوين المجيبين، والتائبين المنيبين، الرّاغبين في إذهاب السّيئات واقتناء الحسنات، والرّاجين عند الله من علوّ الدّرجات، وقبول الأعمال الزاكيات، هذا شهر رمضان الذي فرض فيه الصيام، وأنزل فيه القرآن على نبيّكم عليه الصلاة والسلام، قد ذهبت أكثر أيّامه، وأذنكم بانقضائه وانصرامه، وقد ولي منكم في طاعته المسرع والبطيء، والمحسن والمسيء[2]، ومن وفّاه حقّه كما أمر، أو ضيعه فخاب وخسر، فطوبى لمن يلقى عمله فيه نورا بين يديه، وحصنا حصينا يلجأ إليه، وويل لمن شاهد منه استخفافا بحرماته، وتقصيرا في واجباته، وأيّنا لا يظلم نفسه، ويقصر في يومه وقد أضاع أمسه، هلكنا والله إن نوقشنا في الحساب، ولم تتداركنا رحمة العزيز الوهاب، وأنتم في بقية شهر عامل الآخرة فيه يربح، وميزان الثواب /7/ يرجح، وأبواب الجنان برحمة الحنّان المنّان تفتح، فطوبى لمن استفتح فيه للخير بابا، وعمل على ما وعد الله به من قامه إيمانا واحتسابا.

وبعد، هذا ما ورد من الأحاديث في فضل الشهر المبارك[3] ثم الدّعاء، اللّهم ارزقنا بركة القرآن في حياتنا ومماتنا، وارفع به عندك درجاتنا، وضاعف لنا بتلاوته حسناتنا، وحطّ عنّا سيّئاتنا، اللّهم واجعله نورا في قلوبنا وعيوننا، وصلاحا لأحوالنا وشؤوننا، في حركتنا وسكوننا، واجعل الاعتصام بحبله أوثق حصوننا، وظنّ النجاة بحبله والفوز مع أهله أصدق ظنوننا، اللّهم اكتبنا بأمانه في الآمنين، واحفظنا به مقيمين وظاعنين، وارزقنا ببركته قرّة العين في الأهل والبنين، والحقنا بالصالحين

(1) طباق الإيجاب بين "الترغيب والترهيب" وبين "التحليل والتحريم".

(2) طباق الإيجاب بين "المسرع والبطيء" وبين "المحسن والمسيء".

(3) يُفهم من سياق الكلام أنّ جامع الرسائل أو الناسخ قد تصرّف في هذه الخطبة بحذف الأحاديث التي استدلّ بها ابن عميرة.

ممّن أحسن عبادتك ولا يضيع عندك أجر المحسنين.

– 5 –

## وخاطب الرّئيس أبا عثمان سعيد صاحب منورقة[1]

---

(1) في الأصل "وكتب رحمه الله تعالى". وتعرّفنا على اسم المكتوب إليه من خلال مخطوط لباب الألباب من نثر الشعراء ونظم الكتاب حيث وردت الرّسالة كاملة، وهو أبو عثمان سعيد بن حكم بن عمر الطبيري القرشي الذي تقلبت به الأحداث وتنقل بين مدن الأندلس وبجاية وتونس ليستقر أخيرا في جزيرة منورقة ثانية جزر البليار، التي حل بها في شهر رمضان سنة 624هـ/1227م، حيث عينه والي ميورقة على جبايتها، ثم قدّمه عاملا عليها بعد سنتين من ذلك. كان له الدّور البارز في إقناع مسلمي منورقة في توقيع الصّلح مع الملك خايمي سنة 629 هـ/1232 م، فأصبح هو الرئيس الفعلي للجزيرة المستقلة بحكمها الإسلامي مع خضوعها لمملكة أرغون. استقرّ حكم الجزيرة بفضل شخصيته التي أجمعت المصادر العربية على سياستها الحكيمة وحسن تدبيرها.
وقد اكتسب سعيد بن حكم ثقة ومحبة أهل جزيرة منورقة، وملك قلوبهم بحكمته ودهائه، وذاعت سمعته الطيبة خارج الجزيرة التي أصبحت في عهده الملجأ الأمين للكثير ممن عصفت بهم الهزائم، وشرّدتهم عن أوطانهم بالأندلس. وإلى جانب استقباله لهؤلاء اللاجئين وإيوائهم، سواء أولئك الذين قدموا من ميورقة أم من مدن الأندلس الأخرى، فان يده قد امتدت إلى تحرير الأسرى منهم. ومن أبرز أعماله أيضا، عطفه على الغير واهتمامه بمصالحهم ومساعدتهم، فقد سخّر طيلة حياته، جاهه لصالح الناس ومعونتهم على قضاء أغراضهم وحوائجهم، فنفع بذلك الكثير من أبناء دينه. إن اهتمام سعيد بن حكم بشؤون الأسرى والمحتاجين من المسلمين خارج جزيرته، والسعي لقضاء مصالحهم والعطف عليهم، لم يشغله عن قضاياه الداخلية، فقد كان منظما قديرا، وإداريا بارعا واقتصاديا حصيفا، جعل من جزيرة منورقة جنة مزدهرة في عهده.
ولعل أهم ما يلفت الانتباه في تاريخ جزيرة منورقة، على عهد أميرها سعيد بن حكم، هو النشاط العلمي المتميز الذي عرفته هذه الجزيرة يومئذ. ومن العوامل المشجعة لهذه الحركة العلمية، شخصية الأمير نفسه الذي كان عالما من ألمع علماء عصره، وأديبا شاعرا ذائع الصيت، فجعل من منورقة مركزا علميا استقطب العلماء والشعراء والأدباء وطلبة العلم، خصوصا أولئك الذين فقدوا أوطانهم في مدن الأندلس التي اجتاحتها الممالك النصرانية. وقد بسط عليهم رعايته، وغمرهم بصلاته، وانفق عليهم بسخاء، وحتى الذين لم يستطيعوا القدوم إليه، فإنه كان يرسل إليهم المنح والأعطيات. وقد تدعم هذا المركز العلمي بالمكتبة الشهيرة التي أسسها الأمير سعيد بن حكم، وقد اتفقت المصادر العربية على أهميتها والتنويه



وصلت مخاطبته المبرورة ومعها شارة البديع، وعليها نضارة الربيع، وفيها نكت البيان التي هي لواعب بالنّهى، جوالب للهوى قبل عيون المهى، من كل فقرة لمُحيّاها سفور، ومن حُميّاها سرور، وفي ريّاها مسك مفتوت أو منثور، ووَصَفَ القصيدة التي سبق إليها أبو الخطاب، وجرى من جرى على نهجها المستطاب، حين دُعِي إليها سحرة الكلام، وسفرة الأقلام، فجالوا في أرحب ميادين الشعر، وجاؤوا بما أكرهوا عليه من السحر، وذكر أن بها ظهر الفرق، ووقع الحق، وبغير /8/ تلك العين رأيتها، وقبل تلك الصفة كنت ازدريتها، فأمّا الآن وجهبذ الكلام قد أجازها، ورضي حقيقتها ومجازها، فسأشهد لها مقلّدا، وأفخر بها مطلقا ومقيدا[1].

وما كنت لأعارض مغيرينا الذي عُرِف بجودة الطبع، وأُفرِد بحسن المخاطبة للرّبع، بعد فصل للخوارزمي أبي بكر[2]، ذكر فيه أبدع ذكر، وأخبر أنّه أقدم على

---

بمكانتها العلمية، حيث جمع فيها من الدفاتر النفيسة والكتب الجليلة ما لا نظير له كثرة وجودة. وقد جلبت اهتمام الجميع، فصار مقصودا بها من المسلمين والنصارى. وكان يشرف بنفسه على انتقاء الكتب وقراءتها.
وفي سنة 680هـ/1281م توفي الرئيس سعيد بن حكم، بعد أن قضى نصف قرن في حكم جزيرة منورقة المستقلة. واستطاع خلال ذلك أن يجعل منها، بحسن سياسته ودهائه، ثغرا إسلاميا آمنا، وملجأ يأوي إليه المشردون عن أوطانهم من البرّ الأندلسي، والمحررون من أسر النصارى، ومركزا علميا نشيطا، وبلاطا أدبيا متميزا، ومحطة تجارية في حوض البحر المتوسط الغربي. وسيتردّد ذكره في رسائل أخرى للمؤلّف من هذه الرّسائل. مجهول، مخطوط لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكتاب. ابن الأبّار، الحلة السيراء، ج 2، ص 318. ابن سعيد، اختصار القدح، ص 28 وما بعدها. ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج 4، ص 28 وما بعدها. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 275. الغبريني، عنوان الدراية، ص 254.

(1) جناس ناقص بين "مقلّدا ومقيّدا".

(2) هو أبوبكر محمد بن عبّاس الخوارزمي (303-383 هـ/915-993م)، أبوه من خوارزم وأمه من طبرستان، وهو ابن أخت المؤرخ الشهير ابن جرير الطبري. جاب الأقطار وتقلّب في خدمة كثير من الملوك والأمراء، وكان من أشهر كتّاب الرسائل الإخوانية التي عرفت تطورا كبيرا في عصره وأصبحت فنّا من أرقى الفنون. ساجل وناظر بديع الزمان الهمذاني فانخذل أمامه. الصّفدي، الوافي بالوفيات، ج 3، ص 157 وما بعدها.

معارضته ثم تكعكع، وأراد مناقضته فخشي أن يبكّع[1]، وموقفُ هذا الفحل هابه، أتراني أقرع بابه، وإنما كانت رمية أخطأت الرّمي، وخطرة وافقت العروض والرّويّ، ولكن بعد أن عرضت هنالك، ووقعت موقعها ذلك، فأنا أراها[2] ابنة الحسن بلغت مأمونها، أو قطر الندى وحظايا المعتضد دونها، فيقل لها الزهو والكبر، بعد أن أرخي عليها ذلك السّتر، ومات حسدا لها ولقائلها الشعراء والشعر.

– 6–

## وكتب عن غيره معزيا في الأمير أبي زكرياء الحفصي[3]

فكتب العبد كتب الله للمقام الكريم توالي النعم الجسام، وقسم له من صالح[4] ثوابه أوفر الأقسام، من فلانة ورأيه في الأمور المهمّة، والخطوب المدلهمّة، إليه يعشو من عدم الإبصار، وبه يقتدي من عدل عن السّبيل وجار.

والحمد لله الذي أمره ماض، وقضاؤه به ينتقض حكم كل قاض[5]، وإنا لله وإنا إليه راجعون رِضًى بمجاري الأقدار، وتجلّدا على الخطب الذي أظلم له وجه النهار، وعند الله نحتسب فلانا[6] جزاه الله خير جزائه، ورفعه في أعلى منازل أوليائه،

(1) البكع: الضرب بالسيف. وبكّعه تبكيعا إذا واجهه بالسيف والكلام واستقبله بما يكره. لسان العرب، ج8، ص 20.

(2) في ك 233: فإنّا نراها.

(3) في الأصل "وكتب رحمه الله عن غيره" ممّا يعني أنّ هذه التعزية قد كتبها ابن عميرة نيابة عن أحد موظفي الدّولة الحفصية وهو في مهمته بمدينة بونة الواقعة بين بجاية وتونس.

(4) كلمة "صالح" ناقصة في الأصل والزيادة من ك 233.

(5) جناس ناقص بين "ماض وقاض".

(6) هو مؤسس الدولة الحفصية بإفريقية الأمير أبو زكرياء يحيى بن أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي، ولد بمراكش سنة 599 هـ/1202 م، وبويع بالقيروان في رجب سنة 625 هـ/1227 م. وفي سنة 634 هـ/1236 م بويع البيعة الثانية وذكر اسمه في الخطبة واقتصر على لقب الأمير الذي كان لا يريد أن يحمل أي لقب آخر سواه، فاستقل منذ ذلك التاريخ بإفريقية واستبد بشؤونها في أيام الخليفة الموحدي الرشيد بن المأمون. فتح تلمسان سنة 639 هـ/1241 م، ثم وصلت إليه في السنوات الموالية بيعة سبتة والمرية =



فقد ترك الجوانح /9/ ملتهبة، والمدامع منسكبة، والقلوب دامية، والأيّام مظلمة داجية، وهذا الخطب وإن تناول الخلق عموما، وكان فيهم بالسّوية مقسوما، فقد ضوعف على العبد منه ما يؤدّ الأفئدة، ولا يجد منجدا عليه إلّا الزفرات المتصاعدة، والعبرات المسعدة.

وكان في هذه المدة بسبيل الخدمة التي وجّه لها متعرّفا فيها ببركة النظر العلي ما عوّد الله عبيده من الصنع الجميل، ومقاصد التيسير والتسهيل، وقد صدر عنها عند هذه الحادثة العظيمة، وخلّف الأحوال ورآه على مجاريها[1] المستقيمة، وعجّل خدمة[2] المطالعة يوم وافى فلانة[3] وبدأ بقصد التربة المقدّسة مستشفيا بلثم ثراها، وداعيا لساكنها بأشرف المنازل وأعلاها.

– 7 –

## ومن رسالة إلى من كتب إليه يسأله بعض رسائله

وإنما هي فِقَرٌ ضئيلة حقيرة، تودّ الذمم أنها منها فقيرة، كما أن كل خاطر يتمنى أنها صفرت من نبلها جعابه، أو ظفرت بغير نبتها شعابه، وإنما يرى منهن بنات فكر لا قرّة فيهن لعين الوالد، ولا نظر لهنّ أولى من نظر الرّائد، فإن سألت أو سئلت، بأي ذنب قتلت[4]، قلنا لأنها خبيثة يظهر عليها أفنها، وخطيئة كفارتها دفنها،

= وإشبيلية وغرناطة. كان من الصالحين والعلماء العاملين، فقيها، أديبا، جمعت دولته من رؤساء العلماء والشعراء وأهل الصلاح ما لم يجتمع لغيره. توفي في شهر جمادى الآخرة سنة 647 هـ/1239 م تاركا وراءه سبعة عشر بيتا من المال، ومن الكتب ستة وثلاثين ألف مجلد. ابن خلدون، العبر، مج 6، ص 335 وما بعدها. ابن قنفذ، الفارسية، ص 107. ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص 155-157.

(1) في ك 233: جواريها.

(2) في ك 233: حرمة.

(3) هي مدينة بونة (عنّابة الحالية) التي دُفن بتربتها الأمير أبو زكرياء الحفصي بإزاء قبر الشيخ الصالح أبي مروان الفحصلي، ثم نقل جثمانه إلى مدينة قسنطينة سنة 666 هـ/1267 م. الحميري، الروض المعطار، ص 115.

(4) اقتباس من الآيات 7 و8 و9 من سورة التكوير. وهو تشبيه لموقفه من رسائله بموقف بعض =

فإذا سمعت هذا بنات أو هنات صدرن عنّي، قلت لها إيّاك أعني، وعلى الحقيقة فعنكنّ أناضل، وفي مثل هذا الموطن يحمد الفاضل، ولا شيء أولى بالشوهاء[1] من الخدر، أو جهاز طهوره بالماء والسّدر.

ومن /10/ يرى هذا الرأي فيما يولد بفكره، ويؤلف من فِقَره، إن أجاب الخاطب فقد عقّه، وإن منعه فحينئذ أعطاه حقّه، ويعلم الله أن هذا المطلوب ضالة من فنائي ندّت، وبرأيها دوني استبدّت، وقد بعثت في طلبها الرّوّاد، ونفضت عنها البياض والسّواد[2]، فما برقت بها أسرّة طالب، ولا اجتمعت منها درّة حالب، وسأعيد الطلب ما أمكن الوجدان، وإن قالت نافرة عنّي كما تدين تدان، والولي المبارك يقبل اعتذاري، جزاء بما عصيت له اختياري[3].

– 8 –

## وكتب معتذرا

حرس الله الجناب المبارك بكلماته، وأبقى شرف منصبه وكمال ذاته، وأمتع الأيام بنَسَاء[4] حياته وسَنَاء معلواته، ولازال من دهره بحمى منيع، ومن مآثره في شمل جميع.

إن خدمة المخاطبة وإن قبضت عنها يدا، وأرجأتها يوما وترجّيتها غدا، فالعذر عن ذلك لا أحسن بيانه، ولا أحرّك لسانه، وما أحسب سيدي يؤهلني لفرض يعلم سقوطه، عمّن لم يستكمل شروطه، على أنّ فضله أراه بعين الرأي رأي العين،

= الأعراب من أهل الجاهلية الذين كانوا يئدون بناتهم.

(1) الاسم الشّوهة، وشاهت الوجوه تشوه شوها: قبحت. ورجل أشوه وامرأة شوهاء إذا كانت قبيحة. لسان العرب، ج 13، ص 508.

(2) طباق الإيجاب بين "البياض والسواد".

(3) يُفهم من بقية هذه الرّسالة أنّ ابن عميرة لم يكن يهتم بجمع رسائله وتدوينها، على كثرة المعجبين بها والرّاغبين فيها من أدباء عصره، وأنّها لم تكن تستحق التدوين والطلب في نظره، كما أنّها قد خرجت من يده. وهي النّظرة المتواضعة التي عبّر عنها تجاه رسائله.

(4) الاسم النّسَاء والنّسئ وهو التّأخير يكون في العمر والدّين. ونسأ الله في أجله: مدّ له في الأجل. لسان العرب، ج 1، ص 166.



وأظاهر من الأمل فيه والتوسّل بمعاليه بين درعين، وقد خشيت أن أخرج إلى تطويل يعقب الملالة، عن تخفيف عليه بنيت هذه العجالة، وشكر يده مدًى هو لأهل الحضر، لا لمثلي من أهل العذر، لكنّني أبلغ منه مجهودي، وأحشر له جنودي، وأسعى إليه إذا بصلاته نُودي.

– 9 –

## بيعة أهل مكناسة للأمير أبي زكرياء الحفصي

## سنة 643 هـ/1245م[1]

/11/ الحمد لله العلي الكبير، اللّطيف الخبير، خالق الخلق غنيا عن المثال والنظير، ومقدّر الأشياء على ما اقتضته حكمته من التقدير، يدبّر الأمر من السّماء إلى الأرض ولا اضطرار في الأمر ولا اضطراب في التدبير، و﴿**يكوّر اللّيل على النهار ويكوّر النهار على اللّيل**﴾[2] فتاهت العقول وفني المقول[3] في المشاهد من أسباب التكوين وحساب التكوير، وصلّى الله على سيّدنا ونبيّنا محمد المبعوث بالكتاب المنير، المنعوت بالبشير النذير، طلع بدرا[4] باهر المطالع هاديا بنوره السّاطع والأرجاء مدلهمّة الدّياجير، والجاهلية في غلوائها واحتقاب مذمّة الجور واحتقار أذمّة المجير، فثنى الخلق عن شرودهم وسفر بين العباد ومعبودهم فكان شرف السفارة على قدر شرف السفير، ومكانه عند الله كما اختاره من الرّفيق الأعلى حين أتته رسالة التّخيير، صلّى الله عليه وعلى آله المنتخبين من معدن التّقديس والتطهير، وأصحابه من المهاجرين الفائزين من ثواب صحبته بالمقام الشهير،

(1) كتب ابن عميرة هذه البيعة عن أهل مدينة مكناسة أثناء تولّيه قضاء هذه المدينة للموحدين، وهو عمل من أخطر المواقف في حياته، إذ أقدم على المساهمة في فصل مكناسة عن الدّولة الموحدية التي كانت تخوض حرب البقاء ضد بني مرين، وجعلها تابعة للحفصيين سيما وأنّ عدّة جهات أندلسية ومغربية كأشبيلية وسجلماسة وسبتة وطنجة كانت قد بادرت بتقديم بيعتها وأعربت عن طاعتها لأبي زكرياء الحفصي.

(2) الآية رقم 5 من سورة الزّمر.

(3) فني المقول: كناية عن الصّمت وعجز المتكلم عن التكلم.

(4) طلع بدرا: تشبيه بليغ للنبي بالبدر في ضيائه ونوره على المسلمين.

والحظ الجليل الخطير، والأنصار الذين قاموا بنصرته عند عدم النصير، واستأثروا به حين رجع الناس بالشاة والبعير، صلاة تتوالى عليه وعليهم ما لاح الصّباح باهر التباشير، ونشرت الأرواح[1] جواهر الغصن المطير، ورضي الله عن المهدي المعلوم مجدّد رسم الهداية وقد كان على خطر من التّغيير، وعن خيرة أوليائه وأصحابه الذين استعمرهم الله أرضه فأقاموا سنة الله وفرضه مختارين من أروم الكرم والخير، متواصلين[2] في إظهار أمر /12/ الله بغاية الجدّ ونهاية التشمير.

ونرفع الدّعاء في مظان قبوله، ومواقف الرّجاء في وصوله، لمولانا الإمام الأعظم، والملاذ الأعصم، الأمير الأجل الهمام الأسعد الأشرف الأعلى المؤيد المنصور ناصر الدّين، وكافل الإسلام والمسلمين، أبي زكرياء ولوليّ عهده الكريم، وسليل مجده الصّميم، بملك أنقاب الأقاليم ورقاب الجماهير، ومنح تيسّره حاكمات الأقدار خارقة عادة التيسير، وتتدارسه بيض الشّفار وسمر القنا الخطّار فتأتي على جمله بالشرح وعلى مجمله بالتفسير.

**أما بعد**، فإن الله سبحانه خلق الخلق بالفطر والصّور متفاوتين، وعلى عرض هذا الأدنى متهافتين، وجعل السنة التي أعلى أعلامها، وبيّن أكرم خلقه عليه السلام أحكامها، لأمر مصالحهم ناظمة، وعلى أخذهم بالتناصف والتعاطف قائمة، لا يصلح الناس فوضى، ولا يترك الغواة إذا أهملهم الولاة تقحّما في الباطل وخوضا، ومن نعم الله على الرّعية هداية رعاتها، واستقامة قادتها إلى سبيل النجاة ودعاتها، وأن يكون أهل الفضل والورع بطانتهم، وتتولّى الأخيار والصّلحاء إنجادهم وإعانتهم، فبهذا تتمّ النّعماء، وتسكن الدّهماء، وتحقن في أهبها الدّماء، كما أن ضدّ هذه الحال مؤذن بخراب العمران، وتسلّط حزب الشيطان، ومن القول[3] المقبول: يزع الله بالسّلطان ما لا يزع بالقرآن، والمشاهد في هذه المدة كان قد أحال أوجه الأيام، وأشمت الكفر بأهل الإسلام، وما زال عدوّ الدّين يشفي منه صدره، ويركب

(1) في البيان المغرب (قسم الموحدين) الرّياح.
(2) في ك 233: متواصين.
(3) في البيان: المقول.



أهله بما يتعاظم أحدنا ذكره، إلى أن تناهت[1] بحمد الله /13/ مدّة الإملاء، وأذن كسوف الأحوال بالانجلاء، وطلع الفرج على المغرب[2] من ثنيّته، ورأى بعد الشكّ برهان برئه من شكيّته، فنادى به الجدّ الذي استقال من عثاره، وخرج قمره من سراره، قد أمكنت الفرصة ممّن يتدرك من بلادك، واصطفت الحلبة فأعدّ الجواد المقرّب من جوادك[3]، وهذا موقف الخبرة قد بدا، وإنما يفوز بالخصل السابق إلى المدى.

ومكناسة هي التي ولجت من هذا الباب، وأسرجت وليل الخطب[4] مرخي الجلباب، ورأت فرجة الفرصة فنصّت، وقيّد إليها في يد القهر واترها من عوادي الدّهر فاقتصت، وعلم أهلها أنّه لا يصلح مع التقصير عذرة، ولا تقبل بعد الفتح هجرة، وأنّ دعوة الإمارة التي ترفّ بنات الآمال بساحتها، ويخفّ ثبات الجبال عند رجاحتها، وهي الدّعوة اليانعة مواقع سحبها، اللاّمعة مطالع شهبها، المبنيّ على ضرب العدى، وقسمة البأس والندى، حساب كتائبها وكتبها، هي مطمح الهمم ومرقاها، ومجتمع الأماني وملتقاها، والمفزع من متسلّط تبصر البيض منه ضدّها فتودّ أنّ حدّها منه سقاها[5]، وتصبو لأن تصف[6] مصيبه بأسعدها كما كان مصيب سميّها أشقاها، لا جرم أنّهم خلعوا طاعته خلع النجاد، وضربوا بينهم وبينها بأوثق الأسداد، وولّوا وجوههم قبلة ترضاها عبادة الوفود ووفادة العباد، وأبصروا فجر الحقيقة وقد أذهب الله بخيط البياض منه خيط السّواد، حيث مياه الكرم مفجّرة، ووجوه الأمم معفّرة، وأعاظم الرّجال أمثلة مصغّرة، وضراغم الأغيال في حومة النزال حمر مستنفرة.

وعندما أخرج الحق /14/ من تلك العهدة، وتمخض الرأي عن صريح

(1) في البيان: انقضت.
(2) في البيان: طلع الفجر على الغرب.
(3) في ك 233: جيادك.
(4) في ك 233: الخطوب.
(5) في ك 233: تبصر البيض منه صرّها فتودّ أنّ حرّها منه سقاها.
(6) في البيان: تصيب.

والحظ الجليل الخطير، والأنصار الذين قاموا بنصرته عند عدم النصير، واستأثروا به حين رجع الناس بالشاة والبعير، صلاة تتوالى عليه وعليهم ما لاح الصّباح باهر التباشير، ونثرت الأرواح[1] جواهر الغصن المطير، ورضي الله عن المهدي المعلوم مجدّد رسم الهداية وقد كان على خطر من التّغيير، وعن خيرة أوليائه وأصحابه الذين استعمرهم الله أرضه فأقاموا سنة الله وفرضه مختارين من أروم الكرم والخير، متواصلين[2] في إظهار أمر /12/ الله بغاية الجدّ ونهاية التشمير.

ونرفع الدّعاء في مظان قبوله، ومواقف الرّجاء في وصوله، لمولانا الإمام الأعظم، والملاذ الأعصم، الأمير الأجل الهمام الأسعد الأشرف الأعلى المؤيد المنصور ناصر الدّين، وكافل الإسلام والمسلمين، أبي زكرياء ولوليّ عهده الكريم، وسليل مجده الصّميم، بملك أنقاب الأقاليم ورقاب الجماهير، ومنح تيسّره حاكمات الأقدار خارقة عادة التيسير، وتتدارسه بيض الشّفار وسمر القنا الخطّار فتأتي على جمله بالشرح وعلى مجمله بالتفسير.

أما بعد، فإن الله سبحانه خلق الخلق بالفطر والصّور متفاوتين، وعلى عرض هذا الأدنى متهافتين، وجعل السنة التي أعلى أعلامها، وبيّن أكرم خلقه عليه السلام أحكامها، لأمر مصالحهم ناظمة، وعلى أخذهم بالتناصف والتعاطف قائمة، لا يصلح الناس فوضى، ولا يترك الغواة إذا أهملهم الولاة تقحّما في الباطل وخوضا، ومن نعم الله على الرّعية هداية رعاتها، واستقامة قادتها إلى سبيل النجاة ودعاتها، وأن يكون أهل الفضل والورع بطانتهم، وتتولّى الأخيار والصّلحاء إنجادهم وإعانتهم، فبهذا تتمّ النّعماء، وتسكن الدّهماء، وتحقن في أهبها الدّماء، كما أن ضدّ هذه الحال مؤذن بخراب العمران، وتسلّط حزب الشيطان، ومن القول[3] المقبول: يزع الله بالسّلطان ما لا يزع بالقرآن، والمشاهد في هذه المدة كان قد أحال أوجه الأيام، وأشمت الكفر بأهل الإسلام، وما زال عدوّ الدّين يشفي منه صدره، ويركب

(1) في البيان المغرب (قسم الموحدين) الرّياح.
(2) في ك 233: متواصين.
(3) في البيان: المقول.



أهله بما يتعاظم أحدنا ذكره، إلى أن تناهت[1] بحمد الله /13/ مدّة الإملاء، وأذن كسوف الأحوال بالانجلاء، وطلع الفرج على المغرب[2] من ثنيّته، ورأى بعد الشكّ برهان برئه من شكيّته، فنادى به الجدّ الذي استقال من عثاره، وخرج قمره من سراره، قد أمكنت الفرصة ممّن يتدرك من بلادك، واصطفت الحلبة فأعدّ الجواد المقرّب من جوادك[3]، وهذا موقف الخبرة قد بدا، وإنما يفوز بالخصل السابق إلى المدى.

ومكناسة هي التي ولجت من هذا الباب، وأسرجت وليل الخطب[4] مرخي الجلباب، ورأت فرجة الفرصة فنصّت، وقيّد إليها في يد القهر واترها من عوادي الدّهر فاقتصت، وعلم أهلها أنّه لا يصلح مع التقصير عذرة، ولا تقبل بعد الفتح هجرة، وأنّ دعوة الإمارة التي تزفّ بنات الآمال بساحتها، ويخفّ ثبات الجبال عند رجاحتها، وهي الدّعوة اليانعة مواقع سحبها، اللاّمعة مطالع شهبها، المبنيّ على ضرب العدى، وقسمة البأس والندى، حساب كتائبها وكتبها، هي مطمح الهمم ومرقاها، ومجتمع الأماني وملتقاها، والمفزع من متسلّط تبصر البيض منه ضدّها فتودّ أنّ حدّها منه سقاها[5]، وتصبو لأن تصف[6] مصيبه بأسعدها كما كان مصيب سميّها أشقاها، لا جرم أنّهم خلعوا طاعته خلع النجاد، وضربوا بينهم وبينها بأوثق الأسداد، وولّوا وجوههم قبلة ترضاها عبادة الوفود ووفادة العباد، وأبصروا فجر الحقيقة وقد أذهب الله بخيط البياض منه خيط السّواد، حيث مياه الكرم مفجّرة، ووجوه الأمم معفّرة، وأعاظم الرّجال أمثلة مصغّرة، وضراغم الأغيال في حومة النزال حمر مستنفرة.

وعندما أخرج الحق /14/ من تلك العهدة، وتمخض الرأي عن صريح

(1) في البيان: انقضت.
(2) في البيان: طلع الفجر على الغرب.
(3) في ك 233: جيادك.
(4) في ك 233: الخطوب.
(5) في ك 233: تبصر البيض منه صرّها فتودّ أنّ حرّها منه سقاها.
(6) في البيان: تصيب.

الزبدة، اتّفق منهم العلماء والصّلحاء، والأشياخ والأعيان النّصحاء، ووجوه القبائل والعشائر، وكافة طبقات الناس من البادي والحاضر[1]، على أن بايعوا الإمام الهادي الأمير الأجل أبا زكرياء بيعة رفعت بالعدل معالمها، ووضعت على التقوى دعائمها، وصادف وقت الحاجة بيانها، وأسّس على تقوى من الله ورضوان بنيانها.

ابيضت بها أوجه المنى ولكم حالت[2] ألوانها، وطلعت لها شمس الهداية من مشرقها فنفع النفوس[3] إيمانها، ورفع البؤس قرانها الأسعد وزمانها، أعطوا بها صفقة أيمانهم مبادرين، وشكروا الله على نعمة القيام بها وسيجزي الله الشاكرين، على السّمع والطاعة، والارتباط بلزوم الجماعة، والانقياد للأوامر والزواجر بمبلغ الوسع ومجهود الاستطاعة، في العسر واليسر، والقلّ والكثر، والسّراء والضرّاء، والشدة والرّخاء، وعلى ما بايع عليه سلف هذه الأمة أئمتهم، وأعطوا بها عن بصيرة ونقاء سريرة عهودهم وأذمّتهم، النّيات في الوفاء بها صادقة، والألسنة بشكر الله عليها ناطقة، والظواهر مع البواطن في التزام أحكامها والانقياد بزمامها متوافقة متطابقة، طوقها ألزم لهم من طوق الحمام، وربقتها منعقدة في أعناقهم بربقة الإسلام.

وبعد أن أبرزوا عملها في أبهى صور الأعمال واستوفوا عقدها بشروط الصّحة والكمال، أتبعوها بأخرى تنزل منها منزلة السّورة من الفاتحة، وتدل على روضها النضير بنواسمها النافحة، وهي البيعة للأمير أبي يحيى فرع /15/ الدّوحة العليا، ونظام أمر الدّين والدّنيا، نصر الله أعلامه، وأسعد أيامه، وأمضى في عدوّه الماضيين القاضيين رأيه وحسامه، على سنة البيعة لولاة العهود، وما مضى العمل عليه في مثلها من مهمّات الأمور ومبرمات العقود.

وكلتا البيعتين أمضوها على أساليبها المرعيّة، وقوانينها الشرعية، بنيات كريمة، وغيوب سليمة، وبصائر وجدت منهم أمضى عزيمة، أشهدوا عليها الله الذي قوله بالوفاء مرتبط بإيجابه، وأمره لا تقوم السّماء والأرض إلّا به، وكفى بالله

---

(1) طباق الإيجاب بين "البادي والحاضر".
(2) في البيان: تغيرت.
(3) في البيان: الناس.



شهيدا[1] ﴿وكفى بالله عليما﴾[2]، ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما﴾[3].

وكتب الملأ المذكورون بكل ما ذكر فوق هذا خطوطهم شاهدين على أنفسهم بنصّه كلّه، وعاقدين منه ما لا رخصة لأحد من الأحدين في حلّه، وذلك في يوم الجمعة الموفّي عشرين لربيع الأوّل ثلاثة وأربعين وستمائة.

– 10 –

## رسالة المؤلف إلى ابن الجنّان[4]

تحيّيك الأقلام تحية كسرى، وتقف دون مداك حسرى، وترى مكانك كالشمس، ولا تطمع من سمائك في اللّمس، وتذكرك فينتفخ سحرها، ويغيض بحرها، ويبطل ما خيّله سحرها، ومهما عارضها هتانك، أو غشيها طوفانك، تضاءلت أجسامها خفاء، وذهب زبدها جفاء[5]، وطاشت فرقا، وطارت شفقا، وضجّت من شماتة السّيف، وتمنّت أن تجوز مع الزيف، وهيهات الجواز، وقد فضحها ذلك الإعجاز /16/ أو الاشتباه، وهي ممّا ردّه الناقد وأباه.

أشهد أنها ناصبيّة طرقتها الشيعة، أو جاهلية محقتها الشريعة، أو زعنفة[6] أحاطت بها مضر وربيعة، فقد زحفت إليها الميسرة والميمنة[7]، وضربت عليها الذلة

---

(1) اقتباس من الآية رقم 29 من سورة يونس.
(2) الآية رقم 70 من سورة النساء.
(3) الآية رقم 10 من سورة الفتح.
(4) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري المعروف بابن الجنان من أهل مرسية. كان محدّثا راوية ضابطا، كاتبا بليغا شاعرا بارعا، رائق الخط، ديّنا فاضلا، اشتغل بالكتابة عند بعض أمراء الأندلس، وكتابته شهيرة تُضرب بذكره فيها الأمثال، توفي سنة 650 هـ/1252م بمدينة بجاية. الغبريني، عنوان الدراية. ص 302. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة. ج 2، ص 384 وما بعدها. المقري، نفح الطيب، ج 7، ص 415 وما بعدها.
(5) جناس ناقص بين "خفاء وجفاء".
(6) والجمع زعانف، وهي الأحياء (القبائل) القليلة في الأحياء الكثيرة. وقيل هي القطع من القبائل تشذ وتنفرد. لسان العرب، ج 9، ص 135.
(7) طباق الإيجاب بين "الميسرة والميمنة".

والمسكنة، تقاد بحزام الهون فتنقاد، ولا ترد الماء وإن صدر الورّاد، فمهلا أيّها المقصّر باعها، المقصد يراعها، ملكت فأين الإسجاح، وسبقت فما هذا الجماح، وشددت الوثاق فخير في المنّ والفداء، وشارفت الإغراق فهل جبل يعصم من الماء، ومالك أمنت تلوّن الحالات، وقد شننت غارتك على الحاءات[1]، ونفضت عنها المهارق، وبعثت في طلبها السّوابق، ولقطتها من الأفواه، وطلبتها من الشفاه، حتى شهد أهل اللّسان، بتزحزحها عن ذلك المكان، وكما توارت بالحلوق، فلو تغلغلت إلى العروق، لأثرتها جيادك، وأقعصها قلمك ومدادك، وحين دكّت جوانب أرضها، وجلبت إلى ربّ الكلام ليوم عرضها، قالت هو الحشر وقد وضع الكتاب، ولم يبق إلّا النّعيم والعذاب.

فهل دافع فيه قوّة، أو شافع له حظوة، فذكرنا الحبر وحاءه، وقلنا أنت قد أمنت أنحاءه، فانك في مورد يراعته، ومن مجتهد في طاعته، فتوقفت عن الجواب، وتأخرت تأخر المرتاب، وقالت إنما نجوت من المالك الفظ، لأنّي جئت أوّل اللّفظ، ولو وقعت في أخراه، لكنت الآن من أسراه، ولكن أدلكنّ على حاملة حلقتنا، وحامية فرقتنا، المتقدّمة علينا في الرّتبة، المنتظمة معنا في الصّحبة، ولا يبعد أن تحظى بإنصافه، فإنها أوّل أخصّ أوصافه، فتعوّذن /17/ من الشّيطان الرّجيم، وسرن يجمعهنّ إلى الجيم، فرحّبت وأدنت، وعمّت وما استثنت، وقالت ما هذا الجزع الظاهر، والرّوع المخاصر، أما علمتنّ أنه يأخذكنّ من المهارق، ويصوغكنّ تيجاناً على المفارق[2]، ويجمعكنّ كلما، ويجعلكنّ درّا منتظما، ويلقطكنّ هشيما تذروه الرياح، ويعيدكن روضا يتضوّع نشره النفاح، ويطيب به الغدو والرواح، وما

(1) لمّا عقد أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود ملك الأندلس البيعة لابنه أبي بكر الواثق بولاية العهد سنة 629 هـ/1231م، تولّى إنشاءها ابن الجنّان، وجعل الحاء المهملة سجعها مردفا إياها بالألف مثل صباحا وصلاحا، وما أشبه ذلك. وطال مجموعها فناهزت الأربعين، وطاب مسمعها وأحرزت بغية من قرأها، فكتب إليه ابن عميرة هذه الرّسالة الشهيرة يداعبه في ذلك. فراجعه ابن الجنّان برسالة مطلعها: "ما هذه التحية الكسروية"، وهي طويلة أوردها ابن الخطيب في الإحاطة، ج 2، ص 353. ونقلها عنه المقري في نفح الطيب، ج 7، ص 417.

(2) جناس ناقص بين "المهارق والمفارق".



أخشى عليكنّ إلّا واحدة وهي الحمل على الأعناق، والمطار في الآفاق، والمرامي إلى أطراف الشام والعراق.

ولكن هذا سفر ذنبه مغتفر، وكله ريح وظفر، فحينئذ عاد إغماؤها إفاقة، ووجومها طلاقة، ونفارها محبّة وعلاقة، ولكن ما حجة هذا الباهر عجابه، الزّاخر عبابه، المنفق وفي ماله سعة، المغدق وليس في سماء غيره قزعة[1]، وكيف يرضى لمشاركيه ولو في الاسم، وموافقيه ولو بشبهة الوسم، أن يكشف عوَارهم، ويكسف أقمارهم، ويدعهم عالة يصرعهم اليأس[2]، ويتحاماهم الناس.

وأظنه حين أنشر رمّة البلاغة، وملك أزمّة الصناعة، ورأى في الغرب راقم سطورها، وزعيم صدورها، بل كليم طورها، قد انتسفت مواكبه مواكبها، وأخفت شمسه كواكبها، ونطق فأخرس، ووثب فافترس، وروّع الأبطال، وفضح الحالي والمعطال، وأطاب حين أطال، أراد أن يفرع ذروته، ويقسو قسوته، ويسطو بهذا الصنف الضعيف سطوته.

فيا هؤلاء دعوا لنا من حقّكم، فقد عرفنا فضل سبقكم، وأرفقوا بمنصفكم، وسيروا بسير /18/ أضعفكم، وتجافوا عن بعض ما رويتم، وأسئروا فقد ارتويتم، فها نحن نلوذ بالقصار، ونفزع إلى الاختصار، ونوهم أنّا لو شئنا لصلنا حين صلتم، ولقلنا كما قلتم، وهيهات قد افتضحت البضاعة، وعلم أين العجز والاستطاعة، وظهر أن أدواتنا لا تكفي بمضمضة، وأداتنا غير فضة ولا مفضّضة[3]، فليس إلّا أن تثنوا من الأعنّة، وتثنو نحن بالمنة، وتعطفوا على الرّزح، وتقفوا دون المدى الأنزح، وترحموا الدّاخل في جملتكم، وتسقوا الواغل من فضلتكم.

وهذه شكوى يمتنع فيها الإشكاء، وشركة لا يسمح بالغبن فيها الشركاء، وإلّا فمن يكلّف البحر أن يكفّ من موجه، والبدر أن ينحط عن أوجه، والنّوافح أن تمنع شذاها، واللّوافح أن تقصر عن مداها، فحسب المعدم أن يعترف بالإعدام،

(1) القطعة من الغيم. وجمعها القزَع: قطع من السحاب رقاق كأنّها ظلّ إذا مرّت من تحت السحابة الكبيرة. وقيل هو السحاب المتفرّق. لسان العرب، ج8، ص 271.

(2) استعارة مكنية شبّه فيها اليأس بالإنسان الذي قد يصرع غيره.

(3) في ك 233: مفضفضة.

والجبان أن ينصرف عن موقف الإقدام، والأرمد أن ينكف عن ضوء السّراج، والمنقطع أن لا يحضر مواقف الحجاج.

كاتبت الأخ المكرّم ولا أقول مازحته وداعبته، فذلك ممّا يخيّل أن الهزل ركبته طريقة، ودعوى القصور لم أردها حقيقة، لكنها مباسطة وجدت النفس لصفوها متجرّعة، والقريحة بعفوها مبدعة، والأنامل في شأوها متسرعة، فإن أطلت فإتباعا، وإن قصّرت فسجيّة وطباعا، وفضله يغضي متأمّلا، ويرضي متأوّلا[1]، لازال لعلياء مكانه متأثلا، وفي إنسان غير زمانه متمثلا[2].

- 11 -

## بيعة أهل مرسية لأبي بكر عزيز بن خطاب سنة 636 هـ/1238م

الحمد لله الذي له الكبرياء، ومنه النعماء، وإليه المصير والانتهاء، /19/ وفي فضله الزيادة والنماء، سبحانه من عزيز لأمره الإعادة والإبداء، وبهدايته وإسعاده السعادة والاهتداء، نحمده وله الحمد والثناء، ونشكره وبشكره تستغزر الآلاء، وتعمر الآناء، ونشهد أنّه الله وحده لا شريك له آياته لها الإشراق والضياء، وكلماته هي الهدى والنور والشفاء، وأمره به قامت الأرض والسّماء، لا إله إلّا هو يمحو ما يشاء ويثبّت ما يشاء، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أودع من أسرار الرّسالة ما انتفت بأشعته الظلماء، واختفت عند طلعته ذكاء، فانتسخت بنبوّته الجاهلية الجهلاء، واعتلت بدعوته كلمة الإسلام[3] وحقّ لها الاعتلاء، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم الصفوة الكرماء، والأشدّاء الرّحماء، ما هطلت الأنواء، وتعاقب الإصباح والإمساء.

أما بعد، فإن الله خلق الخلق مفترقين في صفاتهم، مفتقرين إلى نظام أشتاتهم، ناظر في إصلاح معادهم وحياتهم، فربّ نظام تولّاه أهله، ونيط بمن عرف

(1) جناس ناقص بين "متأملا ومتأولا".

(2) جناس ناقص بين "متأثلا ومتمثلا".

(3) في ك233: الحق.



في العامة والخاصة فضله، وكان ظله مديدا، وأصبح الدّاخل فيه سعيدا، والخلل نازحا عنه بعيدا، وآخر عصب بقوم عاثوا في سرحه، وحجبوا عن العيون مطالع صبحه، فأضيعت الحقوق، وعظمت الفتوق، وجرى من الفتن ما كان أنذر به الصادق المصدوق، والآثار النبوية هي الحجّة الجليّة، والمحجّة الواضحة السّويّة، وأسعد الدّعاة من كان بها عاملا، وعليها حاملا، كما أن أشقاهم هم المضادّون لفريقها، الصّادون عن طريقها.

وقد كان الولاة من سلف هذه الأمّة /20/ يسوسون الأمور، ويشفون الصدور، ويمنعون أيدي الجور أن تجول في أن تجور، فبورك للناس في إمارتهم، وعمّروا الأرض فلبست مطارف نضرتها من عمارتهم، إلى أن عثر الجدّ، ودثر ذلك العهد، وساس الخلق من ساءت سياسته، ورأس من تنذر بأشراط الساعة رئاسته، فاكفهرّ وجه الأيّام[1]، ورفعت الأيدي إلى الله في استنزال رحمته على أهل الإسلام.

وأنّ الصدور والعظماء، والجلّة والكرماء، والملأ المباركين السّعداء، من أهل مرسية وجهاتها أسعد الله مرامهم، ووصل اتفاقهم على الطاعة وانتظامهم، لمّا تأمّلوا الأمور من جميع الجوانب، فأشرفوا منها على ما يشف عن العواقب، علموا أن متماسك الأحوال عرضة الانتثار، وثابت الأقدام قد أضحى بصدد العثار، وكانت في أعناقهم بيعة[2] عقدوها مع المسلمين إخوانهم، وثبتوا عليها احتياطا لإيمانهم وأديانهم، وقد كان تأوّل فيها متأوّلون، وعلّل انتفاء لزومها معلّلون، وشرطها في

(1) استعارة تصريحية صرّح بالمشبّه به وهو الوجه وحذف المشبّه به وهو الجو الذي يضطرب.

(2) عندما ضعفت دولة الموحدين في الأندلس وآلت إلى السقوط، كان الذي تأمّر بعدهم وتلقب بالألقاب السلطانية هو محمد بن يوسف بن هود الجذامي، وكان خروجه من مرسية في التاسع من رجب سنة 625 هـ/1227م. وفي جمادى الأولى من سنة 635 هـ/1237م مات قتيلا، فبايع أهل مرسية ابنه أبا بكر الذي تلقب بالواثق بالله. ولم يتضح من كلام ابن عميرة ما إذا كانت هي البيعة بولاية العهد أيام أبيه، والتي كتبها ابن الجنّان وداعبه في شأنها ابن عميرة بالرسالة الواردة قبل هذه البيعة، أم أنّها بيعة أخرى تمّ تجديدها بعد وفاة أبيه. ولم يكن للواثق بالله هذا شيء من ملكات أبيه فلم يحكم إلّا سبعة أشهر حتى ثار عليه ابن خطاب. ابن عذاري، البيان (قسم الموحدين)، ص 343. ابن خلدون، العبر، مج 4، ص 203. ابن الخطيب، أعمال الأعلام (قسم الأندلس)، ص 277 وما بعدها.

وتولى عنهم جزائه ومكافأته، وكن له وليا ونصيرا، ومعينا وظهيرا، وآته في هذه الدنيا وفي الآخرة نعيما وملكا كبيرا، /23/ ولا تعدمه في كل شعب يلمّه، ونشر يضمّه تسهيلا منك وتيسيرا، آمين آمين، بعزتك ورحمتك يا أرحم الرّاحمين، وكتبوا بما تضمّنه هذا الكتاب خطوط أيمانهم، وجعلوها الحجّة عليهم ما تراخى من زمانهم، وذلك في العشر الأول لشهر المحرّم[1] مفتتح سنة ست وثلاثين وستمائة.

– 12 –

## رسالة زيان بن مردنيش أمير مرسية إلى والي بجاية الأمير أبي يحيى في شأن بيعة أهل مرسية لوالده الأمير أبي زكرياء الحفصي [2]

حضرة الأمير الأجل أبو يحيى[3] بن الأمير المعظم المؤيد ملاذ الملّة، وثمال أهل القبلة، أبي زكرياء أيّد الله أمرها وأعلى قدرها، وحرس جلالها وأعلى ذكرها، معظّم مكانها، العليم بكبير حقّها وشأنها، زيّان[4] بن الشهيد أبي الحملات ابن

(1) كان ذلك في الرّابع من شهر محرّم، حسبما أكّده ابن الأبّار في الحلّة السّيراء، ج2، ص 310.

(2) بعث الأمير زيان بن مردنيش هذه الرسالة، التي كتبها ابن عميرة، مع وفد من أهل مرسية إلى والي بجاية الأمير أبي يحيى، من أجل تسهيل مهمّة دخولهم إلى تونس لتقديم بيعة أهل مرسية للأمير أبي زكرياء الحفصي التي تمّت في رمضان سنة 636 هـ/1238م، وقد ورد نص هذه البيعة في ك 233 (ص 71-75).

(3) هو الأمير أبو يحيى زكرياء بن أبي زكرياء يحيى الحفصي، كان واليا لأبيه على مدينة بجاية، بُويع بولاية العهد في يوم الخميس الثاني لشهر رجب من سنة 638 هـ1240م، وخُطِب له على جميع منابر افريقية. مات ببجاية أواخر سنة 646 هـ1248م، فكتب والده ولاية العهد لابنه المستنصر. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 350. الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 28 وص 30.

(4) هو أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن الرّئيس أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش، من بيت بني مردنيش الشهير بشرق الأندلس. كان زيان من بطانة السيد أبي زيد الموحدي والي بلنسية، ولمّا ثارت الأندلس على الموحدين انفصل عنه واضطره إلى اللّجوء إلى صاحب أرغون، وحكم زيان إمارة بلنسية عشر سنوات، من سنة 626 هـ1228م إلى سنة

=



الرئيس أبي الحجاج بن سعد، سلام كريم، طيب عميم، يخص ناديها الأرفع ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد حمد الله العظيم، والصّلاة على سيدنا محمد رسوله الكريم، والرّضى عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم وعن خلفائه الراشدين الجارين على سننه القويم، والدّعاء لمولانا الأمير الأجل ملاذ الأنام، وجمال الأيام، أبي زكرياء بدوام النّصر العزيز والفتح العميم.

فكُتِبَ كتب الله للمثابة السعيدة عادة العلوّ والظهور، وسعادة الرّواح والبكور، من مرسية وبركات الدّعوة العليّة المباركة السّنية تسكب كالغمام، وتنسحب على الأنام، وتحوط حرم الإسلام، وتمحو بإساءتها إساءة الأيام، والحمد لله متولي عضدها على الدّوام، وناصر أمرها طورا بالرّعب وتارة /24/ بالحسام، وعمّا أوجبه لذلك المقام الأشرف من حقوق فرضُها أهم الفروض، وعبؤها أعيى عن النهوض، والقيام بها زمام الآمال، وملاذ الأعمال، وسلامة الأحوال، وعلامة اليمن والإقبال، وليس بفضل الله إلا ما تجدّد من جميل صنعه، واستنفذ من شكر الشكور أقصى ما في وسعه، وظهر ببركة الدعوة المباركة من عناية تفضّ غلق المعقل الأشب، وتحكي غدق الغمام المنسكب، فهي الحسام يزهى به الحامل، والسنان يثق بحده العامل، والعدّة التي من لجأ إليها سالمته الأيام، ومن قوتل بها لم يغن عنه الجيش اللهّام.

وقد عرّف الله ببركتها من الإنجاد، ويسّر لها من الفتوح في هذه البلاد، ما صفا من الكدر، ووفى بالوعد المنتظر، ونالت منه العيون أبهى الصّور، والآذان أطيب الخبر، والحمد لله الذي نصر كلمة التوحيد، وأعلى دعوة المقام السعيد،

=

636 هـ/1238م. وفيها تغلّب عليه الأرغونيون، فخرج منها وظل يتقلب بعد ذلك بين شقر ودانية، ثم تغلب على عزيز بن خطاب في مرسية فحكمها مدّة باسم الحفصيين، ثم أخرجه منها بهاء الدولة ابن هود، وانتقل أخيرا إلى تونس حيث أصبح من رجال دولة المستنصر الحفصي. ابن الأبّار، الحلة السّيراء، ج 2، ص 127. ابن الخطيب، أعمال الأعلام (قسم الأندلس)، ص 272 وما بعدها.

وإيجابها، رغب في النكاح بترغيبها المشروع، وتخيّر من شكله في الأصول والفروع، وعلم أن ذات الدين هي التي إليها يوجّه التحضيض، وفيها رغب الخبر المستفيض، فإذا كانت في بيت الأصالة والنجابة، ومعدن الشرف السّامي الذؤابة، فقد أحرزت سنيّ الرتبة، وتوفرت عليها دواعي الرغبة.

ولهذه البواعث المتوافية، والخصائص المتكافية[1]، خطب إلى فلان ابنته خطبة وجدت إسعافا مبذولا، وصادفت إقبالا وقبولا، وكيف لا وكلاهما كفؤ كريم، ولهما في رتب العلاء تقديم، وفي المجد والسّناء حديث وقديم، فانبرم[2] النكاح بينهما بكلمة الله العليا، وإذنه الذي به قوام الدين والدنيا، وعلى سنة سيّد الأولين والآخرين، الموجّه إلى[3] أفضل صلاة المصلّين، وأطيب ذكر الذاكرين، وعلى صداق كذا ولكل واحد منهما وعليه حق لا يُجهل مثله، وحظا قدّره الحكم الذي وسع الأنام عدله، وقد دلّت الآثار المروية، والأخبار النبوية، على الكف عن المضارّة، والكلف بالعشرة السارّة، /27/ ومثلهما سلك سبيل الرّشد وسننه، واستمع القول فاتبع أحسنه، والله يحييهما حياة طيبة، ويبقي نعمه عليهما دارّة صيبّة، ويجعل لهما سعادة لرغبات الجانبين مقرّبة، وعادة لقرّة العين وصلاح ذات البين محصلة ومرتقبة، شهد.

– 14 –

## بيعة أهل جزيرة شُقر لابن هود بولاية العهد لابنه أبي بكر سنة 629 هـ/1231م

الحمد لله الفعّال لما يريد فلا يسأل عمّا يفعل، الأحد الذي لا كثرة في وحدانيته تعقل، الغني عن الخلق فلا لعوض ولا لعرض يهب ما يُسأل، الجواد الحق فلا ينفذ ما به يجود ويتفضل، جلّ ربّنا عما يقول الظالمون، وتجلّى بالآيات

(1) جناس ناقص بين "المتوافية والمتكافية".

(2) في ك 233: فأبرم.

(3) في ك 233: إليه.



الدّالة عليه للألباب الواصلة إليه ﴿**وما يعقلها إلا العالمون**﴾[1]، وصلّى الله على أفضل من تأخر عهده وتقادم، المخبر عن نفسه وهو الصّادق أنه سيّد ولد آدم، محمد رسوله الكريم، ونبيه الرؤوف الرحيم، الذي بعثه ورواق الشّرك ممدود، وباب الهدى مسدود، والجاهلية طامية العباب، دامية[2] الظفر والناب، وأهلها ﴿**كالأنعام بل هم أضلّ**﴾[3]، أحاديث كذبهم على الله تملى ولا تملّ، وأيدي أقويائهم تطول ودماء ضعفائهم تطل، فانجاب بنوره ذلك الحلك، وجاءه من ربه الملك، فأسري به حيث أُمر، وأطلعه من ملكوت السماء والأرض على ما حُجب عن غيره وستر، فعرّف بما فُرض على أمته من صلاتها، وعُلّم أصول الأحكام وأوتي بيان مجملاتها، حتى كمل الدين، ووضح الحق المبين، وأعليت أعلام الإسلام، وعلمت أقسام الأحكام، وتمّ اليقين والاستبصار، وهاجر /28/ المهاجرون ونصر الأنصار، ويئس الشيطان من أن يعبد، وخلت الأوطان ممّن خالف آيات ربّه وألحد، وقبضه الله سبحانه والحنيفية السّمحة قد عضدها الحق، وأقرّ بها الخلق، وسبق إليها من أراد الله أن يكون له السّبق.

وقام بعده الخلفاء الراشدون الذين هم على قدوة الأنام، وحفظة الإسلام، منهم صاحبه وحبيبه[4]، ومنهم القوي في إظهار الدّين حتى استقامت أنابيبه، وأنهلت على الأرض شآبيبه[5]، ومنهم الذي بشّره بالجنة على بلوى تصيبه[6]، ومنهم الذي راع قلب الشرك في موطن غصّ بأهله قليبه، وبكل مشهد شهده بنصره وذبّه، فوثق بالشبع نسر الفلاة وذئبه[7]، رضي الله عنهم وعن سائر الصحابة الذين حضروا التنزيل، وتبينوا السبيل، وتلقوا بالمشاهدة والمشافهة التحريم والتحليل[8]، ومضوا

(1) الآية رقم 43 من سورة العنكبوت.

(2) جناس ناقص بين "طامية ودامية".

(3) الآية رقم 179 من سورة الأعراف.

(4) المقصود هو أبو بكر الصدّيق خليفة المسلمين الأول بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

(5) هو الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب.

(6) يقصد الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

(7) هو الخليفة الرّابع علي بن أبي طالب.

(8) طباق الإيجاب بين "التحريم والتحليل".

وهم على الأعمال الصالحة مواظبون، وفيما عند ربهم راغبون، وعن مشاهد الفحش غائبون، ولحزب الكفر غالبون، فرحم الله تلك الوجوه، وطيّبها أرواحا باشرت في طيب لقائه المكروه، فكم حق شدّوه وخرق سدّوه، وظل للعدل بسطوه ومدّوه.

وحين عالت[1] الأيام نفاستهم، وعدم الإسلام سياستهم، كثرت المحن، وظهرت الفتن ومنعت الحقوق المعلومة، وسفكت الدماء المعصومة[2]، إلى أن عادت الإمامة في أرفع مناصبها، وانتزعت من يد غاصبها، ونيطت بأسرة النبوة، أهل الجلد في ذات الله والقوة، بني العبّاس أبي الخلفاء، وساقي الحرمين: حَرَم الله بمفعم الدّلاء، وحرم رسوله بمسموع الدّعاء، فتولاها /29/ السّفاح[3]، وصارت حيث الكرم الوضّاح والبأس والسّماح، وقام بها بعده أهل بيته الكريم واحد بعد واحد، وولد يقفو أثر والد، كلّهم مستوف شروطها، حريص على بيضة الإسلام أن يحوطها، حتى تحيّف حقها الباطل، وغالت بالمغرب الغوائل، وعميت عن سناها النواظر، وعطّلت عن ذكرها المنابر[4]، وجحدت وهي الشمس نورا، وأنكرت وهي النار[5] ظهورا، وذخر الله لها من عباده الموفقين وأوليائه المتقين، من أعادها إلى حالها، وأعارها كمالا إلى كمالها، فطلعت على البلاد وكانت آفلة، وعلت وكانت لا في ذاتها بل بغمط[6] عُداتها سافلة.

ذلكم أمير المسلمين أيّد الله أمره، وأعزّ نصره، ذو المعالي السنيّة، والمناقب العلية، والبأس المتقى، والكرم المنتقى، مذلّ الشرك ومهينه، مرضي الله في إعلاء كلمته حتى عزّ دينه، الذي أطلع شمس الدّعوة النبوية باهر النّور والضيّاء، وبيّض

(1) في ك 233: غالت.

(2) يريد عصر الدّولة الأموية في المشرق التي حكمت الفترة (41 – 132 هـ/661-749م).

(3) أول خلفاء بني العباس، حكم الفترة (132- 136 هـ/749-753م). السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 297.

(4) يعود انفصال الغرب الإسلامي عن الخلافة العباسية إلى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري على يد الرّستميين والأدارسة والمدراريين وأموي الأندلس، ما عدا أغالبة افريقية.

(5) في ك 233: النهار.

(6) في ك 233: بغمد.



وجوه الأيام بما أظهره من رايته السّوداء، فطابت بخبرها الساعات، وتزينت بذكرها الجمعات والجماعات، وصدع باسم الخليفة الإمام المستنصر بالله[1] أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، فأشرقت الأرض بعد تراكم غياهبها، وأنست السّمحة البيضاء بذكر من هو ابن عمّ صاحبها، وكان ما صنع الله من ذلك آية جلّاها لوقتها، وذَخرَها لأولى الناس بالسّمو إلى سمتها، أمير المسلمين وناصر الدّين[2]، معزّ الإسلام ونصيره، وولي أمير المؤمنين وظهيره، وهو الذي لا يمل ذكره على الإعادة /30/ ولا تميل على ركابه ألوية السعادة.

ولمّا طلع على الجزيرة[3] بدر هدى، وتراءاه الناس حسام بأس وغمام ندى، وكان بين ثغر يعنى بسداده، وعدوّ ينهدّ إلى جلاده، ونكاية في الكفر تدمّر أرضه، وعناية بالإسلام تقيم نفله وفرضه، رأى المسلمون أنفسهم في ظل أمنه يسرحون، ومن كنف عدله لا يبرحون فدعوا له بالحياة الطويلة لأنها سبب حياتهم، ومظنة ما أجرى الله من عادة قمع عداتهم، وعلموا أن الخلق بين أيدي المنايا لا يفلتون، ووعوا قول الله لنبيّه عليه السلام ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون**﴾[4]، فنظروا نظر الحزمة الألباء، ولم يأمنوا من انقطاع الحياة ما هو جار على الأحياء، ورأوا أن يلتمسوا منه أن ينصب لولاية عهده، والقيام بأمره[5] من بعده، ابنه المبارك السعيد، ونجله الطاهر الرشيد، أبا بكر أعلى الله أمره، وشدّ به أزره.

فنظر لهم نظر الشفيق، وتأمّل ما قالوا بعين التحقيق، واستخار الله في

(1) الخليفة العباسي ما قبل الأخير في بغداد، حكم الفترة (623 – 640 هـ/1226-1242م). السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 512.

(2) هو أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي المتوكل على الله، مؤسس الإمارة الأندلسية بعد انهيار سلطة الموحدين في الأندلس، بايع الخليفة العباسي المستنصر بالله أبي جعفر فأرسل إليه التقليد العبّاسي سنة 630 هـ/ 1232م، مات قتيلا سنة 635 هـ/1237 م. ابن الخطيب، الإحاطة، ج 2، ص128 وما بعدها، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس)، ص 277 وما بعدها. ابن عذاري، البيان (قسم الموحدين)، ص 278 وما بعدها.

(3) يريد شبه الجزيرة الأندلسية وليست جزيرة شقر التي بعث أهلها هذه البيعة.

(4) الآية رقم 30 من سورة الزّمر.

(5) في ك 233: بأمرهم.

مجالس خلواته، وسأله التوفيق في مرفوع دعواته، ثم أجابهم لما عرضوه، ورضي لهم ما رضوه، إعدادا لانقضاء الأمد، وحبّا للأصلح لا محاباة للولد، وقلّده عهده الكريم، واستحفظه العزيز العليم، وهو سبحانه خير حفظا، والواثق به أعزّ جانبا وأكرم حظا.

ولمّا انتهى إلى الرئيس أبي عبد الله[1] بن الرئيس أبي سلطان ومن قبله من جزيرة شُقر[2] وجهاتها من الأعيان والوجوه والقواد والأجناد والكافة هذا الخبر الذي أثلج صدورهم، ومكّن جذلهم وحبورهم، وعلموا رأي السّواد الأعظم فيه، وموافقة أمير المسلمين وناصر الدين على توثيق /31/ مبانيه، بادروا إلى الدّخول مع الجمهور، وإبرام ما فيه إن شاء الله شفاء الصّدور وصلاح الأمور، وبايعوا الأمير أبا بكر يسّره الله لأصلح الأعمال، وبلّغه أفضل أحوال الاستكمال، على أنّه وليّ عهد المسلمين والمرجو لوراثة أبيه في نصرة الدّين، وقمع الكفرة المعتدين، بيعة صحيحة صريحة اتفقت عليها الضمائر، وتساوى فيها الباطن والظاهر، على المحبة والنصيحة، والطاعة الخالصة الصريحة، والانقياد لأمره ونهيه، والرّضى بعالي نظره، ومبارك رأيه، أعطوا بها صفقة أيمانهم، وجعلوا الوفاء بها لازما لأمانتهم وإيمانهم،

(1) هو الرّئيس أبو عبد الله ابن الرّئيس أبي سلطان عزيز بن أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش، ابن عمّ أبي جميل زيان بن مردنيش صاحب بلنسية، وقد خرج عن طاعته وأخذ البيعة لابن هود على جزيرة شقر في ربيع الثاني سنة 629 هـ/1231م. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 280.

(2) بضم الشّين وسكون القاف كما ضبطتها المصادر الأندلسية، وهي جزيرة نهرية من أعمال بلنسية، تقع بين ذراعي نهر شقر الذي ضرب حولها نطاقا خافقا من الماء. تحدّث عنها الجغرافيون والمؤرّخون الأندلسيون بكل إعجاب لجمال موقعها وسحر طبيعتها، ارتبط تاريخها بتاريخ شرق الأندلس سيما بلنسية وما جاورها. شهدت خلال عهودها الإسلامية نهضة أدبية وعلمية نشيطة، وقد أنجبت تلك الجزيرة من أعلام الأدب والفكر الجمّ الغفير ممّن شهدت مصادر التراث الأندلسي بشهرتهم، فهي مسقط رأس ابن خفاجة، وابن عميرة صاحب هذا التّأليف، وابن مرج الكحل وغيرهم، سقطت في أيدي نصارى أرغون سنة 639 هـ/1241 م. عن تاريخ هذه الجزيرة وجغرافيتها والمصادر التي تطرّقت إليها راجع: صلاح جرار، جزيرة شقر الأندلسية المكان والإنسان في الأدب الأندلسي. مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 34، السنة 12، حزيران 1988، ص ص 151 - 195.



وهم على الدعاء إلى الله مجتمعون، وفيما عنده من خير العاجلة والآجلة لأميرهم ووليّ عهدهم يضرعون:

اللهم إنك قلّدته من أمرنا قلادة وفّى لك بحملها، وجعلت له إيالة خلقك وهاهم محبورون بعدلها وفضلها، واخترته ناصرا للملة المحمّدية وقد قام بنصرها وإعزاز أهلها، اللّهم فأسعده في كل مرام، وحطه بملائكتك الكرام، وخِر له فيما يتولاه من نقض وإبرام، واجعل عمله ناجحا، وميزانه راجحا، وتجره مباركا رابحا، اللّهم إنّه قد أدرك في أعدائك الثأر، وسلبهم في أوطانهم الهدون والقرار، وأرانا رأي العين الانتصاف منهم والانتصار، واختار لنا ونعم الاختيار ومن اختار، اللّهم فكن له وليا وظهيرا، واجعل له من لدنك سلطانا نصيرا، واته منك يوم الحساب وفي دار الثواب نعيما وملكا كبيرا، اللّهم إنّ جامع هذا الأصل الكريم والفرع الطاهر هو طيب النّجار، ومعدن الفخار، /32/ فاثبت له حكمه في البلاد والعباد، وألحقه به في مزيّة الإسعاد والإنجاد، ولا تُخله وإياه من فضلك المعهود وإحسانك المعتاد، آمين آمين، وكتب الملأ المذكورون خطوط أيديهم في هذا الكتاب إحكاما للعقد وتوثيقا للربط، وتعزيزا لاعتقاد القلب ونطق اللسان بثالث الخط، وذلك يوم الخميس الرابع لربيع الآخر سنة تسع وعشرين وستمائة[1].

– 15 –

## وكتب لأحد إخوانه يتشوّق إليه ويخبره عن أحواله

[الكامل]

| | |
|---|---|
| يـا صـاح عـود العـيش عـندك ناضـر | ومـع انتـزاحك فهـو مـاء ناضـب |
| أنـا مـن إلـيك صبا وفيك على النوى | والقـرب شـاهده اسـتوى والغـائـب |
| فــصبوتي وبــصحبتي عــرف الــورى | أنـي أنـا الـصّابي وأنـت الـصاحب |

كتبته حفظ الله إخاءكم، ويسّر على ما يسرّ لقاءكم، والودّ حبل مبرم، والشوق لهب بين الحشى مضرم، من فلانة وكان الوصول في كنف السلامة

(1) الموافق ليوم 29 يناير 1232 م.

والعافية، وبعد المثول بالبساط الشريف، أسماه الله في ساعة كان فيها لكوكب[1] السّعد[2] قران، ولجياد الأمل إذعان، لا يدنو منه حران، بسطوا رضي الله عنهم عبدهم في كل فنّ، وأروه ما لم يجرِ له على خاطر ولا في ظنّ، وصدر عن طور الأمل، وقد حظي بالرؤية والكلام، وطالع الأمور[3] المدهشة للعقول والأفهام، ثم برز يطأ فضول النعماء، وينظر في أعطافه نظر الخيلاء، وكان فلان قد رفع ما تحمّل، واجتمع بمن أمّل، وكلّ وعد بقرب الظفر، وسرعة الصدر.

– 16 –

## ولـه مـن رسـالـة

/33/ وأما فلان فقد ورد من القبول أعذب شرب، ثم خطب المودّة منه أكرم خطب، على حين ضنّ بها على الأكفاء من يعضلها، وبعد أن ألقوا أقلامهم أيّهم يكفلها[4]، فلما رآه أكبر وسيلته، وأبرز إليه عقيلته، وقال إن شئت فكن أبا جهمها، فقد فاز بك طائر سهمها، ولقد كان الخاطب أكرم من أن يحمل عليها عصاه، أو يقف من برّها دون أقصاه، بل اعتدها ذخيرة وجد حيث[5] المال سكّتها المأبورة، وخير أحاديث الرّجال قصتها المأثورة، ثم أفضى إليه منقطع الظهر، بعد حقبة من الدّهر، فوجد سقط مرخها قد أنار مصباحه، ورأس مالها قد ضوعفت أرباحه، فأقسم بربّ السّماء، لا رغب عن حظه من النماء، وإنما هو غنم أفوز بإحرازه، أو أطيب نفسا عن خمس ركازه.

(1) في ك 233: لكواكب.

(2) والجمع سعود وهي الكواكب التي يقال لكل واحد منها سعد كذا، وهي عشرة أنجم كل واحد منها سعد: أربعة منها منازل ينزل بها القمر، وهي: سعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وهي في برجي الجدي والدلو. وستة لا ينزل بها القمر، وهي: سعد ناشرة، وسعد الملك، وسعد البهام، وسعد الهمام، وسعد البارع، وسعد مطر، وكل سعد منها كوكبان بين كل كوكبين في رأي العين قدر ذراع وهي متناسقة. لسان العرب، ج 3، ص 213.

(3) في ك 233: الأنوار.

(4) اقتباس من الآية رقم 44 من سورة آل عمران.

(5) كلمة "حيث" ناقصة في ك 233.



ولقيك فما وجد إعراضا ولا اعتراضا، وحكّمك فرضيت بقول من قال لو جعلته قراضا، فما كانت شركتك إلا أشعرية، ولا مِقَتك إلا من الملق عريّة، ولم يكن نزلك من عقر النيب، ولا درّك من الحازر والحليب، بل ما غذا الروح قبل الجسم، واحتفل في المسمّى ولم يحفل بالاسم، فما كان أسعدك لقاءك، أطال الله في بقائك، وأيمن طلعتك، سقى الله تلعتك، وأجزل حباءك، حفظ الله حوباءك، لقد وجدتك لبصري إنسانا، وعند حصري لسانا، وفي سُراي نورا، ومع صداي شرابا طهورا، ولكم أدلجت فأقمرت واحتججت فنصرت، وغبت فنبت، وشربت فعذبت، وملت فرجحت، وخلت فصحّحت.

– 17 –

## رحلة المؤلّف من بجاية إلى قسنطينة ورجوعه إليها سنة 647 هـ/1249م[1]

/34/ وكان القدوم والسّرور كأسه دهاق، وكيسُه من غيره انفاق، وقد سرَت في النفوس نفحة الاستبشار، بل نفحة الإنشار، ووفرت أقسام الأفراح، بل ظفرت الأجسام بالأرواح، وافترقت مباسم الآمال، واستمرت نواسم الإقبال، وعاد الزمن اليفن غلاما[2]، وقيل لنار الهمّ كوني بردا وسلاما[3]، فقرّت عيون كان الغضّ بها استبدّ، والغمض عنها ندّ، فراجعها بعد الفقد نورها، وراعها من تلك القباب

(1) لمّا غادر ابن عميرة مدينة سبتة على ظهر الأسطول الحفصي ووصل إلى بجاية في جمادى سنة 646 هـ/1248م، أقام في هذه المدينة منتظرا أن يدعوه الأمير أبو زكرياء الحفصي إلى المثول بين يديه في تونس، ولكن هذا الأمير انشغل عنه يومئذ بالاستعداد للهجوم الذي كان ينوي القيام به على الجهات الغربية، ثم بوفاة ولي عهده أبي يحيى التي جعلته يضرب عن هذه الحركة ويصرف أكثر مَن كان معه. وأثناء مقامه بظاهر قسنطينة سنة 647 هـ/1249م ورد عليه ابن عميرة "للثم المعالم المقدّسة، والتذكرة بطعام المرتب وما يجري مجراه" كما يقول في إحدى رسائله. فكتب هذه الرّسالة يصف فيها هذه الرّحلة. مجهول، مخطوط لباب الألباب من نظم الشعراء ونشر الكتاب، الورقتان 74 و75. ابن عذاري، البيان (قسم الموحدين)، ص 394. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 352.

(2) تشبيه بليغ حيث شبّه الزمن بالإنسان وصرّح بالمشبّه به والمشبّه وحذف الأداة ووجه الشبه.

(3) اقتباس من الآية رقم 69 من سورة الأنبياء.

ظهورها، وسرحت الطرف في بحر له منها زبد، وسماء نجومها منها ما لها عدد، غصّت بها الرّبا والوهاد، واصطفت حولها الصافنات الجياد، من كل قيد لأوابد البيد، لائم على الصفة غير المنصفة لاميّة الوليد[1]، إن ذُكر الوجيه زوي وجهه تيها، أو عُرض عليه وصف امرئ القيس لم يرض به تشبيها، وعاينّا للقنا الخطّي هنالك التفافا، ومن ذلك المنظر البهي جنات ألفافا، بلد دوره الخيام، وسوره الذابل والحسام، وفضاء معه من الزّرد الموضون أضاء، وله لوعد النّصر انتظار ومن صوارمه انتضاء[2].

وقسنطينة مدينة عتيقة، وعقيلة في قصائر القياصر عريقة، وفيها كل آية بنيت بريعها، وصنعة حبيت ببديعها، وكل أثر لا يدري أأيدٍ بنت الإيوان صنعته، أم جنّ سخرت لسليمان اخترعته[3]، حتى كأن صخر تدمر من فضلها جُمع، وبناء الهرمين على شكلها صُنع، وحتى كأن الأيام وفت لها على خلاف عادتها، وأرادت أن تبلغ بها أوان سعادتها، وذلك لأنّ تبوّأ المولى منزلها مناخا بذي طواه، ومستقرا لإجمام قواه، واختار هواءها الخالص من الأقذاء، وماءها المصلح للغذاء.

وقصرها الذي نجّدته الهمم العالية، /35/ وأوجدته الأمم الخالية، وأبقوا منه أثرا نالوا منه بعد اخترام القرون، وخرائب المدائن والحصون، ذكرا هو البقاء الثاني، وفخرا لم يكن في حساب الباني، ولو على قدر هذا الساكن رفع سمك بنائه، وتولّى توسعة فنائه، لتمنّى أن يرفع سقفه مع السقف المرفوع، ويجعل نجومه أجر الصانع وأجر المصنوع، ولقد وقفت على تلك الجُدرَات مرارا، وأطلت النظر إليها

(1) هو البحتري أبو عبادة الوليد بن عبيد (205 – 284 هـ/820–897م) عربي طائي، لقب البحتري نسبة إلى بحتر أحد أجداده. ولد في منبج قرب حمص ونشأ فيها نشأة عربية خالصة، ارتفع شأنه بعد اتصاله بأبي تمام وتخرّجه عليه، مذهبه في الشعر مذهب الألفاظ لا المعاني. ديوان البحتري، ص 5.

(2) في صدر هذه الرّسالة يصوّر ابن عميرة محلّة أبي زكرياء ومثوله بين يديه، في عبارات تفيض بالإجلال والتقدير.

(3) إشارة إلى قول البحتري في سينيته المشهورة في وصف إيوان كسرى:

ليس يُدرى أصنع إنس لجنّ    سكنوه أم صنع جنّ لإنس

البحتري أبو عبادة الوليد، ديوان البحتري، ج 1، ص 194.



اعتبارا[1]، فأحدث لي منظرها طربا ما معه ضرب ونقرّ، وأودعني خبرا يسمعه بعينيه من في أذنيه وقرٌ: [الكامل]

خطيب قوم مضوا عنه وبعدهم    أقام منتصبا من غير أعواد
محدّث عن ملوك قبلنا درجوا    من بعد كثرة أعداد وإعداد
ما زال في طرق الأيام ذا سفر    أعمار ساكنه أغنته عن زاد
كانوا أناسا أجابوا العزّ حين دعا    من في البلاد وجابوا الصخر بالواد[2]
سادوا وزادوا على ما شاد غيرهم    من الخورنق[3] أو من قصر سنداد[4]
وخلّفوها لأرض بعدهم رجفت    بنيّة هي منها ذات أوتاد
لحادث الدّهر في أعطافها عمل    كان منه عليها ثوب إحداد
فالآن تسحب أذيال العروس بها    ردع الخلوق وفيها صائك الجاد
فخرا بخير أمير لا تعذّ به    أيام سكناه فيها غير أعياد
راوي العلى عن أبيه المرتضى    وله بذلك أشرف أستاذ وإسناد

ومنها حضرت الساعة التي صيدها أبدا نافر، وميلاد الأيام بمثلها نادر[5]، وألّا يكون بزعم قوم قالوا بتقريب، عند تشكّل من الفلك قريب[6]، وهم وما زعموا،

(1) ركّز المؤلف في وصفه لمدينة قسنطينة، نثرا ونظما، على آثارها الرّومانية القديمة التي أعجب بها وهو من باب الاعتبار أيضا. وهذا ما فعله قبله الرّحالة والجغرافيون الذين زاروا المدينة. ومنهم صاحب الاستبصار الذي يقول: وهذه المدينة من عجائب العالم قد دخلتها مرارا وتأملت آثارها ودخلت مواضع كثيرة فيها آثار للأوّل فتأمّلتها، وكان لي في ذلك غرض. مجهول: الاستبصار، ص 166.

(2) اقتباس من الآية رقم 9 من سورة الفجر.

(3) هو قصر النّعمان بن امرئ القيس جدّ النّعمان بن المنذر الذي بناه بظهر الحيرة، وكان الذي بناه رجل يقال له سنمار، وهو الذي يضرب به المثل في الجزاء بالشرّ على فعل الخير، لأنّ النّعمان أمر به فطرح من رأس الخورنق لما فرغ من بنيانه. الحميري، الرّوض المعطار، ص 225.

(4) في ك 233: شدّاد.

(5) جناس ناقص بين "نافر ونادر".

(6) في ك 233: غريب.

والحكم لله فيما به حكموا، وفيها لبست لأمة لام[1] التعريف، ومثلت /36/ بالبساط الشريف، وهنالك نظرت بدر الحلك، وتأمّلت مسحة الملك، واستقبلت بعيني قمر التمام، والتقطت بأذني جوهر الكلام، بالسمع والبصر حيرة، ولأحدهما من الآخر غيرة، وأنا أقول من طور الندى نوديتما، وبمسطور الهدى هديتما، فهأنا بعد الأعرابية مهاجر، وعقب تصعلك الضائع في أشرف البضائع تاجر.

ثم جاءني الإذن في الانصراف فأخذت له أهبته، وطلبت مَن أرضى صحبته، وصرت وهواي من ورائي، وابن مُضاض[2] في لياليه الجون ومضض شوقه إلى الصّفا والحَجُون من نظرائي، وركبنا الطريق[3] بحال الهائم الذي لا تتميّز له الأعلام، ولا يصلح بصلاته إلا الإتمام.

إلى أن بلغنا ميلة[4]، وشاهدنا ساحتها الجميلة، وإنها لمدينة بخصب الأرجاء متزينة، وفيها من الأوائل آثار بيّنة، صخور يعجب نحتها، وأبنية يعجز نعتها، وماء يدغفقونه[5] دغفقة، ويردون جمّته[6] متفيهقة[7]، وعندما سمع بعضنا باسمها

---

(1) كلمة "لام" ناقصة في ك 233.

(2) إشارة إلى قول عمرو بن الحارث بن مُضاض بن عمرو يتأسّف على البيت:

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصّفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنّا أهلها فأبادنا ... صروف اللّيالي والجدود العواثر

والحَجون جبل بمكة قرب البيت. لسان العرب، 13، ص 109.

(3) مجاز مرسل لأنّ الذي يُركب هو الراحلة التي تسير على الطريق.

(4) عن مدينة ميلة التي تبعد عن مدينة قسنطينة بحوالي 18 ميلا. انظر: البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 245. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج 1، ص 265. مجهول، الاستبصار، ص 166.

(5) الدّغفق وهو الماء المصبوب. ودغفق الماء إذا دفقه وصبّه صبّا كثيرا واسعا. لسان العرب، ج 10، ص 98.

(6) الجَمّةُ: المكان الذي يجتمع فيه ماؤه، والجمع الجمام والجموم. لسان العرب، ج12، ص 105.

(7) من الفهق وهو الامتلاء والاتساع. وهذا ما أكّده صاحب الاستبصار قائلا: وفي وسط مدينة ميلة عين خرّارة عذبة من بناء الأوائل لها سرب كبير يدخل فيه فلا يوجد له آخر، ولا يعلم من أين يأتي ذلك الماء، وتعرف هذه العين بعين أبي السباع. مجهول، الاستبصار، ص 166.



ارتاح لذكره، وخطر بباله ابن قاضيها[1] وجودة شعره، فسأل عن قبره ومن يريه، وشعره وهل هنا من[2] يرويه، وهل تُحفظ فائيته التي فاء عليها ظل البديع، وجاء منها عرف الربيع، ولم يشك أنّ ذلك القول يروي غريبه، وأن القبر سيدل عليه طيّبه، فما لقي إلا من ادّعى الجهل الصريح، وأنكر القول ولم يعرف الضريح.

ورأينا ذلك البناء[3] وإن كانت صفحة بهجته تربت، والأيام عليه قد أكلت وشربت، عودا بجنبيه جلب، وطودا كل أمره عجب، فقلنا ما أنصف من زعم أن إيوان المدائن ينهار، وسينيّة البحتري[4] لا يخلقها الليل والنهار، فقد رأينا الأمر بالضد، وللأيام بأهلها سير الرّاكب المجدّ، /37/ ثم دخلني وسواسي، فانفردت عن أناسي، وقلت من أبيات: [الطويل]

أميلة ما للقلب ميل إليك لا ... وقلّ لك الإعراض منّي مع القِلَى
وماذا الذي أهواه من رسم منزل ... تركنا له بين الكواكب منزلا
وجدنا به ظل المكارم سجسجا ... وما الندى منه شربناه سلسلا
فها أنا في يهماء ما همّها انقضى ... تنازعني غمّاء ما غيمها انجلى

وبتنا ليلتنا نحمد مثوانا وأباه، ونطرد عنا النشاط ونأباه، حتى ولّى الليل زجل النجاح[5]، وشرق الأفق بماء الصباح، فبرزنا من المنزل، وقبضنا من خطى المستعجل، إلى أن أخفت السماء أنجمها، ودعت الخيل ألجمها، فسرنا بين سهل

---

(1) هو أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخي الشهير بابن قاضي ميلة ( ت 437 هـ/1045م) ذكره ابن رشيق وأثنى على أدبه كثيرا. اشتهر بقصيدته الفائية التي تقع في ستّين بيتا، وقد مدح بها في عيد النّحر ثقة الدّولة يوسف بن عبد الله بن محمد أمير صقلية الكلبي الذي تولّى إمارتها سنة 377 هـ/987م، وقد وردت كاملة في وفيات الأعيان. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 6، ص 159 وما بعدها.

(2) في ك 233: أحد.

(3) يريد آثار القصر الرّوماني القديم.

(4) هي القصيدة السّينيته المشهورة التي وصف فيها البحتري إيوان كسرى، وقد جاء في مطلعها:

صنت نفسي عمّا يدنّس نفسي ... وترفّعت عن جدا كلّ جبس

البحتري أبو عبادة الوليد، ديوان البحتري، ج 1، ص 190 وما بعدها.

(5) في ك 233: الجناح.

من الرّجى حافظ، ووعر للسنابك غائظ، حتى زاد الإعياء، وفات الأفياء[1]، وبلغنا المائدة، وربع القوي قواه، وأفئدة الركب هواه، فنزلنا من ضاحيها تحت شجر ظله منخرق، وجفن المضطجع تحته أرق، وعند المساء قيل لنا إن الأرض ماسدة، وصرعى أبي الأشبال على تلك الجبال[2] موسّدة، فقلنا لا قرار على زأر، ولا اغترار بما لا يفرق من زجر، ولم نجد بدّا من دخول تلك الحظيرة، كأننا المعزى في الليلة المطيرة، فدخلنا المائدة وما لنا بها إخوان، وقلنا إن سميت ولابد فإنما هي خوان، فلولا واحد نبض فيه عرض[3] اعتذار، وأطّت به رحم جوار، أوانا إلى خيمته، وأشركنا في قرمه وعيمته، لكنّا أشقى طفيلي غرّته الموائد المنصوبة، واخطأته غايتها المطلوبة.

ومع الصبح سرنا مغلّسين[4]، وبمن التف معنا متأنّسين، والطريق كله سدر شوكه كمسنونة زرق، وأيكه لا سجع عليه /38/ لورق، فذكرنا عندها سدر أصحاب اليمين[5]، والتي عندها كانت رؤية الرّوح الأمين[6]، فقلنا تبارك من شهدت بحكمته الأرض والسّماء، وسبحان الذي باين بين المسمّيات وإن اتفقت الأسماء.

وحثثنا السّير حتى طوينا بني ورار طيّ المختصر، بعدما ارتوينا من مائها الخصر، وأفضينا إلى واد جهته مرعى لا ينتجع، وجَلْهَتُه[7] مرقى يهابه الأعصم الصّدع، فقطعناه وما كدنا، وقضينا العجب من عقبة على خلاف ما عهدنا، ومضينا حتى بدت لنا بيدة، ودونها المسافة البعيدة، فتجلدنا لبقية اليوم، وذمرنا المتثاقل من

---

(1) والمفرد فيء وهو ما كان شمسا فنسخه الظلّ. وقيل هو ما بعد الزّوال من الظلّ. والفيء: ما نسخَ الشمسَ. والظلّ: ما نسخته الشمسُ. لسان العرب، ج1، ص 124.

(2) في ك 233: الحال.

(3) في ك 233: عرق.

(4) من الغلَس وهو ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. لسان العرب، ج 6، ص 156. وهي كناية عن البكور.

(5) اقتباس من الآية رقم 28 من سورة الواقعة.

(6) اقتباس من الآية رقم 14 من سورة النجم.

(7) الجَلهَة والجمع جلاه. والجلهتان جانبا الوادي. ويقال: هما جلهتاه وعدوتاه وضفّتاه وشاطئاه وشطّاه. لسان العرب، ج 13، ص 485.



القوم، حتى نزلناها وبرد العشي مؤرّس، وعرصة المكان ما فيها معرّس، فأوينا إلى كنّ يضيق عن الواحد، عند ماء ينفع غلّة الوارد، ثم قمنا ولمقلة الرازح بالكرى ولوع، ونجم الفجر ما حان منه طلوع.

وسرنا ذلك اليوم في جبال أبانية، وعقاب لبنانية، ومنها واحدة كؤود سمعناهم يذمونها، وبصدر العروسة يسمّونها، فقلنا أهي المُعصِر[1] أم الكاعب[2]، وهذه العروس أبكر هي تلاعب، وما يصنع الضجيع بصدر ينقبّ به الأظلّ، ويزلّ فيه السمع الأزل، ولما ولينا الظهر، بعد أن نقدناها المهر، حمدنا الله الذي منها أنجانا، واحتملنا لها ما وجدنا من رجانا، ثم انتهينا إلى ثنية تشرف على جبل على البلد قد احتضنه، وفيه يقال أنجد من رأى حضنه، فعرا الرّكب فرح وجذل، وذكروا قوله عليه السلام **(أحد جبل)**[3]، وكثر التمثل بأبرح ما يكون الشوق، وقيل دار الحبيب فصار بالحنين نقطتاه من فوق: /39/ [الطويل]

وطار فؤاد لم يكن قبل طائرا ... وهاج غرام لم نخله يهيج
فيا من رآنا للرّكاب على الدّجى ... حنين وللرّكب المشوق ضجيج

ودنونا من الساحل فاستراحت أيدي المطي، وثاب نشاط البطيء، وسرنا وقد رافقنا ذلك الفضاء، ووصلنا أندرياش والشمس نقيّة بيضاء، فرأينا خمائل سندسية، وحدائق أندلسية، ذكرتنا معاهد لها علينا حق، وبها لتمائم الشباب كان عق، فغلبتنا على الدّمع رقة وجدناها، ولوعة لو قدرنا على نارها لأخمدناها، وبات الركب يمشّون أعراف الخيل، ويمشون في جمع أطراف الليل، ومع السحر في أول الميعة[4]، قطعنا مسافة عقبة القليعة، وفي أول النهار تخلصنا من شطط الوعر، وسرنا على شاطئ البحر.

---

(1) والجمع معاصر ومعاصير. وهي الفتاة حين تدرك وتحيض وتبلغ عصر شبابها، لأنّ الإعصار في الجارية كالمراهقة في الغلام. لسان العرب، ج 4، ص 576.

(2) والجمع كواعب. وهي الجارية التي نهد ثديها. لسان العرب، ج1، ص 719.

(3) يريد الحديث الذي أخرجه البخاري ورواه أبو حميد عن النبي عليه الصلاة والسلام حين أقبل من غزوة تبوك وأشرف على المدينة فقال: "هذه طابة وهذا أحد جبل يحبنا ونحبّه".

(4) ميعة النهار: أوّله وأنشطه. وقيل: ميعة كلّ شيء معظمه. لسان العرب، ج 8، ص 345.

ودخلنا البلد واليوم ما اكتمل شبابه، ولا تجاوز الصّدر كتابه، وحمدنا الله الذي سهّل الصعب، وسلم الصّحب، ويسّر علينا تلك السّبل وجوبها، وألبسنا العافية وما خلع عنا ثوبها، وأردت أن أشكر بعض الطول، وأرسل في ميدانه أعنة القول، فكانت الحال بالشكر أنطق، وإليه أسرع وأسبق، سكتّ وقالت، وحذفت وأطالت، فلم أدفع إلى الخطل وفنونه، والهذر وشعبة جنونه، أو العيّ ومسحة عثنونه.

– 18 –

## وكتب يصف رسالة أحد الكتّاب وبلاغته

كتبته أيها السيّد حقيقة، الكريم شيمة وخليقة، أبقاكم الله علما للفضل مرفوعا، وشمسا للمعارف لا نعدم منها /40/ طلوعا، والتعظيم وظيفتي، والشكر ما غيره عنوان صحيفتي، وعندي من الخلوص ما أنا رهينه، ومن غالبَ الشوقَ ولم يغلبه، فما دِيني دينُه.

وافتني مخاطبتكم المبرورة لها من الرّوض نضارته، وفيها من البيان ما تروق عبارته وتشوق إشارته، وكانت الكتابة ترى أنها صنعة تنأى على[1] العلماء بجانب، وتأبى أن يكون عالم يوصف بكاتب، حتى ضمّ شاردَها حرمُكم، وأغار على سرحها قلمكم، فها هي قد ألقت عندكم عَصاها، وقلبت دُرًا ما كان من حصاها، وصرنا ننظر في أعقابها، ونتتبع معانيها وإنما هي لمالك رقابها، فحقنا أن نقطع ما بيننا وبينها من علاقة، ونحكم في القلم والحبر بما يُحكم في الخمر من كسر وإراقة.

– 19 –

## وكتب شاكرا

كتبته أيها السّيد المعتمد، والمورد الذي لغمره يهجر الثمد، كتب الله لكم من نعمه أرجحها وزنا، وأغدقها مزنا[2].

(1) في ك 233: عن.

(2) جناس ناقص بين "وزنا ومزنا".



من كذا وقد كانت مخاطبتكم وصلتني ابتداء قبل المسألة، وصلة قامت عندي مقام العائد والصّلة، فتناولتها بيد الإعظام، ولثمت سطورها البديعة النظام، وشكرتها يدا طوقتني أجلّ الحليّ، واستقبلتني بمثل الصّباح الجليّ، ولو على قدر موقعها من نفسي جريت لجوابها، وجزيت من أتى بها، لأعطيت من الناظر السّواد، وأفنيت من المحابر المداد.

– 20 –

## وكتب إلى أبي عثمان سعيد أمير منورقة في التوصية بلاجئ[1]

تحيّة مباركة تحكي نسيم السّحر، وتعبّر عن أنفاس الزهر، وتَردُ على /41/ الرياسة المباركة[2] طلقة المحيّا، مترجمة عن حبّ من بها حيّا، ورحمة الله تعالى وبركاته، والشوق إليها ملء ضلوعي، والسؤال عنها من ثنيته طلوعي، وبترداده وطلب العلو في إسناده شغفي وولوعي.

بعد أن وافتني مخاطبتها المبرورة بردا على كبدي الحرّى، وتذكرة بعهد لا شيء أحق منه بالذكرى، فكانت عند نفسي أبرّ الكتب، وبعيني أنور الشهب، وفي محلّي[3] أغزر السحب، وبعد أن كنت لها منتظرا، وعنها في الإبطاء معتذرا، حتى اقتضيتها عن أطول ليّ، وتناولتها من يد هيّ ابن بيّ[4]، فإن المحال عليه فيها لقاؤه لي ما حُمّ، وهلال خبره عليّ غُمّ، وهي وإن حضرت فأداؤها لم يكف الاقتضاء، وماؤها لم يستوعب الأعضاء، فبتّ أعانقها والنفس بعد مشوقة، وأبثها أحاديث نوى

(1) في الأصل: "وكتب رحمه الله". ولكن محتوى الرّسالة يدل على أنّ المكتوب إليه هو الرّئيس أبي عثمان سعيد.

(2) "الرياسة المباركة والرياسة السامية والرياسة المبرورة": هي الصّيغة التي يستعملها ابن عميرة عادة في خطاب أبي عثمان سعيد بن حكم القرشي الذي أُطلِق عليه لقب الرّئيس منذ تولّيه حكم جزيرة منورقة.

(3) في ك 233: مجلسي.

(4) هَيُّ بن بيّ، وهيّان بن بيّان: لا يُعرف هو ولا يعرف أبوه. يقال: ما أدري أيّ هيّ بن بيّ هو معناه أيّ الخلق هو. لسان العرب، ج15، ص 375.

هي إليّ مسوقة وعني منسوقة: [البسيط]

| | |
|---|---|
| مجال فكري من يمناك ملثوم | وفي خيالي سنى مرآك مرسوم |
| وبين عينيّ في تلك العلى أمل | برسمه أنا قبل اليوم موسوم |
| وحرمة من عُرى حلف قد اعتلقت | بحبله من أبي اليقظان مخزوم[1] |
| وقد دعوت به من غير تذكرة | بحقه فهو بين الناس معلوم |
| يا ابن الألى عرضهم فسلُ وما | لهم في الجاهلية والإسلام مقسوم |
| شُمّ يمانية طيب الثناء على | أخلاقهم قبل نفح الطيب مشموم |
| لو أنهم قعدوا عن نصر جارهم يوما | لقالت لهم أحسابهم قوموا |
| وحظ نفسك من مجد يضاف لما | ورثت ربحاً لرأس المال مضموم |
| وإن أحسن شيء أنت ناظره حمد | على ليّة العلياء منظوم |

أبقى الله سيدي وسعده[2] بالكواكب منوط، ومجده من النوائب محوط، إذا أنا أقدمت على مخاطبته فبأمل فسيح الخطا، /42/ وعن باعث أهدى من القطا، كما أنّي إذا أمسكت فإنما ذلك لهيبة الموقف، وبهيأة المخفّف.

وكان فلان قد تقاذفت به أسفار، وتعاورته دُجنّة وإسفار، فارتبع قفرا وريفا، وانتجع صيفا وخريفا، ثم لحق به لمّة من أهله شرب الدّهر بلالتهم، واقتطع ضغثهم وإبالتهم، فكثر العدد، وفني المدد، وما نفع الجد ولا أغنى الرّد، ونفحات رحمة الباب الكريم إليها يصعد الرّجاء، وبها يسعد من عضّه الجلاء، ورضّه الاضطرار واللّجاء، وبعث الآن خدمة سيدنا يعيرها نظره، ويعينها بما حضره، إن شاء الله تعالى.

(1) في المكاتبات المتبادلة بين ابن عميرة والرّئيس أبي عثمان سعيد نراهما يحرصان على الإشارة إلى رابطة النسب القرشي التي تجمع بينهما، حيث جاء في اختصار القدح أنّ ابن عميرة "كتب إلى صاحب منرقة يمتّ إليه بالرّحم القرشية، والنّعم التي أحسبت الأمنية، وقادت طائعا جامح النفوس الأبية". ابن سعيد، اختصار القدح، ص 49.

(2) في ك 233: سعوده.



– 21 –

## وكتب يداعب أحد إخوانه

أيها القلم المملوء تيها وكبرا[1]، المزهو بأن أوتي من البلاغة باعا جعله شبرا، ما هذه الرقعة المتخايلة تخايل الملوك، المتزيّنة تزيّن الهلوك، جاءت تخرق سجف الدجون، وتسحب ذيل المجون، وتنظر وفي مقلتها شوس[2]، وتبسم ولها من مسك المداد لعس ونفس، زهاها الحسن وما نهاها الحجر، وحبّرت رائق اللفظ بما لفظ من ريقه الحبر، فكدت أحثو التّراب في وجه مديحها، وأستعيذ بالله من فتنة مسيحها، ولم آمن وإن تأخر وقته، ولم يخف عليّ نعته، أن أكون ممّن دعته جنّته المزخرفة، وادّعته نحلته المزيفة.

فيا أيها المستمن بنقيّ نفسه، الماشي مكبّا على رأسه، أنسيت مكانك من الشط، وهوانك قبل القطّ، ومدّ المُدَى لأنابيبك، وعيث البلى في المنزل النابي بك، /43/ فمن يعذرنا من كسير ما أعفانا من عنقه، قصير ينأى علينا بجدع أنفه، متى عرفت للأجوف صلابة الصّمّ، وللمسحت المجلّف نخوة العرانين الشمّ، فإن كان مالكه جمح[3] آية سلك، وما أسجح[4] لما ملك، فهلا استنزله عن خيلائه، أو عطفه على أخلائه، ولم تركه يترك الاستئذان، ويعرك الآذان، وتتولع بمن سدّ بابه، ويتولج على من وضع ثيابه، وقد كان خطب سلمه، فخبط سلمه، وتجنى العتب عليه في وسم به وسمه، فذكر أنّ جلده أنكر خزّه، ورجله لم تعرف غرزه، كما أن ثوبه استطال أذياله، وعلمه شغل في صلاته باله، فلولا تصعّر خدّ خداعه، لقلنا تأنّق في إبداء إبداعه، ولولا نفس أرّقنا من شرره، لم ننافس إلا فيما راقنا من درره، وعلى ذلك فلا نعرض لمصاعه، ولا نكيل له بصاعه، بل نشهد بانه أجال القدح المعلّى، وجلّى عروسا جيدها منها تحلّى، وقد مسح خلف البيان فدرّ، وصاح بشارده فسكن وقرّ، فنحتمل له تلك الذّالة، ولا نطلب بالخفر البرزة المتجالة.

(1) استعارة مكنية شبه القلم بالإنسان فحذف المشبه به وترك أحد لوازمه وهي تيها وكبرا.

(2) استعارة مكنية شبّه الرقعة بالعين فحذف المشبه به وترك أحد لوازمه وهي مقلتها.

(3) في ك 233: حجّ.

(4) في ك 233: أنجح.

ومنها: ووصل كتابكم تقرّرون وذّا بصحته قامت الأدلة، وعلى غيره ضربت الذلة، فأمّا هو فقد عزّ وبزّ، وفي قرن الثقة لزّ، ولعطف الارتياح والمراح آمال وهزّ[1]، وقرّرتم من الأنباء ما فيه متعة في الحال، ونجعة في طريق الإمحال، ﴿**وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال**﴾[2].

– 22 –

## وكتب إلى سيّد يخبره عن أحوال رجل

كتبته أيّها السيد الذي أقول بودّه، ولا أحول عن عهده، /44/ وبركات الخلافة الكافلة لأهل الإسلام، الناظمة شمل الأنام، مطاعة في البرايا، طلّاعة من كل الثنايا، وما يجب لمجدكم بكل اعتبار، من إجلال وإكبار، فبحقه الألزم أعترف، وفي الصّف الأول منه أقف.

ووصلني كتاب فلان يقرر ما عندكم من ذكر له أطبتم، ووفاء على أعواد منبره خطبتم، ومقرّر ذلك وإن كان من قلبي مكينا، وعلى غيبي أمينا، فما ازددت بخبره يقينا، بل قلت ثم بلوت غرسه، ويوم كذلك عرفت أمسه، وأشار في أمر أتعب فيه مشورته، وتمثلت في مرآة النصيحة صورته.

– 23 –

## رسالة إلى أحد إخوانه في الثناء والشوق

أنا مع فلان حرس الله شرفه المؤثل، ومجده الذي في مرآة الكمال تمثل، كالظمآن في البلد القفر، أخطأه نوء السّماك أو الغفر[3]، فاتقى بجنة الدعاء، وخرج

(1) جناس ناقص بين "عزّ وبزّ" وبين "لزّ وهزّ".
(2) الآية رقم 13 من سورة الرّعد.
(3) السّماك والغفر من الأنواء. والنوء هو سقوط نجم في المغرب وطلوع آخر في المشرق، فالساقطة في المغرب هي الأنواء، والطالعة في المشرق هي البوارح. وكانت العرب تقول مطرنا بنوء كذا، أي مطرنا بطلوع نجم وسقوط آخر. جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "من قال سقينا بالنجم فقد آمن بالنجم وكفر بالله، ومن قال سقانا الله فقد آمن بالله وكفر بالنجم". والأنواء ثمانية وعشرون نجما هي: السرطان، والبطين، والنجم، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والخراتان، والصرفة، والعوّاء، =



لسنة الاستسقاء، فهو وإن زجره مُطول الأيام، فما أضجره طول القيام، بل يلظّ بالاستغفار، ويقلب رداء السؤال والانتظار، وقد وعد بالرّي أوامه، وبشّر بالرّعي سوامه، وإنا معشر فلّ الجلاء، الكلّ على غير الفضلاء، لا نعدل بواديه واديا، ولا نلتمس لغير ناديه هاديا، ولقد أساء الأدب من ضاق به المذهب، فقال أرشدنا إلى من نذهب، ووجدناه مع أنه أتى برغبته في صورة الأمر المنقودة، زاد طلب الدلالة على الأعيان المفقودة.

وفلان جمعتني وإياه في موالاتكم صحّة النظر، وصحبة السفر والحضر، وعندما وادعته أودعته /45/ من غرضي ما جمعته له بألفاظ يسيرة، في ساعة قصيرة، رجاء أن يخفف كما خففت، ويدل على ما إليه تشوّفت[1]، ولسيدنا فخر يصفه الزمن، وتعرفه اليمن، حيث رُفع نسب الإيمان، ووجد نفَس الرحمان، فما أولع نفوسنا بجهة هذا النّفَس، وأبصارنا بما تعشو إليه من ذلك القبس.

– 24 –

## عدم تمكّن المؤلّف من السّفر على الأسطول الحفصي من سبتة إلى تونس[2]

فلم ير إلا استحلال هذا النسيء، واستحلاء ما جناه من إحسان الزمن المسيء، وانتقل إلى الذمة ما كان عن يد، وأحلت حال اليوم على الاستحالة على غد، فمتوقف مستريب، وقائل غدا إن شاء الله قريب، ولكن الشوق لهذه الإحالة ارتاع، وأراد فسخها فما استطاع، فجعجع بزفرة غيظه، ورجع بسورة قيظه، وبقي المذكور يماريه في قرب الأمد، ويداريه على بقية الجلد.

واتفق له أثناء ذلك خدمة في الحضرة التي أوصافها إذا استفرغ لها عطارد

= والسماك، والغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وفرغ الدلو المقدم، وفرغ الدلو المؤخر، والحوت. لسان العرب، ج1، ص 176-177.

(1) في ك 233: تشرفت.
(2) هذه الرّسالة ناقصة هنا وسترد كاملة تحت رقم (112) من هذا السّفر.

مجهوده، وجمع عليها المشتري جنوده، بل إذا ناولتها الحرباء رقعتها، ونثرت عليها الجوزاء إكليلها وهقعتها[1]، رأى كلّ منها أنه لأجلّ المفارق صنع تاجه، وعلى أشرف المعاطف خلع ديباجه، فكيف بركيّة من المشتقّ سعت وشلها، ورويّة في آخر الصف أظهرت فشلها.

ولقد وقف لها بين رأيين تنازعاه، وعزمين كلاهما إلى جانبه دعاه، أحدهما يضع من قدرها، ويدفع في صدرها، والآخر لقوله يميل، إلا أنه على سعة الحلم يحيل، قال فتأملت ما استطعت، ولمّا لم أر تعارضا /46/ جمعت، والرّجاء في كرم التجاوز ماثل لعيانه، مائل لعنانه، وفضل السّيد الأوحد مرقى رجل رجائه، وملقى رحل ارتياده وارتيائه، إن اطمأنت نفسه ففي جواره، أو عشت عينه فإلى ضوء ناره، كما أنه إن كان شخوصه فلبرّ منه يلوذ بمتداركه، أو حنت قلوصه فليس إلا لمبارك مباركه.

-25-

## ومن رسالة إلى سيّد يثني عليه ويطلعه على أحواله

أجل إن السّيد الذي اختار الشرف واستخلصه، ووضع على منكب الجوزاء أخمصه، وعرج إلى سماء العلياء فصافح يمين ثريّاها، وسفر لذكاء عن مثل محيّاها، لوَاحِدُ الأيّام الذي أذهب نقصها بكماله، وأظهر عجزها عن أن تأتي بمثاله، وخلع عليها من محاسنه ما أعاد شبابها إلى ريعانه، وشعاعها إلى إضاءته ولمعانه، فإن ذكر الندى فماؤه في صفحة بشره يجول، أو المناقب فعنده منها الغرر والحجول.

وكتابي هذا من فلانة وجامح الخطّ[2] قد لزّ في قرن الرياضة، والمحرم بحجة الأمل قد رمى جمرة العقبة وأفضى إلى الإفاضة، والرجاء الذي بخياله كانت تزجية الأيام، وتحمّل ما لا يلاءم من مجاورة اللئام، قد برز في أكمل وجوده، وعبّر عن أصدق وعوده، وبشّر بأنّ غرسه بالخدمة التي هدي للولوج من بابها، والعروج بما مُدّ له من أسبابها، قد أظلّته سماء الرّحمة بغمامها، وأشارت إليه ثمر المنى من

(1) الإكليل والهقعة من الأنواء. وقد سبق التعريف بالأنواء وأسمائها قبل قليل.

(2) في ك 233: جانح الحظ.



أكمامها، فالحمد لله الذي يسّر من الهجرة إلى الباب الكريم عملا أهل الأرض لا يعدّونه، وأملا ضلّت الآمال إن وقعت دونه.

ومنها: فبقي يسأل ملحفا، ويستجدي /47/ فلا يجد مسعفا، وينظر فلا يرى لكل موطن كريهة، وموقف رويّة أو بديهة، إلا من يغترف من بحر، وينحت من صخر[1]، وينتمي في أشرف نجر، ويسكت يوم الفخار كل ذي فخر، وليس غير السيد المعتمد من هذه المزايا بعض أوصافه، ولا سواه يمدّ السائل يدا لما يثق به من إسعافه، ومجده قد قدّمت من مخاطبته ما قصدت به التخفيف، وعرضت عليه من اسمي نكرة تلتمس التعريف، وقرّرت من استنادي واعتدادي ما رسخت نحلته بفؤادي، ووقعت نخلته في نفسي حين وقع الناس في شجر البوادي.

-26-

## وكتب لأحد إخوانه يتطلع إلى أخباره

كتبته أيها الأخ الذي هواه فرد في خلدي، ونجواه برد على كبدي، كتب الله لكم من مواهبه، أنضرها عودا، وأحضرها نقودا، من فلانة وإخاؤكم ذخيرة ليدي مالئة، وثمرة عين الخلوص لها كالئة، وسؤالي عن أنبائكم سؤال من يعنيه سماعها، ولا يعنّيه إلا انقطاعها. وفيما كنتم خاطبتموني به ما كان من شكو عدا على الإفراق، وعاد بعد الفراق، ففاض-يعلم الله-ماء الأنس، ونكس النشاط من ذلك النكس، وأبطأ خطابكم بعد ذلك عنّي وهو عندي روض منتجع، بل شباب مرتجع، فكان ضغثا على إبالة، وحرفا جمع اعتدالا إلى إمالة، ومطالعتكم بان الصحة ظلها فاء، وعطفها وجد ثمّ إن كان عدم الفاء، إن تفضلتم بها فذلك ربح يضاف إلى رأس المال، وجواب يزيد على محل السؤال.

(1) يشير إلى حكم الأخطل على الفرزدق وجرير بقوله: "الفرزدق ينحت من صخر، وجرير يغرف من بحر". أي أنّ الأول كان يتميّز بالصلابة في الشعر والثاني بالرقة فيه. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص 61.

– 27 –

## وله من رسالة في الشكر

/48/ وشكر الله فلانا فلقد أحسن بي يوم راش نبلي، ووصل بحبال السيّد حبلي، وما زال حتى مهّد لهجرتي قبل الفتح، وأفعم سَجل برّه[1] حال الظّمأ البرح، وأرجو أن يجد مرآتي قابلة لشمسه، وتربتي ملائمة لغرسه، فيعلم[2] أنه قد صادف اصطناعه حاملا لأمانته، عاملا على مكانته، وأنا متطلّع من خبر المولى إلى ما ألهج بطيبه، وانشر جذلي بعد الطّي به، إن شاء الله تعالى.

– 28 –

## رسالة في الثناء والشكر

ووصل الخطاب المبرور وصل الله لمصدره الأشرف سموّ المحلّ، وسلامة المرتحل والحلّ، وكلّ من مقاصده هو الأسنى، وكلمه لا حرف منه إلا ومن البشرى جاء لمعنى، فتناولت منه تفسيرا لمشكل الخط[3]، وإكسيرا من جوهر اللفظ، وصرت به بعد غضّ من مطروف البصر، وعضّ من صروف الغِيَر، أجتاب المنى جددا، وأسمو بطرفي صُعدا، وأحمل إلى عيني وسنا بما حمّلتها سُهدا.

وانتهيت إلى الإذن العلي في الوفادة، والتشريف الشافع للحسنى بالزيادة، من تدفّق بحر الجود بالمأمول من عطاياه، وحمله من الآخر على الذلول من مطاياه، فرأيته من الكتاب موضعا لسجدة الشكر فأديتها، ومكانا لوظيفة الدّعاء فما تعدّيتها، وجدّدت شكر الله سبحانه على نعمة بنضرتها ينعم البال، ومن حضرتها يتنسم الإقبال، وفي تربتها تزكو الأعمال، وتغرس الآمال، فأيّ يومي المولى أنا به أشد اعتدادا، وله أتمّ إحمادا، أيوم قَبِل اعتذاري، وأحال إلى خلق نيسان أذاري، /49/ أم يوم وسمني من جميل رأيه، ومبارك سعيه، بسيمة أعلمت بزينتها، وختمت بطينتها، وحملت منها سلاحا يروق على العاتق، ويروع فرسان الحقائق.

(1) في ك 233: برده.
(2) في ك 233: فيعلم الله.
(3) في ك 233: الحظ.



أمّا إنّ كتابه المبارك ورد عليّ منه وارد عن إدالة الأيدي أزلّته، وفي صميم الفؤاد أنزلته، وفي وقت قوة السعود أخذته، ومن آفة عين الحسود عوّذته، وقد أحضرت الشكر ناديه، ولبّيت ألفا مناديه، وقمت له قيام إكبار، وقيام بدار، وقلت من أهابت[1] به الدار العزيزة فما غيرها له بدار، والهمّة العالية مرجوة لصنيع تربُّه، أو صديع تطبُّه، أهل لقبول من وسيلتاه إليها قديما وحديثا انقطاعه وحبّه، أبقاها الله في حرم من وقايته، وبلغ بها من كمال المنزلة أبعد غايته.

– 29 –

## ودّ وولاء

[الطويل]

| | |
|---|---|
| خليلـي أبـا إسـحاق والـود بيننـا | لقـاء وإن لـم يقـض بعـد لقـاء |
| أبـثك تعظـيما وحـبّا كلاهمـا | لـه بفـؤادي مـا بقـيت بقـاء |
| ورأيـك أن مـسعاي ضـلّت ركابـه | حـذاء لـه فـي سـيرها وسـقاء |

كتبته حفظ الله علياءكم، وأمتع بولائكم الكريم أولياءكم، والودّ روض مطلول، وعقد كلّ عقد دونه محلول، وللنفوس تعارف لا تخطئ فراسته، وتواصل عليها حفظه من الغير وحراسته، فما ضرّ مع تدانيها إن نزحت دار، وشط مزار، وهذا الابن المبارك خال ودّه من الشك، خالص جوهره على السبك، وقد صدر فأوحش فيما أوحش فراقه، وأطلعني من غيب ودّه على ما عندي والله مصداقه.

– 30 –

## وكتب معتذرا

/50/ نخصّكم بسلام هو الصّبح بمحيّاه، والمسك في طيبه وريّاه[2]، وإذا حيّ الله كريما بتحية فبأحسن منها حيّاه وبيّاه، أمّا العلم بفضله فإلى اليقين بلغ، وأمّا الاعتداد بودّه فالضمير منه قد فرغ، وأمّا إمساكي عن مخاطبته فلا أجد له عذرا يغني عنّي، ويذهب بعض ما يُلام به البطيء المتأني، لكنّي أعتقد أن فضله يحسن تأملا

(1) في ك 233: أهانت.
(2) تشبيه بليغ لأنّه شبّه السلام بالصبح وبالمسك أيضا.

وتأولا، ويحقق فيه توسّما وبه توسلا.

-31-

## توصية المؤلف بأديب وقع أبناؤه في الأسر على يد النصارى

كتابي إلى سيدي الذي علاؤه عندي ذخيرة، وآلاؤه في عَدّي كثيرة، طالب الكمال وواجده، وواحد الزمان وابن واحده، أبقاه الله في بيت الكرم والسؤدد وسيطا، ولعلوم العقل والنقل محيطا، من فلانة وبركات المقام الكريم لكلوم الأيام آسية، وبما يحسب آمال الأنام مواسية، وعندي توقير وتعظيم، وحبّ هو في قلبي مقيم، وشكر أنا بما يجب عليّ منه عليم.

ومؤدّي رقعتي فلان من أعيان فلانة الذين سبقت لهم في أهل[1] أحسابها شهرة، وبين وجوهها وصدورها مكانة وأثرة، وجرى عليهم وعلى بلدهم ما أبكى المدامع، وفجع القائل والسّامع، واقتسمت بقاياهم في الأسر[2] أيدي الهون والمنون، وصاروا والحديث شجون من أحاديث الشّجون، وكان هو في الفلّ الذين نزلوا بعهد، بعد أن حصلوا تحت جهد، واستقرّ عندنا بعد ذلك مع وجوه الطلبة منتظما، وفيما يليق بهم من الاستعمال مرتسما، وله في الآداب أرحب باع، وعنده /51/ بمعرفة الأحكام أتم اضطلاع، وإذا أرسل في النظم عنانا، أو هصر من البديع أفنانا، فبديهة مطاوعة، وقريحة فاعلة وصانعة، واختراع له في أساليب البيان انتقال،

(1) كلمة "أهل" ناقصة في ك 233.

(2) كان من نتائج انهيار سلطان الموحدين في الأندلس، سقوط المدن الأندلسية في يد النصارى وتشريد أهلها من المسلمين عن أوطانهم أو إخضاعهم. وقد ظهر هناك اتجاهان بين المسلمين في الأندلس يومئذ: الأول سكن أصحابه إلى النصارى ومالوا إليهم ورضوا بحكمهم، تمسكا بوطنهم وخوفا من الغربة ومكاره السفر فسمّوا بالمدجّنين أو أهل الدّجن. والثاني رفض أصحابه حكم النصارى ففضلوا المقاومة والتشرد عن أوطانهم والهجرة إلى بلاد الإسلام في المشرق والمغرب، أو الوقوع في الأسر. انظر فتوى الونشريسي، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر. مجلة المعهد المصري [illegible] 129-191.



وعند كل مقام مقال.

وهو بالتفرقة من بنيه موله، وما له في غير سفر الأسى متوجه، وقد عذر لبيد من بكى حولا[1]، ورآه قد استعمل الوفاء فعلا وقولا، وها هو يبكي أزيد من عشر، ويقيم من تباريح الشجن بين طي ونشر، ويسّر الله له في خلاص أحد البنين، وجزى الله من أعان فيه جزاء المحسنين، وسائرهم تحت مقاطعة فيها إمساكهم، وعليها يتوقف فكاكهم.

ثم إنه في الطريق جرى عليه من نهب الملبوس، بقيّة من بقايا البؤس، أدخلته هذا البلد ولا بردة إلا الجلدة، ولا هيأة إلا الرّعدة، وهو ذا قد سار لوجهه، واطلعت من أمره كلّه على كنهه، وبين عينيه أمل في تكييف تلك العدّة، يطرّز به إن شاء الله كتاب الفرج بعد الشدّة[2]، والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، والقليب جمّ المياه وله من سعيكم المبارك الدّلو والرّشاء.

ولسيدي عادة مع هذه النفوس في إحياء مواتها، وأداء مكتوبة الإنعاش لها قبل فواتها، بها استحق أن يملكها، ونال غاية من الفضل يمتنع على غيره أن يدركها، وهو أبقى الله مجده في ذلك أعلى عينا، وحقوق عفاته يراها في ذمة مكرماته دينا، فلا ينته لمكرمة إلا وهمّته فوقها، ولا يرجى ليد إلا طوّق قبل السؤال طوقها.

-32-

## شكر وثناء

تعتمد سيدي الذي بحبله تمسّكي، وفي غير فضله ارتيابي /52/ وتشككي، أبقاه الله وإلى جهته تشير الأنامل، وبرؤيته يتراءى للعيون الشخص الكامل، تحية الشكر لآثار معروفة لديّ، والاعتداد الذي عليه أشدّ يديّ، ولا أضع رداءه عن منكبيّ، ورحمة الله تعالى، من فلانة وبركة المقام الكريم أيده الله تدني الرّجاء

(1) يشير إلى بيت لبيد بن ربيعة الذي يقول فيه:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

(2) طباق الإيجاب بين "الفرج والشدة".

والأمل، وتطوي السهل والجبل، وعمّا أوجبه من تعظيم وتوقير، وحبّ لم يَدُر مثل صدقه وخلوصه في ضمير.

وقد وصلتني مخاطبته المبرورة كما طلع صبح السعادة جليًا، وحمل جيد الغادة حُليًا، واستوفيت من مقاصده التي عليها رونق البديع، ولها نضارة الربيع، ما زاد معنى الاعتناء بيانا، وقلب إساءة الأيام إحسانا، وذكر فيه فلانا وما أفاض فيه من الشكر، وحاضر به من جميل الذكر، وإنما نظر بعين رضاه، وله حب نطق بمقتضاه، وقد بلغ من ذلك ما أعلم أن لسيدي إصغاء إليه، وإقبالا عليه، وكذلك الكرام الذي هو صدر جلّتهم، بل موضع الحجة من أدلتهم، يسرّهم في أوليائهم أن يذكروا بصفة من هديهم اقتبسوها، وعلى قاعدتهم أسّسوها، والله يبقيه يقيم كل أود، ويوفي من الفضل على أبعد أمد.

– 33 –

## وصف رسالة أحد أصحابه

تخصّ سيدي حرس الله كماله، وأنعم باله، وضاعف الكرامة والنعمى له، تحيّة التعظيم والتقديم، والحبّ الخالص الكريم، ورحمة الله تعالى وبركاته من فلانة وحقّه عندي أكبر الحقوق قدرا، وأولاها بأن يصدّر كتابا ويكتب صدرا، فأما الشوق فزند في الفؤاد وريّ، ولسان في الشعور بموضع /53/ العناد أشعري.

ووصلتني رقعته المبرورة، فشاهدت بها الرّوض المطلول له أرج[1]، وتناولت منها الشمول ليسا فيها حرج، وقلت أهلا للزائرة الحسناء، السّنية من بيت السّناء، فدتها المهج، حين أدّتها اللجج، وتحلّى بها النحر، عندما تخلى عنها البحر، واشتملت من المنطق الجزل، والمنزع البعيد من الهزل، على نكت جعلتها سميري وشربتها بضميري، ورضيت لسرّ المسرّة بها شرحي وتفسيري، والحال على ما يسّركم من العافية والسلامة، رزقكم الله منها منّتين باقيتين، وجنّتين واقيتين، وما تفضلتم به من الإعلام بأحوالكم فمشرب يرد منّي على نفس ظمئة، وعين بمغرب شمس الأنس حمئة.

---

(1) استعارة تصريحية وصف وشبّه فيها الرقعة بالرّوض.



–34–

## شكوى واعتذار

سيدي وعمادي، وذخيرتي من أهل ودادي، كفاكم الله عوادي الزمن، ورزقكم سلامة الإقامة والظعن، كتبته والودّ له بقلبي رسوخ، وبنفسي حكم لا يجوز أن يقال هو منسوخ.

ووصلت كتبكم المبرورة فجلّت عندي وفادتها وإفادتها، وطابق الوجود الخارج روايتها وشهادتها، وعرفت منها انزعاج بالكم، وتقلّب أحوالكم، لولا ظل الوزارة الذي ألحفكم سجسجه، وأضاء لكم منهجه، وتوافى إليكم بإضعاف[1] النعم عليكم كتابه ومدرجه، فللّه تلك اليد البيضاء، والشيمة الغرّاء، والفضل الذي من ثنية الكمال طلع، ولأصل الإقلال والاختلال قلع، فجوزي خيرا عن حسبه النقي، وأولياء كرمه المتناهي في العلاء والرّقي.

وذكر سيدي ما جرى /54/ على من اغترّ من الجيران، ووثق بما لا ثقة به من الأيمان[2]، فإنا لله على سوّر نزف، ومعتل حذف، وإنما هي ملحمة كتبت، ورزية أكلت في تلك الأشلاء بعدما شربت، وقد صادف مني كتابكم الأخير قلبا عليلا، وبثا طويلا، ولوعة فرت مُديتها، وحمّة عزّت رقيتها، وذلك عذري في أن لم أجب الآن فلانا وما أشار إليه كتبا منه وإلقاء إليكم فأنا أوجب أن أكون فيه المتبوع لا التابع[3]، والمتقدّم لا السّادس ولا السّابع، ولكن الجدّ ناب، والزّند كاب[4]، والقلب رهين حسرة واكتئاب.

وردف ذلك علاوة على هذا الحمل رحيل إخوان طعمنا فرقتهم مرّة، ثم لم تر العين الآن من لقائهم قرة، بل ارتحلوا إثر ما حلّوا، وتحوّلوا من غير أن يملّوا، والأخ أبو بكر شمله معهم تصدّع، وما كان سلّم حتى ودّع، وهذا اعتذار يوجب النظرة إلى ميسرة، ويحطّ التكليف إلا عند مقدرة، وأنتم تنوبون عنّي فيما يجب

---

(1) في ك 233: بإضفاء.

(2) في ك 233: الأمان.

(3) طباق الإيجاب بين "المتبوع والتابع".

(4) جناس ناقص بين "ناب وكاب".

لفلان من إبلاغ سلام وإنباء بعذري وإعلام، وذهاب بما يسبق إلى الوهم من عتاب أو مَلام، وعليكم المعتمد في هذه النيابة، وعليّ ألا أقصّر مع الإمكان في الإجابة، إن شاء الله تعالى.

-35-

## ومن إخوانياته المختصرة

كتبته والودّ كما شاءته الأواصر الكريمة، وشادته العهود القديمة، ووصلتني مخاطبتكم بما قرّرتم من عهد وثيق، وعقد لي به كل تصديق، وعندي بإزاء ذلك ما يقضي حقّه ويسبق إلى غاية الوفاء سبقه.

-36-

## وأجاب مَن أخبره بأحد الفتوحات الأندلسية

/55/ كتابي إلى سيدي وكبيري، ومن له تعظيمي وتوقيري، أبقاه الله ناعم البال، محفوفا باليمن والإقبال، من فلانة ولقاؤه المبارك أنظر أناه، وأحضر مع من يتمنّاه، وعليّ لله نذر إن هو سنّاه.

ووصلتني مخاطبته المبرورة أشدّ ما كنت كلفا بمرآها، ورغبة في أن يطالعني محيّاها، فوجدت بها فرحة الناشد بما أضلّ، والغائب يوم إيابه لأهله أظلّ، وانتهيت منها إلى فصل الاتفاق العجيب، والصّنع الغريب، والفتح الذي قرّب من الأماني مسافتها، واستأصل من شيع الضلال شأفتها.

فرأيته كما وصف كتابه فيه للأقلام سبحٌ، ومنه لطهارة أعضاء البلاد غسل ومسح، ولا شك أنه يراها نعمى بسعادة الدّعوة العزيزة هي شاهدة، ويقوم لها وبُرْد الرحمان بها واخدة، وينشد عندها لي سكرتان وللندمان واحدة، فقد استقبل من بشراها تاريخ البشر، وقرّة عين[1] البشر، والهبة التي عندها تتضاءل المواهب، وفي شكر الله عليها تلتقي الآراء والمذاهب، والله يوزعه وإيّانا شكر نعمه، ولا يخلينا من إمداد إحسانه وكرمه.

(1) في ك 233: عيون.



-37-

## وخاطب أحد إخوانه يذكّره بقضاء حاجة

كتبته أيها السّيد بأوجب واجب، المعتمد تقديما على كلّ جانب، أبقاكم الله ركنا لا تقرع له مروة، وذخرا لا تعدم معه ثروة، من فلانة وعندي شكر يتوارد عليه اللفظ والخط، وتعظيم إلى أرضه انحطّ، وبفرضه ما أخللت قطّ، وقد خاطبت سيدي في هذه الأيّام أفضي إليه بسرّي وإعلاني، /56/ وأشكر له فضله الذي أولاني، وأرغّبه في التذكرة بالمعنى الذي سبق به الوعد، وكفل بأمره ذلك الفضل المسعد، فإن تأخر على ما عهد من عادة الأيّام، وسجاياها اللئام، فعسى أن تضمّن فصوله برأة تصلني خلال ما يأذن فيه من يقلّب القلوب، ويقرّب المطلوب.

ولقد حرّكني الانتظار ولصاحبه انزعاج، وإن قضيت حاجة فلا بدّ أن تبقى حاج، على أن صرفت أحمد وله علل تمنعه من الصّرف، ونقل يؤخره عن الصّف، وكان المشتغل بفلانة راجعني بأنه لا سعة عنده للتنفيذ، ولا رخصة قبله ولو من جنس الوضوء بالنبيذ، فأمرته أن يجتاز عليه ويأخذ منه البرأة ويصلكم بها رجاء أن تجد سائمتها لديكم نظرا يرثي لها من البلد القفر، ويتتبع بها شعب الجبال ومواقع القطر.

-38-

## شكر وثناء

كتابي إلى سيدي الذي عنايته عليّ لامة، وسلامته لأحوالي كلّها سلامة، أبقى الله لي منه وليّا يصغى لندائي، وصبحا جليا به استضاءتي واهتدائي، ولا زال مكانه لبني الرّجاء مفزعا، وإحسانه على جميع الأولياء موزّعا، من فلانة وعند الاعتداد به ذو مرّة، ولأفاويق الاعتلاق بحرمته أحفل دِرّة، والشكر لفضله الذي أولاه قبل هات، ووالاه لا من جهة بل من جهات، أردّده شفعا ووترا، واعدّ المدى الطويل منه فترا.

وقد خاطبته في هذه الأيام عن شوق برح، وحبّ جلّ أن يشرح، واستطلعت من أحواله أمنيّة هي حسب نفسي، /57/ ومطلوبا على ثنيّة الانتظار له أصبح وأمسي، وكان كتابه المبارك بقضاء مسائلي أوّل واقع إليّ، وطالع بالبشرى

عليّ، لا جرم أني بصبحه أنست، وعلى أصله فرّعت وقست، والظهير الذي لسعته[1] سمت، وعلى قلعته حمت، أبطأ وللإبطاء علل، وفي قدم الجدّ بطئ أو زلل، فأعدت الصّبي في أمره على سبيل التذكرة، ولسيدي في هذا التكرار فضل المعذرة، وقد خاطبت فلانا في ذلك على ثقة من انّه مباشر بجهد جهده، وشائر يضع أمامي شهده، ولسيدي عادة من المشاركة يقوم لها من ذاته، ويتناولها ببعض أخذاته، وهو وليّ ما يراه من تقديم طردها، وتقدير سردها.

– 39 –

## رثاء وتعزية

رعاكم الله من سادة أعزة، وسراة عليهم من أحسابهم أشرف بزّة، كتبته كتبكم الله فيمن وطّن على ردّ الودائع، وتفطّن لقصد الفجائع، وأنا المساهم لكم فيما عرى، الآخذ من جزعكم بحظ خدّه برى، وكلمه سرى، أبكي وما يجدي البكاء، وأبثّ شكوي وأين منّي الإشكاء.

**ومنها:** وقد علمت أن صروف الأيام سلبتني أعزّ أعلاقي، وأسلمتني لما ألاقي، وأثكلتني بماجد سبق الأمجاد، وواحد بذ الأعداد، وكريم كان لي منه جانب، وسيّد جلدي بذهابه ذاهب، فإنا لله وإنا إليه راجعون[2] رِضًى بطوارق الملمّات، وتسليما لخالق الموت والحياة، وعند الله نحتسبه دوحة من أكرم أرومة، وذروة جوانبها غير مرومة، فجعتنا الأيّام منه /58/ بمن يجدّ عند هزلها، ويتّسع مع أزلها، ويضحك ولها عبوس، ويجود وخيرها محبوس، ولو وفينا الرزء عليه حقه، ركبنا منه أصعبه وأشقّه، وجعلنا اللّوعة سبيلا معبّدا، وطلّقنا السلوة طلاقا مؤبدا، وشققنا القلوب بدل الجيوب، وجدنا بالنفوس عوضا من الدّمع المسكوب، ولكن قد علمنا أن الفائت لا يردّه حزن، وإن سَكَنّا لا يبقي له سكن، ووجدنا الصّبر إليه يعود المتمالك وبه يبدأ الحازم المتماسك[3].

(1) في ك 233: لسلعته.

(2) اقتباس من الآية رقم 156 من سورة البقرة.

(3) جناس ناقص بين "المتمالك والمتماسك".



وقد انثنيت إلى جانبه بالكبد الحرّى، والعين العبرى، وسرت نحوه أقدّم رجلا وأؤخر[1] أخرى، ورضت نفسي عليه حتى ارتاضت، وراودتها على اعتياض به وبعد لأي ما اعتاضت، ثم تحرّجت وقد أحمدت هذا المسلك، واستصبحت به في ليل الشجن وقد احلولك، من أن لا أنبّه عليه إخواني، وأحرص على أن يثنيهم منه ما ثناني، وفي علمي أن لهم من حجاهم داعيا قبل دعوتي، وراداّ إلى سلوة هي خير من سلوتي، ولكن التعزية سنة تمتثل، وعادة جرى عليها العمل، وباب للناس فيه ولوج، وكأس شرابها من ماء الصفا ممزوج، وهم إن شاء الله بآداب الشريعة يتأدّبون، وعلى الطريقة المثلى يدأبون، وبما يرجع إليه الجازع يبدأون، فليجعلوا همّهم من فقيدهم أن يحرصوا على العليا حرصه، وألّا يفقد منه إخوانه إلا شخصه.

– 40 –

## وكتب يوصي برجل مستعتب[2]

كتابي إليكم كتب الله لكم من الكرامة أوثقها بناء، ومن النعمة أرحبها فناءً، من فلانة والودّ عود فيه ماؤه، وثرى جادته /59/ سماؤه، وما يبلغني من أخباركم التي لأرجها فوح، ومن نسيمها بقلبي ريحان وروح، فلي بها غذاء السغب، وشفاء المدنف الوصب، وبحسب هذا أرغب في أن تجروا من المطالعة بها هذا المجرى، وتأتوا منها بمنة في إثر أخرى.

وقد وصل فلان فما نزل إلى الشكوى، ولا قال إلا بما أهوى، ولقد أعجبني منه أنّه ما أخطأ اجتهادا، ولا ثني عن محبتكم فؤادا، وإنما طلب محبّة بها يُحبى، وجوازا منكم عن العتب إلى العتبى[3]، فقلت له سألت مبذولا، ورُمت ما أضمن لك إليه وصولا، فمن تريد ذلك منه من أهل بيت عند المقدرة يحلمون، وعلى أنفسهم

(1) طباق الإيجاب بين أقدّم وأؤخر".

(2) سترد هذه الرسالة مكررة تحت رقم (115) من هذا السفر.

(3) العتب: المعاتبة والعتاب وهو اللوم. أما العُتبى فهي الإعتاب وهو رجوع المعتوب عليه من الذنب والإساءة إلى ما يرضي العاتب. والعُتبى: الرّضا. ومن الأمثال: "ما أساء من أعتب". يُضرب لمن يعتذر إلى صاحبه ويخبره أنّه سيعتب. لسان العرب، ج 1، ص 578. الميداني، مجمع الأمثال، ج 2، ص 316.

يحكمون، وهو في هذا المعنى أبعدهم[1] مدًى، وأطولهم يدًى، وسيفي بما شرط، ويعفي على ما فرّط، إن شاء الله تعالى

-41-

## وأجاب أحد إخوانه كان قد قطع مكاتبته عنه

[الطويل]

ألا يا نسيم الرّيح بلغ تحيتي … أبا قاسم خلّي وعنّي له حيّ

أخ لي إذا لم ألقه ولو التقت … عليّ جموع قلت لا حيّ في الحيّ

وما كان يحيى الأنس لولا رسالة … أتتني على يأس من ابن أبي حيّ

أجل لولاها لكان الأنس ولّى، وعلى القطيعة بيني وبينه تألّى، لكنه أعاده جموم الشبيبة، ململوم الكتيبة، صقيلا كمرآة الغريبة، فتقلّدت من نظمها ونثرها متّين، وتناولت منهما جنى الجنّتين، ولكم رجمت في كاتبها الظنون، وخشيت عليه ما لا بد أن يكون، وقلت أمرٌ ما أوجب إغبابه، وقطع كتابه، متى كان يرضى بهذه الجفوة، ويثني جيده لهذه الهفوة، وعهدي به يقرب بولائه قرب الوصول، ويمنع /60/ خضابه من النّصول، ويشحّ على مشربه من قذى أن يَطُوره، أو أذىً عليه يخشى خطوره.

-42-

## وأجاب سيّدا على رسالته

تخصّ سيدي الأمجد، وعضدي الأنجد، وزندي الذي قد استمجد، وصل الله له من النعم أزينها شارة، وأبينها إشارة، تحية الإكبار والبر، والحب الخالص العلانية والسر، ورحمة الله، من فلانة وبركة المقام العلي ديمة هي طبق الأرض، ونعمة تسري في الطّول منها والعرض، وجانبكم المبرور مع الإدلاج لضوئه أنجح مسراي، وعند الإدلاء في قليبه قلت يا بشراي.

ووصلت مخاطبتكم المبرورة على ظمأ إليها برّح، وشوق نحوها عرّض

---

(1) في الأصل أبعدكم.



حتى صرّح، فنظرت من ألفاظها إلى الغرر السّوائل، أو الدّرر التي تملأ بالغنى يد السّائل، ووجدته علق مضنّة مسرّة قلبي ملء كيسه، ووحشة نفسي مولية بتأنيسه، وذكر نعمة الله على هذه الأمة بالنعمة التي نظمت الأمور وشرحت الصّدور، واطلعت من العدل والإحسان لواءهما المنشور، وجناهما المشور، فالحمد لله الذي أعزّ ركن السلطان وأرغم أنف الشيطان، وأنزل آمال البريّة من دار الإمامة بأشرف الأوطان.

-43-

## تهنئة الأمير أبي زكرياء الحفصي بالشفاء من المرض[1]

[البسيط]

صحّت بصحتك الدّنيا فلا مرض … وما لها منك يا خير الورى عوض

وعاود العيش خفضٌ ليس معربه … بغير عامل هذا البرء ينخفض

/61/ وجوهر الملك أعفى الله خالصه … من أن يعود إليه ذلك العرض[2]

نعمى من الله قد جلت وقد عظمت … ما في النفوس بها ممّا مضى مضض

ورحمة لجميع الخلق ليس لهم … على تغايرهم في غيرها غرض

إن يحيى للناس يحيى والبقاء له حيوا … وإن يرض عن ريب الزمان رضوا

فالحمد لله الذي كشف الغماء، وضاعف النماء، وأرانا حياة الأرض إذا أرسل عليها السّماء، عارض ما أوحشت منه إلمامة، حتى أعقبته صحّة وسلامة، ولا تجهّم الزمان باستقباله، حتى أضاءت الدّنيا لزواله، وكما أنّ الصّحة منها داء،

---

(1) لمّا كان الأمير أبو زكرياء الحفصي ببلاد العنّاب (عنّابة) يروم الحركة إلى الجهات الغربية أواخر سنة 646 هـ/1248م وأوائل التي بعدها، أصابه المرض ثمّ شُفي منه، فكتب إليه ابن عميرة هذه الرسالة يهنّئه بشفائه، ولكن المرض عاوده إثر وفاة ابنه أبي يحيى واشتدّ به حتى مات في جمادى الآخرة سنة 647 هـ/1249م. ابن عذاري، البيان، ص 391. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 352.

(2) في ك 233: المرض.

فالمرض منه ما هو إن شاء الله شفاء، ببُحرانه[1] تُرتل سُورَة النشاط، وتُقتل سَورَة الأخلاط، وتُؤمّنُ غوائل تجاور الأبدان، وتساور الإنسان، فعلى إثرها العفاء، وفي عقبها بفضل الله الشفاء، ومن الله بعدها اللطف الذي هو للآجال نسَاءُ، وللأوجال نسخ وإنساء، في أطول مدّة يرث المقام الكريم عُمُر لُبَدِها، ويحلّ من منازل السّعود بين زباناها وأسدها، إن شاء الله تعالى.

– 44 –

## وله من رسالة إلى أبي عثمان سعيد صاحب منورقة في التوصية بأسير

تخصّ الرّياسة السّامية قدرا، السّارية في جنح الخطوب بدرا، حرس الله مجدها وسؤددها، وخلع عليها ملابس الكرامة وجرّدها، أفضل تحية أهداها مُهدٍ، وأعرب بها عن أكرم معتقد، وأخلص وُدّ، والعلم بكمالها لا يجوز أن يتغيّر، وإحاطتها بالفضائل إحاطة من خُيّر فيها فتخيّر، وما أوتيته من المناقب التي هي في جباه المعالي واضحات الغرر، وعلى لبّاتها فاضحات الدّرر، تحمل إليها القلوب إرسالا، ولا تني أن تمهّد لها من /62/ أكنافها ربعا محلالا، وتوردها من عوارفها عذبا زلالا، والله يبقيها بحرا على البحرين يلين إن أغلظ، ويهش إن عبس أو أحفظ[2].

(1) البُحران: وهو عند الأطبّاء التغيّر الذي يحدث للعليل دفعة في الأمراض الحادة. لسان العرب، ج 4، ص 46.

(2) وردت هذه الرّسالة كاملة في مخطوط لباب الألباب من نظم الشعراء ونظم الكتاب، الورقة 71.



– 45 –

## وقال بعد أن مدح زيّان بن مردنيش صاحب بلنسية[1]

[الوافر]

أرى من جاء بالمُوسى مُواسًا      وراحة ذي القريض نزوح صفرا

فهذا منجح إن قصّ شَعرًا      وهذا مخفق إن قصّ شِعرَا

– 46 –

## تنبيه أبي عثمان سعيد صاحب منورقة على رجل يريد العودة إلى خدمته

[الوافر]

وكلّ هواي لم يك في جوار      كريم عهده طلب الجوار

فصرت مع التنائي لست أدري      هوًى للنفس إلا في الجوار

تختصّ ذاتكم الفاضلة أعزّ الله رياستها، وتولّى حراستها، تحية التشيّع لعلائها، والتشرّع بولائها، والمحبة الممنّعة بوثاقة أسبابها، الممتّعة بأناقة شبابها، ورحمة الله، من تونس وليس ببركة هذه الخلافة السعيدة إلّا خيرات يستهل غمامها،

(1) في صبيحة إحدى الجمع كان ابن عميرة رفقة ابن الأبّار عند ابن مردنيش في قصر الإمارة ببلنسية فمدحه بشعر، وفي اليوم نفسه جاء الحجّام وقصّ شَعْرَ الأمير زيّان، فنال هذا الحجّام صلته ولم ينل ابن عميرة جائزته على مدحه، فأنشد هذين البيتين. وقد وردا البيتان في تحفة القادم على النحو التالي:

أرى من جاء بالمُوسى مُواسى      وراحة ذي القريض تعود صفرَا

فهذا مخفق إن قصّ شعراً      وهذا منجح إن قصّ شَعرَا

وفي اختصار القدح كما يلي:

أرى من جاء بالمُوسى مُواسى      وراحة من أراح المدح صفرَا

فأنجح سعيُ ذا إذ قصّ شَعرًا      وأخفق سعيُ ذا إذ قصّ شِعرَا

ابن الأبّار، تحفة القادم، ص 213. ابن سعيد، اختصار القدح، ص 43. المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 316، وج 3، ص 488.

وبشائر تخفق أعلامها، والله يدفع عنها بأمضى صارم وسنان، ويصرع أعداءها بكل سبيل ومكان، والشكر طيب لا يضاهى بمسك أو عنبر، خطيب لا يرتجّ عليه في ناد أو منبر.

فأمّا التعظيم فكما توجبه حقوق حاملها غير جاحد، ووصائلها ليس يومها بواحد، وقد صارت المخاطبة فائت القرض منها مندوب، وأجل المعترض لها مضروب، فكأنها زكاة ينتظر الحول بمالها، أو عبادة يستقبل بها رؤية هلالها، وإنّ أنكر قول، قول أبي العلاء: أبعد حول[1]، بل /63/ الشوق مداجاته تمتنع، ومناجاته لا تنقطع، وعلم الله أنّ له بين ضلوعي كمونا، ليس عليها مأمونا، والتهابا، ما أجمع عنها ذهابا، فكيف حال سيدي في مدّة خبره فيما غاب عنّي، وأوقعني في حرفي الترجّي والتمنّي، والحال قِبلي على ما يسّره عافية رحبة الفِناء، ونعمة مفعمة الإناء، والخلافة السعيدة في ظلها المقام، ومنها في أثر الإنعام الأنعام، والله يشكر عن الخلق آلاءها، ويصرع بسيف الحق أعداءها.

وهذا الواصل إلى الرياسة المبرورة بعجالتي هذه ذكر أن له إليها نسبة كريمة، وخدمة قديمة، وأنّه بلغه أنها شرّفته بسؤالها، وذكرته ذكر أمثالها، فاهتزّ اهتزازة مبشر بحفظ ذمامه، شائم برقا لا تخطىء مخيلة غمامه، وقال كريم من باب الكريم دعا، ولأسباب الانقطاع رعى، وإنما هو عاثر حظ قال له لُعا، ووسيلة لسالف خدمة وسابق نعمة أوجب حقيهما معًا.

وعندها أزمع السّير مقدما للاستخارة، ومستظهرا بالاستشارة، وسأل التنبيه عليه فقلت تَنَبُه الرّياسة المبرورة سبق التنبيه، وإن اعتبرت بأشباهك من الأملين لها فما أكثر الشبيه، وإذا بلغت إن شاء الله فلأسْرَى السّراة تلقى، وإلى مظهر القبول ترقى، ومن شراب الإدناء والاعتناء تسقى، فأبلغ تحيتي لفظا، واستوعب شكري

(1) يشير إلى البيت الوارد في قصيدة "يا ساهر البرق" لأبي العلاء المعرّي الذي يقول فيه:

أبعد حولٍ تناجي الشوقَ ناجية ... هلّا ونحن على عشرٍ من العُشَرِ

وفي هذا البيت ينكر أبو العلاء على ناقته حنينها إلى الوطن بعد مضي سنة من الرحيل، ويقول لها هلّا كان هذا الحنين ونحن قريبون من شجر العشر لنستطيع الرجوع إليه قبل تعسّر ذلك. أبو العلاء المعري، سقط الزّند، ص 37.



ذكرا وحفظا، ثم أدِّه كما عرفت، وبجوابي تنصرف إن شاء الله تعالى إذا انصرفت.

–47–

## وكتب يعاتب صديقا تأخرت عنه مكاتبته

كتبته يا سيدي إقرار معترف، وأخي قول محبّ كلِف، من فلانة /64/ والعهد كما تعلم باق، والودّ هو منّي بفؤاد إليك مشتاق، وغاية الظعن التي دعتني لم تدعني، والحال على ما يرضى أجلّ الأولياء وإيّاك أعني، وقد ألقت عصاها النّوى، وسكن إلّا إلى تلك الناحية الهوى، فلم يبق إلا حنين إليها مقوده جذاب، وموقده قلبي به مذاب، فيا هجير الأشواق أمّا لشمسك زوال، ويا ليل الفراق ألم يانِ أن يبدو لغيهبك هلال، وليت شعري نضو الشّجن الطويل أيُرجى له إبلال، ووادي الإذْخِرِ والجليل متى يلمّ به بلال[1]: [السريع]

هـل مـن آس علـى سـقامي يقـف ... هـل مـن يـأس يكـفّ دمعـا يكِـف

مـن بعـدكم لقـيت مـا لا أصـف ... جـنب يتجافـى وفـؤاد يجـف

أبطأت عنّي كتبكم في هذه المدة أبطأ للنفس به شغل، وللظنون فيه سبل، فليت شعري ما حدث أسلوْة المغيب فقد تكون من أجله، أم تيه على الغريب من مقيم في أهله، أم تأنّ من جنس التغافل، أم تجنّ يخدش وجه التواصل، ولا شك أن سيدي إذا رأى عتابي، وانتهى إلى هذا الفصل من كتابي، آسى بجوابه وواسى، وأنصف في أنّه نسي أو تناسى، ولاءم بين الأوراق لكتاب، وبوّب للأخبار ألف باب، ووصف المعاهد وأمنها، والسّلم ويمنها، والدّجن وطيبه، والعيش ناعمه ورطيبه، وأطال حتى في موضع الحذف، وأتى بالحروف الكثيرة مكان الحرف، ولم يدع قصّة إلا سردها، ولا غلة إلا بردها، ولا ضالّة إلا ردّها، ولا شرعة إلا وردها، حتى لأخالني ثاويا في تلك الشعاب، مقيما مع أولئك الأصحاب، وحتى كأني لم

(1) يريد ما أنشده أبو حنيفة لبلال حين قال:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة ... بفجّ وحولي إذخِر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنّة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل

والإذخر: حشيش طيب الرّيح، يطحن فيدخل في الطّيب. والجليل: الثّمام وهو نبات ضعيف يُحشى به خصاص البيوت. لسان العرب، ج 4، ص 303، وج 11، ص 120.

أبت إلّا بليل السّالي، ولم أكثر دون أرضي عدد الليالي، وحاش لمجده أن يشحّ بالصّلة، أو يرضى /65/ بسنّة هي من سنن السّفلة، فالعروق نزّاعة، والحقوق تَركُها شناعة.

-48-

## وله في الحنين إلى أحد أصدقائه

يا سيدي الذي عهده أجدّ محفوظاتي، وبعده ذنب للأيّام هو أشدّ مُحفِظاتي، كتبته من فلانة[1] وعندي أيها الحبيب المتمكّن حبّه، والبعيد المتمنّى قربه، بحقك قيام، وفي فضلك هيام، ونحوك نزاع لا تبليه شهور تنقضي وأيّام، وكيف تسلو النفس مسَاعِدَها، وتترك اليد ساعدها، وهل يجوز أن يتجاوز الظمآن مورده[2]، أو ينسى المهجور موعده، أمّا أنا فزمام الشوق مالكي، وجوانب الوحشة مسالكي، وعقد حساب الأشجان فذالكي.

فهل تذكرون إخاءكم ونواه غربة، وشكواه انفراد وغربة، رمت به الأقدار أقصى المرامي، وعبر من الخطوب ببحرها الطامي، وحسب سلا فالا للسّلوان، وزوالا عن الحنين إلى الإخوان، فآدابها تقرئ الهوى وتملي، وتغري بليلي ولا تسلي، والآن عرفت كذب ما قالته الشعراء من أن النأي الغليل ناف، ومن البث الطويل شاف، بل هو لعفار المشتاق مرخ[3]، وفي ريعان روعات الفراق شرخ: [البسيط]

(1) هي مدينة سلا وقد ورد ذكرها في هذه الرّسالة.

(2) كناية عن الحنين والصلة التي تربطه بصديقه.

(3) المرخ والعفار: شجرتان فيهما نار ليس في غيرهما من الشجر، ويُسوّى من أغصانها الزناد (جمع زند) التي يقتدح بها. والزند والزندة هما العودان اللذان تقتدح بهما النار، ويسمى الزند العود الأعلى ويكون من شجر العفار، وتسمى الزندة العود الأسفل ويكون من شجر المرخ. وكانت العرب تضرب بهما المثل في الشرف العالي وفي تفضيل بعض الشيء على بعض فتقول: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار. أي أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر نارا وزنادهما أسرع الزناد وريا (اتقادا واشتعالا). لسان العرب، ج3، ص53 وص195، وج4، ص589.



أهكذا الحبّ في قرب وفي بعد ... أم ليس حالي من حال المحبّينا

وجدٌ بقلبي أثار النأي ساكنه ... وكنت أحسبه للوجد تسكينا

ولوعة قبل البين بي نزلت ... فزادها البين تقريرا وتمكينا

-49-

## رسالة في الثناء

كتابي إلى سيدي الذي بحبله اعتلاقي[1]، وفي فضله إرسالي /66/ للقول وإطلاقي، أبقاه الله ينأى على مساميه مَحلا، ويأبى أن يكون بغير المعالي مُحلّا، من فلانة وبركة المقام الكريم أيّده الله تروي الأمل، وتطوي السّهل والجبل.

ووصلني كتابه المبرور كما وضح الصّبح لساري الظلماء، وظفر الظمآن بنمير الماء، وفضضته عن كلم لو كنّ صورا فتنت بحسن منظرها، أو أدوية فعلت بجملة جوهرها، أو طيبا زهدت الرّوائح في مسكها وعنبرها، فيا لمنظر يظنّه الناظر سهل اللّحوق، ويجده المتناول أبعد من العبوق.

وذكر ما بلّغه فلان من ذكر حسن، وثناء من ذي لسن، وعين الرّضى كما قيل كليلة، وإصابتها في الحكم قليلة، وقد علمت أن الذي أفاض فيه لكم به لهج، وعندكم في الإقبال عليه سبيل منتهج، فأولياء الكرام يسرّهم فيهم سمة هم وسموها، وصفة منهم تعلموها، وما ينفق منه سيدي في هذا الباب فكيس لا تصل إليه يد، بل كنز نفيس لم يقع عليه أحد.

-50-

## وكتب يوصي بأديب

كتابي إلى سيدي الذي التحق بأصله فرعا، وأثني على فضله طبعا وشرعا، أبقاه الله وجانبه من غِيَر الأيام مصون، ومناقبه في مأثور الكلام قلائد وعيون، من فلانة وذلكم المحلّ الأسمى مستند آمالي، والاعتداد به رأس مالي وأسّ أعمالي، وتأدّى إليه من قبل فلان وله المحتد الوسيط، والأدب الذي لا ينزف بحره المحيط،

(1) كناية عن ولائه لصديقه.

إن فاخر فلا أصل كأصله، أو ناظر فلا فضل بحلية الآداب لعلية الشعراء والكتاب كفضله، وشاهد /67/ العيان، يبرز منه فارس الميدان، ويشهد له أنّه واحدَ هذا الأوان، وقصد الجناب المبارك حيث الجود ينسجم، والوفود تزدحم.

وله في فضل سيدي الذي سناه يهدي السّاري، وسجاياه تفضح المجاري والمباري، أمل إليه ثنى نظره، وعليه بنى سفره، وأيّ معدل للآمال عن مرتع سوامها، وهل في غير مشرعة العدّ ريّ لأوامها، وقد علمت الوسائل أنها تنزل منه بأخصب واد، وتلقى به أكرم تعطفا وتلطفا من ابن أبي دُواد[1]، وهذا المذكور له منها عقد مستقل، وسبب من يدلي به فهو لا محالة مُدل، ولسيدي الرأي الأعلى في أن يضفي عليه ظل اعتنائه، ويسفر له عن وجه مبرّته وإدنائه، على عادته التي قصّر عن شأوها الكرام، وتبارت في شكرها الألسنة والأقلام.

–51–

## ومن رسالة لأبي الحسن بن هلال العددي[2]

كتبته إلى أخي الذي أحبه الحبّ كله، وأغار على قلبي أن ينزله غيره أو يحلّه، كتب الله له تفرّغا لشأنه، وتبلّغا بما يصلحه في زمانه، من فلانة والدّهر وإن

(1) هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دُواد فرج بن جرير الإيادي القاضي (160–240 هـ/776–854م)، كان شاعرا مجيدا فصيحا بليغا، أحد أبرز وأشهر كتّاب الخليفة العبّاسي المأمون ثمّ قاضي قضاة أخيه الخليفة المعتصم الذي كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا إلّا برأيه. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 1، ص 81 وما بعدها. الصّفدي، الوافي بالوفيات، ج 7، ص 184 وما بعدها.

(2) هو أبو الحسن علي بن هلال بن علي الحضرمي المعروف بابن هلال، من أهل مدينة بلنسية ومواليدها سنة 597 هـ/1200 م، أخذ العدد والهندسة والطّب عن شيوخ عصره أمثال البلالي والخولاني الجميل وغيرهما، انتقل بعد سقوط بلده بلنسية إلى مدينة سبتة واتخذها دارا. كان عدديا ماهرا، مهندسا حاذقا، طبيبا بارعا، فائقا في ذلك كله موفق العلاج. كان شديد البخل لما كان عنده من المعارف، شرس الخلق عند التعلم متعززا على المتعلّمين، لا يتعلّم عنده أحد عزّ أو هان إلّا واقفا أسفل دكانه الذي كان يتصدّى فيه للفتاوى الطبية، ولكنه تغير بعد ذلك وسمح للطلبة بالجلوس لإقرائهم في مسجد يقرب من دكانه. مات سنة 670 هـ/1271 م، تاركا وراءه من الكتب فيما كان ينتحله ما لا نظير له كثرة وجودة. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر 5/ القسم 1، ص 419.



أجرى أمره.

ومنها[1]: والحال على ما يُرضي الأخ الأخص، وعيدان الثرى قد أمكنت الممتص، ومن أومأ إلى العلة كان كمن نصّ، والله يوزعنا شكر الإحسان، ويجعلنا بنجوةٍ من حوادث الزمان، ويحدث هنا بأخبار عن شَرْقِنا شَرَقنا[2] لها بالدمع، فإنا لله على ما نزل بذلك الجمع، فإنهم زعموا عُرضوا على الجلاء، وعُرّضوا للفناء، وفي سعة فضل الله رحمت الأموات وجبر /68/ الأحياء.

–52–

## وكتب إلى من عَرَض عليه رسالة لبعض أكابر الكتاب

وكتب إلى بعض الأصحاب وكان عَرَض عليه رسالة لبعض أكابر الكتاب كان فيها: ووصل إليّ الرقاص[3]، فكأنه سدّد إليّ سهم ابن أبي وقاص، في أشباه هذا الكلام: [الكامل]

إن قيل مَن زهر المحاسِن عنده ... مجموعة قلت الفتى الزهريّ
أو ما هواك له ولا عذر لمن ... لم يهواه[4] قلت الهوى العذريّ

قد علم سيّدي ما ألمّ بي من وجع، ووهن قوة ذاهبها غير مرتجع، وشربت اليوم مطبوخا لونه كليل الهجران، وطعمه من فراق الإخوان، مذوق ممذوق، ومرضوض ومدقوق، ومائع وحبّ، ومجموع ليته أتيح له صبّ، ولم يكن لي فيه عبّ، فلقد استشنعت إناءه، واستبشعت ضمّه إلى فمي وإدناءه.

وقد كتبت لك ما سألت من الكتب، وعذري تقصيري فيها مرتفع الحجب، ومن أين لي بسهم المفدّى بالأبوين[5]، أو حملة الزبير حين برز بين الصّفين، ومن

(1) سترد هذه الرّسالة كاملة تحت رقم (111) من هذا السّفر.

(2) جناس تام بين "شرقنا وشرقنا".

(3) وردت كلمة الرقاص في رسائل ابن عميرة، وهي كلمة أندلسية ومغربية ومعناها: ناقل البريد.

(4) في ك 233: يهوه.

(5) يريد الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب (ت 55 هـ/674م)، شهد بدرا =

يوصلني إلى أن أنفق من ذلك الكيس، واتفق مع ذلك الرّئيس، وعُرِّفت باختيارك سفر البحر وإن نزع عن نزقه، وكفى حلقه شر شرقه، فمداه أقصر، ومؤنته أيسر، الله يحملنا[1] على الأرشد، ويرعاك في المغيب والمشهد.

-53-

## وكتب يوصي بأديب

كتابي إلى سيدي الذي من بدره إنارة أفقي، وبتعظيم قدره /69/ عمارة طرقي، أبقاه الله علما هاديا، وصباحاً لأبناء السُّرى باديا، وبركة المقام الكريم هُدًى للأنام، وندًى كمستهل الغمام، وعندي بحقوقه المقدّمة قيام، وعلى شكر مقاصده المكرّمة دوام، وكل أنبائه السّارة فلي بسماعها كلف وهيام.

ومؤدّيه فلان من أدباء الوقت، ومن له شاهد من نفسه يغنيه عن النعت، يروي المكتوب والمأثور، ويسرد المنظوم والمنثور، ويقول فترى طبعا سيّالا، وموردا سلسالا، وصنعة تصنع[2] من النّمريّ إن وقف مختالا، وتخل بالبحتري كلّما وصف خيالا، والشأن بعد هذا في طريقته المثلى، وزكائه الذي بحليته تحلّى.

ونزعت به إلى ذلك الجانب همّة طمّاحة، وحاجة لا تنكر معها استماحة، وإنما قصد معرّس ركاب الخليفة، ومعفّر جِباه آمالهم على الحقيقة، ولسيدي عادة مع هذا الصنف جميلة، وفضيلة من كمالها لهم إليها وسيلة، ولا غرو وقد رعوا أكنافها، ومَروا أخلافها، أن يسبق إليها رائدهم، وينتظم عليها من الأمداح فرائدهم، وهو ولي ما يراه من التفات أمل وإقامة مائل، وإقبال للّائذ به واللّاجئ إليها كاف كافل.

= وسائر المشاهد، قال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم أحد "ارم فداك أبي وأمّي"، وما جمع الرّسول أبويه لأحد غير سعد. المباركفوري، الرّحيق المختوم، ص 315.

(1) في ك 233: يحملك.

(2) في ك 233: تضع.



-54-

## خطبة نكاح

الحمد لله الذي لأمره العلي، وسبيله الجلي، يجب الانتهاء والانتهاج، ولجلال حضرته يعرف البهاء وبها يوجد الابتهاج، ومن باب الرّجاء في لطائف رحمته وعوارف نعمته يلج المضطّر وإليه يلجأ المحتاج، نحمده على نعمه التي منها /70/ النّبت المهتاج، والقطر الثجاج.

ونشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو خلق الخلق أوّلهم نطفة أمشاج، ولكل منهم شرعة ومنهاج[1]، غايرت حكمته بين الموجودات فتمام وخداج، واستقامة واعوجاج، ﴿**وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج**﴾[2]، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي هو السّراج الوهّاج، والمقرّب ليلة قِيدَ إليه البراق وقُرِّب منه المعراج، المبعوث والكفر شأنه عتوّ ولجاج، وداؤه لا ينجع فيه علاج، فدعا إلى الله حتى كان لصباح الهدى انبلاج، واستقام بنور الرّسالة من كان له في ليل الضّلالة إدلاج، ودخل من النّاس في دينه بعد الأفواج أفواج.

ورغّب في النكاح لتتم بنعمته وحكمته الوصلة والامتزاج، وتصدق من مقدماته المشروعة وقضاياه المتبوعة النتائج ويحمد الإنتاج، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين كانوا الرّحماء إذا أغبرت من الجدب الفجاج، والأشدّاء كلما احتدمت الوغى واشتدّ الهياج، صلاة دائمة نامية زاكية ما نار في غبر الفجاج العجاج، وترامت في خضر البحار الأمواج.

-55-

## وكتب لأبي عثمان سعيد صاحب منورقة معزيا في ولده

تخصّ الرّياسة المباركة حرس الله سؤددها، وخلع عليها ملابس الكرامة وجرّدها، تحية التعظيم لجلالها، والتشيّع في كمالها، والذّكر الجميل لما يبلغ من

(1) اقتباس من الآية رقم 48 من سورة المائدة.

(2) الآية رقم 12 من سورة فاطر.

ذكرها وسؤالها، وقد اختصّ الله مجدها بالفضل الذي لها منه تالد وطارف، وعندها فيه سند لا أحد إلّا وهو بعلوّه عارف.

وقد /71/ كان الخطب الذي أذكى نار الوجد، وأثكل صريح المجد، تقاضاني مخاطبته أولا قاضيا حق العزاء[1] وسنّته، ومذكرا بالصبر الذي مثله حمل لأمته، ولبس جُنّته، وكان الرّسول تركه بيدي أكتبه، ووعد بأنّه يرجع فيصحبه، فوالله ما عاد، ولا قضى ذلك المراد، والآن أنفذت هذه العجالة لأتلافى ذلك الفائت، وأقرّر من ودّي وعهدي الصّحيح الثابت، وأنا أيها السّيد الأعلى بجانب الاعتداد بكم لائذ، وبأوفر نصيب من كلّ حال أنتم عليها آخذ.

-56-

## وله في وصف رسالة كاتب[2]

وبودّي لو أنّ بلغاء العصر شَهِدوني، وكان عندهم من الإنصاف ما عليه عَهِدوني، فكنت أعرض عليهم كتابه الذي هو روضة أسلوبها، وغريبة اقتبس البديع من أسلوبها، وأسمعهم ألفاظه التي هي أحسن من كل حسن إلّا من محيّاه، وأسرّ من كلّ سار إلّا من لقياه، وأطيب من كل طيب إلّا من ثنائه وريّاه.

وأحملهم على الرّضا باللكنة، والقناعة بدون اللُّهنة، وأريهم أن العجز أمالنا إلى شقّه، وأدخلنا تحت رقّه، وأوجب علينا تسليم هذا الشأن لمستحقّه، فنسجل على أقلامنا بالفاقة، ونقطع ما بيننا وبين الحبر من العلاقة، ونعاملها بالمشروع في الخمر وآلته من الكسر والإراقة[3].

(1) يريد حق العزاء في ابنه محمد. وقد ذكر وفاته والده أبو عثمان سعيد في الرّسالة التي كتبها إلي ابن عميرة يهنّئه فيها بقضاء قابس وهي مؤرّخة في العشر الأواخر من شهر ذي القعدة سنة 649 هـ/1251م. مجهول، مخطوط لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكتاب، الورقة 61 وما بعدها. انظرها تحت رقم (93) من هذا السفر.

(2) هذا فصل من الرّسالة التي وصف فيها ابن عميرة بلاغة أحد الكتاب الذي لم نتمكن من معرفة اسمه لأنها مبتورة.

(3) كثيرا ما نجد ابن عميرة يبالغ في وصف بلاغة رسائل أدباء عصره وألفاظها ويتفنّن في تشبيهها، ويردف ذلك بنظرته المتواضعة إلى أدبه وترسيله وعجزه أمام هؤلاء الأدباء =



– 57 –

## وكتب إلى صديق من القضاة

[الكامل]

جلّت يد الأيام[1] عندي أن قضت ... يوما بأن ألقى أجلّ قضاتها

/72/ وأمّا ومكرمة ثنى نحوي ... لقد أدّى الثناء مفترضاتها

وحبذا هي يد أوضعت الأيادي، وضوّعت النادي، مشت منّي إلى غير ماش، وقلبت قصّة أبي خداش، هناك جهل من عليها يُجزى، وهذه لعلم الأعلام تُعزى، وتلك قيل فيها بعض الشرّ أهون من بعض، وهذه فيها كل خير محض، فالمادح إن تخيّر الثناء وانتقاه، فقد عرف الرّداء ومن ألقاه، ودرى يقينا أنه كريم بدر العليّة عُلّ، ومن خير الأمجاد سُلّ[2].

وقد بعثت بتحيتي إليه نديّة الفوح، نجديّة الرّوح، مثبتة في صدق الوداد مثل خط المداد في اللّوح، ولمجده الكبير الخطير، من التعظيم والتوقير، أوفى ما يقوم به من تحمل[3] يده، وشكر يومه وانتظر غده، وما اعتدادي به من محدثات الأمور، ومتحدّثات الجمهور، بل هو ثهلانيّ الأساس، برهانيّ القياس، غير متحصّل إلا للواحد بعد الواحد[4] من الناس[5].

= مستعملا في ذلك الكثير من التشبيهات.

(1) استعارة مكنية شبّه فيها الأيّام بالإنسان وحذف المشبّه به وترك أحد لوازمه وهي اليد.

(2) جناس ناقص بين "علّ وسلّ".

(3) في ك 233: يحمل.

(4) في ك 233: الواجد.

(5) أعاد ابن عميرة، في هذا المقطع الأخير، كتابة افتتاحية الرّسالة التي خاطب بها أبا عثمان سعيد صاحب منورقة. وهي كاملة في مخطوط لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكتاب، الورقة 73.

-58-

## وكتب إلى ابن عيّاش(1)

[الكامل]

فـي ذمـة الـرّيح البليل تحيتـي ... فـإذا أتـتك بهـا تبـرّ وتبـرأ
وصـحيفة فـي طـيّها أدرجـتها ... مـن طيـبها لا طينـها هـي تقـرأ

أيها السيد المفدّى، والقمر الذي من سماء السّناء تبدّى، وللاهتداء به بسنى الآباء تهدّى، لله درّك من(2) فرع دوحة رسخت في تجيب(3)، وأرومة ما ولدت إلا النجيب فالنجيب، إن خطوا فالأقدام عنهم تتأخر، أو خطّوا فالأقلام بهم تفخر(4)، ولقد ذخروا لنا منهم درّة تاجهم(5)، ونكتة احتجاجهم، وبشارة أقيالهم، وقرارة

(1) في الأصل: "وكتب رحمه الله"، ولكن الأوصاف الواردة في الرّسالة تدل على أنّ المكتوب إليه هو ابن عيّاش الذي سيخاطبه برسالة أخرى تحت رقم 94. وتجدر الإشارة إلى وجود أسرتين في ميدان الكتابة على عهد الموحدين حملتا لقب بني عيّاش وهما: أسرة أبي الحسن عبد الملك بن عيّاش القرطبية، وأسرة أبي عبد الله محمد بن عيّاش التّجيبية التي ينتمي إليها المكتوب إليه في هذه الرّسالة، ولا صلة بين الأسرتين.

(2) كلمة "من" ناقصة في ك 233.

(3) من عرب كندة وهم بنو عدي وبنو سعد ابني أشرس بن شيب بن السّكون بن أشرس بن كندة وأمهما تجيب بنت ثوبان بن سليم نسبوا إليها. ودار بني تجيب بالأندلس: سرقسطة ودروقة وقلعة أيّوب والمرية وغيرها، أول من دخل منهم الأندلس عميرة بن المهاجر بن نجدة. ابن حزم، الجمهرة، ص 429.

(4) استعارة مكنية لأنّ الأقلام لا تفتخر.

(5) يريد أبا عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عيّاش التجيبي البرشاني السرقسطي الأصل (550-618 هـ/1155-1221م)، من كتّاب خلفاء الدولة الموحدية على عهد المنصور والناصر والمستنصر. كان كاتبا بارعا فصيحا، سري الهمة كبير المقدار، حسن الخلق كريم الطّبع، نفاعا بجاهه وماله. من أولاده: أبو جعفر أحمد (ت 629 هـ/1231م) كاتب الخليفة الموحدي المستنصر، وأبو القاسم عبد الرحمن (581-636 هـ/1185-1238م) الخطيب اللّسن المفوّه. ولسنا نعرف مَن منهما كتب إليه ابن عميرة هذه الرّسالة. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج 1، ص 464، وج 6، ص 384 وما بعدها. ابن الأبّار، التكملة، ج 3، ص 48، وج 2، ص 116. ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص 482 وما بعدها.



أسيالهم، نردُ من مائه العذب /73/ ونحلّ من فنائه الرّحب، ونعاشر منه المهذب الأخلاق، وننافس منه في أنفس الأعلاق.

ووصلتني مخاطبته المبرورة كما بيّن الصّبح، وتعيّن النّجح، وركض بشير المعاني(1) بفكاك وثاقه، وهشّ دارس المغاني لجدة أخلاقه، فاجتليت منه زهر الرّبا غضّا، ووجه المنى مُبيضّا، وتناولت منه(2) درّ البحار انشق عنها موجها، بل زهر الفلك الدّوار استقل بها أوجها، ولم أدر وقد قبضته قبضة المرمل لهنة زاده، وأجلت فيه نظر المقبل على من أصمى حبة فؤاده، أَعَصْرَ الشباب كرّ، أم طعم الخطوب حلا بعدما أمرّ، فلولا حقّ لصاحبه سبب وجوبه متحقق، ووقت آدائه مضيّق، لعرف القلم منّي أنّي لا أطيق حمله، ولألقيت على غاربه حبله، وولّيته من الحصر ما تولّى، وقلت لا أحق بالحنث ممّن على الممتنع تألّى.

وكيف يجاري المقرفُ المقرَبَ، أو يعارض الأعجميُّ الكلام المعرَبَ(3)، وأين من وسلٍ غير طام، وثَفال(4) لا يصلح لجرير(5) ولا خِطام(6)، غُطامِط(7) عرمرم، ومتخمّط نماه الجديل وشدقم(8)، زاحم في البيان بعود، وأسند من البلاغة إلى أرفع طود، وورث شرف الصناعة كابرا عن كابر، وتدلّى عن البراعة بجناحي عقاب كاسر(9)، فأخذ كتابها بقوّة، واحتاز تراثها بأشرف أبوّة، ومن يجاري أهلَ بيتٍ بلاغة آلِ وهبٍ من هباتهم، ومُقل بني مقلة خاشعة لهيئاتهم، وابن المقفع عندهم فقع

(1) في ك 233: العاني.

(2) في ك 233: به.

(3) جناس ناقص بين "المقرب والمعرب".

(4) الثفال: البطيء الثقيل الذي لا ينبعث إلّا كرها. وبعير ثفال: بطيء. لسان العرب، ج 11، ص 85.

(5) الجرير: حبل الزمام الذي يُخطم به البعير ويضفر من الأَدَم. لسان العرب، ج 4، ص 127.

(6) الخِطام: حبل الزمام الذي يُعلّق في حلق البعير ثم يعقد على أنفه، ويُفتل من اللّيف والشّعر والكتان. لسان العرب، ج 12، ص 187.

(7) الغطامط: البحر العظيم كثير الأمواج. لسان العرب، ج 7، ص 363.

(8) جديل وشدقم: فحلان من الإبل كانا للنعمان بن المنذر. لسان العرب، ج 11، ص 106، وج 12، ص 320.

(9) في ك 233: كاسر.

بقرقر[1]، والصّابي صباه تعارض منهم بريح صرصر[2]: [الطويل]

أولـئك قـوم فـي الكـواكب خُيّـروا    وقـد قعـدوا مـا بيننا[3] فتخيّـروا

/74/ سـروا بـسناها أو بـضوء وجـوههم    وسـار أنـاس فـي الدّجى فتحيّـروا

وكل ما أفاض فيه السّيد من شكر شعشع كؤوسه، وخلع عليّ لبوسه، فعارية لا تصلح إلّا بالمعير، وإدخال لِبَاب الجمع على باب التصغير، وإنما هو قِنو لا يشرب إلّا من شميحة[4]، وعمّة لا تُعرف إلّا في آل أبي أحيحة، وما تشوّف إليه سيدي من أنباء مُجلّه فهي على ما يسرّ مجده الذي به وثق، ومهما سبق إلى غاية فإلى غاية شكره ما سُبق، وما تزيّد من خبر أصحابنا المخرجين إلّا انصراف المغرّبين إلى ملقى عصى البين، وقد انقسموا ما بين أريولة[5] وتدمير[6] وهم يزجّون الزمن العسير، ويرجون اللطيف الخبير[7].

---

(1) يقصد المثل العربي: "أذلّ من فقّع بقرقرة". لأنه يوطأ بالأرجل ولا يمتنع على من اجتازه. والفقع: الكماءة البيضاء. ويشبّه الرجل الذليل بالفقع فيقال: هو فقع قرقر، لأنّ الدواب تنجله بأرجلها. الميداني، مجمع الأمثال، ج1، ص 395.

(2) غالبا ما تدفع المجاملة ابن عميرة إلى المبالغة في وصف رسائل وقصائد أصدقائه والحكم عليها بالتفوق على المشارقة، مثلما ذهب هنا مع بني عياش وتفضيلهم على آل وهب وابن مقلة وابن المقفع والصّابي وكلهم من كتاب وأدباء وشعراء العصر العباسي.

(3) في ك 233: بينها.

(4) في ك 233: سميحة.

(5) أوريولة: حصن بالأندلس وهي قاعدة تدمير، تقع على بعد 23 كم إلى الشمال الشرقي من مرسية. الحميري، الرّوض المعطار، ص 67.

(6) تدمير: الاسم القديم لكورة مرسية، كان فيها من المدن مرسية وأوريولة وقرطاجنة ولورقة ومولة وجنجالة، ثم أصبحت الكورة كلّها كورة مرسية. الادريسي، نزهة المشتاق، ج 2، ص 538.

(7) يريد أهل شرق الأندلس الذين استولى النصارى على مدنهم وقواعدهم، فانتقلوا إلى كورة مرسية التي تأخر سقوطها النهائي في يد النصارى حتى سنة 664 هـ/1266 م. عن تفاصيل سقوط كورة مرسية انظر عبد الله عنان، عصر الموحدين والمرابطين في الأندلس (القسم الثاني)، ص 460 وما بعدها.



– 59 –

## وخاطب صاحب منورقة يعلمه بخبر حلوله تونس ويوصيه بتخليص أسير[1]

التحية المباركة يانعة النور، ذائعة في النجد والغور، تتأدّى إلى المحلّ الأسمى، وإن سمّيت أطيب الطيب فعلى أن الاسم هو المسمّى، قد علم أولياء تلك الرّياسة، ولو لم يكن معهم إلّا مجرّد الفراسة، أنها بسميّ الكمال موسومة، وبين الندى والبأس مقسومة، فيوم منها لمحتاج تصل معترّة، وآخر ليوم هياج تصلى حرّة، وآثارها الحميدة في الصّادر والوارد، ومع الغائب والشاهد[2]، لها الذكر الذي به أنارت المطالع، وإليه سارت المطامع، فالأيدي بفضلها عارفة، والألسنة على شكرها عاكفة[3]، ولها من النفوس موقع عَرفَه من عَرفَه، ومكان لا يرغب فيه إلّا من تحقق شرفه، وأنا وإن كانت مخاطبتي لها في ما مضى حيًى ما شمت برقه، /75/ وجنًى ما علمت غدقه، فقد كان يبلغني من أحاديثها المستحلاة المستملاة، ومكارمها التي قصرت عن وصفها الألسنة الغلاة، ما صرت به أحد أشياعها إمّا واغلا على ندمائهم، أو داخلا باسمي مع أسمائهم.

فلما استقلت قدم الجدّ، بالقرار في عرصة العلاء والمجد، وجدت جانب المخاطبة كثبا، وألفيت للمفاتحة سببا، وهو إعلام الرّياسة المبرورة بهذا القدوم، والحلول من هذه الحضرة[4] بمثل مصابّ الغيوم، ومصامّ النجوم، ولا شك أن هذه الرّياسة التي على حبّها جبلت، ولفضلها ما جهلت، تسرّ بخبري، وتلهج بما سفر عنه سفري، وكيف لا واعتدادي بها اعتداد الصّحيح بسلامة أعضائه، والشّحيح بما أحرز في وعائه.

وعندما بلغت هذا الموضع من الكتاب دخل إليّ من إخواني فلان[5] فذكر

---

(1) في الأصل: "وكتب رحمه الله تعالى".

(2) طباق الإيجاب بين "الغائب والشاهد".

(3) جناس ناقص بين "عارفة وعاكفة".

(4) يشير ابن عميرة هنا إلى حلوله بحضرة الحفصيين تونس.

(5) في مخطوط لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكتاب: وعندما بلغت هذا المكان من هذا =

يدًا في حق ابنه المأسور أوليتموه إيّاها، ووعدتم بتمامها إذا بلغت أناها، فكلّفني ختم كتابي بشكر عارفتكم هذه[1] التي كلّ من إخوانه لطوقها تقلّد، وبقيدها تقيّد، وأنا علم الله من أصدقهم له ودادا، وأكثرهم بما أسديتم إليه اعتدادا، وإذا شكر ذو معروف ليستبصر في شأنه، ويزيد من إحسانه، فسجايا الرّياسة المبرورة تتحرّك إلى المكارم من ذاتها، وتجد الإمعان فيها أكبر لذّاتها، أبقاها الله والكمال من حُلاها، والآمال تشكر ما أولاها[2].

– 60 –

## مدح وثناء

فكُتِب كتب الله لكم عزة سامية الذوائب، وحوزة محوطة /76/ الجوانب من عيون النوائب، من فلانة وبركات المقام الكريم تنثال من كل أوب، وتختال من الكمال في أجمل ثوب، والحمد لله على ذلك كثيرا، وعن تعظيم مجدكم والثقة بكريم ودّكم، والمحافظة على جميل عهدكم، ووثيق عقدكم وحقوقكم.

وصل الله سعادتكم لا يعدوها الاعتداد، ولا يحصرها التعداد، هي بكلّ اعتبار مقدّمة، وفي موطن التشابه آية محكمة، والتوفر على آدابها أول في العمل والفكرة، خالص على الامتحان والخبرة، والأحوال الخاصّة بجلالكم من سلامة هي للمجد الصّريح سلامة، وعافية هي على عطف المعالي جنّة ولأمة، عنها يتأكد السّؤال، وبنواسم المسرّة بها ينعم البال.

– 61 –

## وكتب يجيب أبا عثمان سعيد صاحب منورقة

تخصّ نادي الندى الفياض، والسؤدد الفضفاض، أبقاه الله وحماه مباح

=

الكتاب اجتمع بي صاحبي ووليّ في الله تعالى الشيخ الفقيه الأجلّ القاضي الأعرف الأفضل أبو عثمان الأصولي أدام الله كرامته. الورقة 74.

(1) كلمة "هذه" ناقصة في الأصل والزيادة من ك 233.

(2) سترد هذه الرّسالة مكرّرة تحت رقم (90) من هذا السّفر.



لمعتقيه، محظور على كل معتقد[1] فيه، تحيّة ودّ ما أظهر منه هو دون ما أخفيه، والقيام بحقّه طاعة لا تخلع، وبضاعة هي من خير ما يُجمع، وما يلزمني من الشكر الذي يتجدّد إيجابه، وتتعدّد أسبابه، فأنا بالغ منه أقصى ما يصحُّ به تكليف، ولا يقع في عزيمته تخفيف.

ووصلت المخاطبة الرّائقة في عين معانيها، المقتضبة على تفنّن محاسنها، فأكرم بها هديا شرفت بشرف وليّها، وجاءت من أصل خلقتها في زينتها وحليّها، وكان ما أودعته من إشارة كوحي اللّحظ، وعبارة ناسبت بين المعنى واللّفظ، /77/ رقية حمت من كل حمَة، وحكمت لمن أكرم بها بكل مكرمة، ولقيني مؤدّيها باسترسال مستنده معروف، وحديثه لا شك مسند لا موقوف، وكان لذلك منّي موقع القطر من نبت الرُّبا، والوصل في زمن الصّبا، ولقد وجدته مهذّب الخلق، بعيدا بطبعه من الخرق[2]، يشفق من القذاة في عين خدمته، ولا يتولّى إلّا ولي نعمته.

– 62 –

## وكتب مخبرا عن إعادة مرتّبه

فكتب كتب الله لمجدكم[3] عزّة سامية الأعلام، ونعمة هامية الغمام[4]، من فلانة وبركات المقام الكريم أيّده الله تنهل عِيادُها[5]، وتستن جيادها، والحمد لله الذي بحمده نماء البركات وازديادها، وفي هذه الأيام وصل الأمر المبارك تسري مسرى الأرواح نفحته، وتلوح كوجه الصّباح صفحته، ومن مضمّنه إعادة المرتّب على الوجه الذي جلّ، وفي الوقت الذي بحلول اليمن حلّ، فيا لموقعه الذي بالفائدة استقلّ، وما جلّ من الشكر فبإزائه قلّ، ويا لحظ به ثبت كما تهوى الأحبّة، ونبت كما تنبت في جميل السّيل الحبّة.

(1) في ك 233: معتدٍ.

(2) جناس ناقص بين "الخلق والخرق".

(3) في ك 233: لكم.

(4) جناس ناقص بين "سامية وهامية".

(5) في ك 233: عِهادُها.

-63-

## ولـه من رسالـة

وقد خاطبت فلانا في هذا المعنى، وذكرت له كيف جمعنا ثم منعنا، وأنّ منّا من حلب أشطر الزمان، وكتب أسطر[1] الحدثان، فله بزعمه في كلّ شك تحقيق، وبينه /78/ وبين الغيب ستر رقيق، وأحسبه لا تجوز عليه المخارق، إلّا أن تظهر معها الخوارق، وهذا الشرط مستحيل، فربع الدّعوى طلل محيل.

ووصلني من فلان شعره الرّائق، وكلامه الفائق، فوقفت وقوف من أخِذ منه باليمين، وخُرج عليه من الكمين، وما شبّهته إلّا بصاحب الشطرنج أخفى طبقته، وقد درَى أنّ في مال المقامر نفقته، فأمهله حتى ظن أنّ الدّست له وأنّه متى شاء قصد الشاة فقتله، انقضّ عليه كالباشق[2]، وانتصف من رخاخه بالبياذق، فأضحك منه من حضر، وأشمت به من إليه نظر.

-64-

## وكتب إلى سيد يخبره عن تصالح جماعة بعد فرقة

كتبته إلى سيدي المفدّى، وأخي الذي حقّه عندي أوّل ما يؤدّى، وعندي تعظيم كما يعلم، وحبّ دعواه ممّا يسلم.

ووصلتني مخاطبته المبرورة، فرافقتني مقاصده التي معها وقفت، ونحوها انصرفت، وكان لأهل هذه البلدة رغبة في كذا إليها في الجمع تصايحوا، وعليها بعد الفرقة تصالحوا[3]، وتقدّم إعلامكم بذلك وهذا وفدهم يفد على أن يكون هذا أوّل ما يرفعون، فلا أدري ما يصنعون، وقد علم أنّ كلامهم كقبض على الماء، وأحلامهم أخفّ من الهباء، وجههم لا ماء في بشرته، وعشريّهم يرى السّماء دون عشرته.

(1) جناس ناقص بين "أشطر وأسطر".
(2) تشبيه مجمل ذكر الأداة والمشبّه والمشبّه به وحذف وجه الشّبه.
(3) جناس ناقص بين "تصايحوا وتصالحوا".



- 65 -

## وصف رحلة الخليفة الموحدي الرّشيد من سلا إلى مرّاكش سنة 637 هـ/1239م[1]

نسأل الله من حمده ما يرضاه لنعمه، ومن رحمته ما لا ينبغي /79/ إلّا لكرمه، ونستكفيه عزّ وجهه مهمّ الدّارين، ونبادر إلى طاعته في ما ألزم وشكره على ما به أنعم بدارين، ونضرع إليه سبحانه أن يثبّت أقدامنا في عثرات السّلوك، ويعصم أفهامنا من خطرات الشكوك، ونصلّي على سيدنا ونبينا محمد المنعوت بمحاسن الشّيم، المبعوث إلى جميع الأمم، صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، ولواء الحمد المعقود.

صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه المعروفين ببذل الموجود والمجهود، الموصوفين بالرّكع السجود، منهم المصدّق وكلّ كذّب وتولّى، المتصدّق بجملة مالِه معرفة بما به خلي وعنه تخلّى[2]، ومنهم المحدّث كانّه من الغيب قد استملى، المتبع بالتقويم والتثقيف والآخذ من القوي للضعيف جميع من[3] والى وكلّ من ولّى[4]، ومنهم المجتهد[5] بالقرآن فنعم التالي ونعم ما يتلى، الصّابر على بلوى أصابته رغبة في النعيم الذي لا يبلى[6]، ومنهم المقلّد قلادة الإخاء وما غيره بها تحلّى، ليث الهياج فكم كريهة لها جلّى، وموطن فيه أبلى[7]، رضي الله عنهم وعن

(1) في الأصل: "وكتب رحمه الله تعالى". ولكن صاحب الذيل الذي أورد الفصل الخاص بوصف المصحف من هذه الرّحلة علّق قائلا: فصل من رحلته مع الرّشيد أبي محمد عبد الواحد بن المأمون أبي العلى إدريس بن المنصور أبي يوسف يعقوب بن الأمير أبي يعقوب يوسف بن الأمير أبي محمد عبد المؤمن بن علي وقد خرج معه من سلا إلى حضرته مراكش. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج 1، ص 156.
(2) هو خليفة المسلمين الأول أبو بكر الصدّيق.
(3) في ك 233: ما.
(4) هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.
(5) في ك 233: المتهجّد.
(6) هو الخليفة الثالث عثمان بن عفان.
(7) هو الخليفة الرابع علي بن أبي طالب.

سائر الصّحابة الذين لهم الطريقة المثلى، والمجاهدة لتكون كلمة الله هي[1] العليا، وكلمة الذين كفروا السّفلى[2].

ومنها[3]: وفلان هو فرعه السعيد، والمدرك الذي لا ينأى عليه البعيد، ولا تذهب حسنة من حسنات الأيّام إلّا وهو لها المجدّد المعيد، جمع المناقب واستوعبها، وراض الصّعاب وما استصعبها، وسَما حيث لا تسمو الشهب، وجاد وقد بخلت السّحب، وزيّفت سيرته ما جمعت التواريخ /80/ والكتب.

**ومنها:** وكثيرا ما يُنسب إلى العطاء من يُعرض عند المكارم على المكاره، ويقف عند سؤال التافه موقف التائه[4]، وربّما نعت بالأسد في خيسته، طائر القلب من رؤية فريسته.

**ومنها:** إلى أن أتى الله بمطر جود[5]، وقطر أعاد حياة الأرض بين بدء وعَود، وأصبح الناس والماء غدق، والدّيمة للأرض طبق، والأوحال تمنع من خروج يعيد الأبدان معفّرة، والثياب معصفرة، لا سيّما والرّجلة مظنة الزلق، ومن خلق الشتاء ألّا يرق لذي الخلق، ولكن علقت الصفقة بأرباح، وانعقدت في أيمن صباح.

وكان اليوم مشهودا[6]، والفضل موردا، والرّاحل مجودا، والخارج مذودا، حُلّيت به الحالات، وفضّت فيه الصّلات، فانثالت يمنة ويسرة، وسالت فكانت كالقطر كثرة، فكم حباء هنالك، وخباء زان بتملّكه الممالك، ومواهب من كلّ فنّ، ومنن لا تجري على يد ممتنّ، حوكي بها القطر المسوّي بين التربة الزكية والسبخة، الساقط على الأجسام النقية والوسخة[7]، فكلّ ملأ سَجْلا، ووجد متناول العطاء سهلا، من راج ويؤوس، وسائس ومسوس، ورئيس ومرؤوس، وشاع الخبر، وكرم

(1) كلمة "هي" ناقصة في الأصل والزيادة من ك 233.
(2) طباق الإيجاب بين "العليا والسفلى".
(3) هذا عمل جامع الرسائل أو الناسخ الذي تصرّف فيها بحذف بعض المقاطع.
(4) جناس ناقص بين "التافه والتائه".
(5) يريد الخليفة الموحدي الرّشيد المعني بهذه الرّحلة. وعنه وعن أخباره انظر ابن عذاري، البيان (القسم الموحدي)، ص 299 وما بعدها.
(6) يريد يوم الاستعداد لانطلاق الرّحلة.
(7) طباق الإيجاب بين "النقية والوسخة".



الأثر، وسرّ القاصد، وندم القاعد، وعلم أنها أحاظ مقتسمة، وأنّ ما كتب لا تحرم منه رزقها نسمة.

واستمرت الحال على حسنها، وجاد الآمالَ ريّقُ مزنها، إلى أن زُمّت ركاب السّير، وزُجرت للرّحيل ميامين الطير، وكان الخروج بأسعد جدّ، وأرهب حدّ، وأيمن طالع، وأجمل صنع من أجلّ صانع، وخُطمت النجائب، وقيدت الجنائب، واصطفت الخيول، /81/ وامتلأت الحزون والسّهول، وتوارى[1] الجدّ العاثر، وتبارى الخفّ والحافر، وغصّت الفجاج، وثار العجاج.

**ومنها: في وصف المصحف الكريم**، وبرز الإمام[2]، بين يديه الإمام[3] وأمامه النور الذي يضيء به الوراء والأمام، حبل الله الذي به اعتصم المعتصمون، وحجته التي بها انقطع القوم الخصمون، وذخيرة الخلائف، وبقية العهد السّالف، فهو كما ورد في وصفه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، عاصر الصحابة، وعاشر البقية الطيبة بطابة، وباشرته أيدِ جمعت التنزيل، وأخذته عن الرّسول عن جبريل، فالناظر فيه تابعي بهذا الاعتبار، وله من الشرف بعلوّ الرّواية ما يدنيه من المختار[4]، وقد شهد مع الشهيد الدّار، وكان معه يوم دار ما دار، فهو يصنع الخشوع لمن كان متصنّعا، ويصدع القلوب وإن كان ذلك منها متمنعا، **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدّعا﴾**[5] ولقد حفظت صدقة الوجود لآلئه، وكان الاعتناء الرّباني كالئه، حتى بلغ محلّه، وعقد مع آل القرآن إلّه، فأخذوه بقوة، وجلوا

(1) في ك 233: توالى.
(2) هو الخليفة الرّشيد.
(3) هو المصحف العثماني. وفي هذه الرسالة صورة واضحة عن النظام الذي تكون عليه محلات الموحدين والترتيب الذي يسيرون عليه أثناء تحركاتهم لغزو أو سفر، إذ كانوا يجعلون أمام الخليفة راية بيضاء كبيرة عالية تبين موقعه من العسكر ليعرفه من يروم قصده، ويليها المصحف العثماني موضوعا في قبّة من حرير محمولا على أضخم جمل، يليه بغل من أفره البغال يحمل كتب الحديث الصحاح، ويليه الخليفة في صدر الجيش والعساكر عن يمينه وشماله. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج 1، ص 168-169.
(4) في الذيل: فالقارئ فيه للكتاب المنزل، يحل محل آخذه عن الصدر الأول.
(5) الآية رقم 21 من سورة الحشر.

منه أيمن[1] عروس مجلوّة، ﴿فلا يمسّه إلّا المطهّرون﴾[2]، ولا يلي أمره إلّا الذين هم بحكمه يظهرون[3].

ومنها: **في وصف المحلّة:** وصلناها والشمس يتبيّن زوالها، وطهارة المكتوبة يتعيّن استعمالها[4]، وانتهينا إلى المحلّة، وهي روض يثمر خيلا وأعنّة، وبحر يزخر قنًى وأسنّة، وذوائب الأعلام تخفق، وألسنة عذاباتها تكاد بالنصر تنطق، والأحوال قد استقامت، والأخبية على القاعدين فيها قد قامت، /82/ وهي مبيضّة كسقيط الثلج[5]، مصطفّة كبيوت الشطرنج، وأطللنا على أفراق[6] فراق، وأعار ذلك الجوّ الإشراق، وقيل هو أُمّ لتلك البنات، مدينة لم تشدها بل لم تشنها أيدي البناة، قصر ما أبصرته بُصرَى، وإيوان كم تمنّى كسره كسرى، وصنعة أعي أمرها المهندس، وأخفى صباحها الحندس، سور باطنه وظاهره رحمة، وحاضره يكتنفه فضل من الله ونعمة.

وبتنا هنالك نلتقط درّ الأنباء، ونحتلب درّ النعماء، وعند السّحر دعا الدّاعون وطرّبوا، وأنشدوا وأغربوا، وانتهت النوبة إلى آخرهم فدعا وأحسن، وقرأ ثم أذّن، وقضيت الصلاة، وارتفعت بقراءة الحزب الأصوات، وكان المسير في يوم احتجبت سماؤه، وتوارت في سجف الغمام ذكاؤه.

إلى فلانة[7] نزلناها وقد سرت السّرّاء، وضربت هنالك القبّة

(1) في الذيل: أشرف.
(2) الآية رقم 79 من سورة الواقعة.
(3) عن هذا المصحف العثماني انظر: ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج 1، ص 158 وما بعدها. المراكشي، المعجب، ص 366. المقري، نفح الطيب، ج 1 ص 605 وما بعدها. محمود بوعياد، الرحلة العجيبة للمصحف العثماني في المغرب والأندلس، وما بها من مصادر.
(4) يريد الوضوء لصلاة الظهر.
(5) تشبيه مجمل ذكر المشبه والمشبّه به والأداة.
(6) أفراق أو أفراك بالكاف التي بين الكاف والقاف، وهي كلمة بربرية معناها السياج المصنوع من الكتان يديره السلطان على فساطيطه وفازاته ليتميز بها عن أخبية الجند. ابن خلدون، المقدّمة، ص 282.
(7) لقد عدّد ابن عميرة في هذه الرّسالة المراحل التي قطعتها المحلة من سلا إلى مراكش مشيرا



الحمراء[1]، حديقة هي قيد الحدق، وعروس جليت في مرط من الشفق، ومنزل بالبركة يعمر، ومنظر فيه يقال الحسن أحمر[2]، فيا لأديم يروق لونه القاني، وعنوان على ضخامة الملك لا يرتاب فيه القاري، وعند العشيّ ردّت إلى خدرها العروس، وغابت فذهبت في أثرها النفوس، وكان الظعن فطوينا فلانة على استعجال، ونزلنا منها على أميال.

ومنها: وأصبح الجمع على النّهر يرتّب الأمور، ويروم العبور، وضربت هنالك القبّة الحمراء، وقام بين يديه الكبراء، ففازت به تلك الفازة، وأمكنت بفضل الله الإجازة، فعبر في الزورق، كالبدر في صحن السّماء الأزرق، وفرغ الناس من ذلك الشغل، وحصلوا في فلانة بالكثر /83/ والقلّ، وقسم بينهم التضييف فأوقدوا وأججوا، وطبخوا وأنضجوا، وأحكموا وجوّدوا، وأكلوا وتزوّدوا، وأقاموا هنالك يوم كذا جمعا بين استماحة العطايا، وإراحة المطايا.

وبعد هدءٍ من اللّيل كان الإشعار بالتبكير، والرّحيل في ثلث اللّيل الأخير، فسرنا وللّيل دجنة ونور، وللقمر إخفاء[3] وظهور، وملاءة الغيم تبسط وتطوى، وشعاع القمر يضعف ويقوى[4]، وأعلن المؤذنون بالدّعاء إعلانا، وقطعوا تلك المسافة تسبيحا وقرآنا، فألانوا قلوبا، وأنالوا مطلوبا، وهدوا سبل الرّشاد، وأتوا بما شاق من الإنشاد، ثم كانت الصّلاة بالغلس، وبين القوم من الوجه المبارك أضوأ

=
إلى المدن التي تمرّ بها أو تنزل فيها، وقد حذف جامع الرسائل أو ناسخها أسماء هذه الأماكن واستبدلها بفلانة، ولكننا نعرف من صاحب المعجب وصاحب نزهة المشتاق أنّ المسافة بين سلا ومراكش هي تسع مراحل. المراكشي، المعجب، ص 507. الادريسي، نزهة المشتاق، ج 1، ص 236 وما بعدها.
(1) يقصد قبّة الخليفة الرّشيد.
(2) الحسن أحمر: مثل عربي ومعناه: من طلب الجمال احتمل المشقّة. وإذا أخضبت المرأة يديها وصبغت ثوبها، قيل لها هذا، أي أنّ الحسن في الحمرة. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 276.
(3) في ك 233: اختفاء.
(4) طباق الإيجاب بين "الدجنة والنور" وبين "إخفاء وظهور" وبين "تبسط وتطوى" وبين "يضعف ويقوى".

قبس، وحضر قراءة الحزب فتراسلوا وتواصلوا، وأذهبوا غلظ القلوب واستأصلوا، ثم كان السّير الحثيث، وبنعمة الله سبحانه التحدث وعنها الحديث، إلى فلانة وهنالك استرحنا من السّرى، وأخذت العيون حقها من الكرى، وبعد صلاة الصّبح كان الرّحيل، وقد وضح السّبيل، وتمادى الوخد والذميل[1].

إلى فلانة وصلناها ظهر يوم الاثنين، وقد حصلنا على قرار النفوس وقرّة العين، لكن نزلنا على ماء يشبه ماء البحر[2] إلّا أنه كدِرٌ، ويَعِدُ رفع الحدث لولا أنه قذر، فوردنا منه موردا لا يفي بشفاء الشفاه، ولا يحمل أوصاف المياه، وبتنا هنالك والرّغاء للصهيل مجاوب، والمكاره ما منها إلّا مباعد مجانب، وظعنّا واللّيل قد ذهب شطره، والفجر لم يانِ أن يكتب في صحيفة الأفق سطره، وكان العمل على ما تقدّم، وجدّ بنا السّير حتى بلغنا المخيّم، ثم /84/ سرنا يوم كذا في أرض يظل الأظل بها داميا، وتشكوها السّنابك والمناسم فلا تجد مداويا، يشقى بها الناعل وغير الناعل، ويلقى منها القدم ما يلقى المفعول من الفاعل.

وكان النزول بفلانة والصّومعة تشير إليها الأكف، والأشجار يروق ورقها الملتفّ، وعلى العيون قد حُظِر النوم، والمشتاق يقول لم يبق إلّا اليوم، وخرجت الطّرف من البلد في الأوعية الكثيرة العدد، من رطب كالشهد المذاب، وعنب مثل الثنايا العذاب، ورمّان شكله من النهود، وحبّه في لون الخدود، إلى غير ذلك ممّا تأنقت فيه الطّهاة، وتركت له المطاعم المشتهاة، وقامت الأسواق، وأقامت الأشواق، وبات الناس يأخذون للدّخول أهبته، ويرتّبون له رتبته[3]، والصّافنات تسرج، والمصونات تخرج، وقدّرت الساعات، وأخذت الارتفاعات[4]، وطلع القمر والغمام يخفيه، والرّذاذ لخفّته يتمارى فيه، ثم لاح ابن ذكاء، وملّت عين الغيم ذلك

---

(1) الوَخْدُ والذميل: وهما ضرب من سير الإبل مع سعة الخطو في المشي. وخد البعير يخد وخدا: أسرع ووسّع الخطو. وذمل يذمل ذملا. لسان العرب، ج 3، ص453، وج 11، ص 259.

(2) تشبيه مجمل ذكر المشبّه والمشبّه به والأداة.

(3) كان هذا الاستقبال من طرف أهل مراكش للخليفة على مشارف المدينة.

(4) يريد وصول الخليفة إلى حضرة مراكش في الوقت المناسب الذي أشار به الفلكيون.



البكاء.

فسرنا وأشعة الضوء هادية، وصلّينا وزهر النجوم بادية، وأقبل النهار فأقبل الناس للّقاء، وملأوا سعة ذلك الفضاء، واصطفت الأكابر للسّلام، وأحاطوا بالإمام كهالة الغمام ببدر التّمام، ودنوا منه على مراتبهم المعلومة، واستووا في لحظاته المقسومة، فسلموا ولثموا، وقالوا بما علموا، ودعوا على العادة، وقالوا على الخير واليمن والسعادة، فكان الرّدّ جميلا، والسّير قليلا قليلا، وترادف الخارجون ركبانا ورجّالة، وازداد المنظر بهجة وجلالة، إلى أن انتهى من قصبة داره /85/ إلى الباب العجيب في شكله ومقداره[1]، ومن هناك دخل إلى المسجد الجامع متقدّما بتسبيحه واستغفاره، ومقتديا بالرّسول[2] صلّى الله عليه وسلم إذا انصرف من أسفاره[3].

ثم ركب وقد حفّت به السّعود، إلى رحبة القبة التي فيها القعود، فوقف حين توسّطها، وسرّ ببشره النفوس وبسطها، وهنالك قضى حق السلام، من حوله من الأكابر الأعلام، ودخل المنزل على هيئته، وقد رأى ما سرّه في أهل مدينته، وقعد الحاضرون على طبقاتهم، في وقت كان أطيب أوقاتهم، وأتوا بالموائد غرائبها تُصف، وعرائسها تُزف، فعارضت الطّوى مروّعة، وعرضت الألوان منوّعة، من كل حاملة ولود، حافلة ليوم مشهود، اشتملت على صحاف الباجات، وصحاح الدّجاجات، وشهيّات القدور، ومشويّات التنّور، وما لم يذكر منها أكثر من المذكور[4]، وكان اليوم من أيّام الدّهر، وفيض بركاته مدّ آخر الشهر، زخر بعبابه، وما دافع أحد عن بابه.

اللّهم أوزعنا شكر نعمك وأدناها لا نطيق حمده وحمله، وأولاها بالشكر ما عمّ الإسلام وأهله، ولا نعمة أصحّ إلماما، وأسحّ غماما، وأتمّ إحكاما، وأحكم

---

(1) لعله يشير إلى الباب الرّئيسي لقصبة المدينة الذي كان يدعى باب القصر.

(2) في ك 233: رسول الله.

(3) يريد أداء سنّة صلاة السفر، لأنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم كان إذا قدم من سفره بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين.

(4) هذا وصف لحفلة الاستقبال الفاخرة التي أقيمت بهذه المناسبة.

إتماما[1]، من النعمة بالحضرة التي هي ظلّ الله على خلقه، وسيفه المقول فيه من يأخذه بحقّه، فلئن صدق القتال بالسيف النبوي سماك، فهذا ليد القدرة بقائمه إمساك، وعن خطبة الرّوح والملائك له مع عقائل الممالك إملاك.

والله يزيد صفحته بهاء، وحدّه إمهاء، ويعجّل بقراره لأجل الكفر وداره انتهابا وانتهاء، ولما قيل إنّ شكر النعمة من شكر المنعم، ومنزلتها /86/ منه منزل[2] المترجم، كان الاعتمال في شكر الحضرة العلية أولى واجب قامت عليه الأدلة، وأقامته الأقلام المستملئة والقرائح المملّة، وإن كان المدى لا عمل فيه للشّمال إذا تهبّ، فضلا عن الشّملال حين تخبّ، فلا بدّ من مسير وإن ضاق عن فتر، ولياذ من العجز بظهير صاحبه تحت ستر، ومقام الرّحمة يرحم مقام الضعفاء، ولا يطلب ما في أطراف العيدان من عيدان الطرفاء[3].

– 66 –

## مدح أبي زكرياء الحفصي والتشوّق إلى الهجرة والانتقال إلى حضرته

[الكامل]

عتب الزمان عليه حتى أعتبا ... وأتاه يجلو العذر عمّا أذنبا
وعلى تناوله بما هو مسخط [أغضى] ... وطال على الرّضا ما أغضبا[4]
لا ساعدته خطوبه متصعّبا في ... حبّه ومع القلى متصعّبا
كانوا يقولون الزمان مؤدّب ... لكن زمان نحن فيه تأدّبا[5]
ورأى الفضائل حيث ترفع كعبة ... للطائفين وكيف تدرس مذهبا
[فمتى] اقتنى منها يقيم مخيرا ... ومن انتفى عنها يقام مخيّبا[6]

(1) في ك 233: تماما.
(2) في ك 233: منزلة.
(3) سترد خاتمة هذه الرّسالة مكرّرة تحت رقم (145) من هذا السفر.
(4) في ك 233: أرضى.
(5) استعارة مكنية شبه فيها الزمان بالإنسان.
(6) في ك 233: فمن.



في حضرة الملك المقدّسة التي ... أعيى الأنام بمدحها من أطنبا[1]
وبدولة لا مهربا يجد الورى ... عنها ولا فيما سواها مرغبا
فلئن تنكّر كيف شاء فهديها ... بسناه عن تلك السبيل تنكّبا
و[درى] ترصّدها لحيلة ختله ... فإذا تهيّأ للوثوب تهيّبا[2]
وهي الإمارة من يغالب أمرها ... فهو الجدير وإن غلا أن يغلبا
الله أعطاك الكمال وزانها ... بحلى المحامد شاهدا ومغيّبا
وحبا بها ملك الملوك وما درى ... أعلى من المحبوّ إلّا ما حبا
يحيى بن عبد الواحد بن المرتضى ... عمر وتسمو الشمس عن أن تنسبا[3]
/87/ تفديه أملاك الزمان فما نرى ... أحدا أحق بذاك منه وأوجبا
وهبوا وما يرضى بهم بكل ما ... وهبوا لأهون من أتى مستوهبا
بالملك يجمعهم إياه كما جمع ... الجناح مع العقاب الجندبا
من معشر ما جوزوا في رتبة ... كلفا بها حتى تجوز الكوكبا
قبل السُّؤال حبوا كرائم ما لهم ... إذ ما استحقت عندهم أن تخطبا
كرم أبى إلّا رسوخ عروقه فيهم ... وأن يقفو عليه ابن أبا
وشواهد للفضل بيّنة أبت ... في غير غُرّ وجوههم أن تكتبا
فاخبر ثناء بالعبير مطيبا ... وانظر علاء بالعبور مطنّبا
وأعجب لعلوّي الجواهر خالصا ... في العالم السّفلي كيف تركبا
ولرابع الأفلاك راتب نوره ... فيما حكاه من الأقالم رُتّبا[4]

(1) حضرة الأمير أبي زكرياء الحفصي.
(2) في ك 233: رأى.
(3) هو مؤسس الدولة الحفصية الأمير أبو زكرياء يحيى بن أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي. وقد مرّ التعريف به في هامش سابق.
(4) من المعروف أن الجغرافيين القدامى قد قسّموا المعمور من الأرض إلى سبعة أقاليم في اتجاه خط الاستواء، وكل إقليم إلى عشرة أقسام، ووصفوا الإقليم قسما بعد قسم من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب. وفي غرب الإقليم الرابع، وهو أوسط الأقاليم السبعة، تقع بلاد المغرب وافريقية. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص 137.

بحمّى أبيح المال فيه فلا ترى / شيئا سواه خائفا[1] مترقبا
وجدت به الآمال أخصب نجعة / ما غيرها أجدى على من أجدبا
بمبارك نال السّماء بهمّة لم / ترض إلّا الشهب منها مركبا
إن جئت سائله وسائل جوده / تلقى سعيدا عنده ومسيّبا
والخطب نازله براية رأيه / تبصر عليا يوم نازل مرحبا
بشرى ونعمى جاءتا متمنيا / بهما حكى بعقيلتيه المصعبا
ومواهب كالقطر ليس يضرّنا / معها ملثّ القطر ألّا يسكبا
برّا توافينا وبحرا إن جفت / أيدي المطايا أو جفت ريح الصّبا
كان الرسول إليّ عنها ما أرى / منها فأهلا بالرّسول ومرحبا
لبّيك داعيها وخذ بي مذهبا / نحو المكارم للمكاره مذهبا
واقبس لليل سُراي من أفق / العلى نورا أضاء مشرّقا ومغرّبا
واحذر على عين سناه فلم / تطق لمعانه عين تقاسي الغيهبا
نمشي بعزم زاجر في زاخر / ما سيم صعبا غيره إلّا أبا
/88/ وأمامنا بحر يعبّ وتحتنا بحر / به إن قيس يوجد مذنبا
إنا لنرجو من أجاجهما يدا / تأتي بنا بحر السّماح الأعذبا
ونروض منه ظهر صعب إن ترض / ظهر المطيّ نجده أوعر مركبا
نخفي ونظهر في غواربه فقل / في مثل فقع القاع أو نبت الرّبا
حسب الأماني منزل فيه الندى / وإلباس ثابا بالزجال[2] وثوبا
فيه لباغي الرفد جود يطّبي / ولديه للأعداء حدّ يطبا
كالسيف صفحته تروق نواظرا / ولربّما جدع الأنوف فأوعبا
يا أيها الملك الذي لم يبق في / آثار من ملك الورى متعجّبا
لأرحتهم في ما اقترحت من العلى / وسواك إن مدحوه قالوا أتعبا
لا يطلب الميئوس منه وكل ما / علق الرّجاء به حرٍ أن يطلبا

(1) في ك 233: خافيا.
(2) في ك 233: بالرّحال.



كم جامح ألقيت بعد تخمّط في / أنفه بُرة الصغار فأصحبا
ولربّ ماضي الغرب جرّأه / على عليائك طول الحلم حتى جرّبا
فرأى يدا فرّاسة بزت فما نابا / ولم تترك لكف مخلبا
حقّ الممالك أن تعدّك كاسبا / وتعدّ جملة ما بها لك مكسبا
وتطيعك البيض الرقاق مجدها / إن أنت لم ترد المضاء له نبا
فالمجد والعلياء لولا أنت يا / أسنى سليل منهما ما أعقبا
وإذ هما ولداك في زمن به عقم / الكرام فقد وجدّك أنجبا

عبد الحضرة أبقاها الله تأخذ عطايا الفتح مسلّمة، وتتلقّى أمداد السّماء مردفة ومسوّمة، يقعد من صريح العبودية لها بين السّحر والنّحر، ويقبّل ما بينه وبينها من بساطي البرّ والبحر، ولا أمل للعبد يدخل في زمرته، ويقرن حجّ الرّجاء بعمرته، إلّا في أن تتم له هجرته[1]، وينتهي عمله من حيث ابتدأت فكرته، وعين المدلج إلى واضح الصّباح، وسؤال /89/ المجدب عن لواقح الرّياح.

ومنذ أمكن التخلّص من قيد الضرورة، وانحتمت عزيمة الحج على الضرورة، جعل العبد إلى الباب الكريم وجهه، ولم ير إجزاءً لصلاة الأماني لو كانت عن منكر التواني لم تنهه، فعاقت الأحوال غريما يلحّ، ومحدّثا عن البحر بما يصحّ وبما لا يصّح، ولم يزل يتوعّر في أيده وقهره، ويتوعّد بضيق صدره وعدو ظهره[2]، وفي صدر القطع المباركة كانت النيّة في الورود[3]، والتفصّي عن عهده

(1) منذ أن حلّ ابن عميرة بسبتة سنة 646 هـ/1248م وهو يحلم بالهجرة والانتقال إلى افريقة مثلما يحلم كلّ مؤمن بزيارة البقاع المقدسة كما يبدو من استعماله لهذه الألفاظ. وهو ما أجمله صاحب الذيل في العبارة التالية: ولم يزل مذ فارق جزيرة الأندلس معمور الخاطر بالتخلّص إلى بلاد إفريقية. ابن عبد الملك، الذيل، ج 1، ص 179.
(2) لم يتمكّن ابن عميرة من تلبية دعوة الأمير أبي زكرياء الحفصي إلى تونس بسرعة كما كان يريد لأنّ الأحوال أعاقته عن ذلك، كما لم يُخف تهيّبه وتخوّفه من ركوب البحر.
(3) يشير إلى الأسطول الحفصي الذي رجع إلى سبتة من إشبيلية سنة 646 هـ/1248م إثر الحصار الذي ضربه النصارى على إشبيلية في هذه السنة وانتهى بسقوطها في أيديهم في 27 رمضان من السنة نفسها. وحاول ابن عميرة، الذي كان يومها مقيما بسبتة عند أميرها ابن خلاص، أن يسافر على ظهر هذا الأسطول ولكنه لم يتمكّن من ذلك، إذ لم يجد مكانا فيه
=

القعود، فإذا لكل حاملة تمام، وعلى كلّ مستودع ختام[1]: [الطويل]

وفي الحضرة العليا أمانيّ ما لنا ... إلى غيرها ميل ولا دونها صبرُ
وفي ظلّها نبغي الثواء وما لمن ... شكى الجدب إلّا أن يلمّ به القطر
ومذ صدّ [عنه] البحر لم ير محسن ... مديح جواد أن يقول هو البحر[2]
كما أنّه مهما أباح سبيلها ... فلا جوّه جونٌ ولا ماؤه مُرّ
وإنّي لأرجو أن أفوز بهجرة ... تقرّ بها عين ويشفى بها صدر
إذا قضيت أنشرت من منزل البلى ... حياة على ما ساء منها مضى العمر
وبشرت آمالي بملك هو الورى ... ودار هي الدّنيا ويوم هو الدّهر

– 67 –

## وله من رسالة في الودّ والإخلاص

تخصّك حفظ الله ودادك، وأعطاك من فضله وزادك، تحية أخ لك لم تلد[3] أمّك[4]، أو أب بين أحناء الضلوع يضمّك، وودّك قياسه من الشكل الأول، ومسنده نص ليس بالمتأوّل، وجملة ما أقول لهذا الأخ المبرور أنّ عقدي لا شيء يحلّه، وضميري ضميره عليه يدلّه، وهذا البيان وإن دار، فالمحتج به إلى /90/ التحقيق صار، وعن سواء الطريق ما جار، وأبثه ممّا جرى شجنا بدموعي أتبعته، وبين ضلوعي أودعته، وأنّه خطب لا أجد فيه سلوة، ولا أخلي من التلبّس به مجتمعا أو خلوة.

---

لأنّه كان يحمل عددا من الأندلسيين المهاجرين إلى تونس. عن وصول الأسطول الحفصي إلى سبتة وإشبيلية وعودته إلى تونس، وظروف حصار إشبيلية وسقوطها، انظر: ابن عذاري، البيان (القسم الموحدي)، ص 378 وما بعدها. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 345 وما بعدها.

(1) إلى هنا ما تقدّم من منثور هذه الرسالة مع البيت الأول من القصيدة سيرد مكررا في الرسالة رقم (242) من السفر الثاني من هذا الكتاب.

(2) في ك 233: عنها.

(3) في ك 233: تلده.

(4) يريد المثل العربي القائل: رُبّ أخ لك لم تلده أمّك. وهو للقمان بن عاد. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 407.



– 68 –

## عدم كفاية المال الموزّع على الجند والموظفين

فكَتب كتب الله لكم علاء المقدار، ومساعدة الأقدار، من فلانة وبركات الحضرة المباركة تجوب الأرضين، وتجيب المتعرّضين، والحمد لله على ذلك. ووصل الخطاب الكريم وصل الله علاء مظهره، وشرف مصدره، يقتضي تنفيذ بركة[1] الموحدين برسم الإحسان الذي تفجّرت ينابيعه، وأرضى الأحوال وروّض الآمال ربيعه، والله يجزي النظر العلي خير جزائه، ويوزع شكر نعمه وآلائه.

وعندما ورد الأمر بذلك بادر[2] إلى الامتثال، وتيسير ذلك القدر من المال، مبادرة مثله ممّن يعرف موقع هذه النعمة، ويستفرغ مجهوده في إقامة رسوم الخدمة، وكان قد أعدّ ببركة عيد الفطر[3] على أن يضم الأطراف ويستقصي البقايا فصرف ذلك المجموع لهذا الوجه المبارك حتى تهيّأ ببركة الخدمة عطاء ما أمر به محضرا في اليد، غير متأخر يومه عن الغد، فوقعت النعمة موقعها الهنيّ، وشكرت الألسنة مقصدها العليّ السنيّ.

وبقيت البركة المستحقة لا وجه لها تجمع منه فهذا الفصل كما تعلمون فيه نضوب الموارد، وانقطاع الفوائد، وتعذّر البقايا إلّا ما يقل مقداره، ويتعذّر إحضاره، فعجّلت المطالعة بذلك ليرى النظر الكريم رأيه في تكييفها، وتعيين جهة أخرى /91/ لتكليفها، وتعلمون وصل الله علاءكم أنّ العادة بمثل هذا جارية، وبركات الحضرة

---

(1) البركة: شكل من أشكال الرواتب على عهد الموحدين كان يُدفع للجند والموظفين ثلاث مرات في السنة في كل أربعة أشهر مرّة. عز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي، ص 288.

(2) لم نتمكن من معرفة اسم المكتوب عنه المكلّف بتوزيع الأموال، ولا المكتوب إليه، ولا المكان الذي كُتبت منه الرسالة، بسبب البتر في أولها وتصرف جامع الرسائل أو ناسخها.

(3) وهو ما يؤكّد أنّ الرسالة كتبها ابن عميرة عن عامل إحدى مدن الدولة الحفصية التي أقام فيها أو تولّى قضاءها مثل قابس والأربس وغيرهما، لأنّ البركة أصبحت تُوزع في النظام الحفصي أربع مرات في السنة، في العيدين وربيع الأول ورجب حسبما ذكره القلقشندي في صبح الأعشى، ج 5، ص 140.

العزيزة من بعض بلادها إلى بعضها سارية[1].

ومُعظِّمكم على قدم الجدّ قائم، وعلى رفض الهوينا في أمره كلّه عازم، قد عرف أنّه وقت الخدمة التي إن تناولها أحد بيد تناولها هو بكلتي يديه، وإن أخذها بأنامله حملها هو فوق رأسه وعلى منكبيه، وذلك أقل ما يلزمه في حق النعمة التي في روضها رتع، وعلى خيرها وقع [2].

وقد رأى الكاشح منها ما صار له ولأمثاله قذى العيون وشجى الصّدور، وأثار من كامن الحقد ما يدعو لنصب الغوائل وقول الزّور، ولا ذنب إلّا نعمة إن قصّر في شكرها فقد علم الله منه نيّة من التقصير بريّة، وطريقة بأوصاف الصّدق والخلوص حَريّة، فإن حضر أو غاب، أو أطال وقصّر الخطاب، فمكانكم المبارك مظنّة الفصل المعهود، وفيصل التفرقة بين المقبول والمودود، لا زال نظركم يطبّق المفصل، ورأيكم لا يعدو الرّأي المتمكّن المتأصّل.

– 69 –

## رسالة في العتاب والتهديد

أيّها الخلّ الذي بحبّه غُذِيت، وفيه وفي أبيه أُذيت، أرى وفاءك عمّاريا، وجزاءك سنماريا[3]، وعهدك لخضيب البنان، وتمايلك من قضيب البان، أملأ سجلك وتريق رشحي، وأبري سهمك فتعمد به كشحي، وأنصح لك وقد غششتني، واسترقي لك وطالما نهشتني، فمهلا أيها الظلوم، وحسبي منك هذه الدّناءة واللّوم، حتى مَ رِضًى بضيمك، وجمر غضًى يلفح /92/ من غيمك، وإلى مَ أغلي في فدائك، وأغضي على أقذائك، تنثر وأنظم، وتغيظ وأكظم، وتكدّر فأصفو، وتبدر فأعفو.

(1) يريد أنّ الموارد المالية التي جُمعت في هذه المدينة وتمّ تقسيمها على مستحقيها لم تكف، وعليه يتوجّب البحث عن موارد إضافية في جهات أخرى من الدّولة لمعالجة هذا النقص، وهو نظام كان جاري به العمل في الدولة الحفصية.

(2) جناس ناقص بين "رتع ووقع".

(3) يريد المثل العربي القائل: جزاء سنمار. يضرب لمن يكون جزاء إحسانه الإساءة. وسنمار رجل رومي بنى الخورنق بظهر الكوفة للنعمان بن امرئ القيس، فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه فخرّ ميتا. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 220.



لقد آن أن أبدي تجهّمي، وأفوق أسهمي، وأمنع لامسي لين الصّفوح، وأطرح على لابسي حلّة ذي القروح، فأشفي صدرا طالما أوغرته، وأرفع حقا بجفائك صغّرته، فاذهب بالذي أغمدت قد سللته، وما كنت أجمدته فإنّي أسلته، وقد آذنتك الآن بحرب[1] تشقّ على متجشّمها، وتدقّ عطر منشمها، وتخرج الحليم إلى السّفه، وتحمل الوقور على الوله، عوانها يبطل شنشنة الجليد، وأوانها يبرز شقشقة البليد، وستعلم إذا حلقتا البطان التقتا، وحملتا اليد واللّسان صدقتا، أيّ غويّ أطعت، ووليّ قطعت، وعلق بعقوقك أضعت، وسلاح على[2] عاتقك وضعت، هناك تدعو ثبورا، وتلتفت إلى جدّك فتراه عثورا، ونحو حدّك فتجده مكسورا مكثورا.

– 70 –

## وكتب يجيب صديقا بالغ في العتاب

من العتاب أعزّك الله ما يجلو القذى، ومنه ما يجلب الأذى، وماؤه تارة يطفئ الحرق، وربما أورث الشرق، وأرى عتابك قد جرّعني الأمرّين، واستقبلني بشرّ الأمرين، وتناوَلتني من خرذله بسعوط، ورميتني[3] من جندله بجلمود على سقوط، فإن كنت أردت به أن تزيد ليل غمّي ظلمة، ولسان حالي عجمة، وفراش نومي إقلاقا، وفَراش يومي إحراقا، فكل ذلك قد نلت، وبمقتضى هواك منه عملت، /93/ وما أحسبك إلّا أفكرت[4] فيما يصدع حصاتي، ويجمع منغّصاتي، ويبسّ جبلي، ويبتّ جذلي[5]، ويفسد معاشي، ويستوفي إيحاشي، فلم تجد غيره أدخل في

(1) إنّ أغلب رسائل ابن عميرة في العتاب يدور حول تأخير المكاتبة أو قطعها، وغالبا ما يعاتب برفق ورقة ولين، وأحيانا يُخرج العتاب مخرج المداعبة، ولكن في هذه الرّسالة ضاق صدره ونفذ صبره فثار على المكتوب إليه وخرج من نطاق اللّوم والعتاب إلى نطاق التهديد والهجاء، لأنّ فيما يبدو الإساءة والدناءة تكررت.

(2) في ك 233: عن.

(3) في ك 233: رماني.

(4) في ك 233: فكّرت.

(5) جناس ناقص بين "جبلي وجذلي".

باب الإعياء، وأكثر جمعا لهذه الأشياء.

فلقد هممت فأصبت، وهشمت إذ حصبت، وقدّمت لأكيلك مُرارا، وبالغت في تنكيلك مرارا، ولا كهذه الواحدة التي أربت على المعلوم، وأجهزت على المكلوم، وانتهى سهمها إلى الشغاف، وزاد سمّها على السمّ الزعاف، وكنت استكفّك لو أبقيت منّي ما يبغي الكفّ، وأستبقي بعض مائك لو لم يكن شربك له قد اشتفّ، فقبل يأسي من دعوى خيرك من أملي يئست، وبعض[1] مرضي من عدوى عدّك ها أنا ذا قد نكست.

-71-

## رسالة إلى أحد إخوانه في عتاب وهجاء كاتب ينتمي إلى الفلسفة

كتبته أيّها السّيد الذي عتابه عندي حياة، وكتابه لقلبي مسلاة، وأنا في كلّ حال من عليه كرمت، وفي عينه عظمت، وعلى الثقة والمقة يحمل ملامك حين لمت، ومنحاك الذي عليه حمت.

وافتني مخاطبتك المبرورة وحلاوتها ماذية، وحلّتها بغدادية، ولمسها كأنّه خزّ، ومسّها ليس له وخز، فوجدت لوكها يحلو بين لحيَيّ، وشوكها يجلو شكو[2] عينيّ، فإن غمر[3] فلأصلح ثقاف، أو غمس ففي ماء غير مضاف، بل هو طهور تخرج الخطايا مع آخر قطره، وتشدّ المطايا لما يستخرج من قعره.

وذكرت خبر المدلّ بسعة وفره، الدّال على صفة قدره، المرخي لعنان ظلمه، المتسخّي /94/ بما ليس في حكمه، وإنّه خضع بسبّه، ووضع من محبّه، وقلّم عن كاشحه ظفره، ونثر في أعاديه بيضه وصفره، وهو مع ذلك ينطح بروقه الجماء، ويعيب بالنطاق أسماء، وبالكواكب ذات الإشراق والسّماء.

(1) في ك 233: وبعد.

(2) في ك 233: شكر.

(3) في ك 233: غمز.



فما عسى أن يقال في كاتب يقف قلمه[1] على الأبواب مستكينا، ويقعد بين الأقلام مهينا، ويرى عارا عليه أن تباشر أداته يمينه، أو تضم دواته جنينه[2]، فهو يغضّ الطّرف من الحياء، ولا يدري فرقا بين ذوات الواو والياء، يتمنّى مع ذلك الادّعاء، لو كان من يرعى الرّعاء، وينظر إلى مطالع الخلاص، ولو نقل لصانع الأقفاص، ولكم رام منه فقرة تطلق لسانه، وتظهر إحسانه، فلا يأتيه منها إلّا ما يسخن مناظر عينه، ويزيده شينا إلى شينه.

فقد شاهدناه وفي شماله الدّرج الضائع، وبيمينه القلم الضّارع، والدّواة بين يديه، والعيون ناظرة إليه، وهو يتقاعس ويتثاءب، ويتعاصب ويتواثب، ويحدّث بما ليس من خبره، ويعبث بما تطاير من شَعره، والذهن شعاع مفترق، والقلم بالمداد غصّان شرق، والفِقَرُ صمّ بكم، والألفاظ ليس له عليها حكم، حتى إذا أعجله المستحث، وقد حلف له وخاف أن يقع الحنث، أثبت ما لا معنى له فيلج الأذهان، أو هو ذو معنى يضحك الثكلان، أفما يذكر هذه المواقف الفاضحة، والأدلة الواضحة، فيعلم أن عائبه يجد معايب جمّة، ومنتشفه لا يجد من الشيم الإنسانية شمّة[3].

وأما أنا فما أقمت عليه شهادة، ولا نسبت إلى رأسه زيادة، ولا أضَحْتُ قط لتلك السّفسفة ولا رضيتها ممن ينتمي إلى الفلسفة، ولطالما أفحمته بآدابها /95/ وأقحمته على أبوابها، وهو يعرض على المعاتب، ويتفيهق في تلك المعائب، فالآن صوّب رأيه في هجائه، بما نزع عنه من هيجائه، وقدّم من أمسك عن ذمّ شيمته، بما جرّ عليه من شتيمته، فيحقّ لِوَاسمه بتلك السّمات، أن يغمز الآن بعين الشمات، ولمن وقف منه موقف المعارك، أن يهزّ الآن عطف المتضاحك.

(1) استعارة مكنية شبّه فيها القلم بالإنسان فالقلم لا يقف.

(2) في ك 233: جبينه.

(3) من الملاحظ على هذا النمط من الهجاء الذي أتى به ابن عميرة في هذه الرسالة أنّ فيه شيئا من البراعة في التصوير الساخر، وقد جاء نثره فيها مقبولا حين خلا من الإشارات والتلميحات. محمد بن شريفة، أبو المطرّف، ص 213.

وما أشار السّيد به في المذكور من طيه على غرّه، والتنزّه من عدوى عرّه[1]، فإرشاد لمسترشد، وناشد أصاخ لمنشد، بل صدقة بيد محتاج، وسراج في إناء زجاج، لما حوله أضاء، وبقضاء الحق سبق الاقتضاء، وقد رضيته حكما لا يبالي غبن الخاسر، ولا يميل مع المقنّع على الحاسر، ووجدت لقوله على كبدي بردا، وأشعرت وسواسي به طرحا وطردا[2]، وازددت بصيرة في رأي الاحتمال والإغضاء، وشكرا على سلامة النفس والأعضاء، فربّ زائد فيها هو نقص، وطويل منها إنما يصلحه قصّ، وأنا لعهده الذي استحفظ ذاكر، ولإيقاظه حين أيقظ شاكر، وقد قدّمت من ذلك ما إن أعدته فالمستحلى معاد، ومتى استظهرت به لم يخطئني منه إسعاد.

– 72 –

## وكتب إلى صديق يعاتبه ويشكو إليه قطع مكاتبته عنه

[الكامل]

| | |
|---|---|
| ما بالـه عـنّا نـأى إقبـاله | وبـنا اسـتخف جـوابه وسـؤاله |
| ولأي مـا سـبب رأى هجـرانه | أولـى بنا فـي حـين لـذّ وصـاله |
| أقطـيعة فـيدقّ عـنها حالـنا | أم غفلـة فـتجلّ عـنها حالـه |
| حاشـاه أن يرضـى بـنقص نـصيبنا | مـنه وقـد بهـر الكمـال كمالـه |
| أو أن يـصدّ بـوجهه وكـتابه | ونقـيض مـا فعـلا بـنا أفعالـه |

هذه شكوى جنّب الله ذلك المجد أن يكون مشكوّا، /96/ وزاده إلى علائه علوّا، هي من الشفيق معروفة، وعن ظاهرها عند التحقيق مصروفة، وإنما جاز إثباتها، ونفثت بها أبياتها، بعد وحشة حنادسها[3] داجية، ووساوسها للضمير مناجية، قلبي بها قلب المكمَد، وليلي بها ليل الأرمد، وأنسي من أجلها كان ماءً فنضب، بل

(1) جناس ناقص بين "غرّه وعرّه".

(2) جناس ناقص بين "طرحا وطردا".

(3) الحِندِسُ: الليل الشديد الظلمة. لسان العرب، ج 6، ص 58.



ذماء فذهب[1].

وقد كانت لي من السّيد عادة حكم بانتزاعها، وصلة فطم من رضاعها، وتركني بعدها أفلس من ابن المذلّق[2]، وعلى نار من القلق كنار المحلّق، أقول لعلّ ومداها ممتدّ، وليت شعري وطريقها لا يفنيه خببٌ وشدّ، وربما افترشت مهاد الاكتئاب، وفتّشت عن الذاتي والعرضي من الأسباب، فلم أجد سوى سوء البخت سببا يكف السّائل، ويصلح أن يكون الفاعل[3].

فقد وجدناه بعد الشمل المبدّد، والشجن المردّد، قرينا لا يفارق، وقريعا لا يغبّ أذاه الطارق، وإذا أوجب ذلك السّير والتقسيم، فليس إلّا الصّبر والتسليم، وترجح حينئذ ترك ما طلبه متعبة، ولم تبق قبل العماد معتبة، فما يجوز أن نسومه خوط القتاد، وخرق المعتاد، وان يصرف الدّهر عن شيمته، ويروض الصّعب في شكيمته، ولكن متى أنس من محارب عزّة[4]، وأحس عند مُحارد درّة.

فعسى أن ينفّس ولو بعجالة، ويقبس ولو من ذبالة، فقد تنوب القرحة عن الغرّة، وتباح الأمة لمن لا يجد طول الحرّة، وسيدي وليّ ما يراه من بذل الميسور، وفكّ أنسي المأسور، وما يطالع به من نعم الله عليه، وخبر يعلم تشوقي إليه، فأنا أعيد ماحل الفكر برعي واديه، وأعدُّ ما يصلني /97/ من بعض أياديه، وحالي على ما يرضيه سلامة في النفس والأهل، وعافية أرجو القرار منها في المنزل السّهل.

– 73 –

## وكتب إلى أديب متكسّب في هجاء أحد البخلاء

[السريع]

(1) يصوّر ابن عميرة كمده ووحشته التي أظلمت لياليها ووساوسه بسبب هذه القطيعة من صديقه.

(2) أفلس من ابن المذلّق: مثل عربي، وهو رجل من بني عبد شمس بن سعد بن زيد مناة لم يكن يجد بيتة ليله، وأبوه وأجداده يعرفون بالإفلاس. الميداني، مجمع الأمثال، ج 2، ص 42.

(3) يتساءل ابن عميرة هنا عن سبب هذه القطيعة، ولمّا كان يحسن الظنّ بصديقه، لم يجد سببا لذلك فأوعزها إلى سوء حظه حرصا منه على إحياء المودة وإبقاء الصحبة.

(4) في ك 233: غرّة.

جناه لا يرقى إليه ولا تطرح      منه الرّيح ما في الغصن

وكيس من يسأله فارغ      من موعد يملأ منه الأذن

قراءة الرّاجي له هل أتى      وهو عليه قارئ لم يكن

ذَكَرْتَ[1] فلانا[2] مارد إخوانه، ومادر[3] زمانه، سراب البيد، وصرابة الهبيد، بل هو صخرة الوادي، وضربة الهادي، وشجنة[4] خضراء الدّمن، وشجن نفوس أهل الزمن، لا بل هو شين النفر اليمانين، وعقدة العشر على الثمانين، وأنك زرته عن عفر، ورزته في مقدار قلامة ظفر، فكان بعد تجمّل شهرين، وتحمّل إضرين، كأهل قرية المجتمعين، على مجمع البحرين، فأبعده الله مريقا لماء الوجه، خليقا للوم النّجر بكلوم النجه، همّته بالقاع القرقر، ووجنته من صفاء المشقّر، لا يزال لبطن الضّيف مجيعا، ولحقّ الجار مضيّعا، ولشح النفس سامعا ومطيعا، وذكرتَ أنّك فارقت جهته، ولا مطيّة إلّا أخمص القدم، ولا زاد إلّا زفرة النّدم، وداء الذّيب من دائك، وغشاوة الطّوى تعمي عين اهتدائك، والخبز سلعة أعيت المستام، وقربة تعدل الصّلاة والصّيام.

إلى أن ألقيت عصى السّير، بعد أن زجرت أيامن الطّير، وقيل لك على البركة والخير، في منزل طعامه سرمد، وسديفه[5] مسرهد، وضيفانه بالثناء صُدح، وجفانه في أيدي /98/ الإماء ردح، عند المحيي من الندى ما صح أديما، وصلح نديما، وكان في عدي بن أخزم قديما، وناهيك من ري لحاتم، وجود يعزى[6] لحاتم، عاقر الطرف والحي على الطوى بائت، وقارئ الضيف والمرعى عليه نابت، وشتان بين اليزيدين، وما خروج الاستسقاء كالخروج إلى العيدين، والأشياء بالضد

(1) يخاطب المكتوب إليه وهو أديب متكسّب.
(2) هو البخيل الذي لم يكرم الأديب المكتوب إليه.
(3) يشير إلى المثل العربي القائل: "أبخل من مادر". وهو رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة، بلغ من بخله أنّه سقى إبله فبقي في أسفل الحوض ماء قليل فبال فيه لئلّا يُشرَب ذلك الماء. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 153.
(4) في ك 233: سحنة.
(5) في ك 233: سديقه.
(6) كلمة "يعزى" ناقصة في الأصل والزيادة من ك 233.



تتبين، والأحساب بالمكارم تتزين، هنالك عاد الخميص بطينا، وصار إلى تمام النّشئ ما كان طينا، وقيل للطارق: تحكم حكم الصبي، والهَ عن ذكر المنزل الوبي والمنزل الغني، فما أسرع ما نسيت البؤس وكسيت ولا ملبوس، وعدمت متاعب السّرى، ونمت بعد أن أرقت ماء الكرى، فاثبت حيث انتهيت، وأسرح فيما اشتهيت، وقد جرب جرابك الفراغ، وعدم وضوءك الإسباغ، وبقيت معدتك خاوية[1]، ومخلاتك خالية، لا تثقل ضَبْنًا، ولا تحمل ولو تبنا، فاملأها من كل ما يضيق مجرى النفس، وجنّبها ما هو مجلبة الهوس، فالطوامير[2] من الطوى لا تنفع، والرّقاع لخرقه لا ترقع، إنما هي جهالة يقطع بها العمر، وحبالة لا يقع فيها إلا الغمر.

وهل أغنت عنك أيام كانت الأيدي عنها تقبض، والصفع على أقفيتها يعرض، والأبواب في وجهها تسد، والأثواب هربا عنها من دبر تقدّ[3]، والشعر إذا كان صحيح الأجزاء[4]، سالما من الخبن[5] والطي[6] والإكفاء والإقواء[7]، وكان يلج على الأذهان، قبل الآذان، ويدير الرؤوس، وما أدار الكؤوس، ميتة تطرح في الحش، وسلعة تقوم بدون النش[8]، فكيف إذا زحف الزحاف إليه، واجتمع اللحن

(1) كلّها كنايات عن أنّ ما يملكه من التكسّب لا يساوي شيئا مع كرامة الإنسان.
(2) مفردها الطّمر وهو الثوب البالي الخلق. لسان العرب، ج 4، ص 503.
(3) اقتباس من الآية رقم 25 من سورة يوسف.
(4) وتسمّى التفاعيل، والأركان، وهي أجزاء البحور الشعرية، وعددها عشر تفعيلات. إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، ص 197.
(5) الخبن زحاف يتمثل في حذف الثاني الساكن من التفعيلة، مثل مستفعلن تصبح متفعلن، وفاعلن تصبح فعلن. المرجع نفسه، ص 222.
(6) الطّي زحاف يتمثل في حذف الرابع الساكن من التفعيلة، مثل مستفعلن تصبح مستعلن ومفعولات تصبح مفعلات. المرجع نفسه، ص 326.
(7) الإكفاء والإقواء من عيوب الشعر، أما الإكفاء فهو اختلاف حرف الرّويّ في قصيدة واحدة، وأكثر ما يقع ذلك في الحروف المتقاربة المخارج. وأما الإقواء فهو اختلاف حركة الرّويّ في قصيدة واحدة، وهو أن يجيء بيت مرفوعا وآخر مجرورا. الخطيب التبريزي، الكافي في العروض والقوافي، ص 116.
(8) جناس ناقص بين "الحش والنش".

والكسر عليه، وحمل من المعاني /99/ أغثها، ولم يُكس من الألفاظ إلا خَلِقها ورثّها، أتراه يفتح مبهما، أو يستخرج من جواد درهما[1].

– 74 –

## رسالة في الشكوى من سوء حظه مع خطتي الكتابة والقضاء بمدينة سلا

[الخفيف]

قد نسبنا إلى الكتابة حينا … وأتت نسبة القضاء تليها

وبكل لم [يبق] للحظ إلا … منزلا نابيا ومرعى كريها[2]

نسبة بُدّلت فلم تتغير … مثل ما يزعم المهندس[3] فيها[4]

وإنما القلم كليل في معناه، كَلٌّ على مولاه، إن حملته الأذن شان، أو أمسكته اليد بلّد الأذهان، وإن مشى على القرطاس ظهر عثاره، أو خلي والقول لم يؤمن إكثاره، ذباب يمقت ويمقل، وضباب لا يستسقى بل يستثقل، وإن كانت خطته[5] عالية، وبشرف الذكر حالية، فلأهلها دواه تحت الثرى تُدسّ، وبالمكروه من جميع الوجوه تُمس، وقد نجد أصحاب المحاجم، وإن خاروا على العاجم، وأهل المباضع وإن أنزلوا أذون المواضع، طبعوا مع عدم الإنصات على الإنصاف،

(1) هذه الصورة التي رسمها ابن عميرة لهذا الأديب المتكسب تدل على بخس الأدب وكساد سوق الشعر عند بعض الرؤساء من أهل هذا العصر.

(2) في ك 233: نلق.

(3) تبديل النسبة عند المهندسين هي عبارة عن اعتبار نسبة المقدّم إلى المقدّم والتالي إلى التالي. إذا قسنا مثلا الخمسة إلى العشرة فالخمسة حينئذ مقدّم والعشرة تالٍ، ثم قسنا الأربعة إلى الثمانية فالأربعة مقدّم والثمانية تالٍ. فإذا قسنا الخمسة المقدّم إلى الأربعة المقدّم الآخر وقسنا العشرة التالي إلى الثمانية التالي الآخر، فهذا القياس يسمّى بالإبدال والتبديل. التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج 2، ص 1689.

(4) ومن الأندلسيين المتأخرين المعجبين بهذه الأبيات، أبو البركات محمد بن إبراهيم البلفيقي الذي تمثّل بها في كلمة له. ابن الخطيب، الإحاطة، ج 2، ص 147.

(5) يريد خطة الكتابة وشرفها.



وجبلوا على التصافي مع خسة الأوصاف، فأما حملة أرقمه[1]، المتساقون بكأس علقمه، فما أكثر ما سمعنا أن بعضهم على بعض عدا، وقاده إلى الهون أو[2] الرّدى، إن ألفاه على الشط أغرقه، أو وجده واهي الربط أوثقه، ومتى رآه مستمسكا حطّه، وإن مرّ به متنفسا غطّه، شبّهوه بصلّ والصّلال[3] أشباههم، وحذروا لعابه وهو ممّا تمجّه أفواههم، وذكروا نحوله ومن مُني بهم انحل، وأسكنوه معهم وجارهم عنهم يرحل، إلا قليلا ممن أطّت به رحم الأخوة /100/ ونزع به عرق الفتوة والأبوة، أولئك الذين أعروا من الزهو مناكبهم، وحدوا بالتواصل ركائبهم، فزادوا الخلة رونقا وجمالا، وأجادوا الحلة ريطة وسربالا، أنا منهم حيث أشرفوا أو أسرفوا، وتفديهم نفسي عُرفوا أو لم يُعرفوا.

فأما القضاء وهو ثاني الرّتبتين، وإحدى النّسبتين فقد خلعت الأولى لمطرفه، وبيعت الدرع في مخرفه، فكان التوسد لأرطاه، والتحول إلى مطاه، وظن أن سلا سلوّ عن الأنكاد، وعلوّ على الأضداد، وساحة فيها أرب، وراحة ليس معها تعب، وإذا بها وهي عجوز تحمل تيه الملوك، وتستعمل زينة الهلوك، أطلال كأحساب أهلها دارسة، وأوحال كطبع خلقها نجسة متجانسة، كلّ يطلب الحكم على هواه، والميل إليه عن سواه، ويقول مُخَالفي يجب أن يُعصى، ومن أقصيته أنا كيف لا يُقصى، والقضاة أنا هادي عُميانهم، ووادي رُعيانهم[4].

وأنتم معشر الأندلسيين دافة دفّت، ومادة جفّت، وفقع عن أهله بان، ونبت

(1) يقصد الكتّاب من أهل زمانه وما كان ينشأ بينهم من تحاسد وتباغض وخصومات، ولعله قد أصابه شيء من ذلك فكتب يشكو سوء حظه مع خطة الكتابة.

(2) في ك 233: و.

(3) الصّلال، والمفرد صلّ: وهي الحية التي تقتل إذا نهشت من ساعتها، ولا تنفع فيها الرقية. ويقال للرجل الدّاهية المنكر في الخصومة: صلّ أصلال أي حية من الحيّات. لسان العرب، ج 11، ص 385.

(4) يشكو هنا ابن عميرة سوء حظه مع القضاء الذي تولاه منذ سنة 639 هـ/1241م في مدينة سلا، ويشير إلى بعض متاعبه التي لقيها من أهلها، بسبب تعصّبهم وعدم خضوعهم لأحكام القضاء وإتباع أهوائهم.

في غير أرضه هان، وما نحسبكم إلا خشاشا لا يجد مغارا، وخفاشا أطير نهارا[1]، فالمهاجر إلينا يجد الأوس والخزرج، ويركب الملجم المسرج، هذا إذا أرضى الحسب وأهله، وستر بعلمنا جهله، فأما إن عدا طوره، وجفا زوره، وتهاون بخلافنا، ولم يحفظ مآثر أسلافنا، ففرخه قبل النهوض مصيد، وزرعه من قبل أن يهيج حصيد[2].

والشأن في الأهلب العثنون[3]، الأبله في علم المفروض والمسنون، إذا خنقته العبرة، وأرهشته الكبرة، وحضره المحكوم عليه يقول: ظُلمت فأنظرني بتقواك /101/ وأنصرني بفتواك، ويقص عليه قصته وقد حشاها بهتانا، وضم إليها أَيْمَانا، فخرج بمنسأته يهدج، وفي سوأته يهملج، حتى إذا قيل له القصة كيت وكيت، وليست كما حُكي ولا على ما حكيت، قال فهلّا دعاهم إلى صلح يوقع البينونة، ويرفع عنّا هذه المؤونة، واسمع طلاق الزوج ومبلغ عدده، وخروج الرّجعة عن يده، فقال: كان هذا أول طلاق وقع في الإسلام، وأغضى عنه خيار الحكام، فهو يغضب للشّرع وهذا دينه، ويدّعي نصرة الحق والشيطان قرينه.

فهاتان الخطتان، مع أنهما خطيرتان خطيئتان، ولصاحبهما ليل أكثره أرق، وشراب جله شرَق، تُبغى له الغوائل، وتُلقى فيه الوسائل، ثم لا ينفك من شاكٍ لا

(1) كناية عن الضعف والهوان.

(2) يتكلم ابن عميرة هنا على لسان أهل سلا، ويذكر كيف كانوا ينظرون إلى الأندلسيين على أنهم دخلاء، وكيف كانوا يعاملونهم، أنفة منهم واعتزازا بأنفسهم ومدينتهم إزاء هؤلاء الأندلسيين المتعالين عليهم، وهذا ما أحنق عليهم بعض هؤلاء ممّن أقاموا بينهم كابن عميرة وابن الخطيب الذي كان كثيرا ما يعرّض ويصرح بهجو بعض أهل سلا أو كلهم حتى قال:

أهل سلا صاحت بهم صائحة ... غاديــة فـي دورهــم رائحــة
يكفـيهم مـن عـوز أنهـم ... ريحـانهم ليست لـه رائحـة

والله المرجو للعفو عن الزلات. المقري، نفح الطيب، ج 6، ص 278.

(3) يشير إلى ما كان يحدث بينه وبين أحد الفقهاء المفتين من أهل سلا لم يذكر اسمه. وموقف ابن عميرة من هذا الفقيه يشبه موقف ابن الخطيب من فقيه فاسي كان يشتغل بالتوثيق في مدينة سلا، دعاه إلى طعامه فامتنع الفقيه عن تلبية الدعوة، فألّف ابن الخطيب في هذه القضية رسالته: "مثلى الطريقة في ذمّ الوثيقة". المقري، نفح الطيب، ج 6، ص 273 وما بعدها.



يصدق في ما حكاه، ولا يكتب غير الشرّ مَلَكاه، أو ساعٍ بين فكيه سمّ الأفعى، وكلا مسلكيه إلى الدواهي يدعو وبها يُدعى، فنسأل الله ربنا أن يكفينا سعي السّعاة[1]، وبغي البغاة، ويحملنا على السُّبل[2] المرتضاة، ويجمل العاقبة لنا في الكتّاب أو مع القضاة.

-75-

## رثاء الفقيه الخطيب المحدّث أبي الربيع بن سالم الكلاعي[3]

[المتقارب]

ألا مـسعدٌ أو ألا صـاحب ... لـذي نـصبٍ همّـه ناصـبُ[4]

(1) يبدو أنّ حياة ابن عميرة في عدوتي الرباط وسلا لم تخل من المتاعب، وفي مقدّمتها وشايات خصومه التي وجدت أذنا مصغية من الخليفة الموحدي الجديد المعتضد، ولا سيما بعد أن قبض على الوزير أبي زكرياء بن عطوش الذي كان يدافع عنه، وهكذا لم يلبث أن نقله من قضاء الرباط وسلا إلى قضاء مكناسة. بن شريفة محمد، أبو المطرف، ص 132.

(2) في ك 233: السبيل.

(3) هو أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي (565-634 هـ/1169-1236م)، من أهل بلنسية، تلميذ ابن رشد الحفيد وأبي القاسم بن حبيش. أنفق شبابه كله في سماع الشيوخ في شتى نواحي الأندلس حتى بلغ الإمامة في صناعة الحديث، مع الاستبحار في الأدب، والاشتهار بالبلاغة، والتمكن من الخطابة، وإنشاء الرّسائل وقرض الشعر. كان عظيم المكانة عند البلنسيين بفضل علمه وشخصيته وانصرافه لخدمة أهل بلده. كان يلقي الدروس في الجامع ويتولى الصلاة والخطبة والقضاء، ويجد مع ذلك الوقت للتأليف الكثير، وتآليفه تدور حول الرسول صلى الله عليه وسلم وحديثه وصحابته، وهو ما يدل على اتجاهه النفسي نحو سيرهم وما فيها من عبر ودروس. كان من أولي الحزم والجرأة والبسالة والإقدام وثبات الجأش، يحضر الغزوات ويباشر القتال بنفسه، وآخرها المعركة التي استشهد فيها بقرية أنيشة على نحو سبعة أميال من بلنسية، غداة يوم الخميس 20 ذي الحجة سنة 634 هـ/1236م. ابن الأبّار، التكملة، ج 4، ص 100، وتحفة القادم، ص 201، وإعتاب الكتّاب، ص 249. ابن عبد الملك، الذيل، السفر 4، ص 83. النباهي المالقي، المرقبة العليا، ص 119. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 15، ص 263. وانظر بعض ترجمته في إجازة المؤلف الواردة في الرسالة رقم (177) من السفر الثاني من هذا الكتاب.

(4) وردت هذه المرثية عند ابن المرابط في زواهر الفكر وجواهر الفقر، القسم الثاني، ص 154 وما بعدها.

يطارحه شجوُ ذي عبرةٍ ... لها أبدا عارض ساكبُ[1]

رمته الخطوب على غرّة ... فاقصده سهمُها الصائبُ

/102/فللصبر من قلبه سالب ... وللحزن في صدره جالبُ[2]

وكم عتب الدّهرَ قبلي أناس ... فما نال بغيته العاتبُ

عجبت لقلبي لِمَ لا يذوب ... وقلّ له أنه ذائبُ

وهب أنه جلمدًا مروة ... أما يكسر المروة الضاربُ

أمِن بعد خمسين مرّت سدًى ... كما مرّ في عدِّه الحاسبُ[3]

أرجّي حياة بلا شائب ... وكيف ولي مفرق شائبُ

سواد علاه بياض وما ... خليطان شرّهما الغالبُ[4]

أدنيا الغرور بماذا تغرّ ... وباقيك يشبهه الذاهبُ

وما في الذي مر إلا قذى ... بمورده شرَق الشاربُ

ولم أر مثلك مخطوبة ... يغمض عن عيبها الخاطبُ

ألا أظمأ الله من قاده ... إلى طمع برقك الخالبُ

وأكذب ظن امرئ لم يزل ... يخادعه وعدك الكاذبُ

رأيت المنايا إلى كل ذي ... حياة لها سَنن لاحبُ

يظل الأظل طريحا بها ... ويبتكّ من غربها الغاربُ

وأعظم من فجعتنا به ... حليف الندى الماجد الواهبُ

وذاك سليمان لا عابث ... إذا الأمر جدّ ولا لاعبُ

ولكن أخو الجدّ يمضي على ... مناهج ليس لها عائبُ

فلله من نفسه جانب ... وللصحب من أنسه جانبُ

---

(1) في ك 233: شجوي.

(2) طباق الإيجاب بين "سالب وجالب".

(3) كان ابن عميرة، يوم استشهاد شيخه أبي الربيع، قد بلغ من العمر حوالي اثنين وخمسين سنة لأنه من مواليد سنة 582 هـ/1186م.

(4) إلى هنا ينتهي ابن عميرة من الشكوى التي افتتح بها مرثية شيخه، ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف الدّنيا وغرورها، ثم إلى المرثي فيعدد مناقبه ويصف فاجعته فيه.



فأي امرئ [سار] نحو الرّدى ... كما صمّم الصارم القاضبُ[1]

وأي مناقب ملء الزمان ... قام بها بعده النادبُ

فيا نور علم [تُفدى] به ... شهاب لناظره ثاقبُ[2]

ويا طود حلم تخفّ الحُلوم ... وهو على حاله راتبُ[3]

ألا في سبيل هداة السبيل ... مضاؤك حين نبا الهائبُ[4]

[وترغيبُك] الناس فيما اقتنيت ... وقد عز في فضلها الراغبُ[5]

وجرحك وهو فكالمسك من ... دم عند بعث الورى ثاعبُ[6]

هربت إلى الله في موطن ... على عاره حصل الهاربُ

وغُودِرت نهب عفاة الفلا ... فنال الذي شاءه الناهبُ

إذا كان للدود ميت القبور ... فالذئب أكرمُ والناعبُ

فلهفي عليك أخا كان لي ... كشاهِده الصّادق الغائبُ

ولهفي عليك لحق يمدّ ... إليه يدًا معتدٍ غاصبُ

ورأي من الرّيب أخلصته ... كما أخلص الدّرّة الحالبُ

لقد كنت ردئي وللنائبات ... سارٍ يبيّت أو ساربُ

وكنت تقي خطرات الوجى ... وقد كبّر الناكئ الناكبُ

فلقّاك ربك رضوانه ... وجادك منه الحيا الساكبُ

---

(1) في ك 233: صار.

(2) في زواهر الفكر وجواهر الفقر: تبدّى.

(3) عن رباطة جأش المرثي يوم استشهاده في معركة أنيشة، جاء في الذيل: وحرّض المسلمين، وقد اختلّوا، على قتال عدوّهم ورغّبهم في مكافحته ولم يزل متقدما أمام الصفوف زحفا إلى الكفار مقبلا على العدو غير مدبر ينادي المنهزمين: أعن الجنة تفرون؟، حتى قتل صابرا محتسبا. السفر 4، ص 89.

(4) في زواهر الفكر وجواهر الفقر: النائب.

(5) في ك 233: ترغيبك.

(6) ثعَب الماء والدّم ونحوهما يثعبه ثعبا: فجّره. وهو يشير إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يكلم (يجرح) أحد في سبيل الله، إلّا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دما، اللون لون الدم، والريح ريح المسك. رواه الشيخان.

وإن الذي نلت من قربه ... لأفضل ما يطلب الطالبُ
عليك السلام إلى غاية ... من الموت كلّ لها ذاهبُ[1]

– 76 –

## مدح الأمير أبي زكريا الحفصي ووصف جيشه

[الخفيف]

أقبلت نحوك البشائر تترى ... ووجوه المنى تلقتك غرّا[2]
وتخطّى مسيرك الرّعب يبدو ... مستطيرا أمام شمسك فجرا
فإذا قدت جحفلا قاد ألفا ... وإذا سرت ساعة سار شهرا
وإذا ما طوى البلاد مغذا ... كان سرا بالفتح يبعث جهرا
قد درى الملك أنه سلّ عضبا ... منك يفري الطّلى وهزّ هِزبرا[3]
ورأى نفسه عروس هداء ... من بروج السماء تسكن خدرا
فبحقّ أن يرخي الذيلَ عُجْبًا ... يزدهيه ويثني العطف كبرا
ويثير العجاج شرقا وغربا ... ويسدّ الفجاج بيضا وسمرا
/104/ويقود الجياد شعث النواصي ... مشرفات الطلى إلى الطعن خزرا
مسمعات من الصهيل نداء ... يملأ الخافقين أمنا وذعرا
ما سرت تحت فحمة الليل إلا ... ألهبتها من السنابك جمرا
وإذا أحضرت مع الصبح أرخت ... من دجى نقعها على الجو سترا[4]
أبصر البرق شدها فتوارى ... في حشى الغيم سادرا واستسرّا
وابتغت شأوها الرياح فلما ... لم تطقه جثت من الأين حسرا

(1) ولابن الأبار في شيخه أبي الربيع مرثية أكثر جزالة وفخامة من قصيدة ابن عميرة، كما رثاه ابن شلبون أيضا. انظر قصيدة ابن الأبار عند ابن عبد الملك في الذيل، السفر 4، ص 90 وما بعدها، ومرثية ابن شلبون عند ابن الأبار في تحفة القادم، ص 216.
(2) استهل ابن عميرة هذه القصيدة بموضوع المدح مباشرة من دون افتتاحية الغزل التقليدي أو الشكوى والحنين كما في قصائد أخرى.
(3) كناية عن عظمة وقوة جيش الأمير.
(4) في ك 233: سمرا.



راية الفتح هذه قد أطلّت ... تنفض الأرض عنه بطنا وظهرا
فوق ماذيّها ترقرق ماء ... وبخرصانها تفتّح زهرا
وإليها يسير وثبا وعدوا ... وعليها يلتف سهلا ووعرا
وبأكناف ظلها ملك في ... ظله يكنف الخلائق طرّا
أيها السائلون عن مُلكِ يحيى ... أنا أتلو عليكم منه ذكرا[1]
طاب في الأرض جوهرا ونصابا ... وعلا في السماء نجما ونجرا
وسما صاعدا إلى أن ترقّى ... مرتقى بالكواكب الزهر أزرا
عاقدا بينه وبين المعالي ... نسبا زاكي العروق وصهرا
رضيته كفؤا وما سألته ... غير[2] أحظائها فأعطاه مهرا
ملك أعجز الملوك ولكن ... قام من دونهم على العجز عذرا
فإذا يُحمَدُ الأعاظمُ منهم ... كان أولى بالحمد منهم وأحرى
يا أمير الهدى هُديت لأمر ... وسع العالمين عدلا وبرّا
وأدار المنى شرابا طهورا ... وكؤوس السرور شفعا ووترا
فاقترأنا الأفراح سطرا فسطرا ... واحتلبنا[3] النّجاح شطرا وشطرا
أصل ملكٍ رسا وفرع كريم لاح ... هذا شمسا وذلك بدرا
ومساع كغرة الغيد غرّ ... ومعال كليلة القدر قدرا
والتحام كالركن بالبيت أرسى ... ركنه مَن بعبده منه أسرا
/105/شهد الله أن كل شهير فخره ... أنت منه أشهر فخرا
نعمة منه أنت قادت إلينا ... كل يوم بشرى إلى جنب بشرا
رُضت عوج الخطوب حتى استقا ... مت ووطأت الزمن صعبا فقرّا
وقتلت البؤسى بعَذْوٍ إليها ... لم تجد منه في البلاد مفرا
فصنوف الأعداء تصرع زحفا ... ومخوف الإعدام تقتل صبرا

(1) هو يحيى أبو زكرياء الحفصي أمير افريقية.
(2) في ك 233: عن.
(3) في ك 233: اجتلبنا.

يــا رجــاء الــشريد فــي حادثــات برحيب مــن خطوهـا ضـاق صـدرا
أنــا عـبد أجـرته مـن زمـان كـبد الحـــرّ مـــنه بـــالهمّ حـــرّا
فلـئن كـنت مـدرجا طـيّ دهـري كـابن درّاجـــة أراقـــب نـــشرا
فلقـد شِـمت طيـبَه لأبـي طيّـبه حـين أنعـل[1] الخـيل تبـرا
فـي مقـامٍ مـا للحـوادث فـيه أن تـدبّ الـضرّاء يـوما لـضرّا
قـد طفـنا بـه فلـم نـر إلا آيـة للكمـال ضـمّت لأخـرا
حـيث نظـم الكـلام يحـسَبُ دُرّا وجـزيل العطـاء يُحـسِبُ دَرّا
ردّ لـي أوجـه الحـوادث بيـضا وأرانـي حدائـق العـيش خـضرا
فمتـى أسـتطيع للـسيد عـندي وهـي مـلء اليدين حمـدا وشكرا
وبمـاذا أثنـي ولـو أنني صـغت نجـوم الـسماء نظمـا ونثـرا
ومـدّى للـرياح فـيه فـتور كـيف لـي فـيه بالـتقدم فتـرا
مـن شـكا طلعـة الـزمان بهـيما فـبِك اسـتقبل الـزمان الأغـرّا
أو تألّـى علـى الغنـى سـرّه إن هـو يلقـاك أنهـا مـنه صِـرّا
فلـك اليـسر كلـه ارعَ سـمعًا مَـن بجـدواك يـبدل العـسر يـسرا
يـشتهي العـلّ ناهـل [أطلـع] الـسير لـه فـي الهجير ظلا ونهرا[2]
زادك الله بـــسطة وظهـــورا واقـتدارا علـى عِـداك وقهـرا
وحـداك التوفيق رفعـا وخفـضا وحـباك الآلاء عـزا ونـصرا

– 77 –

## وقال مهنّئا

/106/ [الكامل]

قـضيت صـومك و[اقـتضت] شكواكا بـرٌ وبـرءٌ وافـياك دراكـا[3]
جـاءا علـى قـدَرٍ بأعـدل قـسمة هـذا لـنا ومـضاعف لـك ذاكـا

(1) في ك 233: أثقل.
(2) في ك 233: أسرع.
(3) في ك 233: انقضت.



فاهـنأ بعـيدٍ أنـت غيـر مدافـع عـيد لـه فكمـا تـراه يـراكا
وألـذّ مـا فـي الحـب علمك أنّ مَن تهـواه دون ملالـة يهـواكا
فاسـلم بـأنعم عيـشة يدعـو بهـا لـك مـن طابـت[1] عيـشه نعماكا
لازال هـذا الدهـر يجهـل صـرفه مثـواك مـا عـرفت يـداك[2] نـداكا

– 78 –

## ومن افتتاحية رسالة

[الوافر]

أرادونـي علـى لـبس الجديـد ومالـي والجديـد مـن البـرود[3]
أيـذوى العـود والأوراق خـضر مخالفـة لعمـرك للوجـود

– 79 –

## تهنئة أبي الحسن بن هلال العددي[4]

[الوافر]

كتـبت ولـو نثـرت لـك الـنجوما وجـئت كمـا فعلـت بهـا عمـوما
لمـا وفّيـت مـا لـك فـي فـؤادي وكـنت بفـرط تقـصيري ملـوما

أيها الأخ الذي شيمته أكرم الشيم، وقيمته عندي أعز القيم، لقد كابدت فيك أشواقا، وكنت إلى خبرك تواقا، ووجدت فراقك لا يشبه فراقا، ولكم رجمت فيك الظنون المتقابلة، ونصبت لفاعل الشجن نفسي القابلة، فمرة أقول نفر فيمن نفر، وليت شعري أي صقع به ظفر، وتارة أقدّر أنك في القصبة التي سكنت بعض أبراجها، واقتضيت الزيف من خراجها.

(1) في ك 233: أطابت.
(2) في ك 233: بذاك.
(3) في ك 233: ورد هذان البيتان في افتتاحية الرسالة الموالية، والبيتان المذكوران فيها وردا هنا، ولعله سهو من الناسخ.
(4) سبق التعريف بأبي الحسن علي بن هلال في هامش الرسالة رقم: 51.

وبينا أنا في تردد وترجيح، وإبطال وتصحيح، جاءني كتاب الوزارة العلية[1] أحسن الله مكافأتها، وأنسأ لنا حياتها، يخبر بأنك إليها أويت وفي ظلها ثويت، /107/ وقد نصبت للتعليم، وأعطيت أهبة المقيم، فقلت حيّ هلّا بالمنزل الكريم، ومجزل الفضل العميم، لقد اختار القدر لهذا الولي الحميم، وساقه إلى بيت الشرف القديم، ونبت الكرم الجميم.

ثم بعد ذلك اجتاز من هنا رقّاصون، وهم من السلامة قاصون، يدعون بالويل والحرب، ويدّعون بالنهب على العرب، فأبرز لي أحدهما كتابين لم يسلم بزعمه سواهما، ورأيت أنه ما فات شيء حين أدّاهما، فلما فضضت كتابك عن راية الفجر منشورة، وكواكب السماء محشورة، ورأيت الكرة مبسوطة، والصّور الفلكية في رقعة مخطوطة، قلت بحق سلم هذا الخطاب، وتحامته على رغمها الأعراب، ومتى كانت تشن بالسماء غارة، أو تسلب أنجم الجوزاء شارة[2]، وهل تطمع في الرامح أن تفل شباه، والطائر أن تمسك بذناباه، ومن لها بالدبران وقلاصه، والحمل والطمع في اقتناصه، وأيّ سابح إلى حومة العبور يعبر، أو ناظر إليها إلا وهو بعين[3] أختها ينظر، وليس دلو البروج من الدلاء، ومن يجعل نعم الأرض كنعائم السماء، لا جرم أن مغيرة خيلها خافت وخامت[4]، وولت وما أقامت، وخشيت شياطينها أن يحيط بها عذاب، أو يحرقها من تلك الجملة شهاب، فتعالى الله ما أحسن ذلك المساق، وكيف رأينا في قيد الشبر السبع الطباق.

وذكر الأخ المبرور تعلمه مع فكره، وتعليمه النجل الكريم[5] كنجره وكقدره، وأن النّصبة ساعدت، والنّسبة البهرامية تباعدت، وأنه أبقاه الله قد زحفت السعود إليه في خميس، ونظرت إلى برجه من تثليث وتسديس، فهرمز، بالبشرى /108/ يرمز،

(1) يريد الوزير أبا علي الحسن بن أحمد المعروف بابن خلاص الذي سيرد التعريف به في هامش الرّسالة رقم: 81.
(2) جناس ناقص بين "غارة وشارة".
(3) في ك 233: بغير.
(4) جناس ناقص بين "خافت وخامت".
(5) لعلّه يريد نجل ابن خلاص المذكور.



وعطارد، للنّحوس طارد، وسائر السيارة، مشير إلى بيت العز بالعمارة، والحمد لله الذي أمرُه مقضي، وهذا القول كله مجاز لفظي، فهو المنفرد بالرفع والوضع، والعطاء والمنع، نسأله عز وجهه أن يتولانا بنعمته، ويكنفنا بعصمته، ويجعل رغبتنا في رحمته، ورهبتنا من نقمته.

– 80 –

## عتاب جماعة من أصدقائه بسبتة

كتبته والود كما تدري، والشوق مما يجيش به صدري، والحال قِبَلي على ما يرضى الأولياء الذين أنت أولهم بالرتبة، وأولاهم بكرم الصحبة، وكنت قد[1] خاطبتني مبتدئا، ورويت منّي ظمأ، فقلت في نفسي هذا عمل يطّرد، ومشرع كل آونة فيه أرد، فأخطأ الظن وكثيرا ما يخطئ، وأبطأ الأمل وأي أمل لي لا يبطئ، فبالله ماعدا عما بدا، ولأي معنى صمّ المسؤول صدًى[2].

ويا من بسبتة من القطّان، الشّرد عن الأوطان، فيم السّلوة، ولِمَ هذه الجفوة، أنقمتم أمرا، أم استبدلتم زيدا وعمرا، أم تغيرتم بتغير الزمان، أم تهتم على الغرباء من الإخوان، ويحق لكم كل التيه، والإزراء بالخامل والنبيه، ومعكم السيد الجحجاح[3]، والكريم الذي يهش للمكارم ويرتاح، عمادنا طرّا، والمعيد بهم أيامنا محجلة غرّا، لكن ما ضرّ لو تواضعتم قليلا، وأوليتم جميلا، وذكرتم وقد قويتم حال الزمن، وأسهلتم ساكن المنزل الخشن، عودوا إلى الصّلة فهي أجمل، ودعوا القطيعة /109/ فإنها لا تحمل، وتكلفوا الكتب إن لم تنشطوا له، ولا تكونوا أعوان همّ أشكو طوله، ودهرا عاتب مطوله.

(1) كلمة "قد" ناقصة في ك 233.
(2) في هذه الافتتاحية يخاطب ابن عميرة المكتوب إليه الذي لم يذكر اسمه ويلومه على قطع كتبه عنه، ثم ينتقل بعد ذلك إلى عتاب جماعة من أصدقائه بسبتة قطعوا هم كذلك صلته ومكاتبته، مخرجا عتابه لهم مخرج المداعبة.
(3) الجحجاح والجمع جحاجح: وهو السيّد السمح الكريم. ولا توصف به المرأة. لسان العرب، ج 2، ص 420.

-81-

## وكتب لأبي علي بن خلاص صاحب سبتة

[مجزوء الكامل]

| | |
|---|---|
| يا صاح لا إحسان يحمد | إلا من الحسن بن أحمد[1] |
| من فاق أبناء الزمان | تكرّما وندى وسؤدد |
| ورأت به العلياء أنّ | حليها في جيد أصيد |
| ثبت على قلق النوائب | ذي مضاء كالمهند |
| هذا هو الفخر الذي بهر | الفخار بكل مشهد |
| بيت قديم لا يزال | لفرعه شرف مولّد |
| ووزارتان كما تألّق | فرقد بإزاء فرقد[2] |
| بهما تجمّعت المعالي | الغرّ من مثنى وموحد |

كتبته إلى السيد باستحقاق، والكريم بكل إطلاق، أبقاه الله صدرا إليه يشار، وبدرا لا يواريه السّرار، من رباط الفتح[3] وبذكره لقلبي لهج، ومن شكره في أرجائي أرج، وقد وصلتني مخاطبته المبرورة المكرمة أندى من قطر الندى، وأهدى من

(1) هو أبو علي الحسن بن أحمد المعروف بابن خلاص عامل الخليفة الموحدي الرّشيد على سبتة سنة 637 هـ/1239م، ثم ثار على الخليفة السعيد بعده، وبايع الأمير أبا زكرياء الحفصي صاحب تونس. اقتنى الأموال واصطنع الرجال، وتكونت حوله حاشية تتألف من بعض الشعراء والكتاب الأندلسيين مثل الشاعر الاشبيلي المشهور ابن سهل الذي مدحه في أشعار كثيرة. وقصده الكثير من الأعلام كالرّعيني وابن الجنان وابن الرميمي وابن عميرة أثناء انتظار رحلته إلى تونس. كانت وفاة ابن خلاص يوم السبت 21 من جمادى الأولى سنة 646 هـ/ 1248 م بوهران وهو في طريقه إلى تونس، فحُمل ميتا إلى بجاية ودُفِن هناك. ابن عذاري، البيان (القسم الموحدي)، الصفحات 353 و360 و378. ابن خلدون، العبر، ج 5، ص 347. ابن سعيد، اختصار القدح، ص 79. المقري، نفح الطيب، ج 7، ص 416. ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية، ص 73.

(2) الفرقدان: نجمان في السماء لا يغربان ولكنهما يطوفان بالجدي. وقيل هما كوكبان قريبان من القطب. وقيل هما كوكبان في بنات نعش الصغرى. لسان العرب، ج 3، ص 334.

(3) في الأصل من فلانة وما أثبتناه من د 4502.



ضوء الصباح إذا بدا، فرأيت بها سَنَى عينيّ، وتناولت منها الغنى في يديّ، ومررت فيها على نُبَذ من الأخبار أومأ إليها مشيرا، وأحال على كتب قبلها استوفتها تفسيرا، ولا أدري هذه الكتب أَوُجودُها ذهني، أم الطائر بها جنّي أَمْ[1] هو إنسيّ، توارى من خيفته، أو تابع المتلمّس في صحيفته، فهو يلقيها إشفاقا، ولا يبقيها فواقا، ويرى التخفف منها معونة على قطع البيد /110/ وواقية كواقية الوليد، فمن يلومه على شيء له منه نفس لارتياح الرّياحي وادعة، ويدٌ لمارن[2] المريني جادعة.

وذكر سيدي رزمة كاغد[3] كان بعثها وقد عرتني لذكرها فترة كما انتفض العصفور، ومن فوتها حسرة مرجلها يفور، فليت شعري هذا الذي أعطيته أَلَهُ اسم في الأسماء، أو ذكر في الأحياء، أو هل تخطّفه شيطان، أو هدر دمه سلطان، أو تردّى من أعلى نيق، أو هوت به الريح في مكان سحيق، وما هذه الرزمة إلا من جنس الطيف إذا سرى، والخيال تقتنصه أشراك الكرى، ثم مع اليقظة يجهل مكانه، ويتلى شيء[4] كيانه، بل هذه في الأين والكيف، أشد استحالة من الطيف، وقد كنت أتعابى[5] بقول أبي الطيب: [الكامل]

| | |
|---|---|
| إن المعيد لنا المنامُ خياله | كانت إعادته خيالَ خياله[6] |

فالآن علمت معناه، وفهمت معمّاه، ويجب أن يعلم سيدي أن عليه دون

(1) كلمة "جنّي أم" ناقصة في الأصل والزيادة من ك 233.

(2) المارن: الأنف، وقيل: طرفه، وقيل: ما لان من الأنف منحدرا عن العظم وفضل عن القصبة. لسان العرب، مج 13، ص 404.

(3) يبدو أنّ نشاط ابن عميرة الكتابي في رباط الفتح كان كبيرا، مصداق ذلك كثرة استهلاكه للورق وحرصه على طلبه، فقد وقفنا له على رسالة أخرى كتبها من رباط الفتح إلى صديقه ابن مفوز الشاطبي يرجوه أن يبعث إليه شيئا من هذا الورق الذي اشتهرت بصناعته مدينة شاطبة، جاء في آخرها: والكاغد الذي وعدتم به بلغت منه حدّ الإفلاس، وتكفف منَ يضن به من الناس، فأحسنوا به العون، وأمدّوا منه بما ترون. ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، القسم الثاني، ص 183.

(4) في ك 233: يتلاشى.

(5) في ك 233: أتغانى.

(6) من قصيدته التي يمدح فيها أبا الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة. شرح ديوان المتنبي، مج 2، ج 3، ص 132.

مراعاة للخلاف، عهدة هذا الإتلاف، وإن كان المتلف من ذوات القيم، فعليه مثله في شرع الكرم، [والرّزمة التي عند فلان قد نص على أن تتحرّى بها يد لا تُعرف بإضاعة، ولا تخرج للأمانة عن طاعة، وإن كان غير ذلك فالحكم في الرّزمتين واحد، والله تعالى على ما نقول شاهد][1].

– 82 –

## جواب على قصيدة كتب بها إليه أبو سليمان الطرانتي[2]

أهلا بتحيّة الأخ الذي أعرف له حق الإكبار، ولحمة الجوار، وحرمة الشرب من نهر يهجر له برد ماء الأنهار، شُقر وما شُقر[3]، إن شكرنا عهده قل له شكر، وإن وصفنا /111/ حسنه أدْنا من صفته إصرٌ، وخفنا أن تغضب لدجلتها بغداد ولنيلها مصرُ[4]، رعى الله عهدا هنالك جمعنا، وزمنا كان إذ ذاك معنا، نعمنا في ظله وريحه طيبة، وتباريحه متغيبة[5]، ونواظر لذاته أرقه، وجفون أذاته[6] في نومها مستغرقة، حتى انقلبت الرخاء زعزعا، وعاد الأنس نهبا موزعا، وجاءت حوادث ضربت بشفراتها ثم دفت، وكلفت ثبوت الواحد لعشراتها ثم ما خففت: [الطويل]

---

(1) الزّيادة من د 4502. وفي بقيتها يخبر ابن عميرة صديقه ابن خلاص بأنّ كتاب أبي بكر بن الشيخ لم يصله، كما عرّفه بخبر السيّد المعظم أبي محمد، ورجل آخر يقال له أبو القاسم انتقل من قصر عبد الكريم إلى بلاد غمارة، ويخلص إلى ذكر الحركة العلية وقرب زمانها التي أخبره بها ابن خلاص وكذلك أخبار سواحل جنوب الأندلس.

(2) هو أبو سليمان داود بن الحسن الطرانتي نسبة إلى طرنتة حصن من عمل بلنسية، اشتهر بالشعر والتعلق بالأدب، كان من جلساء ومذاكري والد ابن سعيد المغربي، استقر آخر أيامه بشريش. ابن سعيد، اختصار القدح، ص 184.

(3) يريد نهر شقر الذي يحيط بمسقط رأسه جزيرة شقر، وقد ورد التعريف بها في أحد هوامش الرسالة رقم: 14.

(4) استعارة مكنية شبه فيها بغداد ومصر بالإنسان الذي يغضب وقد حذف المشبه به وترك المشبه.

(5) في ك 233: مغيّبة.

(6) في ك 233: أداته.



[تذكر عهد الشرق والشرق شاسع ... وذاب أسىً للبرق والبرق لامع

وأتبع ذكر الجزع أنّه موجع ... له أبدا قلب على الجزع جازع][1]

كفى حزنا نأي عن الأهل بعدما ... نأينا عن الأوطان فهي بلاقع

نوى غربة حتى بمنزل غربة ... لقد صنع البين الذي هو صانع

أحنّ إلى أرض تقادم عهدها ... ومن دونها أيدي الخطوب الموانع

وكيف بشُقر أو بزرقة مائه ... وفيه لشقرٍ أو لزُرقٍ[2] مشارع

إيه أيها الأخ الخالص ودُّه، المتقادم عهدُه، أنيسي وأوجه الأيام غرّ، وروضي والفجاج خضر لا غبر، ذكّرتني زمنا ما كان أطوع عنانه، وأنظر أفنانه، ودّع توديع المفارق، وقضى كخطفة البارق، وأبقى لا يستحيل بانعكاسه، وقذًى هو الراتب الراسب في كأسه، اللهم لا[3] بقيّة تجافى عنها الحادث، وبها كلف المجالس والمحادث، وإخوان صدق لا شية في أديم صفائهم، ولا شبهة في تقديم وفائهم، وقد قادني منهم أليقهم بأن يكون المنادي، وألبقهم إذا حضر النادي، وأدلهم بإخاء على طول العهد مقتبل الشبيبة، ملموم الكتيبة، صقيل مثل مرآة الغريبة، فحياه الله وليا به رحم الجوار أطّت، وإليه قدم الاختيار تخطّت، سِرْت في طرق بيانه فجرت، وصِرت إلى بدائع إحسانه فسُحرت، /112/ وقلت الرسالة وإن كانت قبضة العجلان، ونغبة الظمآن، فجنة بلاغتها فيها من كل فاكهة زوجان[4].

فأما القصيدة فدالية بالحسن مدلّة، وذات دلّ لا حاجة بها إلى أن تقام على براعة أدبها أدلة، دفعت في قِفا نبك[5]، وجهرت بالسب لما توصف به من جودة

---

(1) الزيادة من كتاب الذيل والتكملة. وجاء فيه أنّ هذه القصيدة قد كتبها ابن عميرة إلى صديقه الكاتب أبي عبد الله محمد بن أحمد المرسي المعروف بابن الجنّان. وهي في رثاء جزيرة شقر، وله قصيدة أخرى في هذا الباب إلى ابن مفوز الشاطبي ستأتي في الرسالة رقم: 85.

(2) في الذيل: لزرق. وقد علّق ابن عبد الملك على البيت الأخير قائلا: هكذا قال ووقفت عليه بخطه، ولو قال أو بزرق مياهه وفيها لكان أتمّ في التجنيس. السفر الأول/القسم الأول، ص 174.

(3) في ك 233: إلّا.

(4) اقتباس من الآية الكريمة رقم 52 من سورة الرحمن.

(5) ذهب ابن عميرة في وصف قصيدة صديقه الطرانتي إلى تفضيلها على معلقة امرئ القيس =

السبك، وأين من الجارية اللعساء، والكاعب الحسناء، ذات شبيبة ولت، وعجوز مُلّ منها وملّت، شربها الرواة حتى مجّوها، ولبسها أهل العصر حتى أنهجوها، فأما هذه فألفاظ كما نظم الجمان، ومعان من بحرها يخرج اللؤلؤ والمرجان، أخذت بمجامع القلوب، وجمعت مابين مجلوب من الحسن وغير مجلوب، ولقد أعملت الخاطر في أن أطأ سهلها وحزنها، وأركب رويها ووزنها، فأكديت على طول الحفر، وحاولت وقفة عرفة ليلة النفر، فلم أر إلا أن أصدّ حذرا، وأكف معتذرا، وما وُجّه معها فقد بلغ محله، ولزم من هذا الفناء الرّحب ظله، ووعد بالجواب عن[1] ذلك بما يليق برغبة السائل، وحرمة الوسائل، إن شاء الله تعالى وهو سبحانه يديم عزتكم، ويحرس إخاءكم الكريم ومودتكم، والسلام.

– 83 –

## وكتب إلى أبي العبّاس بن أمية[2] يندب سقوط بلنسية

[الطويل]

| | |
|---|---|
| ألا أيّهـا القلـبُ المـصرّح بالـوَجد | أمـا لـك مـن بـادي الـصّبابة من بـدّ |
| وهـل مـن سُـلوّ يرتجـى لمتـيّم | لـه لـوعة الـصّادي وروعـة ذي الـصدّ |
| يحـنّ إلـى نجـد وهـيهات حـرّمت | صروف الليالي أن يعود إلى نجدِ |
| فـيا جـبل الـريّان لا ريّ بعـدما | غـدت[3] غِيرُ الأيام عن ذلك الـوِرْدِ |

وهي مبالغة دفعته إليها مجاملة صديقه، سيما وأنّ ابن سعيد قد حكم عليه بأنه لم يكن في الشّهرة بالمحلّ النبيه. اختصار القدح، ص 184.

(1) في ك 233: على.

(2) هو أبو العباس وأبو جعفر أحمد بن محمد بن أمية، من الشيوخ الفقهاء، والعلماء الفضلاء، والمحققين المتقنين، من تلاميذ ابن عميرة، كان بارع الخط، حسن الضبط، مليح التنبيه، له تقدّم في العلوم، وتفنن في علوم الحكمة وعلوم الشريعة والأدب والعربية، وصاحب كتابة بارعة وأشعار رائقة. كان كثير التنبيهات والتقييدات على كتب الحكمة وكتب العربية وتفسير القرآن وغيرها، ويكتب ذلك بخطّه عليها. الغبريني، عنوان الدراية، ص 190.

(3) في نفح الطيب: عدّت.



| | |
|---|---|
| /113/ويا أهل ودّي والحوادث تقتضي | خلوّي عن أهل يضاف إلى الودّ |
| ألا مـتعة يـوما بعاريـة المنـى | فإنّا نـراها كـل حـين إلـى الـردّ |
| أمـن بعـد رزء فـي بلنـسية ثـوى | بأحنائنا[1] كالنار مضرمة[2] الـوَقدِ |
| يُرَجّي أنـاس جُـنّة مـن مـصائب | تطـاعن فـيهم بالمـثقفة المُلـدِ |
| ألا لـيت شعري هـل لهـا مـن مطالـع | معاد إلى ما كان فيها من السّعدِ |
| وهـل أذنـب الأبـناء ذنـب أبـيهم | فصاروا إلى الإخراج من جنّة الخلدِ |

مرحبا بالسّحاءة، وما أعارت أفقي من الإضاءة، ووردت تسحر النّهى، وتسحب ذيلا على السّهى، وتهز من المسرة أعطافا، وترد من نجوم المجرة نطافا، عامت من الظلمة بموجها، ثم غلبت الشهب على أوجها، فقلبُ العقرب يجبُ، وسهيل بمدارة[3] يحتجب، والطرف غضيض، وجناح الطائر مهيض، وصاحب الأخبية يقوّض، والذابح[4] عن ذبيحته يعرض، ورامح السّماكين تخونه السلاح، وواقع النسرين يود أن يخفيه الصباح، بلاغة تعين[5] كل لبيب، وترعى روض كل أديب، وتغضّ على رغم العدو من حبيب.

إن من البيان لسحرا، ويأيها الجواد وجدناك بحرا، أدريت أيّ فري فريت، وبأي قمر اهتديت ليلة سريت، افتتحت بأبياتك الحسان، ونظمتها مثل الجمان، فعوذت ستّها[6] بالسبع، وعرفت منها براعة ذلك الطبع، ثم نثرت على القرطاس من شذور المنثور، بل من جواهر النحور، ما استوقف[7] النظار، وبهرج اللّجين والنّضار، ورأيتك استمددت ولك الباع الأمدّ، وأعرت محاسنك والعارية تردّ،

(1) في ك 233: أحبابنا.

(2) في نفح الطيب: مضمرة.

(3) في نفح الطيب: بداره.

(4) يريد سعد الأخبية وسعد الذابح، وهي من الكواكب العشرة التي يقال لكل واحد منها سعد كذا. وقد ورد ذكرهما في هامش سابق.

(5) في نفح الطيب: تفتن.

(6) يريد ستة أبياتها، والسبع: السبع المثاني.

(7) في ك 233: أوقف.

وجئت بالرائية تروق أربعتها، وتحرس بها هقعة الأشعار وجعجعتها /114/ فأدّت من حسنها ما يسرّ، واجتمع من روي القطعتين ما نظم فيهما وهو الدّرّ.

وأجريت[1] خبر الحادثة التي محقت بدر التمام، وذهبت بنضارة الأيام، فيا من حضر يوم البطشة، وعُزّي في أنسه بعد تلك الوحشة، أحقا أنّه دكّت الأرض[2]، ونزف المعين والبرض، وصوّح روض المنى، وصرّح الخطب وما كنى، أبِنْ لي كيف فُقِدت رجاحة الأحلام، وعُقِدت مناحة الإسلام، وجاء اليوم العسر، وأوقدت نار الحزن فلا تزال تستعر:

حلم ما نرى بل ما رأى ذا حالم    طوفان يقال عنده لا عاصم

من ينصفنا من الزمان الظالم    الله بما يلقى الفؤاد عالم

أيّ نحو ننحو، ومسطور نثبت أو نمحو، وقد حُذف الأصلي والزائد، وذهبت الصلة والعائد، وباب التعجب طال، وحال اليأس لا تخشى الانتقال، وذهبت علامة الرفع، وفقدت سلامة الجمع، والمعتلّ أعدى الصحيح، والمثلث أردى الفصيح، وامتنعت العجمة من الصرف، وأمنت زيادتها من الحذف، ومالت قواعد الملة، وصرنا إلى جمع القلة، فللشرك صِيال وتخمّط، ولقرنه في شركه تخبط، وقد عاد الدين إلى غربته، وشرق الإسلام بكربته، كأن لم نسمع بنصر ابن نصير، وبطروق طارق[3] بكل خير، ونهشات حَنَش[4] وكيف أعيت الرّقى، وأباتت[5] بلَيل السليم من يوم الملتقى، ولم نُخبَر عن المروانية وصوائفها[6]، وفتى

---

(1) من هنا يبدأ المقطع الوارد من هذه الرسالة في الروض المعطار حتى قوله: ولقد طال الأسى عليهم والأسف.

(2) كناية على ما حلّ ببلنسية.

(3) يشير إلى موسى بن نصير وطارق بن زياد وهما من الشهرة بمكان.

(4) هو أبو رشدين حنش بن عبد الله الصنعاني، من التابعين الذين شهدوا فتح افريقية رفقة الصحابي رويفع بن ثابت، ودخل الأندلس مع موسى بن نصير غازيا، وهو الذي أسّس جامع مدينة سرقسطة. مات سنة 100 هـ/718. بالقيروان. الحميدي، جذوة المقتبس، ص 198. الضبّي، بغية الملتمس، ص 238.

(5) في نفح الطيب: أدالت.

(6) يشير إلى البعوث والغزوات التي كان يرددها الأمويون في الأندلس ضد الممالك =



معافر[1] وتعفيره للأوثان وطوائفها، لله ذلك السلف، لقد طال الأسى عليهم والأسف، وكفى الحكم العدل، والرب الذي قوله الفصل وبيده الفضل.

/115/ ربنا أمرت فعصينا، ونهيت فما انتهينا، وما كان ذلك جزاء إحسانك إلينا، أنت العليم بما أعلنّا وما أخفينا، والمحيط بما لم نأتِ وما أتينا، ولو أننا فيك أحببنا وقلينا، لم تُرِنا من الفرقة ما رأينا، ولم تسلّط عدوّك وعدوّنا علينا، لكن أنت أرحم من[2] أن تؤاخذنا بما جنينا، وأكرم من ألا تهب حقوقك لدينا[3].

وأشرت أيها الأخ الكريم إلى استراحة إليّ، وتنسّمٍ لما لديّ، لتبرد-كما زعمت-حرّ نفس، وتقدح رجاء[4] قبس، وهيهات صلد الزّند، وذوى العرار والرّند[5]، وأقشع الشؤبوب، وركد ما كان يظن به الهبوب، فالقلم دفين لا يحشر، وميت لا ينشر، والطبع قد نكص القهقرى، وقل منزله أن يدعى إليه النقرى، فها هو لا يملك بيتا، ولا يجد لقدمه تثبيتا، وأنت أبقاك الله مقتبل الآداب، طائر لميعَة الشباب، وأين سن النمو من سن الانحطاط، ووقت الكسل من وقت النشاط، وقد راجعتك لا داخلا في حلبتك، بل قاضيا حق رغبتك، والله يجعلك بوسيلة العلم مترقيا، وبجُنّة الطاعة متوقيا، ولنا في الأنس[6] مستقبلا ومتلقيا، والسلام الأتم الأعم

---

= النصرانية في الشمال.

(1) هو المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر، أمير الأندلس في دولة هشام بن الحكم المستنصر، زادت غزواته على خمسين غزوة حتى أذعن له ملوك الرّوم ورغبوا في مصاهرته. ابن الأبّار، الحلة السيراء، ج 1، ص 268 وما بعدها.

(2) كلمة "من" ناقصة في ك 233.

(3) في هذا المقطع يعزو ابن عميرة ضياع بلنسية وغيرها من المدن والقواعد الأندلسية إلى الأسباب الدّينية الناشئة عن الفرقة واختلاف الكلمة، واختلال الصف، ومخالفة أوامر الله ونواهيه. وفي كتابه تاريخ ميورقة، الذي قمنا بتحقيقه ودراسته، يقف مطولا عند الأخطاء والأسباب التي أدّت إلى سقوط هذه الجزيرة سنة 627 هـ/1229م، وتنبيه المسلمين إلى عواقبها.

(4) في نفح الطيب: زناد.

(5) جناس ناقص بين "الزّند والرّند".

(6) في نفح الطيب، ولهناء الأنفس.

يخصك به - أخوك المحب فيك، المتأنس بناحيتك - ابن عميرة ورحمة الله تعالى وبركاته.

-84-

## وإلى أبي الحسن بن شلبُون في هذا الباب

تخص سيدي ورئيسي[1]، ومسعدي وأنيسي، أعلى الله جانبه، وحفظ عنده مواهبه، تحية التعظيم لمجده /116/ والاعتداد بوده، والعلم بأنه وحدَه نسيج وحدِه، ورحمة الله تعالى وبركاته، من مُرسية[2] وأنا والله من يزنه بإنصاف، ويجزي وده المضاعف بأضعاف، ويذكره فيرتاح، ويتمنى أن لقاءه يتاح، وقد وصل خطابه الخطير المكرم[3]، كما أتت النعمى عقب البؤس، وتهلل وجه الزمان بعد العبوس، وَرِدْتُ صفوه معينا، واجتليت صبحه مبينا، ولقيت مؤديه، فأدى ما سر مستهديه[4].

ثم[5] ردفه الخطاب الثاني بقاصمة المتون، وقاضية المنون ومضرمة نار الشجون، ومذرية ماء الشؤون، وهو الحادث في بلنسية درّة النّحر[6]، وحاضرة البرّ والبحر، ومطمح أمل[7] السيارة، ومطرح شعاع البهجة والنضارة، أودى الكفر بإيمانها، وأبطل الناقوس صوت أذانها، ودهاها الخطب الذي أنسى الخطوب،

(1) هو أبو الحسن علي بن لب بن علي البلنسي المعافري المعروف بابن شلبون، كان فقيها راوية، وأديبا نجيبا، وذا حظ من قرض الشعر، كتب لولاة بلنسية، واستوزره محمد بن يوسف بن هود أول ثورته سنة 625 هـ/1227م، دخل مراكش وتولى خزانة الكتب بها حتى وفاته سنة 639 هـ/1241م. ابن الأبار، تحفة القادم، ص 216. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الخامس/القسم الأول، ص 274.

(2) في هذه الأيام التي شهدت سقوط بلنسية كان ابن عميرة متوليا الكتابة عند عزيز بن خطاب في مرسية التي كان يحكمها منذ الرابع من شهر محرم سنة 636 هـ/1238م حين ثار على ابن هود أبي بكر الواثق.

(3) في اختصار القدح: كتابه الخطير الكريم.

(4) في اختصار القدح: ولقيت مُهديه، فأهدى ما منّ مستهديه.

(5) من هنا يبدأ ما جاء من هذه الرسالة في الروض المعطار حتى قوله: والرّضى بما قضاه الخلّاق العليم.

(6) تشبيه بليغ لبلنسية بالدّرة.

(7) في اختصار القدح: أهل.



وأذاب القلوب، وعلّم سهم الأحزان أن يصيب، ودمع الأجفان أن يصوب، فيا ثكل الإسلام، وشجو الصلاة والصيام، يوم الثلاثاء وما يوم الثلاثاء[1]، تاريخ الدّاهية الدّهياء، وتأخير الأقدام عن موقف العزاء.

أين الصبر مني وفؤادي أنسيه، لم يبق لقوسه على الرّمي سِيَه، هيهات يعود ما مضى من أنسيه، من بعد مصاب حلّ في بلنسيه، يا طول هذه الحسرة، ألا جابر لهذه الكسرة، أكلّ أوقاتنا ساعة العسرة، أخي أين أيامنا الخوالي، وليالينا على التوالي، ولاية عيش نعم بها الوالي، ومسندات[2] أنس يعدّها الرواة من العوالي، بعدا لك يا يوم الثلاثاء من صفر، ما ذنبك عندنا بشيء يغتفر، /117/ قد أشمتّ بالإسلام حزب من كفر، من أين لنا المفر كلا لا مفر، كل رزء في هذا الرزء يندرج، وقد اشتدت الأزمة فقل لي متى تنفرج، كيف انتفاعنا بالضحى والأصائل إذا لم يعد ذلك النسيم الأرج، ليس لنا إلا التسليم، والرّضى بما قضاه الخلّاق العليم[3]، والإيمان بأنه هو الغفور الرحيم، وأن عذابه هو العذاب الأليم، عرّفنا الله بما يبرد[4] اللوعة، ويزيل هذه الرّوعة، وجعلنا ممن ألظّ بجنابه، وكفانا ما لا طاقة لنا به[5].

(1) استولى النصارى على بلنسية بعد حصار طويل يوم الثلاثاء 17 صفر من سنة 636 هـ/ 30 سبتمبر 1238 م. ابن الأبار، الحلة السيراء، ج 2، ص 303.

(2) في ك 233: مسرّات.

(3) واضح من كلام ابن عميرة أنه كان متأثرا جدّا بهذا الحادث، يتملّكه شعور الأسى وتملأ قلبه الحسرة، حتى تحول من أسلوب الترسل الرصين إلى فنّ الخطابة المؤثر.

(4) في ك 233: يردّ.

(5) لابن عميرة رسالة أخرى في سقوط بلنسية، وهي أطول رسائله في هذا الباب، كتبها إلى صديقه ابن الأبار مجيبا. الحميري، الروض المعطار، ص 98. المقري، نفح الطيب، ج 4، ص 490 وما بعدها.

– 85 –

## وإلى أبي الحسين بن مفوّز[1] في رثاء شُقر[2]

[الرجز]

ما طول وجدي من نسيم نافح     كلا ولا لغزال أنس سانح
لكن لعهد مالنا منه سوى     ذكرى لها زند كزند القادح
يا نازحا لا أوبة ترجى له     أبدا وقد يرجى الإياب لنازح
أبقيت في كبدي عليك حرارة     هيهات أبردها بماء الماتح
يا دهر ليتك كنت عنا معرضا     إذ لا نرى لك غير وجه كالح
أولدت أيام المكاره ثم لا     نرجوك في ميلاد يوم صالح
وأبيت غير ضغينة من كاشر     وحميت إلا من سخيمة كاشح
وأزحتنا عن منزل كنّا به     في ظل عيش بالأماني طافح
شُقر وما شُقر وأيك حوله     تسلى النفوس بصائح أو صادح[3]
أرض تخيرها لطيب هوائها     عَبِقون من أرج الثناء الفائح
وأرى النعيم وكل ما يغدو له     يوما يصير إلى زوال رائح
فالآن نحن محلّ منزل قلعة     لا يستقل برازم أو رازح
ونؤم في عرض البلاد سياحة     ما كان أكرهها بخطو السائح

---

(1) هو أبو الحسين عبد الملك بن أحمد بن عبد الله المعافري المعروف بابن مفوّز، من أهل شاطبة، تتلمذ لأبي الخطاب بن واجب وأبي الربيع بن سالم، كان أديبا بارعا، ناظما ناثرا، مشاركا في فنون من العلم، له مصنّف سمّاه: "تشوّف الأريب لتألف الغريب"، تولى خطة القضاء في عدّة مدن، ورحل إلى تونس وبها توفي في شهر محرّم سنة 661 هـ/1262م، ومولده سنة 596 هـ/1199م. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الخامس/القسم الأول، ص 10.

(2) استولى نصارى أرغون على جزيرة شقر في آخر سنة 639 هـ/1241م، وأجلوا معظم أهلها، بينما بقي بعضهم تحت حكم النصارى. المقري، نفح الطيب، ج 4، ص 472.

(3) لابن عميرة في رثاء مسقط رأسه جزيرة شقر شعر كثير يكشف في معظمه عن حزن وحنين، وتشوق وحسرة. ومن أجود ما قاله فيها قصيدته الرّائية التي ضمنها رسالته إلى صديقه ابن الأبار في رثاء بلنسية. وقد أوردها المقري في نفح الطيب، ج 4، ص 493.



/118/ وأخ صريح الحب لام على النوى     واللوم من شأن المحب الناصح
رام الدّنو ورُمتُه لكن جرى     قدر فلم يسعف به ويسامح
وحياته لولا حياة أصاغر     غرسوا كبير الهم بين جوانح
لثنى عنان الشوق مني نحوه     كلف به يُثنى عنان الجامح
فلئن نأيت فما نأى ودّ حكى     عذر التفرق وهو أوضح واضح
ولئن سلا وسواه يحدث سلوة     فمبرّح الأشواق ليس ببارح

– 86 –

## وأجاب من مدينة سلا أبا العبّاس بن أمية يصف رسالته

[الكامل]

وحياة صدقك في الوداد فإنه     مما يكذّب في الوفاء وفاته
ما نال حظًا فيك من يبغي أخا     ثقة فصدّق أنّ شيئا فاته

أهلا بالخطاب المقبل[1]، بل بالرضاب في فم المقبّل، سلوة مشتاق، وخلوة حبيب بعد طول فراق، وكمامة فتقت عن مثل العبير، وغمامة شرقت بأصفى من العذب النمير، نشأت بحرية، وتضوعت أنفاسها عنبرية، واشتملت من البديع على أسلوب، حسنه غير مجلوب، وطريقة لسور الكلام مريقة، وصنعة دُهي غربه منها بأصلب نبعة، فأصبح مهجور الفِناء، مطرحا كالقديم من الغناء، أو مثل الكبير في عين الحسناء.

فيا أيها المبتدع نعمة البدعة هذه، ويا من عنده الوبل من ذا يساجلك برذاذه، لقد تأنقت في الاختراع، وما أشفقت على حَمَلة اليراع، تركتهم وعليهم غبار الهون، ومعهم مبتذلات المعاني العون، وليس مَنْ أنفق من فنون، وتدفق بحره بلؤلؤ مكنون، ودخل الهيجاء، بما أعدّ من شكّة، وتعرّض للصّرف ومعه ما جمع من كل سكّة، كمَن ينفق /119/ وبطن كيسه خميص، ويقدم وما على عطفيه قميص، فما

---

(1) يشير إلى الرسالة التي كتبها إليه تلميذه أبو العباس بن أمية من سبتة، فأجابه عليها ابن عميرة بهذه الرسالة.

أوضح ذلك النهج، وأملح ذلك النسج، وأسنى تلك القيمة، وأعذب تلك الشيمة، ولله ذو ود يرعاه، وعهد غيره يُكذّب متى ادعاه، سلمت عقدته من الانتكاث، وأمنت عهدته إلى الأبد لا إلى الثلاث، واقتضى من الشوق المنازع، وشكوى البين المثير جزع الجازع، ما باح النظم بسرّه، ونفث به القريض في سحره[1].

وأودعته العينية[2] التي تفديها منا عيون، وتستجديها أبكار من القوافي وعُون، فُضّت فأحسن بمفضوضها، وعُرضت فكانت كاملة مثل عروضها، وبُوحثت عن الشوق وضرامه، والحب وغرامه، والهوى ورسيسه، والبين وحثّ عيسه، ففعلت ممثلة ومخيلة، ومتلطفة في إيقاع ما أوقعته متحيلة، ما لا تفعله الأقاويل المبنية على التحقيق، المفيدة بالذات حقيقة التصور والتصديق.

ولقد هممت أن أعارضها رويا ووزنا، وأحاكيها لفظا ومعنى، ثم ذكرت قبل الشروع أنه عمل لا أطيقه، وأمل ما لكل أحد يبدو طريقه، وقلت عادم الماء إلى التيمم يعدل، وفاقد الأعلى بالأدنى يستبدل، فتكلفت ما من أجله يحمد السكوت، ونسجت ولكن كما ينسج العنكبوت، وهو[3]: [الرجز]

يا صاحبي وللفراق صبابة ... عما بقلبي من لواعجها سلا
واستخبرا خبري وإن جوّزتما ... بعدي السّلوّ فإن قلبي ما سلا
للصبر درع كنت منها حاسرا ... يوم انتقيت[4] البين سهما مرسلا
/120/ أنسٌ له منا انقباض في أسى ... وَجدَ الضلوع كما اشتهى فاسترسلا

(1) كعادته مع أصدقائه وإخوانه يصف ابن عميرة هنا بلاغة تلميذه أبي العباس بن أمية وتفوقه ويبالغ في ذلك بدافع المجاملة، ثم ينتقل إلى وصف قصيدته العينية التي حاول أن يعارضها ولكنه لم يطق ذلك كما يقول تواضعا منه.

(2) يريد القصيدة التي ضمنها أبو العباس بن أمية رسالته التي كتبها إلى ابن عميرة، ومما جاء فيها:

حلّوا سلا فسلي فؤادي هل سـ ... ـلا النفس أنزع والصبابة أطوع
بعدوا فهل لهم اضطلاع بالذي ... حملته من كلف الغرام الأضلع

الحميري، الروض المعطار، ص 319.

(3) هذه القطعة في شكوى الفراق، وقد التزم ابن عميرة في قافيتها ما لا يلزم.

(4) في ك 233: اتّقيت.



فمحدّث بباكٍ لآخر مثله ... بحديث شوق قد رواه مسلسلا
قد كان صفو العيش يدنو لو دنا ... ثاوٍ بسبتة من مقيم في سلا
من بعدهم لم أرض ظلا سجسجا ... كلا ولا استعذبت ماء سلسلا[1]

إيهٍ أيها الابن الذي بذّ الأبناء نجابة، وفاق الأدباء نظما وكتابة، لقد كنت عنك سؤولا، ومازلت بخبرك جهولا، أقول ليت شعري بأي أفق شروقه، وهل الأقدار تحمله عنا أم تسوقه، حتى وافاني كتابك بتخيرك خير دار، في أعز جوار، سبتة أمّ المدائن، ومأمّ ركائب السفائن، ولها بواليها[2] مُحلّي عطلها، ومُحْيي طللها، الكاسر الكاسب بأسطولها، الماجد[3] الذائد عن عرضها وطولها، إقبال أذهب لأوَاءها، وضاعف رواءها، وأجرى بمنافع برّها وبحرها نوءها وهواءها: [المتقارب]

أقم وقد اخترته خير جار ... فإني زعيم بحسن الجوار
وريّا لرأيك لما هجرت ... زُرق النطاف لخضر البحار

وأشرت إلى الإكباب على المباحث العلمية، وطلب الغاية السّبيّة[4]، ومن تصدّى لها لم يحقر منها نبذة، ومن تطعّم حلاوتها لم تعدل[5] بها لذة، فطوبى لمن رزق لها فراغا، ووجد في هذه الحياة بلاغا.

ونسأل ربنا أن يوضح لنا سبيل الحق الذي هو لنفسه شاهد، ومن ظلم الضلالات مباعد، تفضلت يا أخي بالابتداء فاكتب مواليا، ولا تكن عنّي بفكرك

(1) عارض ابن عبد الملك المراكشي صاحب الذيل والتكملة قطعة ابن عميرة هذه بقصيدة جاء في مطلعها:

يا عاذلي دع الملامة أو سلا ... عن صادق في الحب مثلي هل سلا
كيف السّلوّ ولي بحكم البين في ... مراكش جسمٌ وقلب في سلا

النباهي المالقي، المرقبة العليا، ص 131.

(2) يريد أبا علي الحسن بن أحمد المعروف بابن خلاص والي الموحدين على سبتة الذي كان يقيم عنده ابن أمية، وقد مرّ التعريف به في هامش الرّسالة رقم: 81.

(3) في ك 233: المجاهد.

(4) في ك 233: السّببيّة.

(5) في ك 233: يعدل.

نائيا، وعرّفني بما يتزيّد عندكم من الأنباء، فإنكم منها على سبيل تولّفها، وبمدرجة قلّما تخلّفها، وأنباء بلادنا للنفس بها كَلَف، وإن لم يكن فيها إلا أسى وأسف، فاشرحوا ما /121/ يبلغكم منها شرحا ينزل إلى التفصيل، ويأتي على الكثير والقليل، إن شاء الله تعالى.

-87-

## وكتب إلى أبي الحجاج البيّاسي[1]

كتابي إلى سيدي وأخي حفظه الله مقيما وسائرا، وأبقاه بغرر البيان ساحرا، وعن وجه الإحسان سافرا، ولا زالت آدابه تشوق سائلا وتروق سامرا، ومحاسنه كالشمس[2] إذا لم يلق نورها ساترا، من مُرسية والودّ روضة مطلولة، ورَحِم موصولة، خلص من القلب إلى حَبّته، واختص منه[3] بما ليس لأحد من أحبّته، وأثار شوقا على قدره، وهوى ثوى في صدره، وأسفا على عهد أصبو إلى ذكره، فات وردّ الفائت يعسر، وقَصُر وأيام السرور تقصر، كأنما كان قراءة سطر، أو إغفاءة فجر، أو زيارة مجتاز، أو عبارة ذي إيجاز، فمن لنا بذلك الأرحبي المذكّي، والأريحي يرتاح لما يخترع أو يحكي.

(1) هو أبو الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري البيّاسي، من أشياخ المؤرخين، والأدباء المشهورين، واللّغويين البارعين في العربية وضروبها. ذكر عنه ابن سعيد أنّه صحبه زمانا بأشبيلية والجزيرة الخضراء ولقيه بتونس، ولما عاد من المشرق لقيه ثانية بتونس، واستفاد من فنون آدابه. وكان كما قال حافظا لنكت تواريخ الأندلس حديثا وقديما، ذاكرا للفكاهات التي صيّرته للملوك والكبراء جليسا ونديما، إلّا أنّه بُلِيَ بالتقتير على نفسه، إلى حين حلول رمسه. له كتاب في التاريخ ذيّل به على تاريخ ابن حيان إلى عصره، وآخر سمّاه الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام، وكتاب الحماسة الذي ألّفه للأمير الحفصي أبي زكرياء يحيى وجمع فيه أشعارا كثيرة، نقل بعضها كلّ من ابن سعيد وابن خلكان. مات بتونس في ذي القعدة سنة 653 هـ/1255م، ومولده سنة 573 هـ/1177م. ابن سعيد، اختصار القدح، ص 94 وما بعدها، والمغرب، ج 2، ص 74. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7، ص 238 وما بعدها. السيوطي، بغية الوعاة، ج 2، ص 359. المقري، نفح الطيب، ج 3، ص 316.

(2) تشبيه مجمل للمحاسن بالشمس في قيمتها وأهميتها.

(3) في ك 233: منها.



ومتى نفوز بمن ينحت من صخر، ويزري بأبي صخر، ويغترف من بحر[1]، ويجري مع ابن بحر، ويجمع إسناده بين الجامع والمُسْنَد، وينشر من بدائع حفظه[2] ما يوثر يد المُسْنِدِ، شجرة علم توتي كل حين أكلها، ومزنة فضل تجود فلا يخشى بخلها، وضالة أدب يقل لها أن تجعل القلوب جعلها، بَانَ عنّا فاتعب وعنّى، فهل معين على ردّه إن نحن استعنّا، أو سبيل إلى ما يفيدنا من الكلام فنحن في حروف تجيء لغير معنى.

وقد وصل كتابه الأثير المبرور كما التقط حرّ المال المسيف، أو سقط عن /122/ ذات الخمار النصيف، فارتاحت له صدور المجالس، وقرئت منه سطور المعاني النفائس، وشاهد منه الناظر روضة فتانة، وألفاظا تبهر العقول سلامة ومتانة، واستوفى حديث سفره، وأيّام صدره، إلى أن جاوز المسالك المجهولة، وبلغ الغاية المأمولة، حيث حط الندى رحله بأكرم ندي، وكان قديما في آل عبادة لا في آل عدي: [الوافر]

أولئك معشر داعي نداهم ... بكل ندٍ يُجاءُ به يُجاب

مضاء تفرق الأساد منه ... وإيثار به نطق الكتاب

وأخبرني[3] عن قطب سيادتهم، وواسطة قلادتهم، بما أشبه محتده المعلّى، والفضل الذي بحليته تحلّى، وذكر أنه كساه ولم يستكسه، وأنساه بطلاقة يومه عبوس أمسه، ومنح ما يشكر الله مانحه، وسمح بثياب[4] تنشر محامده، وتنشد مدائحه، ولقد اختار لغرسه منبتا، وارتاد لسؤدده راسما في الفخار ومثبتا، وإنّي ليسرني أن يشاد بذكره في البلاد، ويطرز باسمه تاريخ الأجواد.

وإن وجدت مكان القول، ذا سعة فقد وجدت لسانا قائلا فقل، وسائر ما

(1) يشير إلى حكم الأخطل على الفرزدق وجرير، وقد تقدّمت الإشارة إليه في هامش الرسالة رقم (25).

(2) جاء عن البيّاسي أنّه كان يحفظ كتاب الحماسة لأبي تمام وديوان شعره، وديوان المتنبّي، وسقط الزّند لأبي العلاء المعرّي، والمعلّقات السّبع. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7، ص 238. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 29، ص 455.

(3) في ك 233: أخبر.

(4) في ك 233: بثُبَابٍ.

استوفاه من مديح، وأفاض فيه من شكر صريح، فقد صادف الثناء موضعه، ووقع من أولئك العلية موقعه، ولئن بلغوا غاية البرّ فقد أنصفهم ذلك النعت، وكلّ يقول إن الذي صنعت ليس بدون ما صنعت، ولا جديد أعرّف به إلا أشواق تعد اللقاء، وعافية تسرّ الأصدقاء، حفظ الله مكانكم، وأمتع ببقائكم الأطول إخوانكم.

– 88 –

## وصف المؤلف لرحلته من مرسية إلى غرناطة[1]

/123/ اقتضبْت هذه وأنا بين اختصار تسمّى به سحاءة، أو إطالة تعيي الناظر تأمّلا وقراءة، ذلك لأن لي غرضا في السفر ووصفه، ورأيا في زمّ[2] القلم عن سخفه، والقول يحيي أحيانا، ويعزب فلا يحير القائل بيانا، فإن سدّ الباب، قصر لا محالة الكتاب، وإن خليت السبيل، وأمكن الوخد والذميل، فأعدّا للضجر، واستعيذا من شرّ الهذر.

فارقت الأخوين الكريمين[3] بعد التغليس، صبيحة يوم[4] الخميس، وسرت بجلد منصرم، في هجير مضطرم، إلى الحَمّة[5] فإذا الهواء مثل مائها، والظهيرة نار لا

(1) في سنة 636 هـ/1238م كان ابن عميرة مقيما في مرسية عند صاحبها زيان بن مردنيش، ولمّا أدرك أنّ حكمه لن يعمّر طويلا بسبب تعرّضه للهجمات القشتالية والأرغونية، غادر هذه الجهات المهدّدة متجها إلى غرناطة التي كانت تتدفق عليها سيول الهجرة يومئذ من المدن الأندلسية التي استولى عليها النصارى. فكتب هذه الرسالة الإخوانية الطريفة وهو في طريقه إلى غرناطة يصف مراحل الطريق.

(2) في ك 233: ذم.

(3) هما الكاتبان: أبو عبد الله ابن الجنان وأبو الحسن العشبي، لأنّ معظم رسائل ابن عميرة الإخوانية يومئذ في وصف أخبار سفره وما لقيه من تعب وما تعرض له من أخطار أحيانا في أسلوب يمتاز بالطرافة والإمتاع، كانت موجّهة إلى هذين الكاتبين. ولابن عميرة رسائل أخرى في هذا الباب، منها الرسالة التي خاطب بها الكاتبين المذكورين، وأخرى كتبها إلى ابن الجنان، وهما عند ابن المرابط في زواهر الفكر وجواهر الفقر، القسم الثاني، ص 205 وما بعدها.

(4) كلمة "يوم" ناقصة في الأصل والزيادة من ك 233.

(5) في الأندلس أماكن متعدّدة تُعرف بهذا الاسم. والمقصود هنا حصن الحمّة القريب من لورقة. الادريسي، نزهة المشتاق، ج 2، ص 561.



حيلة في إطفائها، فكان النزول في مكان جوّه يتعسر، وفي ظل دنانير أبي الطيب فيه تنثر، بل كأنها مال لمانعي الزكاة منسوب، فتكوى بها جباه وجنوب[1]، فرفضنا القيلولة، واستقبلنا المسافة المملولة، وهذه الأميال، بها تضرب الأمثال.

إلى لُورقة[2]، وبعد مشقة، كقبض على جمر، نزلنا على قاضيها أبي عمرو، ولله دره، فلقد وقع أحسن المواقع برّه، ثم رحلنا من الغد، وقطعنا ما بين أيدينا من الفدفد، في أرض مُدّت مدّ الأديم، ويوم كنا منه في سموم وحميم.

إلى بيرة[3] وصلناها عند امتداد الأفياء، وبعد اشتداد الإعياء، فعُيّن منزل سخيف، وبيت هو كنّ وكنيف، فأغرى ذلك المعرّس بطول المشي، وأخرجت روائحه إلى حدّ الغشي، ودعت الضرورة إلى ارتياد بخور، واستعداد ولو بيَرْبَطور[4]، فجيء بدخنة ضجت منها الأنوف، وقالت أين ذلك العرف المألوف، وفي تلك الحال غشيني من البرغوث والقراد، رجل كرجل الجراد، باتت بين وثب ووخز، وفكت إلى ما /124/ خفي من الأعضاء كل حرز، فكانت ليلة بطيئة الكواكب، صدق عزم الرّحيل عند فجرها الكاذب[5].

فدخلنا فلاة هي مضلة كل سالك، ومظنة داعر وسافك، لا ترى غير صراية تصرع الناقف، وسدرة لا تظل الواقف، فامعنّا في تلك البرّية، ونزلنا آخر النهار على أقرب الجباب من المرية، وردناه عند الغروب، بعد مسّ اللغوب، وما يقال هنا

(1) اقتباس من الآية رقم 35 من سورة التوبة.

(2) بينها وبين مدينة مرسية أربعون ميلا، وهي مدينة حصينة تقع على ظهر جبل، في أسفلها ربض عليه سور، بها معادن كثيرة. الحميري، الرّوض المعطار، ص 512.

(3) بينها وبين لـورقة مرحلة، وهي حصن منيع على حافة مطلة على البحر، صافية الجو. الادريسي، نزهة المشتاق، ج 2، ص 562.

(4) اسم لاتيني من عجمية الأندلس، وهو من أنواع الكلوخ، ومنه ما يعرف عند الشجارين بالأندلس باليربطور الساحلي لأنه أكثر ما يكون بالسواحل، ومنه نوع آخر يعرفه أهل غرب الأندلس باليربطور الشعراوي. رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية. بيروت: مكتبة لبنان، 1991، ج 2، ص 858.

(5) يشير ابن عميرة هنا إلى أهل مدينة بيرة الذين لم يحسنوا إيواءه وضيافته، وقد وصف ابن الخطيب هذه المدينة بمثل ما ذكره ابن عميرة. ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 58.

وصلناه وعليل اليوم قد أشبه الميت، والشمس من شأنها كيت وكيت، بشيء لا أشتهيه، أو لا أحسن الأخذ فيه، ومن أراد هذا المنزع وأعجبه، فعليه بكتاب الفتح ومن ركب مركبه، وعلى الجب جبل شامخ، فيه أسود سالخ، فحين أريحت المطايا المستكرهة، نزل إلينا كأنه أبرهة، فاستعرض الأكرياء، وتحكم فيهم كيف شاء، ولما فرغ من إتاوته[1]، وفل غرب قساوته، صعد الجبل، وتركنا والوجل، فبتنا نتوقع البيات، ونعد متاعنا في ما قد فات، وبعد هدءٍ كان الظعن، وآن أن يذهب الحزن، وتنعم النفس والبدن.

إلى المريّة[2] دخلناها صدر النهار، وقصدت نادي المجد والفخار، فلقيت من ذي الرّياستين والوزارتين[3] أعلى الله قدره بدر الدجى، وطود الحجى، والليث المرهوب والغيث المرتجى، من همام سؤدده فوق الكواكب، وجوده مثل السحاب السواكب، فأقمت هنالك[4] أربعا، ولقيت من القبول والبر مصيفا ومربَعًا، وبِتّ إحدى تلك الليالي عند القاضي أبي عبد الرّحمن، نادرة هذا الزمان، فطاب السمر، وما شعرنا حتى مجيء السحر.

وفي أثناء مدة الإقامة قيل /125/ إن المسير إلى بسطة على شرغل[5] هيّن،

---

(1) يُستفاد من كلام ابن عميرة أنه كان يوجد على الطريق أشخاص يعترضون سبيل المسافرين ويأخذون منهم الإتاوات.

(2) من أجلّ المدن الأندلسية وأشهرها لأهميتها البحرية والتجارية، تقع في جنوب شرق الأندلس على خليج واسع عميق، بين مدينتي مالقة ومرسية. الحميري، الروض المعطار، ص 537. عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، قاعدة أسطول الأندلس.

(3) هو أبو محمد عبد الله بن عبد الله بن محمد بن عبد الملك الأموي المعروف بابن الرّميمي، وزير ابن هود وعامله على المرية، وقاتله سنة 635 هـ/1237م بسبب جارية رومية كما قيل. وظل مستبدا بحكم المرية بعد مقتل ابن هود حتى سنة 643 هـ/1245م، لمّا استولى عليها ابن الأحمر وطرده منها، فلجأ إلى تونس عند أبي زكرياء الحفصي فمات هناك. ابن عذاري، البيان (القسم الموحدي)، ص 343. ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 203. المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 448.

(4) في ك 233: هناك.

(5) تقع على الطريق السالك من المرية إلى غرناطة عبر وادي آش، وتبعد عن المرية بنحو 40 كلم.



وهناك فتى من أهلها متعيّن، هو يسهّل الصعاب، ويعرف تلك الشعاب، وخوطب بأن يلقى ويرحّب، وَيصحَب ويُصحِب، فقصدنا بقعته، وأمّلنا خفوفه للّقاء وسرعته، فحين أطللنا عليه وجم، ولما رأى الكتاب بكى حتى رُحم، وعندما قرأه واستوفاه، عرته غشية خرّ منها لقفاه، وكانت هنالك عين طُرح بإزائها، ورُشّ وجهه بمائها، وعلمت من أين دُهي الفتى، فصحت بالصبي وقوفك إلى متى، أنزل ما على ظهر الدابة فقد أثقلها الشعير، وذلك الخبز الكثير، وما فعلت الدجاجتان، وأين بقية الألوان، وفطن للجواب، فقال: كل ذلك في القراب وكان هذا التدبير لما عراه، أنفع من دواء المسك وما في معناه، ولما وجد بعض خفة، أشار بنزولنا تحت أشجار ملتفة، ثم قام يجر رجليه، وكان آخر عهدنا بالنظر إليه، فبقينا بشر منزل وبتنا من القرية بمعزل[1].

وحين عز الإسعاد، وأخطأ المراد، قلت هذا واد به شيطان، وإن نبا وطن فثم أوطان، فعدلنا إلى بردانة نحث الخطى، ونعدو المرطى، ووصلنا بلفيق[2]، بعدما أخطأنا الطريق وعدمنا الرفيق، فوقفنا بتلك الصحاصح، وشاهدنا بعض آثار الرجل الصالح[3]، ثم صعدنا العقبة التي لا تقاس بها هضاب أَبَان[4]، ولا عِقاب لبنان، وهي المجاوزة مطار الفتح المحلقة، المجاورة مدار الشهب المتألّقة، وجعلنا نرقى ولا قنة، ونلقى ما يذهب الجلد والمنة، إلى أن زالت الشمس، وكاد يغلب اليأس، وما صرنا إلى الذروة إلا بعد قطع الأبهر، /126/ ومكابدة الخطب الأعسَر.

ثم أخذنا في حدور وهبوط، ومسلك غير محدود ولا مضبوط[5]، إلى أن

---

(1) غادر ابن عميرة مدينة المرية وهو يحمل معه كتاب توصية في شأنه إلى رجل من أهل شرغل لضيافته ومساعدته، ولكن هذا الرّجل لم يكن عند حسن الظنّ لاتصافه بالبخل والتقتير.

(2) بلدة من ولاية المرية، تقع جنوبي برشانة على مقربة من نهر المنصورة وشمالي ثغر المرية.

(3) لعله يريد الإمام الصوفي والولي العارف أبا إسحاق إبراهيم ابن الحاج جدّ أبي البركات البلفيقي، الذي بنى ثمانية عشر جبّا في مواضع متفرقة، ونحو عشرين مسجدا، وبنى أكثر سور حصن بلفيق، كل ذلك من ماله. المقري، نفح الطيب، ج 5، ص 477.

(4) جبل ببادية العرب وهما أبانان الأبيض والأسود بينهما ثلاثة أميال، أما الأول فهو لبني فزارة والثاني لبني والبة بن الحارث بن ثعلبة بن دودان. الحميري، الروض المعطار، ص 6.

(5) في ك 233: مربوط.

ولّى عمر النهار، ونسخ وقت الضرورة وقت الاختيار، فبلغنا برشانة[1] وما كدت، وشاهدت من العجب ما به شهدت، وكان الحلول بالمحل الخصيب، والمنزل الرحيب، حيث نار القرى تأجج، وصباح البشر يتبلج، وعرف الثناء يتضوع ويتأرج: [الكامل]

ندبان يستبقان في شأو العلى ... من آل رشدين وآل سميدع

فلأحمد ما شاء من جنباتها ... ومحمد منها بأرفع موضع

ومن الاتفاق الحسن، مصادفة المشرف أبي علي بهذا الوطن فبه قربنا المكان، ولله أخلاقه الغرّ الحسان، وأنا الآن أعمل إلى بسطة[2] وشيك السّير[3]، وأتقدم بأخذ الفال وزجر الطّير، فالطريق مَجرّ عوال، ومقرّ أهوال، والله يرزقنا العافية، ويلبسنا برودها الضافية.

وقد امتد هذا الهذيان، وقطع به الزمان، وشغل عن ذكر الشوق والحديث عنه، والاستيحاش وما أجد منه، بالله كيف أنتما في هذا الباب، وما عندكما من الذكر المنتاب، أما أنا فوجدي مبرّح، ولسان شوقي مصرّح، ومرعى أنسي ذابل مصوّح، والفرق بينهما أبقاكما الله بيّن، والأمر عليكما لا محالة هيّن، تخضمان ونقضم، وتنظمان من أشتات المنى ما لا أنظم، وترجعان إلى إدارة تبسط الأمل، وتحسن القول والعمل، فمن بكور، إلى باكور، ورواح، إلى جود وسماح، ليس إلا بشر ماؤه سيّال سلسال، ومشهد كله جمال وإجمال، فهنيئا لكما ذلك الحظّ، ولا فضّ شملكما هذا الزمن الفظ.

/127/ قد أطلت وأمللت، ولو أصبت لسكتّ وأقللت، فارضيا بالحاضر،

(1) مدينة حصينة من ولاية جيان على نهر المنصورة الشهير بالحسن، كانت من أمنع الحصون مكانا وأوثقها بنيانا وأكثرها عمارة. ابن سعيد، المغرب، ج 2، ص 81. الحميري، الروض المعطار، ص 88.

(2) مدينة جميلة من ولاية جيان قريبة من وادي آش تقع على بعد 123 كلم شمال شرق غرناطة، مشهورة بالمياه والبساتين. الحميري، الروض المعطار، ص 113.

(3) واضح أنّ ابن عميرة قد كتب هذه الرّسالة من مدينة برشانة وهو على وشك الرّحيل إلى مدينة بسطة مواصلا رحلته إلى غرناطة. وقد توقف عن ذكر مراحل سفره وانتقل إلى مداعبة صديقيه المكتوب إليهما.



واغضيا عن عفو الخاطر، وأعفياني من تعقب الألفاظ، ولا تخرجاني إلى حد الإحفاظ، والاستقصاء فرقة كما قيل، فالتمسا لي العذر الجميل، وأيضا فما أنا ممن يغمز بالبيان، ويقعقع له بالشنآن، ولا يكبر عند تصفح اليواقيت، ومطالعة إصلاح ابن السّكّيت[1]، فأما الصحاح فما كتب الله علينا أن تمنع ما منعته، ونقف عند ما جمعته، كما أن مزية الإكثار، والتبحر في الأشعار، وتدقيق المعاني، وحفظ ما في اليتيمة والأغاني[2]، والتلاعب بقريض طيء وكندة، والإزراء بنظم العبدي وعبدة، شيء لا يمنعني من الاسترسال، ولا يثني من عناني في هذا المجال، وهذا هزل لكما أن تزيفاه، وفصل غث يجب أن يصفع قفاه، قد ثبت فلا سبيل إلى محوه، وحان أن يقصر القلم عن شأوه، فمن الإكثار، ما يؤدي إلى العثار، وفي التطويل، ما يدعو إلى التثقيل، وقى الله الأخوين السّريين، وأبقاهما في المعالي سيّين[3]، وبالسيادة حريين، والسلام.

– 89 –

## وكتب شاكرا

سيدي وأخي أدام الله عزتكم، وحفظ ولاءكم ومودتكم، كتبته عما تعلمون من ودّ كتابه لا ريب فيه، وأسبابه تشهد بقوة مبانيه، وأنا متشوف إلى أنبائكم تشوف المدلج إلى الضّوء، والمجدب صادق النّوء، وحالي على ما يسرّكم من العافية، والنعمة الشاملة الضافية، شكر الله /128/ مقام الخلافة العُليا، وحكم لها بخير الدّين والدّنيا، وبلغني ثواء صاحبنا الوزير

(1) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السّكيت، كان إماما في اللغة، عالما بنحو الكوفيين وعلم القرآن والشعر، راوية ثقة. له تصانيف صحيحة جيدة منها إصلاح المنطق، وكتاب الألفاظ، وكتاب معاني الشعر وغيرها. كان معلما للصبيان ببغداد، ثم أدّب أولاد الخليفة العباسي المتوكل الذي قتله سنة 244 هـ/858م بسبب تشيعه. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 6، ص 395 وما بعدها. السيوطي، بغية الوعاة، ج 2، ص 349.

(2) يريد كتاب يتيمة الدّهر في شعراء أهل العصر للثعالبي النيسابوري، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني.

(3) في ك 233: سويّين.

الفقيه أبي جعفر بن شنيف[1] هنالكم فيما شكره من قبول، وبرّ مبذول، فقلت شنشنة أعرفها[2]، ويد ما كل أحد يصفها.

وحامل عجالتي هذه فلان وهو خاص بي يستوفي من ذكري وشكري ما سمعه منّي، وتكفل بنقله عنّي، إن شاء الله وهو تعالى يديم عزتكم، ويحرس حوزتكم، بمنّه والسلام يخصكم به مكبركم ومُجلّكم أخوكم الحفيّ بكم، الحافظ لعهدكم، ابن عميرة ورحمة الله تعالى وبركاته.

– 90 –

## وخاطب صاحب منورقة يعلمه بخبر حلوله تونس ويوصيه بتخليص أسير[3]

التحية المباركة يانعة النور، ذائعة في النجد والغور، تتأدى إلى المحل الأسمى، وإن سمّيت أطيب الطيب فعلى أن الاسم هو المسمى، قد علم أولياء تلك الرياسة، ولو لم يكن معهم إلا مجرد الفراسة، أنها بسِيمى الكمال موسومة، وبين الندى والبأس مقسومة، فيوم منها لِمُحتاج تصل معترّه، وآخر ليوم هياج تصلى حرّه، وآثارها الحميدة في الصادر والوارد، ومع الغائب والشاهد، لها الذكر الذي به أثارت المطالع، وإليه سارت[4] المطامع، فالأيدي بفضلها عارفة، والألسنة على شكرها عاكفة، ولها من النفوس موقع عَرفَه من عَرفَه، ومكان لا يرغب فيه إلا من

---

(1) أبو جعفر أحمد بن محمد بن شنيف العقيلي البلنسي، من تلاميذ أبي الربيع بن سالم وابن الأبار وابن عميرة، وهو من أصحاب ابن عبد الملك الذي ترجم له قائلا: خلف فوائد جمة وتعاليق أدبية كثيرة وجملة وافرة من كلام أبي المطرف بن عميرة نثرا ونظما، وكان نبيل الخط متقن التقييد، كتب الكثير وعني بالآداب كثيرا، جالسته طويلا وانتفعت به، وصار إلي معظم ما قدم به بعد وفاته. خرج إلى بلد حاحة من أعمال مراكش مصرفا في بعض مجابيها السلطانية سنة 664 هـ/1265م فاغتاله عاملها بإذن الخليفة الموحدي المرتضى لمداخلته أبي العلاء إدريس الملقب بالواثق بالله بعده. الذيل والتكملة، السفر الأول / القسم الثاني، ص 431.

(2) يريد المثل العربي القائل: "شنشنة أعرفها من أخزم". يُضرب في قرب الشبه. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 505.

(3) تكرار للرسالة رقم (59) من هذا السّفر.

(4) في ك 233: صارت.



تحقق شرفه.

وأنا وإن كانت مخاطبتي لها في ما مضى حيّ ما شمت برقه، وجنىً ما علمت غدقه، فقد كان يبلغني من أحاديثها المستحلاة المستملاة، ومكارمها التي قصّرت عن وصفها /129/ الألسنة الغلاة، ما صِرتُ به أحد أشياعها، إما واغلا على ندمائهم، أو داخلا باسمي مع أسمائهم، فلما استقلت قدم الجد، بالقرار في عرصة العلاء والمجد، وجدت جانب المخاطبة كثبا، وألفيت للمفاتحة سببا، وهو إعلام الرياسة المبرورة بهذا القدوم، والحلول من هذه الحضرة بمثل مصابّ الغيوم، ومصامّ النجوم، ولا شك أن الرياسة التي على حبها جبلت، ولفضلها ما جهلت، تسرّ بخبري، وتلهج بما سفر عنه سفري، وكيف لا واعتدادي بها اعتداد الصحيح بسلامة أعضائه، والشحيح بما أحرز في وعائه.

وعندما بلغت هذا الموضع من الكتاب دخل إلي من إخواني فلان يذكر يدا في حق ابنه المأسور أوليتموه إياها، ووعدتم بتمامها إذا بلغت أناها، فكلفني ختم كتابي بشكر عارفتكم هذه التي كل من إخوانه لطوقها[1] تقلد، وبقيدها[2] تقيد، وأنا علم الله من أصدقهم له ودادا، وأكثرهم بما أسديتم إليه اعتدادا، وإذا شكر ذو معروف ليستبصر في شأنه، ويزيد من إحسانه، فسجايا الرياسة المبرورة تتحرك إلى المكارم من ذاتها، وتجد الإمعان فيها أكبر لذاتها، أبقاها الله والكمال من حلاها، والآمال تشكر ما أولاها.

– 91 –

## الإخبار عن تهنئة المستنصر الحفصي بمناسبة جلب الماء إلى تونس[3]

فكُتِبَ كتب الله لمجدكم الأسمى[4] صفاء المشارب، واصطفاء المآرب، من

---

(1) في الأصل طوقه والتصحيح من ك233.

(2) في ك 233: بغيرها.

(3) لابن عميرة رسالة أخرى في هذا المعنى انظرها تحت رقم: 172. ولسنا ندري أهو الشخص نفسه المكتوب إليه هناك.

(4) في ك 233: الأسنى. وهذه الحلية ليست من الصّيغ التي يُخاطَبُ بها أمراء الدّولة الحفصية، =

فلانة وليس ببركة الإمارة العلية أيّدها الله إلا كلّ صُنع يخرق العادات، وينجز أفضل العِدَات، وما يجب من تعظيم مجدكم، والاعتداد بكريم قصدكم، فهو نجيّ ضميري، /130/ وجارٌ لي، إن أُخفِرت الذمم فهو مجيري، وإن قصرت الهمم كان خورنقي وسديري[1].

وبلغ ما أجراه الله للمقام الكريم أيده الله من أثر بالسعادة ناطق، وللعادة خارق، وهي سُقيا الله وكرامته، والنّعمة التي فيها ثواء الثاوي وإقامته، ولطالما أعيت المتناول، وأعجزت الأوائل، وكانت الأعصمَ الصّدعَ[2] شرادا، والأبلق الفرد[3] انفرادا، حتى أتى الدّنيا ابن مجدتها[4]، وأطلّ على المعالي طيبُ نجدها وطيبُ نجدتها، فأصبح[5] أبيّها، وأتى أتيّها، وجاءت في بطون الثرى جارية، ومن عيون الورى متوارية، إلى أن برزت كريمة المنتمى، مباحة الحمى، شهية الماء واللّما، تجلّ عن التعجّب بما والتشبيه بكأنما. وقد بعثت بخدمة في هذا المعنى[6] تقل بإزائه، وتنزل عن سمائه، وأرجو لها من عنايتكم المباركة ما يقضي حاجة نفسي،

---

= فقد يكون المخاطب وزيرا أو من ذوي الشأن.

(1) الخورنق قصر النعمان بظهر الحيرة وقد تقدم التعريف به في هامش سابق. والسّدير فارسي معرّب، وهو البناء من ثلاث قباب متداخلة. والسّدير: نهر، ويقال: قصر. لسان العرب، ج 4، ص 355.

(2) الأعصم الصّدع: الوعل القويّ الفتيّ الشاب الذي في ذراعه بياض ويندر وجوده. لسان العرب، ج 8، ص 196، وج 12، ص 405.

(3) الأبلق الفرد: هو حصن السموأل بن عاديا، بُني من حجارة مختلفة الألوان بأرض تيماء شمال المدينة المنورة، كانت العرب تضرب به المثل في الحصانة والمنعة فتقول: تمرّد مارد وعزّ الأبلق. الحميري، الروض المعطار، ص 10. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 173.

(4) في ك 233: بجدتها.

(5) في ك 233: فأصحب.

(6) يشير إلى رسالته التي كتبها إلى المستنصر الحفصي يهنّئه بمناسبة جلبه الماء إلى العاصمة تونس من جبل زغوان بواسطة الحنايا الرّومانية التي أعاد تصليحها وترميمها سنة 648 هـ/1250م. وقد أورد هذه الرسالة ابن عبد الملك في الذيل والتكملة، ج 1، ص 154. وقد تسابق الأدباء يومئذ في الإشادة بهذا العمل المعماري وتسجيله، كابن الأبّار الذي وردت رسالته في الذيل، ج 6، ص 270، وفي أزهار الرياض للمقري، ج 3، ص 211.



ويبشر بالنجاح نفسي وطرسي.

–92–

## وكتب شاكيا في ساعة ضيق وقنوط

[البسيط]

قوم هم الرأس والأذناب غيرهم    ومن يساوي برأس الضيغم الذنبا[1]

وفضل الرأس إن ذكر الأنف بإزائه، فضل الكلّ على بعض أجزائه، ثم أين ذات الوضين، من ليث العرين، ومحلّ النّاب المذللة، من حال ذي الأنياب المؤللة، تلك تطس الضّران، وهو يفترس الأقران، وخائضة الآل لخرق يجاب، وأبو الأشبال ذو خلق يهاب، فما أجرى جرول حيث أجريت، ولا برى من قداح الأمداح ما بريت، كما أن آل جعفر، اتقوا من بيته بلأمة ومغفر.

فأما أنتم فما وجد المدح لكم حسبا /131/ واهيا فبناه، ولا مرمى بعيدا فأدناه، بل مجدكم مَفرِق يزيّن التاج، وكوكب مشرق يغمّ السّراج، والسّيد الأوحد نعم أخو العشيرة، وموضع إشارة الأنامل المشيرة، أتلع جيد العلاء فقلده الدّماثه حلية، وخاف على فضله آفة الامتلاء فلزم التواضع حمية، وبذل لي من طيب عشرته ما جعلته ظهيري، وأكلته بضميري، فحسبي مُنًى هذا الندب السّريّ، وغِنًى ذلك الشبع والرّيّ.

وعجالتي هذه تكلفتها والقلم يمج المداد، والقول يمنع القياد، والفكر ضَنٍ بغير عائد، عَمٍ دون قائد، فأما العين فبضروب الأقذاء مطروقة، وعن الملائم من محسوسها مصروفة، رأت ما لم ترَ عين، ودعت على البين فلا كان بين، وليلة أخبرني السيد أنه أوطِئ حجري، وأطلع على أمري، أسفت على ما كان من إحالته على كذوب والله ما عرفت عينه، ولا سمعت مَينه، فلو أنه بنفسه كلمني، وبما لديه أعلمني، لوجدت لخناقي متنفسا، وفي ضالة خبري متحسسا، فسمعت وأجبت،

---

(1) تضمين لبيت الحطيئة من قصيدته التي يمدح فيه قوما من بني سعد بن زيد مناة الذين كانوا يعرفون ببني أنف الناقة:

قومٌ همُ الرَّأسُ والأذْنابُ غَيْرُهُمُ    ومَنْ يُسَوِّي بأنْفِ النَّاقةِ الذَّنَبا

وأذنت وحجبت، وأطلقت وعقلت، وعثرت واستقلت، ولكنّي خوطبت حيث لم أجد على المراجعة أعوانا، ولم أستطع أن أبسط بالرّدّ لسانا، فجرى ما جرى، وقيل إنما تنزل بأم القرى، ولكنها واد ذو زرع[1]، ولديها[2] كل ما قيل في سهم جمعٍ، وقد آن لك أن تملأ العياب، وتحرز الغنيمة ولا تطلب الإياب.

والحال التي أنا عليها الآن سقم بغير عائد، وظلم من زمن معاند، وتفصيل هذا المجمل في رسالة غير هذه استوفيته، وكتابي هذا على نسختها طويته، وخاطبت مع هذه العجالة شيخنا المعظم الفقيه /132/ القاضي أدام الله عزته: [الطويل]

وأشعرته في رقعتي بزيادة     وجدت لها بردا على كبدي الحرّا

وسيدي يتفضل بمذاكرته في هذا الحديث، ويرثي لهذا الفؤاد الذي هو بين صفّي الأنكاد في حكم الرّثيث، وأنا ارتقب منه أن يؤنّس بمكتوب، وينفّس عن مكروب، ويسمح[3] لشاس من مائه بذنوب، ولكعب في آخر ذمائه بمشروب، إن شاء الله تعالى.

-93-

## رسالة جوابية على كتاب أبي عثمان سعيد صاحب منورقة

[الطويل]

حلفت بمن أعطاك في الفضل سورة     بها التأمت في واحد صورة الجمع

لذكراك في نفسي ألذّ من الكرى     لعيني ومن بشرى تمرّ على سمع

ومن لي أيها السيد بأن أراك، وكيف لا تكون كذلك ذكراك، وقربك من التوفيق للإنسان، وحبّك ليس بتزويق اللسان، كما أن فضلك قد أملاه الملوان،

(1) اقتباس من الآية رقم 37 من سورة إبراهيم.

(2) في ك 233: ولكلّ بها.

(3) في ك 233: يمسح.



ومحاسنك أزهار الروض ذات الألوان، وأين من[1] ينبت الربيع فيقتل أو يلم، ويلفح الهجير فيسقط ولا يثم، من يانع أدب هو من شمس النهار إياة[2]، ولعقم الأفكار تلقيح وحياة، وشجرة بلاغة ذات قرار ومعين، ﴿تؤتي أكلها كلّ حين﴾[3]، وتحمل وهي رضوى ما في القضيب من لين، ثم لا تحيلها[4] السّنة عن سنّ الفتاء، ولا يقضّ من غضارتها نَفَسُ الصّيف والشتاء، بل تزداد حسنا ونضارة، وتلبس حليّ الجمال تملكا لا استعارة، وتوجد من أطائب الثمر، وغرائب السمر، ما نرى أنه صوب الوابل، وصوت البلابل، وتنعم منه برجع الفوائت، وسجع /133/ الفواخت، ومثاني القريض، وثنايا الإغريض، بل نعدّه من شرك العقول، وشرف المقول.

كهذا الكتاب[5] الذي وجدته نُعمى عيني، ورحمى أصلحت بين الأيام وبيني، بعد أن كانت زوت عن جهتي صلحها، وروّت من كتيبتي رمحها، وشجتني بدهاء قيس، وشجّتني بمثل أبي قبيس، فقد استقلت من شرك العثار، وحصلت على درك الثار، بوارد أظفر بالإحسان يد منتظره، وبشّر رائد البيان بلقاء خضره، حين اتخذ سبيله في البحر عجبا[6]، وكان لقضاء الوطر بعد ركوب الخطر سببا، وافى والعيش بؤس، واليوم من غده يؤس، فأكلت من جنته رغدا، وتلوت ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غدا﴾[7].

وسرّحت الطرف منه في منظر صوبه إصابة، وروضة لم تَحُكه سحابة، من نظم لا أبدع منه إلا نثر طلع في أعقابه[8]، وتلفع بنقابه، ونثر لا أغرب منه غير نظم

(1) في ك 233: ما.

(2) إياة وأياة: شعاع الشمس وضوءها. لسان العرب، ج 14، ص 63.

(3) الآية رقم 25 من سورة إبراهيم.

(4) في ك 233: تخيلها.

(5) يريد الرّسالة التي كتبها إليه أبو عثمان سعيد يهنّئه فيها بقضاء قابس وهي مؤرّخة في العشر الأواخر من شهر ذي القعدة سنة 649 هـ/1251م. وهي واردة في مخطوط لباب الألباب، الورقة 61 وما بعدها. وجاءت هذه الرسالة جوابا لها.

(6) اقتباس من الآية رقم 63 من سورة الكهف.

(7) الآية رقم 34 من سورة لقمان.

(8) استهلّ أبو عثمان سعيد صاحب منورقة رسالته التي كتبها إلى ابن عميرة بقصيدة شعرية بائية =

تاخمه في المكان، وزاحمه على الحسن والإحسان، شربا من قليب واحد، ووردا جمة البديع أول وارد، فإن فخر القريض بحفظه لمعاني الإجزاء، وحظه من تساوي الأجزاء، وأن مزية الطول بسهمها خرج، وأولى الدوائر[1] في بيتها درج، ظهرها هو بطن أجنته، ومجتمع حلقه[2] وأسنته، وبكِناسها رتع الظبي وأطلاؤه، ومن كأسها سقي الشارب وندماؤه، فلهذا النثر متن غير متنه، ووزن هو أغمض من وزنه، وتناسبٌ لا يفطن له كل ذوق، ولا يصلح بجيده كل طوق، وهل قدر الشعر أن يصف تلك الأوصاف، ويطوف من سكك البيان حيث طاف، أو هل يستطيع أن يخترع أسلوبا كأسلوبه، /134/ ويبتدع كل معنى بقيت أرتاح له وأسلُو به.

افتتَحَ[3] بالدعاء الذي أرجو يُمنَ سفارته، وأمْنَ خفارته، وأحرى به أن يمضي إذا كلّت الأسلحة، أو يطير حيث لا تبلغ الأجنحة، وهو عن نية ناصحة الجَيْبِ[4]، ومن أخ صالح بظهر الغيب، هوى من غرضي ما أهوى، ونوجي بضميري فسمع النجوى، وشكا صروف الأيام وما تصرف عنه الشكوى، وإنما هي رقة يجدها الصبور، ونفثة يستريح إليها المصدور، وهي الليالي راميها تعوّد الإصماء، وشاكيها أعارته أذنا صمّاء.

وأخبر السيد عن عهد الجواز وطيبه، وغصن العيش واهتصار رطيبه، أيام كنّا وكتاب النوى مختصر، وباع المنى ما فيه قصر، والفيج تدنو مسافته، والموج لا ترهب آفته، ولثغر الشدائد سداد، ومن بحر الفوائد أمداد: [الطويل]

عطاء امرئ لا يعرف العرض وافرا ... إذا لم ير المعروف نهبا مقسما[5]

---

= تتألف من سبعة وثلاثين بيتا.

(1) يريد أولى الدوائر العروضية الخمس، وهي دائرة المختلف التي تضم بحر الطويل والمديد والبسيط.

(2) في ك 233: خلقه.

(3) بعد وصفه لبلاغة أبي عثمان سعيد نظما ونثرا والإشادة بها، انتقل ابن عميرة هنا إلى الحديث عمّا جاء في رسالة الأمير المذكور من أخبار.

(4) فلان ناصح الجيب: يُعنى بذلك قلبه وصدره، أي أمين. لسان العرب، ج 1، ص 288.

(5) من شعر أبي عثمان سعيد يحض على الكرم: =



تعلمها من جاره البحر شيمة ... أو البحر هذا الجار منه تعلما

وبعد أن شكا الأيام ولومها، والأشواق وكلومها، قايس بين باعي وشبره، ووكل ما استشكل إلى ليث شعره، فلولا أنها التفاتة وهفوة في هفوات الخواطر معدودة، وبشهادة[1] الضمائر مردودة، لضاق اعتذاره، وضاع استغفاره، هذا ولو كان على السّبعين زائدا، ومن الخطايا كلّها مباعدا، وعطف على ذكر الحوم من طير المنية، واللوم لهذه الدنيا الدنية، وإنما الدار دار غرور، لا سرور، ومصرع جاهل، لا مشرع ناهل، ومصب ترح، لا مصاب فرح، وقديما أثكلت الآباء، وأكلت الأبناء، وعنت الوارث وأورثت /135/ العناء، شهدها صاب، والمصيب منها مصاب، وقطينها شمله مصدوع، وعزيزها أنفه مجدوع، والمستنيم إليها متخادع أو مخدوع.

وذكر النجل[2] الذي كان منتظرا، بل الفرع الذي أصبح محتضرا، وأن الواهب ارتجعه، والرّدى به فجعه، حتى أسلمه إلى بطن أمّ لا تطرق بالحمل، بل تفرّق عرى الشمل، ولا تبالي إحراق الثكل، بل تحكم وثاق الشكل، ثم لا مسرح لربيطها، ولا مُستروَح من مركزها إلى محيطها، فليس إلا رضًى بالقضاء وكريه كرّه، وإيمان بالقدر خيره وشرّه، وعند الله نحتسب الفرط الذاهب، ونرجو هبة الثواب ثم لا نشكر إلّا الواهب، وغير السيد الأوحد خلا بقلب الهائم، وسلا سلو البهائم، فأما هو فبعين الاعتبار ينظر، ولأخبار الأخيار يذكر، ومن جزع الجلى يأنف، وعلى ما

---

=

لا تمنع المعروف يَوْ ... مًا مُعرِضًا ومُعرِّضا

فكلاهما من حقه ... فيه له أن يُقرضا

هذا تنزّه فاستحق ... على نزاهته الرّضا

والآخر استحيا من ... التصريح فيه فعرّضا

هذا الذي ما زلت أفـ ... عل أو أقول محرّضا

ابن سعيد، اختصار القدح، ص 28. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الرابع، ص 33.

(1) في ك 233: بشاهدة.

(2) كان لأبي عثمان سعيد ولد اسمه محمد مات في شهر جمادى من هذه السنة وهي سنة 649 هـ/1251م. وقد كتب إليه أدباء آخرون من أهل عصره يعزونه في هذا الولد. وانظر الرسالة رقم (55) من هذا السفر.

تولى لا يأسف، يرى أن لله ما أخذ وأعطى، وأنّ فتنة هذه الحياة إنما يجنبها الأتقى، والله يعلم أنّي في هذه الحال أكتب وعبرة عيني يدارها[1] يستمد من الوابل، وانخدارها لا يشفي نجيّ البلابل، وقد قلت: [الطويل]

ومما شجاني شجو أروع ماجد ... إلى عضد منه أشير وساعد
بنفسي منه في المكارم واحد ... أصابته أيدي الحادثات بواحد
بكيت له إذ غبت عنه بعبرة ... تترجم عن ودّ بقلب مشاهد
ومن ثلمت منه الشدائد جانبا ... بكى بعيون سرّها في الشدائد
أمَا وعلاه إنها لملمّة وجدتُ ... عليها الصبر أول شارد
وقاسمته فيها وإنّي حَرٍ بأن ... أبوء بوجد في نصيبي زائد
وغير أبي عثمان يجنح للأسى ... ويمشي مع السلوان مشي مباعد[2]
وفي ما رسا من حلمه ويقينه ... عن المورد المحضور أكبر ذائد
/136/ قد اعتاض موفور الثواب وإنه ... لأولى به عند ادخار الفوائد
وهل أبقت الدنيا وإن لَانَ مسّها ... على ولد أو هل رعت حق والد
إذا هي ولت فهي غصّة طاعم ... وإن أقبلت كانت حبالة صائد[3]
فيا فاتحا باب البديع ولم يكن ... لذا الفتح إلا رب تلك القلائد
لهنّك نعم السيد المرتضى به ... لطيب السجايا أو لصدق المواعد
وجدنا له بيتا من الشعر لم يكن ... سواه يوفّى حقه في القصائد
وهل هو في الأشعار بغية منشد ... وعند بغاة الحمد لفظة ناشد[4]
له كبرياء المشتري وسعوده ... وصولة بهرام وظرف عطارد

ذكر سيدي كتابي الثاني إليه[5]، المشي بالحق والحقيقة عليه، وأنه حين ورد لغلته برد، وبخلته انفرد، فاختطفه اختطافا، وهز له أعطافا، ثم نزع في قليبه نزعا

---

(1) في ك 233: مدرارها.
(2) في ك 233: مساعد.
(3) في ك 233: عضّة.
(4) في ك 233: منشد.
(5) كلمة "إليه" ناقصة في ك 233.



صديقيا، وأحرز علمي أساليبه تصوريا وتصديقيا، وما بالنزع ضعف، ولا من موعد المنى خلف، وإنما الرّكية بكيّة، وما كل عين تبوكية، تلك أنبطها الإعجاز، وهذه أهبطها الإعواز، والمنهي[1] عن السّبق إليها خرقت عادة المياه، والتي لا حظّ في الوقوف عليها منعت بلل الشفاه.

وأخبر السيد أنه لكنانتها نثل، وبين يديها مثل[2]، حين باحثها عن طول غيبتها، وأرادها على إخراج ما في عيبتها، فما هذا المثول[3]، إلا أن يكون كما تُحَيّ الطلول، ويوضع على العاتق الكهام المفلول، لكن التواضع للكرام شيمة، وربما نافس الجواد فيما ليست له قيمة، ثم زعم أنه وجدها في أودية الهوى تهيم، وعن طول الأسى يخبر ليلها البهيم، وكيف لا تكون مظلمة النواحي، معترضة المسطور للدموع المواحي، وإنما خطت والأشواق أعيت /137/ على الخفاء آثارها، وأدنيت من الحلفاء نارها[4].

والنّوى لها إلى كل منزل طريق، ولكل شمل تمزيق وتفريق، وهلم جرا فما سكن الدهر، ولا أريح الظهر، ولا أمهل الحول أو الشهر، بل هو اضطراب ما هدأ، واغتراب كما بدأ، أرض تلفظ، وأخرى تحفظ، ومنزل يترك، وآخر يبرك، ونجم التنقيل في شرفه، وخط الرحيل مبدؤه عند طرفه[5].

وكان السيد يظن أن قابس[6] لاقت، والآمال على الراحة بها تلاقت، فقرّظ

---

(1) في ك 233: المنتهي.
(2) جناس ناقص بين "نثل ومثل".
(3) في ك 233: المنزل.
(4) يشير إلى المثل العربي القائل: أسرع من النار تُدنى من الحلفاء. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 497.
(5) يشكو هنا ابن عميرة ممّا ابتلي به في حياته من كثرة التنقل والاغتراب وعدم الاستقرار. وكثيرا ما يعبّر عن هذا الإحساس في رسائله الإخوانية.
(6) تقع مدينة قابس في جنوب شرق تونس، وكانت من أهم مدن الدّولة الحفصية. تولى ابن عميرة قضاءها سنة 648 هـ/1250م، وقد وصفها في رسالتين من رسائله التي لم ترد في هذا الكتاب، ولكن التجاني احتفظ لنا بمقطعين منهما في رحلته. جاء في أحدهما: "بلد غوطي البساتين، طورى الزيتون والتين، فأما النخل فجمع عظيم، وطلع هضيم، وسكك مأبورة، ونواعم في الخدور مقصورة، وان بقعته لوارفة الظلّ، آمنة الحرم والحلّ، جنة لو نزع ما في =

الساكن بدرره الملتقطة، وقرط المسامع بأبهى من الشنوف والقرطة، وأعار النحل جنًى يهجر له جناها، والبلد حُلى ما كان قط اقتناها، فذهب بها مديحة تقبض خطا المداح، وشهادة تنمي في الغرّ من آل البطاح، وما علم السيد أن حبل النضو على غاربه، وزيد النحو في قبضة ضاربه، والانتقال المكتوب لا يصل الحبل إلا يجدّه، ولا يحط الرحل إلا ريثما يشدّه.

ومنذ قريب من الحول كان الاستدعاء إلى حضرة تونس[1] حرسها الله تعالى والمقام بها أشهرا في وارف ظلّها، ووافر فضلها، ثم اقتضى النظر الكريم أدامه الله توجيهي إلى هذا الموضع[2] باعتناء ملأ اليدين، ومرتب جمع من بلدين، وهو بلد يستقل بمرافق الرفاق، ويقلّ ما لا تقلّ قرى بالعراق، أرضه الفضاء العراء، وحبّتاه البيضاء والسمراء[3]، فأما ما يقوم على ساق، ويروق من ذات أوراق، فكما يحدث بانتقال غرب[4]، أو عنقاء مغرب[5]، والطائف به يمشي بأجرد ضاح، ويعوم من الآل =

---

صدور أهلها من الغلّ، وبالجملة فهو تام الغرابة، مدهام الغابة، مستأثر بسيد من سادات الصحابة، ولا عيب بتربته إلا وخامة مائها، وحميات قلما يعرى من عدوائها". أما الصحابي الذي أشار إليه فهو بشر بن عبد المنذر المعروف بأبي لبابة الأنصاري الذي ما يزال قبره موجودا بها إلى اليوم، وكان ابن عميرة كثيرا ما يلم بزيارته أثناء إقامته بقابس، وقد خلّد ذكره بقصيدة أوردها مع المقطعين المذكورين التجاني في الرّحلة، ص 90 وما بعدها.

(1) ذكر ابن عبد الملك في ص 180 من السفر الأول من كتاب الذيل والتكملة أن ابن عميرة استقضي أول الأمر بمدينة الأربس ثم نُقل منها إلى قابس. ولكن الذي يُستفاد من هذه الرسالة عكس ذلك، إذ تولى قضاء قابس أولا سنة 648 هـ/1250م ثم استراح مدّة في تونس لينقل إلى قضاء الأربس في السنة الموالية حيث كتب هذه الرسالة.

(2) يشير إلى مدينة الأربس التي كان يتولى قضاءها. وينطبق وصف ابن عميرة لهذه المدينة مع وصف الحميري الذي يقول: مدينة بينها وبين القيروان مسيرة ثلاثة أيام، وبينها وبين باجة مرحلتان، وهي في وطاء من الأرض، ولا شجر بها، وإنما هي مزارع الحنطة والشعير التي يُدّخر منها الكثير. الحميري، الروض المعطار، ص 24.

(3) يريد الحنطة والشعير.

(4) غرب: علم على جبل في الشام في ديار بني كلب عنده عين ماء، وعلى ماء بنجد كذلك. جاء ذكره في شعر لبيد وجران النميري والمتنبي وغيرهم. ياقوت، معجم البلدان، ج 4، ص 192.

(5) يشير إلى المثل العربي القائل: "حلّقت به عنقاء مغرب". يضرب لما يُئس منه. والعنقاء طائر =



في ضحضاح، والقاعدة في جرم السوار سورها، وعلى خلقة بيوت /138/ النحل دورها، ولكن ضربها ضريب الباقر، وأربها سد المفاقر، ولقد كدنا نناديها يا لكاع، لولا واليها من ذي الكلاع[1]، فإنه جبر ضيّقها بسعة صدره، وغطّى على خمولها بنباهة قدره، ولقد تقيّل أذواءه وأقياله، واحتاز من مآثر الفريقين ما استبقا إليه واستبقيا له.

والحال على ما يرضي الرّياسة المباركة، خلو ذرع، وحلولا بين زرع وضرع، وعافية نسأل الله ربنا أن يوزعنا شكرها، ويضفي علينا سترها، وإن نسأ الله في الحياة، وكانت في مراجعتي بعض الأناة، فلا أدري أين يلقاني دليلها من مطارح النّوى، وهل يسقط ضليلها على منزل بسقط اللوى.

وما تضمنته المخاطبة من صحتها التي هي صحة الكرم، ونعمة الله قِبَلها وهي أجل النعم، فلله الحمد على ذلك كثيرا، والشكر الذي يقضي من حقه كبيرا، والذي أعاده من التألم لبعضه، والتحدث برضّ الزمن وعضّه، فهو بتصاريفه أقعد، ومن تباريحه أبعد، ولثواب ربه أغبط وأسعد.

اقتضبت عجالتي هذه ووقتها ملتقى الطرفين، ضنك كمعترك الصّفين، والروية مضطربة الرّجل، ماشية مشي المقيد في الحجل، تستعجز القلم وهي أعجز، وتعد ما عندها ووعدها لا ينجز، وبعد أن عرضتها على التفصّي من العهدة، ومخضتها ومن لها بالزبدة، قنعت منها بإنشاء كله زلل، بل برشاء ليس فيه إلا بلل، ولو ساعد البخت، أو اتسع الوقت، لساجلت وأنا على الثمد، وما ثلث لا في الصفة بل في العدد، والسيد يطول عن مقدرة، ويقول فنظرة إلى ميسرة، ولعله يراجع بأنبائه التي أنا أشوق إليها من قيس لخلته، وتوبة لأخيليته[2]، وها أنا /139/ =

---

عظيم معروف الاسم، غريب مجهول الجسم. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 280، وص 594. ويعبّر ابن عميرة عن استحالة وجود الأشجار بالأربس كاستحالة انتقال جبل غرب من مكانه واستعادة ما أخذته العنقاء.

(1) كان بيت الكلاعيين معروفا يومئذ بمدينة الأربس، وكانت لهم بها نباهة.

(2) يشير إلى توبة بن الحمير بن حزم الخفاجي أحد المتيمين صاحب ليلى الأخيلية، كان يهواها فخطبها إلى أبيها، فأبى أن يزوّجه وزوجّها في بني الأولغ، ولكن توبة ظل يتردد على زيارتها =

شوقا إلى مزارها متلدّد، وعلى ثنية انتظارها متردّد، وهو إن شاء الله يبعثها في بدائعه مدرجة، ويرينيها في سدفة الوحشة مصابيح مسرجة، بحول الله وهو تعالى يبلّغ كرم عهده ما يستحقه، ويجزيه خيرا عن الأحرار فإنهم رقه، والسلام.

– 94 –

## وكتب لابن عيّاش

سيّدي[1] حفظ الله كمالكم، وأقرّكم بكنف نعمته وعصمته ولا أزالكم، كتبته كتب الله لكم أفضل عوارفه، وأسكنكم من ظل السعادة في متكاثفه ووارفه، من فلانة ومجدكم مالك فؤادي، وفَذلكُ أعدادي.

ووصلت رقعتكم الخطيرة المبرورة تشير إلى أنها عجالة تجري مجرى اللّحن في الأخبار، أو اللّحق بين الاسطار، فشاء الله أنها وحدها أتتني، وأن الجامعة المستوعبة تخطتني وأخاطتني[2]، وقيل لي لعلها بقيت في الثياب، أو علقت ببعض العياب، ويعلم الله تألمي من أن يكون فيها شيء كنت أحب أن أعلمه، وأجيب عما صرّح به أو أبهمه، وأول هذه العجالة ما زويت عنه وجها، ونويت فيه نجها، وبالله لهذا المقام، ومكابدة هذا السقام، ووالله ما تصوّر لي كَتْبٌ، ولا أطاعني قلم ولا قلب، ولا دريت كيف أقول، ولا في أي واد مع الرّجل أجول.

وذكرتم ما عندكم من جهة فلان وقد تلافيت ما فرّط، وقمت من حق الإخاء بما شرط، وأخبرتم عن الخالص عن السبك، المبرّإ من الشك، وليّنا المبارك أبي بكر أبقاه الله وأنه في قول ليت، ونكد من كيت وكيت، وما في خاطري من

=

وكان يكثر ذلك، فشكوه إلى قومه ولم يقلع ثم شكوه إلى السلطان فأهدر دمه، مات مقتولا سنة 80 هـ/699 م. أما الأخيلية فهي ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن معاوية الشاعرة المشهورة، كانت من أشعر النساء لا يقدم عليها غير الخنساء، ماتت بعد توبة ودُفنت بجوار قبره. وأخبار ليلى الأخيلية وصاحبها توبة مبسوطة في كتاب الأغاني في مواضع متفرقة. انظر ترجمتهما عند الصفدي في الوفيات، ج 10، ص 269، وج 25، ص 6.

(1) ورد التعريف ببني عياش في هامش الرسالة رقم (58) من هذا السفر.

(2) يشير إلى رسالة أخرى كتبها إليه ابن عيّاش بيد أنّها لم تصله فتألم لذلك.



التخلّي والتولّي لا أرى فيه /140/ إلا المحو، وسبحان الله متى سمع عن عاقل أنه نحى ذلك النحو، فالله الله في الثبوت، وتوطين النفس على السكون والسكوت[1]، وغير هذا عندي لا يجوز، والصّبر كنز تحفر بإزائه الكنوز، وذكرتم ما أخذتم من الكتب وصرفتم وذلك على وجه المشكور، وسننه المعمور.

وأخبرتم عن المفارق كِنَاس قعيدته، لأمرٍ اللهُ أعلم فيه بعقيدته، وفي صحبة الأولاد جاء، وإلى الحضرة السعيدة وجّه الأمل والرّجاء، وألمعتم[2] بخبر الكاشح غير البرّ، الكاشر عن ناب الشرّ، وقد فسّر لي ما أجملتموه من أنكم ضقتم به ذرعا، وأعياكم أمره أصلا وفرعا، فلقد ساءني قرب غوركم، وإن أبلغتموه أمله من فوركم، فما له في غير ذلك طمع، وإنما غايته أن يوثر عنكم هلع أو جزع، وداء هذا الذي يستأصل شأفته، ويذهب آفته، التهاون بالقول والقائل، والترفع عن مقام الشاكي أو العاذل، وقد سمعت قول من قيل له إني لأرحمك مما يقول الناس فيك، قال: أوَسمِعت منّي شيئا فقيل لا، فقال: فإياهم فارحم، والضرر الذي يتقيه العاقل لا يأتيك من الرّجل إن شاء الله تعالى، وإنما هي تُرّهات كلّها وكَلّها عليه لا عليك.

وأعيد ذكر ارتماضي من مغيب كتابكم عنّي فربما كان فيه ما يشرح لكم حالا، أو يستدعي منّي مقالا، فأعيدوا الكتب ثانية وابعثوا الكتاب إلى أبي القاسم بن الشيخ[3]، فهو يرسله، والجواب عليه إن شاء الله أنا أعجّله.

(1) جناس ناقص بين "السكون والسكوت".

(2) في ك 233: المغتم.

(3) هو الفقيه أحمد بن يحيى بن أسد الأنصاري المعروف بأبي القاسم ابن الشيخ، من تلاميذ ابن عميرة، قدم من بلده دانية إلى بجاية سنة 626 هـ/1228م، واتصل بعاملها أبي عبد الله محمد بن ياسين فاستكتبه، ثم استدعي ابن ياسين إلى حضرة تونس وابن الشيخ في جملته فقدّمه إلى السلطان وأطنب في وصفه ورشحه لخطة الكتابة. فتقلد منذ ذلك الوقت وظائف عليا في الدولة الحفصية، على عهد المستنصر والواثق والسلطان أبي اسحاق وأبي حفص، منها خطة التنفيذ، وكتابة العلامة في فواتح السجلات، والحجابة. وبعد موت ابن عميرة كان هو الذي نهض بابنه الأكبر أبي القاسم، إذ كان زميله في عهد الطلب وشريكه في الأخذ عن والده. مات سنة 694 هـ/1294م. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 398. الزّركشي، تاريخ الدّولتين، ص 40.

– 95 –

## رسالة في الشكوى إلى الحافظ ابن سيد الناس

سيّدي[1] وعمادي، والخالص المحض من أهل ودادي، نفعني الله /141/ بحبّكم، وأعطاني أمنيتي من جواركم وقربكم، كتبته كتبكم الله في مَن أحظاه برضاه، وخار له في ما قضاه، من فلانة والنفس وإن كانت عندكم على الحقيقة، فما هي بعدكم بالمستفيقة، فحتى متى نوًى قطّاعة، وخطوب إمرتها مطاعة، ويا ليتني كنت كمن استعصى على الهوى، وفارق حتى ما يبالي من النّوى، لكنّي على كثرة مَن فارقته، ومع عناق الاجتماع للوداع عانقته، لا أزال ذا نفس مروعة، وكبد مصدوعة، ودمعة مصبوبة، ولوعة مشبوبة.

وذكر سيّدي أن قراءة كتابي أحدثت له هياما، وأرسلت دموعه سجاما، وبقي يومه كاسف البال، هائج البلبال، وأنا أقول: [البسيط]

يا من يسائل عنّي الظاعنين إذا ما كنت بي هكذا صبًا فكيف أنا

وأشار من أموره إلى ما فهمته، وألمع من الأحوال بما علمته، والحسادة بلاء عظيم، وداء قديم، ولأن يبتلى الإنسان بحاسد محاسنه يكون لشهدها شائرا، ولبردها ناشرا، خير له من حياة يرحمه فيها من يمنع إحسانه، ولا تعدو رحمته لسانه[2]، والصبر للظفر مفتاح، وفي ليل الغمّ والهمّ مصباح، فرحم الله أمرئً دارى

---

(1) هو المحدث الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله المعروف بابن سيد الناس، من بيت علم بإشبيلية، درس بها على شيوخ عصره من جملتهم والده، وبرع في علم الحديث خاصة، إذ كان يستظهر منه عشرة آلاف حديث، وما يتبع ذلك من فنون اللغة وأوضاع النحاة. انتقل من بلده إلى مدينة بجاية حيث مكث زمنا ثم استدعاه المستنصر الحفصي إلى تونس وأصبح من خواصه، وجعل إليه تدريس العلم بالمدرسة عند حمام الهوا. وقد استفسر السلطان المذكور يوما عن حال عينيه ببيتين شعريين فأجابه ابن عميرة ببيتين من الشعر نيابة عن صديقه ابن سيد الناس هذا. مات بتونس سنة 659 هـ/1260م، ومولده سنة 600 هـ/1203م. وصار بنوه من بعده، ومنهم أحمد وأبو الحسين، وزراء وحجابا في الدولة الحفصية. الغبريني، عنوان الدراية، ص 246 وما بعدها. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 385. التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 381. المقري، نفح الطيب، ج 4، ص 110.

(2) يبدو ابن عميرة في هذه الرسالة رجلا لا ينهزم أمام المحن، ولا تلين قناته تجاه الأحداث، =



أيامه، واحتمل آلامه، وسيّدي في جميل الصبر أولى من قرع بابه، وادّرع جلبابه، وعرف الوقت فسايره، وخالط الكاشح فساتره، وقلّ ما أخطأ صاحب الأناة حسن الذكر، وراحة الفكر.

وما قلتم إنه حدثَ بعدي، فهو بجملته عندي، وما زادكم ذلك بحمد الله إلا رفعة مكان، وعلوّ شان، وأنا والله شُوفهتُ من ذلك بما أقرّ ناظري، ورأى سروري به مَن كان حاضري، والذكر/142/ بحمد الله جميل، والمحسن كما قال ربّنا[1] ما عليه سبيل[2]، وأنا متطلع لأنبائكم لأتعرّف منها ما يسرّني من سكون خاطركم، وراحة باطنكم وظاهركم، ولا يأس من روح الله ونعوذ بالله من مقام اليأس، ونستعين به على هواجس النفس، ونرجو منه عزّ وجهه حسن الخاتمة، وارتواء في مورد اللقاء لهذه القلوب الحائمة، ووصل الأولاد فقرّ القرار وألقيت العصى، والحمد لله عدد القطر والرّمل[3] والحصى.

– 96 –

## وكتب إلى أحد إخوانه

كتبته يا سيدي وأخي كتب الله لكم من نعمه أوسعها بابا، وأمرعها جنابا، من بجاية كلأها الله تعالى والودّ عليه تثني الخناصر، ومنه تشد الأواصر، وفي عدّ دواعيه يعجز العادّ والحاصر، وإنه رحِمٌ بيننا والرّحم صلتها من فعل الإيمان، وبنيتها من اسم الرحمن.

ووصلني كتاباكم الأثيران المبروران على حين صرفت نحوهما وجه

---

= وهو لا يأبه بالحسد إذ أنه داء قديم لا بدّ منه، وليس الحساد سوى ناشري فضل ودعاة شهرة، ولأن يعيش المرء نابها محسودا خير من أن يبقى خاملا مغمورا، وتلك معان قديمة ردّدها أبو تمام ومن تلاه من الشعراء والكتاب. محمد بن شريفة، أبو المطرف حياته وآثاره، ص 212.

(1) في ك 233: نبيّنا.

(2) يريد الآية الكريمة رقم 91 من سورة التوبة.

(3) كلمة "الرّمل" ناقصة في ك 233.

الإقبال، ووقفت لهما على ثنايا السؤال، واستطلعت منهما بغية فؤادي، وريّ جوادي، ولم تر عيني منهما إلا ذهاب سهادي، وشهاب إسنادي، حين وردا توأمَي علاء، وفرقدي سماء، وتجاوروا عندي شائدَي برّ ووفاء، وشاهدَي خلوص وصفاء، ففضضتهما عن قرّة الناظر، وميعة الشباب الناظر، وطفقت أتوهّم كاتبهما قد برز في صورة المواجه، وقعد مني مقعد المشافه، فأقول متى تجشّم[1] هول تلك المكاره، وقطع ما يقال أن بيننا من المهامه، أهو الطيف ساريا، أم الصبا /143/ جاء لها مباريا، وبعد أمة ادّكرتُ[2]، فرفعت[3] ما فيه نظرت، وعلمت أنه ضوء نارٍ بتّ أرمقها، وشعاع شمس يقر بعيني تألقها، ومورد ماء كان وكان، ومازلت إليه ظمآن، فالآن حين شربته بعد العشر رفها، وأردت تشبيهه فما وجدت شبها.

وعرّف سيّدي بأحواله التي لا شيء أشهى إليّ، وأعزّ عندي وعليّ، من استدامة اتصالها، وسلامة بكرها وأصالها، وإنما أسرّ من نفسي لنفسي، وأعيد إلى الحياة رميم أنسي، وأجري ما تزيّد في جانب الأخ الفقيه وذلك رجاء عليه أغدو وأروح، وبه ينفخ في جدلي الروح، والله يسمع منه ما يسر تضمنا والتزاما، ويهب آلاء ويذهب آلاما، والأحوال قِبَلي على ما يسرّكم سلامة ضافية السّربال، وعافية مرجوة اتصال الحال بالمآل.

وقد راجعتكم عن كتابكم الواصل إليّ مع أحد الأغزاز[4] أقام هنا زمنا، ثم

---

(1) في ك 233: تجشّم.

(2) اقتباس من الآية رقم 45 من سورة يوسف.

(3) في ك 233: فعرفت.

(4) طائفة من مماليك الترك المصريين، وهم جماعة شرف الدّين قراقوش مملوك تقي الدّين عمر ابن أخي صلاح الدين الأيوبي، قدموا من مصر إلى طرابلس سنة 569 هـ/1173 م. تعاونوا مع بني غانية والعرب ضد الموحدين في الفتن التي اجتاحت افريقية وقتئذ، وأغاروا على كثير من المعاقل واستولوا عليها. وبعدما نجح المنصور الموحدي في إخماد هذه الفتن سنة 583 هـ/1187 م، وأثناء عودته إلى المغرب كوّن كتيبة من هؤلاء الأغزاز الذين غدوا من أعمدة الجيش الموحدي في المغرب والأندلس وإفريقية. وكانوا يتقاضون مرتباتهم كل شهر، بينما كان يتقاضاها الموحدون ثلاث مرات في السنة، وقد برّر المنصور الموحدي هذا الاجراء قائلا: الفرق بين هؤلاء وبين الموحدين أنّ هؤلاء غرباء لا شيء لهم في البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية (المرتب) والموحدون لهم الأقطاع والأموال المتأصّلة. -



أزمع زعم ظعنا، فأصحبته كتابي بما تشوفتم إليه من أنبائي التي قلتم أنها سرت بعد إليكم، مع أحد القادمين عليكم، وما سأله سيدي من الترسيل وما ذكر معه فقد علم قلة تحفظي بهذا الشان، وإلقاءه تحت أرجل الهوان، وأيضا فهذا الحامل انحفز انحفازا لم يتمكن معه إلا كتب ما يصلكم وما تريدون من ذلك فبعد هذا يقيّد في زمن أوسع، ويصنع عند إمكان توجيهه ما يجب أن يصنع، إن شاء الله تعالى وهو سبحانه[1] يديم عزتكم، ويحفظ إخاءكم ومودتكم، بمنّه.

---

- من أمرائهم رجل يسمّى شعبان تحدث عنه صاحب المعجب حديث العارف به حين قال: ولم يرد المغرب من هذه الطائفة ألطف حسّا ولا أزكى نفسا ولا أحسن محاضرة ولا أطيب عشرة من شعبان المذكور، ما لقيته إلّا استنشدني أو أنشدني، وفي الجملة كان له شغف بالآداب شديد وكان يقرض شيئا من الشعر. عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 371، وص 412-413.

(1) في ك 233: تعالى.

– 97 –

## تهنئة بهاء الدّولة محمد بن هود[1] بخروجه من أسر الرّوم وتفجّعه لأسر ابن أخيه عضد الدولة علي بن يوسف

/144/ الجناب الكذا وصل الله سعوده، وضاعف قِبَلَهُ إحسانه وجوده، وملأ الدنيا بقاءه ووجوده، ولا زالت كواكب سعده في سماء الدّولة العلية[2] منيرة، ومواكب مثيرة، ولجمع الأعداء مبيرة، صنيعة مكانه، الرّاجي وَاِكَف إحسانه، فلان سلام كريم طيب مردّد عميم يعتمد المحلّ الأعلى ورحمة الله تعالى وبركاته.

**أما بعد**، فالكتاب كتب الله للجناب المبارك الأشرف فضلا منهل الغمائم، وعزّا ماضي الصّوارم، من فلانة حرسها الله تعالى والأيام بمقدمه متهللة، والبشائر بإقباله مقبلة، والدّولة العلية قد تزينت منه بتاجها، وأشرقت من غرّته المباركة بسراجها، واستظهرت منه بحامي الحقيقة وصدر الكتيبة، والهمام الميمون النقيبة،

(1) هو بهاء الدّولة محمد بن محمد بن هود، عمّ محمد بن يوسف بن هود المتوكل على الله مؤسس الإمارة الأندلسية. ويكتفي ابن عميرة في هذه الرسالة بتهنئته من فكاكه من الأسر دون ذكر ظروف هذا الأسر ولا مدته، أما تاريخ هذا الخروج فكان من الممكن معرفته لو أبقى جامع الرسائل أو ناسخها على التاريخ الذي كتبت فيه هذه الرسالة. وقد انتزع بهاء الدولة حكم مرسية من الأمير أبي جميل زيان بن مردنيش سنة 638 هـ/1240 م، ولمّا رأى توالي سقوط قواعد الشرق في يد الأرغونيين قرّر بالاتفاق مع أشياخ مرسية أن يتفاهم مع النصارى، فبعث إلى ملك قشتالة سفارة يرأسها ولده أحمد، وعرضت عليه الاعتراف بطاعته. وقبل الملك هذا العرض، وأرسل ولده ألفونسو إلى مرسية حيث عقد معاهدة التسليم مع أهلها صلحا، وذلك على الاعتراف بطاعته وأداء الجزية، مع بقاء حكمها بأيديهم، وكان ذلك في العاشر من شهر شوال سنة 639 هـ/1242 م. واستمر بهاء الدولة على حكم مرسية تحت حماية ملك قشتالة حتى سنة 657 هـ/1259 م تاريخ وفاته، ثم خلفه على حكمها ابنه أحمد حتى سنة 662 هـ/1263 م، وفي هذا العام خرج عليه أبو بكر الواثق ابن المتوكل الذي سلمها للنصارى بعد ذلك بسنتين. ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 203. المقري، نفح الطيب، ج 4، ص 472. عنان، عصر المرابطين والموحدين، ج 2، ص 460.

(2) يريد إمارة محمد بن يوسف بن هود المتوكل على الله ابن أخي بهاء الدولة، حيث كان يشترك معه في إدارتها عمّه وإخوته وولده.



والواحد الذي يعدل الآلاف، والماجد الذي يجده[1] قد أنار وشرفه قد أناف.

فهنيئا له شمل بانتظامه تنتظم الأمور، ويتضاعف الاعتلاء والظهور، ويا نُعمى الأنام، وبُشرى الأيام، بوقته الأفضل، ويومه الأغرّ المحجّل، لقد راقت به المحاضر، وتهادى خبره البادي والحاضر، وسار منه في البلاد ما أقرّ عيون الأولياء، وأرغم أنوف الأعداء، والحمد لله على أمنية بلغ أوانها، ونعمة عظم شأنها، ومسرّة أخذ العبد منها بأوفى حظوظ المرتسمين بالخلوص للدّولة العليّة، والخدمة لمقاصده المباركة السّنية، /145/ وقد أقام بها هو ومن قِبَلَهُ رسم التهاني، ورتعوا في ظلال الأماني، وأذاعوا هذا الذكر الأطيب في الأقاصي والأداني.

وجاءتهم هذه البشرى عقيب الطارئ الفاجع، والخطب الواقع، بما أصاب فلانا[2] أطلع الله بدره على البلاد، وعرّف من خلاصه أفضل المراد، فكانوا في وَلَهٍ ممّا عرا، وحزن لما جرى، وغمّ جمرُه ذاكٍ، وكربٍ كل طرف من أجله باكٍ، فتهادى الناس تهنئة وتعزية[3]، واقتسمت الأفئدة عطية سارّة ورزية لبكيّة، والرّجاء من فضل الله في راحة النفوس مما دهم، وأن يوجد قسم المسرّة ويكون الآخر قد عدم،

(1) في ك 233: نجده.

(2) هو عضد الدولة أبو الحسن علي بن يوسف بن هود أحد إخوة المتوكل ابن هود الذين منهم الرّئيس أبو النجاة سالم الملقب عماد الدولة، والأمير أبو إسحاق ولقبه شرف الدولة، وكلّهم كان يُكتب عنه من الأمير فلان. جاء في الإحاطة أن عضد الدولة أسره العدو في غارة، فافتكه أخوه المتوكل بمال كثير، دون أن يذكر تاريخ ومكان هذا الأسر، ويُستفاد من كلام ابن عميرة الذي قرن في هذه الرّسالة بين أسر عضد الدّولة وعمّه بهاء الدّولة، ومن إشارة ابن الخطيب، أن تاريخ هذا الأسر كان قبل سنة 635 هـ/1237 م سنة وفاة المتوكل الذي افتكّ أخاه. وكانت مرسية أيام المتوكل ابن هود مقرّ رياسته، ولمّا توفي بايع أهلها ولده أبا بكر الواثق، ولكن عمّه عضد الدولة المذكور تغلّب عليه بعد قليل ودعا لنفسه، بيد أنّ رئاسته لم يطل أمدها أيضا، إذ ثار عليه عميدها وكبير علمائها أبو بكر عزيز بن خطاب وأخرجه من المدينة ودعا لنفسه كما يقول ابن الأبار، وكان ذلك في الرابع من شهر محرم سنة 636 هـ/1238 م، ثم ثار أبو جميل زيان على ابن خطاب وقتله في السنة نفسها في شهر رمضان. ابن الأبار، الحلة السيراء، ج 2، ص 310. ابن الخطيب، الإحاطة، ج 2، ص 131.

(3) طباق الإيجاب بين "تهنئة وتعزية".

ويقال للدولة أسلمي فإن عضدك[1] قد سلم، والله ييسر هذه الأمنية، ويبشر بها الملة الحنيفية، وهو سبحانه يصل للجناب السعيد بسطة التأييد، ويشفّع إحسانه إليه بالمزيد، ويضاعف بمكانه بهجة الزمن الجديد، بمنّه، والسلام.

– 98 –

## ظهير بتولية القضاء

ويصلكم به فلان وقد استخرنا الله تعالى على تقديمه عندكم للأحكام الشرعية وهو من أولي الأحساب والنباهة، وممن ضرف وتعرّف بالنهضة والنزاهة[2]، وسُبر مع الأيام فألفي مرضي الأحوال، محمود الخلال، وقد أوصيناه بتقوى الله العظيم، والاقتناء بكتابه المبين وسنة رسوله الكريم، وأمرناه بأن يجري على آداب هذه الخطة المعلومة، وأن يسوّي بين القوي والضعيف إذا حضرا عنده للخصومة، فإذا وصلكم فاعرفوا مكانه، وكونوا على الحق أعوانه، /146/ إن شاء الله تعالى، والسلام.

– 99 –

## وكتب يجيب أحد إخوانه

سيدي وأخي أدام الله سعادتكم، وحرس ودادتكم، أنفذ إليكم مكبركم هذه العجالة من فلانة وهو على ما عهدتموه إكبارا ومودّة، وعهده على أفضل ما أخبرتموه[3] كرما وجدّة.

وقد وصلني خطابكم الخطير المبرور فوقفت منه على محاسن هي مسرح النواظر، ومقترح الخواطر، ولله ما جمع من أدب كأنه ذوب النضار، أو صوب الدّيمة المدرار، جدّد عهدي بتلك الشيم البرّة، وأمتعني ما شاء وشئت بشجائع منازعك الحرّة، ولم يكن عندي أنكم انصرفتم إلى ذلكم الصقع حتى قرأته،

(1) يشير إلى لقب عضد الدولة الذي كان يتحلى به علي بن يوسف.
(2) يُفهم من كلام ابن عميرة أن هذا الظهير هو بمثابة نقل لهذا القاضي الحسيب النبيه الذي تصرّف جامع الرسائل أو ناسخها في اسمه بفلان.
(3) في ك 233: خبرتموه.



وشافهني بأخباركم مُوَصِّله واستعدته، فأعاد، وكأنه بخبر مقيدي[1] هناك أنه عاد، وحالي على ما يرضى سراوتكم صلاحا وعافية والحمد لله وكل ما أشرتم فأنا حري فيه من مشاركة وفائكم، والقيام بحقوق إخائكم، والله يحفظ جنابكم، ويشكر منابكم، بمنّه.

– 100 –

## ومن إخوانياته المختصرة[2]

أبقى الله سيدي بين الثقة بالود، والإشفاق من هواجس الصّدّ، تمَانعٌ أعذى[3] عين المقة، ثم ما سلمت[4] بعد مرجحًا من جوانب الثقة، ولأجل[5] ذلك أتقي[6] لقاءة من الأخ المبرور تكشف لي عنّي، وتأخذ لي منّي، ويمكنه[7] أعزّه الله بعذر تجديد عهدٍ بالمعاهد السّلطانية، وطلب ما يطلب فلان[8] من اللوازم المخزنية[9].

فإن /147/ ساعد على ذلك فغدا انتظره، وإن تباطأ لم ألمه إن كنت لا أعذره، ومهما استطعت فما أفارق المرجّح الأول، وإذا امتنع الحمل على الظاهر فلا لوم على من تأوّل، وقاه الله المكاره، وشفي برؤيته المشافه، والسلام.

(1) في ك 233: فقيدي.
(2) سترد هذه الرّسالة مكرّرة تحت رقم (140) من هذا السفر.
(3) في ك 233: أعدى.
(4) في الرّسالة المكررة من هذا الجزء: أبغي.
(5) في زواهر الفكر: ولذلك.
(6) في الرّسالة المكررة: سلب.
(7) في زواهر الفكر: تمكّنه.
(8) في الرّسالة المكررة: الأخوان الماجدان أبقاهما الله.
(9) المخزن: مصطلح كان يطلقه المغاربة والأندلسيون على الدّولة والسلطة بمفهومها الواسع، وبعبارة جامعة كان المخزن سيفا وقلما. العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج 2، ص 209.

– 101 –

## رسالة من والي بلنسية إلى المستنصر الموحدي في شأن النبيل أبلاشكة آرطال

الحضرة العلية الإمامية المنصورة الأعلام، الناصرة للإسلام، المخصوصة من العدل والإحسان، ما يجلو نوره متراكم الأظلام، حضرة سيدنا ومولانا الخليفة المستنصر بالله أمير المؤمنين، أبو يعقوب[1] ابن ساداتنا الخلفاء الراشدين، وصل الله لها إسعاد القدْر، وإنجاد[2] النصر والظفر، [ولا زال مقامها الأعلى سامي النّظر، مبارك الورد والصَّدر][3]، يفيض منه الجود فيض المطر، وتحيط به السعود إحاطة الهالة بالقمر، نشأة أيامها الغرّ، وربيّ إنعامها المقتنى منه ألسنة الحمد والشكر[4]، المشرّف باستخدامها الذي هو نعم المعين على التقوى والبرّ، عبدها وابن عبدها عبد الرحمن بن محمد[5] سلام الله الطيب المبارك وتحياته تخص المقام الأشرف

(1) هو أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر، الخليفة الموحدي الخامس الملقب بالمستنصر الذي دامت خلافته عشر سنوات (610– 620 هـ/1213–1223 م). المراكشي، المعجب، ص 459 وما بعدها.

(2) في ك 233: إنجاح.

(3) الزيادة من ك 233.

(4) في صبح الأعشى 534/6: المواظب على الحمد والشكر.

(5) هو السيد أبو زيد عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن بن علي، وهو أخو عبد الله البياسي نسبة إلى بياسة التي نشأ فيها أفراد هذا البيت الموحدي. كان واليا على بلنسية وإقليمها للخليفة المستنصر قبل سنة 620 هـ/1223 م، وهو ما تؤكده هذه الرسالة التي صححت الخطأ التاريخي الوارد عند ابن خلدون حين ذكر أنّ أبا زيد تولى بلنسية بعد وفاة المستنصر. وظل واليا عليها حتى سنة 626 هـ/1228 م، وفيها ثار عليه زيان بن مردنيش فاضطرّ إلى ترك أهله وولده ولجأ إلى مملكة أرغون مستعينا بأهلها على استرجاع إمارته متأسيا في ذلك بأخيه عبد الله البياسي حينما انضوى من قبل تحت لواء فرناندو الثالث ملك قشتالة وتعهد بتسليم الحصون والأراضي الإسلامية. واعتنق أبو زيد النصرانية كما انتفع به الأرغونيون في محاربة خصمه ابن مردنيش، ولكنه سرعان ما سقط في أعين النصارى الذين رفضوه، فمات بعد ذلك كمدا. ابن عذاري، البيان (القسم الموحدي)، ص 289. ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 200.



الأعلى ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد حمد الله العظيم، والصلاة على سيدنا محمد نبيه المصطفى ورسوله الكريم، والرّضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، وعن الخلفاء الراشدين المرشدين إلى أمره الحق وطريقه المستقيم، والدّعاء إلى سيدنا ومولانا الخليفة /148/ المستنصر بالله أمير المؤمنين ابن الخلفاء الأئمة المهتدين بدوام النصر العزيز والفتح العميم.

فكتب العبد كتب الله للمقام العلي[1] فتوحا تعم جميع الأقطار[2]، وسعودا تقضي بفلّ السّمر الطّوال والبيض القصار، من بلنسية وبركاته تظهر ظهور النهار، وتفيض على العباد والبلاد فيض الأنهار، فالخلق بين وارد في سلسالها المعين، وراجٍ للوليّ منها هو من بلوغ رجائه على أوضح مراتب اليقين، والله يبقي عزّ الإسلام ببقائه، ويعيننا على امتثال أوامره المباركة معشر عبيده وأرقّائه، بمنّه.

وقد تقرّر لدى المقام الكريم أدام الله علوّه، وكبت عدوّه بأمر أبلاشكة آرطال[3] وماله في البلاد الأرغونية[4] من رعاية في شأوها برّز، ولغايتها أحرز، وكلّ

(1) في صبح الأعشى: الأعلى.

(2) في صبح الأعشى: الأمصار.

(3) وتسمّيه الرواية الاسبانية (Blasco de Alagon و Don Artal de Alagon)، من نبلاء مملكة أرغون، كان وصيا على الملك خايمي ثم أصبح من المقرّبين إليه في مملكته، بيد أنّ العلاقة ساءت بينهما وتحولت إلى خصومة، فلجأ هذا النبيل إلى بلنسية عند واليها السيد أبي زيد بنية الرحيل إلى مراكش. وقد قضى سنتين بين المسلمين في ظل هذا الوالي، أي ما بين 620– 623 هـ/1223– 1226 م، وخدم الموحدين، ثم عاد إلى بلاده أرغون وعفا عنه الملك خايمي. برسلو طوريس، السيد أبو زيد، مجلة أوراق، العدد الثالث، سنة 1983 م، ص 103، نشر المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد.

(4) قامت مملكة أراغون الكبرى باتحاد أراغون وقطلونية في سنة 532هـ/1137م على يد الكونت رامون برنجير الرّابع أمير برشلونة، وبعد وفاته سنة 558هـ/ 1162م خلفه على العرش ولده ألفونسو الثاني الذي بدأ غزواته في الأراضي الإسلامية مبكرا، فراح يكرّرها على شرق الأندلس منذ سنة 566هـ/1170م. وبعد وفاته سنة 593هـ/1196م خلفه في مملكة أراغون وقطلونية ابنه الصبي بيدرو الثاني الذي بدأ حكمه تحت وصاية أمّه دونيا سانشا. وانشغل بيدرو الثاني وقتا بشؤون أملاكه فيما وراء جبال البرنيه، ولكنه لم يغفل العناية بغزو الأراضي =

قد كفل صاحب أرغون[1] في الزمان المتقدم كفالة دار أمرها عليه، وألقى زمامها إليه، وتفرّد منها بعبء حمله، وحظ بلغ منها أمله، ثم إنه حُطّ من رتبته، وتأكدت المبالغة في نكبته، لقضية عرضت له مع أهل أرغون فلفظته تلك الجنبات، وأزعجه أمر لم يمكنه عليه الثبات، ورأى أن يلجأ بحاله إلى المقام الباهر الأنوار، العزيز الجوار، فوصل هذا الموضع قبل قدوم العبد[2] عليه مقررا ما نزل به، ومستأذنا في الوجه الذي تعرّض لطلبه، فأذن له في مقصده، وانصرف إلى[3] التأهب للحركة من بلده، ثم لما وصل العبد هذه الجهة وفرغ هو من شأنه، أقبل متوجّها إلى الباب الكريم، ومتوسلا بأمله إلى فضله العميم[4].

---

الإسلامية، وهي مهمة من مهام السياسة الأرغونية الأساسية، فخرج في حشوده سنة 607هـ/1210م صوب بلنسية واستولى على بعض حصون منطقة شنتمرية الشرق. ومات سنة 610هـ/1213م تاركا ولده الوحيد دون خايمي الذي أصبح يعرف بالملك خايمي الأول أو الفاتح الموالية ترجمته. عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في الأندلس، ج2، ص 601.

(1) هو الملك خايمي الأول ابن بيدرو الثاني صاحب مملكة قطلونية وأرغون. مات والده بيدرو في حربه ضد الكونت سيمون دي مونفور سنة 610هـ/1213م، وبقي خايمي رهينة تحت رحمة الكونت المذكور. وتدخل البابا أنوسنت الثالث من أجل إطلاق سراحه في العام الموالي، ولكن عمه الطموح سانشو قام باعتقاله في حصن مونزون، واستولى على السلطة سنة 614هـ/1217م. وما إن تخلص خايمي الأول من عمه سانشو بعد جهود مضنية، حتى برز عمّه الثاني فرناندو إلى الميدان، واستولى على السلطة، وظلت مملكة قطلونية وأرغون تعاني من الحرب الأهلية حتى عام 624هـ/1226م، حيث تمكن الملك خايمي الأول من توطيد دعائم حكمه في مملكة قطلونية وأرغون بعد استسلام عمّه فرناندو وقواته، وأخذ يتطلع منذ ذلك الحين إلى الاستيلاء على جزر البليار وشرق الأندلس. يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج 2، ص 165-174.

(2) هو المكتوب عنه السيد أبو زيد والي بلنسية.

(3) في ك 233: عن.

(4) واضح من كلام ابن عميرة أن هذا النبيل الأرغوني كان قد وصل إلى بلنسية قبل أن يحلّ بها السيد أبو زيد واليا، واتصل بالوالي الذي كان قبله، وعبّر له عن عزمه ورغبته في اللجوء إلى مراكش، وطلب منه أن يستأذن له الخليفة في ذلك. ولمّا عاد إلى بلده وأعدّ العدّة لسفره ورجع إلى بلنسية بنيّة الرّحيل، صادف حلول الوالي الجديد أبي زيد الذي كتب في شأنه هذه الرسالة إلى الخليفة المستنصر.



والظاهر من حَنَقِهِ على أهل أرغون وشدّة /149/ عداوته لهم، وما تأكّد من القطيعة بينه وبينهم، أنّه إن صادف وقت فتنةٍ معهم، ووجد ما يؤمله من إحسان الأمر العلي-أيّده الله-فسينتهي من نكايتهم، والإضرار بهم إلى غاية غريبة الآثار، مفضية به إلى درك الثار، وكثير من زعماء أرغون ورجالُها أقاربه وفرسانه وكلّ في حبله حاطب، ولإنجاده متى أمكنه خاطب، وللمقام العلي عالي الرّأي فيه أبقاه الله شافيا للعلل، كافيا طروق الخطب الجلل، مأمولا من ضروب الأمم وأصناف الملل، وهو سبحانه يديم سعادة جدّه، ومضاء حدّه، ويخصّه من البقاء الذي يسرّ أهل الإيمان، ويضاعف ببهجة الزمان أطوله وأمدّه[1].

-102-

## وكتب لأبي بكر عزيز بن خطاب شافعا

المحلّ الأعلى[2] ضاعف الله أنوار هدايته، وأبقى على الجميع آثار عنايته، مستودع الكمال، ومَشرع الآمال، ومنقذ أبناء السّؤال، ومصعد الصّالح من الأعمال، وهذا[3] الأخ أبو فلان مَن تعرف فضله يقينا، ويرى السعادة في قصده دنيا ودينا، ولم أزل أنا وهو نتلاقى بالانجذاب إليه، ونتساقى صفو الثناء عليه، وفي كل ذلك أجده سابقا يسبق، ومُسكتا حين ينطق.

وتوجه الآن إلى الباب الكريم أيده الله متيمّنا بالوفادة، متعرّضا لنفحات الرّحمة المعتادة، وقد فرغتُ مكاتبة ومشافهة من تقرير ما بيني وبينه من علاقة قوية،

---

(1) رغم مكانة هذا النبيل الأرغوني وما له من تأثير في بلاده (كلّ في حبله حاطب)، وأهمية الخدمة التي عرضها على الموحدين ضد النصارى، إلّا أنهم لم يحسنوا استغلالها لصالحهم، سيما وأنّ الأجواء السياسية كانت لا تزال غير مستقرّة نهائيا في مملكتي قشتالة وأرغون. ولم يكن بمقدور الخليفة المستنصر فعل ذلك وهو الذي أخلد إلى الراحة واللهو وآثر طوال مدّة حكمه سياسة الهدنة والسلم مع النصارى في الأندلس، تلك الهدنة التي لجأ إليها هؤلاء النصارى بسبب عجزهم في هذه الفترة نظرا لوجود ملوك قاصرين خاضعين للوصاية، ونشوب الحروب الأهلية في ممالكهم. أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، (ترجمة عبد الله عنان) ج 2، ص 151.

(2) ورد التعريف بالمكتوب إليه عزيز بن خطاب في أحد هوامش الرسالة رقم: 11.

(3) في ك 233: هو.

وصداقة حقيقية، وحمّلته الآن خدمة عنّي إبلاغ التحية، ولثم اليمين العلية، والمحلّ الأعلى يأذن له في الإيصال، ويحمله /150/ على عادة فضله الكريمة الاتصال، أبقاه الله والعيون إليه سامية، والنعم من تلقائه هامية[1].

-103-

## وخاطب المتوكل ابن هود شاكرا على تنويهه

المقام العلي[2] وصل الله له بسطة النّصر والتأييد، وأمتعه من عوارف فضله وإحسانه بالمزيد، وأبقى على الإسلام بركة رأيه السّديد، وسطوة بأسه الشّديد، ولا زال نظره الأعلى متناولا بالسّعي القريب للأمل[3] البعيد[4]، محاولا من مصالح الدّنيا والدّين ما يأتي بوفق آمال الأمل وحسب إرادة المريد، عبده ومملوكه، المستمر من الخدمة على سنن[5] يجب سلوكه، فلان[6]، سلام[7].

وبعد حمد الله ناصر الدّعوة العلية، والصّلاة على محمد رسوله المبعوث بالسّمحة الحنيفية، والرّضى عن الخليفة الإمام العبّاسي[8] أمير المؤمنين ابن الخلفاء الطّاهرين المنتخبين من الأرومة الهاشمية، والأسوة النبوية، والدّعاء للإمارة السُّنيّة بالفتوح الهنيّة والمواهب السَّنيّة، ولفرعه الأهدى ونجله الأشرف الأزكى[9] بالحياة الرّضيّة، والسعادة التي تقضي فيه وله بتمام الأمل وكمال الأمنية.

فكتب العبد كتب الله للمقام العلي عزما[10] يقتضي دين الفتح

(1) جناس ناقص بين "سامية وهامية".
(2) هو المتوكل محمد بن هود المكتوب إليه.
(3) في د 4502: القريب غاية الأمل.
(4) طباق الإيجاب بين "القريب والبعيد".
(5) في ك 233: السّنن الذي.
(6) هو ابن عميرة كاتب الرسالة أيام كان قاضيا بشاطبة في حدود سنة 631 هـ/1233 م.
(7) كلمة "سلام" ناقصة في ك 233.
(8) هو الخليفة العباسي أبو جعفر المستنصر بالله الذي حكم الفترة: 623 - 640 هـ/1226-1242 م.
(9) هو الواثق بالله أبو بكر بن هود وولي عهده.
(10) في د 4502: عملا.



معجلا[1]، وسعدا يطلع يوم النّصر أغرّ محجّلا، من فلانة[2] وبركات ما ذخر الله من الرّغبات المثابة، والدّعوات المجابة، تعمّ المنازل، وتضاعف النائل، وتقيم على يمن أيّامه ودولته البراهين والدلائل، والعبد حيث يجب من انقطاع يلزم صلة أسبابه، وشكر هو بين إنجاده وإيجابه، وجدّ /151/ في الخدمة يرتع بجنابه، ولا يهمل بابا من أبوابه، والله ينهضه بالحقوق المتعيّنة[3]، ويحمله من الطاعة على السبيل البيّنة، ويعينه على شكر المنن الواكفة الهتنة.

ووصل الخطاب الكريم يملأ النواظر بل المحاضر نضارة وحسنا، ويودع الآذان بل الزمان أشرف الكلام لفظا ومعنًى، ويشير إلى جمل من التنبيه على الاختصاص والاستخلاص يرجو العبد أن يصادف محلّها، ويقرّر من جميل الرأي فيه ما لو بذل الحياة بإزائه لاستقلّها، فتلقّاه العبد بما حقه أن يتلقى به، ويجلي له وجه الأمل سافرا عن نقائه، ولثم به مواقع اليمين الطاهرة، واجتنى منه سنى الأنوار الباهرة، ولله هو من كتاب ما أشرق صفحته، وأعبق نفحته، وما أندى مورده على الكبد، وأعوص أداء شكره على المجدّ المجتهد، وأكمل صلاة البشرى به للفذّ المنفرد، ولا قبل للعبد بهذه اليد العليا، والعارفة التي بها يطيب المحيا، وجزيل الحظ للدّين والدّنيا.

ولا يزال من صدق النصيحة والخدمة الصّريحة الصحيحة عن[4] سنن[5] الموفين بالذّمم، المرقّين شكر النعم، المجدّين إذا كانت العزائم راقية، بما يجب سرّا وعلانية، ويرجو العبد أن يجري من ذلك على السّنن السرّي[6]، ويصادف منه مرضاة المقام العليّ، ويحمد سراه عند المنى بإسفار صباحه الجلّي، والله يعيننا على

(1) في د 4502: الفتح للفتوح معجلا.
(2) هي مدينة شاطبة.
(3) في د 4502: المبينة.
(4) في ك 233: على.
(5) في د 4502: سبيل.
(6) في ك 233: السّوي.

أداء هذا الفرض[1]، ويضاعف ثواب المقام العلي[2] الكريم كما أقرضه أحسن القرض، ويروي به أهل الإيمان من موارد الأمان بالخالص المحض، ولا يزال عند استسلام البلاد بصدق الجلاد لعدوّه يد[3] التسليم وله يد القبض، إن شاء الله تعالى.

- 104 -

## مدح المؤلف لأبي عبد الله بن الجنّان

/152/ أطال الله بقاء الأخ السري الكريم[4]، الحري بالتقديم والتعظيم، واحد فرسان الإحسان، وواجد عقيان البيان، ولا زال قلمه جالي بدائع السّحر، جالب بضائع الشحر، مغبوط السّبق عند كلال جياد الكلام، مبسوط الرّزق في حال إملاق الأقلام، إن ذُكِرت -أبقاك الله- البلاغة فمن على موردها يساجلك، أو قيل في شرائعها بُنِيت على خمس فإنما هي أناملك، صفوها متفجّر من معينك، وشأوها لا مطمع فيه لغير يمينك، ومداها تستوفيه في هيئة المتمهّل، وحماها ترعاه بعزة أخي مهلهل[5]، فقد صرت أمام أمتها، بل إمام أئمتها، والرّاضع لرسلها، بل الواضع لأصلها، فهنيئا لها إن كنت سابق غايتها، وسائق رايتها، وبشرى لمهرق وشته يراعتك، وحشته براعتك، لقد أوتي من الحسن ما تشتريه القلوب بحبّاتها، وتشتهيه النفوس أكثر من حياتها.

---

(1) في د 4502: العرض.

(2) كلمة "العلي" زائدة في ك 233.

(3) في د 4502: يوم.

(4) ورد التعريف بابن الجنان في هامش الرسالة رقم: 10.

(5) أخو المهلهل هو كليب بن ربيعة بن الحارث بن زهير التغلبي واسمه الحقيقي وائل، كان سيد ربيعة في زمانه، وقد بلغ من عزّه أنه كان يحمي الكلأ فلا يُقرب حماه، ويجير الصيد فلا يُهاج، حتى أصبح يُضرب به المثل في ذلك فيقال: أعزّ من كليب وائل، قتله جسّاس بن مرّة الشيباني، وكان مقتله سببا في الحرب التي اشتعلت بين تغلب وبكر طيلة أربعين سنة. أما أخوه المهلهل فهو عدي بن ربيعة خال امرئ القيس وجد عمرو بن كلثوم لأمّه، كان أول من قصد القصائد وذكر الوقائع في قتل أخيه كليب، شمي مهلهلا لهلهلة شعره أي اضطرابه واختلافه. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص 6. ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، ص 58. الميداني أبو الفضل، مجمع الأمثال، ج 1، ص 523، وص 673.



وقد وافت رقعتك الكريمة أينع من خمائل الرّبيع، وأبدع من رسائل البديع، فتناولت منها صَدَفة حشوها درُّ نثير، وصدقة أنا إلى ما أنزل إليّ من فِقَرِها فقير، ونبّهت على فلان فأوجبت في أمره حقًا يتأكد، واعتناءً قام بإزائه الزمن الأنكد، وهذه الجهة من الوصايا والنذور، معدمة إلّا على الندور، وقد شاهد من إمحال النجعة، ما حمله على الارتحال والرّجعة، وأنت مَرجُوٌّ لآماله، مدعو لما يدعى له الأحرار في أمثاله، وله في الوزارة شكر أطلقه، وأمل بفضلها أعلقه، وعنايتك تسنّي له جودها، وتستحفظ عنده /153/ موعودها، إن شاء الله تعالى[1].

- 105 -

## رسالة توصية في شأن رجل أندلسي أزمع الذهاب لأداء فريضة الحج

كتبته يا سيدي وأخي كتب الله لكم النّعم تترى، وأراكم زمنكم لا تخشون فيه خيانة وخترا، من فلانة ولا ناشئ ببركة الإمارة العلية إلّا كل خير ينهل قطرا، ويسّاقط رطبا جنيا وورقا نضرا، والإخاء على ما تعلمون لا شيء أرفع من قيمته قدرا، وأعلى من عقيلته مهرا.

ووصلت مخاطبتكم المبرورة تعرب عن ودّ أحطتَ به خبرا، وحططت بفنائه حمدا دائما وشكرا، وقرّرت من الأحوال قِبَلَكُم ما شرح منّي صدرا، وأحدثت لنفسي أنسا كنت من بكائه الخنساء وصخرا، ورجاؤنا جميعا في فضل من يقول: ﴿**فإنّ مع العسر يسرا إنّ مع العسر يسرا**﴾[2]، وحال أخيكم على ما يسرّكم سلامة يرجو أن تكون من النوائب سترا، وصبرا على المكاره وإن تطعّمها سلعا وصبرا، هذه هي الحال ثم أقول: ﴿**لا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرا**﴾[3].

وصاحب العجالة فلان تعرفونه بالجزيرة صاحب نحل يتبع بها شعب

---

(1) هذه الرسالة والرّسالتان اللّتان بعدها ناقصة في ك 233، أو هي من الرسائل المبتورة في هذه النسخة.

(2) الآيتان الخامسة والسادسة من سورة الشرح.

(3) الآية الأولى من سورة الطلاق.

الجبال، ويروح منها بطين الأحمال، وبعد أن تفرّق القوم أيدي سبا[1]، وطاروا مع الجنوب والصّبا[2]، جال في بقية الأندلس بحيلة إنسانية، وحلية ساسانية، ثم عبر البحر وأزمع الذهاب لأداء فريضة الحج، والبلوغ إلى مواقف العج والثجّ[3]، والله يبلغه وإيّانا من ذلك ما يحطّ عنّا الأوزار، ويظفرنا بزيارة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيمن زار، وغرضه /154/ أن يُوَصّى عليه صاحب سفينة يخفّف عنه ما به يطالبه[4]، أو يحمله كما حُمل الكليم[5] وصاحبه، صلّى الله على نبينا وعليهما، وأهدى تحيّاته الطيبات المباركات إليه وإليهما.

– 106 –

## وخاطب أحد إخوانه يشكو الغربة وتقلّب الزمان

كتبته يا سيدي وأخي كتب الله لكم من الآمال أكثرها انقيادا، ومن الأحوال أوثرها مهادا، من فلانة وليس ببركة الإمارة العلية إلّا الخير المتوالي، واليسر المعدِي على صروف اللّيالي، وأجنحة الشوق خفّاقة، وإغماءة الوحشة ما منها

(1) يقصد المثل العربي القائل: "ذهبوا أيدي سبًا وتفرقوا أيدي سبًا"، أي تفرقوا تفرقا لا اجتماع معه. وأصله تفرّق القبائل العربية التي أرسل عليها سيل العرم في أرض سبأ. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 384.

(2) من الرياح التي معظمها الأربع: الجنوب والشمال والدّبور والصّبا. أما الجنوب فهي ما استقبلك عن شمالك إذا وقفت في القبلة، ومهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا، وإذا جاءت جاء معها خير وتلقيح، وإذا جاءت الشمال نشّفت. وأما الدّبور فهي التي تهبّ من دبر الكعبة. وأما الصّبا فهي تستدبر الدّبور وتستقبل باب الكعبة لذلك سُميت القبول أيضا. لسان العرب، ج 1، ص 281، وج 11، ص 545.

(3) اقتباس من الحديث الذي رواه ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم لمّا سُئل أيّ الحج أفضل قال: "العجّ والثجّ". سنن الدارقطني. والعجّ: رفع الصوت بالتلبية. والثجّ: سيلان دم الهدي والأضاحي.

(4) يُفهم من كلام ابن عميرة أنّ المكتوب إليه في شأن الموصَى به، كان مقيما في مدينة سبتة التي أصبحت ملجأ للأندلسيين الذين طُردوا من بلادهم، لأنّه من ميناء هذه المدينة كان يسافر هؤلاء بحرا إلى مدن بلاد المغرب الساحلية بنية الاستقرار، أو الذهاب لأداء فريضة الحج، كما كانوا ينتقلون منها برّا إلى المدن المغربية الداخلية.

(5) يريد نبي الله موسى عليه السلام.



سوى اللقاء إفاقة، والنّوى قد أمرّ طعمها بكل لهاة، وحالت دون كل بغية مشتهاة، وأقبلت لا تقصر الخطا، وأيقظت وكان ينام لو تُرك القطا[1]، ثم خيّمت فما تقوّض، وأخذت وهي لا تعوّض، وصرنا معها موطنا لكل سالك، مماليك مع أفضّ مالك، وكنت أحسب أن أمدها معكم قد قارب الانقضاء، وسيفها ملّ الانتضاء، حين دنوتم بالشخص، وألمعتم بما جرى مجرى النّص، فصال على غربته الغريب، وهمّ بالعهد البعيد اللّقاء القريب[2].

ثم جاءتني مخاطبتكم على عادة اطلعت منها على البشائر، وتلمظت بها أري الشائر، وكم مرّة وفت لي والدّهر خوان، وبقيت على صبغتها والخطوب ألوان، وسيّرت إليّ كلّ حديث أشهى من قطع الرّضاب، وألذ من الإرضاء إثر الإغضاب، بشّر طلحه بوادي الظلّ، وطلعه بالثمر المطل، وما زال حتى اشمت الصّحة بالنُّكس، وقضى على الوحشة للأنس.

وهذه المخاطبة من ذلك الماء سقت، /155/ ولكمامة السّرور فتقت، لولا أنّها بالبعد نطقت، ولحلاوتها ببين بونة[3] مذقت، فتباين الطّعمان، وعجبنا من تلوّن الزمان، وقلنا الدّهر يومٌ ويومٌ، وفطر وصومٌ، وشطر لا يمنع شربا، وآخر لا يجمع شخبا، فمع حربه سلم، وإلى جانب جهله حلم، ونعمة الالتفات من المقام الكريم أيّ نعمة تعدلها، وأعباء فضله وطوله أيّ كاهل يحملها، ويا بشرانا غداة اجتمع أمرنا عند إمرتها، وأحلّتنا السعادة دار هجرتها[4]، وإنّا لنرجو إن بقيت في الحياة فضلة، وأمكنت من اللّيالي غفلة، لقاءً يشفي صدور قوم، ويديل يوما على يوم، وفي سعة الرحمة الربّانيّة تحقيق هذا الرّجاء، والعود على غريق يمّ الغمّ بالإنجاء.

(1) يريد المثل العربي القائل: "لو تُرك القطَا ليلا لنام"، والقطا طائر. يُضرب لمن حُمل على مكروه من غير إرادته. وأول من قال هذا المثل هي حذام بنت الريان. انظر تفصيل ذلك عند الميداني، مجمع الأمثال، ج 2، ص 161.

(2) طباق الإيجاب بين "البعيد والقريب".

(3) هي مدينة عنابة الحالية الواقعة بين بجاية وتونس. وهذه ثاني رسالة كتبها ابن عميرة من هذه المدينة، إلى جانب تلك التي كتبها عن أحد موظفي الدولة الحفصية معزيا في الأمير أبي زكرياء يحيى الحفصي. انظرها تحت رقم: 6 من هذا السفر.

(4) يريد حضرة الحفصيين تونس.

– 107 –

## جواب أهل بجاية على خبر البيعة بولاية العهد للمستنصر الحفصي

الحضرة العلية أيّد الله أمرها، وأعلى قدرها، ونصر أولياءها وتولّى نصرها، وأسمى في الملأ الأعلى ذكرها، وخلّد فيما يتلى ولا يبلى شرفها وفخرها.

فكتب العبيد كتب الله للمقام العلي توفيق العارفين من أوليائه، وإصابة المقصد الأسنى في ارتياده وارتيائه، من فلانة[1] وبركات أيّامه الزاهرة، ومطالع أنواره الباهرة[2] منها تضيء الأيّام، وبها يستسقي الأنام، وإليها تهتزّ الأعطاف وبها يعتزّ الإسلام، والحمد لله الذي فوّض إليه أمر خلقه، وأقامه لإقامة حقه، وأعطاه القدرة والتمكين، واسترعاه أمر عباده وبلاده فوجده القويّ الأمين، فلا صدع إلّا وهو /156/ له يرأب، ولا مصلحة إلّا وعليها يدأب، ولا أمر ممّا يقع أو يتوقع إلّا وقد أخذه بقوابله، وأمطره بوابله، وثقف منآده بكل مثقف من عوامله وذوابله، والله يزيد أيّامه بهجة وسرورا، ودولته عزّا وظهورا، ويبقيه لراية الإسلام ظاهرا[3] ناصرا وبالرأي والحسام منصورا.

ووصل الكتاب الكريم وصل الله لمصدره الأشرف إعظام الصّدور، وانتظام الأمور، رافعا راية الكمال، طالعا من ثنايا اليمن والإقبال، مُودَعا من أسرار الكلم وأنوار الحكم ما يُمحَى بسناه الإظلام، وتنقطع دون مداه الأقلام، وتطيف العقول منه بمقام آياته بيّنات، ومقال كلّ أفعال الدّهر به حسنات، فحسب الأوهام أن تنقلب على أعقابها إن هي طمِعت، والعيون أن تشاهد من محاسنه سافرة عن نقابها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت[4]، وكيف لا وبحر دُرّه لا تشبهه البحار، ومطلع شمسه لا

(1) هي مدينة بجاية.

(2) جناس ناقص بين "الزاهرة والباهرة".

(3) كلمة "ظاهرا" ناقصة في الأصل والزيادة من ك 233.

(4) اقتباس من الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: " قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. رواه البخاري في صحيحه.



تهتدي إليه الشموس والأقمار، وأجرى ذكر ما لله سبحانه بهذا الأمر العلي من عناية أظلته غمامتها، وأحضنته لامتها، وتظاهرت عليه منتها، وسُلت دونها ظباها وأشرعت أسنّتها، وذلك الفضل من الله رآه أهله وأنزله سهله، ورأى عدله وإحسانه فجمع لديه إحسانه وعدله.

ثم[1] أشار المقام الكريم إلى ما أوجبه الله عليه من عمل تفضّى عن عهدته، وأفضى بعد محض الاستخارة ومخض الآراء المدارة إلى صريح زبدته، والله قد أسعد رأيه في رويّة وبديهة، وجعله عاقد كل صفقة كريمة لا بقاء معها ليوم كريهة، فإذا أبرم فيد الله هي المُبرِمة، ومن أكرم فمشيئته /157/ الماضية هي في الحقيقة المكرمة، وما رآه وأمضاه فالله عزّ وجلّ[2] يرضاه، والتوفيق والإسعاد مع غِرَارَي عزمه أغمده أو انتضاه، وانتهت تلك المناهج القويمة، والمقدّمات الكريمة، إلى ذكر نتيجة الدهر، وطليعة سرور السرّ والجهر[3]، وسفور عروس البشرى تجلّ عن كلّ ما يفرض لها أو يعرض عليها من المهر، ولو أنّها حبيت بنجوم السّماء نثارا، وكان لها الفلك المدار دارا، لقلّ لعقيلة من الحدق نطاقها، وكنوز الفلق إشراقها، وفي القلوب إن رضيت محلّها ومنها لو قبلت صداقها.

وحين جلّت النعمة وجلت كمالها، ولبس يومها الأغرّ بهجتها وجمالها[4]، وسرّحت البشارة بولاية العهد واسمُ المسمّى لها ضرب السّرور على الأرض رواقا، وسكن منبر قد كان حنّ اشتياقا[5]، وطارت النفوس جذلا بعقد ضمنت القدرة نجاحه وسعده، ويوم كما نطق به الكتاب الكريم له ما بعده، فأيّ أمانة قلّدها

(1) من هنا حتى وهذه نعمة، سيرد مكررا في الرسالة رقم (126) من هذا السفر.

(2) في ك 233: وجهه.

(3) طباق الإيجاب بين "السّرّ والجهر".

(4) استعارة مكنية لأنّ اليوم لا يلبس بل الإنسان هو الذي يلبس.

(5) يريد قصة حنين الجذع التي هي من معجزاته صلى الله عليه وسلم وقد رواها بعض الصحابة منهم جابر بن عبد الله الذي قال: كان المسجد مسقوفا على جذوع نخل، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنِع له المنبر، سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار (النوق) لمفارقة النبي له، حتى جاء النبي فوضع يده عليه فسكت. الخفاجي، نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض، ج 3، ص 58.

الإصفاق أشرف مقلّد، وخرّ لها النفاق غير موسّدٍ، وبشّر الكتاب بها فاذكر بشارة الكتب السّالفة باسم نبينا عليه السّلام محمد[1]، وعندها كبّر الجمع، وسُمع القول الفصل ففاز به[2] السّمع، ودمعت عين الفرح فظنّ أنها لِمَا فاتها كان ذلك الدّمع[3].

وتضمّن الكتاب الكريم إعلام العبيد، بهذا العقد المبارك السّعيد، ليلتقطوا يانع الأنوار من ذلك الرّوض، ويسلكوا في البدار سبيل ما كان فَرَطُهُم على ذلك الحوض، فلو جاز قبل الأمر الامتثال، ولولا طاعة بدونها لا تقبل الأعمال، لكان حقّ هذا العقد أن يستهم على صفّه الأوّل، ويستبق /158/ إليه بالباع الأرحب الأطول، فإنّه أمان لأهل الإيمان مجدّد، وعمل لم يتقدّم إلى استنباطه والتنقيح لمناطه إلّا نظر صالح مبارك مسدّد.

وقد امتثل العبيدُ الأمرَ الكريمَ العليّ، وسلكوا سبيله الواضح السّوي، وبايعوا الإمام المرتضى[4] أعلى الله قدره، وأطلع في سماء السّعود بدره، بولاية العهد الكريمة على سنتها المتبوعة، وحكمتها المشروعة، وطاعة أمرها الذي هو بطاعة المقام الكريم موصول، ولرضى الله به إن شاء الله ثبوت وحصول، وكملت بيعتهم السّعيدة بشهادة الخاصة والجمهور، واستقلت بعلَمها المنشور ويومها المشهور، وهذه نعمة ليست لمخلوق بشكرها طاقة، وما لأحد بعد الغنى بها فاقة، حسنها في صفحة الدّهر رقم، ويومها ولده الزمان الذي بمثله عُقم، فالحمد لله الذي جلاها لوقتها، وقضى عندها لأبواب الميامن بفتحها ولأعضاد الشّرك بفتّها.

ونسأل الله للحضرة العليّة نصرا على عِدَاها، وسعادة تبلّغه أقصى مداها، وعُلوّا ليدها التي ارتوى الأنام من فيض نداها، وعزّ الإسلام بحياتها التي حقّ النفوس كلّها أن تكون فداها، وهو سبحانه ينصر لواءها، ويحرس أرجاءها، ويكبت

(1) يشير إلى تشابه الاسمين: اسم الرسول صلى الله عليه وسلم واسم ولي العهد أبي عبد الله محمد المستنصر.
(2) في ك 233: فقارَنَه.
(3) في ك 233: المدمع.
(4) هو الأمير أبو زكرياء الحفصي والد ولي العهد.



أعداءها، ويشكر عن الإسلام وأهله مقامها وغَنَاءها[1].

– 108 –

## وأجاب أحد إخوانه ناصحا

تخص أخي وسيدي أنعم الله باله، ووصل باليمن إقباله، تحيّة ودّ قد علمه، وإخاء ملّ القلم وصفه وسَيْمَه، فإنّه /159/ يذكر منه النار في رأس كَبْكَبِ[2]، ويعيد به الأخبار عمّا يشبه بسناه ومرآه الكوكب، فإن ذكرت الشوق إليه ذكرت غريما برّح بي إلحاحه، أو نديما ذهبت بلبّي راحه، فيا لها نوًى قطّاعة، وجوًى قُلتُ لدواعيه سمعا وطاعة.

ووصل كتابكم المبرور فوجدت له طعمين متنافرين، ووجهين عمّا ساء وسرّ سافرين، أما أحدهما فبسلامة الأهل والولد، وأما الآخر فبشكوى ما يجده من الوجد والكمد، ولعمري انه ليأسى على مثل الشراب خديعة، أو الظل استحالة سريعة، فما هذا القلق الذي استخفّ، والقلم بكلّ كائن قد جفّ، وإنّي لأعيذه من مقام ما له منه إلّا اشتغال البال، واشتعال البلبال، والموجدة على فلان لا تزيد إلّا ايحاشا، ثم لا تجد من شوكته انتقاشا، فاصرف النظر إلى ما سبيله أهدى، وعاقبته أجدى.

والرأي في حاضرة البحر إن كنت محوته من خاطرك فبالغ في المحو، وقد سمعت التسبيح فكيف تتمادى في السّهو[3]، والرأي الآخر فيه لا محالة تعذّر، ثم إنّ

(1) الرسالة خالية من التاريخ لبتر آخرها، ولكن من الواضح أنّ ابن عميرة كتبها من بجاية في أواخر سنة 646 هـ/1248 م، أو في أوائل السنة التي بعدها وهو تاريخ وفاة ولي العهد الأول أبي يحيى، فعيّن أبو زكرياء الحفصي ولده الثاني محمد وليا للعهد.
(2) كبكب: اسم جبل بمكة وقيل هو ثنية، وفيه يقول الأعشى:

| | |
|---|---|
| ومن يغترب عن قومه لا يزال يرى | مصارع مظلوم مجرّا ومسحبا |
| وتُدفن منه الصالحات وإن يسئ | يكن ما أساء النار في رأس كبكبا |

لسان العرب، ج 1، ص 697.
(3) يريد التسبيح الذي يكون للرّجال أثناء الصلاة خلف الإمام إذا أخطأ لتنبيهه، عملا بالحديث الذي رواه سهل بن سعد الساعدي عن النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: "من نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله، إنما التصفيق للنساء، والتسبيح للرجال. رواه أحمد وأبو داود –

الإقدام عليه تهوّر، اللهم إلّا بعد أجل كأجل المعترض، ونظر يميّز بين ما بالذات وما بالعرض، ومقدّمات علاجها عويص، واثباجها[1] ما عن الاشكال فيه محيص، وهذا موقف يطول فيه القول، وفريضة يدخلها العول[2]، وما كلّ غاية يضح طريقها، ولا كل صلاة يصحّ تلفيقها.

– 109 –

## تهنئة أحد أصدقائه بنيل منصب رفيع

كتابي إلى سيدي الذي أودّه عن بصيرة، واعتدّه أنفس /160/ ذخيرة، أبقاه الله وفضله معلوم أوّل، وكماله نصّ ما فيه متأوّل، من فلانة وبركة الإمامة[3] السعيدة شمس الظهيرة ظهورا، ومنبع جودها هو الماء[4] الذي خلقه الله طهورا، وعندي له تعظيم به آخذُ وأُفتي، وشكرا لرويّتي دونك منه المسك ففُضّي وفُتّي،

=

والنسائي. السيد سابق، فقه السنة، ج 1، ص 264.

(1) في ك 233: إنتاجها.

(2) العول في اللغة له عدة معان، فهو يأتي بمعنى الظلم والجور، ويأتي بمعنى الارتفاع، ويأتي بمعنى الزيادة وهو المعنى المقصود هنا لأنّه يتعلق بعلم المواريث. ففي اصطلاح أهل هذا العلم هو "زيادة في مجموع السهام المفروضة، ونقص في أنصباء الورثة". وذلك عند تزاحم الفروض وكثرتها، بحيث تستغرق جميع التركة ويبقى بعض أصحاب الفروض بدون نصيب من الميراث. فيُلجأ عند ذلك إلى زيادة أصل المسألة حتى تستوعب التركة جميع أصحاب الفروض، وبذلك يدخل النقص إلى كل واحد من الورثة، ولكن بدون أن يُحرم أحد من الميراث. وأصول المسائل سبعة، أربعة منها لا تعول، وهي 2، و3، و4، و8. وثلاثة منها تعول، وهي 6، و12، و24. فالستة تعول إلى 7، و8، و9، و10. والاثنا عشر تعول إلى 17 وترا لا شفعا. والأربع والعشرون تعول إلى 27 عولا واحدا. وقد وقع العول زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بإجماع الصحابة، وبعد موته اظهر ابن عباس خلافه فلم يُؤخذ به. وأول حادثة وقعت في عهد عمر وكان فيها عول هي مسألة المرأة التي ماتت وتركت زوجا وأختين شقيقتين. محمد علي الصابوني، المواريث في الشريعة الاسلامية، ص 115 وما بعدها.

(3) في ك 233: الإمارة.

(4) كلمة "الماء" ناقصة في ك 233.



فأمّا شوقي إليه فشوق الدّنِف الناحل إلى الشفاء، والبلد الماحل إلى الدّيمة الوطفاء. وبلغني وصوله إلى كذا كما عاد البدر إلى مطلعه[1]، والدّر لمكانه من القلادة وموضعه، وكنت خاطبته أوّل ما قرع سمعي هذا الخبر الذي نعمت به[2] بالا، ووجدت به لحياة المرح شبيبة واقتبالا، ووفيت حق التهنئة التي أخذتُ سهمي منها مبدّأ، ولم يكن أحد قبلي بها مهنّأ، وقلت للدّهر أما وقد أسعفت فيمن نحبّ ونكرم، وقدّمت من هو بالحقيقة والشهرة المتقدّم، فما عليك ملامة، ولا قِبَلك لذي أدب ظلامة، وإذا أعطي الحق مستحقه، ورقّى من منتحلي الكلام من يملك رِقّه، فقد عدل في القسم، ووسم بي موضع الوسم، وميّز بين الذاتيّ والعرضيّ في صنعة الحدّ والرّسم.

والآن عرف السنان عامله، والقلم حامله، ودُفع[3] البرد إلى راقمه، وحصل الدّر في يد ناظمه، بل أقول الآن أخذ عَمْرُو الصّمصامة[4]، وتولّى أبو محذورة[5] الأذان والإقامة، وتكلّم في الفريضة زيدها[6]، وقام أمام الكتيبة دُرَيدُهَا، ولقد أحسّ

(1) تشبيه بليغ حيث شبّه صديقه بالبدر والدّرّ.

(2) في ك 233: منه.

(3) في ك 233: رُفع.

(4) الصّمْصامة: اسمُ سيفِ عَمْرو بن معد يكرب، سَمّاه بذلك وقال حين وَهَبَه:

| | |
|---|---|
| خَليلٌ لَمْ أَخُنْهُ ولَم يَخُنّي | على الصَّمْصامةِ السَّيْفِ السَّلامُ |
| خَليلٌ لَمْ أَهَبْهُ مِنْ قِلاهُ | ولكنَّ المَواهِبَ في الكِرامِ |
| حَبَوْتُ به كَريماً مِن قُرَيْشٍ | فَسُرَّ بهِ وصِينَ عنِ اللِّئامِ |

قال عمرو هذه الأبياتَ لما أَهْدَى سيفه الصَّمْصامة لسَعِيد بن العاص. لسان العرب، ج 12، ص 384.

(5) هو أبو محذورة أوس بن معير بن لوذان بن ربيعة بن عريج بن سعد الجمحي القرشي، مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة، غلبت عليه كنيته، واختلف في اسمه، قيل اسمه سمرة وقيل غير ذلك، وأخوه أنيس بن معير قتل كافراً وأمهما امرأة من خزاعة. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج 1، ص 38.

(6) هو الصحابي الجليل زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري النجاري، شهد أحداً وما بعدها من المشاهد. من الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يكتب له الوحي وغيره، وكانت ترد عليه صلى الله عليه وسلم كتب بالسريانية فأمر زيداً فتعلمها، وكتب بعده لأبي بكر وعمر. وكان عمر يستخلفه إذا حج، وكان عثمان يستخلفه

=

ولتِه بقوة في ظهر جاهه، وقرّة بعين انتباهه، وعلم أنّ الدهر قد وقع بهواه، وقطع عنه لسان شكواه، فمتى شاء أدلى بأقوى سبب، وأدلّ في كل أرب، وأنا الآن متطلّع من /161/ تفاصيل أحوال سيدي إلى ما يملأ عيني نورا، ويُميل بعطفي سرورا، إن شاء الله تعالى.

-110-

## مدح وشكر أبي عثمان سعيد على توصيل أولاد أخته إليه في بجاية[1]

وقد وصل كتابها الحافل في نوعه، الحامل قطع الرّوض من حسنه وضوعه، فأكبرت قدومه، ولثمت مختومه، وقلت أطيف حبيب أدناه النوم، أم إسعاد زمن خلاه الذمّ واللّوم، ولم أكن أحسبه قبل أن أطلعه عليّ الصّباح، وأدّاه إليّ الملّاح، أنّ بحرنا هذا تقذف الدّرّ أمواجُه، وتنبت الزّهر أثباجُه، وتنقلب إلى الجُمان أحجارُه، وتكتسب باللؤلؤ والمرجان تجّاره، فصعّدت فيه وصوّبت، وأخطأت في نظري له وأصبت، أمّا الخطأ فلأن وقفت لحملة سيله، وصففت لرجله وخيله، فقمت بين أمواج شدّها هو المتدارك، وتحت عجاج ليس ممّا تثير السّنابك، وأمّا الإصابة فبأن غضضت دونه طرف حياء واحتشام، وأزلت عن نفسي طمع الحارث بن هشام[2]، فذلك طمع في عقاب يومه، فنهج فرصة الارتقاب لقومه، حين ظنّ أن الحرب

أيضاً على المدينة إذا حج. من فقهاء الصحابة الجلة في الفرائض، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفرض أمتي زيد بن ثابت". وكانوا يقولون عنه: غلب زيد بن ثابت الناس على اثنين: القرآن والفرائض. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج 1، ص 159.

(1) في الأصل: ومن رسالة. وقد جاءت هذه الرسالة الطويلة كاملة في ك 233، وفي مخطوط لباب الألباب، الورقة 66. حيث صدرها ابن عميرة بقصيدة في مدح وشكر المكتوب إليه.

(2) هو الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي، يكنّى أبا عبد الرحمن، وهو أخو أبي جهل عمرو بن هشام وشقيقه، شهد بدراً كافراً وفرّ حين قتل أخوه، وعيّره حسان بن ثابت لفراره، فاعتذر الحارث بن هشام من ذلك، ثم غزا أحداً مع المشركين أيضاً، وأسلم يوم الفتح وحسن إسلامه، وكان من فضلاء الصحابة وخيارهم، ومن المؤلفة قلوبهم وممّن حسن إسلامه منهم. ابن عبد البر، الاستيعاب، ج 1، ص 89.



سجال، وبإزاء الرّجال رجال، فأمّا حيث لا يجد الثاوي ثواء، ولا تكون القتلى بواء، ولا يرتقب المنهزم كرّة، ولا يلقاه إلّا السّيل العرم كثرة، فالطمع لصاحبه فضّاح، وواضح العذر لا يتكلف له إيضاح.

وتضمّن كتابها المبرور موضع كتابي من نفسها الكريمة، وتقويمها إيّاهما بأرفع القيمة، وأنّها استخلصتهما نجيّين، ووجدت /162/ لهما في ذلك الملأ وحاش لها من الظمأ رِيّين، فعطست بأنف الكبر، وظننت التماس شبهي بالتّبر، ولا سيّما على من الكلام إذا سلكت شعابه، وخطمت صعابه، فهو صيرف صيارفه، والأعرف بمصادره ومصارفه، والبصير بهنائه أين يضعه، والمدعو من رَمّ بنائه إلى ما لا يدعه، فلولا ما ثاب إليّ من أنّ عين الرّضى تميل، وخواطر الفضل معها الظنّ الجميل، لانتفختُ في إهابي، وقلتُ ما سير يسبق سيري وركابي، ولا نميرٌ تبلغ كعبي وكلابي، لكنّي بشكّتي أزريت، وفي سكتي ما امتريت، [وعلمت أنّ البهرج لا يخفيه، إغماضُ من أخذه فيه، وأنّ السيف وإن ظنّ أنّه يفوت الأنفان، فربّما خان الأيمان ومَان، ووقف صاحبه موقف الفرزدق عند سليمان.

وقد وردت الجملة[1] التي أصدرتها عناية الرئاسة السّنيّة، وأنالتني ببلوغها فوق الأمنية، فيا لما وصفوه، ولعمري ما أنصفوه، من تفضّلٍ أنساهم مضض البؤس، ومرض النفوس، وهوّن عليهم السفر وشقّته، والجلاء ومشقّته، فكلّ يقول جزى الله عنّي جعفرا، ولا زال كعبه عاليا مظفرا، وينشد في جوار الكريم المهذب، نزلت

(1) يريد أولاد أخته الذين وصلوا إليه في بجاية. فقد كان لابن عميرة أخت تقيم في جزيرة شقر مع أولادها، إذ تحدث عنها في رسائله مرات عديدة، سيما بعد مغادرته الأندلس. وقد كان أيام تولّيه قضاء الرباط وسلا كثيرا ما يكتب إلى أصدقائه في شأنها من أجل ترحيلها مع أولادها إليه. ورغم كل المكاتبات والمحاولات فإنه لم يتمكن من نقلهم إلى المغرب، وبعد استيلاء النصارى على جزيرة شقر سنة 639 هـ/1241 م وجلاء أهلها عنها، خرجت أخت ابن عميرة مع المطرودين فمرضت في الطريق وماتت بمدينة أوريولة وبقي أولادها هناك. ولما انتقل ابن عميرة إلى بجاية كتب إلى أبي عثمان سعيد صاحب منورقة يرجوه أن يعمل على نقلهم إليه، فقام هذا الأمير بالواجب حيث نقلهم من أوريولة إلى منورقة، وبعد فترة من الراحة وجّههم في زورق إلى بجاية حيث خالهم ابن عميرة الذي كتب هذه الرسالة إلى أبي عثمان سعيد يخبره بوصولهم ويشكره ويثني عليه.

على آل المهلب، وأين من الهمّة العمانية، كرائم الهمم العدنانية، ومَن للأخلاق المزونية، بالأعراق الحجونية، ولو رام شيئا منها ابن أبي صفرة، لقيل أخطأت كذا منه الحفرة، أما إن الرئاسة العالية وإن رأتها لهنة معجلة، فقد أتت بها غرّاء محجّلة، لحديثها شية الأبلق، ولما قيد منها حقيقة الشكر المطلق، فما أملكها لرقّ الشكور الحامد، وأكلمها لقلب الكفور الجاحد، ووددت أنّ عبء شكرها حمله عنّي عسكر من خالد بن صفوان، وكتيبة من صعصعة بن صوحان[1]، وحشر لها خطباء أياد، وقام بها ألف من زياد[2]، واستجيش لها صادا إبراهيم وإسماعيل[3]، وطاءا الوليد ومن نهج له السبيل[4]، وأجاب لها خطيب جابية الجولان[5]، بعد أن حال عليه في تحبير خطبته حولان. ][6].

-111 -

## وأجاب أبا الحسن بن هلال العددي

كتبته إلى أخي الذي أحبّه الحبّ كلّه، وأغار على قلبي أن ينزله غيره أو يحلّه، كتب الله له تفرّغا لشأنه، وتبلّغا بما يصلحه في زمانه، من فلانة والدّهر وإن أجرى أمره على أن المستقيم أقصر الخطوط، والمستدقّ هو رأس المخروط، وأنّ الكثير في الأعداد غير التام، والحسناء في المعتاد غير خالية من الذام، فإنّه ربّما فاء، وراجع الوفاء، ورتّب المسبّب على سببه، وصفح للقرن على سلبه، فهو كاسرٌ جابر، ومستقيم جائر، فقد يقع منه الملائم، ولا ينصفه في لومه اللاّئم، وأنا معتد من أخي

(1) من خطباء العرب ونسابيهم، كان من أصحاب الإمام علي.
(2) هو زياد بن أبيه من أخطب الناس في عصره.
(3) يقصد بهما الصّابي إبراهيم بن هلال والصاحب اسماعيل بن عباد.
(4) يريد الشاعرين الطائيين أبا عبادة الوليد بن عبيد البحتري وأبا تمام حبيب بن أوس.
(5) تقع جابية الجولان بالشام شمالي حوران، وفيها خطب الخليفة عمر بن الخطاب خطبة الجابية المشهورة.
(6) الزيادة من ك 233. وجاءت آثار الصنعة ظاهرة في هذه القطعة التي تكلف فيها ابن عميرة السجع والجناس والطباق والمقابلة، كما قارن ممدوحه بطائفة من أسماء الأعلام.



حفظه الله بخير الأخلاء، منجذب نحوه انجذاب الأشياء باضطرار الخلاء[1].

ووصلت مخاطبته المبرورة تزهر روضتها الرّياضية، وتبهر حجّتها المستقيمة والافتراضية، فوجدت لها ثلج النفس /163/ بالصّادق من الآراء، وسكونها إلى الكامل من الاستقراء، ويعلم الله أني في كلّ حال أذكر عهده ذكر الغريب لمنازل الأحباب، واليفن لأوقات الشباب، وانتظر من انتظام الشمل به مطلوبا لعلّ الأيّام تهديني بسراجه، وتظفرني بمقدّمات إنتاجه.

وأشار سيدي إلى الخطب الذي أثار الوجد، وأثكل المجد[2]، وما ذكر من الصّبر فأرجو أنّ الله سبحانه يكسوه أثوابه، ويرزقه ثوابه، وكان قد اتفقت لي أبيات في المعنى بعثتها مع بعض الرّسل، ثم أعدتها خشية آفات السّبل، والحال على ما يُرضِي الأخ الأخصّ، وعيدان الثرى قد أمكنت الممتص، ومن أومأ إلى العلة كان كمن نصّ، والله يوزعنا شكر الإحسان، ويجعلنا بنجوة من حوادث الزمان، وتُحُدِّث هنا بأخبار عن شَرْقنا[3] شرقنا لها بالدّمع، فإنّا لله على ما نزل بذلك الجمع، فإنهم زعموا عُرضوا على الجلاء، وعُرِّضوا للفناء، وفي سعة فضل الله رحمة الأموات وجبر الأحياء[4].

-112 -

## عدم تمكّن المؤلّف من السّفر في الأسطول الحفصي من سبتة إلى تونس

أفضل التحايا وصفا، وأطيبها عرفا، وأقومها وأحكمها صفا ورصفا، يرد على صريح المجد المؤثل، وروح الفضل المتمثل، مضمّر خيول الميدان، مضمّخ فضول الأردان، والرّحمة والبركة متجدّدتين ما تراخى الجريدان، وتواخى الفرقدان.

(1) استعمل ابن عميرة في هذه الافتتاحية مصطلحات هندسية ورياضية، لأنّ المكتوب إليه كان عدديا ماهرا ومهندسا حاذقا، كما تبيّن في تعريف سابق به.
(2) جناس ناقص بين "الوجد والمجد".
(3) يريد شرق الأندلس الذي تعرّضت مدنه وقواعده لغزو النصارى، وما نجم عن ذلك من قتل وطرد وجلاء لأهله من المسلمين.
(4) ورد بعض هذه الرسالة مكرّرا في رسالة سابقة تحت رقم (51) من هذا السّفر.

صدرت المخاطبة إلى الجانب الأرفع والتخصّص بولائه، والتخلّص إلى علائه، عمدة الأمل، وزبدة العمل، ومطلع /164/ الأماني التي صباحها من أفقه يتأمّل، وصحاحها من طُرقه تحمل، وهل لحسراها أمن إلّا في ذراه، أو لأسراها منّ إلّا حين تراه.

وعندما صدر الآن الأسطول[1] تجدّد لفلان رأي أشبه الارتجال، في أن يحمله والعيال، فإذا البطون مقربات، والظهور ما لمستمسك عنها ثبات، وعندما تلا **﴿لا أجد ما أحملكم عليه﴾**[2] في ذلك الجمع، **﴿تولوا وأعينهم تفيض من الدّمع﴾**[3]، إلّا أنّ الفضيلة الفلانية رقّت لمن أُبدِعَ به[4]، وضمنت له الرّاحة من تعبه، ووعدت أن يُحمل والشمل جميع، والفصل ربيع، والظهر مطيق والبحر[5] مطيع، فلم[6] يَرَ إلا استحلال هذا النسيء، واستحلاء ما جناه من إحسان[7] الزمن المسيء، وانتقل إلى الذمة ما كان عن يد، وأجلت حال اليوم على الاستحالة على غد، فمتوقف مستريب، وقائل غدا إن شاء الله قريب، ولكن الشوق لهذه الإحالة ارتاع، وأراد فسخها فما استطاع، فجعجع بزفرة غيظه، ورجع بسَورة قيظه[8]، وبقي المذكور يماريه في قرب الأمد، ويداريه على بقيّة الجلَد.

واتفق له أثناء ذلك خدمة في الحضرة التي أوصافها إذا استفرغ لها عطارد

(1) في شهر جمادى الأولى من سنة 646 هـ/1248 م رجع الأسطول الحفصي إلى مدينة سبتة قادما من اشبيلية إثر الاضطرابات التي حدثت في هذه المدينة وانتهت بحصارها واستسلامها، فأراد ابن عميرة أن يسافر على ظهر هذا الأسطول، ولكنه لم يجد مكانا فيه لأنه كان يحمل عددا من الأندلسيين المهاجرين إلى تونس، فأجّل سفره إلى الشهر الموالي من السنة المذكورة.

(2) الآية رقم 92 من سورة التوبة.

(3) الآية نفسها.

(4) أُبدِعَ به: انقطِع به بالبناء للمجهول. يجيء الرجلُ إلى الرجل إذا انقطع به في سفر فيقول له احملْني فقد أُبْدِع بي أي أعْطِني ظَهْراً أركبه. لسان العرب، ج 11، ص 180.

(5) في ك 233: المجد.

(6) من هنا إلى آخر الرسالة ورد مكرّرا في رسالة سابقة تحت رقم (24) من هذا السّفر.

(7) كلمة "إحسان" ناقصة في ك 233.

(8) جناس ناقص بين "غيظه وقيظه".



مجهوده، وجمع عليها المشتري جنوده، بل إذا ناولتها الجرباء رقعتها، ونثرت عليها الجوزاء إكليلها وهقعتها، رأى كلّ منها أنّه لأجل المفارق صُنع تاجه، وعلى أشرف المعاطف خُلع ديباجه، فكيف بركيّة من المشتف منعت وشلها، ورويّة في آخر الصّفّ أظهرت فشلها، ولقد وقف لها بين رأيين تنازعاه، وعزمين كلاهما إلى جانبه دعاه، أحدهما يضع من قدرها، /165/ ويدفع في صدرها، والآخر لقوله يميل، إلّا أنّه على سعة الحلم يُحيل، قال فتأمّلت ما استطعت، ولمّا لم أرَ تعارضا جمعت، والرّجاء في كرم التجاوز ماثل لعيانه، مائل لعنانه، وفضل السّيد الأوحد مرقى رَجل رجائه، وملقى رَحل ارتياده وارتيائه، إن اطمأنت نفسه ففي جواره، أو عشت عينه فإلى ضوء ناره، كما أنّه إن كان شخوصه فلبرّ منه يلوذ بمتداركه، أو حنّت قلوصه فليس إلّا لمبارك مباركه.

– 113 –

## ومن رسالة إلى الفقيه أبي الحسن الرّعيني[1]

تحيتي المباركة الطيبة أهديها إلى سيدي ومعتمدي نديّة الهبوب، نجديّة الصّبا والجنوب، ورحمة الله تعالى وبركاته، كتبته كتب الله لكم تمهيد العلاء، ومزيد النّعماء، من فلانة وأنا به معتدّ، ومداي في الاستناد إليه والثناء عليه فسيح ممتد.

ووافاني خطابه كالصّبح جلا الآفاق، والنّجح أعقب الإخفاق، فعرض عليّ

(1) أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن هيصم الرّعيني الاشبيلي يعرف بابن الفخار (592–666 هـ/1195–1267م)، إشبيلي المولد والنشأة والقراءة، أخذ عن شيوخ عصره وأجازوه صغيرا وقدّم للتدريس في مجالسهم، وتولى القضاء على مذهب مالك. تنقل داخل مدن الأندلس والمغرب ومنها مالقة وشريش وقرطبة ومرسية وغرناطة وتلمسان ومراكش التي توفي بها. اشتهر أمره بالكتابة وغلبت عليه واعتمدها وتقدم فيها وكتب لجلّة من الملوك بالأندلس والعدوة. وبعض رسائله التي احتفظ بنصوصها تلميذه ابن عبد الملك في الذيل والتكملة توضّح طريقته في الكتابة وهي الطريقة التي كانت سائدة في عصره المعتمدة على السجع وضروب البديع، والتزم في بعضها حرف العين وعارض بها رسالة أبي عبد الله بن الجنان. من مؤلفاته برنامج شيوخه الذي حققه إبراهيم شبوح، واقتفاء السّنن في انتقاء أربعين من السّنن، وشرح الكافي لابن شريح، وصلة المطمح والذخيرة. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر 1/5، ص ص 323–369.

منه البيان في صورته، والكمال يعرفه العقل بضرورته، ومن يقدر على المجال الضيّق المتّسع[1]، والمسلك السّهل الممتنع، إلّا من له في البلاغة سكّتها المأبورة، وشكّتها المنصورة، وبذرها المصونة المصرورة، يحمل عنبريًا من طيبها، وينزع عبقريًا على قليبها، ويعطي منها إعطاء من لا يخشى الفقر، ويطير[2] فوق أهلها فترى منهم البغاث إذا رأت الصّقر[3].

-114 -

## معاتبة أبي عبد الله ابن مرج الكحل[4]

/166/ [الوافر]

ألي في نيل ما أبغي نصيب      فيدرك منك أم أملي كذوبُ

نعم لا بدّ من نيل الأماني      فما أمَلِي يُردُّ ولا يخيبُ

ظنوني أجدبت لما عتبتم      وكيف وروض ودّكم خصيبُ

وآمالي غدت فيكم مِراضا      وأنّي ذا وأنت لها الطبيبُ

ولو قلبي نوى لك بعض هجر      لضلّت فيك تخصمه القلوبُ

إذا ما محض ودّك كان ذنبي      فلا والله منه لا أتوبُ

رويدك بعض هذا العتب واصفح      فقد يؤذى من المقت الحبيب

---

(1) طباق الإيجاب بين "الضيّق والمتّسع".

(2) في ك 233: يحلّق.

(3) سترد هذه الرسالة كاملة تحت رقم: 186 من السفر الثاني.

(4) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن علي المعروف بابن مرج الكحل، من أهل جزيرة شقر بلدة ابن عميرة، أخذ عنه أبو الربيع بن سالم والرّعيني وابن الأبار وغيرهم. كان شاعرا مفلقا، غزلا بارع التوليد، رقيق الغزل، وكانت بينه وبين طائفة من أدباء عصره، أمثال أبي بحر صفوان وأبي الحسن بن حريق وأبي عمر بن غياث وغيرهم، مخاطبات ظهرت فيها إجادته، وله أمداح في كثير من أمراء ورؤساء وقته، وُصِفَ بأنه كان مبتذل اللباس على هيئة أهل البادية. مات في شهر ربيع الأول من سنة 634 هـ/1236 م. ابن الأبار، التكملة، ج 2، ص 136. ابن الفخار الرّعيني، برنامج شيوخ الرّعيني، ص 133. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر 6، ص 110. ابن الخطيب، الإحاطة، ج 2، ص 343.



-115 -

## وكتب يوصي برجل مستعتب[1]

كتابي إليكم كتب الله لكم من الكرامة أوثقها بناء، ومن النعمة أرحبها فناء، من فلانة والودّ عود فيه ماؤه، وثرّى جادته سماؤه، وما يبلغني من أخباركم التي لأرجها فوحٌ، ومن نسيمها بقلبي ريحان وروح، فلي بها غذاء السّغب، وشفاء المدنف الوصب، وبحسب هذا أرغب في أن تجروا من المطالعة بها هذا المجرى، وتأتوا منها بمنّة في أثر أخرى.

وقد وصل فلان فما نزل إلى الشكوى، ولا قال إلّا بما أهوى، ولقد أعجبني منه أنّه ما أخطأ اجتهادا، ولا ثني عن محبّتكم فؤادا، وإنّما طلب محبّة بها يُحبى، وجوازا منكم عن العتب إلى العتبى، فقلت له سألت مبذولا، ورمت ما أضمن لك إليه وصولا، فمَن تريد ذلك منه مِن أهل بيت عند المقدرة يحلمون، وعلى أنفسهم يحكمون، وهو في هذا المعنى أبعدهم مدًى، وأطولهم يدًا، وسيفي بما شرط، ويعفي /167/ على ما فرط، إن شاء الله تعالى.

-116 -

## جواب أهل سلا عن كتاب بيعة تلمسان للرّشيد الموحدي

الحضرة الإماميّة العليّة المقدّسة الطاهرة المباركة السّنيّة السّعيدة المنصورة المؤيّدة الرشيديّة، الكفيلة من إعزاز الإسلام بما هي المليّة به الرفيّة، الماضية عزماتها الشريفة حيث تنبو المشرفيّة، حضرة سيّدنا ومولانا الخليفة الإمام [الرّشيد بالله[2]، المُؤيّد بأمر الله، ابن سيّدنا الخليفة الإمام][3] المأمون أمير المؤمنين ابن سادتنا الخلفاء الرّاشدين أيّد الله أمرها، وأعزّ نصرها، وأوزع الأمّة المحمّدية حمدها

---

(1) تكرار للرّسالة رقم (40) الواردة في هذا السفر.

(2) عن الخليفة الموحدي الرّشيد وأخباره، انظر ابن عذاري، البيان (القسم الموحدي)، ص 299 وما بعدها.

(3) الزيادة من ك 233.

وشكرها، وأبقى برونق الإشراق والأمان من المحاق شمسها الطالعة وبدرها.

عبيدها اللائذون بحرمها، العائذون[1] بكرمها، المتقلّبون في مننها العميمة ونعمها[2]، الداّعون إلى الله سبحانه أن ينهضهم بحقوق طاعاتها وواجبات خدمها، الطّلبة[3] برباط الفتح وسلا والجماعة والكافة من أهليهما سلام الله المبارك الكريم وتحيّاته، تخص المقام الأشرف الأعلى ورحمته وبركاته.

**وبعد** حمد الله العزيز الحكيم، الفتاح العليم، ذي المنّ العميم والفضل العظيم، والصّلاة على سيدنا محمد رسوله الذي اختصّ بكرم الخيم، والشرف الصميم، وتأخّر بالزمان وله من شرف المكان رتبة التقديم، وعلى آله وصحبه الذين جاهدوا معه بصدق العزيم، حتى صار العلوّ لحزبه الكريم، وانقلب العدوّ على هيئة الولي الحميم، والرّضا عن الإمام المعصوم /168/ المهدي[4] المعلوم القائم بفضيلة العلم وفريضة التعليم، الطّالع بدر يقين في ليل الشك البهيم، وعن خلفائه الرّاشدين الجارين على نهجه القويم، الواسمين جباه أوليائهم بالترغيب ومعاطس أعدائهم بالترغيم، والدّعاء لسيّدنا ومولانا الخليفة الإمام الرّشيد أمير المؤمنين ابن ساداتنا الأئمة المهتدين بنصرٍ يَعِد بتمليك الأقاليم، وفتح تلقي إليه البلاد يد التسليم.

فكتب العبيد كتب الله للحضرة الإمامية العليّة الرشيدية سعودا تخرق بالأيّام معتادها، وفتوحا تعطيها البلاد قيادها، ولا زال نصر الله يقدّ أعداءها قبل أن تقود

(1) جناس ناقص بين "اللائذون والعائذون".

(2) في ك 233: نعيمها.

(3) هم رجال السلطة وعلى رأسهم الوالي الذين كانوا يمثلون الدولة الموحدية محليا في الولايات.

(4) نسجل هنا إرجاع اسم المهدي في المراسلات الرسمية على عهد الخليفة الرشيد لأن والده المأمون (624- 630هـ/1226-1232 م) كان قد قام باستئصال جذور عقيدة الموحدين، التي وضع أسسها المهدي بن تومرت، من كل بلاد المغرب، وأمر بحذف اسم المهدي مما سيضرب من سكة ومن خطبة الجمعة ومن المراسلات الرّسمية، في الوقت نفسه أمر بإلغاء كل الاحتفالات والعبارات والطقوس التي تدل على عقيدة الموحدين، والتي سرى العمل بها منذ تأسيس الدولة، وكان ذلك في سنة 627هـ/1229 م. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 330.



جيادها، وتصافح لواءها وبيض الصّفاح ما فارقت أغمادها، من كذا[1] وبركاتها تعمّ البسيطة أنوارها، وتكاثر البحار المحيطة بحارها، وتملي على الأيّام من عاداتها الكرام ما تطيب به أصائلها وأسحارها، ويجري على الاختيار بإسعاد الأقدار ليلها ونهارها، فعصرنا[2] السّعيد هو بيت قصيدة العصور، وحامل لواء الشرف المنصور، وبه صحّ في ختم العوادي ونظم الأيادي قصر الممدود ومدّ المقصور، عُلمت فضيلته باليقيني من الأدلة، وزاد على من قبله زيادة البدور على الأهلّة، والتزم الخاصّ والعامّ[3] من الشكر لخصائصه فروضا، وعلموا أنّ للرّزق به والرّفق منه بابا مفتوحا وجناحا مخفوضا.

فالحمد لله الذي حلاه بحلى المفاخر، وأذهب بجوده ذكر البحور الزواخر، وجعله حجّة واضحة لمن قال كم ترك الأوّل للآخِر[4]، وعند العبيد من خلوص الطاعة والتزام ما يجب للنّعمة من الشكر لها /169/ والإذاعة، ما يجب أن يكون عند أرقّاء تالد المنّة وطارفها، الأحقاء باستيفاء ما يتعيّن عليهم من وظائفها، ولهم في شكر ما ورثوه منها خلفا عن سلف، وتقلّدها منهم من تقلّدها شرفا على شرف، مجال كل منهم جاهد في قطعه، ومعه جاذب من زمانيّ عادته وطبعه، على أنّهم لو أنفذوا فيه الأعمار الفسيحة، واستعاروا له الألسنة الفصيحة، لأعجزهم المرام البعيد، والشوط المديد، وقالوا لكلّ لفظ جمعوه ومعنى أشبعوه أين تقعان ممّا أريد؟.

ووصل الكتاب الإمامي الكريم وصل الله لمصدره الأشرف عادة العلو،

(1) هي مدينة سلا التي كتب ابن عميرة عن أهلها هذه الرسالة، وجاء العنوان يحمل اسمها.

(2) في ك 233: فعصرها.

(3) طباق الإيجاب بين "الخاص والعام".

(4) يشير إلى قول أبي تمام:

لا زِلْتَ مِنْ شُكْرِي فِي حُلَّةٍ ... لابِسُها فِي سَلَبٍ فَاخِرِ
يَقُولُ مَنْ تَقْرَعُ أَسْمَاعَهُ ... كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ لِلآخِرِ

والبيتان من قصيدة كتبها أبو تمام إلى أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي، وذلك أنّ رجلا من إخوان أبي تمام جاءه يطلب عطاءه، فلم يجد ما يقدّمه له، فاحتال له بهذه القصيدة التي كتبها إلى أبي سعيد المذكور. أبو بكر الصّولي، أخبار أبي تمام، ص 33.

وسعادة الرّواح والغدوّ، باهر السُّوَر[1] والإعجاز، رائق الصّدور والأعْجَاز، مُعطى من صُوَرَ الكمال أبهاها، لابسًا من حلل الحسن ما يقصر عنه كل حسن وإن تناها، وحقّ لكتاب أودعته الحكم الجلية، وأملته الأغراض العليّة، واشتمل على أوصاف الهبة الهنية، والعارفة السنيّة، والعقيلة التي هي حسب الأمنية، أن يكون الكتاب المطهّر، والعلم المشهّر[2]، والطّالع الذي أبت آيُ فضله إلّا أن تظهر وتبهر، فكان بحره العذب المعين، ودُعي العبيد إليه فأجابوا مهطعين، وحضروا القراءة يوم الجمعة بعد أن قضيت الصّلاة، ووجب عند جوازه الإنصات، فتُلي عليهم نصّه الذي هو أعلى درجات النّصوص، ولفظه الذي لا يُنكر عموم فضله أرباب الخصوص، واستوفوا سماعه فصلا فصلا، وفرّعوا على كلمه الزّواهر فروعا من البشائر جعلوه لها أصلا، وعرفوا منه إتيان بيعة[3] تلمسان عفوًا بلا تعب، /170/ وابتداءً دون طلب.

وهي البلدة العتيقة، بل الرّوضة الأنيقة، جمعت محاسن المدائن منها في مدينة، واشتملت على أكمل عدّة ليومي حرب وزينة، حَشوُها السّلاح والكُراع، وفاخر متاعها لا يضاهيه المتاع[4]، وقد كانت قديما نأت بجانب، وأومأت من الانقياد بوعد غير كاذب[5]، وأولياء الله بكظمها آخذون، ولِلَهُوَيْنا في أمرها منابذون، وبصائر أهل هذا الأمر العلي كسيوفهم محشوذة، والعهود عليهم بالصّبر في مواطن الجلاء مأخوذة، فما أذعنت إلّا بعد أن ظنّ أنّها ماء نضب، بل ذماء ذهب، وها هي الآن قد لبّت قبل النداء، واستحبّت فضيلة الابتداء، وجاءت وهي عروس عليها حليّها، حسّانة أحسن جلاءها وليّها، هذا والسّيف مقروب، والخطي لم تهزّ له

(1) في الأصل كلمة السّوَر غير واضحة لأنّ في وسطها بياض فأثبتناها من ك 233.
(2) جناس ناقص بين "المطهّر والمشهّر".
(3) إنّ بيعة أهل تلمسان التي جاء كتاب الخليفة الموحدي يبشر بها، هي ممّا انفردت بالإشارة إليه هذه الرسالة، إذ لم يرد ذكرها في المصادر المتوفرة لدينا.
(4) إشارة إلى الأهمية التجارية والاقتصادية المتزايدة التي كانت تتمتع بها مدينة تلمسان يومئذ مستفيدة من اضطراب أحوال المغرب الأقصى.
(5) يشير إلى استقلال الأمير يغمراسن بن زيان بتلمسان عن الموحدين سنة 633 هـ/1235 م.



كعوب، والخيل ما أرضاها سَيْرٌ ولا أنضاها ركوب، فأيّ دلالة على سعادة هذه الخلافة كهذه الدّلالة، ولِمَ لا تسحب أيّامها ذيول الحسناء المختالة، وكل يوم منها موسم من مواسم الدّنيا، وفي كلّ يد من عطاياها ما لا تسمح به إلّا يد[1] العليا.

والعبيد قد قضوا للبشرى حق الإصفاق عليها والاتفاق، ورأوا آياتها في أنفسهم وفي الآفاق، وازدادوا بصيرة فيما لهذه الإمامة السّعيدة من مزايا أخذتها بالاستحقاق، واستوفتها على الإطلاق، وعلموا أن ما وعدت به من فتوح على الأثر، وبشائر هي في ضمان المقدر، سُحب قد أومضت بروقها، بل شهب حان منها شروقها، فلهم لسماعها إصغاء، طلب لمرضاة الدّعوة الهادية وابتغاء، والفوز بها فوزٌ بسعادة /171/ الدّنيا والآخرة، والحوز له لبوسه من أبهى الملابس الفاخرة، وهم لأيدي الدّعاء رافعون، وفي ثنايا الرّجاء في القبول طالعون، والدّعاء للمؤمن سلاح، وبه لأبواب البركات قرع[2] وافتتاح:

اللّهم إن إمامنا هذا أحلم الحلماء، والموصوف كالصّحابة الكرماء[3]، بصفات الأشدّاء الرّحماء، اللّهم فاكلأه بعينك التي لا تأخذها سنة ولا نوم، واجعل أيّامه لا يلحقها في الإخلال بمراده لوم، ولا يمرّ منها إلّا بإسعاده يوم، اللّهم أيّده على أعدائك، وأوزعه شكر نعمائك، واحفظه بما حفظت به الصّفوة الكرام من أنبيائك وأوليائك، وانصر مُلكه في أرضك بملائكة سمائك، آمين آمين، والصّلاة على سيّد المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين، والسّلام الكريم، الطيب المبارك الزكي العميم، أرج النشر، رائق البشر، يخص المعالم القدسية، العالية[4] السّنية، ورحمة الله تعالى وبركاته[5].

(1) في ك 233: يدها.
(2) في ك 233: قدح.
(3) تشبيه مجمل شبّه الموصوف بالصحابة حيث ذكر المشبّه والمشبّه به والأداة.
(4) كلمة "العالية" ناقصة في ك 233.
(5) جاءت الرسالة خالية من التاريخ، ولكن من الواضح أنها كُتِبت سنة 639 هـ/1241 م، وهي السنة التي نُقل فيها ابن عميرة إلى قضاء عدوتي الرّباط وسلا. كما أشار ابن خلدون إلى استئلاف الرّشيد ليغمراسن بأنواع الألطاف والهدايا قائلا: "وكان يغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المؤمن، أقام دعوتهم بعمله متحيزا إليهم سلما لوليهم، وحربا على عدوهم، وكان =

-117-

## وكتب لأبي الحسن سهل بن مالك يوصي بلاجئ بلنسي

كتابي إلى سيّدي ورئيسي[1]، ومُسعدي وأنيسي، حرس الله جلاله، وفسح في المعالي مجاله، من مُرسية والخلوص شيء عليه فُطرت، والشوق لو طار به أحد لطرت، وما أعتقده من التعظيم، وأعتمده من الشكر العميم، فوظيفة القلب واللسان، وفريضة تستغرق جملة الزمان.

وقد وصلت رقعته المباركة الكريمة كما جلا الصّبح الظلماء، ونقع العذب القلوب الظّماء، فيا لمطلعها ما أنوره، وموقعها ما أجلّه وأكبره، أعاد حياة الأنس وقد ذهبت، واذكر /172/ بعهد استردّت منه الأيّام ما وهبت، فيا طول شوقي إليه، وأسفي والله ثم أسفي عليه، وإن ذهب العقيق وفقدنا بانه، فسقى هطّال الدّيم زمانه، وحالي بعد

---

الرشيد منهم قد ضاعف له البرّ والخلوص، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة، وعاوده الإتحاف بأنواع الألطاف والهدايا"، وجعل تاريخ هذه الهدايا في سنة 637 هـ/1239 م. أما أخوه يحيى صاحب البغية فقد جعلها في سنة 639 هـ/1241م، وهو التاريخ الذي يتلاءم مع رسالة ابن عميرة. ابن خلدون، كتاب العبر، ج 6، ص 343 وج 7، ص: 94. يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج 1، ص 205.

(1) هو أبو الحسن سهل بن محمد بن سهل بن أحمد بن مالك الأزدي، شيخ جليل من بيت نباهة وعزّ بغرناطة، درس على ابن رشد الحفيد وغيره. وصفه ابن سعيد قائلا: "لو لم تأت غرناطة إلّا بهذا الجليل المقدار، لكان حسبها في العلم والجود والرياسة وجميع أنواع الافتخار". كان من أعيان مصره، وأفاضل عصره، متفننا في العلوم، بارعا في المنثور والمنظوم، متقدما في العربية وافر النصيب من الفقه وأصوله. وكان له تعظيم عند خلفاء الموحدين ووفادات عليهم بمراكش. ولمّا ثار ابن هود بالأندلس صار العقد والحل بغرناطة إليه، ثم غرّبه بعد ذلك إلى مرسية بفعل الحسّاد، وعاد إلى بلده غرناطة بعد موت ابن هود. مات سنة 639 هـ/1241 م، ومولده عام 559 هـ/1163 م. ابن الأبار، التكملة، ج 4، ص 124. ابن سعيد، اختصار القدح، ص 60 وما بعدها. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر 4، ص 101 وما بعدها. ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص 277 وما بعدها.



المرض[1] الذي أنقذ الله من حباله، وأرى لطيف صنعه في إزالته، على ما يرضي ذلك المقام المبارك تمام نعمة، ودوام كفاية وعصمة، والحمد لله على ذلك كثيرا.

وتتأدّى السّحاءة على يد فلان من أهل بلنسية وممّن حضر حصارها، وشاهد أخبارها، وخرج في من خرج، وحدّث عن هذا الخطب الشديد ولا حرج، وأزمع السفر إلى تلكم الجهة المباركة مهّدها الله فأحبّ أن يراكم، ويغشى ذرى الفضل الذي هو ذراكم، ورغب في تنبيه عليه يجد أثره، ويقضي وطره، فأسعفته بما أرجو أنّه يردُ على القبول، والبرّ المأمول، وفضل سيدنا منية المتمنّي، وغاية العَجِل والمتأنّي، يسّر الله أسباب لقائه، وأسعد الأيّام بطول بقائه، وهو تعالى يحرس إخاءه، ويديم سعادته وعلاءه.

-118-

## رثاء أبي الحسين بن عيسى[2] وتعزية أولاده

[الكامل]

رُزءٌ كصاحبه يعزّ نظيره ... ومن الرّزايا كالورى آحاد

ذهب العماد فهل لنا من بعده ... إن ضعضعتنا الحادثات عماد

بدرٌ خبا تخبو البدور لنوره ... طود هوى من دونه الأطواد

أبَني العلى صبرا عليه فأنتم ... إن مات والدكم لها أولاد

ما مات من أبقى الثناء وفتيةً ... هم في الأنام الصفوة الأمجاد

---

(1) لم يذكر ابن عميرة هذا المرض الذي ألمّ به كما وجدناه في رسائل أخرى يشكو من حمّى صعبة نزلت به، ومن الرّمد الذي كان يلم به في بعض الأحيان.

(2) هو أبو الحسين يحيى بن أحمد بن عيسى الأنصاري من بيت نبيه في دانية وبها ولد سنة 579 هـ/1183 م وبها نشأ، ثم استوطن شاطبة وتزوج بنت المحدّث أبي عمر بن عات، كان معتنيا بالحديث وسماعه، ذا حظ وافر من البلاغة والتصرف البديع في الكتابة، اشتهر بالجود. كان من رجال دولة ابن هود وواليه على شاطبة وجهاتها بموجب كتاب ولاية العهد الذي أنشأه ابن الجنان وأورده ابن المرابط في زواهر الفكر، ثم استقل بها هو وأولاده بعد وفاة ابن هود. ولابن عميرة معه ومع أولاده مراسلات. ابن الأبار، التكملة، ج 4، ص 191، والحلة السيراء، ج 2، ص 303. ابن المرابط، زواهر الفكر، القسم الثاني، ص 81.

إن عُـــدِّدُوا فـــثلاثة آثـــارهم ... في المجـد لـيس يفـي بهـا الـتعداد[1]

إنّـــا نعـــزّيكم وإنّ نفوســـنا ... مـا آن لهـا نحـو العـزاء معـاد

/173/ فـبكلّ صـدر زفـرة وتلهّـف ... وبكـل عـين عبـرة وسـهاد

ويقلّ لأجلّ الأرزاء هجر العزاء، وتقسّم القلوب إلى أقلّ الأجزاء، فإنّه الرّزء الذي غمّ الأيّام، وعمّ الأنام، وأراق الدّموع، وأحرق الضلوع، وحظر على شمس الأنس الطلوع، فوَالَهْفَاه واحزنَاه، واعميداه واسيّداه، مَن للخطب إذا نزل، والمعضل[2] إذا أشكل، ومن للعفاة إذا يئسوا، والعناة وقد حُبسوا، ومن أبقيت على المعروف، واتخذت خليفة على الضيوف، ولمن يشتكي الزمان، وإلى من يلجأ اللهفان، وأين يتوكف الإحسان.

أقْفَر والله رَبْع المجد، وغاض بحر الرّفد، وخرست ألسن الثناء والحمد، فحسبنا الله رجوعا إليه، وإناّ لله توكّلا عليه، وعند الله نحتسبه علم الأعلام، وكافي الإسلام، وسيّد الأنام، المستهل مع شح الغمام، الرّاجح عند خفّة الأحلام، مَن يجود بالنشب[3]، ويضحك عند الغضب، ويجمع معاني الحسب، ويعمُر مغاني[4] الأدب، كان للعصر جمالا، وللخلق ثمالا، وفي اللّأواء عددا ومالا، فقدناه فقد الأمّ واحدها، والأجياد قلائدها، والأرض ماطرها، والدّار قاطنها وعامرها، عمّت مصيبته من غاب وشهد، وجاوز وقعها من القلوب كلّ ما عهد، فعليه منّا السّلام، فما أنصفنا فيه الحِمام، وإلى ربّنا نشكو فقده، ووحشتنا بعده، ويأسَنا من جمل محاسن كانت عنده[5].

---

(1) يريد أولاد الفقيد أبي الحسين الثلاثة الذين حكموا شاطبة ودانية بعد وفاة أبيهم وهم: أبو عمرو الذي كتب ابن عميرة صداقه في رسالة سابقة، وأبو بكر، وأبو عمر، ولابن عميرة رسالة يخاطب فيها هؤلاء الثلاثة جوابا على كتاب لهم، وردت عند ابن المرابط في زواهر الفكر وجواهر الفقر، القسم الثاني، ص 177.

(2) في ك 233: للمعضل.

(3) النّشب والمنشبة: المال الأصيل من الناطق والصامت. والنّشب والنشبة من أسماء المال. يقال: فلان ذو نشب، وفلان ما له نشب. لسان العرب، ج 1، ص 757.

(4) جناس ناقص بين "معاني ومغاني".

(5) جمع ابن عميرة في هذه الرّسالة بين التعزية وبين الوصية والنصيحة، فبعد هذه العبارات الباكية المؤثرة التي ندب فيها صديقه القائد أبا الحسين بن عيسى وعدّد مناقبه وخصاله =



وأنتم أيها السادة الجلّة، والأنجم بل الأهلّة، وإن جلّت أوصابكم، وعظم مصابكم، فإنما نزل العظيم بعظيم، وتخطّى من جنابكم إلى مقام كريم، فأين يد التجلّد الطّولى، وصبرُ /174/ الصّدمة الأولى، والتعزّي الذي به يبدأ الكريم في كريمته، وإليه يرجع العاجز وحاشاكم من شيمته، مضى والدكم رضي الله عنكم وقد أثل جاهكم، وخلى مساعيه تجاهكم، وما سعيكم من سعي البطاء، ولا شركتكم في المعالي من شركة الخلطاء، قِيمُكم أغلى، ومناهجكم أوضح وأجلى، وغايتكم أشرف وأعلى، وأبوكم الكريم النِّجار، وسيّد رجالات الأنصار[1]، أثر بنصيبه الجنين، وتوحّد بهذه المنقبة دون سائر البنين، وإنّما هان عليه تالده، لئلا يُغيِّرَ عملَ عمله والده.

وهـذه نـبذة مـن شـرفكم، ونكـتة ممـا يعـزى إلـى سـلفكم، فاسـتبقوا فـي هـذا المـضمار، وحـذار مـن المخالفـة حـذار، تُعلـوا علـى الأعـداء، وتعيـشوا عـيش الـسعداء، وتحمـدوا فـي حـالكم ومـآلكم عاقـبة الاقـتداء، فأمّـا الجـزع فـوهن كلّـه، وعقـد يـد الـرأي تحلّـه، ومـثلكم ثـاب إلـى الأولـى، وقـوي علـى الحـزن واسـتولى، أقـول هـذا وجلـدي فقيـد مـندوب، وبقلبـي والله مـن المُـصاب نـدوب، ومـا أعـرِض عليه العَزاء إلّا اشمأزّ، وكلّمـا عـازّت الـنفس الجـزع غلـب وعـزّ، أنّـس الله روعـتكم، وسـكّن لوعـتكم، وعجّـل أوبـتكم إلـى الـسّلوّ ورجعـتكم، وأدام عـزّتكم ووصـل رفعـتكم، والـسّلام الكـريم يخـصّكم بـه معظِّـم جانـبكم[2]، العـارف بواجـبكم، أخـوكم المـساهم لكـم الكثيـر بكـم، ابـن عميـرة ورحمـة الله تعالـى وبـركاته، كُـتب مـن برشـانة فـي الـسابع لرمـضان[3]

---

= ومزاياه، انتقل إلى نصح أولاده، وتحذيرهم من مغبّة الاختلاف، وحثهم على الاقتداء بسيرة والدهم، والسّير على خطاه.

(1) يريد الصحابي الجليل سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي الذي يعود إليه نسب الفقيد، وفي ذلك يقول ابن الأبار: منتماه إلى قيس بن سعد بن عبادة صريح، وحديث نداه عند رواة علاه حسن صحيح. الحلة السيراء، ج 2، ص 303.

(2) في ك 233: جوانبكم.

(3) كتب ابن عميرة هذه التعزية بعد أسبوع من وفاة صديقه أبي الحسين بن عيسى التي كانت =

أربع وثلاثين وستمائة.

-119-

## ظهير بتولية القضاء

يشتغل بخطة القضاء بفلانة فلان، ويتولّاها بكتاب الله /175/ مقتديا، وبهدي الشريعة البيضاء مهتديا، وليمض على الحق كما هو من شأنه، ويراقب الله في سرّه وإعلانه، فتقواه عزّ وجهه نعمة الجُنّة، وسبيل الزلفى لديه قد أوضحها الكتاب والسنّة.

-120-

## وخاطب الفقيه أبا بكر بن البنّاء[1] مراجعا عن رسالة كتب بها إليه

مرحبا بك أيتها الدّرّة[2] المائلة يد الغائص، والقنيصة المالكة رقّ القانص، والرّوضة التي بثراها أقرّ جنبه المسيم، وعلى شذاها زرّ جيبه النسيم، لا بل مرحبا باللّابسة حلّة الحسن، المائسة بأعجب من عطف الغصن، عقلة ذي الحُضْر والعدو، وعقيلة الحضَر والبدو، ألقت قناعا دونه الشمس، وأبرزت[3] شعاعا مطلعه الطّرس،

---

في النصف من ليلة الأحد الثامن والعشرين من شعبان سنة 634 هـ/1236 م.

(1) هو أبوبكر محمد بن أحمد المعروف بابن البنّاء الاشبيلي، لأنّ والده أحمد كان بنّاء بإشبيلية، فنشأت معه همّة من صغره. الأديب الكاتب الشاعر، كتب عن ولاة عدّة، ثم اختص بالكتابة عمّن صار أمر إشبيلية إليه بعد انهيار الموحدين، ومنهم الباجي الثائر، وابن صاحب الرّد، وابن الجد، وكانوا لا يعتمدون في أسرارهم ومشاوراتهم إلّا عليه. ولم تجر قط عليه نكبة، مع ما قاسى من اختلاف الدّول واشتعال الفتن. كان من أصحاب والد ابن سعيد كثير الملازمة لمجالسته. خرج من إشبيلية حين استولى عليها النصارى في أول شهر رمضان سنة 646 هـ/1248 م، ومات بسبتة في شهر شوال منها. وقد جمع له أحد خواصه ترسيله في أربع مجلدات. ابن سعيد، اختصار القدح، ص 118- 119.

(2) يريد الرّسالة التي كتبها إليه صديقه ابن البناء وهو تشبيه بليغ، وقد أطال ابن عميرة في وصف هذه الرّسالة ومدح بلاغة وترسّل صاحبها.

(3) في ك 233: أبدعت.



وسفرت فإذا الدّرر تضمّنها درج، بل الدّرارى جمعها برج.

رسالة عارِضها هَتِن، وناظرها مفتتن، ملأت عيني نضارة، وطفقت أقلبها تارة، وأقبّلها تارة، واسألها من أين مسراك، ولله ناظر مُتّع بأن يراك، متى عهدك بالسّحر وبابله، والشّحر ومنازله، وهل مررت بنجد وبواديه، أو أجررت ذيلا على العقيق وواديه، أو بتّ وحولك اذخر وجليل، وقِلْتِ ولسموات الحيّ عليك منها ظل ظليل، وليل منيح ألك به إغفاءة، ووشي صنعاء أعندك منه ملاءة، بحياة من حبّرك، هل باسمه خبّرك، وبمن أنشأك هذا الإنشاء، وبوّأك من جنّة الحسن حيث شاء، من أين مَهَبّ صَبَاكِ، وأين مَدَبُّ صِبَاك، وأيّ يد /176/ حاكتك، وهل عندك حكاية عن الشهب التي حاكتك، فشمخت بمازن، وقالت لا أنشد لو كنت من مازن، ولا أنسب إلى مُوازٍ وموازن، بل أنا أسنى مفخرا، وأعزّ معشرا، وأصلب نبعة، وأخصب تلعة، وأكرم خيما، وأسلم أديما.

حمص[1] منبت بانتي، بل معدن عيدانتي، وهضابها مسحب ذيلي، وشعابها مجرّ سيلي، ونهرها الأنيق الشيّات، الذهبيّ العشيّات[2]، ملعب خيلائي وخيلي، حمص وما حمص؟، بها يتأكّد الغرام وعليها يشتد الحرص، ومروّي حقيقتي، ومروّض حديقتي، إنسان ناظرها، ولسان محاضرها، وحامية جيشها، وريحانة قريشها، المتبحّر في منطق العرب الأصيل، المالك أزِمّة النّظم والترسيل، وهو المعروف إذا التبس التعريف، الوحيد إذا ركب ومَن الرّديف.

فلما لقيتها صفة مسمّية، وسمة لها شهرة البدور ممسيّة، قلت هذا النّسيم لتلك الأصائل، وما أصحّ دلالة الصّهيل على كرم الصّاهل، وما كلّ جبين يصلح

---

(1) هي مدينة اشبيلية التي كانت تُعرف بهذا الاسم، ذلك أنّ أبا الخطار حُسام بن ضرار الكلبي لما دخل الأندلس سنة 125 هـ/742 م من قِبَل حنظلة بن صفوان عامل افريقية ودان له أهلها، كثر أهل الشام عنده ولم تحملهم قرطبة، ففرّقهم في البلاد، وأنزل أهل دمشق إلبيرة لشبهها بها وسمّاها دمشق، وأنزل أهل حمص إشبيلية وسمّاها حمص، وسمّى جيان قنسرين، ومالقة الأردن، وتدمير مصر. المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 237.

(2) يشير ابن عميرة إلى ذكرياته الطيبة التي ظل يحتفظ بها عن مدينة إشبيلية منذ أيام الشباب حين رحل إليها سنة 617 هـ/1220 م، سيما وأنّ هذه المدينة كانت يومئذ قاعدة الأندلس ومقصد الكتاب والشعراء والعلماء.

لهذه الغرّة، وأيّ بحر يقذف مثل هذه الدّرة، وإنما هي لعَلَم الأعلام، ورئيس صنعة الكلام، كعبة البلاغة المحجوجة المحجوبة[1]، والرّافل في حليّها[2] المنسوجة المنسوبة، وإنّه وإيّاها موضعا رهان، ومُرضعا لبان، تساقيا كأس الوداد صرفا بغير مزاج، وتحالفا من المداد بأسحم داج، واتحدا كالماء والرّاح، وأشبه أثرٌ أثرًا في هزّ أعطاف الارتياح.

وحين انتسبت عقيلة مربعها حمص، وعقيليّة لا يقال ملأت إزارها دعص، بل مطلع أزرارها شمس، ودعائم شرعها من أنامل محبّرها خمس، /177/ تناهبتها القبل، وتناهت في محبّتها المقل، وأكلتها الضمائر أكلاً لمّاً[3]، وتعاورتها الأيدي فتحا وضمّا، فمن سطور كالذوائب مسلسلة، أو الحدق النّجل إلى القلوب مرسلة، وسحر ألفاظ ليس ممّا أنزل على الملكين[4]، ولكن جمل من فكره وقلمه إلى ملكين، ومعان لو كنّ ماءً كنّ طهورا، أو عملا كان مبرورا، أو جيشا استقل منصورا، أو عيشا ظل نضرة وسرورا، أو أعيرته الخدود حالت بدورا، أو الصّدور كان منظوم الدّرر عندها هباءً منثورا، استوت فيها المحاسن، وارتاح لها السّامع والمعاين، فما روضة بالحزن، راضية عن المزن، نور ثراها رائق، ونوء ثريّاها صادق، كفلتها منه أمّ برّة، وانسابت عليها عين ثرّة، فلرضيع الرّبيع ترعرع، ولنسيم الرّند تضوّع، وللكمائم انشقاق، وبين[5] الغصون اعتناق، وحليّ الجدول متكسّر، ودمع الطلّ في الخمائل متحدّر ومتحيّر، وقد راق النبت في الظلّ السجسج، وطاب الوقت بنفس البنفسج، وبروق الأوطار تومض، وعروق الأوتار تنبض، ولسماع القيان كيان، ولنقر البنان بيان، وحسبة الأفراح لاقطة، وحبسة الزجاج في شعب الملام ساقطة، ودجية الدّجن يجلوها الأوطف المطيف، وابنة الدّنّ يزفها السّاقي النزيف، وقد كشف الطّرب

(1) جناس ناقص بين "المحجوجة المحجوبة".

(2) في ك 233: حللها.

(3) استعارة مكنية لأنّ الضمائر لا تأكل.

(4) اقتباس من الآية رقم 102 من سورة البقرة.

(5) في ك 233: من.



القناع، وناسب المنظر السّماع، وفشا سرّ السّرور وذاع، فأبدع وصفا، وأوضع[1] عرفا، وأجلى لزين، وأجلب لكل ما يلذ بأذن وعين، من كلمته الساخرة بالكلام، السّاحرة للأنام.

جاءت فسرّت ما شاءت /178/ ووردت، فكم غرّة[2] برّدت، وطلعت، فنعم ما صنعت، وأفاضت في تقريظ لستُ من أهله، ووصف أين وعري من سهله، ومتى حصل العاطل على قيمة المتحلّي، أو فاز السكيت بغنيمة المجلّي، وما يستوي عند الزّحف المقدّم والمولّي، والبلاغة درجات، والبضاعة فيها مزجاة، وفي المتمتّع[3] من دعواها نجاة، وكيف يُدعى ما لا يثبت، أو يرعى ما ليس ينبت، وأيّ معنى لقدح زند كاب، وشيم عارض لا عهد له بانسكاب، وما اقتضاء فكر غريمه ممطول، وحديث إعساره فيه طول، فالفِقر منه في حرم يمنعه من صيد شواردها، ويوجب عليه ردّها على ناشدها، وقد كان والغصن مروح، والجثمان فيه روح، عائد السّهم، عاثر الفهم[4]، خالي الفناء، خاوي الأنواء، فكيف به وقد ولّى شباب، وبان أحباب وظفر به من النوائب ظفر وناب.

فما للعماد المتبع أمره، المنتجع نظمه ونثره، يسائل ساكن واد أقفر من زرعه، ويساجل والله يغفر له من يعلم ضعف نزعه، وهَبْه أعطى عن ظهر غنى، وسمح ببعض ما لم يزل منه منفقا وله مختزنا، فلم يكلّفه ردّا، ولا يوجده من الجواب بُدّا، وأيّ عوض عن صدقة مقبوضة، وزكاة على أهل الجدة مفروضة، لكني أوجبت تلبية ندائه، وأبديت من عجزي ما اضطررت إلى إبدائه، فأسلمني عيّ دخلت في مضائقه، وغاب عنّي أنّ صامته خير من ناطقه، وأشار إلى تفضيل له به إعلان، وذكرٍ يحسد عليه فلان وفلان، وإنّه لما ياثره فطن متغاب، أو حميم لا يشعر بعاب، يجد شوق النازع النازح، ويهتزّ كالغصن[5] تحت البارح، وتلك شيمة /179/

(1) في ك 233: أضوع.

(2) في ك 233: غلّة.

(3) في ك 233: المتمنّع.

(4) جناس ناقص بين "السّهم والفهم".

(5) تشبيه مجمل ذكر المشبّه والمشبّه به والأداة.

بها تخصّص، وعزيمة لا يرى فيها أن يترخّص، وقضية منع صدق نقيضتها، وفضيلة حجب الناس في فريضتها.

وذكر ما كان يحرص عليه من مفاتحة يرسل فضل رشائها، ويتقدّم متطوّلا بإنشائها، وانّه أرب عَدَته عنه عواد، وحالت دونه أعجاز من الخطوب وهواد، وهي حال الزمان مع الناس، والعمر كما أشار إليه مثل الكأس، بأواخره رسوب القذى، وفي أعقابه رسوم الضرّاء والأذى[1]، وقد قرأت كما قرأ أسطره، وحلبت كما قال أشطره، فلم أرَ إلّا حلفا ليأس، أو خلفا لا يدرّ على أبساس[2]، إلى أن بلغت حرم الإمامة، ونزلت دار السّلام والسّلامة، حضرة الملك السّعيد، والخليفة الرّشيد[3]، الأوّل بشرف الصّفات والأسماء، والثاني بما يحيي الأرض من قطر السّماء، وثالث القمرين في النّور والضياء، والخامس في نسب آبائه الكرماء، والسّابع عند نسق الأئمة الخلفاء، أظفر الله بالمنى عُليا يمينه، ونصر لواءه المعقود لنصر دينه، ولا أخلاه من الحسنى في تمليكه، ومن الزيادة في تمكينه، فحينئذ ساعد الجدّ، وأقبل الحظ المستجدّ، وجاء الزمان معتذرا، وحصل الأمان لمن كان منه حذرا، فلذّ الكرى وكان العهد به بعيدا، وحُمِدَ السّرى وبصبح الأمل عاد حميدا، وقلت أحُلُماً نرى أم زمانا جديدا.

ووقفت على تهنئة[4] الأخ الكريم بهذه المنزلة التي شرفها باق، ومنالها عن تفضّل لا عن استحقاق، فإني أجد قلمي يطرق خجلا من نفسه، ويمشي من الحيرة مُكباً على رأسه، يرى أنّه مدًى ليس من فرسانه، وميدان لا يصلح ليوم رهانه، ومثل

(1) جناس ناقص بين "القذى والأذى".

(2) في ك 233: البساس.

(3) هو الخليفة الموحدي الرّشيد أبو محمد عبد الواحد بن المأمون أبي العلى إدريس، الذي رافقه ابن عميرة في رحلته من سلا إلى مراكش سنة 637 هـ/1239 م.

(4) لمّا وصل الخليفة الموحدي الرّشيد إلى حضرته مراكش سنة 637 هـ/1239 م، اتخذ ابن عميرة كاتبا له، فكتب إليه صديقه ابن البناء من مدينة إشبيلية يهنّئه بهذه الحظوة التي أدركها في المغرب. ولكنه لم يلبث في ديوان الخليفة الرّشيد إلّا زمنا يسيرا حتى صرفه عن الكتابة وقلّده قضاء بلد هيلانة من نظر مراكش الشرقي. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر 1، ص 177.



الأخ /180/ الكريم شكر الله إخاءه، وأطال بقاءه، عني بهذا المعنى، وسلك ذلك المسلك الأسنى، وكسا المعاني الغريبة بدائع لفظه، وحفظ العهد وله اليد الطّولى في حفظه، وما منعه والوفاء شرعه، والقول والفضل طوعه وطبعه، إلّا[1] أن يبذّ الأكفاء كرما وسيادة، ويبقي على حالة الصّفاء إذ لا يقبل زيادة.

وأومأ بعدما أهدى سلامه طيبًا، وأرسل غمامه واكفا صيبًا، انّه كتب متوقفا متهيبًا، وكيف تهاب السّحاب أرضا تستجديها، أو الشمس عيونا تهديها، أو يبالي اللّيث بمتّبع لما أسأر، أو يمنعه همس الذئاب حوله من أن يزأر، فما له يقلب القصّة، ويصوّر إليه هذه الحصّة، وأنا أولى بان أقف بالمكان البعيد، وأحجم إحجام الرّعديد، لكن عرفت أنّ الكامل على النقص يغضي، والكريم على سجيّة الفضل يمضي، فتكلّفت ما لولا قضاء حقه، لما عرضت لشيم برقه، ولا عرضت عن خلب لا مخيلة لصدقه، ولا جيلة[2] في ودقه، وله الفضل مبتديا ثم مغضيا، والحق الذي لا أزال لشكره مقضيا، ولأمره عليّ ممضيا، أبقاه الله ومقلة الكمال به قريرة، وعيون النوائب عنه حسيرة، وأيديها دونه قصيرة بل كسيرة، بمنّه والسلام الكريم الطيب العميم، يخصّه به معظم قدره، وموجب إكباره، وبرّه المتناهي فيما يلزمه من تطييب ذكره وترديد شكره، أحمد بن عميرة، ورحمة /181/ الله تعالى وبركاته.

- 121 -

## وكتب يصف بعض رحلاته[3]

كتابي إلى سيّدي من الفضلاء، ووليّ بحقيقة الولاء، حفظ الله صريح مودّته، وأبقى عهده على سلامته وجدّته، من فلانة وبركات الإمارة العلية عن وجوه المنى سافرة، وإلى الثاوي والمقيم مسافرة، وعندي حبُّ هو حظ نفسي، واعتداد يومي به يزيد على أمسي، وحالي على ما يسرّ مجده عافية وسلامة نسأل الله جلّت قدرته أن يعمر بنا فناءهما، ولا ينزع عنّا رداءهما، وما عدا هذا ممّا أقحم وعد السّؤال،

(1) كلمة "إلا" ناقصة في ك 233.

(2) في ك 233: حيلة.

(3) من هذه الرسالة وحتى الرسالة رقم (142) غير واردة في ك 233.

وأركب ظهر الاسترسال، فالواقف عليه قد أبصر موضع قدمه، واستوصب زلة قلمه، وليس من ذلك القبيل ذكر الفصل وحضوره، والقيظ ومحذوره، وما يخرجه الصّيب من هوامّه، ويعزى الذمّ منطق ذامّه.

والآن فقد دبّ، ما كان بمكانه ألبّ، وبرز، ما كان إلى حجره أرز، وانتشرت إحدى الفواسق الخمس، كعادتها بالأمس، ولغارتها بعد مغيب الشمس، فمن لديغ يتململ ويتألّم، وسليم ما كان يسلم، وساهر يخاف شرّ طارق، أو مذعور يبيت بقلب خافق، وكالئ لا يهدّيه الشيطان، وسائل تبعث شجوه هذه الأوطان.

واتفق في هذه الأيّام الانتقال إلى طلل فانٍ، ورسم عفا منذ أزمان، وعرصة رمت من بعض الجوانب، وطَلبت بمثل بياض الغزال الشائب، أو الفجر الكاذب، قصّتها تعجب من نقائها، وقِصّتها لا تشهد ببقائها، وصدوعها بطون أجنّة، وخباياها قلوب أكنّة، /182/ بكرت وهي للصّيف باكورة، وبالحتف مذكورة، خرّاجة ولّاجة، ساكنة مهتاجة، إن أثيرت فشرّ مثار، أو وطئت فطالبة ثار، أو سعت فبأخبث سلاح، أو سرت فلا حاجة بها لمصباح.

وبعض من يقول مضبّة في أرض الضّباب، ومذأبة لذات الذئاب، يقول معقرة على هذا البناء، في مثل هذا الفناء، فإن حذفوا من آخر الاسم ما به تمّ، فحذف الحمة آخر المسمّى كان أهمّ، فلو أنني في الثواء بها حملت نفسي على الأذاء، وداريت عيني على القذاء، لم أجد إلّا منكرا متنكّرا، وبما مرّ عام أوّل مذكّرا، فلا بدّ من الفرار عن هذا الجوار المحشي الحيف، ولا غنى للقرشي بعد رحلة الشتاء من رحلة الصّيف، وعرّفتكم قبل أن يقول قائل، ولئلا يقبل الأفيكة قابل، وأنا مستطلع أنباء سيدي التي بصلاحها أسرُّ، ومن نظرها عودي يخضرّ، فإن كتبها خطّا يعرف، أو ألقاها لفظا يخطف، اكتفيت بما استيسر من الهدي، ورضيت بحلول شمسي بعد الحمل بالجدي.

-122-

## وكتب يوصي برجل

فَكُتِبَ كتبَ الله لمجدكم سعدا يخطم الشارد، وعزّا يقتحم الموارد، من فلانة وبركات الإمارة العلية أيّدها الله توضح السّنن السّواء، وتجمع على طاعتها



الأهواء، والتعظيم لجلالكم حق يتقدّم الحقوق، وشأو يجمع السابق والمسبوق، وفلان يدكم عنده من إدناء حين نزح، واعتناء سعيه له نجح، تشهد انّه بمكان من نفسكم الكريمة، واستحقاق /183/ لرب أياديكم العميمة، وإحداهما تذكّر الأخرى، وكلتاهما تعدان أذنه بسماع البشرى، وتقدّمت المطالعة بالأمل الذي إن أقام فمنتظرا، أو سافر فإلى بابكم يسعى مبتدرا، وعلى أيّ الحالين كان فإليكم مرجعه توصّلا وتوسّلا، ولفنائكم وقوفه حقيقة أو تخيّلا.

-123-

## وكتب يتشوّق إلى أحد إخوانه لم يعلمه بسفره

سيّدي ومعتمدي، وأفضل وليّ قبضت عِلقه بيدي، وأودعت حبّه خلدي، كتبته زادكم الله عزّة وكرامة، وخار لكم ظعنا وإقامة، من فلانة وحقكم عندي أولى حقوق الأولياء أن أجهد نفسي في توفيته، وأرضى لها بتوليته، وكان ما كان من نوًى فرّقتنا غربا وشرقا، ولعبت بنا غربا وشرقا، وزادني ما فقدته من مكانكم هنالك وحشة إلى وحشة، ولدغة اتبعت بنهشة، فأظلم جوّ نجمه جنح، وفات حظ طرحه جمح، وعين بها كنت أنظر وجدتها عنّي مصروفة، وجِهَة إليها كنت أشير ألفيت بيني وبينها تنوفة[1]، حتى قيل إنّ الذاهب رجع، والآفل طلع، والمتواري لاح، والسّاري رأى الصّباح، انجلت الغماء، وجلت النعماء، وأمكنت أفعال تعذّر فيها الإيماء، وبقي أن أعلم أن صلاة انصرافكم حضرية، وفرش استقراركم أذرية، وأنّ التوجّه إلى الغرب منسوخ، وقدم الإقامة هنالك له رسوخ، وحينئذ يطمئن الخاطر، ويرفل في لأمته الحاسر.

وبعثت عجالتي هذه إلى سيدي لأن تكون في يده ماثلة، وعن /184/ حاله سائلة، وكيف كان في نوًى شطّت به دارها، وغيبة أخفاه عنّا سرارها، فقد رأيته أغفل إعلامي بذلك ما أصير إليه غير ملوم، وأقدّم علمه على كل معلوم، ولي أمل

---

(1) التّنوفة والجمع تنائف: وهي المفازة والقفر من الأرض. وقيل هي من الأرض المتباعدة ما بين الأطراف. وقيل: التنوفة البعيدة وفيها مجتمع كلأ ولكن لا يقدر على رعيه لبعدها. لسان العرب، ج 9، ص 18.

قلت فيه فصمّ صداي، ومشيت نحوه فطال مداي، وبذرت حبّه فأبطأ عليّ النّبات، وناظرت عليه فأعياني الإثبات، وأنا منتظر الآن جواب سيدي بأن يمضي هجرته كما يؤمّل، ولا يرد على عقبه فيما يستقبل، وحينئذ أخاطبه بما اعتلج في فكري، وأرغب إليه أن يذكر أمري عند مرور ذكري، إن شاء الله تعالى.

– 124 –

## وكتب مهنّئا بشفاء من مرض

تخصّكم حفظ الله ودادكم، وأعطاكم من فضله وزادكم، تحيّة الإيثار والبرّ، والودّ الثابت المستقرّ، من حضرة الإمارة وليس ببركاتها المؤسّسة، ومشاهدها المقدّسة، إلّا الخير واليسر والحمد لله على ذلك كثيرا.

ووصلت مخاطبتكم المبرورة، فأهلا بها كريمة عليّ، حبيبة إليّ، قرأتها معاودا، وخلوت بها للأنس متعاهدا، وتوسّمت منها نواسم الصّفاء، وقرأت عليها عنوان الوفاء، فلله عرفكم الأذكى، ومحتدكم الأزكى، وشمائلكم التي بزينتها ازدنتم، وبميزانها الرّاجح وُزنتم وَوَزَنتم، وذكرتم ابلالكم من المرض، وتخلّص جوهركم من ذلك العرض، فالحمد لله الذي رفع الشكوى وأزالها، وأجزل العافية وأنالها.

– 125 –

## ومن رسالة

/185/ وعمّا يجب من الإجلال والإكبار، والودّ الذي لعقده صحّة الإمرار، ولعهده صحبة الثبوت والاستمرار، ووصلت مخاطبتكم تقرّر ودّكم، وتدلّ على الخلوص الذي عندكم، ومثلكم حفظ الغيب والمشهد، وصحب بوفائه وصفائه اليوم والغد، ولقيني الابن المبارك فأولى على عادته مبرّة، وملأ عيني وقلبي قرّة ومسرّة، ووجدت به ما يجد المحب بأعزّ أحبّته، ونزل منّي برّه وبشره[1] على قدر مَحلّه منّي ونسبته، والله يسرّكم بنجابته، ويبقيه من الحسب في ذؤابته.

(1) كناية عن الود الذي لاقاه من هذا الابن المبارك.



– 126 –

## ومن رسالة جواب أهل بجاية عن خبر البيعة بولاية العهد للمستنصر الحفصي[1]

ثم أشار المقام الكريم إلى ما أوجبه الله عليه من عمل تفضّى عن عهدته، وأفضى بعد محض الاستخارة ومخض الآراء المُدارة إلى صريح زبدته، والله قد أسعد رأيه في رويّة وبديهة، وجعله عاقد كل صفقة كريمة لا بقاء معها ليوم كريهة، فإذا أبرم فيد الله هي المبرمة، ومن أكرم فمشيئته الماضية هي في الحقيقة المكرمة، وما رآه وأمضاه، فالله عزّ وجهه يرضاه، والتوفيق والإسعاد مع غراري عزمه أغمده أو انتضاه، وانتهت تلك المناهج القويمة، والمقدّمات الكريمة، إلى ذكر نتيجة الدّهر، وطليعة سرور السّرّ والجهر[2]، وسفور عروس البشرى تجل عن كل ما يفرض لها أو يعرض عليها من المهر، ولو أنّها حبيت بنجوم السّماء نثارا، وكان لها الفلك المُدار دارا، لقل لعقيلة من الحدق نطاقها، وكنور الفلق إشراقها، وفي القلوب إن رضيت /186/ محلّها ومنها لو قبلت صداقها.

وحين جلّت النعمة وجَلت كمالها، ولبس يومها[3] الأغرّ بهجتها وجمالها، وصرّحت البشارة بولاية العهد واسم المسمّى لها ضرب السّرور على الأرض رواقا، وسكن منبر قد كان حنّ اشتياقا، وطارت النفوس جدلا بعقد ضمنت القدرة نجاحه وسعده، ويوم كما نطق به الكتاب الكريم له ما بعده، فأيّ أمانة قلدها الإصفاق أشرف مقلّد، وخرّ لها النفاق غير موسّد، وبشر الكتاب بها فاذكر بشارة الكتب السّالفة باسم نبينا عليه السّلام محمد، وعندها كبّر الجمع، وسُمع القول الفصل ففاز به[4] السّمع، ودمعت عين الفرح فظن أنها لِما فاتها كان ذلك الدّمع[5].

وتضمن الكتاب الكريم إعلام العبيد بهذا العقد المبارك السّعيد، ليلتقطوا

(1) تكرار لما جاء في الرسالة الكاملة تحت رقم (107) من هذا السفر.
(2) طباق الإيجاب بين "السّرّ والجهر".
(3) استعارة مكنية شبّه فيها اليوم بالإنسان وذكر المشبّه وحذف المشبّه به.
(4) في ك 233: فقارنه.
(5) في ك 233: المدمع.

يانع الأنوار من ذلك الرّوض، ويسلكوا في البدار سبيل من كان فرطهم على ذلك الحوض، فلو جاز قبل الأمر الامتثال، ولولا طاعة بدونها لا تقبل الأعمال، لكان حق هذا العقد أن يستهم على صفّه الأول، ويستبق إليه بالباع الأرحب الأطول، فإنه أمان لأهل الإيمان مجدّد، وعمل لم يتقدّم إلى استنباطه والتنقيح لمناطه إلّا نظرٌ صالحٌ مبارك مسدّدٌ.

وقد امتثل العبيد الأمر الكريم العليّ، وسلكوا سبيله الواضح السّويّ، وبايعوا الإمام المرتضى أعلى الله قدره، وأطلع في سماء السّعود بدره، بولاية العهد الكريمة على سنّتها المتبوعة، وحكمتها المشروعة، وطاعة أمرها الذي هو بطاعة المقام الكريم موصول، ولِرِضى الله به إن شاء الله ثبوت /187/ وحصول، وكملت بيعتهم السعيدة بشهادة الخاصة والجمهور، واستقلت بعلَمها المنشور ويومها المشهور، وهذه نعمة.

-127 -

## وخاطب أحد إخوانه متشوّقا إليه وسائلا عن كتابه

كتبته أيّها الأخ الذي أخلصَ الودّ، وبلغ ولاؤه الأشدّ، كتب الله لكم من الكرامة أضفاها سربالا، وأوفاها مكيالا، من فلانة وليس إلّا ما علمتموه من ودّ بنيانه على أوثق أسّ، وتبيانه أعيا بلاغة قسّ، فأمّا الشوق إلى عهود تولّت، وأرض قيامتها حانت وحلّت، ﴿**وألقت ما فيها وتخلّت**﴾[1]، فللحشى منه فال فالذ، وبين الضلوع له سهم نافذ، وأنا متطلّع إلى أحوالكم وإن كنت أدري أنها في روض الإحسان ترعى، ومن باب الرّيّان تدعى، فجزى الله فلانا خير ما جزى به الرّحماء من خلقه، ولا أخلاه من معروف يضعه في أهله وعند مستحقّه.

ووصل الآن ما وصل من تلكم الجهة المباركة فبحثت عن كتابكم بحث الشحيح ضاع خاتمه في الترب، بعد أن نال الغنى على الغرب، ولمّا يئست من عريبته أن أجد بها مطرفا، ومن لقطته أن ألقى لها مُعَرّفا، قلت لعلّ شيمة الكسل بعد الصّحة نكست، أو بحالها الأولى أنست، ولم أبعد مع هذا أن تكون سرعة السّفر

(1) الآية رقم 4 من سورة الانشقاق.



عاقت، ولِماء النشاط أراقت، وكثيرا ما تكون لسفر البحر فجّات لا تَردُ لفظة، ولا تمهل لحظة[1]، وهذا الظن الأخير بصدد أن يضعف أو يقوى[2]، والعتاب بساط أولى به الآن أن يطوى.

-128 -

## وله من رسالة إلى أحد إخوانه

/188/ أيّها الأخ الذي أبصِر بعينه، واستقصر إلّا مدّة بينه، أبقاكم الله من ولي مشهده وغيبه استويا، ولسانه وقلبه من الصّفاء ارتويا، ولحديث البرّ والوفاء رويا، كتبته والحال على ما يسرّكم سلامة أدعو الله أن يلبسنا بُردها، ونعمة نسأله أن يوزعنا شكرها وحمدها.

ومنها: وذكرتم مغيرة الأعراب، وما صُلِي الولد من حرّ الطّعان والضّراب، فلله درّه من ذابّ، عن حريمه شابّ، شهد الكهول لتقديمه، جدّ في إصراخ فئته، وأنف من انتفاخ ريته، وقال من قيس مع عتيبة، ومن هاب الرّجال وخاف الأهوال فلا خوف ولا هيبة، وعلى ذكر هذا النجل المعوّذ من العيون، المعوّد بركة الحركة والسّكون، فهذا كبيره في السّنين، وشقيقه من البنين، قد بلغه رضاكم الذي أرضى الرّحمن، وسرّ الإخوان، فخلع سربال الوجل[3] الخائف، وخرج لقضاء حقّ الأب العاطف، وقد رجا رفع الهوان عِراره، ومعاودة الضّياء سِراره، بعد أن رعى الضّاب، وأخفق من حيث ظنّ أنّه أصاب، وهو ملتزم من طاعة الأب ما وجب، مستقيم وعلى شروط الاستقامة ذهب، فإن وفى بما ادّعى، فلنفسه سعى، وإن حال عمّا زعم، فلا يبعد الله إلّا من ظلم، وقد استأذنني بمنزعه النبيه، في نقل امرأة لمنزل أبيه، فلم أر وجها في أن أنغّص عليه منّته، وأصدّ عن كنّه كنّته.

(1) جناس ناقص بين "لفظة ولحظة".

(2) طباق الإيجاب بين "يضعف ويقوى".

(3) استعارة مكنية حيث جعل للخوف سربالا يمكن خلعه.

-129-

## وله من رسالة في الشوق

تخصّكم وقى الله مجدكم المكاره، وأمطأكم من مراكب السّلامة /189/ والكفاية النجيب الفاره، تحيّة تعظيم أوجبت طاعته، وحبّ انتخبت بضاعته، والعهد كما تعلمون ماؤه يتحدّر، ومكانه من العهود يقدّم ويصدّر، وبي شوق صدريٌّ منهجٌ لجري جياده، وعن فجّ عند وريّ زناده، وهيهات أن انطوي على قلب السّالي، أو أقول وفارقت حتى ما أبالي.

-130-

## ثناء وشكر

[الطويل]

أبـى الله إلّا أن تكـون الـيد العلـيا    لمـن هـو فـي عليـائه أوحـد الدّنـيا

لمولـى عظـيم الـشأن جـود يمينـه    ينوب إذا يهمى عن القطر في السّقيا

تكنفنـي مـنه نـوال وحـرمة    إلـى ظلهـا آوي وفـي فـضلها أحـيا

سأشكر ما أولى ومَن لي بغاية مِن    الـشكر تقـضي حـق مَـن طـوله أعـيا

فإن كـان أهـلا للثناء فإن لـي لـسانا    بـه يَعـيَ وإن كـان لا يعـيا

حفظ الله شرف المولى مؤثلا، وأبقى جلاله مؤملا، ولا زال على الرّجاء مسعدا، وللأواء مبعدا، وبالأيادي واعدا، وللعواد متوعدا.

وصلت مخاطبته المباركة الكريمة صادقة المقال، ناطقة بلسان الأفضال، منجزة أكرم وعد، معربة عن مكارم هي راسخة في آل سعد، توارثوها كابرا عن كابر، وغلبوا عليها كل مكابر، حتّى انتهت إلى السيد الوضّاح، والفارس الجحجاح، ذي الشرف الصُراح، والسّخاء الذي هو أبهر من غرّة الصّباح، فهناك ألف عصاها، وضمّت إليها أقصاها، واجتمعت على الكثرة في واحد، وزهيت منه بسيد يتلو سنن سيّد وماجد يقفو أثر ماجد.

وقد وقعت الصّنيعة عند من يقدرها قدرها، ويستوزع الله /190/ شكرها،



ويقابلها من الثناء الباهر محيّاه، والذّكر العبق ريّاه، بما يملأ كلّ ناد، ويسري بين أغوار وأنجاد، وهو يستلم اليمين المباركة بدءا وعودا[1]، ويستسقي منها بخصب أرجائه مطرا وجودا، ويجدّد من الثناء المسموع، والدّعاء المرفوع، ما يتلو آخره أوّله، ويستحق الزمان ماضيه وحاضره ومستقبله، والله يبقي الرّياسة العلية منصورة العزائم، نائبة عن الغمائم[2]، مبشرة بالارتقاء الباقي والبقاء الدّائم، والسّلام.

-131-

## وكتب لأبي عثمان سعيد يوصيه برجل

تخصّ الرّياسة السّامية فخارا، الكريمة نجارا، الدّانية جودا وظلا ممدودا وإن نأت مزارا، تحيّة الأمل في مقامها، والعمل على شكر أنعامها، من فلانة والبركات الإمامية تزداد ظهورا، وتعتاد رواحا وبكورا، وليس إلّا قيام بواجبها، واختصاص بجانبها، وعِلمٌ بأنها في سماء العلياء أشرف نجومها وأشرق كواكبها، رأي خلصه الانتقاد، وقول لا يعدوه الاعتقاد، فلا سبيل أهدى، ولا عمل أجدى، من اللّياذ بذلك الجانب المفطور على الإحسان، المسطور فخاره في صفحة الزمان[3].

وإن من أسباب الانجذاب بالطبع والاختيار، والإيجاب لدواعي الدّنو والجوار، مراوضة[4] كانت في هذه الأيّام على الرّياسة العلية معروضة، ومن يدها المبسوطة بالغنى مقبوضة، إلى حضرتها تبلغ، ومنها تسوّغ، ولها تُستنفذ مقاصد الثناء وتستفرغ، تَحمّل جملتها وتفصيلها فلان وهو الوارد معه الدّلو والرّشاء، والزّائد يتبوّأ من /191/ جنّات تلك المكرمات حيث يشاء، وحسبي به حائما، يستمطر من النّوال حاتما، وسائلا إنّما يجد جودا سائلا، وإذا أصغت الرّياسة إليه،

(1) طباق الإيجاب بين "بدءا وعودا".

(2) جناس ناقص بين "العزائم والغمائم".

(3) جناس ناقص بين "أشرف وأشرق" وبين "الانتقاد والاعتقاد" وبين "أهدى وأجدى" وبين "المفطور والمسطور".

(4) المراوضة: هو ما يجري بين المتبايعين من الزيادة والنقصان. وقيل هو المواصفة بالسلعة ليست عندك، ويسمّى بيع المواصفة. لسان العرب، ج 7، ص 164.

وأرته عادتها الكريمة فيما لديه، فإحسان متماد، ويد تضاف إلى أياد، وفضل هو وإن كان معتادا فليس في هذا الزمان بمعتاد، والله يصل أسباب علائها، ويوزع شكر نعمائها، وينهض بحقوق ما سلف وخلف من آلائها، بمنّه.

-132 -

## وكتب لأبي عثمان سعيد شاكرا

تخصّ الرّياسة العلية وصل الله حراسة جلالها، وحفظ كمالها وأوزع شكر ما بهر من إقبالها، وغمر من نوالها، تحيّة التعظيم والتكريم، والإخلاص الثابت المقيم، من فلانة والبركات الإمامية تدفع اللّأواء، وتنفع الأولياء والحمد لله حمدا يرتبط النعماء، ويستجزل الآلاء.

وقد وصلت المخاطبة الكريمة بما اقتضاه ذلك المجد المؤثل، والفضل المؤمّل، فيا لذلك الإحسان المستفيض، والنّعم البيض، والأيادي الذاهبة بالشكر الطويل العريض، ما أغزر غمامها، وأسلس زمامها، وأعمّ فواضلها وأكثر حاملها، موقعها كقطر الندى، ومحلّها كالرّبى عقب الصّدى[1]، ومن تعاطى حقيقة شكرها رام عسيرا، بل وقف حسيرا، وتكلّف مدى طويلا، بل حدّث نفسه بأن يبلغ مستحيلا، وعند الله ثواب ذلك الجود، والإحسان الموجود، وحسبُ من ثوى في ظلّه، وارتوى من سجلّه، دعاء يرفعه، وإخلاص لا يدعه، أبقى الله تلك الرّياسة مأمولة النادي، مبذولة الأيادي، كفيلة بكفاية العوادي، هادية إلى السّنن /192/ الهادي بمنّه.

---

(1) تشبيه مجمل شبّه الفواضل بقطر الندى وبالرّبى وذكر المشبّه والمشبّه به والأداة وحذف وجه الشّبه.



-133 -

## ومن رسالة إلى أبي سلطان عزيز صاحب جزيرة شقر[1]

صدرت الخدمة إلى المجلس الأعلى أدام الله سموّه، وكبت عدّوه، من بلنسية وحق الشكر والثناء مؤدّى، والضمير قد خلص للجناب الأرفع صفاءً وودّا، وأهل فلانة[2] قد عمّروا الأندية بالشكر لمعاليكم الباهرة، وأياديكم المتظاهرة، وعندما ورد خادم مجدكم أبو فلان[3] قرّر من ذلك ما أقرّ العيون، وصدّق الظنون.

وصدر[4] الآن ومعه أصحابه بعد أن شُرِّفوا بالدّخول إلى الإيوان السّلطاني[5]، ونالوا من كريم الإدناء أعلى الأماني، وهو وهُم يا مولاي موضع محبّتي، ومتوجّه رغبتي، وقد بلغتم من برّهم وتأنيسهم ما أسأل الله أن يجزيكم عليه، وينهض من وظيفة الشكر مما انتهى إليه.

-134 -

## وله من أخرى إليه

صدرت الخدمة إلى المجلس الأسمى وصل الله حراسته، وأعلى رياسته، من بلنسية وليس إلّا الشكر والثناء، والإخلاص الذي لا تحيله الأناء، وقد وقف معظِّمه على الغرض الأشرف في النّقلة إلى موضع أخي أبي بكر فكان ذلك عنده أسنى التحف، وأكرم مقاصد الشرف، وشكر الله على اتفاق أدّى إلى هذا الأمل الذي كم تمنّاه، ورآه أجلّ مرغوب وأسناه، والمكان أيّها المولى مكانكم، وقبوله

---

(1) هذا مقطع من رسالة كتبها ابن عميرة، من مدينة بلنسية بين سنتي 626- 628 هـ/1228-1230 م، إلى أبي سلطان عزيز بن أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش صاحب جزيرة شقر يشكره على إرسال وفد عنه لاستقبال ابن أخيه أبي جميل زيان بن مردنيش صاحب بلنسية.

(2) هي مدينة بلنسية.

(3) يقصد رئيس الوفد النائب عن أبي سلطان عزيز.

(4) في د 4502: انصرف.

(5) يريد قصر الأمير أبي جميل زيان بن مردنيش.

ممّا ينسحب عليه إحسانكم.

– 135 –

## وله من رسالة لأبي عثمان سعيد يوصي برجل

/193/ مولاي أدام الله علاءكم وسعودكم، وأجرى لكم من الظهور والاعتزاز معهودكم، إحسانكم يستغرق الآمال، وفضلكم يبسط الأحوال، وفلان تحت وعدكم الجميل، وفي ظلكم الظليل، والرّغبة إلى الرّياسة العليا أن يسعه من نظركم العلي، وقصدكم السّني، ما تعوّده صنائع بابكم، المؤملون لجنابكم، وقد سبق من أياديكم التي لا تحصى، ونعمكم التي بلغت الأمد الأقصى، ما يحمل على هذا السّؤال، ويضمن معهود النوال.

– 136 –

## وخاطب أبا الرّبيع بن سالم في شأن شاب زاهد

سيدي الأكبر الأوحد، وسندي المدّخر المعتمد، وقى الله جلالكم، وحفظ كمالكم، هذا الواصل إلى محلّكم الأعلى فتًى مُجِدّ في الزّهادة، متوكّف ما وعد الله عنه الذين أحسنوا من الحسنى والزيادة.

وعندما أطلّ هذا الشهر المبارك[1] أنشأ للجدّ فيه استئنافا، وأحبّ أن يقرن بصومه اعتكافا، وقصد بذلك الجامع المكرّم[2] هنالك وأرادني تنبيه السّيد المعتمد عليه فلم يسعني إلّا إسعافه، ومن أقرض الله قرضا حسنا فعليه سبحانه إضعافه، والله يبقيكم عونا على الأعمال الصالحة، طريقا إلى المساعي الناجحة، وهو تعالى يحرس مجدكم، ويضاعف نعمه عندكم، بمنّه.

(1) يريد شهر رمضان المبارك.

(2) يقصد المسجد الجامع بمدينة بلنسية الذي كان يخطب به أبو الربيع بن سالم في أوقات، كما يقول مترجموه. انظر ترجمته ومصادرها في هامش الرسالة رقم: 75.



– 137 –

## وله من رسالة في التوصية برجل وقع أفراد عائلته في الأسر

ترد الرقعة بمعونة الله من يد فلان وهو الذي تذاكرنا من أسْرِ /194/ أهل بيته قصّة، وأردنا له من حصص الوصايا حصّة، وأخبرتم عن وصيّة لفلان واتفقنا أن تبقى على اسمه، وتخرج في سهمه، وقد خرج الآن له ولد من الأسر على يد فلان أوصله إليه، وجاء مذكّرا بالعدّة التي يراها الكريم دينا عليه.

وهو مستشفع إليكم بالله الذي هو من زوّار بيته، وحملة كتابه، ومستظهر عليكم بالمقاصد النبوية في فك الأسير، وجبر الكسير[1]، وأنا بعد مرشده إليكم، ودالّه قبل وبعد عليكم، وسينقلب إن شاء الله مبيض وجه الإرادة، مبينا صحة قياس الغيب على الشهادة، وإن عرفتم بمكان وصيّة غيرها فأعينوه عليها فالحرّ معوان، والمؤمنون في ذات ربّهم إخوان، تولّاكم الله بكفايته وعصمته، ومدّ عليكم ظلال فضله ونعمته، والسّلام.

– 138 –

## وله من رسالة في الغرض نفسه

مؤدِّي عجالتي هذه إن شاء الله أحد قاطني دار الشرك من المسلمين أعزّهم الله له ببلده وجاهة، وفي قومه نباهة، وهو على سُبل الخير حريص، وربما استسهل مخرجها وهو عويص، وبينه وبين فلان قرابة تظهر في الهيئة والنجوى، وتشهد القيافة بها قبل الدّعوى، وأخرج أسيرين كان باب فكاكهما مغلقا، وإيابهما بإياب القارظين معلقا، وذلك بعدد يظهر ممّا بيده، ويرجو جمعه في يومه وغده.

وقد رجوت له من الإعانة، ما وجده وافد بريّانة، فإنّه عاد يستجزل الرّفد، ويلزم الشكر والحمد، ولهذا جهة من الأولوية ترجح جانبه، وتقضي بمعونة الله مأربه /195/ والجلة الأفضلون يشاركون وينجدون، ويقدمون من صالح العمل ما

(1) جناس ناقص بين "الأسير والكسير".

يجدون، ويأنفون لرفقة الفضل أن يخيّب آملهم، ويضيع سائلهم، وقاهم الله المخاوف، وجمع في صدروهم المعارف، والسّلام.

– 139 –

## تهنئة ابن هود بوصول التقليد العبّاسي

أما بعد فكتب العبد كتب الله للمقام العلي [الناصري المتوكّلي][1] مجدا يحلّ الكواكب، وجدّا يفلّ الكتائب، من شاطبة[2] وبركة دعوته السعيدة قد طبقت البسيطة، وكاثرت البحار المحيطة، وأنجزت للإسلام أفضل مواعده، وجدّدت عهده لأهل بيت النبوّة الرّافعة لقواعده، وفسحت له مجال البشرى، واطلعت عليه أنوار العناية الكبرى، فعاد بعد الغربة إلى الوطن، ووجد حال السُّهد طعم الوسن، وأورق عوده، واتسقت سعوده، وعاد إلى صحّته بالنظر الإمامي الذي جاء يعوده.

وحين صدر رسول[3] دار السّلام، ومثابة أهل الإسلام، ومقعد الجلالة، ومصعد أنوار الرّسالة، ومعه الكتاب[4] الذي هو غريب، أنس به الدّين الغريب، وبعيدُ الدّار نزل به النّصر القريب، وآية بأدلتها الصادقة تبطل الشبهة الأفكة، وسكينة من ربّنا وبقيّة مما ترك آل نبينا تحمله الملائكة، اطمأنت القلوب، وحصل المطلوب، ودرّت أخلاف الإيناس، وارتفع الخلاف بين الناس، وعلموا أن السّالك قد أضاءت له المحجّة، والحق لا يعدو من بيده الحجة، وأنّ من أمّرته الخلافة العبّاسية[5] فطاعته تجب قطعا، /196/ ومخالفته تحرم شرعا.

---

(1) الزيادة من صبح الأعشى، ج 7، ص 98.

(2) كتب ابن عميرة هذه التهنئة عن نفسه عندما كان قاضيا بشاطبة.

(3) عن اسم هذا الرّسول الوافد من بغداد يقول ابن خلدون: "ووصل خطاب الخليفة المستنصر العباسي إلى ابن هود من بغداد سنة 631 هـ/1233م، وفد به أبو علي حسن بن علي بن حسن بن الحسين الكردي الملقب بالكمال، وجاء بالراية والخلع والعهد، ولقّبه المتوكل، وقدم عليه بذلك في غرناطة في يوم مشهود". ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 203.

(4) كلمة "الكتاب" ناقصة في الأصل والزيادة من صبح الأعشى. وانظر نص هذا الكتاب العباسي عند ابن الخطيب في أعمال الأعلام، ص 280 وما بعدها.

(5) كلمة "العبّاسية" ناقصة في الأصل والزيادة من صبح الأعشى.



ولم يبق إلا أن يبرز للعيان شخصه، ويرد على الآذان نصّه[1]، فيكون يومه غرّة الليالي المعتكرات، وعلَم الأيّام النكرات، واليوم الذي تؤرخ به الأعوام[2] المستقبلة، وترفع فيه الأعمال المتقبّلة، وبإقبال الرّكاب السّعيد إلى هذه الجهات ينزل به من سماء العلياء حكم وحكمة، ويصل به إلى الأنام فضل من الله ونعمة، ويقتضى دين على الأيام لا تبقي معه عسرة، ويوجد جبر للإسلام لا يكون بعده كسرة، وشفاء لصدور الأولياء هو في قلوب الأعداء حسرة.

– 140 –

## ومن إخوانياته المختصرة[3]

أبقى الله سيدي بين الثقة بالودّ، والإشفاق من هواجس الصدّ، تمانعٌ أقذى عين المقة، ثم ما سلب بعد مرجحا من جانب الثقة، ولأجل[4] ذلك أبغي من الأخ المبرور لقاءة تكشف لي عنّي، وتأخذ لي منّي، ويمكنه[5] أعزّه الله بعذر تجديد عهد بالمعاهد السلطانية، وطلب ما طلبه الأخوان الماجدان أبقاهما الله من اللّوازم المخزنية.

فإن ساعد على ذلك فغدا انتظره، وإن تباطأ لم ألمه إن كنت لا أعذره، ومهما استطعت فما أفارق المرجح الأول، وإذا امتنع الحمل على الظاهر فلا لوم على من تأوّل، وقاه الله المكاره، وشفى برؤيته المشافه، بمنّه، والسّلام.

– 141 –

## ومن إخوانياته المختصرة

عرفت من هذا الصّاحب الواحد، ما عند الأخ الماجد، من /197/ ارتياب

---

(1) يُفهم من كلام ابن عميرة أنّه بادر بهذه التهنئة قبل أن يوجّه ابن هود نسخا من الكتاب العباسي إلى ولايات الإمارة وجهاتها ليقرأ على المنابر.

(2) في صبح الأعشى: الأيّام.

(3) تقدّمت هذه الرّسالة مكرّرة تحت رقم (100) من هذا السفر.

(4) في زواهر الفكر: ولذلك.

(5) في زواهر الفكر: تمكّنه.

بوداد من يعدّه يمنى يديه، ويراه أنفس الذخائر لديه، فاستغربت مجيء الظنة من هذا الطريق، وقلت ربّما شرق غير المجدود بالرّيق، وأنكرت على بالغ رتبة الاجتهاد، في فقه الوداد، كيف لم يستنبط الحكم من المفهوم إن أشكل النّص، ويلتمس الزّيادة من المدلول، وإن اعترض الدّلالة النقص، ومعاذ الله أن أوحش النّفلة فضلا على العلية، وأعطّل جيد الإخلاص من أفخر الحلية، والله يبقيه لأجلّ المراتب، ويرزقه علم ما عندي من عبارة هذا الصّاحب، والسّلام[1].

-142 -

## وخاطب عمر بن عيسى بن النعمان الهنتاتي[2]

[الكامل]

في الرّوع أوجُهُكم كأقمار الدّجى ... وسيوفكم كشقائق النّعمان[3]

والمكرمات وُلِدْن فيكم فهي إن ... نُسِبت يقال شقائق النّعمان[4]

-143 -

## ظهير بإقرار على خطة القضاء

يستمر نظر فلان على القضاء بفلانة جاريا على ما عُهد من قويم[5] سننه، مراقبا لله سبحانه في سرّه وعلنه، ويجرى له مرتبه المعلوم بها وقدره كذا يجد فيه كل معاملة جميلة، ويحفظ في تيسيره وتسنّيه حق طلبه ونزاهته وهما خير وسيلة.

(1) وردت هذه الرسالة عند ابن المرابط في زواهر الفكر، ص 226.
(2) ورد ذكر اسم الممدوح عند ابن سعيد في اختصار القدح، ص 49.
(3) شقائق النّعمان: من الأزهار يقال لها الشّقِر، واحدتها شقيقة، نُسبت إلى النعمان بن المنذر حين نزل أرضا بها هذا النبات فاستحسنه وأمر أن يُحمى. لسان العرب، ج 10، ص 182.
(4) الشقائق هنا تعني الأخوات، والنّعمان هو جدّ الممدوح. وقد اتفق لابن عميرة في هذين البيتين الجناس التام.
(5) في ك 233: قديم.



-144 -

## الألغاز والأحاجي[1]

1- ما زكيّة الأصل، شهيّة الوصل، أوّلها مفرد بالعظمة، /198/ وأسفلها مركَب للظُلْمَة، تجني ببعضها، وتجني على أرضها، وربّما تأطّر صارمها، وفطر صائمها، وألمست شَبَاها حديدا، ولبست شبابها جديدا، وما رأينا مثلها لقوحا، لا تحمل روحا، يعجبها من فحلها الضّراب، ويكلَف بأحب ولدها إليها الغراب، وتصحّف فتكون طائرا بإذن الله، بينهما مع التفاوت نسبة الأشباه، فيما يحمل في الأطراف وإلى الأفواه، نعم عُجالة القادم وعُلالة العادم، والمسوّية في المنفعة بها بين المخدوم والخادم.

2- ما متوارٍ عن العيون، سارٍ في مثل الدّجون، آخره للمخاطبة بألف، وأوّله يدلّ على ما يستأنف، وحشوه مما تبرزه الشفاه، وتبتدأ به المياه، وإن جمعت بين كسر الأوّل ومدّ[2] الثاني، فسائر ليس بالمتواني، وساكن في أعلى المباني، تعجبك منه صورة، وتدلك عليه سورة، وتنزل النوازل بكتيبته فإذا هي مأسورة، وقد قدّرت لك النعت تقديرا، فكن على استخراجه قديرا، واطلبه إن شئت صفيفا أو قديرا.

3- ما موضوعة تحت البصر، متفاوتة في الطول والقصر[3]، صونها يُلتزم، ولونها يحيله القدم، وهي زينة فيما قبل /199/ وخفيفة ربّما أوجبت التثقيل، وإن ضممت الأول بعد حذف على الطرف يكرّ، وأصل لذي بدعة إلى النار يُجرّ وفيها يَجرُّ، وإن حذفت الأوّل وجعلت الوسط مشدّدا، كنت في الفرار منه مسدّدا[4]، وقد وفت لك فاشركها في خيرك، واطلبها في نفسك وفي غيرك.

4- [الخفيف]

(1) من الأغراض التي طرقها ابن عميرة الألغاز والأحاجي، وقد كان الحريري أول من فتح هذا الباب في النثر فولع به من أتى بعده من الكتاب. ولعل ابن عميرة كتبها مجاراة لأهل عصره الذين كانوا يرون فيها رياضة فكرية وأدبية. بن شريفة، أبو المطرف، ص 217.
(2) في ك 233: هذا.
(3) طباق الإيجاب بين "الطول والقصر".
(4) جناس ناقص بين "مشدّدا ومسدّدا".

راكب يمتطي إلى الشّبع سبعا     وهو من ذاك ليس يجهد نفسه
تبصر العين ثاني اثنين منه     وهو عند التحقيق خامس خمسه
إن صفا موردا فشُشْهُ بعنف     وتجنّب إذا تكدّر[1] لمسه

**5-** ما بديعة الشكل، شهية الأكل، ذات منظر يعجب، وأصل في الفرع ينجب، إن رميت بها فجندلة، وإن زرت مكانها فأغصان مهدّلة، وما هي إلّا درع موضونة، وأجنّة مصونة، وكاعب يروق خلقها، وحامل يصعب طلقها، حتى إذا طرق خيسها، وحمي وطيسها، خضعت وذلّت، وألقت ما فيها وتخلّت، استعن بلبّها إن شئت، واسلت بطرفيها من شئت.

**6-** ما أداة للسؤال، منجاة من بحر الآل، يلج مغلقا، وينفع مطلقا، ويحمد غذاءً، ويجمع لذة وإنذاءً، وهو محلّ إعجاز، /200/ ومظنّة مجاز، يذهب أذى البشر، ويعجب بما يكره من البشر، لا يغبّ نظيفا، ولا يحقر ضعيفا، ولا يقبل تصحيفا، عال سافل، وطالع آفل، وجواد بأرزاق العباد كافل، يدنو ويبعد[2]، ويبرق ويرعد، ويرغم أنوف الشهب، ويدغم حروف الكتب، ويدعو له البادي بالسّهل والرّحب.

-145-

## خاتمة رسالة وصف رحلة الخليفة الموحدي الرّشيد من سلا إلى مرّاكش

اللهم أوزعنا شكر نعمتك وأدناها لا نطيق حمده وحمله، وأولاها بالشكر ينبغي أن يكون ما عمّ الإسلام وأهله، ولا نعمة أصحّ إلماما، وأسحّ غماما، وأتمّ إحكاما وأحكم تماما، من النعمة بالحضرة التي هي ظل الله على خلقه، وسيفه المقول فيه من يأخذه بحقّه، فلئن صدق القتال بالسّيف النبوي سماك، فهذا ليد القدرة بقائمه إمساك، وعن خطبة الرّوح والملائك له مع عقائل المالك إملاك، ولما قيل إن شكر النعمة من شكر المنعم، ومنزلتها منه منزلة المترجم، كان الاعتمال في شكر الحضرة العلية أولى حق قامت عليه الأدلة، وأقامته الأقلام المستملية والقرائح

(1) في ك 233: تكدّر.
(2) طباق الإيجاب بين "يدنو ويبعد".



المملة.

هذا وإن كان المدى لا عمل فيه للشمال إذا تهبّ، فضلا عن الشّملال حين تخبّ، فلا بد عن مسير وإن ضاق عن فتر، ولياذ من العجز بظهير صاحبه تحت ستر، ومقام الرّحمة يرحم مقام الضعفاء، ولا يطلب ما في أطراف العيدان من عيدان الطّرفاء[1]: [الكامل]

يغضي على علم كما أغضى     على تقدير سرد هلهل داود[2]
[ويعود بالحلم الذي هو أهله     مع ما به في النائبات تعود

وإذا عرف الجاني ما يختاره، قال هذا جناي وفيه خياره، كان بصدد أن يقرع على ادّعائه، ويطرح ما في وعائه، فما الظنّ به وقد سبقه الجناة فما تركوا، وتوهم أتباعهم وقد اخطأ الطريق التي سلكوا، ولكن كرم التجاوز فيه الأمل، وقد تبلغ النّية حيث لا يبلغ العمل إن شاء الله تعالى][3].

(1) تقدّمت هذه الرّسالة كاملة تحت رقم (65) من هذا السفر.
(2) هنا ينتهي السّفر الأول من المخطوط ولا نستطيع تقدير الورقات المبتورة من آخره.
(3) الزيادة من ك 233.



# السفر الثاني من كتاب رسائل ابن عميرة

## وفادة النفس السّالكة شعاب الرّجاء، إلى الحضرة المالكة رقاب الأعداء[1]

[الحمد لله الذي تحت قهره يقف الاختيار، وعلى مشيئته تجري الأقدار، وبحكمته ونعمته تتصاقب الظلَم والأنوار، ويتعاقب اللّيل والنهار[2]، وصلّى الله على أفضل من طاب منه النّجار وسما به الفخار، واستسرّت لنور جبينه الأقمار، وتضاءلت عند جود يمينه الغمائم والبحار، سيّدنا ونبيّنا محمد الذي بباهر آياته أضاءت الأنجاد والأغوار، وبمعجزات آياته نطق الكتاب وتواتر الأخبار، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هاجروا لنصرته ونصروه في هجرته فنعم المهاجرون ونعم الأنصار، صلاة نامية دائمة ما سجعت في أيكها الأطيار، وهمعت بوبلها الدّيمة المدرار.

ورضي الله عن إمام الأمّة وناهج سُبل الأئمة الذين به وبهم هُدي الجهلة الأغمار، ودُهي المردة الكفار، والحمد لله الذي جعل أمره وأمرهم عهدا انتقشت في لوحه سرائر الحكم، وانتعشت برَوحه وريحانه بصائر الأمم، ورُفع منه ركنا على التقوى دعائمه، وسُلّ به سيفا في يد (... )،[3] وجُمع له الفتوح التي بعرق التوحيد حَيِيَ][4] /1/ أثرها، ومن ورق الحديد جني ثمرها.

---

(1) لم يتمكّن ابن عميرة من السفر على ظهر الأسطول الحفصي من سبتة إلى تونس في شهر جمادى الأولى من سنة 646 هـ/1248 م، فكتب هذه الرسالة إلى أبي زكرياء الحفصي وبعثها مع صديقه ابن خلاص، فلما مات هذا الأخير أثناء توقف الأسطول بمرسى وهران، عُثِرَ على هذه الرّسالة في متاعه الذي خلص إلى تونس، وتعتبر أطول رسائله التي وصلت إلينا، وهي مزيج من النثر والنظم في غاية من براعة الإنشاء، كما يقول ابن عبد الملك في الذيل والتكملة، السفر الأول، ص 179.

(2) طباق الإيجاب بين "الظلم والأنوار" وبين اللّيل والنهار".

(3) كلمة مطموسة.

(4) الزيادة من ك 233، لأنّ الورقة الأولى من هذا السفر مبتورة.

وإنّما وليّها من الجماعة عودها الأصلب، وقرمُها المصعب، وبطلها المدرة المحرب، مُديم ركض الجياد، ومقيم فرض الجهاد[1]، والذّابّ عن حريم البلاد والعباد، وهو المقام العُمَرِيّ باسمه المستطاب نسبة، والعمريّ يرفعه إلى ابن الخطاب صلابة في الدّين وحسبة[2]، قدّس الله تربته، ورفع في جنّة المأوى رتبته، فهو الذي باشر بنفسه صلب الصّعاب، ووطئ ببأسه غلب الرّقاب، حتى انتظم الغرب والشرق، وأمن على عصا الأمّة من أشقيائها الشقّ، وقبضه الله والغزو تجيّش جيوشه وبعوثه[3]، والكفر يعقّ يعوقه ولا يغاث يغوثه[4]، وعالم السّياسة والمجاهدة قد ثبت ببرهان المشاهدة حُدُوثه.

وخلفه من بعده بنوه، فأيّ ركن من الشرف لم يبنوه، وأيّ عنان إلى ثنايا الجهاد لم يثنوه، وأيّ صالح من العمل ونازح من الأمل لم يَدِينوا به ولم يُدنُوه، إلى أن صار الشرق غاب قَسْوَرهم، ومطاب كَنَهْوَرِهم[5]، وأصبح أفقه مطلع أنوارهم، وهالة[6] لأقمارهم، وبقي المغرب عينه حمئة، والواحد فيه تعتوره من الخطوب مئة، وما زال ذلك يزيد وهذا ينقص[7]،

---

(1) جناس ناقص بين "الجياد والجهاد".

(2) يريد أبا حفص عمر الهنتاتي جدّ الحفصيين، من أصحاب المهدي بن تومرت العشرة، وشيخ قبيلة هنتاتة البربرية، ولكن الحفصيين وضعوا لأنفسهم نسبا يرفعونه إلى عمر بن الخطاب، وذلك على نحو النسب العلوي للمهدي بن تومرت، والنسب القيسي لبني عبد المؤمن، والنسب الشريف لبني زيان.

(3) فتح أبو حفص عمر الهنتاتي للموحدين كثيرا من بلاد الأندلس مثل الجزيرة الخضراء ورندة وإشبيلية وقرطبة وغرناطة، وتوفي في الطاعون الذي أصاب الأندلس والمغرب في سنة 571 هـ/1175 م. البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، في مواضع متفرقة.

(4) يغوث ويعوق: من الأوثان التي كانت تُعبد في قوم نوح، ثم صارت إلى العرب بعده، وقد ورد ذكرها في الآية رقم 23 من سورة نوح. فأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان. ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج 7، ص 126.

(5) الكَنَهْوَرُ: واحدته كنهورة، وهو قطع من السحاب المتراكب المتراكم الثخين أمثال الجبال، والرّباب الأبيض منه. لسان العرب، ج 5، ص 153.

(6) في ك 233: هلالة.

(7) طباق الإيجاب بين "يزيد وينقص".



والقيم هنالك تغلو وهنا ترخص[1]، ففروع البيت الكريم في بسوق، وبضائع الفضل لها عندهم أنفق سوق، حتى طلع على الدّنيا ابن نجدتها، وانتهت سورة الإعجاز إلى موضع سجدتها، وهُنّئت الأيام بأشرف بنيها، وتمخضت بسَنِي وجهه عن الوجيه من سَنِيها.

وهو الواحد الذي تفلّ له الألوف، وتتنافر إلى حضرته الأقلام وتتنافس في خدمته /2/ السّيوف، سلطان الأمّة وأميرها، وكافل الملّة وظهيرها، وكفء الإمامة الذي يصبو إليه منبرها وسريرها[2]، أبو زكرياء[3] أيّد الله نصره كما فضّل على العصور عصره، وأعلى قدره كما أطلع في سماء السّناء بدره، فهو من البيت المقصود بيت القصيد، ومن سبحة الكرم والجود خاتمة التحميد، والسّيوف حداد وإنّما الذّكر للصّمصامة[4]، والأذان مشروع والفضل عليه للإقامة، وبروج السّماء منيفة وقد حمل الذّكر الحمل، وأيّام العرب كثيرة وبيوم حليمة جرى المثل[5].

وإنّا[6] نرى اليراع وهي تباشر بفرسانها[7] قراع الوطيس، وتمرح في ميدانها من القراطيس، ولأراقمها خلل الأصابع نضنضة فيها كبر، ولقائمها من المضاجع مضمضة ماؤها حبر، إذا قيل لها أين ما تدّعين من أن البيان سمّاك سماء كواكبه، والمداد لا ماء[8] أشهى[9] من لمَاك به، فلا تروغي عن حقيقة الصّفة لهذا السّلطان،

---

(1) يشير إلى الأوضاع المتردية التي آل إليها المغرب الأقصى تحت حكم الموحدين الذين كانوا يخوضون معركة المصير ضد المرينيين.

(2) استعارة مكنية لأنّ المنبر والسرير لا يصبوان.

(3) أبو زكرياء يحيى مؤسس الدولة الحفصية.

(4) الصَّمْصامة: اسمُ سيف عَمْرو بن معد يكرب، وقد سبق التعريف به في أحد هوامش الرسالة رقم: 109 من السفر الأول.

(5) يريد المثل العربي القائل: "ما يوم حليمة بسرّ". أشهر أيام العرب، وهو اليوم الذي تقاتل فيه جيش الحارث بن أبي شمر والد حليمة مع جيش المنذر بن ماء السماء. الميداني، مجمع الأمثال، ج 2، ص 295.

(6) في ك 233: أنّى.

(7) في ك 233: بنفسها.

(8) كلمة "ماء" ناقصة في الأصل والزيادة من ك 233.

(9) في ك 233: أشبه.

وصوغي من النظم والنثر[1] الباقيين على وجه الدّهر ما يرى أنّهما لِمَسمَعَيه قرطان، جعلت تنظر بعين الاستخذاء، وتعثر في ذيل الحياء[2]، وتنادي على أنّ خلقها في نبات الشط ذميم، وعرقها بين بنات الخطّ لئيم، ومن يسوم الكفيف إدراك الإشمام، ويجشّم البشر الضعيف الحراك بِشمام، وإنّما يَعَضّ اللّوم بأنيابه، ويكسو الذّم وضِر ثيابه، من عجز عن شارد يتأتى إدراكه، وفرّط في صيد توجد أشراكه، أما الممتنع فللعذر عنه صفاة يزل عنها الملام، وجُنّة لا تنفذ فيها السّهام، وعلى ذلك فلا بدّ من خطو إذا عُدِمت الخوافي وخروج من /3/ نثر إلى نظم إذا ساعدت القوافي: [الكامل]

يـا أيّهـا الملـك الـذي هـو وحـده … مـن بأسـه وبنفـسه فـي عـسكر
خلعـت مهابـته قلـوب عـداه مـن … حـضر الوغـى منـهم ومـن لـم يحـضر
وسـمت بـه فـوق الكـواكب همّـة … هـي والكـواكب تلتقـي فـي عنـصر
بهـرت يـدًا تلـك الـصّفات وناطقـا … مـركوب مبـريّ وراكـب مِنبـر
فـإذا همـا اسـتبقا معـا فـي غايـة … قـرن الـسّباق مقـصّرا بمقـصّر
أخفـيت ضـوء عطـارد إذ جـزته … وعلى الجُوار حفظت قدر المشتري
والدّهـر يفـرق مـنك إلّا أنّـه … يلقـاك معـتذرا وجانـبه بـري
ويظـل فـي خطـوات فكـرك ناظـرا … فتـراه مؤتمـرا وإن لـم تأمـر
وأرى الـبلاد إلـيك تـرنو عـن هـوى … كهـوى الغوانـي للـشباب الأنـضر
وكأنّنـي بـك قـد قبـضت بهـا يـدا … فـي خمـسها للجـود خمـسة أبحـر
فبـسطت جـودا فـي خـزائن يوسـف … وسـكنت دار نظيـرك الإسـكندر
والمغـرب الأقـصى علـى غـسق بـه … وافـاه مـنك سـنا الـصّباح المـسفر[3]
كَلَمَـتهُ أنـياب الـزمان ومـا شـكا … ذا ابـن دايـة غيـرُ ظهـر الأدْبَـرِ[4]

(1) طباق الإيجاب بين "النظم والنثر".
(2) استعارة مكنية شبّه الحياء بالحيوان، حذف المشبّه به وترك أحد لوازمه وهي كلمة ذيل.
(3) يحث ابن عميرة هنا أبا زكرياء الحفصي على الاستيلاء على المغرب الأقصى الذي أصبحت ظروفه مواتية.
(4) ابن داية هو الغراب، سُمّي بذلك لأنه يقع على دأية (فقارة) البعير الأدبر، أي الذي يكون في =



والأمـر فـيه قـد انقـضى إلّا لقًـى … يكفـيه مـنك تـناول بالخنـصر
ولأرض أنـدلس إلـيك بحالهـا … شكوى الهشيم إلى السّحاب الممطر[1]
سـقمت بعـبّاد المـسيح وإنّهـا … فـي أن تكـون مـسيحها لا تمتـري
رُحمـاك فـيها مـن أخـيذة أذؤب … يـزري بقـسوتها زئيـر القـسور
وبفـوتها يقـوى القـياس فـسُق … إلـى أبطالـه نـصّ الجـياد الـضّمّر
واجبـر قـناة الـدّين فـيها بالـذي … يقـصّ العـدوّ مـن القـنا المتكـسّر
فخـر الملـوك الـصّيد أنـت حقـيقة … وبعـصرك المـيمون فخـر الأعـصُر

جناب الملك السّعيد برغباتنا نؤمّ، ونُسَخ آمالنا في حضرته تعرض الأمّ، حيث معطس الملك أشمخ أشمّ، وجوّ /4/ الثناء برق غمامه يشام وزهر كمامه يشمّ، طلعة ميمونة النقيبة، ودولة مقتبلة الشبيبة، وسلطان ينصره الرّحمان، ويحرسه العدل والإحسان[2]، وترغب الجوزاء أن تقتعد كرسيّه، ويودّ بهرام أن يكون حَرَسيّه، كيمياء السعادة بإصلاحه وجد إكسيرها، وأعضاء الملّة بحدّ سلاحه جُبر كسيرها، يزهى منه بسيف النصر عاتقها، ويظل منه عند النّسر سُرادقها، والكفر تقتلع دساكره، وما سالت عساكره، وترجف بوادره، وما سلّت بواتره، وتبلغه أنّه تنتخب أعداده، فيبلغنا أنّه ينخب فؤاده، ويحق للرّعب أن يكسف باله، وينسف[3] جباله، وقد بلغه أن خيل الله لغزوه ملجمة مسرجة، وراية الحق تذكرة النصر في كتابها مدرجة، وأنّه يَرد عليه إن شاء الله من يَردّ غصوب الايمان، ويهدّ منصوب الأوثان، فيجد المؤمن

= ظهره جرح، فينقرها. لسان العرب، ج 14، ص 284.
(1) في هذا التاريخ الذي كتب فيه ابن عميرة هذه الرسالة كانت كبريات المدن وأهم الحواضر الأندلسية قد ضاعت واستولى عليها النصارى ومنها بلنسية وقرطبة وإشبيلية وشاطبة وغيرها، ولكن أمل ابن عميرة في النصرة لم يذهب، فنجده يشكو إلى الأمير الحفصي حال الأندلس ويستنهض عزائمه لاسترجاعها، كما فعل قبله صديقه وبلديّه ابن الأبار أثناء حصار بلنسية وهو خير من مثّل شعر الاستصراخ والاستغاثة سيما في قصيدته السينية المشهورة التي مطلعها، أدرك بخيلك.
(2) استعارة مكنية شبّه العدل والإحسان بالإنسان فذكر المشبّه وحذف المشبّه به.
(3) جناس ناقص بين "يكسف وينسف".

عتبى الأقدار، ﴿وسيعلم الكفّار لمن عقبى الدّار﴾[1]، ويرى التثليث قلع أثافيه، وقمع أناسيه، وتحريق بِيَعِه، وتمزيق شيّعه، فيقول هو رضّ وجدت الضرّ من حجره، وطعمٌ بلوت المُرّ من شجره.

ويذكر ما مرّ عليه من يوم كان عزم السّلف الكريم طالي عزّه، وصالي حرّه، وصاحب مقابلته وجبره، وضارب صحيحه في كسره، وهو المعروف بيوم الأرك[2]، وأكبر وقائع أهل التوحيد على طواغيت الشرك، وكان قد احتفل له المنصور[3]، وساعده هذا اللّيث الهصور[4]، حدّث الثقات أنه قعد بكرة ذلك اليوم تحت رايته المنشورة، يجيل قداح المشورة، فتكلم على البعد أحد العرب، وكأنّ الخليفة كان له في السّماع /5/ منه بعض الأرب، فقال له هذا القرم الشهم ما معناه هذا الذي يتكلّم فيه هو وظيفتنا نحن وذلك وغيره حسبه أن يهتمّ بمكانه من الزّحف، ويأتمّ بإمامه إذا دخل في الصفّ، ثم ركب في المطوّعة وأهل الأندلس وهم إذ ذاك عُودٌ فيه صلابة، ونبل لا تخطيه إصابة، ووقف بهم حذاء العدوّ وللرّوم حملة لا تطاق، وشدّة فيها تنذر الهام وبها تُنذر الأعناق، جعلوها في هنتاتة وكانت حدّ الناس، بالبيض الوجوه

---

(1) الآية رقم 42 من سورة الرّعد.

(2) في يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة 591 هـ/19جويلية 1195 م، خاض المنصور الموحدي معركة الأرك الشهيرة ضد النصارى بقيادة ألفونسو الثامن ملك قشتالة. والأرك مدينة صغيرة من أعمال قلعة رباح تقوم فوق ربوة عالية تمتد سفوحها حتى وادي آنة، وهي تقع غرب مدينة ثيوداد ريال وفي أقصى نقطة من مملكة قشتالة في حدودها مع المسلمين. وقد انتهت هذه المعركة بانتصار ساحق للمسلمين وكان لها أثر بعيد يشبه أثر معركة الزلاقة، وأفلت ألفونسو الثامن بعدد قليل من فرسانه ولاذ بالفرار نحو طليطلة. عن هذه المعركة انظر: ابن عذاري، قسم الموحدين، ص 218 وما بعدها. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 290. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 289 وما بعدها. هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ص 354 وما بعدها.

(3) هو الخليفة الموحدي الثالث أبو يوسف يعقوب المنصور الذي حكم الفترة 580-595 هـ/ 1184-1198 م.

(4) يقصد أبا محمد ابن أبي حفص عمر الهنتاتي والد أبي زكرياء يحيى المكتوب إليه. وقد أشاد ابن عميرة كثيرا بدوره البطولي في معركة الأرك التي أطال الكلام عنها في هذه الرسالة.



في محمّر البأس، وفيها وزير الخليفة أبو يحيى الشهيد[1]، وهو الصّارم الحديد، والبطل الصّنديد، فثبت لتلك الصّدمة الأولى، وكانت له هنالك مع قصر الأجل اليد الطّولى.

وحين استشهد شالت نعامة الفحل والشّول، وانهالت كتب الجمع في ذلك الهول، وكاد الشيطان يحصد ما بذر من بذر، ويرى ضدّ ما رآه في يوم بدر، لولا أنّ الله تعالى تلافى أمر الإسلام، بهذا القرم الهمام، فإنّه عاين الفرصة فتمكّن من انتهازها، ورأى الغنيمة فبادر إلى إحرازها، وذلك أنه بَصرَ بمعسكر الرّوم وقد تخيّروا له ربوة منيفة، وأعطوه من خيلهم قطعة كثيفة، فصمد إليهم في خيله، وأطفأ محتدم نارهم بسيله، ولم تمض إلّا ساعة وإذا ظهر الإسلام قد قوي، ومعسكر الرّوم قد حُوي، وحديث الفتح من أصحّ طُرقه قد أسْنِدَ وَرُوِي، وتراجع الرّوم عن حملتهم، وتأهبوا للثانية بجملتهم، ونظروا فإذا الرّبوة محوزة، وراية الحقّ فيها مركوزة[2]، فحاصوا حيصة حُمُر الوحش، وتداولتهم /6/ أسود النّهس وأساود

---

(1) هو أبو يحيى ابن أبي حفص عمر الهنتاتي عمّ أبي زكرياء وأحد أهم وزراء الخليفة المنصور، تولى قيادة القسم الأول من الجيش الموحدي بأمر من المنصور الذي عمل بنصيحة القائد الأندلسي أبي عبد الله بن صناديد في تقسيم الجيش. وقد استشهد الوزير أبو يحيى في هذه المعركة، بعد أن أبلى بلاء حسنا، حيث حمل عليه النصارى حملة شرسة ظنّا منهم أنّه الخليفة المنصور، وعُرف بنوه بعدها ببني الشهيد. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 290. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 295.

(2) قبل خوض المعركة كان ألفونسو يعسكر بجيشه على ربوة فتقدم إليه الجيش الموحدي يقوده الوزير أبو يحيى، فوقع الالتحام مع فرسان الجيش النصراني الذين قادوا الحملة الأولى، فلما اشتدّ عليهم القتال ولّوا الأدبار وأخذوا في الفرار إلى الرّبوة التي فيها ألفونسو ليعتصموا بها، فوجدوا عساكر المسلمين قد حالوا بينهم وبينها فرجعوا على أعقابهم حيث عمل فيهم الموحدون السيف فأبادوا معظمهم، وكان قتلهم سببا في انكسار شوكة ألفونسو إذ كان اعتماده عليهم، وبعد هذه العملية الناجحة تقدم الخليفة المنصور يقود القسم الثاني من الجيش الموحدي لإنهاء المعركة لصالحه. ولا يفوت ابن عميرة هنا وهو يخاطب أبا زكرياء الحفصي أن ينسب هذا النجاح والتخطيط المحكم في انجازه إلى والده أبي محمد. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 298.

النّهش[1]، فأيّ موقف لهذا الهمام حمل على مكروه نفسه السّمحة، واجتلب له بأخفّ الحركات تلك الفتحة، وكان كما قيل في يوم أحد ذلك يوم كلّه أو جلّه لطلحة[2].

فبهذا اليوم وغيره من وقائع أيّد الله فيها بروح القدس، وأضفى بها ظلّ الأمان على جزيرة الأندلس، تحدّث الناس ونُسيت الأحداث، وغيثت النفوس ونفّس الغياث، وقوي الرّجاء في أنّ الوارث ينفذ وصيّة موروثه[3]، ويحمي حمى الملّة الحنيفية بنفسه وببعوثه، ومهما نسي أحدهم فيما يُنسى قول يروونه على وجه الزّمان، ويرونه من أحاديث الحدثان، وهو اللّهج باسم المولى وأن صاحبه عند استصراخ البلاد صاحب تلبية صوتها، والمحي لها بعد موتها، فلهذا الاسم المبارك تفتح لام الاستغاثة، ويجزم القول بأنّه طلبة خواطرها البحّاثة، وقد نادى من يمّ الغمّ يُونُسُها[4]، وأوحشت ربوعها وإنّما تؤنِسُها تونُسُها، وإنّا لنرقبها شعث النّواصي، مجلوبة من الأداني والأقاصي، موعدها كداء من كادنا، ومواردها مياه عدوّ عن مياهنا ذادنا، فيعود إلى الإسلام الشتيت شمله، ويرجع إلى الوطن الدّين الغريب وأهله، وذلك على الله يسير إذا شاءته رحمته وفضله.

ولأن هذه الخدمة مبنية على وفادة للملوك بنفسه، وإحياءٍ لميت من الرّجاء نبت المرعى على رمْسه، قدّر أنّه حضر الحضرة يوما بين أيّام، ووقف وقوف سلام واستسلام، وتقدّم الشعراء لإنشادهم، واستأذن هو أن يدخل بكَوْدَنِه بين جيادهم،

(1) جناس ناقص بين "النّهس والنّهش".

(2) هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله، من الصحابة العشرة المبشرين بالجنة، أبلى البلاء الحسن في غزوة أحد سيما بعدما دارت الدائرة على المسلمين وحاول المشركون قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان أبو بكر الصديق إذا ذُكر يوم أحد قال: ذلك يوم كلّه لطلحة. المحب الطبري، الرياض النضرة، ص 30.

(3) يعبّر ابن عميرة، في نهاية كلامه عن معركة الأرك التي نسب فضل الانتصار فيها إلى أجداد الحفصيين، عن أمله في أن يكون لأبي زكرياء فضل استرجاع الأندلس كما كان لأسلافه في السابق فضل حمايتها والدفاع عنها.

(4) يريد نبي الله يونس عليه السلام الذي ابتلعه الحوت.



فأذن له وأنشد[1]: [الكامل]

/7/ أسرفت في الهجران غير مبال … أفما يمرّ لك الوصال ببال
يا واليا أمر الجمال بسيرة … قلّ الحديث بمثلها عن وال
ونسخت بالإعراض فاستقبلته … من غير عذر قبلة الإقبال[2]
حتّى متى قلبي عليك متيّمٌ … وإذا سألتُ يقال قلبك سال
أرضى رضاك عن الوشاة وأنت … لا ترضيك مَوْجدتي على العُذّال
وبيان حبّك لم أؤخره وفي … جدواه عندك غاية الإجمال
قد حِرتُ في حالي لديك ولست من … أهل الكلام أحار في الأحوال
وأجلت فكري في وشاحك فانثنى … شوقا إليك يجول في جوّال
أنصفت غصن البان إن لم تدعه … لتأوُّدٍ مع عطفك الميّال
ورحمت درّ العقد حين وضعته … متواريا عن ثغرك المتلالي
كيف اللّقاء وفعل وعدك سينه … أبدا تخلّصه للاستقبال
وكماة قومك نارهم ووقودها … للطارقين أسنّة وعوال[3]
وأرى العوادي عنك ليس ليومها … في ما نشاهد منه وقت زوال
وقضيّة الأيام من شرطيها … أنتجت باستثناء عين التال
وظننت أنّ الصّدق في طرفي … فما كان المحال عليه غير محال
يا سائلي عنّي عذرتك عندما … أعياك ما في الحال من إشكال
حرف بمنطقه الزمان يشينه … لكنه بباق كشين بلال
وتعلّلٌ بالورد إلّا أنّه كالألّ … لولا شبهة في الآمال
أنا عائذ بالله والمَلِك الذي … عمّ الورى بالجود والأفضال
صحف الثناء عليه ساعة عرضها … في لفظ قاريها قرى الآمال
وأدلّة الإقبال فيما يجتلى … من بشره تغني عن الاستدلال

(1) يتخيل هنا ابن عميرة نفسه واقفا في حضرة أبي زكرياء فينشده هذه القصيدة في مدحه.

(2) في ك 233: هذا البيت يسبق الذي قبله.

(3) إلى هنا وباستثناء البيتين الأول والثالث، فهي الأبيات الواردة عند ابن الأبار في تحفة القادم، ص 209. واكتفى ابن سعيد بنقل أربع أبيات في اختصار القدح، ص 44.

للدّين والدّنيا معا وهما هما ... هواي مأمول وخير ثمال
قاد السّيول من الجيوش كأنما ... يغشى الفضاء بجوده السّيّال
/8/يرمي بها عرض الشمال وطعنها ... جنب الجنوب به على أوجال
لِكُماتها عند اللقاء تطاردٌ ... صمّ العوالي منه في إغوال[1]
ومن السّوابق في رعان رعالها ... رُسل إلى الأعمار بالآجال
أبتِلْكَ راع الكفر أم بسوابح ... تزجي الرّياح بها ذرى الأجبال
في هيئة المختال إلّا أنّها ... تبدو عليها هيبة المغتال
لا يعرف الدّأماء عزّ أديمها ... فعلى سلامتها طلاء الطّال
عيرٌ خزائنها الفتوح وكيلها ... منها إذا شاءت بلا مكيال
يحيى بيحيى من تفاءل باسمه ... ويبين عند القلب صدق الفال
مَلِك إذا لثم الملوك يمينه ... نالوا بذلّ الحال عزّ مآل
وإذا هم خلعوا النّعال له ترى ... قمم العِدى يطؤونها بنعال
قوّى يد النّعمى فما أبقت ... على شيء تمرّ به من الإقلال
وقسى على البوسى فكاد مدالها ... يرثى لما تلقاه من إذلال
كرم كما متع الضحى ومواهب ... منها متاع السّفر والحلال
وأرومة فوق السّهى من رامها ... سهوا تخبّط في حِبال خبَال
ووَلِيّ عهد المسلمين بها يُرى ... في ذروة الشرف الرفيع العال
من كالأمير وكابنه مَلِكان إن ... وُصفا فشمس ضحى وبدر كمال
اثنان متحدان في صحف العلى ... كبراءة مع سورة الأنفال
شرف به أكملته فأصاب من ... سمّى كتاب علاه بالإكمال
يأيها الملك الذي من أصله ... تفريع ذاك الفرع للأفعال
من بسط عدلك في البسيطة أشبهت ... في الأمن ذات الظل ذات الضّال
ففدًى ليوم من ندًى فهمته ... أعمار قوم بالنّدى جهّال
في العين أجسام الملوك وما لهم ... في الخبر إلّا أنفس الأنذال

(1) في ك 233: إعوال.



نزفتهم الأيّام غير صبابة ... كالماء يُكره بعد الاستعمال
/9/ يرجو العفاة من النّوال لديهم ... ما يرتجي العشّاق في الأطلال
وأرى البلاد ولا لعًى لعثارهم ... رمقت إقالتهم بعين القال
ودعا بذات البحر داع للهدى ... لم تعد إن ولته وجه موال
سعد المجيب بها ويا لك باعثا ... منها جوابا كان قبل سؤال
حسناء أغلى مهرها من لم يزل ... مذ كان يرغب في النفيس الغال
وأتتك ضرّتها فكان صداقها ... بالنقد من نعماك لا بالكال
مدّت من الصّحراء جيدا إذ رأت ... من تلك جيدا وهو باسمك حال
فلقد شفى الإسلام من برحابه ... يوماً به أخنى على الضلّال
فالرّوم صرعى أسلموا بنكولهم ... للنار ذات الخزي والأنكال
غزوٌ أبَى إبقاءهم فكأنما قد ... غلّ سابقهم إلى الأغلال
يهنّي الأمير من الفتوح كأنها ... فلق الصّباح ترادف وتوال
قبض المشارق باليمين وعنده ... للمغرب الأقصى فراغ شمال
عجلت إليك بلاده إذ لم تجد ... منك الذي طلبت من استعجال
لا زلت مضطلعا بملك راسخ ... أرض الممالك منه في زلزال
وعرائس الفتح المبين صواحب ... ذاك اللّواء سواحب الأذيال
وعلى السّيوف إذا أمرت بسلّها ... نهب العَدى وعليك نهب المال

أوزع الله الحضرة شكر نعمائه، ونصرها في أرضه بملائكة سمائه، ولا زال شرف مشرفيتها يوم الفخر يزيد على شرف الأنساب، ورواية رايتها خبر النّصر أصح حديث في الباب، للناس في مجالسهم مباحث، وأحاديث تجري عمّا جرت به الحوادث، وما زالوا يحمدون طلب الجلاء في أوقات الشكوك، ومفاضلة العقلاء بين طبقات الملوك، إذ هو ضرب من الأدب ينبئ عن سعة الهمم، ويأخذ بحظ /10/ من تواريخ الأمم[1].

(1) جناس ناقص بين "الهمم ولأمم".

فحدّث من حضر بعض أنديتهم، وانتجع معهم الخصيب والجديب[1] من أوديتهم، أنهم ذكروا فارس ودولتها، والرّوم وصولتها، والدّيلم وشدّة مصالها، والترك وحدّة نصالها، وفيهم مَن ببني بويه[2] باهى، وآخر في حمد آل حمدان[3] تناهى، وجرى المغرب وأن خيله هي العِراب، وماله هو التراب، وجوارحه هي المعلمة، وكتائبه هي الململمة، وجيوش النّصر منه سلت ظباها، وعروش الكفر به حُلّت حباها، ولأهله دربة بالحرب قيس منها تعلم، ودُريد على لسانها تكلّم.

وكان فيمن حضر مَن في أعقاب القول نظر، ولسكوت القول انتظر، وقال خير الكلام ما صدّقه الامتحان، وقام عليه البرهان، وأراكم ذكرتم الأكاسرة ونخوتها، والقياصرة وقسوتها، والترك وأشباهها، والدّيلم وشاهها، وخضتم في الدّولة العبشميّة وما غشمت، والهاشمية ومن هشمت، وآثرتم معادن الرجال، ونثلتم كنائن الأجيال، ولم ترجعوا إلى أصل في التفضيل، ولا أتيتم بما يسلم أو يعترض من الدّليل.

وإنّما يستحق الحمد بجميع الألسنة، والفخر على ملوك الأزمنة، مَن خبت مع ناره نارهم، وخفيت مع قدره أقدارهم، وكان البحر وهُم المذانب[4]، والبدر وهم الكواكب، وقام بما عجزت عنه حُماة سروجهم، وبناة صروحهم، وفتحة مغلقاتهم،

(1) طباق الإيجاب بين "الخصيب والجديب".

(2) بنو بويه أو البويهيون، أسرة فارسية من أصل ديلمي أسّسها أولاد أبي شجاع بويه الثلاثة وهم: عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعز الدولة أبو الحسن أحمد، استولوا على أصفهان وشيراز وكرمان وبغداد. ثم سيطروا على الخلافة العباسية ما بين 334-447 هـ/945-1055 م، وتولى الخلافة العباسية، في هذا الدور الذي ارتبط بتاريخ آل بويه، خمسة من الخلفاء هم المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 6، ص 230 وما بعدها.

(3) يريد إمارة الحمدانيين التي أسسها حمدان بن حمدون شيخ قبيلة تغلب في أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وسّع حفيده سيف الدولة حدود هذه الامارة حتى حمص وجعل حلب عاصمة له، قضى عليهم الفاطميون في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

(4) مفردها مذنب: مسيل الماء في الأرض إلى الحضيض. وأذناب الأودية أسافلها. لسان العرب، ج 1، ص 391.



وسبحة مغرقاتهم، وهو الذي لعبت فتخه بنقانقهم[1]، وصال رُخّه على بياذقهم، وقامت حجّة طلوعه من المشرق فبهتوا[2]، وأرادوا إثبات أسمائهم مع اسمه فكُتِبُوا في الذين كُبتوا، وليس غير هذا الملك المطاع، الحائز من الشرف ما /11/ ينقطع دونه سفر الأطماع، فإنه ملك بلادا[3] أمرها منتشر، وساكنها أشِر[4]، وعزّ أديمها شديد العدوى، وشرّ إقليمها تعمّ به البلوى، ولم تزل على القديم معفّرة الهمم، ومخفّرة الذمم، أعيت على الأزواج صلفا ونشوزا، وعجزت عن الإنصاف نصفا وعجوزا[5].

وكانت الخلافة الفاروقية[6] وهي التي فضّت عن الإيوان سَرَدَه، وزجرت بسوط الهوان يَزْدَجَرْدَه[7]، حتى فرّ وفريت أوداجه، وطلب النجاة فما أغنى عنه تاجه، وقد حقّق النقل، ما دُهي به منها[8] هرقل، وأنّها أرهبت قلوب رهبانه، وأذهبت بطر بطارقته وبهاء باهانه، إلى أن سرّى عن سورية مودّعا، وأصبح جبل عزّه خاشعا متصدعا[9]، ثم عطفت على القبط فطوت بساطها، وحوت صعيدها وفسطاطها، وملأت بسُعُوط الهُون معطسها، ورمت عن قوس المنون مقوقسها[10]، وهي في

(1) الفتخ ومفردها فتخاء: العقاب اللينة الجناح. والنقانق مفردها نقنق: ذكر النعام.

(2) اقتباس من الآية رقم 258 من سورة البقرة.

(3) يقصد افريقية.

(4) أشِر الرجل يأشر أشرا وهو المرح والبطر وقيل هو أشدّ البطر. لسان العرب، ج 4، ص 20.

(5) واضح من هذا الفصل أنّه من المفاضلات التاريخية بين الدول والملوك التي خلص منها ابن عميرة إلى أنّ أبا زكرياء الحفصي هو أفضلهم على الإطلاق لأنه استطاع أن يؤسس دولة في منطقة صعبة الانقياد ودليله في ذلك ما سيستعرضه من معاناة الدول التي ملكت افريقية منذ الفتح الإسلامي حتى عهد أبي زكرياء.

(6) يريد خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين.

(7) هو يزدجرد بن شهريار بن أبرويز، آخر ملوك الفرس، تولى الملك صغير السن فكان الوزراء والعظماء هم الذين يديرون شؤونه، وفي عهده فتح المسلمون بلاد فارس. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 1، ص 298.

(8) كلمة "منها" ناقصة في ك 233.

(9) يشير إلى الفتوحات الاسلامية في بلاد الشام.

(10) يريد فتح مصر على عهد المقوقس ملك القبط.

ذلك يُعرض عليها غزو أفريقية فتعرض عن من عَرضه، وتروي من الأثر الوارد فيها ما ثناه[1] عن ذلك العزم وقبضه[2]، وتشحّ بجيش من جيوش المسلمين أن توطئه حجرة عرائها، أو تلقى بها سحرة صحرائها.

وبعدها سُرّحَ إليها ابن أبي سرح[3]، وفتح باب الطعن على الولاة ما كان هنالك من فتح، وقيل كرى ضرع الخُمس مروان، وزلّ من زال عن الوفاء له دهره الخوّان، ثم هانت على الرّوم[4] صرعتها، وعاودت الكرّة وتلك صنعتها، وانتقضت تلك الناحية مرّة بعد مرّة، ولقيت خيل الإسلام بها كل معرّة، إلى أن هوت أمّ أميّة[5]، وأقفر الرّبع من غيلان وميّة.

وظهرت الرّايات السّود، وقيل لأمر ما يسود مَن /12/ يسود، فضحك للعباسية زمنها العابس، وأسرع إليها البطيء المتقاعس، فلا وَعرَ إلا سلكوه، ولا صعب إلا ملكوه، ولا جانب إلّا دوّخوه، ولا صارخ إلّا أصرخوه، إلا ما كان من إفريقية فإنها رمقتهم بطرفها الأشوس، وعتت على زعيمهم الأحزم الأسوس، ونبت عن صيدها مخالبهم، ولم يَرْوَ[6] عن درّها حالبهم.

ثم نصبت لواء الشيعة، وصبت لما ساء حملة الشريعة، وهنالك ابتلي المؤمنون، وتمنّى أخيارهم المنون[7]، وبعد أن نام عنهم طرفها، وعاهدهم على

(1) في ك 233: ثنى.

(2) يشير إلى استئذان عمرو بن العاص عمر بن الخطاب في غزو افريقية حين قال له: "إنّ الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين افريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل". فكتب إليه عمر بن الخطاب: "لا، إنها ليست بإفريقية، ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت". ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص 297.

(3) هو الصحابي عبد الله بن سعد بن أبي سرح، عيّنه الخليفة عثمان بن عفان عاملا على مصر سنة 25 هـ/645 م بعد عزل عمرو بن العاص، غزا افريقية في حملة طويلة كثيرة الأحداث دون أن يتمّ فتحها. حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 76 وما بعدها.

(4) هم الرّوم البيزنطيون الذين كانوا يحتلون بلاد المغرب وطردهم المسلمون.

(5) يقصد الدولة الأموية التي فتحت في عهدها افريقية.

(6) في ك 233: يرزء.

(7) يشير إلى محنة فقهاء المالكية في افريقية وبلاد المغرب على يد الفاطميين في عهد الخليفة



الوفاء صرفها[1]، شربتهم وارتشفتهم، وشفت منهم بعد أن شفتهم، فكاد عرق السُّنة ينبض، وطرف البدعة يغمض، لولا أنّ الأعراب[2] دبّ هنالك دباها، وما نجع فيها طبّ من أطبّاها، فخرج الأمر عن الضبط، وفني الشوك والورق بطول الخبط.

ثم رماها البحر آخرا ببقية الملثّمة[3]، وإنما جاسها قطريٌّ في طائفته المحكّمة، فما ظنّك بالمرخ لقي العفار، والحلفاء صادفت النّار، وعساكر المغرب يعبّ إذ ذاك عُبابها، وترفع في يفاع العزّ قبابها، فكان كلما صُرع ثبت، ومهما قُلع نبت، وإذا ركد عصف، ومهما قيل انتصف منه عاد فانتصف، حتى تناولت الأهوال بعمومها، وفنيت الأموال بعد جمومها، فما ألقمه الحجر، وضغم ضيغمه فانزجر، وشجّ شجعمه فانطوى وانحجر، إلّا السلف الكريم رضي الله عنه فإنّه الذي حتّ ورقه، وفرّق فرقه، ونزّح من المراق قليبه، وأدنى من الأعراق شبيبه، ومضى لسبيله وتركه وَجل البال، وعل الجبال، وبعد فترة /13/ كاد لها يستقل رئيثه، ويعود لما سكن تحت الرّماد تأريثه، أضاء القمر للسّاري، وأسلمت القوس إلى الباري، وولي أمر الحرب مِدرهها، واستشفى بمسيح البلاد أكمهُها، واستدرك على حملة شرع السّياسة أحفظها وأفقهها، وعمّ بمكارم الأخلاق من عنده أشرفها وأنزهها، وامتطى ظهر الحزامة والشهامة مَن في مربطه منها أكرمها وأفرهُها، فخر الملوك طُرّا، وبحرُهم العذب إذا كان جدولهم مرّا، ومن يعرضهم في البهم الدّهم وإن كانوا

عبيد الله المهدي.

(1) جناس ناقص بين "طرفها وصرفها".

(2) يقصد أعراب بني هلال الذين رحلوا إلى افريقية وبلاد المغرب مع منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وعاثوا فيها فسادا بتحريض من الفاطميين في مصر.

(3) هم بنو غانية الذين استبدّوا بجزيرة ميورقة بعد سقوط المرابطين، وظلوا يحاربون الموحدين ويعملون على استعادة سلطان المرابطين، وقد اشتدّ خطرهم على الدولة الموحدية سيما بعد أن نقلوا صراعهم معها إلى افريقية. وأمام تصاعد هذا الخطر اضطر الخليفة الموحدي الناصر أن يعيّن أبا محمد عبد الواحد الحفصي والد أبي زكرياء عاملا على افريقية لمواجهة بني غانية الميورقيين. ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ص 153 وما بعدها.

محجّلين غُرّا، وهو هذا الملك[1] الذي تجشم الأخطار، وملك الأقطار، وبخّل جودُه المطرَ وأبعد ذكره المُطار.

فانظروا إلى بلاده تجدوه قد لمّت هيبته شعثها، ونفت طيبته خبثها، من بين مرخية على البحر إزارها، أو عاقدة بيد البيداء أزرارها، ومُبتز ظهرها بزّة الاستظهار، أو معتصم معصمها بأسورة الأسوار، كلّ يمجّ لعاب الهون، ويرعى تلاع الهدون، وقد أعطت الأرض جبايتها، وانتظم الأمن باجتها[2] وبجايتها، وقرّت في منازل السّعد قيروانها، وهوت أنجم البؤس التي لزّها في قرنه قرانها، وقبست قابسها نار الأجواد، وزارت توزر[3] فوائد البلاد، وامتدّ لنفّوسة[4] نفس الأمل، وطار عن قفص قفصة[5] طائر الوجل، وجرّدت الجريد[6] ثوب عصيانها، وصحّ رأي الصّحراء في طاعة سكانها، وتلا لسان تلمسان آية الاعجاز، وطرب باسم طرابلس وفد العراق والحجاز، وهذا ظلّ السّنة في كل مدينة مُنسدلٌ، وجدال البدعة في أخبث طينة مُنجدلُ، وأهل المياه في صَفوها يردون، /14/ وسكّان المدن بَرْدَ عافيتها يجدون[7]،

(1) هو الأمير أبو زكرياء الحفصي المكتوب إليه.

(2) اسم لعدة مدن والمقصود هنا باجة افريقية وهي مدينة معروفة بها آثار قديمة، اشتهرت بإنتاج القمح لكثرته بها. مجهول، الاستبصار، ص 16.

(3) توزر هي قاعدة بلاد الجريد وليس في بلاد الجريد غابة (النخيل) أكبر منها ولا أكثر مياها، وأصل مياهها من عيون تنبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في واد متسع. التجاني، الرحلة، ص 157 وما بعدها.

(4) اسم الجبل والقبائل البربرية التي تسكنه، يقع في ليبيا وطوله من الشرق إلى الغرب ستة أيام، وبينه وبين القيروان المسافة نفسها، وفيه مدن كثيرة. مجهول، الاستبصار، ص 144.

(5) مدينة معروفة بتونس وهي متوسطة بين القيروان وبين قابس، ولعله يشير هنا إلى ما عانته هذه المدينة من شدائد وقاسته من أهوال أيام تداولها بين الموحدين وبني غانية الميورقيين في صراعهم، وثورة أهلها قبل ذلك بزعامة ابن الرّند. وقد أشاد صاحب الاستبصار بهذه المدينة لكثرة مياهها وجمال نسائها وتنوع خيراتها وتعدد صنائعها. مجهول، الاستبصار، ص 150 وما بعدها.

(6) بلاد الجريد آخر بلاد افريقية على طرف الصحراء، سميت بذلك لكثرة النخيل بها، قاعدتها توزر وبها مدن كثيرة، كثيرة الخصب والتمر والزيتون. مجهول، الاستبصار، ص 150.

(7) احتفل ابن عميرة في هذا الفصل بالأسلوب واهتم بالبديع ورجع إلى جناس الاشتقاق الذي عرف كيف يستغله ويوفق بين أفعاله وبين أسماء المدن المذكورة.



والسّياسة إذا نفضت فجاجها، وعرضت حجاجها، تشهد بأنّ نظر المولى هو مُزَني تصنيفها، ومازني تصريفها، وحكم فتاة حيّها[1]، وتحقيق تلاوة أبيّها[2]، وفرّاء[3] هاديتها، وفراهيدي[4] وزن أبياتها، ودعوى زيّاد معه فيها مضاء غرب، شبيهة بدعواه في آل حرب، وليس نار اليفاع من نويرته، وهل اتسع بصره لأكثر من بصيرته.

ونظر المولى يحيط بالأقاليم، ويستقل بالعظيم، يرمي به العربَ فيخطم مصاعبها، ويصرفه إلى العجم فيحطم عَصَائبها، ويرسله في البحر فتخفق أحشاؤه، ويحمله على البرّ فتتفق أذؤبه وشاؤه، وسعده قد ملك المشتري تدبيره، وحمده قد ضوعت بنان البيان عبيره، وشعشعت يد ندمان الزمان كبيره، وهذه المسالك ما عاصر منها أخبر عنه نقل أو عيان، وما مضى ففي التواريخ منه بيان، على أنّ الذي فيها ماء مُضاف، وشوب كذبه من حقّه أضعاف، يبذل الواحد منهم الدّرهم فيقال هي البدرة في وعائها، والشاة فيحدّث أنّها الهنيدة[5] برعائها، ويقعد أملس الجلد فيُمدح بأنّه دريئة السّمهريّة[6]، وينظر بعين الخلد فيشهد له أنّه ربيئة السّريّة، وربّما جعجع في مسألة من الخلاف فيُدَوّن في العلماء، ودَخّن ببعض الحشائش فيكتب في الواصلين إلى الكيمياء.

إلا أنّا نسلّم لهم ما نقلوه، ولا نعترضهم فيما تقوّلوه، ونقول هل فيما

(1) يريد قول النابغة الذبياني في زرقاء اليمامة يخاطب النعمان:

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت    إلى حمام سراع وارد الثمد

واليمامة اسمها وبها سمي البلد، وكان اسمها عنز وهي من بنات لقمان بن عاد ومن الحكيمات. وهي التي قيل فيها: "أبصر من زرقاء اليمامة". و"أحكم من لقمان ومن زرقاء اليمامة". الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 155 و309.

(2) هو أبيّ بن كعب بن قيس الأنصاري من الصحابة، كان من القرّاء ومن كتّاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ابن عبد البر، الاستيعاب، ص 21 وما بعدها.

(3) أبو زكرياء يحيى الفرّاء الإمام اللغوي المعروف.

(4) الخليل بن أحمد الفراهيدي أول من استخرج علم العروض.

(5) الهنيدة: اسم للمائة من الإبل. لسان العرب، ج 3، ص 437.

(6) يريد الرّماح السمهرية نسبة إلى رجل يقال له سمهر وزوجته ردينة، كانا يقوّمان الرّماح ويبيعانها. والسمهري الرّمح الصليب العود. لسان العرب، ج 4، ص 381.

أثبتّم[1] من معقول أو مردود، وكتبتم من معهود وغير معهود، مَن صال على الأيّام صياله، واستقل بالأمور الجسام استقلاله، /15/ أو ربَّ المعروف ربّه، ورأب الصّدع المخوف رأبه، بل مَن له حصاة من يذبله، أو حصّة من الكرم الذي في أنمله، بل مَن يقدر على قطرة من بحاره، وخطرة من أفكاره، أو سطر من ديوان أخباره، أو موضع قدم في إيوان فخاره، لا في عصره فليس بعجب، ولا مع أهل زمانه فكل من حسد الشمس نورها في تعب، بل في الماضين الذين بذمام الدهر أخذوا، ولفلذة كبد الدّنيا فلذوا، فاعتبروا البون، وقيسوا ما سمعتم على ما ترون، فالنّظر في الدّليل يقضي إلى العلم، والفرق سهل بين حقيقة المسمّى ومجاز الاسم، فعرف القوم له صحّة الحجّة، ووضوح المحجّة، وأجمعوا على[2] أنّه لا تشتبه الأقوال والأفعال، ولا تستوي القلانس والنّعال، ومَن يشكّ في أنّ السّماء مَحلّ الدّراري، وابن السماء هو ابن الحواري، بل مَن يقرن قوة الملك لضعف العواري، ويقوّم الدّيباج بقيمة البواري، والمعالي تلد الرجال والولد للفراش[3]، والحق كالشمس[4] إنّما يخفى على مثل أعين الخفاش[5].

وقد وصل المملوك هذا الخبر الذي طوله مظنّة السّآمة، وسفر القلم فيه على خطر من السّلامة، بنظم ينفي خوف الملل باثباته، ويختم خدمته بأبياته وهو[6]:

(1) في ك 233: أتيتم.
(2) في ك 233: كلمة "على" ناقصة.
(3) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: "الولد لصاحب الفراش". وإلى المثل العربي القائل: "الولد للفراش وللعاهر الحَجَر". يضرب لمن يرجع خائبا باستحقاق. الميداني، مجمع الأمثال، ج 2، ص 423.
(4) تشبيه مجمل شبه الحق في ظهوره بالشمس فذكر المشبه والمشبه به والأداة وحذف وجه الشّبه.
(5) واضح من هذا الفصل الذي يواصل ابن عميرة الإشادة فيه بأبي زكرياء الحفصي أنّه ينتقص من بعض الملوك المعاصرين له خصوصا الموحدين منهم الذين تناولهم بالغمز.
(6) ذكر ابن سعيد الذي أورد 15 بيتا من هذه القصيدة، أنّ ابن عميرة مدح بها أبا زكرياء الحفصي وهنّأه بمناسبة موت الخليفة الموحدي أبي الحسن علي بن إدريس الملقب بالسعيد والمعتضد. ابن سعيد، اختصار القدح، ص 44. وكان مقتل السعيد بضواحي تلمسان على يد الأمير الزياني يغمراسن بن زيان يوم الثلاثاء منسلخ شهر صفر من عام 646 هـ/1248
=



[المنسرح]

كنتُ بأمري من لائمي أبصر ... فما عليه لو أنّه أقصر
وما له غير عاذر دنِفا ... بكلّ وجه يجوز أن يُعذر
ليس بنشوان في الغرام يرى ... مُنكر ما فيه ليس بالمنكر
يأخذ منه بقدر طاقته ... لا يتعدّى به إلى أكثر
ورأيه فيه والهوى خُدعٌ ... يحذر منها اللّبيب ما يحذر
/16/ رأي العراقي في النبيذ فما ... يحرم منه إلّا الذي أسكر
ورُبّ خُمصانة مُهفهفة لها ... من الظبي مقلة تسحر
تقول أدماء رامة فإذا ما ... عرضت قلت دمية المرمر
غصن من البان راق ناعمه ... تمنعه الذّابلات أن يهصر
ومورد ينقع الضمير أتى ... من دونه نقع خيله الضمّر
يا لك عهدا مضى ومرتبعا ... كان به العيش مثله أخضر
وجيرة منهم الدّيار خلت ... ومنزل الصّبر بعدهم أقفر
جمّعهم دهرهم فكان كمن ... شحّ وألقى بهم كمن بذّر
وعاد قلبي من شوق أندلس ... عيد أسى فتّه وما فتر
فأين منّا منازل عصفت ... ريح عليها من العدى صرصر
ودون شقر ودون زرقته ... أزرق يحكي قناه أو أشقر
و[هم] حربٌ لنا وهم وشل ... سالمه الواردون فاستبحر[1]
إنّا لنرجو للدّهر فيئة ... من أناب ممّا جناه واستغفر
ونرقب الكرّة التي أبدًا بها ... على الرّوم لم نزل نخبر
إنّ الصّليب الذي عزوه إلى ... عيسى بيحيى[2] قد آن أن يُكسر

=
م. ابن عذاري، البيان (قسم الموحدين)، ص 387.
(1) في ك 233: الرّوم.
(2) هو الأمير أبو زكرياء الحفصي ممدوح ابن عميرة.

ويعبد الله وحده وترى … القلة في حزب من له كثر

بناصر الدين حين لا أحد … سواه دين الهدى به ينصر

فارس والرّوم في كتائبه إلى … الجماهير من ذرى حِمير

فقل إذا لاح بينها قمرا … مَن تُبّع[1] مَن قباذ[2] مَن قيصر

معوّد البيض أن يكون لها … مشهّر الفتح عندما تشهر

ومطعم النّسر من ذبائحه … أسد العدى كلما فرى أبهر

بكلّ أرض منها له نسك … مِنًى كما جاء كلّها منحر

من سأل القصد منه يوم ندى … فإنّه السّائل الذي يُنهر

/17/ ومن عصى أمره فذاك أبو … اليتيم حقا[3] وطاعة يقهر

من الأُلى تشتكي نواظرهم … ما جعلوا كحلها سوى العِثير

وغير أسماعهم معوّدة من … رجّة الجيش رنّة المزهر

إن فاخروا الناس فالفخار لهم … أو كُوثِروا بالحصى فهم أكثر

حامي ذمار الإسلام في زمن … ذمّته بين أهله تخفر

ومنتضي الحقّ صارما ذكرا … لم يخش حدّيه غير من غيّر

ونجله الطاهر الكريم أبو … محمد نعم سيّد المعشر

كم ناعق في الضلال أسكته … ومقدّم بأسه له أخّر

يقدّ هاما والبيض مغمدة … ويرسل الشهم وهو ما وتّر

ويفرس الليث عند خيسته … فكيف ينجو منه إذا أصحر

(1) هم قوم سبأ من عرب حمير الذين أهلكهم الله وخرّب بلادهم وشرّدهم في البلاد، وقد ورد ذكرهم في القرآن، وكانوا كلما ملك فيهم رجل سمّوه تبعا، كما يقال كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، والنجاشي لمن ملك الحبشة. تفسير ابن كثير، ج 6، ص 256.

(2) هو قباذ بن فيروز بن يزدجرد من ملوك الفرس. ابن الأثير، الكامل، ج 1، ص 241 وما بعدها.

(3) كلمة "حقا" ناقصة في الأصل والزيادة من ك 233.



أرومة فرعها أبو زكرياء … سناها كالشمس بل أظهر

خير أمير درى إضافته … للمؤمنين الإيمان فاستبشر

نادى بها تألف الهدى فرمى … شوقا إليه يسمعه المنبر

ومشرق الأرض للصلاة بها … قام وغرب البلاد قد كبّر

يا عصبة الحق ما لأرضكم … بغاثها حين غبتم استنسر[1]

أهملتم سرحها فغاثية تشكو … وأخرى لجنبها تيعر[2]

وبعض ذؤبانكم قد افترست … أسادها هذه التي تزأر

ثوروا لها يا بني الكرام إذا … شئتم ففيها ثأر لمن يثأر

وقد رأيتم سيف بن ذي يزن … لأرضه عاد بعدما أعذر

وصنعه في [صنعاء] أورثه من … درك الثأر ما به يُذكر[3]

وليس كسرى على الحقيقة مَن … يحيى[4] ولكن سلطانه أقدر

والقرن ولّى عنكم ومبصره … يتلو عليه ﴿واللّيل إذا أدبر﴾[5]

يمشي من الرّوم بين زعنفة … فيه وفيهم يحار من فكّر[6]

/18/ وما رأى الناس [قبله] عجبا … أبرهة حوله بنو الأصفر[7]

(1) يشير إلى المثل العربي القائل: "إنّ البغاث بأرضنا يستنسر". والبغاث ضرب من الطير والجمع بغثان، صار كالنسر في القوة عند الصيد بعد أن كان من ضعاف الطير. يضرب للضعيف يصير قويا وللذليل يعز بعد الذل. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 18.

(2) في ك 233: ثاغية.

(3) في اختصار القدح: صنيعاء.

(4) في اختصار القدح: يجني.

(5) الآية رقم 33 من سورة المدّثر.

(6) يشير إلى اعتماد الخليفة الموحدي السعيد في جيشه على الجنود الإسبان. ومن المعروف أنّه ابتداءً من خلافة المأمون أصبح جلب الروم في الجيش الموحدي نتيجة اتفاق يتم مع ملوك النصارى في اسبانيا، وقد حرص الرشيد على استخدام النصارى، وتابعه السعيد، واستزاد منهم المرتضى الذي كان عل صلة وثيقة بالبابا. وقد كان استخدام الروم والاعتماد عليهم من المآخذ الأساسية التي استغلها خصوم خلفاء دور الانحلال. عز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي، ص 229.

(7) في اختصار القدح: مثله. وفي هذا البيت يعيّر ابن عميرة الخليفة السعيد بسواد لونه حين =

من فائل الرأي فيله وعلى ... تدبيره جاء كل من دبّر

يا مالكا لم يزل بهيبته ... يفعل ما ليس يفعل العسكر

حبّرتُ مَدحي وما يفي أبدا ... بمدح علياك مدح من حبّر

وهجرتي إن بها سُبِقتُ فكم ... أدرك من راح فضل من بكّر

وأجر من صام ليس ينكر أن ... يكون أوفى من أجر من أفطر

والشعر كالماء غير حافره ... يروى وكم غاص منه ما يُحفر

هذا أبو الطيب استخف به ... ونام عنه وغيره يسهر

فجاءه منه في المدائح ما ... كنا نرى أننا به أجدر

كي نحمل المستجاد منه إلى ... من فاخر الشعر باسمه يفخر

وسوقة الشعر كان يجعله ... في سوق نقصها لها أمر

كأنّما جملة الفضائل في يديك ... قد ألقيت وقيل اختر

تفعل أفعالها ونفسك لا تعيا ... بشيء منها ولا تضجر

صدورها عنك كالدّواء إذا ... يفعل فعلا بجملة الجوهر

فابق كما أنت لا مزيد على ... مالك من منظر ومن مخبر

ولا يَعُقّنك الزمان فقد ... صار عقوق العبيد لا ينكر

والسلام الكريم الطيب المبارك المردّد يتّصل ويتوالى على المعاهد العليّة، المقدّسة المباركة السنّية، ورحمة الله تعالى وبركاته.

-147 -

## وكتب إلى الأمير الحفصي

الحضرة العليّة نوّر الله بصيرتها وتبصّرها، وزان عصرها كما شرّف عنصرها، وتكفّل لها جلّت قدرته بأن يعضدها /19/ ويهب لها من العوارف والخير الوارف الواكف مواهب تعجز الألسنة أن تصفها وتحصرها، عبدُها المقتبس من نور هداها،

---

شبّهه بأبرهة الحبشي. وقد ورد في صفته أنّه كان أسمر اللّون شديد السمرة. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 336. ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص 359.



الملتمس بركة رأيها ورعيها، الباذل جهده في طاعة أمرها ونهيها، فلان[1].

فكُتِب كتب الله للمقام العلي الكريم نصرا على أعدائه، وسعدا يلبّيه الفتح قبل ندائه، من فلانة[2] وبركاته المطيفة بأهل الإسلام، المنيفة على قطر الغمام، قيد الأوابد، وحي الوارد، وحياة الهامد، والله يبقيه عصمة في الشدائد، وثمالا للغائب والشاهد، والعبد يعدّ أوقات الخدمة غُنما، ويمضي في سبلها قدما، ويستقرّ في مأموراتها قولا قولا وحكما حكما، والله ينهضه منها بوظائف تشغل الذّمم، وحقوق تسترق الأمم، وما يجد ببركة الإمارة العليّة أيّدها الله إلا كلّ خير عن مقدّماتها صحّت نتائجه، وبكلماتها وضحت مناهجه.

-148 -

## بيعة أهل بجاية لمحمد المستنصر الحفصي بولاية العهد[3]

الحضرة العلية نصر الله لواءها وأولياءها، وحمى جوانبها العزيزة وأرجاءها، وشكر عن الإسلام وأهله أياديها وآلاءها، ولا زال نصرها يؤيّد أعدادها ويبدّد أعداءها.

فكتب العبد كتب الله للمقام العليّ الكريم عزّا يطأ الكواكب، وسعدا يفضح الكتائب، ورأيا يجمع حظه المواهب وفقه المذاهب، من فلانة[4] وبركاتها التي لها فيض البحار، ووضح النّهار، تخرق المعتاد، وتقيم المنآد، /20/ وتملأ الرُّبا والوهاد، والحمد لله الذي قضى للحضرة العلية بأن أسعد إدارتها، وأيّد إمارتها، وجدّد لأيّامها السعيدة بهجتها ونضارتها، وعند العبد من بذل المجهود في الخدمة، والقيام بحقوق النعمة، ما تقتضيه العبودية التي نسبتُها شرّفته، وإضافتها عرّفته، وحُرمتها بفنائها

---

(1) هو ابن عميرة كاتب الرسالة، وقد يكون كتبها عن غيره.

(2) لعلها بجاية أو واحدة من مدن افريقية الحفصية.

(3) كتب ابن عميرة هذه الرسالة عن أهل بجاية أو رجال السلطة فيما يبدو، وهي تعلم بوصول خبر البيعة بولاية العهد للأمير أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء الحفصي التي انعقدت بتونس بعد موت أخيه أبي يحيى زكرياء في أواخر سنة 646 هـ/1248م.

(4) هي مدينة بجاية التي وصلها ابن عميرة في هذه السنة قادما من سبتة.

ألحقته، وبرداتها ألحفته[1].

ووصل الكتاب العلي الكريم وصل لله شرف أوامره، وتأثّل مفاخره، في حلل الكمال والبهاء متهاديا، وإلى الفوز والنجاة داعيا وهاديا، ونحو الأمر الذي يُزهي به الإسلام والأنام مُهيبا ومُناديا، فتلقاه العبد بإعظام حضوره، ولثم سطوره، والاستضاءة بمصابيح سناه وأشعة نوره، وتعرّف منه خبر البشرى التي جرّ لها العصر ذيله تيها، وأقرّ عندها الزمان أنه لم ير لها شبيها، بما رآه المقام الكريم من ولاية العهد لسيدنا ومولانا[2] فكان ذلك عنده محلا لسجدة الشكر، ومستقلّا بالفائدة التي هي أعظم فوائد العمر، وحمدا لله على منته التي تجلّ أن توازيها المنن، وتكبر أن تنسب إلى الزمان فيقال جاد بها الزمن، فأيّ بشرى ما أنقع للغلل، وأجمع للنّهل والعلل، وأحمى لسرب الأمل، وأصمى لشاكلة الصواب في القول والعمل، أما إنّ حقّها أن تفدّى بسواد الحَدَقة، ويوفى لها بنذر كامل من الصيام والصّدقة، فلقد جاءت على قدر، ووفت مواردها بأفضل صدر.

وتضمن الكتاب الكريم تمام هذا العقد السعيد في الحضرة العلية[3] على أسعد طائر وأيمنه، وأوضح منهاج من الكمال وأبينه، وأن /21/ يسلك أهل هذا الموضع[4] ذلك المسلك الكريم، ويقدّموا منه عملا بكلّ اعتبار يستحقّ التقديم، فجُمع الناس لميقات يومه الأغرّ، وقرئ عليهم نصّه الطالع طلوع القمر ليلة البدر، فسرى السّرور في جوانبهم وجوانحهم، وشاع المرح والفرح[5] في دانيهم ونازحهم، وعلموا أنّ عناية المقام الكريم بهم لا يغبّهم متعاهدها، ولا يخطئهم غائبها وشاهدها.

وقد دُعوا إلى هذا العقد المبارك فلبّوا الدّعاء، وابتدروا أمره الذي أشرق يومه وأضاء، وأكملوا عقد بيعتهم بنفوس لها من الخلوص قائد وسائق، ونيّات ليس

(1) جناس ناقص بين "ألحقته وألحفته".
(2) هو أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكرياء الحفصي.
(3) هي العاصمة الحفصية تونس التي تمت فيها البيعة أولا.
(4) يقصد مدينة بجاية التي وصلها الكتاب مخبرا بالبيعة.
(5) جناس ناقص بين "المرح والفرح".



منها إلا ما هو بالطاعة معتصم وإليها سابق، وقد وقف العبد لهذه البشرى على قدم الخدمة، وشكر الله على ما أولاه بها من النعمة، ويرجو أن يكون من الذين يقدرونها حق قدرها، ويتنسّمون روح المُنى من ضوع نشرها وضوء فخرها.

-149-

## تهنئة المتوكل ابن هود بفتح مدينة لبلة والتغلّب على الثائر بها

الحضرة العلية أبقى الله ظلّ ملكها على العباد، وعرّفها من تأييده وإنجاده أفضل المعتاد، وجعل لها من اللّجاء إليه والتوكل عليه أكثر الجموع وأكثف الأعداد، ولا زالت أحاديث نصرها سالمة المتون صحيحة الإسناد، وصحائف فتوحها تجمع صلاح العباد، وتطلع صَباح البشائر من ليل المُراد، عَبدُها ومملوكها السّالك من الخدمة والنصيحة السبيل[1] التي يجب سلوكها، فلان[2].

وبعد، فكتب العبد كتب الله للمقام العلي [المجاهدي المتوكّلي][3] سعدا يردّ الصّعاب ذللا، /22/ وسعيا يسدّ من المكاره سبلا، وأمدّه بملائكة رسله ﴿**جاعل الملائكة رسلا**﴾[4]، من فلانة[5] وبركاته مُروية للظّماء، وحركاته مُسكّنة للدّهماء، وآثاره في يومي سلمه وحربه آثار الأشدّاء على الكفار الرّحماء[6]، والأرض بوضوح محيّاه وفتوح أسنته وظباه تهتزّ أعطافا، وتعتزّ مواسط وأطرافا، وتبرز في أثوابها القشب فيزداد حسنها أضعافا، والأيّام بالبشائر التي فضّت ختامها عفوا على قدر،

(1) في صبح الأعشى: الطريق.
(2) أورد القلقشندي في صبح الأعشى أنّ ابن عميرة كتب هذه الرّسالة إلى المتوكل ابن هود القائم بالدعوة العباسية بالأندلس عن بعض أتباعه، ولكنه أغفل تسمية المكتوب عنه. صبح الأعشى، ج 7، ص 94.
(3) الزيادة من صبح الأعشى.
(4) الآية رقم 1 من سورة فاطر.
(5) هي مدينة شاطبة التي كان يتولى ابن عميرة قضاءها.
(6) اقتباس من الآية رقم 29 من سورة الفتح.

وسقت مُنسابها(1) صفوا بلا كدر، لها أنف الشامخ تِيها، ووجه الضاحك المتهلّل إشادة بحالها وتنويهاً، ودلالة على رحب مجالها وتنبيها، والحمد لله حمد من عرف قدر نعمائه فوفّى حق أسمائه تقديسا وتنزيها(2).

وإنّ الخطاب(3) العلي الكريم وَرَد رَاصفا أجلّ الدُّرّ، واصفا أجمل الفتوح الغرّ، رافلا في خُلَع(4) الأيد والقهر، رافعا منسأة الحوادث بإحدى بل بأجدى حسنات الدّهر، فيا له من كتاب أُودع بدائع الكلم، وجوامع البيان الملتئم المنتظم، لو استمدّ سناه أوّل الفلقين لم يك كاذبا، ولو أُعير مُحياه ثاني الشفقين كان عن ضوء النهار نائبا، ذكّر بأيّام الله المشهودة بالملائكة والرّوح، ومدّ باع الكلام في ذكر فتح الفتوح، وأطال ذيول القول مقتادا(5) منه للصعب الجموح، فكان الغزير الصّيّب، والكثير الطّيب(6)، والمُتّبع إن مضى بقلوب وأسماع، والمضاعف حسنه إن كُرّر إلى غير انقطاع، كيف لا وقد بشّر خبره بالمُراد والمراد، وأوقع اليقين بما خرق العادات من الإسعاف والإسعاد، وكان من آحاد الأخبار لا من أخبار الآحاد.

وممّا اقتصّه ما جرى من أوّل الحركة /23/ السعيدة، واعترض من المتاعب الشديدة، وأنّ الشّتاء كان في ابتدائه، والغيم ساحب لردائه، سَاكب فضل أندائه، والمكاره في طيّها النّعم الجسام، والنفوس الكبار تتعب في مُرادها الأجسام، ولذلك هانت على المقام العلي الكريم تلك المشاق، وَرَجا من عمله ونظره ما جنى

(1) في صبح الأعشى: وقضت مسامها.
(2) يشيد ابن عميرة في هذا الفصل بالنعم والخيرات التي كان يرفل فيها الناس في ظل أيام إمارة ابن هود.
(3) يريد الخطاب الذي بعثه ابن هود إلى شاطبة مبشرا بفتح مدينة لبلة، حيث وصف ابن عميرة بلاغة وتأثير هذا الخطاب في نفوس أهل شاطبة رعايا المتوكل ابن هود، ثم أشار إلى ما ورد فيه من أخبار هذا الفتح وما اعترض الأمير من المتاعب الشديدة والمشاق الجسيمة في سبيل تحقيقه.
(4) في صبح الأعشى: حلل.
(5) في صبح الأعشى: مفتاحا.
(6) جناس ناقص بين "الصّيّب والطّيب".



من ثمره القاطع العاق(1)، فسار إليه بالجحفل الأجفل، والعزيمة الزعيمة بفضّ المقفل، ورضّ الأعلى والأسفل(2)، وقد اغترّ بأجلّ المدائن(3) شأنا، وأوثقها بنيانا، وأبعدها صيتا وأبدعها مكانا، وهي التي أعيت رياضتها كلّ رائض، وسخرت بكل قاعد بعقوتها(4) رابض، وجمع إليه من طرداء الآفاق، وأعداء الإجماع(5) والاتفاق، أتباع كل ناعق، وأشياع كلّ مارد مارق، فاستحلّوا الدّماء، وركبوها مضلّة عمياء، وأدرك كلّ منهم ممّا ساء الإسلام ما شاء، وعدوّ الله يفتل لهم في الذروة والغارب، ويضرب بهم سكّان البلد ضرب الغرائب، حتى أباد خضراءهم، وخلفهم(6) شرّ خلف فيمن وراءهم، غير مُبال بما احتقب من الجرائر، واقترف من إباحة الحرائر(7).

فأجرى(8) مدّة بالخلاء(9)، وازداد إثما بالإملاء، وحينئذ سمت إليه عساكر الإسلام، وناولته بالموت الزّؤام، ورأى عيانا ما كان يطير له قلبه لو رآه في المنام، وتداولته المطاولة المستدرجة، والعاجلة المزعجة، وفي كلّ ذلك ذاق عذاب الهون، وأحسّ بقاصمة المتون، وقاضية المَنون، وانقسمت شدّته إلى المُهلكَين: خوف وإعدام، واستكملت مدّته تسعة أشهر وُلِدَ(10) الفتح عندها لتمام، /24/ وإنّه للوَلَدُ

(1) هو الثائر محمد بن شعيب بن محفوظ الذي كان قد فرّ من اشبيلية إلى لبلة فاعتصم بها وتسمّى بالمعتصم، وذلك عندما غدر ابن الأحمر بالباجي. ابن عذاري، البيان المغرب، ص 331. ابن خلدون، العبر، مج 4، ص 203.
(2) طباق الإيجاب بين "الأعلى والأسفل".
(3) هي مدينة لبلة المفتوحة. وقد ذكرها ابن سعيد الذي أورد قطعة من هذه الرسالة في اختصار القدح. وتقع هذه المدينة المتوسطة القدر المعروفة بالحمراء في غرب الأندلس، وتبعد عن البحر المحيط بستة أميال، وعن طليطلة بعشرين ميلا، وهي معروفة بعيونها ومناعة سورها. ابن سعيد، اختصار القدح، ص 45. الحميري، الرّوض المعطار. ص 507.
(4) في صبح الأعشى: قنونها.
(5) في صبح الأعشى: أعداد الاجتماع.
(6) في صبح الأعشى: جعلهم.
(7) جناس ناقص بين "الجرائر والحرائر".
(8) هنا يبدأ المقطع الذي أورده ابن سعيد، من هذه الرسالة، في اختصار القدح، ص 45.
(9) في صبح الأعشى: فاجترأ مدّة بالجلاء.
(10) في صبح الأعشى: وكان.

الذي هُنّيء به الإسلام، وعقمت[1] بمثله الأيّام، واستبشر بوجوده الأنام، فما أعلى مقامه، وأبهج أيّامه وأسعد عامه، ولا غرو أن تكون غرّته أبهى الغرر، ومفتتحه مباركا على البشر، وقد أسفر عن أيمن وجوه النُّجح، وخرج من عموم الأعوام[2] بمخصّص هذا الفتح، وانتقم الله فيه من الشقيّ الظالم، العظيم الجرأة على ارتكاب المظالم، فطاح بموبق أعماله، وعجّل الله به إلى ما أعدّ لأمثاله، وكان دمه شرّ دَمٍ أريق[3]، وأديمه أخبث أديم لاقى التمزيق[4]، والحمد لله الذي نصر الرّاية الإمامية[5] وأعلاها، وأظهر آية عنايته وجلّاها، وأسبغ نِعمه الجسيمة ووالاها.

وحين ورد هذا النبأ أندى من قطر الندى على الأكباد، وسَرَى في البلاد سريان الأرواح في الأجساد، كَلِفت به الأسماع والأسمار، وسَمَت به وإليه الأمصار والأبصار[6]، واستقرّ من ارتجاع البلد، وانتزاع النفس الذاهبة إلى خزي الأبد، حكمان مدركهما الفعل والإقرار، وعملان تمّ بهما المُراد والاختيار، فرفعت الأدعية إلى سامعها، وغصّت الأندية بحاضري مجامعها، وذاعت البشرى فيا حسن ذائعها وشائعها، وأذعنت الآمال لأدنى نازحها وشاسعها.

وأخذ العبد من المسرّة بِحظّ أخلص العبيد مشهدا ومغيبا، وأوفرهم من الطاعة نصيبا، وأجمعهم لمعالي الجدّ تطنيبا، ولمغاني الثناء والمجد تطييبا، وجدّد من شكر الواهب لجزيل هذه الهبة، والفاتح لأعظم المعاقل الأشبة، ما يستغرق المُدَد ولا يبلغ الأمد، وأنّى له أن يصف البشرى الواصلة، أو ينصف /25/ الغاية[7] المتطاولة، ولو حَلبَ أشطر الإحسان، وجَلَبَ أبْحُرَ البيان، فكيف والفكر قد قعد

(1) في صبح الأعشى: ضنّت.

(2) في صبح الأعشى: الأيّام.

(3) عكس ما ذهب إليه ابن عذاري من أنّ ابن محفوظ لم يُقتل، بل عاد إلى لبلة وبقي فيها إلى أن غلبه عليها النصارى سنة 661 هـ/1262م، وانتقل هو وجماعته إلى مراكش وصار من قوّاد الجيش الموحدي. البيان المغرب، ص 430.

(4) وهنا ينتهي المقطع المشار إليه في اختصار القدح.

(5) في صبح الأعشى: العبّاسية.

(6) جناس ناقص بين "الأسماع والأسمار"، وبين "الأمصار والأبصار".

(7) في صبح الأعشى: المقالة.



حَصِرا، والمدى لا يأخذه[1] التقدير قِصَرًا[2]، والقول لا يجيب مُطوّلا ولا مختصرا، فحسبه دعاء هو له رافع، ولأوقات الخلوات به قاطع، وإلى الله سبحانه في قبوله ضارع، والله يجيب في المقام العلي أفضل دعاء الخلق، ويضاعف له مع السّابقين ثواب السّبق، ويجزيه خير الجزاء بما أذاله من الباطل وأداله من الحق، وهو تعالى ينصره يوم البأس، ويعصمه من الناس، ويُبقي رفده للاكتساب ونوره للاقتباس، ويعرّفه في كلّ ما يستنبطه من أصل التوكل صحّة القياس، بمنّه.

– 150 –

## تهنئة ابن هود بشهر رمضان

الحضرة العليّة حفظ الله أنوارها وأنواءها، ونصر جنودها وأعزّ لواءها، وباعد عنها بأساءَ الأيّام ولأْوَاءها، وجمع على طاعتها قلوب الأمّة وأهواءها، عبدها الرّاجي بركة رأيها ورعيها، الموجب طاعة أمرها ونهيها، فلان[3].

فكتب العبد كتب الله للمقام العلي الكريم من نصره أفضل المعهود وأصدق المواعد، وأجرى لتثبيت عُلوّه وتبكيت عَدوّه نجوم السّعد المساعد، من فلانة وبركات أيّامه لها من الشمس آياتها، وبها قوام هذه النفوس وحياتها، ونواسم أنبائه إذا نفحت برَيّاها، وسفرت عن مُحَيّاها، هي أندى على الأكباد، من سبل العهاد، وانتهى إلى النفوس، من النعيم عقب البؤس، فإن عرض عارض يرفع الدّرجات ثوابه، وينشر عن النجاة كتابه، جاءت /26/ البشرى معه رَوحًا يذهب الحَرُورَ، وصُبحًا يمحو الدّيجور، فالحمد لله الذي كفى ما أفاد أجرا مَذخورا، وأعطى ما ملأ الدّنيا حُبورا وسرورا.

وهنيئا للإسلام وأهله نفحة من نفحات ربّهم يجدون بردها، وشربة من كوثر رضاه عنهم لا ظمأ إن شاء الله بعدها، وليس شيء أولى بهم في هذه المنّة التي حملوها، والأيّام المباركة التي استقبلوها، من دعاء للنيّات في وصوله يخلصون،

(1) في صبح الأعشى: يؤاخذه.

(2) في صبح الأعشى: قسرا.

(3) هو ابن عميرة كاتب الرسالة.

وعلى طلب أوقات قبوله يحرصون، بأن يضاعف الله فيها ثواب المقام الكريم، ويرزقه بها درجة الثاوي المقيم، وبركة الآيات والذكر الحكيم، ويعيد الشهر المبارك عليه إلى أبعد أمد، ويحفظه فيه وفي غيره بأطوع جند وأطول يد، والعبد بهذا الدّعاء يُعنَى، وما عند الله خير للمحسنين الذين وعدهم الحسنى، بلغ الله بالمقام الكريم أكلأ الأعمار، وأبقى بهجة أيّامه بقاء الشموس والأقمار، وحديث نصره نهزة الأسماع ونزهة الأسمار[1].

-151 -

## وله من رسالة عن زيان بن مردنيش صاحب مرسية إلى الأمير الحفصي

الحضرة العلية المعظمة [المباركة السامية السّنيّة][2] حضرة مولانا [الأمير الأجل الهمام المؤيّد الأسعد الأعلى المبارك الأطهر الأطول الأشرف الأفضل الأسنى][3] أبي زكرياء [ابن الشيخ المعظّم الموقر المرحوم الأعلى الأكمل][4] أبي محمد [ابن الشيخ المعظّم المكرّم المقدّس المجاهد الأرضى][5] أبي حفص، أدام الله علاء مقدارها، وبهجة أنوارها، ووصل إعزاز أوليائها وأنصارها، وأجرى مصالح المسلمين والإسلام على صالح اختيارها، عبدها اللّائذ بجلالها، المتفيّئ وارف ظلالها، زيّان [ابن أبي الحملات سلام الله المبارك الكريم وتحياته تخص المقام الأشرف ورحمة الله تعالى وبركاته][6].

وبعد حمد الله الوليّ الحميد، المبدئ المعيد، الذي وعد على حمده بالمزيد، وتفضّل بالجديد /27/ من نعمته فالجديد، والصّلاة على سيدنا محمد

---

(1) جناس ناقص بين "الأسماع والأسمار".

(2) الزيادة من ك 233.

(3) الزيادة من ك 233.

(4) الزيادة من ك 233.

(5) الزيادة من ك 233.

(6) الزيادة من ك 233.



رسوله المبعوث بالوعد والوعيد، المنعوت بالخلق العظيم في القرآن المجيد[1].

-152 -

## رسالة أخرى عن زيان بن مردنيش إلى الأمير أبي زكرياء الحفصي

الحضرة العلية أدام الله علوّها وظهورها، وأفاض على البسيطة ضياءها ونورها، وأنالها من الفتوح الجليلة والمنوح الجزيلة موعودها[2] ومذخورها.

وبعد، فكُتِب كتب الله للحضرة العلية نصرا على العِدى، وسعدا يجوز المدى، من مرسية ومقامها السّعيد منبع بحار الندى، ومطلع أنوار الهدى، وخدمتها هي الشرف لمن ناله، والقدح الفائز لمن أجاله، والظل الذي لا يخشى أحد زواله، والحبل الذي أمِن المستمسك به وهنه وانحلاله، والله يبقيها ولوَاؤها في يد النصر، وأعداؤها في ربقة القهر، ومناقبها غُرر في وجه الدّهر[3]، وقد استوفى العبد في الخدمة قبل هذه[4] شرح الأحوال وما صنعه الله للحضرة من الصّنع المتسق الإمداد، والفتح المتّسع الآماد، له عزّ وجهه الحمد على ذلك كثيرا، والشكر الذي تفجّر ينابيعه تفجيرا، ونردّد جوامعه حالا ومستقبلا ونطقا وضميرا.

وعلى إثر ذلك أخذت حصون شاطبة في الانقياد، واقتدت بمن يليها في ناجح الارتياء والارتياد، ثم جاءت كتب قائد البلد وأهله بتلبية الدّعوة التي سمعوا، والاستمساك بحبل الطاعة التي لها جُمعوا، وأخلصوا النية فأنجح الله عملهم، وأخذوا البيعة عن أنفسهم ومن قِبَلهُم، فاستشعر الناس المسرّة والغبطة، /28/ وكأن

---

(1) وردت في هامش هذه الرّسالة طرّة هذا نصّها: " تكرّرت بعد ثبوتها كاملة في السفر الأول هذه الرّسالة ". وهي غير موجودة لأنها من الرّسائل المبتورة في أواخر السّفر الأول. ولكنها وردت كاملة في ك 233. وهي أشبه بتقرير عن الأحوال في إمارة مرسية التي أصبحت تابعة للحفصيين، كما أنها حدّدت رقعة هذه الإمارة ونصّت على ذكر المدن والحصون التي كانت تتألف منها، وهي مرسية وجنجالة وألش وملينة ولورقة ولقنت وقرطاجنة.

(2) في الأصل: موعدها.

(3) استعارة مكنية شبه الدّهر بالإنسان حين جعل له وجها.

(4) يقصد الرّسالة السّابقة.

الزمان غلط عليهم فاستدركوا تلك الغلطة[1]، وانتظم الشرق[2] كلّه إلى بَلِيسَيْن[3] من جهات بسطة، والمسلمون بحول الله إلى الدّعوة العزيزة سِراع، وإذا قام البرهان فما يبقى بعده للمخاطب نزاع، والعبد في الطّاعة مشمّر، ولرأس ماله من الخدمة مثمِّر، وله من الرأي العليّ مدبّر، هو لعدوّه إن شاء الله مدمِّر، أبقاه الله وليالي الخطوب به مقمرة، وآية الإيمان بنوره مبصرة، والنيّات في طاعته المرتضاة مستبصرة، ولعزائمه المنتضاة مستنصرة.

-153 -

## وكتب يتشوّق إلى أحد إخوانه الأندلسيين

كتبته إلى أخي دام له البقاء، وصديقي إذا عزّ الأصدقاء، والودّ كما يعلم نسبة مشهورة، وعدّة مذخورة، وسبيل آهلة معمورة، وقد كنت من أجله ذا قلب وجل، وخاطر مشتغل، حتى قيل إنّه خرج عند حلول الفاقرة، واستيلاء الطائفة الكافرة، وبلغني أنّه استكمل النجاة، وأحرز السّلامة المرتجاة[4]، فنعمت والبال كاسف، وسُررت والحزن متكاثف، وغيّضت دمع العين، وقلت ويل أهون من ويلين[5].

ثم قيل إنّه لبّى دعوة المخدوم، ولا علم لي بما كان بعد القدوم، والنفس إلى تلك الأحوال مشتاقة، وبها عَلِم الله إلى معرفتها فاقة، وما رأي فلان وهل له رغبة في الائتلاف ولو فعل لَرِيش الجناح، وأمكن النجاح، فإن أمكن في هذا سعي

---

(1) كان يحكم مدينة شاطبة منذ سنة 634 هـ/1236م أبو بكر بن أبي الحسين بن عيسى، ولعله يريد بهذه الغلطة استقلال المذكور بمدينة شاطبة بعد موت المتوكل بن هود.

(2) يريد شرق الأندلس.

(3) هما بليس الشهباء وبليس البيضاء، تقعان في شمال شرق إقليم المرية وفي الغرب من لورقة. كانتا تمثلان الحد الفاصل بين إمارة مرسية ومملكة غرناطة.

(4) واضح من كلام ابن عميرة أنّ صديقه المكتوب إليه كان من الأندلسيين الذين استولى النصارى على بلادهم وطردوهم، فلجأ هذا الصديق إلى مدينة أخرى واتصل بصاحبها الذي انخرط في خدمته.

(5) من الأمثال، وهو مثل قولهم: بعض الشرّ أهون من بعض. الميداني، مجمع الأمثال، ج 2، ص 430.



فلا يترك، وإن حرّك لحظه فليقل له تحرّك، والله يحفظ على الأخ الكريم جميل عادته /29/ ويصل له أسباب سعادته، بمنّه[1].

-154 -

## رحلة المؤلّف من سبتة إلى بجاية سنة 646هـ/ 1248 م

نحمد الله على نعم هي بين حاضر مُوات، وغائب لا يُدرى متى هو آت، ثم إذا شاء سبحانه أطلعها والأمل قد نكس رأسًا، وانقلب يأسا[2]، فأطلقت عقلة عنانه، وحلّت عقدة لسانه، ودعمت ما تداعى من بنيانه، وصلوات الله التامة على أشرف الخلق محتدا، وأصدقهم مَوعدا، وأطهرهم مولدا وموردا، محمد رسوله الذي أودعه وحيه، ورَمَى إذ رَمَى وإليه جلّت قدرته نسب رَميه[3]، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هُدُوا لحبّه وأحبّوا هَديه، والرّضى عن إمام الأئمة، ومهدي الأمة[4]، وعن أنصار دعوته الذين بنصله قطعوا، وعلى أصله فرّعوا.

ونخصّ من بينهم أشدّهم قناة، وأسدّهم بطشا وأناة، حامل بطيّهم، وعامل[5] خطيّهم، ومن كان انجدهم روعا، وأنجبهم فُروعا، بدر الأحلاك[6]، وأبا الأملاك[7]، الشيخ المعظم المقدّس المجاهد أبا حفص شكر الله له مواقفه، وجدّد عليه وعلى أهل بيته الكريم ألطافه وعوارفه، فهم كانوا بُدور تلك السّماء، والمعاني من تلك الأسماء، ما اقتُسِمَ فَيْءٌ إلا من أنفالهم، ولا فُتِح مصر وسُدّ ثغر إلا بمفاتحهم وأقفالهم.

إلى أن أخرج الله من أبسقهم دوحة، وأسبقهم في جهاد عدوه غدوة وروحة، الشيخ المعظم، /30/ المقدّس المجاهد أبي محمد رضي الله عنه وليّه

---

(1) ستَرد هذه الرسالة مكرّرة تحت رقم (274) من هذا السفر.

(2) جناس ناقص بين "رأسا ويأسا".

(3) يشير إلى الآية رقم 17 من سورة الأنفال.

(4) هو محمد بن تومرت مهدي الموحدين.

(5) جناس ناقص بين "حامل وعامل".

(6) تشبيه بليغ شبّه الشيخ أبا حفص بالبدر فذكر المشبّه والمشبّه به وحذف الأداة ووجه الشّبه.

(7) كناية عن عظمة وسلطة الممدوح.

المرتضى، وسيفه المنتضى، الأمير الأجل المؤيّد، المنصور المبارك المظفّر الأسعد، أبا زكرياء أعطاه الله بسطة الملك في مُلك البسيطة، وهدّ بيَع الإفك وشيع[1] الشرك بدعوته المحيطة، فهو الذي طلع على الدّنيا مُذَكيّ عتاقهم، وذكاء أفاقهم، وجمهرة أحسابهم، وفذلك حسابهم، أوجد الله أيديهم[2] في ساعده، وجمع عالمهم في واحده، إن ذكرت المفاخر فنفسه الكريمة على جمعها مطبوعة، أو الذخائر فسنّته القويمة في تفريقها متبوعة، ومتى دويت الممالك فرأيه فيها هو المليح، أو رُويت السياسة فعنده منها المسند الصحيح.

كما أنه إن فخرت السيوف فلأنّها أقلّتها حمائله، أو الأقلام فعندما حوتها أنامله، وقد كان القلم يعرف الفضل لنفسه، وينسب مادح السّيف إلى عكسه، أيّام لا يجد في أملاك العصور إلا من يجرّ لسانه، ويسرّ[3] إحسانه، فأما الآن فقد انقطع المبارون عن مدى مداده، وعلم السّارون ألّا ضوء لهم سوى سَواده، وذلك عندما مكّن الله للدّولة العزيزة في بلاده وعباده، فهي التي مَرّته فانهمر، وأمرته فائتمر، واتلعت جيده بعد ازوراره، واطلعت جدّه عند سراره، وحينئذ أطفأ السّريجيّ سراج الافتخار، وعلم أن لضامر القصب قصب المضمار، ومكانهما من الحضرة الأميرية العليّة الطّاهرة المباركة السّنيّة يستصلح من نوى منهما مناواة، ويوجب بينهما مُواساة ومساواة، ولولا ذلك لعلم السّيف أنّ /31/ القلم هو السّهم الذي يثيره عزمها بالحياة والحين، والسّهم الذي يرسله سعدُها[4] فيُفدّي بالأبوين، والله يبقيها جامعة بين أداتي سلمها وحربها، جادعة أنف الخلاف في شرقها وغربها.

ونسأل الله لولي عهدها الكريم، وسليل مجدها الصّميم، سيدنا ومولانا الأمير الأجل السّعيد المبارك الأطهر الأفضل ولي عهد المسلمين، وناظم أمر الدّنيا والدّين، أبي يحيى أن يعصمه من غِيَرِ الزمان ونوبه، ويوفقه توفيق الناظرين إليه وبه،

---

(1) جناس ناقص بين "بيع وشيع".

(2) في الأصل أيدهم.

(3) جناس ناقص بين "يجرّ ويسرّ".

(4) يريد الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب الذي سبق التعريف به في هامش الرسالة رقم 52.



وأن يكتبه أوّلًا فيمن اتقاه حق تقاته، ولا يَكله إلى نفسه في وقت من أوقاته، وإليه جلّ وعلا نرغب أن يحوط أرجاءه، ويحطّ أعداءه، ويقدّم إلى الفتوح لواءه، وينصر بالملائكة والرّوح أولياءه، وأن يجزيه خير الجزاء عن فضله الذي كَسا الدّرع في الحلل، وتناول الأعيان مع الجُمل، وعمّ بشيمة غمامية، وخصّ بهمّة همامية كالقطر في الحاليين من وبل يسقي من الشجر كرائمه، وديمة لا تخطئ خَصيد النبت وقائمه.

ولمّا أذنت السّعادة بإسفار صبحها الجلي، وأنعم أعلى الله أمره بالوفادة على بابه العلي[1]، أضحك الأمل من أبكاه الفراق، وحملت الجواري من أطارته الأشواق، وكان البحر قد خبأ طوفانه، وأعدّ رجفانه، حتى إذا وارى عنّا جانبي البرّ[2]، أبدى لنا ناجذي الشر، فأرسل كراديس موجه، وأطار الأغربة من حضيضه إلى أوجه، وجاشت مع المساء عَوَاربه، وتلاقت مع غياهب اللّيل غياهبه، فلا غراب[3] إلّا وقد لقيه بكلّ فتك، وضغمه بين فكٍ وفكٍ، /32/ وناشبه القتال وقد بزّ أسلحته، وسامه الطيران بعدما حصّ أجنحته، فكأنّ فلاة أبي الطيّب التي جابها بزعمه، وامتطى بها ظهر عزمه، هو غرابها الذي قوادمه خانته، وقواه خذلته وما أعانته، وما شككنا في أنّ قصيدته التي اخترع أبو العلاء مرويّها، وجعل على القاف رويّها، أنّ ألفها تستبدل راءً، وأنّ الراكب منّا سيذهب جفاء، ولكن الله برحمته تلافى، وما استُبعد من الفرج في أقرب وقت وافى.

---

(1) يقصد استدعاءه من طرف الأمير الحفصي أبي زكريا الذي أشاد في افتتاحية هذه الرسالة بمفاخر جدّه أبي حفص وعدّد مزاياه وولده أبي محمد عبد الواحد ثم الأمير أبي زكرياء وولي عهده الأمير أبي يحيى.

(2) لعله يريد برّ عدوتي المغرب والأندلس لأنّ الأسطول الحفصي الذي سافر على ظهره ابن عميرة أقلع من مدينة سبتة.

(3) الغراب سفينة سوداء مقدمتها على شكل رأس الغراب، وجناحاها بيضاوان، وهي تسير بالقلع والمجاذيف، منها ما له 180 مجذفا وأقل من ذلك، وتستخدم لحمل الغزاة، اشتهرت بالبأس الشديد وإنزال الرّعب في قلوب الأعداء. المنوني محمد، ورقات، ص110. النخيلي درويش، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص37.

المرتضى، وسيفه المنتضى، الأمير الأجل المؤيّد، المنصور المبارك المظفّر الأسعد، أبا زكرياء أعطاه الله بسطة الملك في مُلك البسيطة، وهدّ بيَع الإفك وشيع[1] الشرك بدعوته المحيطة، فهو الذي طلع على الدّنيا مُذَكيّ عتاقهم، وذكاء أفاقهم، وجمهرة أحسابهم، وفذلك حسابهم، أوجد الله أيديهم[2] في ساعده، وجمع عالمهم في واحده، إن ذكرت المفاخر فنفسه الكريمة على جمعها مطبوعة، أو الذخائر فسنّته القويمة في تفريقها متبوعة، ومتى دويت الممالك فرأيه فيها هو المليح، أو رُويت السياسة فعنده منها المسند الصحيح.

كما أنه إن فخرت السيوف فلأنّها أقلّتها حمائله، أو الأقلام فعندما حوتها أنامله، وقد كان القلم يعرف الفضل لنفسه، وينسب مادح السّيف إلى عكسه، أيّام لا يجد في أملاك العصور إلا من يجرّ لسانه، ويسرّ[3] إحسانه، فأما الآن فقد انقطع المبارون عن مدى مداده، وعلم السّارون ألّا ضوء لهم سوى سَواده، وذلك عندما مكّن الله للدّولة العزيزة في بلاده وعباده، فهي التي مَرَته فانهمر، وأمرته فائتمر، واتلعت جيده بعد ازوراره، واطلعت جدّه عند سراره، وحينئذ أطفأ السّريجيّ سراج الافتخار، وعلم أن لضامر القصب قصب المضمار، ومكانهما من الحضرة الأميرية العليّة الطّاهرة المباركة السّنيّة يستصلح من نوى منهما مناواة، ويوجب بينهما مُواساة ومساواة، ولولا ذلك لعلم السّيف أنّ /31/ القلم هو السّهم الذي يثيره عزمها بالحياة والحين، والسّهم الذي يرسله سعدُها[4] فيُفدّي بالأبوين، والله يبقيها جامعة بين أداتي سلمها وحربها، جادعة أنف الخلاف في شرقها وغربها.

ونسأل الله لولي عهدها الكريم، وسليل مجدها الصّميم، سيدنا ومولانا الأمير الأجل السّعيد المبارك الأطهر الأفضل ولي عهد المسلمين، وناظم أمر الدّنيا والدّين، أبي يحيى أن يعصمه من غِيَرِ الزمان ونوبه، ويوفقه توفيق الناظرين إليه وبه،

(1) جناس ناقص بين "بيع وشيع".

(2) في الأصل أيدهم.

(3) جناس ناقص بين "يجرّ ويسرّ".

(4) يريد الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب الذي سبق التعريف به في هامش الرسالة رقم 52.



وأن يكتبه أوّلا فيمن اتقاه حق تقاته، ولا يَكله إلى نفسه في وقت من أوقاته، وإليه جلّ وعلا نرغب أن يحوط أرجاءه، ويحطّ أعداءه، ويقدّم إلى الفتوح لواءه، وينصر بالملائكة والرّوح أولياءه، وأن يجزيه خير الجزاء عن فضله الذي كَسا الدّرع في الحلل، وتناول الأعيان مع الجُمل، وعمّ بشيمة غمامية، وخصّ بهمّة همامية كالقطر في الحاليين من وبل يسقي من الشجر كرائمه، وديمة لا تخطئ حَصيد النبت وقائمه.

ولمّا أذنت السّعادة بإسفار صبحها الجلي، وأنعم أعلى الله أمره بالوفادة على بابه العلي[1]، أضحك الأمل من أبكاه الفراق، وحملت الجواري من أطارته الأشواق، وكان البحر قد خبأ طوفانه، وأعدّ رجفانه، حتى إذا وارى عنّا جانبي البرّ[2]، أبدى لنا ناجذي الشر، فأرسل كراديس موجه، وأطار الأغربة من حضيضه إلى أوجه، وجاشت مع المساء عَوَاربه، وتلاقت مع غياهب اللّيل غياهبه، فلا غراب[3] إلّا وقد لقيه بكلّ فتك، وضغمه بين فكّ وفكّ، /32/ وناشبه القتال وقد بزّ أسلحته، وسامه الطيران بعدما حصّ أجنحته، فكأنّ فلاة أبي الطيّب التي جابها بزعمه، وامتطى بها ظهر عزمه، هو غرابها الذي قوادمه خانته، وقواه خذلته وما أعانته، وما شككنا في أنّ قصيدته التي اخترع أبو العلاء مرويّها، وجعل على القاف رويّها، أنّ ألفها تستبدل راءً، وأنّ الراكب منّا سيذهب جفاء، ولكن الله برحمته تلافى، وما استُبعد من الفرج في أقرب وقت وافى.

(1) يقصد استدعاءه من طرف الأمير الحفصي أبي زكريا الذي أشاد في افتتاحية هذه الرسالة بمفاخر جدّه أبي حفص وعدّد مزاياه وولده أبي محمد عبد الواحد ثم الأمير أبي زكرياء وولي عهده الأمير أبي يحيى.

(2) لعله يريد برّ عدوتي المغرب والأندلس لأنّ الأسطول الحفصي الذي سافر على ظهره ابن عميرة أقلع من مدينة سبتة.

(3) الغراب سفينة سوداء مقدمتها على شكل رأس الغراب، وجناحاها بيضاوان، وهي تسير بالقلع والمجاذيف، منها ما له 180 مجذفا وأقل من ذلك، وتستخدم لحمل الغزاة، اشتهرت بالبأس الشديد وإنزال الرّعب في قلوب الأعداء. المنوني محمد، ورقات، ص110. النخيلي درويش، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص37.

وفي هُنين[1] أُريحت الرّذايا، وأزيحت الشكايا، وغودر هنالك أحدها كهشيم المحتظر[2]، قد عابه خضارة لكن لا كعيب الخضر، ثمّ إنّا رحلنا والرّيح تدفعنا بالرّاح، وتجاذبنا عنان الاقتراح، إلّا أنّا كابرناها وكابدناها، وجاهرناها وجاهدناها[3]، ونحن نرجو حدوث الدّفاع ودفع الحوادث، حتى بلغنا مرسى وهران[4] في يومين وبعض الثالث، وكنا نزلنا أقرب منزل إليه والأصيل قد رقّ ثوبه، وسال فوق أديم الماء ذوبه، وبتنا واللّيل ساج، والبحر كأنه لا عهد له بارتجاج، وفي نصف اللّيل أرسل الله الغمام قطعا مبثوثه، وعمائم في رؤوس الجبال ملوثة، وما راعنا إلّا التئام تفاريقها، وانسجام أفاريقها، فما رأينا كتلك اللّيلة برقا أخطف للعيون، ولا رعدا أقصف للمتون، ولم يكن بدّ من التحوّل عن منزلٍ جارُه يُفرق، ووجارُه يُطرق، وبعد لأي ما وصلنا وهران، وقد سئمت أغربتنا الطيران، إلّا أنّها حمدت ما يضرب بها المثل من بكورها، وسقطت من هذا المرسى على أعزّ وكورها، فإنه مرسى لا تخدش صفحته صكة الهبوب، ولا تصيب /33/ جنابه معرّة الصّبا والجنوب[5].

وبعد خمس رحلنا وذاك يوم الخميس أوّل جمادى الآخرة وثاني أكتوبر والرّيح التي فعلت بنا الأفاعيل، وأرسلت علينا طيرها الأبابيل[6]، قد عقلت عن

(1) من موانئ مدينة تلمسان، يقع بأرض قبيلة ولهاصة غرب مصب نهر تافنة بين مدينتي بني صاف والغزوات الحاليتين. وهو من المراسي القديمة التي ظل الموحدون يستخدمونها في بناء سفنهم، به بقايا مساجد وآثار من عمل سلاطين بني مرين. مجهول، الاستبصار، ص 135. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 263.

(2) يريد المركب الذي أصابه العطب وتركوه في هنين.

(3) جناس ناقص بين"كابرناها وكابدناها"، وبين "جاهرناها وجاهدناها".

(4) يقع إلى الغرب من مدينة وهران ويبعد عنها بحوالي 8 كيلومترات، وهو المعروف اليوم بالمرسى الكبير، كان الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي قد اتخذه مرسى لأسطوله وجعل منه دارا لصناعته، وفي القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ابتنى ملوك بني زيان مدينة عند هذا المرسى وهي المعروفة اليوم بالمرسى وقد سكنها مهاجرو الأندلس ثم احتلها الأسبان عدة مرات. توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 247.

(5) عن مرسى مدينة وهران يقول البكري: مرسى جبل وهران مرسى كبير شتوي سكن من كل ريح، يقابله من برّ الأندلس مرسى أشكوبرش. البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 267.

(6) كناية عن شدّة الرّيح التي عصفت بهم.



المسير ركابها، وسدّت في وجه المستشير بابها، وحينئذ جدّت المجاذيف، وشقّ ذلك التكليف، حتى وصلنا مرسى عرفوه بني زيّان[1]، وقد استطلنا ذلك الزمان، وأصبتنا فيه من اللّيل سماء قلنا عندها اللّهم بطون المجاري، لا ظهور الجواري، وجاء النهار ووجهه مكفهر[2]، وريحه فيه صرّ، فأقمنا هنالك يومين إقامة مستثقلة، ثم أرسلنا من ركائبنا نعما معقلة.

وبكّرنا يوم الأحد مشرقين، ولعين الحزم مؤرقين، ومن هول الإثباج فرقين، وفي تلك الفجاج متفرقين، ثم إنّا استوهنّا الرّيح، وتمنينا بأسها المُريح، وتمادى ذلك حتى أفضى جريُها إلى الانقطاع، ولم نجد لها نبضا في ذراع الشراع، فاستكفينا من المجاذيف كلّ كاف واف، وأحلْنا العمل منها على قوادم وخواف، حتى بلغنا مرسى يُعرف بجوج[3]، خيره أقل من ماء ممجوج، والمقيم به أذل من وتِدٍ مشجوج.

ثم سرنا عنه مدلجين، وفي ذلك الجون البعيد المدى مُلَجّجين، والرّيح الغربيّة تزجينا، وعادة الله الجميلة بالسّلامة تعدنا وترَجّينا، فطوينا تنسًا[4] بعد وادي شلف، ومررنا عليهما مُرور غير ذي مقة ولا كلف، وفي أثناء ذلك انتقلت الرّيح إلى أخرى فرجوا بها، واستبشروا بهبوبها، وسَمّوها باسم هو عندنا يدلّ على ريح نجدية النّوع، نديّة الضّوع، فأبدلت /34/ في هذه البلاد من الرقّة غلظة، وما زالت علينا مُلحة وبنا مُلظة، حتى جاءنا الموج من كلّ مكان، وحار كلّ ذي شراع وسكّان، وما زلنا في صعود وهبوط[5]، ورجاء لا شيء أشبه منه بقنوط، حتى دخلنا شرشال[6]، بعد أن لم يبق مفرق إلّا شاب ولا راجح إلّا شال، فوجدنا سهلا يقبض عنه الخطا، ومرسى مثل أفحوص القطا، وكان أصحابنا تقدّموا إلى آخر يعرف

(1) لا يوجد مرسى بهذا الاسم في مصادر الجغرافية والرحلات المتوفرة لدينا.

(2) استعارة حيث جعل للنهار وجها مثل الإنسان.

(3) لا يوجد مرسى بهذا الاسم في مصادر الجغرافية والرحلات المتوفرة لدينا. ولعله المرسى الذي ذكره البكري باسم مرسى عين فروج. المسالك والممالك، ج 2، ص 267.

(4) عن مدينة تنس الواقعة غرب مدينة الجزائر، انظر الاستبصار، ص 133.

(5) طباق الإيجاب بين "صعود وهبوط".

(6) عن مدينة شرشال الواقعة بين تنس والجزائر، انظر الاستبصار، ص 132.

بالبطّال[1] وجدوه أفسح عطنا، وأصلح للدّخول والخروج وطنا.

ومن هناك كان الانتقال إلى الجزائر[2]، وقال المَزورُ مرحبا بالزائر، فوجدنا بلدا كبلاد، وجدّدنا ما صلح من زاد، وبتنا هنالك وللّيل غيم مزرور جيبه، وفود بطيء شيبه، وسرنا غدوة الأربعاء وللرّيح في سوقنا لطاقة، ولكلاءة الله بنا إطاقة، ثم إن سورتها لانت، وفترتها بانت، فجمعنا بينها وبين المجاذيف، وحسن الاتفاق من ذلك التأليف.

وسرنا حتى نزلنا من تدلس[3] بمرساها الفسيح، وأخذنا بها عقبة المستريح، ومع الصّباح كان من البرق في خطواته وميض، وببعض إنذاراته تعريض، فوجب التلوّم استبراءً لتلك المخيلة، وطلبا للبرء بكلّ ما يمكن من الحيلة، وهبّت أثناء ذلك ريح شرقية زعموا أن هذا المرسى لِفَحْلِهَا طروقه، ومن لَقْحِهَا فروقه، فتعوذنا بالله من عُتوّها، واستكفيناه الخطر في رواحها وغُدُوّها، وأقمنا هنالك ليلة الأحد.

ولمّا مضى من اللّيل نصفه، وبدا من الصّحو صرفه، سرنا وعِيسنا تنفخ في بُراها الرّيح، وليلتنا يروق من قمرها /35/ وجهه الصّبيح، ثم رأينا الهواء تنكّر، وبتقلبه المعهود ذكّر، فمشى القوم معه على العادة، وسرنا نتنسّم أرواح اليمن والسّعادة، حتى وجبت التقية، حين تمكنت الشرقية، فأقبلوا يزفون إلى أزفون[4]، ويخفّون لدفع ما يتخوّفون، وقدّرنا سكونها فزادت، وأردنا تعديل أعطاف الجواري فمادت، فأقمنا هنالك بقية يومنا وبعض ليلتنا ثم سرنا والرّيح مساعدة في أكثر

(1) يقع مرسى البطّال بالقرب من رأس يقال له طرف البطّال، وقبالته جزيرة صغيرة، كان غير مسكون كما يقول البكري. المسالك، ج 2، ص 268. وإذا كان طرف البطال هذا مطابقا لرأس شنوة الحالي الواقع غربي الجبل الذي يحمل الاسم نفسه فإنّ الأمر يتعلق بمدينة تيبازة الحالية.

(2) هي العاصمة الحالية للجزائر، وكانت تعرف قديما بجزائر بني مزغنة نسبة إلى القبيلة البربرية التي كانت تسكنها، لها مرسى مأمون شتوي. البكري، المسالك، ج 2، ص 268.

(3) وتكتب دلس وتادلس، تقع بين مرسى الدجاج غربا وبجاية شرقا، وهي من المدن الرومانية القديمة. انظر عنها الادريسي، نزهة المشتاق، ج 1، ص 259.

(4) ميناء صغير يقع بين تدلس وبجاية.



الطريق، والبحر لابس لبستي العدوّ والصديق[1]، حتى أدّت بنا أثباجه وديعة فلكها، وبلغتنا من بجاية حضرة ملكها، فاجتلينا غرة السّعود، ولثمنا يمين البأس والجود:

[الطويل]

سمونا إلى بدر الدّجا في سمائه ... فبشرى رأينا فيه نور ذكائه[2]

كذا البدر من شمس النهار ضياؤها ... هو المجتلى في ما نرى من ضيائه

فلله عينا من رأى ذاك منظرا ... مهابته في مثل حسن زورائه

دَنونا بطاءً للسلام وبطؤنا ... لنهدى إلى آدابه في أدائه

وقابلَنا الوجهُ الأغرّ وبشره ... يروق عيون الخلق رقراق مائه

فمن نظر ما غضّه غير هيبة ... لذي نظر قد غضّه من حيائه

وذي منطق لا يملك القول دهشة ... هناك وداء العيّ ليس بدائه

هنيئا لعهد المسلمين أن اغتدى ... لأكرم من ينمي كريم انتمائه

تولّاه بالأمر الرّشيد وحَسبه ... وليّا به مستظهرا بولائه

فبورك للإسلام في عزمه الذي ... يحلّ عقود الشرك عند لوائه

من النفر البيض الذين بهديهم ... أصاب مواليهم سبيل اهتدائه

أقاموا صغا الإسلام في حال ميله ... وأَحيَوا طريق الحق بعد عفائه

هم كلهم من تلق منهم فما سوى ... كرام المساعي ينتقي لاقتنائه

/36/ كما لم يفتهم مقدم باجترائه ... كذا لم يفوتوا قادما برجائه

رأى الله يحيى أسمح الخلق في ... وغًى بحوبائه أو في ندًى بحبائه

وأعودهم عند اقتدار بحلمه ... وفي ذمّة إن أخفرت بوفائه

فملأه ما استرعاه من أمر خلقه ... وجازاه عن مسعاه خير جزائه

ونعم عماد الملك سيّدنا الذي ... بَنَا بيته في شامخ من علائه

حياة أبي يحيى ربيع لأرضه ... ولمع سناه زينة لسمائه

تعوّد منه ذا يد لا يمدّها ... مدى الدّهر إلا ذائدا عن فنائه

(1) طباق الإيجاب بين "العدوّ والصّديق".

(2) كتب ابن عميرة هذه الرّحلة ليقدّمها إلى حضرة الأمير أبي يحيى زكرياء ولي العهد ووالي بجاية، لذلك ختمها بهاتين القصيدتين في مدحه.

مُسعد راسي الطّود مُغنٍ عن الحَيَا ... بيوم نداه أو بيوم انتدائه
وحائز حق الملك حين انتهائه ... وراتق فتق الخطب عند ابتدائه
إذا مادح أثنى عليه فما لنا ... طريق إلى استقصاره في ثنائه
ومن يرتجي لمس السّهى ببنانه ... ونيل الثريا قاعدا من بنائه
فأبقاه رَبُّ الخلق للخلق كافلا ... وما غير بيض الهند من كفلائه
ولا زال نصر الله في كلّ موقف ... يقوم إليه قائما بإزائه

فالحمد لله الذي وهب النعماء، وأذهب الغمّاء، حتّى استقال عاثر الأقدام، واستقام عابر السّهام، واحلولى طعم الحياة، واستولى نجم النجاة، والمملوك قد قال يوم مثل الأسطول المبارك لبصره وسمعه، وناداه مبشّر كعب بن مالك[1] قائما على سَلعه، أيتها البشرى التي نفس المُبشَّر بها مطمئنة، والمنّة عليها بها لا تبلغها منّة، ما ضرّك والطرق تتهاداك، والأفق يضوع بريّاك، إن كسرت كاف خطابك، ونقلت هديّك إلى كسر خطّابك، فما التأنيث لاسم الشمس عيب، ولا تنقّلها في البروج ممّا يدال لها به مشهد أو غيب، أفدي منك حديثا لو سمعته الأفل ما أطربها الحُداء، ووجها لو رآه /37/ الغزل لم تصبه الكاعب الغيداء، وقفت له ثم سجدت، وطلبت ثواب المبلغ له فما وجدت.

وكان مملوك الباب الكريم ضاعف الله علاءَه وسعدَه، بخبر البشرى وما صار إليه بعده، كالصّائم بين فرحتين استمتع بأولاهما، واستمع لأعلاهما، حتى إذا فتحت الأبواب، ورُفع الحجاب، استقاد من الزّمن، وأعاد الحمد لمذهب الحزن، وتلا ﴿إنّ ربّنا لغفور شكور﴾[2]، وأن نِعَمَه على من أدركته رحمته لها رواح وبكور،

(1) كعب بن مالك من النفر الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، إلى جانب مرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وقد اختار هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا بغير مبرر الصدق فلم يختلقوا الأعذار في تخلفهم كما فعل المنافقون. وقد أمر النبي بمقاطعتهم مدّة خمسين يوما حتى أنزل الله توبتهم في سورة التوبة، وفرح هؤلاء الثلاثة وفرح معهم المسلمون فبشروا وأبشروا واستبشروا وأجازوا وتصدقوا. المباركفوري، الرحيق المختوم، ص 518.

(2) الآية رقم 34 من سورة فاطر.



وقد قدح زنده ولا ضوء فيه لقادح، واستحمل فكره ولا ظهر معه لجذع أو قارح، ثم ذكر أن الشعر فنّ يُغتفر رَدِيّه، ودَنٌّ قد لا يُراق دُرْدِيُّه، فحضره منه ما جعله خدمة قلمه، ووقف دونه عائدا بفضل الجناب السّعيد وكَرَمه، وإنما على المقلّ جهده، ولو قدر الذرُّ على صنعة النحل جاءه شهده: [البسيط]

أيّامك الغرّ للسّرّاء أيّام ... وفي بقائك للضرّاء إعدام
ومن سمائك في يومَي وغى وندًى ... بالشرق والغرب إرهاب وإرهام[1]
شيم اللّيالي ما تسمو إليه فما ... لها بغير الذي تهواه تهيام
واعمل الظنّ في ما أنت طالبه ... فإنّما هو توفيق وإلهام
عزٌّ يشير إليه المشتري ويدُ ... منها عُطارد استملى وبهرام[2]
ومن سجاياك والأحلام طائشة ... والسّاح غُبرٌ وطير الموت حوّام
حلم وجودٌ وإقدام ثلاثتها ... للمتقي من كلام الحمد أقسام
وقارئ الفضل من يُمناك في فمه ... لأحرف البؤس إخفاء وإدغام
يهذّ من غير وقف قرأته ... فليس من شانه رَوم وإشمام[3]
وفيلق فلق الإصباح في فرق ... منه يُؤمّل لو وَرَاه إظلام
على السّوابق من فرسانهنّ به ... ومن قنى الخطّ آسادٌ وآجام
/38/ بينا جيادك تبغي أن تعاجلهم ... وَلّوا وما حان إسراج وإلجام
فالخيل تحسُد فيها خيل رعبك ... إن أزرى بأقدامها منهنّ إقدام
كذاك سعدُك والرأي اللذين ... هما على البرية قوّام وحكّام
من ادّعى منهما والأمر مشتبه ... على أخيه شفوفا فهو ظلّام
والحال كالحال في بيض بنيت لها ... فخرا إذا نازعتها الفخرَ أقلام

(1) جناس ناقص بين "إرهاب وإرهام".

(2) بهرام: المرّيخ وهو من النجوم (الكواكب) الخمسة التي تستسرّ في مجاريها وهي بهرام وزحل وعطارد والزّهرة والمشتري. لسان العرب، ج 6، ص 198.

(3) الإخفاء والإدغام والوقف والرَّوْم والإشمام من مصطلحات فنّ القراءات التي يعتمدها القرّاء في أحكام تلاوة القرآن الكريم، ولكن ابن عميرة الذي كان مولعا بالمصطلحات العلمية ويكثر من استعمالها، نجده قد وظفها في أغراض المدح.

مـا مـنهما غيـر لـيث عـند خيـسته     مـا فـيه عـن قـرنه وَهْـنٌ وإحجـام

تكافـأ فـي يمـين لا تـزال بهـا     تعلـى القـراطيس أو تـستنزل الهـام

قـد كـان للـسّيف فخـر يـستبدّ بـه     إذ الملـوك عـن الآداب نـوّام

وهمّـة الـصِّيد مـنهم أن تكـون     لهـم وإن تـضاءلت الأحـلام أجـسام

والآن قـد درت الأقـلام أنّ لهـا     ذكـرا لـه الـيوم إنجـاد وإتهـام

إذا اسـتدلّت بـدار الملـك أمكـنها     لخـصمها مـن سـيوف الهـند إلـزام

والعلـم بالحـضرة العلـياء عـاوده     بعـد الإذالـة إعـزاز وإكـرام

كـذاك للـشرع فـيها بعـد أن نقـضت     عُـراه شـدّ علـى الـتقوى وإبـرام

لقـد تعـاظم عهـد المـسلمين بمـن لـه     مـن الله إكـرام وإعظـام

بـراكب الهـول والأبطـال ناكلـة     وبـاذل الوفـر والآمـال أحـلام

وأخـذ ثـار أهـل الفـضل مـن زمـن لـه     إلـى الفـضل جـزاء وإجـرام

حـدّث عـن البحـر أو عـن فـيض نائلـه     ومـا كـيوم نـداه مـنه أعـوام

وانظـم لـه الحمـد فـي أبهـى قلائـده     فإنـه لدواعـي الحمـد نظّـام

أميـرنا المرتـضى كـم فـيك مـن كـرم     عـنه تقاصـر أذهـان وأفهـام

كُتُـب العلـى سُخِمَت بين الملوك وما     كتـبت مـنها لـه شـكل وإعجـام

إذا انـتحوا فـي مـدى فخـر فحـسبهم     أن قـيل هـم لـك عُـبدان وخـدّام

فُـتّ الـورى وبـذا الحـرفين أنطقهـم     إن رام وصـفك فأفـاء وتمـتام[1]

والفـضل عـندك حتـى لـيس فـيه     لهـم فـاء تعـدّ ولا ضـاء ولا لام

/39/ولـم يعب أخذ معنى البيت نحلته     لمـن لـه فـي سـطور الحمـد إقحـام

فـدرّة الـتاج مـا عيـبت بـأن وجـدت     مـن قـبله فـي أكـفّ الـناس تـستام

يـا ناشـز الخـط مـن رفـد الأميـر     أبـي يحيـى علـيك فيا بـشراك قـوّام

أمـا ومـرّنه ذكـري فلـيس لمـا     أمـرّ والـذنب للأيـام إلمـام

(1) الفأفاء: الذي يكثر ترداد الفاء إذا تكلم كأنّ الفاء يغلب على اللسان لحبسة فيه فيعسر عليه خروج الكلام. والتمتام: الذي يكثر ترداد التاء والميم، وقيل هو الذي يعجل بكلامه فلا يكاد يفهمك. لسان العرب، ج 1، ص 119، وج 12، ص 71.



وكـيف أعـيا بخطـب مُـوحش نكـدِ     ألّا يَـسُؤْ فهـو بالأسـواء همّـام

والملـك فـي الدّولـة الغـرّاء عـند أبـي     يحيـى أغـرّ طلـيق الـوجه بـسّام

نـور مـن الله فـي الدّنـيا إلـيه سـمت     أبـصارنا ولأنـف الدّهـر إرغـام

وكعـبة للـندى مـيقاتها بلـد مـنه     دُعيـنا وخَلْـعُ الهـمّ إحـرام

فـأيّ بـشرى هـلال الفطـر يبـصره     ونحـن شـكرا لـرّبّ الـناس صُـوّام

وللـزمان بمـولانا وسـيّدنا عطـف     لـه فـيه إسـداءٌ وإلحـام

مـا زال يثنـيه عـن لـوم إلـى كـرم     حتـى تـزايل عـنه اللّـوم والـذّام

فأي مـضطرب فـي الأرض عـن ملـك     لـه علـى الدّهـر قـبل الخلـق إنعـام

فـالله يبقـيه والإسـلام فـي يـده     وديعـة مـا لهـا تـرك وإسـلام

ورأيـه واصـل شـمل الهـدى وعلـى     عطفـيه سـيف لحـبل الكفـر صـرّام

والسلام الكريم الطيب المبارك المردّد الزّكي العميم يخصّ المعالم المقدّسة العلية السنيّة ورحمة الله تعالى وبركاته وكتب عبدها المسترق، ومملوكها المستحق، أحمد بن عميرة مقدمه على بابها الشريف فتح الله له باب الميامن، وضاعف الغبطة والسّعادة لسكان حرمه الآمن، بمنه ويمنه.

-155-

## تعزية المستنصر الحفصي بوفاة والده أبي زكرياء

وبعد، فكتب العبد[1] كتب الله للحضرة العلية الطّاهرة السّنية أجزل ثواب الصّبر في البأساء، وأنجز لها أفضل مواعد /40/ النصر على الأعداء، من بجاية كلأها الله وبمعقل هديها من طوفان الرّجفان الاعتصام، ونظرها لأهل الإيمان بإنجاد الرحمان هو النظام، وطاعتها المزلفة تؤدّى مع الفروض المكتوبة وتقام.

وورد الخطاب العليّ الكريم مفصِحا بالدّاهية الكاشفة عن ساق، الكاسفة للبدور والشموس عن تمام وإشراق، فأيّ رزء دَهم الأنام، وعين أصابت الإسلام، وسهم للرّدى كسر النّصال وحطّم السّهام، بالحادث في مولانا المقدّس المجاهد

(1) يستفاد من مضمون الرسالة أنّ ابن عميرة قد كتبها عن أحد موظفي ورجال السلطة الحفصية ببجاية.

المرتضى ألحقه الله بسلفه الأطيبين، وسقاه في دار النعيم من التسنيم الذي هو شراب المقربين، أما إنّه الخطب الذي غلب واستحوذ، وطعن فأنفذ، ورمى فأقصد، وقدح فأضرم وأوقد، فلا جلد يبقى، ولا دمع يرقى، ولا قلب إلّا وله وجيب، ولا صدر إلا وفيه زفرة ونحيب.

وعندما وَرَد على العبد أظلمت الدّنيا في عينيه، وطفق كالمغشي عليه، وحقّ له هذا الجزع الذي مَحَا من القلب العزاء، وسام العين السّهر والبكاء، بل أذهب النّفس شعاعا، ولم يترك بالحياة استمتاعا، لولا ما ثاب إلى فكره من الاستعاذة بالنظر العليّ، والاستضاءة بنور الحق الجليّ، فعند ذلك عادت إليه نفسه، وبزغت بالرّأي الأوّل من الأفق الأعلى شمسه، وعلم أنّ الماضي-رضوان الله عليه- كان قد ألقى أمر الأمّة إلى خير كافل يقتفي سننه اللّاجب، ولا يفقدها إلّا شخصه الذاهب[1]، فبذلك ثبتت أحلام طاشت، ونفوس لولاه لما سلمت ولا عاشت، وفي طلوع أحد القمرين عن الآفل نيابة، وحديث هذه النعمة لا تبقى /41/ معه على وجه الأيام كآبة، والدولة العزيزة بحمد الله لشبابها ريعان، ومن شعاعها لمعان، فأيدي الأولياء عالية، وأجياد النعم حالية، وسيف الجد المكافح صارم، وأنف العدو الكاشح راغم.

وأمِرَ العبد ببسط الآمال، وضبط الأحوال وإشعار الناس بما لهم عند المقام الكريم من القبول والإقبال، والعبد مشمّر لذلك عن ساعد، موكل به طرف ساهد مشاهد، والناس والحمد لله إلى هذا الخير سراع، ولهم على صدق الطاعة إجماع، يعرفون قدر النعمة، ويتصرفون بهممهم كلّها إلى ما تقتضيه من الخدمة، والعبد يذكّرهم بنافع الذكرى، ويبشرهم ولسان الحال أنطق بالبشرى، وما أجراه المقام الكريم أيده الله من ذكر عبده، والشكر لجِدّه، فنعمة من الله سبحانه ليست النعم الجليلة من أكفائها، ولا تدّعي القوى البشرية قدرة على حمل أعبائها، والله ينهضه بكل حق عليه يترتب، وعمل فيه يسعى ويدأب، وهو تعالى يزيد أنوار المقام

(1) يشير إلى تعيين أبي عبد الله محمد المستنصر وليا للعهد في أواخر سنة 646 هـ/1248م بعد وفاة أخيه ولي العهد أبي يحيى الممدوح في الرسالة السابقة.



الكريم وضوحا، ويبقي نظره لجسم البلاد روحا، ولا يخليه من فتوح تعقب فتوحا، ونصر يعود ما كان منه ممنوعا ممنوحا، بمنّه وعزته والسّلام.

-156-

## وله من رسالة في المعنى نفسه

وبعد أن طرق الخبر بالحادث الذي جل عن البكاء أمره، واستغنى عن الإذكاء جمره، ودهم الإسلام منه ما أثكله أوثق أسواره، وسلبه إشراق أنواره، في المولى المقدس ألحفه الله ظله، وألحقه بمن رفع في الفردوس محله، فإنا /42/ لله وإنا إليه راجعون، تسليما لأمر القدير، وانطواءً على حرّ السّعير، وعلما بأن هذا الخطب ولمن قلّ له رجفان الضلوع، وسيلان حمر الدموع، وتجافي الجنوب عن المضاجع والجفون عن الهجوع، فالحزن بالغا ما بلغ لا يتلافاه، والجزع في أمره ﴿ كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه ﴾[1].

وما مضى رضي الله عنه حتى حضّر أمر الأمة[2]، وأعد لهذه الملمة المدلهمّة، فكانت ثلمة تداركها الرّاتق، وسدفة جلاها الفجر الصادق، فما عظمت المحنة حتى جلّت المنحة[3]، ولا ظهرت العلة حتى عاجلتها الصحة، ولا قيل أفل شهاب ثاقب حتى طلع نظيره، ولا مال للملك جانب إلا وقد استقل منبره وسريره، قرنان من السلوة والحزن تساورا، وموطنان للشكر والصبر تجاورا، والصبر بغير حساب يُوفّى أجره، والشكر في ميزان الثواب يرجح قدره، ومثلكم استوفى الحظّين، وأرضى بقوله وعمله الملكين الحافظين.

-157-

## وله من أخرى في المعنى نفسه

على حين ورد النبأ الفظيع، وراع الخطب الشنيع، وجاء ما أصمّ به الدّاعي

(1) الآية رقم 14 من سورة الرعد.

(2) بعد أداء واجب العزاء ينتقل ابن عميرة إلى الإشادة بأهمّية اختيار الأمير أبي عبد الله محمد المستنصر وليا للعهد من طرف والده.

(3) جناس ناقص بين "المحنة والمنحة".

السميع، بالحادث في مولانا المقدس جزى الله بالإحسان إحسانه، ورفع في أعلى عليين مكانه، فإنا لله وإنا إليه راجعون تسليما للأمر، وتقلبا على أحرّ من الجمر، وعلما بأن هذا الرّزء وإن أثكل الإسلام يومه العصيب، وسهمه المصيب، ولم يبق قلب إلا أحرقه، ولا جلد إلا مزّقه، ولا دمع إلا أراقه ورقرقه، فشيء من ذلك لا يشفي /43/ داء، ولا يغني غناء، وما ينفع جزع الجزوع، وذهاب حشاشة القلب المصدوع، وغائب الموت قد حيل بينه وبين الرجوع.

وما مضى رضي الله عنه حتى نظر في عواقب الأمور، وأعد للقدر المقدور، وأقام للإسلام من درى أنه يكون لسهامه رائشا، وبالساعد الأشد دونه باطشا، ولصيد النافر الشارد حائشا، وفي طلب أهل البغي والنفاق مضايقا مناقشا، فلقد أعقب الغسق الضياء، والكسوف الانجلاء، والتقى السرور والبكاء[1]، ودفع في صدر الجزع العزاء، فإن كنّا جزعنا من الخطوب شرّها وأمرّها، فقد أعطينا من المواهب أقرّها للعيون وأسرّها، وإن كان الخطب النازل لا يحتمل، فالنعمة بإزائه فوق ما طمح إليه الأمل، فالحمد لله الذي نعمه في المكاره مطوية، وعنده مع كل رزية عطية[2].

-158-

## رسالة عن أبي بكر عزيز بن خطاب إلى أبي الحسن بن شلبون

الوزير الفقيه الأجل أبو الحسن[3] ابن الوزير الفقيه المكرّم أبي عيسى أدام الله عزته، ووصل سعادته ورفعته، مجلّه، الوادّ له، البرّ به، الحفي بجانبه،

(1) طباق الإيجاب بين "السرور والبكاء".

(2) لا تختلف هذه الرسالة عن سابقتها ولا عن رسائل التعزية الأخرى التي كتبها ابن عميرة بعد وفاة أبي زكرياء الحفصي سواء عن نفسه أم عن غيره، فهي ذات نهج واحد، نصفها الأول في العزاء ونصفها الثاني في الهناء، شأنه في ذلك شأن غيره ممّن خاض في هذا الباب على طريقة مات الملك عاش الملك.

(3) هو أبو الحسن علي بن لبّ بن علي البلنسي المعافري المعروف بابن شلبون الذي ورد التعريف به في هامش الرسالة رقم 84 من السفر الأول.



عزيز بن عبد الملك بن خطاب[1] سلام كريم عليكم ورحمه الله تعالى وبركاته.

وبعد حمد الله على جزيل النعم، وجميل الصنع المنهل الدّيم، والصلاة على سيدنا محمد المنعوت بمحاسن الشّيم، المبعوث إلى العرب والعجم، والرّضى عن الخليفة الإمام المستنصر /44/ بالله أمير المؤمنين[2] سليل ساقي الحرم، وفرع دوحة الشرف والكرم، فالكتاب إليكم كتب الله لكم أسمى المراتب، وأسني الرغائب، من مُرسية حرسها الله ونحمد الله العظيم، ونشكره شكر من عرف إحسانه الجم وفضله العميم، ونرى لكم من حق الإجلال والتكرمة، وحرمة الأذمّة المتقدمة، ما تقتضيه ذاتكم الخطيرة، وأصالتكم الشهيرة ومنزلتكم الجليلة الكبيرة.

وقد وصَل-وصَل الله سعادتكم-كتابكم الأثير المبرور مؤكدا من العقد الصحيح، ومقررا من الولاء الصريح، ما أحلّه القبول بالمحل الآهل الفسيح، ومازلنا نعتقدكم عِلق مضنّة، وصديقا لا يعرض صدقه على ظنّة، ونشاهد لكم من الهمم السنية والشيم السرية ما يبهر عين المُشاهد، ويظهر زين المَشاهد، ولكم عندنا من المبرّة العميمة، وحفظ أسباب المودّة الكريمة، ما تتخطّى الرّخصة في واجبه إلى العزيمة، وكلّ أغراضكم لدينا فإنّها إلى ذروة الاعتناء مُرقّاة، وبغاية الاحتفال والاحتفاء متلقاة، فليكن عندكم من ذلك ما تثقون به كل الثّقة، وتعرفون منه صحيح المودّة وصريح المقة، إن شاء الله تعالى وهو تعالى يُديم سعادتكم، ويُسنّي إرادتكم، والسّلام.

-159-

## وكتب يتطلع إلى لقاء الشيخ نجم الدّين المازندراني

عُجالتي هذه رسمتها خدمة للنّجم[3]، المُستمِد من نُور سيّد العرب والعجم،

(1) تقدّم التعريف بالمكتوب عنه عزيز بن خطاب في أحد هوامش الرسالة رقم: 11 من السفر الأول.

(2) هو أبو جعفر منصور الخليفة العباسي ما قبل الأخير في بغداد، حكم الفترة (623 - 640 هـ/ 1226-1242م).

(3) هو الرّحالة المشرقي نجم الدّين يونس بن مهذّب الدّين عثمان الشريف الحسني المازندراني، من أهل بغداد، قدم الأندلس ودخل اشبيلية فروى عنه أبو القاسم خلف بن
=

زاده الله ائتلاقا، وأبقى للاعتناء به اعتلاقا، ووقى كَماله يزين حجازا وعراقا، وينير آثار /45/ الشرف الذي أعرق فيه إعراقا، وعندي لِجَلالِه ما يعلمه يقينا، وأنا أعتقد التوسّل به إلى الله دينا، ونفسي التي أستحق ومَلَكَ، سالكة معه بالحقيقة أنّى سَلك، وعلى عهده أقيم، ما أقام الكهف والرّقيم، واستقام الصّراط المستقيم، ولِعقد إضماري في محبته العقد النظيم، ولله عليّ في تيسير يفي بلقائه المنّة الجسيمة والفضل العظيم، وَلِمُخَاطَبَتِهِ الكريمة من قلبي سُوَيْدَاؤُهُ ومن عيني سَوَادها، وبها أفاخر نفوس الأمجاد التي بالنفائس مفاخرتها ومِجَادُها، وهي نصيبي من الأيّام فللّه مَوهوبُهَا ومَفادُها، وعندها طبيبي إذا أرى الأحبّة نَأْيُها وبعادُهَا، ومنها طبّي وكافوري قرطاسها ومسكي مدادُها.

وقد وصلتني منها صلاتٌ متصلات، على بيت مُهديها سلام وصلاة، فحصلت على ذخائرها الأخاير، ولهجت بها لهج المبشر بالبشائر، ونهجت سبيل الشكر لتشريفاتها البواهي البواهر، وكان آخرها طُلُوعًا بأفقي، ومجيئا على وفقي، الكتاب المُعْلِم بالانفصال من إشبيلية إلى سبتة[1] حرسهما الله معًا، المُلمِع إلى جلية ما تعرّفه ذلك الجلال مرأى وَمَسْمَعًا، ورغبتي إلى شرفه الأعلى في موالاة ما عوّده من الإعلام، ووعد وإن شطّت النوى من إهداء التحية والسّلام، وقد أبلغت عن

-

عبد العزيز القبتوري. لم يتحقق المقري من أي البلاد المشرقية هو، ثم علم أنّه من بغداد لمّا وقف على كتابين كتبهما في شأن العناية به ابن عميرة، وسيردان مع كتب أخرى بعد قليل. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الثامن/القسم الثاني، ص 452. المقري، نفح الطيب، ج 3، ص 145.

(1) لمّا عزم المازندراني على الرّحلة من اشبيلية إلى مراكش، كتب في شأنه الكاتب أبو عبد الله ابن الجنان رسالة إعلام إلى الشيخ أبي الحسن سهل بن مالك فورد عليه بغرناطة، فشاهد منه الجلال يعبق نشره، والإقبال يتألق بشره، والنوال يتدفق بحره، كما يقول ابن عبد الملك. ولما ارتوى من لقائه، واحتوى على ما استفاده من تلقائه، رحل إلى سبتة حيث التقى بالشيخ أبي الحسن الرّعيني الذي كتب إلى ابن عميرة يعلمه بشأنه. وسيرحل المازندراني إلى الرباط حاملا معه رسالة إعلام من الرّعيني ورسالة أخرى من ابن الجنان إلى ابن عميرة الذي سيستقبله بحفاوة بالغة. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الثامن/القسم الثاني، ص 453.



مجده كلّ من أشار بالإبلاغ إليه، وجميعهم شاكر لذلك العلاء الذي اجتمعت المآثر لها سميّة لديه، والله ينهض الأمّة بواجب ابن نبيّها الكريم، ويصل للشّرف الحسني سُعُودًا متلاصقة الحديث بالقديم، ويصلّى على أهل البيت النّبوي /46/ صلاة متضوعة النّسيم، موروده بتسنيم التسليم، ومعاد التحيّة والرّحمة عليكم أيها النجم الثاقب، ما ازدهت بكم المحامد وازدَنت المناقب.

– 160 –

## تعزيـة الأمير أبي زكرياء الحفصي

وبعد، فكتب العبد كتب الله للحضرة الأميرية العلية الطاهرة المباركة السّنية اليد الطَولى، وضاعف لها ثواب الصّبر عند الصدمة الأولى، وشدّ عُرَى مُلكها السّعيد وأمرها الرّشيد مَن يُمسك السّموات والأرض أن تزُولا[1].

من بجاية كلأها الله حين ورد الكتاب العلي الكريم بالخطب الذي أنسى الخطوب، وقلقل الجنوب، وعلم دمع الجفون أن يصُوب، وأعشار القلوب أن تذوب، وهو الحادث في مولانا المقدّس المجاهد المرتضى كرّم الله مثواه، وجعل جنّة المأوى مستقرّه ومأواه، فإنا لله وإنّا إليه راجعون تسليمًا للأمر، وانطواءً على أحرّ من الجمر، وتفجّعا للطارئ الذي أظلمت له الأيّام، وشُدِهَ به الأنام، فبكل قلب وجيب، وفي كلّ صدر زفرة ونحيب، وأي وُجُودٍ لمستعار الجلد، أو خُمُودٍ لنار الكمد، أو كيف للدّمع أن يرْقى، أو لطرف من الصّبر أن يثبت أو يبقى، وقد زلزلت الأرض زلزالها[2]، واستشعرت النفوس بلبالها، والحياة انقطاعها وزوالها، لولا أنّ الله سبحانه ربط على هذه الأفئدة وأنجدها بألطافه المنجدة، بما خلفه مولانا الماضي من السكينة /47/ وأوضحه من السّبل المُبينة، فنظر النظر الذي رتق الفتق، وجمع الخلق، وكان لطائره اليمن، ولله علينا فيه الفضل والمَنُّ، فيه رسَت القلوب وقد كادت تزيغ، والنُّفوس وما نزل بها لا يحسن صِفَتَه المُحسِن البليغ، وما غاب أحد النّيّرين وقد أبقى قرينه، ولا فُقِدَ الضِّرغام وقد وَلَدَ من يحمي عَرِينَه، وما كَادَ

(1) اقتباس من الآية رقم 41 من سورة فاطر.

(2) اقتباس من الآية رقم 1 من سورة الزلزلة.

التَّرحُ يقضي على الجميع، حتى غشيه الفرح بصنع الكريم وكريم الصَّنيع.

والعبد آخِذٌ من هذه الحال بما يقتضيه رُسُوخُه في العُبُودية، وسبقه إلى إحراز هذه المزيّة، وتميّزه في العبيد بقرب سالف من الباب السّعيد[1]، وخدمةٍ أنعم الله عليه أن وصل القديم منها بالجديد، وأدنى لحظة من تشريفاته من سَعِد بها فبذكرها تطيب أوقاته، وفي التعلّق بها تجتمع متعلّقاته، والله ينهضه إلى حقّ عليه يترتب، وعَمَلٍ يسعى له ويَدأب، بمنّه وكرمه والسّلام.

– 161 –

## وله من رسالة في المعنى نفسه

وبعد حمد الله الذي له البقاء الدّائم لا لسواه، والصّلاة على سيّدنا محمد رسوله خير من تخيّره من خلقه واصطفاه، والرّضى عن مهديّه الإمام المعلوم وعن المهتدين من أوليائه بهدَاه، والدّعاء للحضرة الأميرية العليّة الطّاهرة المباركة السّنية بنصر تهبّ يمينا وشمالا صبَاه، وتمضي جنوبا وشمالا أسنّته وظُبَاه.

فكُتِبَ كتب الله لمكانكم الأرفع من شعار الصّبر لِبَاسًا، ومن أنوار اليقين اقتباسًا، من بجاية كلأها الله على حين طرق النبأ العظيم، ورَاعَ الخطب /48/ الجسيم، وأظلمت الدّنيا في العيون، ورجفت الأرض بعد السّكون، بالحادث في مولانا المقدّس كرّم الله مثواه، وجعل جنة المأوى قراره ومأواه، فإنا لله وإنا إليه راجعون تسليما على ما قدّر وقضى، وانطواءً على أحرّ من جمر الغضى، وعِلمًا فإن الجزع وإن التهب جمرًا، وأسال الدّموع بيضا وحمرًا، وأدّى بالنفوس إلى الذهاب ولا تجد فيما دونه عذرا، لا يردّ من واراه القبر، ولا يرجح آخرا إلّا التسليم والصّبر.

وما مضى رضي الله عنه حتى حصّن أمر الإسلام، وأَعَدَّ لفجأة الأيّام، فأقام مَن أقام صَغَا الأمور بأسرها، وبَادَرَ جَبْرَ الأحوال قبل كسرها، والدّنيا وَصَلَ الله

(1) واضح من هذه العبارة أنّ ابن عميرة قد كتب هذه التعزية عن نفسه وليس عن غيره كما في الرسائل الأخرى، فهو يشير إلى اتصاله بالأمير أبي عبد الله محمد المستنصر عندما كان واليا ببجاية.



علاءَكم غُنمٌ وفوات، وحياة ووفاة، ثم إن الكلوم بحمد الله مُعفّاة، وأمور الاشتمال على الكمال مستوفاة، أفل أحد النّيّرين والثاني طالع، وأغمدت الصّمصامة وغرب المطبوع من جوهرها قاطع، ومكان المولى من العلم بمجاري الأقدار، وتصرّفات هذه الدّار، يقتضي صَبْرُهُ في الرّزيّة، وشكره على العطيّة، فهو مكان الشكر لأولي الحجى، وموضع الصّبر الذي به نجا عند النوائب من نَجَا.

– 162 –

## وله من أخرى في المعنى نفسه

فكُتِبَ كتب الله لكم سعادة يلزم طائرها، وعادة تكرم مواردها ومصادرُها، من فلانة[1] وبركة الحضرة الأميرية العليّة أيدها الله تنير في جنح الظلماء، ويُلجأ إليها عند حُلول الدّاهية الدّهياء، وطُموس أثر التجلّد والعزاء.

وبعد /49/ وُرُود الكتاب الكريم، بالنّبأ العظيم، والخطب الجسيم، والنازلة التي زلزلت الأرض لهولها، ومادت بأهلها، وأظلمت الجوانب من وعرها وسهلها، وهو الحادث في مولانا المقدّس كرّم الله مثواه، وجعل جنّة المأوى قراره ومأواه، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون تسليمًا لمن له الأمر والخلق، واتباعًا لقوله عز وجهه وقوله الحق، وانطواءً على حرّ فجيعة فظيعة في كلّ قلب منها حسرة، وبكل صدر غليل وزفرة.

ولأوّل هذه الصّدمة التي أسمعت الصّمّ، وهدّت الجبال الشّمّ، أحسّ معظّمكم للأرض تحته رجفانا، ولم يملك للدّمع سَحًا ولا تهتانا، وجزع أيّة ساعة مجزع، وفزع إلى الصّبر فما وجد في قوسه من منزع، ثم ثاب إليه أن مولانا الماضي رضي الله عنه قد كان ألقى هذا الأمر في روعه، فأعدّ له قبل وُقوعه، وألقى أمر الأمّة للنظر الذي حمى جدّه من العثار، وعقْدَه من الانتثار، فالأمور صلاحها في اتساق، وصباحها في ظهور وإشراق، وقد أضاءت بحمد الله المطالع، وأشرق مع تواري الآفِل الطّالِعُ.

(1) هي مدينة بجاية التي كان يكتب منها رسائل التعزية عن نفسه وعن غيره بعد موت أبي زكرياء.

-163 -

## رسالة توصية بصُوفيّين يلعب أحدهما بالصّحاف لعبًا معجبًا

الأخ المكرّم أبقاه الله موضع الاعتماد، ومظَنّة الإرْفاد، من تسمو النواظر إلى نباهته، وتطيب المحاضر بطيب فكاهته، فلاغرو أن يكون أملاً لجملة الأصناف، وملاذا حتى لحملة الصّحاف، وتحت هذا الإجمال بيان، ووراء هذا السِّر إعْلان، /50/ وحَاملا العجالة أخوان، لهما شان، وعندهما ظرف وإحسان، إن أنشدا أطربَا، ومتى قاما أغربا، ما شئت من إمتاع وطيب سماع، وحلاوة أسجاع، وطلاوة نظم ذي إغراب وإبداع، وهناك لا تجد في القول زللاً، ولا تسمع في الشعر خللا، بل يقيمان إعْرَابَه ووزنه، ويزيدان بحسن الإنشاد حُسْنَه، ولهما في مركز المدار، وموقف الاختبار، نشر وطيٍ، ونثر للعمائم وَلَيٍّ، وربّما أعاداها بعد إلقاء، وقلبا الثياب لغير استسقاء، فيرجع الطّالع آفِلاً، ثم يعود العالي سافلاً.

هذا ولأحدهما وصف يزيد على الأوصاف، وعمل هو المُشَارُ إليه في الصّحاف[1]، تُصَفُّ له في مداره، وتلقى بمجال إقباله وإدباره[2]، فيأخذها بأصبُعين، ويديرها لرأي العين، فترى عجبًا من نَصْبٍ وإمالة، وإثبات وإزالة، واتساق بغير قدّ، وإلصاق دون وُدّ، ورُبّما أكفأها في الهواء، وقد غمرها بالماء، فتحسبه جمد فما يقطر، أو عاد سرابًا في عين من ينظر، ويمرّ بها فيجعلها تحت ذيله، ثم يقتلعها بجملة سَيْلِهِ، فيفقدها العيان، ويخلي منها المكان، ويخلع الثياب ولا أثر هناك، وينزع السّراويل فلا زيادة على تلك وذاك، فإذا استوفى بعض جوانبه، وقضى وطرًا من عجائبه، ارتجّ من الأمام والوراء[3]، وقام عنها كتاركة بيضها بالعراء[4].

(1) مفردها الصّحفة وهي كالقصعة مُسلنطِحة عريضة وهي تشبع الخمسة ونحوهم. وأعظم القصاع الجفنة، ثم القصعة تليها تشبع العشرة، ثم الصّحفة تشبع الخمسة ونحوهم، ثم المئكلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصّحيفة تشبع الرجل. لسان العرب، ج 9، ص 187.

(2) طباق الإيجاب بين "إقباله وإدباره".

(3) طباق الإيجاب بين "الأمام والوراء".

(4) تضمين من قول الشاعر إبراهيم بن هرمة:



ويُؤْتَى بالنّار وحرّها مَرهُوب، وَلَهَبُهَا مشبوب، فَيُودِعُها ذاك المستودع، ويبدع في شأنها فوق ما أبدع، ورُبّما وُضِعت له القلّة بمائها، فلا ترى أعجب من إخفائها، يختطفها اختطَافا، وقد هزّ منها أعطافا، وَرَكّبَ فوقها صحافا، فيحمل منها جنينا حشّ، ودفينا يأمن /51/ النبش، ثم يقوم عنها عجلان، ويترك شخصها كما كان، وهذا خلال نغمات حسان سماعيّة، وهيئات ايقاعية، يقف عليها الحسن والإحسان، وتهش لها العيون والآذان[1].

فإذا وافاك فليجد طولك، وليكن أخصّ من حولك، فمكان هذا الصنف منك لا يُنكر، وَرَعي وسائلهم إليك ممّا يُشكر، والله يبقيك تُولِي الجميل، وتعطي الجزيل، وتحفظ في الجار وصيّة جبريل، وتمثل في الغريب الدّار أفضل ما قيل.

-164 -

## رسالة توصية إلى بعض العلماء بطالب تميمي النسب

كتابي إلى سيّدي الذي تعظيمي إيّاه، وإشادتي بكمال مزاياه، رأي به أتمسّك، وعقد لست فيه أتشكّك، وقد علمنا أن البيان أئمّته هو أسوتها، ومدينتهُ إليه تَصْبُو نسوتها، بل محاسن الآداب إيّاه تعبد، وكَوَاكِبُها لَهُ تسجد، ومن يخبط إليه اللّيل، ويخطب لديه الكيل، أعطاه منها عَطَاءَ مَن إلى سَرير مُلكِها نُقِل، وعلى خزائن أرضها جُعِلَ.

وإنّي وتركي ندى الأكرمين ... وقدحي بكفّي زندا شحاحا
كتاركة بيضها بالعراء ... وملبسة بيض أخرى جناحا

وقد عني ابن هرمة بقوله: كتاركة بيضها، النعامة تنتشر للطعم فربما رأت بيض نعامة أخرى فتحتضنه وتنسى بيض نفسها. لذلك جاء عنها في الأمثال: أحمق من نعامة، وأموق من نعامة. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 313.

(1) يستفاد من هذه الرسالة الطريفة وما تضمنته من وصف دقيق، أنّ هذه الألوان من الشعوذة والسرعة وخفة اليد التي ما تزال مظاهرها قائمة بيننا اليوم، كانت معروفة ومنتشرة في ذلك العصر وأنّ أصحابها كانوا يتخذون منها حرفة يتكسبون منها حين يعرضونها للتسلية.

والوَاصِل بعجالتي هذه فلان التميمي وجدته قد تقنّع وتعفف، ولم يَهْو كقومه الشيء الملفّف[1]، بل رغبته إنما هي في ازدياد فائدة، لا في ازدِرَادِ مائدة، وحِرصُه على قارئ يجوّد، لا على قارٍ يزوّد، ولما صدر الآن رأيته يريد أن يدنو منكم إلى ظلّ يعده الجنى، ويجده خير ما اقتنى، وإنما يقف بالصَفّ اللّائق بسن الحداثة، ويحبّ أن يكون ثاني النفر الثلاثة، وسَيْل معارفكم وإن بلغ الجدرَ، بل جاوز القدرَ، يكفيه الآن منه ما يهِمُ به بأرضه أن ينمى، وبارقه أن يهمى، وفضل /52/ سيدي يدنيه إذا قدم، ويُعلِمُه مما علم، إن شاء الله تعالى.

– 165 –

## المؤلّف في مهمّة تفتيشية في مدينة الحمّة بإمارة ابن هود

فكتب العبد كتب الله للمقام العلي الكريم سعدًا يستهل غمامه، وعزما لا يكلّ حسامه، من فلانة[2] وبركات سيرته الغرّاء، وبصيرته المباركة الآراب والآراء، تطلع من كلّ ثنيّة، وتجاوز كلّ أمنيّة، والحمد لله على ما منح من عارفة جليلة وهبة سنيّة، وللعبد في ما يلزمه من وظائف الخدمة، ويجب عليه من حقوق النعمة، مجهود يستفرغ، ونيّة هي من عمله أبلغ.

ووصله الكتاب الكريم طالعًا بالهدى والنّور، صَادِعًا بالنظر المُوكل بصالح الجمهور، فتلقاه العبد بالعجز عن حقه وغايته لا تدرك، وبادر إلى امتثال أمره وكلّ مُهمّ له يترك، ونهض من حينه إلى فلانة[3] ومنها كان الاجتماع بالقوم في جامعهم

(1) يشير إلى قول الشاعر يزيد بن عمرو بن الصَّعق حين هجا بني تميم:

إذا ما مات ميت من تميم — وسرّك أن يعيش فجيء بزاد
بخبز أو بسمن أو بتمر — أو الشيء الملفف في البجاد

وأراد بالشيء الملفف في البجاد وطب اللبن الذي كانت تعيّر به تميم. لسان العرب، ج 9، ص 319.

(2) هي مدينة الحمّة الوارد ذكرها في الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة، وهي تقع بين مرسية ولورقة.

(3) هي مدينة الحمّة.



إثر صلاة الجمعة فعُرِض عليهم المقصد الأشرف، واستنزلوا لسماع تلك الفصول ما يُنكر منها أو يُعرف، فوثبوا دفعة من غير تدريج، وضجّوا أعلى ضجيج، حتى امتنع النطق والإفهام، وتطاولت الأعناق والهام، وكاد الغريب بينهم تصكّه المناكب وتطؤُه الأقدام، فلم يكن بدٌّ من الانتقال إلى منزل وَاليهم وبين يديه كان الاجتماع، وبمحضره أمكن القول والاستماع، فدخلوا على مراتبهم فرقا، وسُئِلُوا عن تلك الفصول نسقا، فما اقتصروا على إنكارها وجحدها، بل قلبوها كلّها إلى ضدّها، فحين قيل عن صاحبهم[1] أنّه نفّر وشرّد، قالوا بل سَكّن وَمهّد، /53/ ولمّا سمعوا أنّه خطأ وغَرّم، أجابوا بأنّه عفّ وتكرّم، وخُوطبوا بجعله على الشاكي مثل ديّته، فتنادوا بنفي ذلك عنه وتبرئته، وعندما ذُكِر عن إخوته أنّهم فعلوا وصنعوا، شهدوا على براءتهم وقطعوا، وهكذا في المُسَدِّدِ[2] ومحتسب الليل[3]، أبطلوا ما قرفا به من الرّيبة والميل، وبالجملة فأفرطوا في أجوبتهم إفراطا بعضه كان أجرى على الطريق، وأولى بالتصديق.

فلمّا انصرف العبد وجد لمّة من مشيخة الحمّة وعامّتها بلغهم ما كان فرَدّوا وأنكروا، وذكروا إخوانهم فقالوا يجب أن يُعذروا، فالرّجل في محلّ ولايته حاضر، وعُذرُ الساكت عن عَيبه على عينه ظاهر، وسمّوا فرقة منهم زعموا أنّهم سُنّيّون، وطلبة لا أُميّون، وذكروا أنهم إن استشهدوا حيث ترتفع التّقية، وتزول العصبيّة، فإنّهم يشهدون لهم بِمَا زَعَمُوه، وينقمون من صاحبهم ما نقموه، وقد أدرج العبد أسماءهم طيّ هذه الخدمة كما ألقيت إليه، وأنهى نصّ ما سمع وأورد الاعتراض عليه، والنظر الكريم أدامه الله يُميّز بين الرّاجح والمرجوح، ويُخرج

(1) هو الوالي الذي كان الاجتماع في منزله بعد الانتقال من الجامع.

(2) المسدّد هو القاضي الذي يتولى الحكم في المدن الصغرى ولا يصدر أحكامه إلا في القضايا الصغيرة، ويتم تعيينه من طرف قاضي الجماعة الذي يكون في المدن الكبرى وعواصم الولايات. المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 218.

(3) المحتسب هو الآخر يتم تعيينه من طرف قاضي الجماعة وغالبا ما يكون عمله في الأسواق يراقب أصحابها، ولكن المقصود هنا هو محتسب الليل رئيس العسس صاحب خطة الطواف بالليل. المقري، المصدر نفسه، ص 219.

المشكل إلى حيّز البيان والوضوح[1]، إن شاء الله تعالى.

-166-

## رسالة إعلام إلى ابن حسّان في شأن الشريف نجم الدّين المازندراني[2]

[الكامل]

يا ابن الوصي إذا حملت وصيّتي ... أوجبت حقا للحقوق يضاف

وتحيتي كل التحايا دونها ... فكذاك دون رسولها الأشراف

أحسن بأن تلقى ابن حسّان بها ... مهتزة لورودها الأعطاف[3]

كالرّوض باكره الندى فلعرفها ... يا ابن النبي على النّدي مطاف

/54/ وعلاك إنّ أبا العلا ومكانه ... يُلقى به الإسعاد والإسعاف

(1) أنهى ابن عميرة مهمته في الحمّة بإعداد تقرير سجّل فيه أسماء أصحاب الشهادات المتعارضة ورفعه إلى ابن هود لينظر فيها. ويبدو أنّ ذلك كان في حدود سنة 634 هـ/1236م، وهي السنة التي كتب فيها المتوكل ابن هود إلى ولّاة البلاد يأمرهم بالاجتهاد في مصالح العباد والرّفق بهم والاحتياط في اختيار الموظفين، وقد أورد بعض فصول هذه الوثيقة ابن عذاري في البيان (قسم الموحدين)، ص 339 وما بعدها.

(2) ذكرنا قبل قليل أنّ هذا الشريف غادر سبتة متجها إلى رباط الفتح قاصدا قاضيه ابن عميرة بتوصية من الرّعيني وابن الجنان، وقد استقبله بحفاوة بالغة وفي ذلك يقول ابن عبد الملك: ولما احتل برباط الفتح شاهد من قاضيه أبي المطرف روض الأنس ومنى النفس، ومقصد الوارد والوافد، وعالم السراوة جُمع في شخص واحد. وتشوف للوفادة على حضرة مراكش منتهى الرّغائب، وجامعة أشتات الغرائب، السائرة الذكر في الآفاق، المنسية ببهجتها وضخامة مملكتها دمشق الشام وبغداد العراق، فأصحبه أبو المطرف كتب تعريف وإعلام، إلى من بها من السّراة الأعلام. الذيل والتكملة، السفر الثامن/القسم الثاني، ص 456.

(3) هو أبو العلاء محمد بن أبي جعفر عبد الحق بن أبي علي بن حسان المرسي، رئيس الكتاب وعميد الآداب وجامع ضروب الإحسان، من بيت شهير بالحسب، موصوف بالكتابة والأدب، كان بارعا في الفلسفة والطب. خدم بصناعة الطب الخليفة المستنصر الموحدي، وأصبح في آخر حياته كاتبا في بلاط الخليفة الرشيد الموحدي، مات بمراكش سنة 641 هـ/1243م. ابن سعيد، اختصار القدح، ص 126. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 535.



من فيه للزور ارتياحة ماجد ... من زورها وأبيك لست تخاف[1]

وأحق من عرف الكرام بوصفهم ... من جُمّعت منهم له أوصاف

هذه يا سيّدي تحيّة، تجب لها إجابة وَحيّة[2]، وتصلح بها هشاشة وأريحيّة، أودعتها بطن هذه العجالة، وبعثتها مع صَدْرٍ من أبناء الرّسالة، ولله درّه من راضع درّ النبوّة، متواضع مع شرف الأبوّة، نازعته طرف[3] الأشعار، وأطراف الأخبار، فوجدت بحرًا حصاه الدّرّ النفيس، ورَوْضا يجتني منه أطايبَ الثمر[4] الجليسُ، ويُنعت بنجم الدّين وهو كنعته نجم يضيء سناه، ويحلّ بيتا من الشرف ربُّه بناه، وقد جاب الفضاء العريض، ورأى القصور الحُمر والبيض، وورد الحَجون بعدما شرب من ماء جيحون[5]، وزار مشاهد الحرمين، ثم سار في أرض الهرمين[6]، وطوى غيرها لهذا الأفق مختارا[7]، وعبر إلى الأندلس فأطال اعتبارًا، وتشوّف إلى مطلع[8] الأنوار المُفاضة[9]، والنّعم السّابغة الفضفاضة، [وجعل قصدها بحَجّة سفره طواف الإفاضة][10]، وهمّه أن يشاهد سناها العلوي، ويبصر ما يحقر عند[11] المرئي والمروي، وهي غاية يقول الأمل عليها أطلت حومي، وجنّة يتلو الدّاخل لها ﴿يا ليت قومي﴾[12].

(1) هذا البيت ناقص في نفح الطيب، ج 3، ص 145.

(2) من الوَحَى والوحاء: السرعة والاستعجال. لسان العرب، ج 15، ص 382.

(3) في النفح: طرق.

(4) في النفح: السمر.

(5) عن نهر جيحون الذي يصب في بحيرة خوارزم، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 196.

(6) جناس ناقص بين "الحرمين والهرمين".

(7) في النفح: وفارق إفريقية لهذا الأفق مختارا.

(8) في النفح: حضرة.

(9) يريد حضرة مراكش.

(10) الزيادة من النفح.

(11) في النفح: عنده.

(12) الآية رقم 26 من سورة يس.

وسيّدي الأعلى هو منها بابٌ على الفتح بُنِيَ، وجناب عنان الأمل إليه ثُنِيَ، وقصده من هذا الشريف أجلّ قاصد، وأظلّته سماء المجد بجمال المشتري وظرف عطارد، ومتى نعتناه فالخبر ليس كالعيان، وإن[1] شبّهناه فالتمويه بالشّبه عقوق للعقيان، ومن يفضح قريحته بأن يقول لها صِفِيه، لكن هو يعرف عن نفسه بما ليس في وُسْع /55/ منصفيه[2]، ويقتضي من عزيمة برّه ما لا سَعَة للمترخّص فيه، [إن شاء الله تعالى وهو يُديم عُلاكم، ويحرس مجدكم وسناكم، بمنّه والسّلام الكريم، الطيب العميم، يخصّكم به معظّم مجدكم، المعتدّ بذخيرة ودّكم، المحافظ على كريم عهدكم، ابن عميرة، ورحمة الله تعالى وبركاته، في الرّابع والعشرين لربيع الآخر من سنة 639 هـ، انتهى][3].

- 167 -

## وكتب في حقّه إلى قاضي الجماعة أبي إسحاق المكادي

[الكامل]

إن يقض جمعك بالكريم المرتضى ... قاضي الجماعة[4] فالمنى لك تقتضى

حكمت معاليه لقاصده بما ... يبغي وحاش لحكمه أن ينقضا

ولأنت يا ابن الطيّبين أحق من ... بالبر والفضل المبرّ له قضا

أحييت من سادات قومك قد سوا في ... الفضل والأدب الوصي مع الرضا

وأعدت فخر المعدن الحسني في ... باقي الزمان كعهده في ما مضا

أنتم وحق البيت آل البيت قد ... ألبستم الشرف النقي الأبيضا

(1) في النفح: ومتى.

(2) في النفح: واصفيه.

(3) الزيادة من النفح.

(4) هو أبو اسحاق بن أبي زيد المكادي قاضي الجماعة بمراكش في عهد الخليفة الموحدي الرشيد وأخيه السعيد، وكان والده أبو زيد قاضي الجماعة في عهد المأمون. أشار إليه ابن عبد الملك في العبارة التالية: قاضي القضاة، وأسنى موصوف بالشيم المرتضاة، بحر الندى، وبدر لنادي. الذيل والتكملة، السفر الثامن/القسم الثاني، ص 458.



وأبوكم سأل المودة فيكم ... صلّى عليه الله ما قمر أضا

يَرِدُ على سيدي قاضي القضاة، الفذّ في شيمه المرتضاة، من هذا الشريف الأجل المبارك الأطهر الأكمل نجم الدّين بن مهذّب الدّين وقاه الله الأفول، وأبقاه فرعا يجني تلك الأصول، نظير النجم سنًى منيرًا، وسُرَى ومسيرًا، وحيّاه الله من ذي محيّا بشرِه للوحشة طارِد، وظرفه كأنما استملى منه عطارد، يروي من الآداب[1] عيونَها، ويجلُو من المحاسن أبكارَها وعُونَها، وقد راض من المسالك ما استعصى، وانتهى من المغرب الأدنى إلى المشرق الأقصى[2]، حتى كأنّه أراد أن يبلغ حيث بلغ ذكر مجدِه، أو يفرغ من مساحة ما كان زُوِيَ لسيّد الأوّلين والآخرين جدّه[3]، وله في معاني التجوال، ومعاناة الأهوال، قصص إنما يتأدّى برونقه، من عذوبة لفظه ومنطقه، فإذا جاذبه سيّدي أطرافه، وهزّ بالإصغاء إليه أعطافه، رأى صدرًا نمته سادة سراة، وبحرا متى تطعّمه قال: ﴿**هذا عذب فرات**﴾[4]، وإنّما /56/ هو حَسَبٌ وضّاح كقمر[5] الدُّجنّة، ومجد طالبيٌّ من شيعته ذلك الجلال الماضي على سنن السّنّة، يَقسم له محبّة في أبي القاسم من برّه، ويدري قدره فلا يفطم ابن فاطمة من درّه، إن شاء الله تعالى[6].

(1) في الذيل والتكملة: الأدب.

(2) في الذّيل: وانتهى إلى المغرب الأدنى من المشرق الأقصى.

(3) يشير إلى الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه: "إنّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا ومغاربها وَإِنّ أُمّتِي سيبلغ ملكها مَا زُوِيَ لِي منها وَأُعْطِيتُ الكنزين الأحمر وَالأبيض.

(4) الآية رقم 53 من سورة الفرقان.

(5) تشبيه مجمل ذكر المشبه والمشبّه به والأداة وحذف وجه الشَّبه.

(6) تاريخ كتابة هذه الرسالة هو 24 ربيع الثاني سنة 639 هـ/1241م، أي التاريخ نفسه الذي كُتِبت فيه الرسالة السابقة والرسائل الأخرى في شأن هذا الشريف العلوي.

-168-

## وخاطب في شأنه أبا زكرياء الفازازي(1)

[المتقارب]

لـك الخيـر لا تخلّهـا مـن قـبول ... وخـل لهـا نفحـات القـبول

وخــذها تحــيّة مــستأنس ... يـسلّم بالـباب قـبل الدّخـول

إذا وصــلتك فأبــرز لهــا ... مــن البـر صـفحة بـر وصـول

وكـن مـع مـن لا يـرى بـرها ... كـسمع المحـب وعـذل العـذول

فـإن شـفيعي لهـا ابـن الـشفيع ... وإن رسـولي بهـا ابـن الرّسـول

صلّى الله على نبينا محمد وآله، ورزقنا من بركة المحبّة فيه وفي ذويه ما نلظّ بسؤاله، والمشار إليه تولّاه الله بحفظه، من رقعتي وتحيتي تزدان من يده ولفظه، وهو الشريف الأجل، [المبارك الأسنى الأكمل](2)، نجم الدّين بن مهذّب الدّين وإنّه النّجم في أوجه، والبحر(3) متدفقا بموجه، شرف إلى سماء الكرماء مرقاه، وأدب من ماء الكوثر سقاه، وكأطيب الثمر تخيّره وانتقاه، فهو من المجد في بحبوحته(4)، ومع الدّهر متقلّب في أرجوحته، سَلْ به المنازل والمناهل(5)، والمعالم والمجاهل(6)، والعراق ورافديه، والحجاز ووافديه، طالب ربح في مَالِه، وباغي ثواب لمآله، وإن شاء سيّدي باحثه عن حدثان الدّهر وحديث ما وراء النّهر، ورفع الرواية منه إلى عليم، وكتب بقلمه قصّة كلّ إقليم، فقد خبر الخابور(7)، وسَبَر ناس نيسابور، /57/

(1) هو أبو زكرياء يحيى بن أبي عبد الله محمد الفازازي، كان صاحب خطتين في عهد الخليفة الموحدي الرشيد وهما خطة نقابة الطلبة وخطة القلم الأعلى. ابن عبد الملك، السفر الثامن/القسم الثاني، ص 459. ابن عذاري، قسم الموحدين، ص 299.

(2) الزيادة من الذيل والتكملة.

(3) تشبيه بليغ للمكتوب في شأنه بالبحر وبالنجم.

(4) في الذيل والتكملة: والمجد في بحبوحته.

(5) جناس ناقص بين "المنازل والمناهل".

(6) طباق الإيجاب بين "المعالم والمجاهل".

(7) الخابور اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ولاية واسعة وبلدان جمة غلب عليها اسمه فنسبت إليه من البلاد قرقيسياء وماكسين والمجدل وعربان. ياقوت -



وعاين خَرابَ بخارى، ودار حيث كان ملك دَارَى، وطاف بمكّة أوّل تربة مسّت جلدة جدّه، وحلّ بيثرب مأواه الأشرف(1) بقصده، ورأى القدس ومسراه **﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾**(2)، ولقد جاوز جيرون، بعدما شرب من جيحون، وقطع ما بين مصر ونيلها، وغرناطة وشنيلها، فترون منه إن شاء الله من جاب المسالك والممالك، وتشوّف إلى ما هُنا وهُنالك.

وأحبَ أن تكون حضرة الإمامة أيّدها الله لحِساب ما عَاين بذلك، وما ثمر الجنّة من سائر الثمر، ولا ينظر إلى السُّهى إلّا سَاهٍ عن القمر، وأي مذنب يذكر مع البحر، أم أيّ يوم يُقاس بيوم النّحر، وسيشاهد المعالم المقدّسة، شرّفها الله بعين تَدري قَدْرَ ما تعاينه، ويصفها بلسان لو أعاره لوصفت به محاسنه، ولسيدي الأعلى عادة أن يضم إليه من أعلق به رجاءه، ويكرم كريمة قوم إذا جاءَه، وهذا بلا ارتياب كريمة الكرام، وبقية سادة البلد الحرام، والزّاوية الصّادق اللّهجة، والحديقة الرّائقة البهجة، فهو يزيده على تلك العادة، ويجلو عليه بدار الإمامة وجه السّعادة، وإنّما يكبرُ ابن أكبر السّبطين، ويعظّم من ينظم من جواهر لفظه وفخره سمطين، وإذا أعلى قدر هذا العلوي، وحرّك بالرّفع ثابتًا من بيت شرفه بمكان الرّويّ، أولاه يداً يعطّر بذكرها أندية الجلالة، ويحيلَ في شكرها على ذمّة الرّسالة، ولا شرف كشرف هذه الحوالة، أدام الله علاءكم، وحرس مجدكم وسناءكم، بمنّه والسّلام [الأتم الأعمّ يخصّكم به معظّم قدركم، وموجب إكباركم وبرّكم، أخوكم المعتدّ بكم المثني عليكم، ابن عميرة، ورحمة الله وبركاته، كتب في الرّابع والعشرين لربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وستمائة 639 هـ](3).

-

الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 334.

(1) في الذيل: المشرف.

(2) الآية رقم 1 من سورة الاسراء.

(3) الزيادة من الذيل والتكملة.

– 169 –

## /58/ رسالة تنويه في حقّه إلى أبي عمران الفازازي

[الطويل]

أتاك شريف من ذؤابة هاشم     صريح كماء المزن باق بمزنه

له وهو نجم الدّين وجه مبارك     كنجم الدّياجي في سناه وحسنه

وبشّر موسى بالنبي محمد     وها أنا يا موسى[1] أبشر بابنه

ترد عجالتي هذه أيّها الأخ الحبيب، والماجد الحسيب، من جهة الشريف الأجل، السيّد المبارك الأطهر الأكمل، نجم الدّين بن مهذّب الدّين الذي أبقى الله منه نجمًا سائرًا في فلك المجد، وصُبحا مضيئا على الغور والنّجد، وأوصافه لا أعيرها استعارتي، ولا أرضى لها عبارتي، وما أقول في مَغذوِّ بدرّ النبوّة، مَقرُوِّ شرفه في الآي المقروّة، سُؤدد يزل النجم عن مرقاه، وأدب على شكل حسَبه تخيّره وانتقاه، فعنده منه شرف المقول، وشرك العقول، ولله منه طلّاع من ثنايا الكمال، ناظم بين الجنوب والشمال، مجلسه لمذهب الفضل مدرسة، وحفظه لكتب البلاد فهرسة، مَن جالسه ساح به حيث ساح، وناوله من أخبار البلاد مسنداتها الصّحاح، فأدنى منه صينها، وعرض عليه نُصيبينها[2]، وأحلّه بلخ[3] وما إليها، ونزل به الكرخ[4]

(1) هو أبو عمران موسى بن أبي عبد الله محمد الفازازي المكتوب إليه، وهو أخو السابق. أشار ابن عبد الملك إلى خصومة بينه وبين القاضي أبي القاسم بن بقي لجريرة جرّها عليه أبو عمران، فكتب أبو الوليد بن عفير قطعة شعرية إلى القاضي أبي القاسم يؤنسه بها. الذيل والتكملة، السفر السادس، ص 125.

(2) نصيبين: مدينة في ديار ربيعة العظمى وهي من بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات، وهي قديمة عظيمة كثيرة الجنات والبساتين، لها نهر عظيم يقال له الهرماس عليه قناطر حجارة. الحميري، الروض المعطار، ص 577.

(3) بلخ: كانت مدينة عظمى في خراسان وهي في مستوٍ من الأرض، فتحها عبد الله بن سمرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان. وهي اليوم قرية في أفغانستان. المصدر نفسه، ص 96.

(4) الكرخ محلّة معروفة ببغداد.



وما حواليها، وقطع به السّماوة[1] ومَهَامِهَهَا، وأراه الغوطة[2] وخمائلها وفواكهها، ومصر ومنازلها ومنازهها، وأقرأه سُوَرَ البسيطة وفهّمه متشابهها، ثم عاج به على البلد الحرام، ومَرّ به على مواقف أبائه الكرام، واعتمر به من التنعيم، ومشى معه على زمزم والحطيم، وحمله إلى تربة جدّه مسلّما على الحسن مترحّما على الحسين، ونقله إلى مسراه صلّى الله عليه وسلم حيث كان قاب قوسين، وكم وَعَى من أعجوبة، /59/ وكشف من خبيئة محجوبة، وغريبة مكتوبة وغير مكتوبة.

وقد قصد حضرة الإمامة[3] لينتهي إلى موضع الفائدة من خبره، ويبلغ الصّف الأول من صلاة سفره، وهناك يُحقّر من الممالك ما عاين، ويوجب على كل مُتعال مرَّ به أن يتطامن، وسيدي وقى الله كماله من العين، يبرّه إذا اجتاز به في موضعين، أحدهما يليه بنفسه كما هو المعتاد، والآخر يُسنده إلى أخيه المبارك ونعم الإسناد، فمجده حفظه الله المجد المؤثّل، ومكانه من الدّار العزيزة[4] المكان المؤمّل، وللواردين عليها أمل به أعلقوه، وشكر عليه أطلقوه، والمسؤول من الأخ الكريم [وصل الله سعادته][5] دين عليه في ذمته، وزَيْنٌ لحَسبه يسمو إليه بِهِمّته، إن شاء الله تعالى.

– 170 –

## وكتب في حقّه لأبي زكرياء بن مزاحم

[الطويل]

فديناك إن الفضل منك سجيّة     وأنت به بدءًا وعودا مُعوّدُ

إذا مرّ ذكر منك ترتاح أنفس     وتهتاج أشواق ويختال مشهد

(1) السّماوة بادية بين العراق والشام وهي من أرض كلب. المصدر نفسه، ص 322.

(2) الغوطة من منتزهات دمشق التي تغنّى بها الشعراء كثيرا.

(3) في الذيل: وقد قصد تلك الحضرة حرسها الله.

(4) في الذيل: تلك الدّار المكرمة.

(5) الزيادة من الذيل.

ويحيى بيحيى من تفاءل باسمه ... وذلك من مقلوبه يتأكد[1]

أتاك ابن بنت الهاشمي محمد ... وحسبك فخرا من نماه محمد

شريف له من ذاته شرف له على ... النجم وهو النجم مرقى ومصعد

وإنك في برّ الكرام لأوحد ... كما أن هذا بينهم هو أوحد

وكيف لا وهو من الأرومة السّنية، والدّوحة الحسنيّة، ولدته الرّسالة فيا لشرف هذه الولادة، وشهدت لجدّه أكبر السّبطين بالسّيادة، وناهيك من منصب هذه الشهادة، وهو الشريف الأجل نجم الدّين بن مهذب الدّين[2] من هو النّجم سناء وسنًى، /60/ والرّوض به ما شئت من ظل وجنًى، وقد ركب البطاء والسوابق، ونزل المدارس والخوانق، واحتل الغور والعلم، واستظل الضال والسلم: [الطويل]

وشرّق حتى ليس للشرق مشرق ... وغرّب حتى ليس للغرب مغرب[3]

وسترون منه نسب الكرام مرفوعا، وديوان الأدب مجموعا، ونخبة الشرفاء الطيبين أصولا وفروعا، وعندكم-وصل الله رفعتكم-عادتا برّ وبشر كلاهما ينعم البال، ويفعم السجال، وهذا الشريف المبارك أولى من وفيتموه إياهما، وأنشقتموه ريّاهما، وحق فضلكم أن يرعى فضل حقه، ويختصه من معنى الإدناء والاعتناء بأجلّه وأدقه، وبإزاء ذلك شكر هو في ذمة الرسالة مترتب، وذكر كل سمع بمسرى طيبه مرحّب، إن شاء الله تعالى وهو سبحانه يبقي جنابكم معمورا، ويزيد فضلكم ظهورا، ولا يعدمكم من لدنه عطاء حسابا ومَنّا موفورا، والسلام.

(1) هو أبو زكرياء يحيى بن محمد بن مزاحم المكتوب إليه، من كومية قبيلة عبد المؤمن بن علي، كان من رجال الخليفة الموحدي الرشيد وبطانته. أشار إليه ابن عبد الملك بقوله: علم المجد وحسن المشاركة، الآخذ فيما يسند إليه بالعزائم المباركة، المنفق جاهه ونفائس ماله، لمن اعلق به أسباب آماله. الذيل والتكملة، المصدر السابق، ص 462. ابن عذاري، قسم الموحدين، ص 368.

(2) في الذيل والتكملة: وهو الشريف أبو فلان.

(3) البيت للمتنبي من قصيدته التي يمدح فيها كافورا والتي مطلعها:

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب ... وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي. بيروت: دار الكتب العلمية، 2001، مج 1، ج 1، ص 211.



-171-

## وخاطب في شأنه أبا الحسن العشبي

[المنسرح]

هل لك يا سيدي أبا الحسن ... في من له كل شاهد حسن[1]

في الشرف المنتقى له قدم ... أثبتها بالوصي والحسن

أيها الأخ الذي ملّكته قيادي، وأسكنته فؤادي، عهدي بك تعتام الآداب النقية، وتشتاق اللطائف المشرقية، وتنصف فترى أن في سيلنا جُفاء، وبمغربنا جفاء، وأن المحاسن نبتُ أرضٍ ما بها وُلدنا، وزرع واد ليس مما عهدنا، وأنا في هذا أشايعك وأتابعك، وأناضل من ينازلك وينازعك، وقد أتانا الله بحجة تقطع الحجج، وتسكت المهج، وهو الشريف الأجل نجم /61/ الدّين بن مهذب الدّين[2] وأنه نجل الذرية المختارة، ونجم الدّرية السيارة، جرى مع زعزع ونسيم، ورتع في جميم وهشيم، وشاهد عجائب كل إقليم، وشرّق إلى مطلع ابن أحلى[3]، وغرّب حتى نزل شاطئ سلا.

وقد توجه الآن إلىٰ حضرة الإمامة[4] [الرشيدية أيدها الله تعالى][5] لينتهي من أصابع العد إلى العقدة، ويحصل من مخض الحقيقة على الزبدة، وقد علم أن ما كل الخطب كخطبة المنبر، ولا جميع الأيام من[6] يوم الحج الأكبر، وأدبه يا سيدي من نسبة أفقه، بل على شكل حسبه وخلقه، فإذا رأيته شهدت بأن الشرق قد أتحفنا

(1) هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي العشبي الكتامي من أهل مراكش، درس بها ودخل الأندلس وأخذ عن جماعة من أهلها. كان أديبا بارعا، وكاتبا بليغا، وشاعرا مجيدا، وقد جرت بينه وبين جماعة من أدباء عصره مخاطبات ومجاوبات تدل على إجادته. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الثامن/ القسم الأول، ص 21 وما بعدها.

(2) في الذيل: وهو الشريف أبو فلان.

(3) في النفح، ج 3، ص 146: ابن جلا.

(4) في الذيل، 8/1، ص 464: تلك الحضرة.

(5) الزيادة من النفح.

(6) في النفح: مثل.

– 173 –

## وكتب إلى سيّد يشكره ويطلعه على أحواله

فكُتِبَ كتب الله لمجدكم سعدا مورق الفنن، وسعيا واضح /63/ السّنن، من فلانة[1] وبركة الإمارة العزيزة أيدها الله تنمي صعُدًا، وتلبس الأيام جُدُدًا، وعن تعظيم في مورده شروعي، ومن ثنيته طلوعي، وحب يعلم الله أنه نجيّ ضميري والثاوي بين ضلوعي، وهل غيركم آل فلان جانب إلى ظله أتولى، وبزينة الانتساب إليه أتحلى، إن ادّعى هذا أحد قلت لا وأضربت بكلّا، وتلك اليد عندي هي التي جعلت إعرابي رفعا، وإفرادي جمعا، ولم ترض لعودي حتى قلبته نبعا، وأنا من السيد المعظم بين لقائين: أحدهما أراني الكمال شخصا، وآخرهما أسمعني الفضل نصّا، ومن أدركهما صرف عن غيرهما التفاته، ولم ير أن شيئا نقصه أو فاته، ومنذ فارقته من اللقاءة الأخيرة أتصدى لمخاطبة مجده، والتذكرة بكرم عهده، فلا أعدم مانعا لباب المكاتبة يسدّ، ومن مُرادي منها يصدّ.

إلى أن اجتاز عليّ فلان وحبذا هو جائزًا، إلى مدينة جواركم أرزًا، وبالقدح المعلى من قربكم فائزًا، وبيني وبينه صحبة قديمة، وأذمّة كريمة، بحيث هَوَانًا واحد، وكلانا يجد بأخيه ما هو به واجد، ومن قِبَلِهِ يتعرّف مجدكم حبّي وتشيّعي اللذين هما شمس الزوال، وبرهان أول الإشكال، وإني لأغبطه من هذا الجوار بحظ تهجر له الحظوظ، وأستحفظ معه من عهدي ما هو المحفوظ الملحوظ، وأقول له أيها الغريب مثلي، الحامل من الوجد نظير حملي، ليهنك أن اغترابك وجَدَ الوطن، وفؤادك زايل الشجنّ، وناظرك استقبل الوجه المبارك والمنظر الحسن، فإذا أفضيت إلى المنزل، وقضيت حق ذلك الجواد المفضل، /64/ فابلغه تحيتي، واقصص عليه قضيتي، وقل أخو أشواق، ومبتلى بفراق بعد فراق، فقد الشّكول، وسكن الرّبوع والطّلول، وألف الطّلوع والأفول، ورمت به الأقدار مطارح النوى، وبكى منازل الأحباب لا بين الدّخول وسقط اللّوى[2]، حتى ألانت له الأيام مهاد عشرتها، وأحلته

(1) هي مدينة تونس أو إحدى مدن افريقية.
(2) إشارة إلى البيت الذي هو مطلع معلّقة امرئ القيس:



السعادة دار هجرتها[1]، وأولى من الحضرة العزيزة أيدها الله إلى الظل الممدود، والفضل المقيل عاثر الجدود، فغلب اليأسَ الرجاءُ، وولت أمام السّلم الهيجاءُ، واستقر الثواء بين أمل في اليد مقبوض، وآخر على وجه النجاح معروض، وكلاهما بيت شرفه سلمانيّ، وغرس شجره نُعماني لا نِعمانيّ[2]، فإن أثنيت واختلفت، فلأكثر الحق أغفلت، ومتى شكرت وأطنبت فبمكاني من التقصير قد أذنبت، وهذا الصاحب فلان يؤدّي شكري على قدر طاقته، وينوب عن عيني في رؤية الوجه الذي كلفت بطلاقته، ويتقاضى من جوابي ما أحله سواد الناظر، وأجني به زهر الروض الناضر، إن شاء الله تعالى.

– 174 –

## وأجاب من كتب إليه يوصيه برجل

فكُتِبَ كتب الله لمجدكم بلوغ العلياء، وإقبال النعماء، وسبوغ أثوابها، واقتبال شبابها، من فلانة وبركة الإمارة السعيدة أيدها الله في الآفاق سارية، وبالأرزاق جارية، والمسارُّ بيُمن إيالتها طالعة والمكاره متوارية، وعما يجب من تعظيم وإجلال، واعتداد أنا منه في أنعم بال، وأضفى سربال.

ووصلت مخاطبتكم الخطيرة الأثيرة في جانب فلان تنبه عليه، وتشير فيه بما يجب المصير إليه، وقد وجدته كهلا في سن الحداثة، /65/ أهلا لما وصفه به من العفّة والدماثة، وما كان أولاه بحق يقضى، وأمل به يرضى، إلا أنه وجد الوجه الذي قدّر هنا ليس الخبر عنه كخبره، ولا ضرعه مما يكسع بغيره، فبعد أن شاهد ذلك رأى الانصراف إلى نظر من نظر المقام العلي الكريم أدامه الله تظله أفياؤه وتبله سماؤه، وفي جلالكم أمله ورجاؤه، وبإشارتكم المباركة إن شاء الله يبلغ ما يشاؤه،

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل — بسقط اللّوى بين الدّخول فحومل

الزوزني ابن عبد الله الحسين، المعلقات السبع، ص 5.

(1) هي مدينة تونس عاصمة الحفصيين.
(2) جناس تام بين "نعماني ونعماني".

أبقى الله مجدكم مؤثلة علياؤه، مضاعفة عليه نعم الله وآلاؤه.

-175 -

## رسالة تهنئة

فكُتِبَ كتب الله لمجدكم سعادة به تحف، ورتبة تشير نحوها الأكف، من فلانة وسعادة الإمارة العلية أيدها الله تملي وتخطّ، وبأسها يبري ويقطّ[1]، والحمد لله الذي جعل سهامها تصيب الأهداف، وإجماعها يرفع الخلاف، وقضى بأن الخائن لها صريع الظُّبى والأسنة، محجوج بالكتاب والسنة، مأخوذ بالحق واليقين لا بالشبهة والظنة، والآن خلص الملك من الشوب، وانجاب النفاق عن مدينته انجياب الثوب.

ومجدكم أولى من هُنِّئ بهذا الفتح الذي له ما بعده، والصنع الذي أنجز الله به وَعدَه، لمكانكم من إخلاص واختصاص، وحظكم الذي هو في إقبال ومزيد وللكاشح ما يسّوء من ارتكاس وانتقاص، ووصل كتابكم الخطير بما أعلمه علم اليقين، وأوثق به ثقة الشمال باليمين، وذلك هو الذي أعدّه ذخرا لكل ملمّة، ووفرا لا أخشى معه فراغ ذِمَّةٍ.

-176 -

## وخاطب أحد أصدقائه يصف بلاغته

/66/ أيها السيد الذي مجده في الطّابِ الطّاب[2]، وسؤدده أعيى على الخطاب، أبقاكم الله على كتاب الفضل عنوانا، وفي عين الكمال إنسانا، ما بكرٌ نطقها في صمتها، بل آية ولا أقول هي أكبر من أختها[3]، تظاهرتا عليّ فلم أطق

(1) قطّه يقطّه قطّا: قطعه عرضا. والقطّ: القطع عامة. والمقطّة والمقط: ما يقطّ عليه القلم. لسان العرب، ج 7، ص 380.

(2) الطّاب: الطّيب. وشيء طابٌ أي طيب. قال الشاعر كثير النوفلي يمدح عمر بن عبد العزيز:

يا عمر بن عمر بن الخطاب ... مقابل الأعراق في الطّابِ الطّابْ

وقد ذهب به إلى التأكيد والمبالغة. لسان العرب، ج 1، ص 563.

(3) يشير إلى الآية رقم 48 من سورة الزخرف.



الخصومة، وتنافرتا إليّ فتهيّبت الحكومة، وما كنت أرضى حكما بينهما قسًا في عكاظِه، ولا قيسا يوم حفاظه، فكيف بي وقد لقيتهما بفكر متبلّد، ونظر لا مجتهد ولا مقلّد، نظرت إليهما وعلى بصري عماية، وأكبرت الجمع بينهما وإن أحلّته آية، وأقمت منهما بين نِدّين لا يعرّض جوارهما للإخفار، وزندين ليس نارهما من المرخ والعفار، بل جنتين ظلهما سَجسَجٌ، ونورهما ورد وبنفسج، فأما الثمر فقد أتيتُ به متشابها، وبلوت طعمه مشافها، فكان ألذّ من السلوى لشائر، وأجمع للبديع من قول كل كاتب وشاعر[1].

وما يمنعه وقد أثبت في البلاغة قدم صدق، وانتمى منها في أكرم عرق، فَرَاق في بسوقه، واستغلظ واستوى على سوقه[2]، وعلم أنه كان ذاوي الورق، بادي الشرق، بكيّ الخلف، أعجف الخف والظلف، حتى جاش به من آل عياش[3]، كل صدر بالبيان جيّاش، فأزور إلى مدينتهم إيمانه، وطلع من سمائهم عطارده وكيوانه، وكبيرهم الأرحبيّ المذكّى، وقد جلّ مكانه عن المزكّى، هو الذي صبّ ماءه صبًا، واستحال دلوه بيده غربا، فحينئذ ضرب بعطن، واستقر في أشرف وطن.

-177 -

## إجازة المؤلّف للشيخ أبي التقى وولده أبي علي السّبتي

/67/ اللهم إنا نحمدك ابتغاء مثوبتك، ونعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك[4]، ونسبّحك اللهم كثيرا، ونذكرك كثيرا، ونصلي على نبيك الذي بعثته بشيرا ونذيرا، وأطلعته على الأرض سراجًا وقمرًا منيرًا، ونسألك اللهم أن ترزقنا من العلم أجلّه لديك، وأدلّه عليك، وتجنّبنا منه ما هو عن سبيلك صادٌ،

(1) في هذا الفصل يصف ابن عميرة الرّسالتين اللتين خاطبه بهما السيد المكتوب إليه.

(2) اقتباس من الآية رقم 29 من سورة الفتح.

(3) لقد برزت أسرتان في ميدان الكتابة على عهد الموحدين تحملان اللقب نفسه وهما: أسرة أبي الحسن عبد الملك بن عيّاش القرطبية، وأسرة أبي عبد الله محمد بن عيّاش التّجيبية ولا صلة بين الأسرتين، ولسنا نعرف أيهما يقصد.

(4) طباق الإيجاب بين "رضاك وسخطك"، وبين "معافاتك وعقوبتك".

ولما يقرّب منك مضاد.

**أما بعد:** فإن فلانا[1] وصلتني مخاطبته مفضوضة من البديع، عن مثل زمن الربيع، على حين نثرت أمثال الرّقة رباه، ونشرت أذيال الدقة صباه، فجنين نوره يافع، وجميم نجده وغوره يانع، وكلها مبني على ظن من كريم توهّم جبهة البهيم غرّاء، وليلة السّرار قمراء، فذهب مذهب أشباهه من العِلية، وحلّي ببعض ما معه من الجلية، وسألني إجازته فيما جمعته من الروايات، وتكلفته من الإنشاءات، وتضمنت رسالته مع ذلك طلبي بتسمية بعض المشايخ، والكتب التي حظيت عند نقلة العلوم بالذكر الذائع والمحل الشامخ.

ونصّت على ذكر الفقيه الخطيب الشهيد أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي[2] مفرطة بما أذن له سمعي، ومذكّرة بعهد جرى له-علم الله-دمعي، ولقد مدح السيّد منه بقية بلادنا، ووجيه جيادنا، الجميل من خبر ومخبر، البليغ في صدر ناد أو ذروة منبر، كان صديق والدي رحمهما الله فكنت لا أسمع منه [إلّا][3] الإشادة بنجابته، والشهادة ببراعة أدبه وكتابته، فنشأت على تعظيمه وليدا، وأخذت اعتقاد فضله تقليدا، ثم صار ذلك عندي عن خبرة أرتنيه في عصره وحيدا، وكان النهاية في تمام المروءة، وطيب العشرة، وأدب الصحبة، مع عذوبة منطق وحسن إمتاع، واعتنى بالحديث /68/ والأدب ومن كليهما تضلّع، وبما عبق به من عرفيهما تضوّع.

صحبته ببلده بلنسية مدة طويلة في أوقات شتى ودول مختلفة فتدربت بدرايته، وارتويت من روايته، وبيني وبينه مخاطبات ومجاوبات، من نظم ونثر ذهب

---

(1) وصفه ابن عميرة في آخر هذه الإجازة بالشيخ المبارك وأجاز ابنه أبا علي أيضا. ومن المعروف أن ابن عميرة قد أجاز الشريف أبا علي الحسين بن طاهر السّبتي إجازة معينة خطها بيده، وقد ولد هذا الشريف سنة 625 هـ/1227م وتوفي سنة 702 هـ/1302م. فلعله المقصود بالكنية والأوصاف المذكورة في هذه الإجازة التي ربما كتبها ابن عميرة إلى والده الشيخ الفقيه أبي التقى طاهر بن رفيع، فيكون بذلك ابن عميرة قد أجاز الشريف المذكور مرتين. بن شريفة، أبو المطرف، ص 65، الهامش رقم 3.

(2) سبق التعريف به وذكر مصادر ترجمته في هامش الرسالة رقم: 75 من السفر الأول.

(3) ناقصة في الأصل.



عنّي محفوظها ومكتوبها بتقلب الأحوال، وطول التجوال، وإن قدّر لي الاجتماع بما أسأرت الأيام من كتبي فربما أعثر منها على ما أتحِفُ الشيخَ به إن شاء الله تعالى أكثر رواياتي عنه بالسماع من لفظه ومن قراءة غيري عليه، وكتابه الكبير الذي سمّاه بالاكتفاء[1] سمعته من لفظه إلّا يسيرًا دخل في إجازته العامة لي، مولده سنة خمس وستين وخمسمائة واستشهد في الوقعة الكائنة بأنيجة[2] على أهل بلنسيّة سنة أربع وثلاثين وستمائة.

وكان رحمه الله ثابت الجأش جريء الجنان ميمون النقيبة يحضر الغزوات فيبلي فيها البلاء الحسن بجدّه وحدِّه، حضرت معه غير موطن من مواطن الجهاد فكان يباشر بنفسه مواضع القتال، ويقدم إذا خام أشدّاء الرّجال، فلعهدي به في إحدى المعاقل الشهيرة المنعة يتقدم حتى نقول سِيْم السّلامة، ولا نكذّب من زعم أنه أشجع من أسامة[3]، وكان العدو الكافر استولى على هذا المعقل غدرا وجاء أهله يندبون لمعاجلته، ويسهّلون طريق محاولته، فلما أطللنا عليه وجدناه أصعب على المتناول من نعام الدَّوِّ[4]، أو عقاب الجوّ، فندمنا أية ساعة مندم، وحرنا بين متأخر أو متقدم، فقام والله مقاما شجّع الرّعديد، وقرّب البعيد، وولي القتال بنفسه والحجر يهوي إليه، والنبل يقع حواليه، حتى فتح الله على المسلمين، واستردّوا ذلك الحصن الحصين، ويوم /69/ استشهاده رحمه الله رأى الخلل في الناس فاستنزل من الصّفِّ، وبرز أمام الزّحف، ورغّب المسلمين في الصّبر وقد انكشفوا وناشدهم الله أن يقفوا فما وقفوا، وهناك صُرِعَ صابرا محتسبا، وفقد الناس منه معقلا أشبا، فأظلم بعد ذلك الأفق، وأوحشت تلك الطّرق، وما لبّثهم العدوّ أن أناخ عليهم محاصرا حتى أخذ

---

(1) العنوان الكامل للكتاب هو: "كتاب الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازي الثلاثة الخلفاء".

(2) وتُكْتَبُ أنيشة أيضا، من عمل بلنسية على نحو 20 كيلومترا منها شمالا، وعقبة أنيشة جبل معترض عال على البحر والطريق عليه ولا بدّ من السلوك على رأسه وهو صعب. الحميري، الروض المعطار، ص 41.

(3) أشجع من أسامة: مثل عربي يضرب للشجاعة، وأسامة من أسماء الأسد وهو معرفة لا ينصرف. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 543. لسان العرب، ج 12، ص 18.

(4) الدَّوّ: الفلاة الواسعة، وقيل المستوية من الأرض. لسان العرب، ج 14، ص 276.

البلد صلحًا، وكانت ليلة للخطب ما أعقبتهم صبحًا.

وذكر أبقاه الله لقاءة الفقيه الخطيب أبا الحسن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب القيسي[1] رحمه الله وقد لقي منه الحسب الصريح، والخلق السّجيح، كان ببلده بلنسية صدر جلتها، وبدر أهلّتها، وما زال في المصر مسوّدًا، وإلى ملوك العصر موفدا، إلى أن استوفى الإفادة، وختم الوفادة، بالورود على الباب الكريم بحضرة تونس حرسها الله فنجحت سفارته[2]، وربحت تجارته، وانصرف ولعُوده ارتواء، ومن حقائبه ثناء، وقد كان الحافظ أبو الطاهر السّلفي[3] أجاز من أدْرَكَتْهُ إجازته من ذريّة جدّه أبي حفص عمر بن القاضي أبي الحسن محمد بن واجب فدخل في عمومها الفقيه أبو الحسن هذا[4]، إذ مولده في حدود السبعين وخمس المائة، وما وقع في أشياخه من ذكر الخطيب أبي الحسن بن النعمة فسهوٌ لا محالة لتقدم وفاة هذا الشيخ مولد أبي الحسن.

حضر وقعة أنيجة فنجا فيمن نجا من فلها ثم كانت سفارته التي عرض له في عقبها خدَر، وما أمكنه من بعدها إلى بلده صدرٌ، وبزمانته[5] تلك انتهى إلى سبتة وبها اجتمعت معه في أول سنة سبع وثلاثين وستمائة فكنت أغشاه كثيرا وآتيه من الأحاديث بما كان يستطرفه، وأجد عنده من حلاوة الفكاهة ما كنت أعرفه، وبعد أن

---

(1) عن هذا الشيخ الذي ينتمي إلى أسرة بني واجب البلنسية العريقة التي اشتهر عدد من أفرادها بالعلم والسيادة. انظر ابن الأبار، التكملة، ج 1، ص 107. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، 1 /2، ص 473. ابن فرحون، الديباج المذهب، ج 1، ص 228.

(2) لم يحدّد ابن عميرة تاريخ هذه السفارة الناجحة التي وفد فيها شيخه ابن واجب على الأمير أبي زكرياء الحفصي ولا الغرض منها، ولعله يشير إلى سفارته ضمن الوفد الذي وجّهه أهل بلنسية وأميرهم زيان بن مردنيش، برئاسة ابن الأبار، إلى الأمير الحفصي للاستغاثة به.

(3) انظر ترجمة الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي ومصادرها عند الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 7، ص 229 وما بعدها.

(4) ذكر كلّ من ابن الأبار وابن عبد الملك في ترجمتهما لابن واجب أنّ أبا طاهر السلفي أجاز له، وهي عبارة موجزة توحي بأنها إجازة مباشرة، ولكن ابن عميرة يوضح أن إجازة السلفي كانت لجده ولمن أدركته من ذريته فدخل في عمومها، لأنّ مولده كان سنة 570 هـ/1174م، بينما كانت وفاة السلفي سنة 576 هـ/1180م.

(5) يريد الخدر الذي طاوله والاختلال الذي أصابه وهو الضعف والمرض.



فارقته /70/ مثيرا بفرقته لوعة الغربة، أدركته رحمه الله منيته بتلك التربة[1].

ثم نعود إلى تتمة المقصود من إيراد بعض من أخذت عنه من الشيوخ، فمنهم الفقيه الحافظ أبو عمر أحمد بن القاضي أبي محمد هارون بن عات النفزي[2] كان من الآحاد الأفراد، على طريقة السّلف الصّالح في الورع والاقتصاد، وما أدركنا في زماننا من كان أحفظ منه للمتون، وأوعى لجميع الفنون، وكان وقورا يرسو هضبا، وشجّا يسيل غربا، حج فلقي في طريقه الجلّة من بقايا الناس كالسِّلفي وغيره وانصرف بما نال من أمل، وأفاد من علم وعمل.

وكان يؤذّن بمسجده ويؤم ويقيم نفقته من مال ورثه من سلفه يتفقده بنفسه، ولا يخلطه بغيْره ويسمع الحديث تارة بلفظه وتارة بالقراءة عليه، عرضت عليه موّطأ مالك رحمه الله، وسمعت عليه وقرأت الدواوين المشهورة لأئمة الحديث، وأجازني جميع رواياته، حضر وقعة العقاب في صفر من سنة تسع وستمائة، فلما رأى المسلمين ولوا الأدبار، وأباحوا أكتافهم الكفّار، استقبل العدوّ بوجهه ومضى قدما حتى استشهد رحمه الله[3].

ومنهم الفقيه القاضي أبو محمد ابن الفقيه المقرئ أبي الربيع سليمان بن حوط الله الأنصاري الحارثي[4] شيخ هذه الطريقة، والمتبحر في أفانينها على الحقيقة، وكان مع هذا متقدما في العربية، إماما في علم القراءات، آخذا بحظ من

---

(1) توفي ابن واجب بسبتة يوم الجمعة 19 من ربيع الآخر سنة 637 هـ/1239م. ابن الأبار، المصدر السابق، ص 108.

(2) عن هذا الشيخ الذي كان من أعلام عصره علما وعملا وزهدا وورعا وذا مكانة كبيرة عند أهل شاطبة. انظر ابن الأبار، التكملة، ج 1، ص 90. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، 2/1، ص 556 وما بعدها. ابن فرحون، الديباج المذهب، ج 1، ص 231. المقري، نفح الطيب، ج 2، ص 601.

(3) ذكر ابن عبد الملك أنّ مولده سنة 542 هـ/1147م، واستشهد في وقعة العقاب منتصف صفر سنة 609 هـ/1212م، فُقِدَ فيها فلم يوجد حيا ولا ميتا. المصدر السابق، ص 562.

(4) ترجمة هذا القاضي المحدّث، الإمام العالم، الفقيه الأصولي، النحوي الكاتب، الأديب الشاعر، (548 -612 هـ/1153-1215م)، عند: ابن الأبار، التكملة، ج 2، ص 287 وما بعدها. ابن الزبير، صلة الصلة، القسم 3، ص 134 وما بعدها. ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص 416. النباهي، المرقبة العليا، ص 112. ابن فرحون، الديباج المذهب، ج 1، ص 447.

علم التفسير وأصول الفقه، لقي شيوخ الأندلس في عصره متتبعا لهم في البلاد، مستكثرا من الرواية عنهم والإسناد، وبيضته التي تفقأت عنه أندة من شرق ثغور بلنسية فيها درج، ومنها خرج، فعلا قدره، وبعد صيته، وولي القضاء في كبار المدن /71/ كإشبيلية وسَلا ومرسية وغيرها، لقيته بدانية في حدود أول المائة السابعة وقرأت عليه وسمعت جملة من الكتب والمصنفات، وكتب لي بخطه قراءتي ومسموعاتي وإجازته إياي بجميع رواياته.

ومنهم الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد بن الفقيه أبي محمد أيّوب بن نوح الغافقي[1] شيخ بلنسية وفتاها، وإمام فقهها وفتواها، كان في العربية والقراءات أستاذا، ولأصناف الطلبة مجمعا وملاذا، فأما الوثائق ومنهاجها، والخصومات وحجاجها[2]، فإليه انتهت المعرفة بها في الأندلس ولم يكن لأحد في وقته ما كان له من الذكر الشائع والصيّت البعيد.

قرأت عليه بعض كتب الحديث وأجاز لي جميع رواياته، وتوفي في شوال من عام ثمانية وستمائة[3]، وكانت جنازته في غاية الاحتفال، لم يشهدها الوالي لمرض كان به فأخرج إليها بنيه وحاشيته، وما راعنا بعد ونحن على قبره والعبرات تبرد، والمراثي قد قام بها المنشد، إلا غارة العدو على البلد وأخذت خيله غير سمت المكان الذي كنا فيه، فلولا ذلك لأحاطت بنا إحاطة الأطواق بالأعناق، والمحاجر بالأحداق، فعصم الله وله الحمد.

---

(1) انظر عنه ابن الأبار، التكملة، ج 2، ص 97. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر 6، ص 136 وما بعدها.

(2) جاء في التكملة ما يلي: وأما عقد الشروط فإليه انتهت الرئاسة فيه، وبه اقتدى من بعده، لم يسبقه أحد من أهل زمانه إلى ما تميز به في ذلك. ص 98. وفي الذيل: كان مقدما في عقد الشروط، مقصودا إليه في رسومها المطوّلة، فكان يغلي في الجعل على كتبها، فلا يوجد منه بدّ لحذقه بنكتها، وشدّة تحفّظه في ربط أصولها، واستظهاره لما عسى أن يعرض من الحكومات فيها، وتحرّزه من دواخل الخلل عليها. ص 138.

(3) كان ذلك في أول وقت الظهر من يوم الاثنين السادس من شوال سنة 608 هـ/1211م ودفن بمقبرة باب الحنش في اليوم الموالي عند صلاة العصر، ومولده يوم السبت الثاني من جمادى الآخرة سنة 530 هـ/1135م.



ومنهم الفقيه القاضي أبو الخطاب أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب[1] قاضي المصر وسيده، وضابط الحديث ومقيّده، قرأت عليه كثيرا ولزمته ببلدة بلنسية وشاطبة أيام قضائه بها[2] وأجازني رواياته كلها، وبعد أن صرف عن قضاء بلنسية آخرا أزمع المشي إلى مراكش وما كان من شأنه الاستعداد لسفر، ولا استشعار حذر من حرّ أو مطر، فوصلها بعد الأين، وما أقام بها إلا قدر اليومين، وأصابه المرض الذي كانت /72/ منه وفاته وذلك عام أربعة عشر وستمائة[3].

ومنهم الأستاذ أبو علي عمر بن محمد الأزدي الشلوبيني[4]، لقيته ببلدة اشبيلية وكان رحمه الله برا بالغرباء يدني منازلهم، ويجيب سائلهم، ويرعى وسائلهم، حضرت مجالسه فكان يفرط في الإيناس، ويرفع فوق من يغشاه من الناس، وكنت أقعد معه إذا أشاء، وأشاهد منه بحرا لا تكدره الدلاء[5]، وعند موادعتي له أجازني بلفظه وكان ذلك آخر عهدي به[6].

---

(1) هو ابن عمّ أبي الحسن بن واجب الذي سبق ذكره ضمن شيوخ هذه الإجازة، وكان أبو الخطاب هذا حامل راية الرواية بشرق الأندلس وآخر المحدثين المسندين. انظر ترجمته في تكملة ابن الأبار، ج 1، ص 94. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، 2/1، ص 470 وما بعدها. ابن فرحون، الديباج المذهب، ج 1، ص 226.

(2) كان قاضيا بشاطبة في محرم سنة 597 هـ/1200م.

(3) كان ذلك يوم الأحد الخامس منش رجب سنة 614 هـ/1217م. ومولده ببلنسية سنة 537 هـ/1142م.

(4) نسبة إلى شلوبينة من حصون غرناطة الساحلية وهو إشبيلي (562-645 هـ/1166-1247م). مصادر ترجمته متعدّدة منها: ابن الأبار، التكملة، ج 3، ص 159. ابن سعيد، اختصار القدح، ص 152. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، 2/5، ص 460 وما بعدها. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 3، ص 451. الحميري، الروض المعطار، ص 343.

(5) يخبرنا ابن عبد الملك أنّ الشلوبيني كان ذا معرفة بالقراءات، حاملا للآداب واللغات، آخذا بطرف صالح من رواية الحديث، متقدّما في العربية كبير أساتيذها بإشبيلية، مبرزا في تحصيلها، مستبحرا في معرفتها، متحققا بها، حسن الإلقاء لها والتعبير عن أغراضها، وله فيها مصنفات نافعة وتنبيهات نبيلة وشروح واستدراكات وتكميلات، تصدّر لتدريسها مدة طويلة نحو ستّين عاما، وإليه كانت الرّحلة فيها. ص 462.

(6) يخبرنا ابن الأبار أنّ ابن عميرة كان موجودا في إشبيلية سنة 617 هـ/1220م. تحفة القادم، ص 210.

وفي هؤلاء المسمّين غنية عن سواهم ممّن لا يضبط تصنيفا، أو لا يعدو أن يكون مجهولا أو ضعيفا، لكني أختم بخاتمه العلماء، وأتبع ذكره ترحّم أول المحبين وأحب الأولياء، وهو الفقيه الصدر الكبير الحبر أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب[1] وحيّ هلا[2] بذكر من حوى[3] من العلوم فروعها وأصولها، وجمع منقولها ومعقولها، فلا أعلم لها[4] سبيلا إلا سلكه، ولا عنانا إلا ملكه، ولا مبهما إلا فتحه، ولا غامضا إلا شرحه، وأقول قول منصف لا مُحابٍ، ذاكرٍ له بعبرة وانتحاب، إني لا أعلم في هؤلاء الذين أنارت بأفقنا شهبهم، أو بلغت إلينا كتبهم، مَن حقق تحقيقه، ودقق في النظريات والعمليات تدقيقه.

وكان في معظم عمره ناسكا، ولسبل التقوى والخير[5] سالكا، زكيّ النفس عالي الهمة كثير التواضع يتعاهد المساكين برفده، ويعالج الضعفاء من عنده، ويدبّر مرضاهم بقوة نظر في الطب لم تكن لأحد علمناه قبله، ثم انتكست حاله، آخرا فنظر في أمور بلده مرسية مُوَلًّى أولا ومُستبِدًا أخرًا وفي كلتي النوبتين أساء السيرة، وارتكب الخطايا الكثيرة، فكره الناسَ وكرهوه، وتنكرت له القلوب والوجوه، /73/ وكان آخر أمره أن حيز بالقصر قسرا[6]، وقتل بالسيف صبرا[7]، فتعوذ أولوا النّهى من سوء مصرعه، ويئسوا بعده أن يروا شارعا من العلوم في مثل مشرعه.

وكنت صحبته أيام نسكه مدة طويلة مستندا لرأيه ورعيه، مقتبسا من علمه وهديه، وقرأت عليه كتاب المستصفى[8] وتلقيحات

(1) سبق التعريف به وذكر مصادر ترجمته في هامش الرّسالة رقم: 11.

(2) وتُكتَبُ حيّهَلَ أيضا بجمعهما في كلمة واحدة، فحيّ بمعنى أقبل وهلا بمعنى أسرع. وفي الحديث: إذا ذُكر الصالحون فحيّهل بعمر، معناه عليك بعمر أي أنّه من هذه الصفة. ويقال: حيّ هلا الثريد، ومعناه هلمّ إلى الثريد. لسان العرب، ج 11، ص 702.

(3) هنا يبدأ المقطع الوارد من هذه الإجازة عند ابن سعيد في اختصار القدح، ص 45.

(4) في اختصار القدح: فما أعلم له.

(5) في اختصار القدح: ولسبيل البرّ والتقوى.

(6) في اختصار القدح: وكان آخر أمره أن جُرّ قسرا.

(7) هنا ينتهي المقطع المشار إليه في اختصار القدح.

(8) كتاب في أصول الفقه لأبي حامد الغزالي، وكانت عناية الأندلسيين والمغاربة بكتب الغزالي =



السّهروردي[1] وهو الذي أوضح منهجها، وفتح مرتجها، وكذلك قرأت عليه بعض كتب الطب، وبطول مجالستي له من الليل والنهار[2] لم أكن أخلو ساعة من مذاكرته في مسائل النّحو وغيرها فأجد قوله أشفى من الماء للظماء، وأهدى من النجم لساري الظلماء، وكانت منيته رحمه الله ليلة الثلاثاء الثامن عشر من شهر رمضان سنة ست وثلاثين وستمائة، وهنا انتهى بنا القول، ولربنا عز وجهه المنّ والطّول، والقوة والحول.

وقد أجزت لهذا الشيخ المبارك ما سألنيه إجازة عامة مطلقة تتناول أصناف العلوم، وتشتمل على ما رويته وأنشأته من المنثور والمنظوم، على شروط الإجازة التي يعرفها، وطرقها التي على أحسن مصارفها يصرفها.

وبمثل ذلك أجزت ابنه النجيب المبارك الحسيب أبا علي أتم الله شبابه، ووصل بأسباب الخير أسبابه، وما سأله من أدب يحضر، أو بيت يندر، فالله يعلم أنّي ما حضر ذكري منه الآن إلا نزر في سقط المتاع يعدّ، وبقلة الامتاع يردّ، فإن أنسأ الله الأجل، وبلغ من وجدان ضالتي الأمل، استدركت هذا الفائت، وأثبتّ منه ما يتبع هذا الثابت، إن شاء الله تعالى وهو سبحانه ينفع بصالح النية ويحملنا وإياكم على الطريقة السوية بمنّه ورحمته، كتب في أوائل /74/ ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وستمائة.

= بتشجيع من دولة الموحدين. وقد حظي كتاب المستصفى باهتمام كبير إذ كان عمدة الدراسة في علم الأصول عند أهل هذا العصر حيث اشتغل به عدد كبير من أعلام العصر الموحدي اختصارا وشرحا وتدريسا وتعليقا.

(1) هو أيضا كتاب في أصول الفقه عليه مسحة فلسفية من تأليف أبي حفص عمر شهاب الدّين السهروردي مؤسس مدرسة الإشراق المعروف (ت 632 هـ/1234م). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 23، ص 21. وهو كتاب معقد لم يكن يتعرض له بالقراءة أو الإقراء إلا أصحاب الأذهان الثاقبة، ومن ثم نصّ ابن عميرة على أنّ شيخه ابن خطاب هو الذي أوضح منهجه وفتح مرتجّه.

(2) طباق الإيجاب بين "الليل والنهار".

–178 –

## رسالة إلى عزيز بن خطاب في التوصية بمن ساءت حاله

أبقى الله المحل الأعلى حرما تتحاماه الأيام، وعلما تتضاءل له الأعلام، ولا زالت آراؤه الناجحة تستمدها العقول والأفهام، ومساعيه الصالحة يشكرها الله والإسلام، إنّ مجدا سامى الكواكب بمثواه، وساوى الغرّ السواكب في جدواه، لداع إلى استلام كفّه العلية، والاستهام على صفّه الذي حقيقته الأولية، وكيف لا وقد أجار من الدهر المخيف، وصار قبلة كل داخل تحت التكليف، يعيد متى أخطأها صلاة الأمل، ويرى الاجتهاد في طلبها من راحة العمل[1].

وممن يدخل تحت هذا التعميم، ويؤمُ برجائه سمت الباب الكريم، حامل هذه الخدمة فلان، وهو ممن نبا به الوطن، وأنحى عليه الزمن، ودفعه إلى خطوب فرقت نظمه، وعرقت عظمه[2]، فأصبح هزيل غربة، ونزيل كل تربة، يشيم البوارق مقتنعا بالرّذاذ، ويسنح له الأمل فيحيل في طلبه على السير والإغذاذ، وتوجه الآن إلى المحل الأعلى وحاله أبلغ شفعائه، وثناؤه موصول بدعائه.

–179 –

## فتح ابن مردنيش حصن قلبيرة

كتابنا بلّغكم الله من موارد إحسانه ما تتمنون، وعرفكم من عوارف نعمته أفضل ما فاز به الأقربون من رحمته الأدنون، من قلبيرَة[3] وقد بلغ الكتاب أجله،

(1) انظر في الرسالة السابقة ما يؤكّد هذه الأوصاف حين تكلم ابن عميرة عن ابن خطاب ضمن شيوخه الذين أجازوه.

(2) عَرَقَ العظم يعرقه عرقا وتعرّقه واعترقه: أخذ عنه معظم اللحم وهبره وترك عليه لحوما رقيقة. وعظم معروق. قال أحد الشعراء يخاطب امرأته:

ولا تهدي الأمرّ وما يليه    ولا تهدنّ معروق العظام

لسان العرب، ج 10، ص 244.

(3) ويسمّيها الادريسي قلبيرة وهي حصن منيع يقع على الضفة الشمالية لمصب نهر شقر وقد أحدق البحر بها، منها إلى بلنسية خمسة وعشرون ميلا. سقطت في يد خايمي الأول ملك =



وعاد الحق لمن كان له، وملكنا هذه القصبة بكل ما تملكه، واستعنا الله على فتحها /75/ فلم يضق علينا مسلكه، وقد كنا أجلنا لها أجلا فبلغته، وتركناها وجهدها في الإعذار فأنفذته واستفرغته، ومكثت سبع ليال وثمانية أيام وريح العزم عليها صرصر[1]، وطلبها للإصراخ مستقصى وأثرها عندها مستقصر، وكم نادت ليلا بألسنة النار[2]، وأثارت حفائظ الناظرين إليها على طلب الثأر، فما رد عليها جواب، ولا قرع للدنو منها والإفراج عنها باب، وعند ذلك بانت بانقضاء العدّة، وبانت للنظر الذي أدالها بالفرج من الشدة، ويسّر لها الأمل في هذا الظفر الهنيّ، وأسعد العمل بإحراز غرة الفتح السّنيّ، فخفقت راياتنا على أسوارها المنيفة، وتصدّر هذا الفتح متقدّما ما يتلوه تقدّم العنوان لما يقرأ في الصحيفة[3].

وعرّفناكم أعزكم الله بهذه البشرى لتجدّدوا شكرا، وتتولوا إذاعة لها قِبَلكم ونشرا، والله يتم علينا وعليكم نعمه، ويخولنا وإياكم من جميل صنعه أفضله وأكمله.

–180 –

## وله من رسالة في التّهنئة

وبركات الإمارة العزيزة العليّة أيدها الله تطلع على الأرض فلقا، وتملأ قلوب الناكثين فرقا، والحمد لله الذي دوّخ بها منازل الختر[4] والنكث، وأرى

= أرغون سنة 634 هـ/1236م، أسلمها إليه صاحبها أبو زيان جميل، فأقطعها الملك خايمي لفرسان المعبد لمواصلة حربهم ضد المسلمين. الادريسي، نزهة المشتاق، ج 2، ص 556. ابن الأبار، الحلة السيراء، ج 2، ص 222.

(1) يشير إلى مدّة حصار هذا الحصن مقتبسا ذلك من الآيتين 5 و6 من سورة الحاقة عن هلاك قوم عاد.

(2) إشعال النار ليلا في أعلى الأبراج من الطرق التي كان يستعملها أصحاب الحصون المحاصرة للاستغاثة.

(3) كتب ابن عميرة هذه الرسالة عن الأمير زيان بن مردنيش إلى أهل بلنسية يخبرهم بفتح حصن قلبيرة سنة 628 هـ/1230م.

(4) ختر يختر خترا وختورا، فهو خاتر وختّار وختّير وختور. والختر شبيه بالغدر والخديعة، =

الباحث بظلفه عن حتفه مآل ذلك البحث، وقضى لها أن انتصفت للحق من الباطل، وعادت كما عاد الحلي إلى العاطل، فالدنيا بسناها مشرقة، وأغصان المنى من فيض نداها مورقة.

-181-

## ومن رسالة في التوصية بأحد الوعّاظ

/76/ إذا تذكرت قربكم ووحشة الوحدة داجية، ووساوس الغربة مناجية، وجدت لها روح الراحة، وبردا على كبدي الملتاحة، وكيف لا تتدانى القلوب المتعارفة، وتجمع الحروف العاطفة، وبيننا نَسَبٌ كلّ واحدة منها على شرف الوفاء مطلة، وبسببية الصفاء مستقلة، وحاملها فلان وإنه لمبرز في الوعّاظ، محرزا مدّ الحفّاظ، يُخوّف ويُرجّي، ويُسمع فيشجّي، ويذكّر فيذيب الجامد، ويحرّك المتواجد، وينقل الصحائح والشواهد، ويجمع الفوائد والشوارد.

وذكر أنّه يغشى تلك الجهة مقيما أو مجتازا[1]، ويطأ من أرضها سهلا أو عَزَازًا[2]، فأصحبته هذه العجالة مستدركة ما فات، ومحيلة عليه في ودّ سبق ثبوته الإثبات، والمعونة له في داج يرجو صبحه، وباب يأمل فتحه، مسلك من مسالك الفضيلة فيه تسعون، ومن بابه تدعون، وبوسيلته ترون وترعون، وقد استعان بكم فلا تؤخروا عنه العون، وما يكون منكم في ذلك فالشكر الجزيل بإزائه، وعند الله سبحانه الوفاء بجزائه.

-182-

## وله من رسالة

ويعلم الله تشوقي إلى ما قِبَلكم من الزيادة، في هذه الوفادة، وأرجو أنها

---

= وقيل هو الخديعة بعينها، وقيل هو أسوأ الغدر وأقبحه. لسان العرب، ج 4، ص 229.

(1) طباق الإيجاب بين "مقيما ومجتازا".

(2) العزاز: ما غلظ من الأرض وصلب واشتدّ وخشن، وإنّما يكون في أطرافها، ويكون سيل مطره سريعا. لسان العرب، ج 5، ص 376.



على ما يسرّ الوليّ وإياي عنيت، ومناي فيما لكم تمنيت، وكان لي غرض شرحته، بعد عذر أوضحته، وتراءت لي من غمامته مخيلة، وفي قعر ركيته ثميلة[1]، ثم كان انتقال، لم يبق معه مقال، وبقيت لا أدري أيّ البارقين أشيم، وفي أيّ الواديين أهيم.

وكنت خاطبتكم قبل هذا بكتاب ارتقبت /77/ جوابه مع الحامل، وعددت له أيام المراحل، وأنفذته رابدا مكان النجعة، وأقرعت بين ظنّيّ فبقي الإشكال مع القرعة، وجهة فلان إليها التوجّه، ولا حاجة إلى التنبيه وقد سبقه التنبه، وأجد الأجوبة هنالك أنف خاطبها يضرّج، وواغل شرابها يقصى ويخرج، فأحبّ أن تستطلعوا من جانبه زيادة ينوب لفظها عن الخط، ويقنع من بحرها بالشط، ثم تكتبوا إليّ بها مع ما يخصّ من خبركم، ويتشوّف إليه من إقامتكم أو صدركم، إن شاء الله تعالى.

-183-

## وأجاب أحد الإخوان حين عاتبه على تأخير الجواب

وكتب في صدر رمضان من سنة أربعين وستمائة جوابا لبعض الإخوان عن رسالة صدّرها بشعر وعتب على تأخير الجواب: [الكامل]

وهواك من صدري ولست أرى ... شيئا بسواه يكون مالئه

ما حِدتّ عن رجع الجواب إلى ... من حظّ نفسي أن تبادئه

إلا لأنك في قريضك قد ... لمت سامعه وقارئه

ورأيت أنك لا تزيد به ... عوضا يكون السمع شانئه

والمزن إن أرض به سقيت ... أتراه يطلب أن تكافئه

والبحر هل حُدّثت عن عوض ... يبقيه إن أهدى لآلئه

فاسمح بمهر نقده صفرت ... منه يدي وعدمت كالئه

ومن نثر الجواب: ووقفت من القافية على أخت قفا رياسة من الأشعار،

---

(1) الثميلة والجمع ثميل وهي بقية الماء في القلت أي النقرة التي تمسك الماء في الجبل. ويقال: ما ثملت طعامي بشيء من شراب أي ما أكلت بعد الطعام شرابا. لسان العرب، ج 11، ص 92.

وشهرة /78/ عند عوام النظار، فقد وجدناهم يشهدون بتفضيلها، ويهتدون بضليلها، ويعجبون بأنّه وقف، واستوقف، وبكى واستبكى، وفعل وصنع من هذيانات تحكى، وأشياء لا تمر ببال النّوكى[1]، وأين من المهاة اللعساء، والكاعب الحسناء، والخريدة التي هي كما قالت سكينة كنت أحسن من السماء، وأعذب من الماء، ذات شبيبة ولّت، وعجوز ملّ منها وملت، شربها الرواة حتى فجوها، ولبسها أهل العصور حتى أنهجوها، وأكثرها خبر عن عنيزة وزيارتها، وأمّ الحويرث وجارتها، أو نفض لغبار الكديد، وركض كمثل خذروف الوليد.

– 184 –

## رسالة إلى أبي القاسم بن عمران يصف بلاغته

ولما وقف على هذا الفصل[2] الفقيه الأجل أبو القاسم عبد الكريم بن عمران[3] كتب إليه رسالة صدّرها بشعر رائق وداعب في هذا الفصل، فراجعه بما يأتي: [الخفيف]

خفرٌ لاح في المحيّا الوسيم ... أم حديث للروض عند النسيم
أم وفاء الكرى لعين محبّ ... أم شفاء سرى[4] لجسم السقيم
أم كتاب إليّ ألقي والأنفس ... تفديه من كتاب كريم
حبذا منه وارد وهو راحي ... ورياضي ومسمعي ونديم
نثره لؤلؤ نثير وفيه من ... حُلى النظم كل درّ نظيم[5]

(1) النّوكى مفرده أنوك وهو الأحمق. مصدره النّوك بالضم. وقد نوك نوكا ونواكة: حمق. واستنوك فهو مستنوك أي صار من الحمقى. لسان العرب، ج 10، ص 501.

(2) يريد فصل الرسالة السابقة.

(3) من أهل قصر عبد الكريم وأصله من الأندلس، سكن اشبيلية وغيرها، وولي قضاء بلده. كان من أهل الطلب والتحقق بالآداب، زاهدا نزيها. مات بمراكش وهو يتولى عقد المناكح والقضاء بها وذلك سنة 643 هـ/1245. ابن الأبار، التكملة، ج 3، ص 134. وانظر رسالته، التي كتبها إلى أبي عبد الله ابن العابد الفاسي يستقرضه، في الذيل والتكملة، 8/1، ص 333.

(4) في اختصار القدح: جرى.

(5) هنا تنتهي الأبيات الواردة، من هذه القصيدة، في اختصار القدح، ص 46.



إنّ زور البيان منه كزور ... كان مما ألقت يمين الكليم
وابن عمران كابن عمران فيما ... هو سحرٌ من فقرة أو قسيم[1]
بارك الله فيه حادث ودّ ... هو أسنى من كلّ ودّ قديم
/79/ أنا منه دهري بثورة مشرٍ ... لست منها أخاف عُدم عديم
ولقد قلت حين قالوا ووافى ... إنني لست في سلا بمقيم
أيّ معنى إليك بالله أشهى ... بدلا قلت قصر عبد الكريم[2]
فانثنوا يعجبون منّي وقالوا ... كيف يهوى سكنى الوبيل الوخيم
ما الذي غرّه من المنزل الموحش ... إلا من ذيب قفر وريم[3]
أخراب للدّور منه حمام ... أم شراب كأنه من حميم
قلت لا تعجبوا فما اخترت ... في علمي إلا الحميد غير الذميم
منزل الماجد السّري أبي القاسم ... أزكى الورى بنفس وخيم
ولقائي له وأخذي عنه ... واقتدائي بنهجه المستقيم
فرأوها فضية تتلقى بعد ... مفهوم الاسم بالتسليم
ودروا أنني متى ارتدت ... أحسنت اختيار الحميم بعد المشيم
أمل لو به حظيت لكانت ... منه نفسي تحظى بحظ عظيم

ما الخدود في الحلة الأرجوانية، والثغور بالحلية الأقحوانية، بل ولا

(1) الأول هو ابن عمران المكتوب إليه، والثاني هو نبي الله موسى بن عمران الكليم.

(2) قصر عبد الكريم هو مدينة القصر الكبير الحالية الواقعة بإقليم العرائش على الطريق الرابط مدينة طنجة بحاضرة فاس. وبهذا الاسم كان يعرف في القديم، وعُرف أيضا بقصر كتامة وقصر دنهاجة. يقع على الضفة اليمنى لنهر اللوكوس، كانت به أسواق وأرزاق كثيرة ورخاء شامل. الادريسي، نزهة المشتاق، ج 2، ص 530.

(3) يشير ابن عميرة هنا إلى أنّ مدينة قصر عبد الكريم أصبحت خربة موحشة، وهذا ما يؤكّده ابن عذاري نقلا عن ابن صاحب الصلاة حين يقول: ومررنا في طريقنا سنة 545 هـ/1150م على قصر عبد الكريم وليس فيه إلّا القليل من الناس في خيمات، وحانوت واحد كان سوقهم به، والأسود تزأر حواليه والأرض موحشة قفرة، أخلاها تهاريج الفتن. ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص 44.

البشرى من الرسائل الإخوانية، بآنق في الأحداق، وأسرى في قلوب العشاق، من كتاب بريحانه حُبيت، ومن أريحيته حُييت، وافى وعين البشر مهانة، وفسيل الهمّ عيدانة، وسؤر السرور لم تبق منه ولا لبانة، فقضته عن كلم مسحن على نشاطي، وفسحن بالمرح أشواطي، وسبحن بي يوم سحن لي فأخرجتني من عمر الغمّ إلى انشاطي، سطور كأن الشباب في مدادها، وألفاظ تضعها الألحاظ في سوادها، ومعان لو كانت بردة هجرت البرود والشفوف، أو زينة لم تذكر العقود ولا الشنوف، بل لو كانت أفقا لم تخل من الأنوار، أو بقعة كانت ما تحت مَعدل النهار، فإنا نجد أبا علي يشق فيها عصى /80/ الإتباع، ويقول إنها أعدل البقاع.

فأما الشعر فقد سرحت الطرف منه في قطعة كل بيت منها هو بيتها، وروضة لو عرضت عليّ معها الرّياض لأبيتها، شاهدت منها نفحة الشّحر[1]، بل نفحة السّحر[2]، وحديقة البستان، بل حقيقة الإحسان، وطفقت أشربها صرفا، وأهزّ لها عطفا، وأجد لها ولا وتر يقرع، ولا نغمة تسمع، ما لا تسمعه اللحون، ولأوتارها جسّ، ولنغماتها زجل وجرس.

وأما النثر فهناك حشر أخلاطه البديع، ونشر بساطه الربيع، وعرف البلغاء أنهم خفاش مع الزرقاء، وبغاث حول العنقاء، وعلموا أن غمامهم بالطلّ واعد، وسنامهم تحت الأظل قاعد، وأن الأقلام تبكي منهم شجوها، وتحكي فيهم ذمّها وهجوها، وتودّ أن مدى بريها لم يبق فيها حدّ، ومدى جريها لا يتأتى فيها شدّ، ولكن هذا الغماد إذا ذكرت ريّها من وابله، ومكانها من أنامله، وضربت حالا بحال، وحقيقة بمحال، رفعت على الشؤون شأنها، وعلمت أن ما ازدانت به فوق ما شانها.

أخبر سيدي عن ودّه وصدقه، وعهده وإضاءة وفقه، واعتدادي بما عنده كاعتداد المشيح بسلاحه، والشحيح بأرباحه، وسروري بولائه سرور المهجّر إذا

(1) الشحر ساحل اليمن وهو ممتدّ بينها وبين عمان. وأرض الشحر متصلة بأرض حضرموت، وهي دار عاد الأولى الذين أرسل الله إليهم نبيّه هودا عليه السلام. والشحر مدينة كبيرة وليس بها زرع ولا ضرع، بها العنبر وشجر الكندر، ومنها يحمل إلى الآفاق. الحميري، الروض المعطار، ص 338.

(2) جناس ناقص بين " الشحر والسحر".



استظل، والناشد عادت إليه ضالته التي أضل، وأخبر أنه يراني في البلاغة زمامه المقيم لخطوه، وإمامه الحامل لسهوه، ولقد أبعد في تجوّزه، وانصرف إلى غير فئة في تحيّزه، ومَن للخداش أن يسود تماما، ومتى صلح الأمّي أن يكون للقارئ إماما، وهذه شبهة نسبٍ لا تدعو لها القافة[1]، ومقام نقول فيه ما كان ينبغي لابن أبي قحافة[2]، بل قلمه هو المسيطر /81/ على الأقلام، والمسطِّر للسِّحر الحلال من الكلام، وأجرى ذكر قفا نبك، وما توصف به من خردة السبك، وأن رقعتي أزرت بتفضيلها، واستخفت بضليلها، وعابت قائلها، وأصابت مقاتلها، وإنما كان مدى جرى فيه الفكر البطيّ، ودرّ عليه خلفه البكيّ، بل منزعا من جنس القعقعة بالشنان، والجعجعة كالطراد دون العامل والسّنان.

وكنت أن أجمع لهذا الجواب فكري، وأسوق إليه ما أقدر عليه من نثري وشعري، وتقدمت بالإعذار والإنذار، وأكثرت حتى قال القائل حذارِ حذارِ، ثم رضت صعب الخاطر وهي رياضة الهرم، وعدمت حبوة الطائر وقد وعدت بسيل العرم، فكنت كالنّميري حين أخبر عن ركبه الذي قاد نجائبه، وعن الثقفية وصواحبها اللائي هبن جانبه، ثم لما سُئل عن خيله وإبله، لم يزد على حمار هزيل وأتان مثله[3]، أو كالسّلميّة حين وصفت خيل أخيها إذ كان يرسلها زهوا رعالا،

(1) القافة جمع قائف، والمصدر القيافة، وهو الذي ينظر إلى شبه الرجل بأبيه وأخيه ويعرفه. لسان العرب، ج 9، ص 293.

(2) هو الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصديق الذي كان عالما بالأنساب.

(3) النميري هو أبو حيّة محمد بن عبد الله بن نمير الثقفي من الشعراء المخضرمين، كان معروفا بالجبن والكذب. والثقفية هي زينب بنت يوسف بن الحكم أخت الحجاج بن يوسف الثقفي وكانت جميلة وسيمة، وكان يزيد بن معاوية قد ولّى أباها صدقات الطائف وأرض الشّراة، ولمّا مرض نذرت إن عافاه الله أن تمشي إلى الكعبة معتمرة من الطائف، فمشت ذلك في اثنين وأربعين يوما، فلقيها النميري المذكور ببطن نعمان فقال من قصيدة يتشبّب بها:

تضوّع مسكا بطنُ نعمان إذ مشت ... به زينب في نسوة عطرات

ولما رأت ركب النميري أعرضت ... وكنّ من أن يلقينه حذرات

وكان النميري ممّن هرب من الحجاج خوفا منه بعد الذي قاله في أخته، ولمّا جيء به إليه سأله عن الرّكب ومن كانوا، فقال له النميري: كنت على حمار هزيل ومعي صاحب على أتان مثله. فعفا عنه. ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج 4، ص 384. ابن خلكان، وفيات الأعيان،

=

ويهيج بها لنار الحرب اشتعالا، وعندما سئلت تعجبا من عدوّ افترسه، قالت اللهم لا أعرف إلا فرسه، وقد شبّهتُ فلم أصب وجه التشبيه، وقايستُ فجعلت الخامل بإزاء النبيه، فإن هذين ما كان يعي عليهما سير، ولأحدهما فرس وللآخر عير، فأمّا خابط الدّجى، والمتساقط من الوجى، وقد عدم ناقة أبي الطيب التي لا ترعى ريفا، ولا تقبل رديفا، فلا يلحق بصاحب الأتان، فضلا عن راكب أشرف مراكب الإنسان.

– 185 –

## وأجاب مَن كتب إليه شاكيا من حسّاده

لسيّدي أبقاه الله شهابا في سماء العلا، وبابا لأمل أبناء /82/ الرجاء، ولا زال سراجا تضيء به السّرج، وبحرا تستمد منه الخلج، مكانة من الحسب لا تدانى، ورتبة في الفضل لا يدركها من أسرع أو تدانى[1]، ومحاسنه وإنها لكثيرة، هي لا محالة لكامن الحسد مثيرة، فلا غرو أن يولع بالكاملِ الناقصُ، وتأتيه كما ذكر قوارصُ، وكما أجرى بيت أبي الطيب وشاهده ما يختبر، فليتذكر قوله ومخطئ من رميّه القمر[2].

ومنها: وقد أضاء فقدحت، وخفض الجناح فجنحت، وذكر ما أصلح والمؤمن مرآة أخيه، وعنان الأمر في يده يقبضه أو يرخيه، وعندي من شكره ما أفصح به الرّوض ومزنه غدق، والمسك ونشره عبق، وسأل الإعلام بجزئيات الأحوال، وأمّا وقد فتح باب الإدلال، وسمح بهذا السؤال، فأنا أعرّفه من ذلك بما أبنيه على علمه، وأرجع فيه إلى حكمه.

=

ج 2، ص 40.

(1) طباق الإيجاب بين "أسرع وتدانى".

(2) يشير إلى قول أبي الطيب المتنبي:

أعـاذك الله مـن سـهامهم ومخطـئٌ مَـن رمـيّه القمـرُ

قال ذلك من قطعة يمدح فيها سيف الدّولة الحمداني ويدعو له أن يحفظه الله من سهام الأعداء الذين لا يصيبونه برميهم كما لا يصيب القمر من رماه. والمناسبة أنّ ممدوحه كان قد خيّره بين فرسين دهماء وكميت. شرح ديوان المتنبي، 2/1، ص 137.



– 186 –

## رسالة إلى الفقيه أبي الحسن الرّعيني يعزّيه في زوجته

تحيتي الطيبة المباركة أهديها إلى سيدي ومعتمدي نديّة الهبوب، نجدية الصّبا والجنوب، ورحمه الله وبركاته، كتابي إليه من رباط الفتح وأنا بمكانه معتد، ومداي في الاستناد إليه والثناء عليه ممتد.

وقد وافاني كتابه الأثير المبرور كالصبح جلا الآفاق، أو النّجح أعقب الإخفاق، فعرض عليّ منه البيان في صورته، والكمال يعرفه العقل بضرورته، ومن يقدر على المسلك الضيق المتسع، والقول السّهل الممتنع، إلا من له في البلاغة سكّتها المأبورة، وشكّتها المنصورة، وبدرها المصونة المصرورة، يحمل عنبريا من طيبها، /83/ وينزع عبقريا على قليبها، ويعطي منها عطاء من لا يخشى الفقر، ويطير فوق أهلها فتراهم كالبغاث[1] إذا رأت الصّقر[2]، وعرّف سيدي بالإقرار، على أجمل مراقي الاختيار، وجاء بنصّه الكتاب الإمامي المبارك الكريم مودعا من أنوار الهداية وأسرار العناية ما هو نورٌ في الغياهب، وسور دون النوائب.

ومنها: وقد أعطى سيدي ما عليه، وعمل عملا هو في الحقيقة منه وإليه، وأوجب من شكري ما أبلغ فيه مجهودي، واستحق من خالص ودّي ما خاطره عليه أكبر شهودي.

ومنها: وذكر وفاة أم الولد وما عرفته إلا من خطابه، ولقد انزعجت لمصابه، وقرأت ذلك الفصل فهاج لقلبي شجنا، والتقطت من خبره ما كان لي حزنا، وتمثلت تلك الحال وإيحاشها، وهذه الأعمار وما يلقى من عاشها، فترجّعت للخطب وفضاضته، وأفضت دمعي في موضع إفاضته، والله يؤنس سيدي من وحشة أيّ وحشة، ويعيذه من هوام الأيام فإنّا منها بين عضة ونهشة، وإيّاه نسأل أن يرحم فقيده

(1) تشبيه مجمل شبّههم بالبعاث في الضعف والوهن.

(2) إلى هنا ورد هذا المقطع مكرّرا في الرسالة رقم (113) من السفر الأول، مع اختلاف طفيف في بعض الكلمات.

أوسع رحمة، ويجعله بعده في وقاية من النوائب وعصمة[1].

- 187 -

## رسالة جوابية إلى الوزير ابن عطوش[2] على كتاب الحضرة

## الذي أقرّه على القضاء بالرّباط وسلا

معظم مجدهم الأسمى، اللائذ بحرمتهم العظمى، الشاكر لما لهم من يد إثر يد ونعمى بعد نعمى.

فكتب الله لجانبهم الأعلى كلاءة بعينه التي لا تنام، وعناية لا تطور بساحتها الأيام والأوهام، من فلانة[3] وبركات[4] الخلافة العلية المعتضدية[5] أيدها الله تعد الأيام ظهورا، وتملأ البسيطة نورا، والحمد /84/ لله على ذلك كثيرا، وعما يجب لمكانهم الأرفع من التعظيم والتأميل، والثناء الجزيل، والتفيؤ إلى ظله الظليل، والتحدث بأياديه الغرّ ومناقبه الزّهر وإنما هي النهار لا يحتاج إلى دليل.

ووصلت الكتب المكرمة المبرورة تتضمن كلّ قول مؤنس، ومقصد لبناء الاستخلاص[6] مؤسّس، وورد بعدها الخطاب الإمامي الكريم زاد الله مصدره شرفا،

---

(1) في هذا الفصل يعزّي ابن عميرة صديقه أبا الحسن الرّعيني في وفاة زوجته. وإذا كان أدباء المشرق قد تحاشوا إلّا نادرا تعزية المرء في محارمه، فإنّ الأندلسيين لم يكونوا يتحرّجون من ذلك، كما أنّ رثاء المرأة يشكّل سلسلة متواصلة الحلقات في الأدب الأندلسي. بن شريفة، أبو المطرف، ص 208.

(2) هو أبو زكرياء يحيى بن عطوش الكومي، وزير الخليفة الموحدي أبي الحسن علي بن إدريس الملقب بالسعيد والمعتضد. وكان مقتل السعيد مع وزيره ابن عطوش في الجبال الواقعة جنوب وجدة بضواحي تلمسان على يد الأمير الزياني يغمراسن بن زيان يوم الثلاثاء منسلخ شهر صفر من عام 646 هـ/1248 م. انظر تفاصيل هذا الحدث عند ابن عذاري، قسم الموحدين، ص 386. ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 97.

(3) هي مدينة رباط الفتح.

(4) في د 4502: بركة.

(5) في د 4502: المعتصمية. وهو الخليفة الموحدي أبو الحسن المعتضد.

(6) في د 4502: الإخلاص.



وأبقى بحر كرمه ونعمه مغترفا، بالإقرار الذي أشار في جانبي أكرم إشارة، وألبسني من نباهة الذكر أجمل شارة، وطوّقني منّة نزلت سهلها فأواني، وتناولت سجلها فأرواني، ونهضت بجدّها والأيام تطلب عثاري، وحاربت[1] بحدّها فأدركت عندها ثأري[2].

ومنها: وعناية[3] المولى أوزع الله شكره أوضحت جردي، وأخذت بيدي، وصانت وجهي بمائه، وأعانت على دهري حتى خلصت من غمّائه، فلي من تعاهد برّها أنيس، ولها منّي ما عشت طليق أو حبيس، أمّا إطلاقها[4] إيّاي فمن يد الزمن النكد، وأمّا حبسها[5] لي فعلى وظيفة الثناء والحمد، وقد نظمت قصيدة أدرجتها هي جهد مقلّ، وبعض لما يجب عليّ من كلّ: [الكامل]

عرضت له عين الظباء فلم يصد / وبدا له ماء العذيب فلم يرد

ورأى الهوى ولأهله في شوطه / طلق الجموح فسار سير المتئد[6]

ومضى على غلوائه في سلوة / من مائها إن هاج شوق يبترد

أو للتصابي منزل من قلب من / نظر المشيب إليه نظرة منتقد

ما أطلق الآمال من [رسفانها] / إلا خطى قيد الأوابد منجرد[7]

وعزيمة غير البطيّ يسوسها / في مهمة ظهر المطي به جهد

وإذا الكريم أبى الدّنيّة لم يجد / لفراقها مثل السّرى فيما يجد

/85/ قد قلت للقمر المدلّ بحسنه / لو أن وجهك وجه يحيى[8] لم تزد

---

(1) في د 4502: جاريت.

(2) لمّا مات الخليفة الموحدي الرّشيد سنة 640 هـ/1242م وخلفه أخوه الخليفة السعيد بعث إلى ابن عميرة خطابا يقرّه على منصب القضاء في الرّباط وسلا، وقد كان هذا الإقرار بمسعى من الوزير ابن عطوش الذي كان يعطف عليه، وهذا الخطاب هو المشار إليه في هذا الفصل.

(3) في د 4502: غاية.

(4) في د 4502: إطلاقه.

(5) في د 4502: حبسه.

(6) في د 4502: شرطه.

(7) في د 4502: رسفائها.

(8) هو الوزير يحيى بن عطوش المكتوب إليه.

مهلا فإن له مواعد لم يزد … عنه إنجاز ولست بها تعد

وكماله أمِنَ المحاق وما نرى … لك[1] من كمال فالمحاق له عُهد

هي غاية في الفضل ليس ينالها … راض من العلياء بخط المقتصد

وندى كماء المزن يصفو ما صفا … وسنى كنور الشمس يجحد إن جحد

فالله يشكر ما الأنام يرونه … من صالح لك والإمام المعتضد

وخلافة تزدان منك بصارم … لا كالصّوارم إن يُسَلّ وإن غُمِد

أوزيرها الأعلى وساعدها الذي … بمكانه يشقى عداه وقد سعد

قوّمت كل مقاوم بمهابة نقدا … يصيد بها العدو وإن أسد

ولكَمْ مُهِمٍّ قد كفيت وإن تغب … عنه فرأيك واصل يد من شهد

ويمينك العليا تفيض هباتها … وعلى الخلائق قبل أن يفدوا تفد

أعطيت حتى لم تدع من سائل … يبغي النوال وزدت من لم يستزد

وسددت وحدك كل خرق كان … قد يعيا به قلب المجد المجتهد

إن المناقب والمكارم كلها يحيى … بن عطّوش بها هو منفرد

كرم هو النص الصّريح وراية … فيض الندى فيها قياس مطّرد[2]

يأيّها المولى الذي إحسانه في … الناس إن يبديه[3] في وقت يعد

أوليت من جدواك ما حمدي … له اختار أنفسه لأكرم من حُمِد

ونهضت بي حين استندت إليك … من ضيم الزمان فكنت أسعد مستند

حتى احتللت المنزل السهل الذي … زمني به بصفاء عيشي متّحد

مرعى وجدت النبت فيه طيبا … ومن المراعي ما النبات به نكد

ووردت عذبا منه غير مصرّد … قلبي به من بعد لوعته صرد

مولاي والشكوى إليك لها مدى … أنا فيه إن أرعيتني[4] سمعا مجد[5]

(1) في د 4502: له.

(2) في د 4502: يطّرد.

(3) في د 4502: يبدأه.

(4) في د 4502: أوعيتني.

(5) في هذا المقطع يشكو ابن عميرة إلى الوزير ابن عطوش من وشايات بعض خصومه، ولم يذكر شيئا عن طبيعة هذه الوشايات التي سعى بها خصومه الذين هم فيما يبدو من الوافدين الأندلسيين.



أنبئت بعض الوافدين وكلّهم … همج أتى إفكا بما لا يعتقد[1]

/86/ ولو أنهم في رتبة الحساد لم … أنكر وقلت سواي قبلي قد حُسد

لكنهم كرهوا الكمال لنقصهم … كالشمس تكره ضوءها عين الرّمد

وإذا نفى الفضلَ الأراذلُ عن فتى … فيه على التحقيق شاهدهم[2] شهد[3]

حالي إليك رفعتها وعليك أن … تنتاشها من كفّ دهر مضطهد

من ذا يجيب نداءها إن لم تجب … أو من يشيد بناءها إن لم تشد

وإليكه روضا ثنائي بالذي … أوليت من نعماك طائره الغرد

جاءتك بنت قريحة كانت ترى … في بنتها لولاك طاعة من يئد

وإذا بفضلك قال كلّ مقلد … فأنا الذي لي فيه فتوى المجتهد

لا زلت تعتمد المعالي والورى … كلٌّ لجانبك المكرّم يعتمد[4]

-188-

## وكتب إلى سيّد يتطلّع إلى أخباره

تخص المولى الأعلى حرس الله مقامه، وشكر أنعامه، تحية التعظيم والانقطاع، والشكر الذي أملأ منه جميع الأسماع، واتّبع فيه دليل الإجماع، ورحمة الله تعالى وبركاته، من فلانة[5] وبركة الخلافة العليّة المعتضدية[6] أيّدها الله ظل ممدود، وحوض للأنام مورود، والله يبقيها ما أورق عود، ويضاعف لها من

(1) في د 4502: نعتقد.

(2) في د 4502: شاجرهم.

(3) يُنظر في هذا المعنى إلى بيت المتنبي المشهور:

وإذا أتتك مذمّتي من ناقص … فهي الشهادة لي بأنّي كامل

شرح ديوان المتنبي، 2/3، ص 274.

(4) لابن عميرة قصيدة أخرى في مدح الوزير ابن عطوش سترد في الرسالة رقم 253.

(5) هي مدينة رباط الفتح.

(6) هو الخليفة الموحدي أبو الحسن علي المعتضد، وقد انقلب عليه ابن عميرة بعدما فقد الأمل في دولة الموحدين وأصبح من دعاة الدولة الحفصية.

فضله وجوده ما لا يبلغه فضل وجود.

وما أرجع إليه من الاختصاص حديثا وقديما، والإخلاص الذي لم أزل عليه مقيما، فلي به تشرّف الموصوف بالصّفة، وتعرّف كالنكرة إذا أضيفت إلى المعرفة[1]، وأنا إلى خبر المولى متطلع، وبجانبه من غِيَرِ الأيّام متمنّع، وما يمنّ به من أنبائه المباركة فمنة إلى منته مضافة، وأمنة ليس معها إن شاء الله مخافة، وكنت أودعت الفقيه الكاتب مسائلي ثم أكدت على المولى عند الموادعة في شأنها فوعد وعدا آمل مجازه، /87/ وأرجو بفضل الله انجازه، وأنا الآن أذكّر بها والذكرى تنفع، وألهم إلى رفعها فلعلها ترفع.

– 189 –

## رسالة في العتاب إلى من قطع عنه مكاتبته

كتابي إلى سيدي وواحدي ومعتمدي وعددي أبقاه الله خطيرا قدره، منيرا في سماء السناء بدره، رحيبا بحقوق الأولياء والعلياء صدره، من فلانة وعندي مودّة أكّدت عقدها، وأصفيت-علم الله-وردها، وقدّرت أنها وصلة تحظي، وبضاعة يزكو بها عنده حظّي، وقد لهجت بما أفادتني من برّه، وأثمرت لي من جميل ذكره، فإنه جديد أغناني عن كلّ لبيس، وأغراني بأن اعتدّ به مع كل جليس، حتى خفت عليه عيون البشر، وفزعت فيه إلى الرّقى والنّشر، وحتى دعوت له بالسلامة، وتمنيت من أجله عرّاف اليمامة[2].

(1) طباق الإيجاب بين "النكرة والمعرفة".

(2) عرّاف اليمامة هو رياح بن مكحول، وهو المعني بقول عروة بن حزام أحد متيّمي العرب ومَن قتله الغرام بسبب ابنة عمّه عفراء حين لقيه في الطريق:

أقول لعرّاف اليمامة داوني … فإنّك إن داويتني لطبيب

الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 19، ص 358.



وأنا أقول مع ذلك إن هذا العماد أرجح قيمة، وأكرم شيمة[1]، من أن يسترجع هبة وهبها، أو يمحو وثيقة بخطه كتبها، أو يكون ممّن يشين صفحة ودّه ملل، أو يخون قدم عهده زلل، إلى أن قطع عنّي كتبه وأرخى بيني وبينه من الإعراض حجبه، ومضت مدّة وأنا أرقب منه برقا يهب وهنًا، أو حرفا يجيء لمعنى، فما لفظة كما كان يلفظ، بل كتب في جانب آخر يثني ويقرظ، فلولا أن فناء الودّ قِبَلي معمور، ودليل الخطاب عندي مهجور، لكنت قد سؤت ظنا، وجئت في طلق العتاب مستنا، لكن دليل الثقة أوجب عليّ أن أتأوّل، ولا أعارض بمظنوني الثاني معلومي الأول.

ولو شاء سيدي لكفاني هذا العناء، وأراني /88/ ذلك الاعتناء، وقسم لي من خاطره حظا لا يرزأ كيسا، ولا أطلبه إلا أنيسا، ولقد فتشت جريرة، وحاسبت نفسي لا أغادر صغيرة ولا كبيرة[2]، فلم أجد ما يكدر الصّفاء، ويوجب الجفاء، ثم لو كان ذنب يصغر أو يعظم، فأين التكرّم والذمم، ليعدني سيدي إلى حالتي الوسطى، وليبق بيدي ما كان أعطى ولا يشمت بي زمنا كان أرغمه، ولا يظهر حرفا من الانحراف قد كان أدغمه، وليعن فإن الحرّ معوان، ويجمل فالجميل له عند الكرام مكان.

– 190 –

## وأجاب أحد إخوانه طلب الاجتماع به

سيدي وأخي أعاد الله سرّاءكم، وأنجح آراءكم، وصلتني مخاطبتكم المبرورة تتضمن صدق ودّكم لا عدمته، وكرم عهدكم الذي هو كما عهدته وعلمته، وذكرتم عرض كتبي هنالك وما عند الحاضرين من إعجاب بما يصدر، وإسهاب في شكر من يشكر، وربما غرّ طرف الناظر السّراب، وخفي على عين الرّضى ما يعاب.

وأشرتم إلى غرضكم في الاجتماع وأيّ أمل لو دنا، ومُنًى إن تكن حقا تكن أحسن المُنى، علّ تسمح الأيام بهذا الجمع، أو أرى ثاني من أراه ثالث البصر والسّمع، إن كان ذلك عاد عيش نضب ماؤه، وأنس لم يبق منه إلا ذماؤه، والعين

(1) جناس ناقص بين "قيمة وشيمة".

(2) الاقتباس من الآية رقم 49 من سورة الكهف.

الآن ناظرة لكل وارد، والأشواق من أجل عدتكم في هيجان زائد.

– 191 –

## وله من رسالة في المداعبة

كتبته والخاطر متبلّد، والحامل في اقتضائه متشدّد، فإنه يخشى فوت الصّحبة، ويعرف انقطاع هذه التربة، وقد عاد /89/ إليكم منه حريص على الطّوف، تميمي الفم والجوف، يكشف عن الشيء الملفف[1]، ويكلف بالقريض والمجفف، ويذكر تلك البلدة وأسواقها المزيّنة، وفواكهها الملوّنة، وما فيها من طبيخ وحنيذ، وحُوّارَى[2] وسميذ، ويتخيل ما عهد بها من خبيص[3]، وقريص، وهريس، ورفيس، فيطير نحوها قدما، ويحن إليها شرها لا كرمًا.

– 192 –

## وخاطب أحد إخوانه يتطلّع إلى أخباره

تخصّ سيدي وأخي حفظ الله مجده، وضاعف نعمه عنده، تحية التعظيم والتقديم، والودّ الخالص الكريم، ورحمة الله وبركاته، من فلانة وأنا بحقه عليم، وعلى عهده مقيم، ومازالت كتبه المبرورة ترد عليّ معرفة عن ودّه الذي عرفت صفاءه منذ مدّة، ووثقت منه بأنفس ذخيرة وأكرم عدّة، ووجدت حسنه طريا غير مطرى، ومشرعه مخلصا من الشوائب معرى، ولقد انبنى على صحّة، ورسخ في نفوس عليه أشحّة، فلذلك يزكو في كل آن، ويثبت وإن وهى كلّ بنيان، وذكر أحواله زادها الله صلاحا، ولا أعدمه في مساعيه المبرورة نجاحا، وأنا متطلّع منها إلى ما أرجو أن يقرّ عينيّ، ويهزّ من السّرور عطفيّ، إن شاء الله تعالى.

---

(1) انظر معنى هذه الكلمة في هامش الرسالة رقم: 164.

(2) الحُوّارَى: الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه. لسان العرب، ج 4، ص 220.

(3) من أنواع الحلواء.



– 193 –

## وأجاب مَن كتب إليه يشكو مِن حمّى نزلت به

وافتني أيها الأخ الذي أنا بإخائه كثير، ولأشواقي بذكره مثير، القصيدة الفريدة، بل الكاعب الخريدة، تلعب بالنّهى، وتقعد /90/ لمعارضها فوق السُّهى، فتناولت منها سلوة المشتاق، ورقية أيّام الفراق، وحرت بين رقة لا تتعاطاها المدامة، وصنعة لا يقدم عليها قدامة، وأعجب ما فيها أنها نظمت والحمّى لها سورة، وزائرها ما أغبّت منه زورة، فسبحان الله متى كانت الحمّى تلقح العقول، وتصلح المقول، وهل سمعنا أن شعرا بها رقت حواشيه، ودقت صنعة واشيه، ولو نعلم أن القياس يطّرد، وأنه حكم صاحب الواقعة به لا ينفرد، لجوّزنا لمن لم تزره أن يستزيرها، ولمن هدأت بين جوانحه أن يثيرها، حتى يغتفر أذاها لحوكها، ويحصل على جناها من شوكها، كما قيل لبعضهم ما أسرع خلف الحريق، قال فإني استحرق الله.

ونرجع إلى القصيدة، هي توم[1] اللئالي، بل نجوم اللّيالي، ودرّ السِّخاب[2]، بل درّ السحاب، وفرائد الجمان، بل فوائد الأزمان، وقعت منّي موقع الشفا من الدّنف، والوصل من المحب الكلف، ورأيت منها النار في عين المقرور، والنوار خلال الرّوض الممطور.

ثم انتقلت إلى محوّلها، فإذا رسالة أشجتني بأوّلها، وصفت الحمّى وقرب أوبتها، وما كان من أعراضها المشتدة، وأوقاتها الممتدة، فلا أهلا بها من طارقة غير خالفة، وزائرة للحشايا دون الحشى عائفة، وأحسبها صاحبة أبي الطيب[3] ولذلك نسجت على منواله، ونطقت ببعض أحواله، وشكت جور الزمان الذميم، وألهمت

---

(1) هكذا في الأصل ولعلّه يريد تؤام وهي قصبة عُمان ممّا يلي الساحل، يُنسب إليها الدّرُّ. وتؤام موضع بالبحرين أيضا. قال ياقوت الحموي: وأظنّ أنّ تؤام البحرين هي التي ينسب إليها اللّؤلؤ لأنّ عمان لا لؤلؤ بها. معجم البلدان، ج 2، ص 54.

(2) السِّخاب والجمع سخب: القلادة كانت ذات جوهر أو غيره. لسان العرب، ج 1، ص 461.

(3) إشارة إلى قصيدة أبي الطيب المتنبي التي يصف فيها الحمّى التي كانت تغشاه بمصر. انظر نص القصيدة في شرح ديوان المتنبي، مج 2، ج 4، ص 201.

حتى إلى النظم على روي الميم، وأخبر سيدي بأن وصبها بقي، والبَدَن بعد منها ما نقي، والله يمكّن له النقوه، ويدفع عنه المكروه.

وذكر فلانا وأنه فقد حيز بونة، وسار لأمل كان الإخفاق دونة، وهما خطتان من الباقية والفانية، إحداهما تأسر /91/ كلم الثانية، لا كمن جمع ضغنا على إبالة، وأمن شعوب[1] والوقوع لها في حبالة، ولا تخفى هذه الإشارة، وإياك أعني واسمعي يا جارة[2]، وأخبر عن غايته وأنها لا عين بها تبض، ولا شيء منها يَنِضّ، والمذكور ربما أنبط وإن أكدى حافر، وخبط والورق إلا عن يده متطاير.

وذكر سيدي فلانا وما بينه وبينه من تعارف يقتضي الائتلاف، وموافقة ترفع الخلاف، فمتى أفادته الأيام هذا السيّد الرئيس، والعلق النفيس، وكيف سمحت به وشأنها بخل، وأصابت فيه وفي رأيها خطا وخطل، وأخبر عنه أن شكري من شأنه، وكتبي يعرضها على استحسانه، وعين الرّضى وإياها يقلب، ولحكمها يغلب، كثيرا ما تعطي المساوي، وتجهل التباين والتساوي، وما يستخفه من لفظ عليل، ومنطق غير أصيل، وأي قول لذى فكر موزّع، وخاطر أطارته كل زعزع، فهو ناءٍ عن وطنه، نايٍ إلا لشجنه، بين خطوب جاورته، وهموم ساورته، فماء الروية نضب، والقول ذهب عنه فيما ذهب، وأشار إلى مخاطبته ولقد بلغ ما لا أقوم بحقه، وشام عارضا لا مخيلة لبرقه، لكنها أمرة مطاعة، وخطبة لا تردّ لها شفاعة، وقد ألزمتني أن أعرض عليه عرضة للاستخفاف، وأزف إليه مفتضحة بالزفاف.

---

(1) شَعوب: من أسماء الموت.

(2) يشير إلى قول سهل بن مالك الفزاري:

يا أخت خير البدو والحضاره ... كيف ترين في فتى فزاره
أصبح يهوى حرّة معطاره ... إياك أعني واسمعي يا جاره

قال ذلك يخاطب أخت حارثة بن لام سيد بعض أحياء طيء. وقد صار قوله: "إياك أعني واسمعي يا جاره"، مثلا يُضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئا غيره. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 66.



– 194 –

## رسالة في عتاب القائد أبي بكر بن عيسى الذي لامه

تخص المجد المؤثل[1]، والإخاء الذي لاح في مرآة الصفاء وتمثل، أبقاه الله مسرور الفؤاد، مغمور الأضداد، معمور البيت الرّفيع العماد، تحيّة ودّ أخلصته إخلاصا سارت به الأحاديث، /92/ وأعطيته عطاءً وقعت فيه المواريث، ورحمة الله تعالى وبركاته، من رباط الفتح وهو الحبيب وصولا ومتجنيا، والصفيّ[2] مسرعا في صلة الأولياء أو متأنيا، أرضاه أسخط أو أرضى، وأستعمل معه رأي[3] من غضّ وأغضى، وأسرع إلى حصاد ما سمح في نباته، وأسوم نفسي محوما أطرح المبالاة بإثباته.

إلى أن وافاني كتابه المبرور وهو برق مللت من شيمه، وقطر جهلت جهة غيمه، وطارق انقبضت عنه إنكارا، وقلت له والله ما اتخذت عندنا جوارا، ولا كنت لنا زوّارا، ففيم الإلمام، وما هذا الملام، وكيف نسب إلى غيره التناسي، وكلّم ثم جعل نفسه الآسي، وعتب حتى في كتب لم أودعها تحيّة، ولم استبق من حواشيها[4] لسلامي بقيّة، فقلت ما أعجب طلب الحواشي وقد أهملت متون، ومشى الماشي وخيل قطيعته صفون، أوَ لا يعلم أنّي لم أقبض عناني بهذا الميدان، وأعص فيه نفسا تنهاني عن الهجران، إلا بعد أن استأذنت فحجبت، وكتبت فما أجبت، وشفعت فكأني أغريت، وأثنيت فما خلتني إلا افتريت، وكنت أسمع أنه لا عمل لمن ثقل ظله، وصغر في عين من كان يجله، أجدى من أن يتخفف بالانقباض، ويتكلف ما

---

(1) هو القائد أبو بكر بن أبي الحسين يحيى بن أحمد بن عيسى بن أحمد بن طاهر بن علي بن عيسى الأنصاري الخزرجي من بيت نبيه، فهو من ولد الصّحابي الجليل قيس بن سعد بن عبادة. من أهل دانية وسكن والده أبو الحسين شاطبة وحكمها وساد أهلها من قِبَلِ ابن هود ثم استقل بها أولاده بعد وفاة ابن هود منهم أبو بكر هذا. وهو الذي كتب ابن عميرة صداقه وصداق أخيه الأكبر أبي عمرو. ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، القسم الثاني، ص 230، وص 235 وما بعدها. ابن الأبّار، التكملة، ج 4، ص 191.

(2) في زواهر الفكر: الأخ البرّ.

(3) في زواهر الفكر: فيه عادة.

(4) في زواهر الفكر: طررها.

يحمل من الإعراض، فطلبت الصلة من طريق الجفاء، وصبرت على مرارة الدواء توصلا إلى الشفاء[1].

فلما تأمّلت الكتب[2] حسبت الرّؤية رؤيا، وعجبت لصيّب لم أر منه مخيلة إلا بخيلة بالسقيا، فكنت كمن ظفر بالصّيد وسهمه عابر، وبُشّر بالولد وامرأته عاقر، وقلت هكذا ينبعث الهامد، وينتعب الجامد، إنّ أغرب موارين الليل والنهار، /93/ ﴿وإنّ مِن الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار﴾[3]، ولو كان هذا الاتفاق بعد[4] رقية لأحد المسترقين من بعض المخرقين لأجلّ شأنها، واستقل البدر أن يكون حلوانها، واستشهد على أنها[5] التي تسمع الصمّ، وتستنزل العصم، وإنّ عرّاف اليمامة لو أدرجها في نفثه، لشفي بها صاحب ليلى من بثه، كما أن اللّديغ لو نودي بها لأذهبت أوصابه، والمصبوب لو أحيل عليها شفته مما أصابه.

فأما الرسالة فقد برز سلافة الرّاح سرّها، وحدق الملاح سحرها، وجاءت كالممرّض أقبل في العوّاد، والمغضب أدلّ بمكانه من الفؤاد، وما راعني إلا وهي تختال، وتقول على غير الغانيات كتب القتل والقتال، فقبلتها مضطرا، وقلت ربما أغرى الهوى ببرّ من لم يكن برّا، وعلمت أن كاتبها حين يعتذر بالفهاهة[6]، ويختصر طريق الجدّ والفكاهة، مكابر في جملة أمره، متكبّر من حيث يضع من قدره، وأنه عندما يخرج من صفّ البلاغة ومواقفها تجذبه، وينتفي من نسبها وقائفها يكذبه، كالحسناء تجحد حسنا تبرّجها يصفه، وتنكر سحرا بعينها والقلوب تعرفه[7].

(1) في زواهر الفكر: فتوسّلت إلى البرّ من طريق الجفاء، واحتملت مرارة الدّواء رغبة في الشفاء.

(2) في زواهر الفكر: ولما رأيت الكتاب بعد أن.

(3) الآية رقم 74 من سورة البقرة.

(4) في زواهر الفكر: سبقته.

(5) في زواهر الفكر: ولقال إنها التي.

(6) الفهاهة: العيّ. يقال: سفيه فهيه. ويقال: خرجت لحاجة فأفهّني عنها فلان حتى فههت أي أنسانيها. والفهّة مثل السقطة والجهلة ونحوها. لسان العرب، ج 13، ص 525.

(7) بقية الرّسالة في زواهر الفكر.



– 195 –

## رسالة إلى ذي الوزارتين أبي علي بن خلاص صاحب سبتة

[الكامل]

هواي لابن خلاص وحده خلصا ... وفيه أغلي من الأمداح ما رخصا

وعنده والمنى سرب لساحته ... أنال ما شئت مقتصا ومقتنصا

لله منه لمن يلقاه بدر علي ... له الكمال إذا بدر الدُّجى نقصا

وسيد في اقتناء المكرمات له ... عزائم ليس فيها يطلب الرّخصا

تزهى الوزارة مثناها وموحدها ... منه لذي نسب في الأكثرين حصا

/94/ المشرقين إذا وجه الزمان دجا ... والمقدمين إذا ليث الشرى نكصا

له أياد بها طعم الحياة حلا ... وإنما كان مرّا قبل أو عفصا[1]

نلوذ منه بظل لا يفارقنا ... والظل ما امتد إلا زال أو قلصا

ومورد بالنّوال العمر تنبجس ... فرده لا شرقا تخشى ولا غصصا

والله يبقيه في عزّ نتال به من ... فرصة العيش حظا يسبق الفرصا

أيها السيد الذي رعى حقي وأثابه، بل دعا رقي فأجابه، وافت الرقعة المباركة كأنها سنة البصر، بل سنة القمر، وراح النديم، بل روح النسيم، فكان لي منها رقية السّليم، ورؤية الشفاء في عين السّقيم، وفضضتها عن ألفاظ هي التبر أعطى خلاصته، أو الدرّ أرضى غاصته، وشاهدت من تلك الشيمة واهتزازها، كالمشرفي وإحرازها، شرف الكريم الوفي ما كان عند ظلمة الشك قبسًا، وفي تربة الوحدة أنسا مغترسا، فإن اعتقد معتقد، أو ظن مَن طرف ظنّه رمد، أن عناية السّيد إنما تغشى من يغشى جنابه، ولا تصافح إلا يد من لزم بَابَه، فقد عري من اليقين، وعمي عن الصّبح المبين، ولو اقتصر البحر على الحاضر لم يُضرب بجوده المثل، ولو سقى القطر ما حول العامر لم يشكره السّهل والجبل، ولا يرضى السّيد أن

(1) العفص من النبات، ومنه اشتق طعام عفص أي البشع الذي فيه مرارة وعفوصة وتقبّض يعسر ابتلاعه. لسان العرب، ج 9، ص 55.

يكونا منه أوفى ذمّة، وأعلى همّة، بل يزيد عليهما زيادة الشبعان على المتشبّع، وذي الطّبع المعار على المتطبّع.

ومنها: وذكر سيدي الرّقاص[1]، وفريته التي طلب منها الخلاص، وهيهات قد أعثر الله على بهتانه، وفضحه بشاهد لسانه، والله ما عرج عليّ مجتازا، ولا رأى فيما خطر عليّ من دفع الكتاب جوازا، فكيف ظن سيدي وقد فضح الله سريرته /95/ أني أستر عليه جريرته، بل أرى أن جرمه محبط كل حسنة، والحكم فيه جلد مائة وتغريب سنة[2]، وليشهد عذابه طائفة من صنفه الفجرة، قدر ما يقرأ المرتل سورة البقرة، ولا يجوز لي أن أطلب له السّلامة، وقد رويت ما قال عليه السّلام في شفاعة الحدّ لأسامة[3].

ومنها: ذكر أخبار بلادنا وذلك ذماء كذماء الضّبّ[4]، وداء لا دواء له في كتب الطّبّ، فليت القوم أراحهم اليأس، واستقام لهم الطّرد أو العكس[5].

-196-

## ومن رسالة إلى أحد إخوانه

أخي وسيدي حفظ الله ودّكم وهو ذخري، وعهدكم الذي أحبس عليه شكري، وردت رقعتكم المبرورة على ظماء إلى أنبائكم، وشوق لمعرفة ظعنكم أو

---

(1) هو ناقل البريد وقد سبقت الإشارة إليه.

(2) هذا حدّ زنا البكر. واختلفوا في التغريب مع الجلد، فقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تغريب أصلا. وقال الشافعي: لا بدّ من التغريب مع الجلد لكل زان ذكرا كان أو أنثى، حرّا كان أو عبدا. وقال مالك: يغرّب الرجل ولا تغرّب المرأة، وبه قال الأوزاعي، ولا تغريب عند مالك على العبيد. ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد. بيروت: دار الفكر، 1995. ج 2، ص 357. وهي من مداعبات ابن عميرة وهو يطلب عقوبة الرّقّاص.

(3) يريد الصحابي أسامة بن زيد الذي جاء النبي يشفع في المرأة المخزومية التي سرقت وجحدت، فردّ النبي شفاعته. ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد، ج 2، ص 366.

(4) الذماء ما بين القتل إلى خروج النفس، ولا ذماء للإنسان. ويُضرب المثل في الطول بذماء الضب فيقال: أطول ذماءً من الضّب. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 605.

(5) الطّرد والعكس من مصطلحات أهل المنطق والأصول. انظر شرح ذلك عند التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج 2، ص 1131.



ثوائكم، فما فكّت المعمّى[1]، ولا أخرجت من إشكال إمّا وأمّا، وذكرتم عدّة المخ، وأنّى للبيذق بمقاومة الرّخ، وإنكم لفي أوسع عذر من تقسّم البال، أبدله الله بتنسّم الإقبال.

-197-

## وأجاب أحد إخوانه كتب إليه بعد طول انتظار

كتابي إلى أخي وسيدي كتب الله له عزّا باقيا، وأملا للنجاح ملاقيا، من رباط الفتح والودّ حبل محصد، والشوق سهم قلبي به مقصدُ، ووافاني كتابكم المبرور بعد إبطاء أنكرته، وانتظار ما كنت ببالي أخطرته، وكنت خاطبتكم بغير ما كتاب على أنكم لتلاوة السّفر ختمتم، وعلى حلاوة الظفر قد خيّمتم، فراجعتني الوزارة المباركة العليّة شكر الله /96/ سجاحتها، بأن قدمكم لم تطأ ساحتها.

وبينا أنا أرجم الظنون، وأقدّر ما عسى أن يكون، وردت كتبكم بأنكم نزلتم ذلك المنزل المبارك، ولقيتم الفضل الذي قبل إنزال الرّحل ضاحك، وبإزالة الأزل وإحالة المحل تدارك، ولما قرأت ذلك الفصل من تألق بشره، وتدفق برّه، قلت بخ تلك نار لا تطفأ، ومكارم عِداتها لا تستبطأ، فسبحان من أفرده بغرّ المناقب، وأعلى قدره على الزهر الثواقب، وجعل ما به يتضاعف كلفه وحبّه، مجدا يعليه وصنيعا يربّه، حتى كأن الأيّام عاهدته على أن تفي له إذا وفى لبنيها، ومهما بنى بيت مكرمة أن تحفظ له كل معلوة يبنيها، فهو بشرطها واثق، ولعادة الكرماء في إعادة النعماء خارق، وقد كنت أشرت في بعض كتبي إليه أن يفعل ما يده به أبسط من أمالنا، وهمته فيه أعلى من سؤالنا.

---

(1) المعمّى من التعمية وهو عند البلغاء كلام موزون يدلّ بطريق الرّمز والإيماء على اسم أو أن يكون بزيادة فيه عن طريق القلب أو التشبيه أو بحساب الجمّل أو بوجه آخر، على أن يكون بأسلوب يقبله الطبع السليم ولا ينكره وأن يخلو من التطويل في الألفاظ المستكرهة، والقيد بالاسم لأنّ الغالب فيه هو الأسماء وإلّا فيجوز، ومن صوره التصحيف، وهو مثل اللغز. التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج 2، ص 1595.

-198-

## ومن رسالة إلى سيّد من إخوانه

سيّدي وأخي أنس الله بخبركم، وأسعدكم في وردكم وصدركم، وردت رقعتكم المبرورة تذكرون الوزارة العليا أبقى الله شرفها، كما صان بها وجْهَ من عرفها، وما أولته من برّ هو دأبها، واعتبار هو حسبنا لا حسبها، فجزاها الله خير جزائه، ولا أخلاها من تعاهد نعمائه، وذكرتم غرضكم في المشي مع فلان وإنها لصحبة مضمونة، ووجهة فيها بكل اعتبار معونة، فيجب ألا يفوتكم ذلك القيل، فإنّ من جاء معه لا يقول مُنِعَ منّا الكيل[1].

**ومنها:** وذكرتم فلانا وما زاده أمرُ، /97/ وحاله لا خلُّ ولا خمر[2]، وسائر الأنباء تتعرفون قانونها، وقد يستغني عن حواشي الكتب مَن عَلِم متونها.

-199-

## وكتب إلى سيّد بمراكش يوصيه بجماعة

اقتضبت العجالة إلى سيدي الأعزّ عليّ، وذخري المالئ يديّ وعينيّ، أبقاه الله بدرا في سماء العلاء، وصدرا في أندية الفضلاء، من رباط الفتح وتعظيمي كما يعلم، وحبّي له مقدّمة من الاحتمال تسلم، وعند الجدل تسلّم، وقد خاطبت فضله في هذه المدّة مع الصّبي الذي أنا في انتظاره، وعلى جناح الشوق إلى أخباره.

وهؤلاء الكذا خلاصة ما فيهم خبث، وأمرهم جدّ ليس فيه عبث، وتوجهوا في مسائل يرفعونها إلى المقام العلي المعتضدي[3] أيّده الله واعتناء سيدي يدنيهم، ويعنى بمطلوب لطلاب ما يعنيهم، وقد أطلعتهم على ودّي، وأودعتهم بعض ما عندي.

(1) اقتباس من الآية رقم 63 من سورة يوسف.

(2) يشير إلى المثل العربي القائل: ما أنت بخلّ ولا خمر. وكان بعض العرب يجعل الخمر خيرا، والخلّ شرا، وبعضهم يجعل العكس، ويقولون لست من هذا الأمر في خلّ ولا خمر، أي لست منه في خير ولا شرّ. الميداني، مجمع الأمثال، ج 2، ص 307.

(3) يريد الخليفة الموحدي أبا الحسن المعتضد.



-200-

## وله من رسالة في التوصية برجل مئناث

اقتضبت هذه العجالة وبودّي أن أطيلها، وأفسح من خطو خطّي لها، لكنها وجدت فكري من إنشائه في ساعة العسرة، ومن وقت عشائه بعد ذهاب البياض والحمرة، فأشكل الأداء والقضاء، ولم يبق إلا الاستعداء والاقتضاء.

وحاملها فلان نسكه نسك صوفي، وجوهره يقبله كل صيرفي، وقد سُلِب ريّاشا وأثاثا، وخُلق يوم خلق مئناثا، فحوله من البنات عدة تجرع صاب الحياة، وتبلغ نصاب الزكاة، ولو تكلّف طلب /98/ الصّهر، لما اكتفى بأهل المصر، لكنّه جاءه من رام على إحداهن عقدا، وسئل أن ينقد فما وجد نقدا، فقيل وافق شنّ طبقه[1]، وخطب إلى الفقير من يستحق الصدقة.

**ومنها:** ولما أحوجته الضرورة، وأخرجته نائبته المذكورة، سأل الإعلام بوسيلته التي عندكم تكرم، وعلى فضلكم تحكم، وهو هذا الرّجل الذي هو بصحبته مشكور، وعلى محبته مفطور، وقد أشركته في كتابي هذا وإنها لشركة، عائدها إن شاء الله تعالى يُمْنٌ وبركة.

-201-

## وله من رسالة

تعتمد المولى الأعلى زاد الله سيادته ضخامة وكرامة، وأصحبه السّعود والظهور المعهود ظعنا وإقامة، تحيّة الإخلاص والاختصاص، والانقطاع الذي ظفرت منه بدرّة الغوّاص، ورحمة الله تعالى وبركاته، والنسبة إلى ذلك الجلال تخدُمّ ورقُّ، والثناء عليه لجملة الأوقات مستحق.

وتقدّمت المخاطبة في هذه الأيام وما تزيّد بعدها إلا رسم لهؤلاء الكذا اخترعوه، وباب الطلب به قرعوه، وجاء منهم لابس جلد النّمر[2]، معرض عن عذر

(1) مثل معروف يُضرب للمتوافقين. الميداني، مجمع الأمثال، ج 2، ص415.

(2) يشير إلى المثل القائل: شمّر واتّزر والبس جلد النّمر. يُضرب لمن يُؤمر بالجدّ والاجتهاد. ويقال أيضا: لبست له جلد النمر. يُضرب في إظهار العداوة وكشفها. ويقال للرجل الذي =

المعتذر، يقول إن صاحبهم أوْلَم بل ألَمّ، وعرّض بالحرب وقد كان سَالَمَ، وهو الآن متخبط في جهله، متحكم حكم الصّبي على أهله.

– 202 –

## رسالة تهنئة لأحد أصدقائه بتقلّد منصب رفيع لدى الخليفة الموحدي المعتضد

فكُتِبَ كتب الله لكم عافية سلامتها مضمونة، وسعادة لامتها موصونة، من فلانة وبركة الخلافة العلية المعتضديّة أيّدها الله نور وهدى، ونعم الله بها نلبس مطارفها ضافية جددًا، /99/ وعندي لمجدكم توقير وتعظيم، وحبّ وثناء كلاهما أنا به زعيم وعليه مقيم.

وقد بلغني خبر الأمانة التي عليها اؤتمنتم، والخطة التي زانتكم كما أنكم لها زنتم، أمّا زينكم لها فبالحسب العريق، والفضل الواضح الطريق، والعلم المبني على أوثق قواعد التحقيق، وأمّا أنها زانتكم فلأن الخلافة العليّة المعتضديّة أيدها الله هي التي كستكم مطرفها، وخلعت عليكم شرفها، واختصتكم منها بسوار اختارت له المِعصَم، بل بحسام قلدته الفارس المعلم.

فهنيئا لكم ولها ظفر بالرتبة السنيّة، ونظر كلاكما نال منه أقصى الأمنية، وحين جاء الخبر بهذا التقليد السعيد، ولاحت نكتة المعنى من بيت القصيد، عاد إليّ النشاط الذاهب، واجتمع من شمل جذلي ما قد كان نهبه الزمن الناهب، وعلمت أن معشر فلّ الأيام، الباكين لنوائبها بعيني عروة بن حزام[1]، قد علا حظنا

---

= تشمّر في الأمر: لبس جلد النّمر. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 506، وج 2، ص 169.

(1) هو عروة بن حزام بن مهاصر ويقال بن حزام بن مالك أبو سعيد العذري، من بني ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة، شاعر حجازي مشهور وأحد متيمي العرب الذين قتلهم الغرام. وهو الذي كان يتشبّب بابنة عمّه عفراء بنت مهاصر بن مالك ويقال بنت عقال بن مهاصر وكان أهلها خرجوا من الحجاز إلى الشام فتبعهم عروة. وكان عمّه قد وعده بالزواج من عفراء ولكن أمّها زوّجتها لرجل صاحب مال من بني أميّة. فانتكست حال عروة بعد ذلك ومرض، وهو القائل: أقول لعرّاف اليمامة داوني، وقد تقدّم ذكر هذا البيت قبل قليل. مات في حدود =



السافل، وطلع نجمنا الآفل، وإن عميد بقيتنا، وصنديد سريتنا، شرّفتنا الخلافة العلية بتشريفه، وصرفتنا في أجلّ خطط النباهة عند تصريفه.

وهذه نعمة الألسنة في شكر موقعها مجال، وللجدود العواثر بوضعها في موضعها استقلال، تحملها منكم أجلّ حامل، واستقل سنانها من غنائكم على أشرف عامل، وقد هنأت بها نفسي عودا وبدءًا، وشكرت الله منها على هدى وَجدَت كفؤا، وعرضت مودتي عليكم وقد عرضتها بأشرف مظان القبول، وحملناه منكم إلى الماجد البرّ الوصول، يجرّبها خلوصا بخلوصها، ويتلقى حكم الوفاء والصفاء من منصوصها.

– 203 –

## رسالة توصية في حق جماعة من أهل الرباط تأخروا عن بيعة المعتضد الموحدي

/100/ تخص جنابكم[1] الأرفع زاده الله سُموًا، وأبقاه لأبناء الأمل والرجاء مأمولا مرجوًا، تحيّة التعظيم والاعتداد، والصّدق في إخلاص الوداد، والشكر الذي ما فوقه مزيد للمزداد، ورحمة الله تعالى وبركاته، وبركة الخلافة العلية المعتضدية أيدها الله ميزان للحق، وظل على الخلق، والله يبلّغ دعوتها أقاصي الغرب والشرق.

وتقدّمت مفاتحة مجدكم بما اقتضاه محض الخلوص، وأوجبه الحق الذي يعرف لكم على الخصوص، وأنهى معظّمكم من مسرّته بأن أنصفت فضلكم الأيام، وعرفت عدلكم الأحلام، ما أخذ منه بالنصيب الأوفر، وضوع من نشره فتيت المسك الأذفر، وتركت الجواب الذي يمدّ باع جذله، ويشدّ ظهر أمله، إن شاء الله تعالى.

والواصلون بهذه العجالة جماعة أخلِصوا من كل شوب، ولبسوا من الأمانة

---

= سنة 30 هـ/650 م في خلافة عثمان. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 19، ص 357 وما بعدها. ابن عساكر علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق. بيروت: دار الفكر، 1998، ج 4، ص 217 وما بعدها.

(1) هو أحد وزراء الخليفة الموحدي المعتضد (السعيد)، وقد يكون الوزير يحيى بن عطوش الذي كانت تربطه علاقة بابن عميرة.

والزّكاء أطهر ثوب، وكانوا تأخروا عن وفادة البيعة السّعيدة[1] بعذر عذّر الرخصة، ومنع انتهاز الفرصة، وقد استأنفوا الآن رويّة، وجددوا لقضاء ما فاتهم نيّة[2].

– 204 –

## ومن رسالة إلى سيّد في التوصية برجل

تحيتي المباركة الطيبة تعتمد سيدي ومعتمدي، كالمسك عبقا[3]، وجوهر السّلك متّسقا، ورحمة الله وبركاته، من رباط الفتح ومجده مزن منه الريّ، وركن إليه الأويّ.

ويصله بهذه العجالة فلان وهو ثالث ثلاثة كلهم إلى ظل الفضيلة متولّ، وبحُليّ الخلال الصالحة متحلّ، وفلان له في حسن المعاشرة /101/ الطريقة المثلى، والمورد العذب الأحلى، وقد نال المراتب، واقتعد من الجاه السّنام والقارب، فحمد الناس وساطته، ورأوا تنحية الأذى عن طريقهم وإماطته، وقد مشى إليكم فرأيتم منه رجلا مقبولا، وإنسانا يستحق نزولا على الكرامة وحلولا، وهو شاكر بملء فيه لعلائكم، متحدّث بكل ما يسرّ من أنبائكم.

– 205 –

## إرجاع كتاب في الجدل إلى الفقيه أبي محمد العراقي

وكتب [من سلا][4] إلى الفقيه أبي محمد العراقي، وبعث إليه عن جزء في الجدل كان له عنده، وذلك عند ولاية أبي محمد المذكور خزانة الكتب بالدّار

(1) يريد نص بيعة أهل رباط الفتح للخليفة الموحدي السعيد الذي يكون ابن عميرة قد كتبه بصفته قاضيا للمدينة، وهو من النصوص المفقودة.

(2) كتب ابن عميرة هذه الرّسالة من رباط الفتح في منتصف سنة 640 هـ/1242 م، لأنّ بيعة الخليفة الموحدي المعتضد (السعيد) كانت يوم وفاة أخيه الرّشيد في العاشر جمادى الثانية من السنة المذكورة. ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص 359.

(3) تشبيه تمثيلي شبّه التحية بالمسك.

(4) الزيادة من اختصار القدح.



العزيزة[1]: [الطويل]

| | |
|---|---|
| لعمرك إنّي في الوداد لصادق | وإنّ لساني بالثناء لناطق |
| وإن تكن الأيّام باعدن بيننا | فأكثر ما فيها حبيب مفارق |
| فديتك قد وجّهت بالجدل الذي | بصفحك في إمساكه أنا واثق |
| وأنت بحمد الله في خير رتبة بها | يُرتضى من ترتضيه الحقائق |
| تقلّدت من شغل الخزانة خطة | تقلّدها بالفضل والعلم لائق |
| وأرسلت عن جزء كحرف بمهرق | وقد جمعت في راحتيك المهارق[2] |
| فيا من له تسع وتسعون نعجة | أفي نعجة[3] عجفاء أنت تضايق[4] |

بعثت إلى سيّدي جدله، بعد أن استنسخت بدَله، وداعبت فضله الذي شهد به الزمان قبل أن أشهد له، وأنا متطلع لأحواله، مسرور لإنصاف الأيام لكماله.

– 206 –

## ومن إخوانياته المختصرة في الثناء

اقتضبت هذه العجالة والخاطر لقياس خضره طَرد، والوقت /102/ من قصره زمن فرد، وعندي على ذلك ثناء أقوم به مشيدا، وحبّ أصفيه قريبا وبعيدا[5]،

(1) كانت خطة المحافظة على خزانة الكتب الملكية بمراكش من الخطط الجليلة على عهد الموحدين، ولم تكن تُسند إلّا إلى علية أهل العلم وأكابرهم وهو ما أشار إليه ابن فرحون في ترجمته لأبي العبّاس أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي المعروف بابن الصقر حين قال: ولما صار الأمر إلى أبي يعقوب بن عبد المؤمن ألزمه خدمة الخزانة العالية، وكانت عندهم من الخطط الجليلة، التي لا يعيّن لها إلّا علية أهل العلم وأكابرهم. الديباج المذهب، ج 1، ص 213.

(2) المهرق والجمع مهارق: الصحيفة البيضاء يكتب فيها، وهو فارسي معرب. لسان العرب، ج 1، ص 368.

(3) في اختصار القدح وفي تحفة القادم: وفي سخلة، وهي ولد الشاة من المعز والضأن ذكرا كان أو أنثى.

(4) الاقتباس من الآية: ﴿ إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزّني في الخطاب﴾ سورة ص : (23).

(5) طباق الإيجاب بين "قريبا وبعيدا".

واعتدادي بتلك الشراوة التي أعددتها ذخرا، وأحطت بها خبرا، اعتداد الناظر بسناه، واللفظ بمعناه.

ويبلغني من آثارها المباركة نبذ أجد لها طعم الرّاحة عند الكسل، وحلاوة الأمن في قلب الوجل، فبورك فيك من أخ وفيّ والوفاء غريب، ونأى عنّي وهو بودّه منّي قريب، وقد وجدت مجدكم في حلّ المشكلات وسيطًا، وجدّكم لسراج الحاجات سليطا.

– 207 –

## وأجاب سيّدا من إخوانه

تخص سيّدي ورئيسي، ومسعدي وأنيسي، زاده الله عزّة إلى عزّته، وحفظ عليه عادة ارتياحه للمكارم وهزّته، تحيّة التعظيم والإجلال، والودّ الذي ورده أصفى من الماء الزلال، ورحمة الله تعالى وبركاته، من رباط الفتح وبركات الدّعوة المعتضدية أيّدها الله بحارها زاخرة، وأنوارها باهرة، والأيّام بجمالها مشرقة زاهرة، وعندي أيها السيد الماجد، والطارف من ذخري والتالد، اعتداد بمجدكم هو بين السّحر والنّحر[1]، وشكر لفضلكم لا أقنع منه بمثل زبد البحر.

ووافاني خطابكم الخطير مودعا كل إشارة سَنيّة، وعبارة على البيان المطبوع والمصنوع مبنية، فشغفت به أشدّ الشغف، وتناولت منه تحفة التحف، وتتبعت ألفاظه ألقط دررها، وأمسح غررها، وارتع منها في روضة مُدهامّة[2]، وأعوّذها وحظّي منها من كل عين لامّة[3]، وذكر سيّدي مسائلي وهي جنًى بأباره /103/ طاب، وحيًا على اختياره صَاب.

(1) جناس ناقص بين "السّحر والنّحر".

(2) روضة مدهامّة: خضراء تضرب إلى السّواد من نعمتها وريّها. وفي التنزيل العزيز ﴿مُدْهامّتان﴾ أي سوداوان من شدّة الخضرة من الرّيّ.

(3) اقتباس من الحديث الذي أخرجه البخاري ورواه ابنِ عبّاس قَال: كان النّبيّ صلى الله عليه وسَلمَ يُعوِّذ الحسن والحسين، ويَقولُ: إنَّ أبَاكمَا كانَ يُعوِّذ بِهَا إسماعِيل وإِسحاق أَعُوذ بِكلمات الله التامة من كلّ شيطان وهامّة وَمن كلّ عَيْن لامّة.



– 208 –

## ومن رسالة إلى أحد إخوانه

اقتضبت هذه العجالة والحامل في أهبة المرتحل، والوقت مثل عذر الكبير الغزل، ولهذا خفّفت في مكتوبتها، وتجافيت عن صعوبتها.

ومنها: ونبّهتم على مخاطبة الأخوين، الفاضلين، ووالله ما أعطى الوقت إلّا كتب ما ينبغي أن أدّاه الطريق، أن يستره الصّديق، لكنكم تخصّونهما بسلام كمحاسنهما كثرة، وأخلاقهما حقيقة وشهرة، وهذا سلام لا يفي به لسان، ولا يقدر عليه إنسان، بل لا يكفيه ديوان، ولا يسعه زمان ولا مكان.

ونرجع إلى القصيدة الرّائقة، والرّسالة الفائقة، طلعتا نيّرين، وتركتا نظر الناظر وسمع الحاضر متحيّرين، فأمّا الجواب عنهما فما شأني من شأنه، ولا مداه أُعَدُّ من فرسانه، وكان في القصيدة بيت هو: [الخفيف]

إن تـك البـرّة الحَـصَانَ جـلالا     فعـسى أن تكـون هـذي بريـرة[1]

فمن الرّسالة إشارة إلى هذا البيت وثلاث كنّ في بريرة منها التخيير واحسبني مغيث هذه، وإن الولاء لصاحب العتق ولا أهلية عندي لإنفاذه، وأهدت ما تصدّق به عليها[2]، وهذه تتصدق بما أهدي إليها، فسلّموا على هذا السيد الفاضل

(1) الحَصَان: المرأة العفيفة البيّنة الحَصانة والحُصن وهي المتزوِّجة أيضاً، من نسوة حُصُن وحَصانات. وحاصن من نِسوة حَواصنَ وحاصِنات. وقد حَصُنَت تَحْصُنُ حِصْناً وحُصْناً وحَصْناً إذا عَفّت عن الرِّيبة فهي حَصَان. لسان العرب، ج 13، ص 120.

(2) بريرة مولاة عائشة بنت أبي بكر الصديق، وهي التي جاء الحديث في شأنها بأن الولاء لمن أعتق، وهي واحدة من الثلاث التي يقصدها ابن عميرة. واعتقت تحت زوجها مغيث وكان عبدا لبعض بني مطيع، فخيّرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختارت نفسها، وهي الثانية. أما الثالثة فقد تُصُدِّقَ عليها بلحم فأهدته لبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وابن عميرة هنا يريد الحديث الذي أخرجه البخاري ورواه القَاسم بن محمد قال: كان في بَرِيرَة ثلاث سُنَن أرادت عائشة أن تشتريها فتعتقها فَقَال أهلها ولنا الولاء فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لو شئت شرطتيه لهم فإنّما الولاءُ لمن أعتق، قَال وأعتقت فخُيِّرَت في أنْ تقرّ تَحْتَ زَوْجهَا أَو تفارقَه، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يَوْمًا بيت عَائِشَة وعلى النّار بُرْمَة تفور فَدَعَا بالغَدَاء فأتِيَ بخبز وأدم من أدم البيت فقال ألم أر لحما قالوا بلى =

بكل سلام يستحقه قدره الكبير، وفضله الشهير، وأدبه الذي هو الروض النضير، وقولوا له ألقى بيده المغلب، وأظهر سرّه لمن كان غرّه برقه الخلبُ، وإنما أنا صاحب أبيات لا تسلم سلعتها من الغش، ولا تباع إلّا بحيلة النجش[1].

– 209 –

## وكتب يطلب جمع فدية فارس أسير كان قد ربّاه

/104/ كتابي إلى سيّدي الذي مجده مالك أمري، وودّه مالئ صدري، أبقاه الله ودهره بمآثره حال، وقدره كمحتده عال، من رباط الفتح ووظيفة ثنائي عليه لأوقاتي مستغرقة وأرجاء رجائي بضوئه الذي أعشو إليه مشرقة.

وورد عليّ خطابه المبرور كالرّوض نفحت أزاهيره، والصّبح لاحت تباشيره، ووقفت منه على منزع ثقفته شيمة الحسب، وسقته ديمة الفضل والأدب، وأنا المعتد بذلك الجلال، الناظر منه إلى رجل الرّجال، بل إلى شخص الكمال، وما يتفضل به من كتب إذا خفّ، وتنبيه أبسط له الوجه والكفّ، فعندي له حبّ وإرادة، ولديّ في شكره إبداء وإعادة.

والواصل به يا سيدي معروف الجنديّة، فارس في الكتيبة والسّريّة، طرأ عليه الأسر وعلى آخر من شجعان الأجناد، وذوي الإقدام في مواطن الجلاد، وأنا كنت ربّيته، وعاش زمانا وبيتي بيته، ثم ضرب الدّهر ضربانه[2]، وخشن من مسّه ما كان ألانه، فصار ببلاد غرب الأندلس آخذا بعنان ذي ميعة، طلّاعا على ثنايا الهول عند كل هيعة، فأسِرَ أيضا وهو أحد المسمّين في العقد فإن اتفقت لهم معونة من أهل البرّ، وطلّاب الأجر، يتأتى بها على يديكم المباركتين فكّهم من الأسر، فأمل بكم يقرع بابه، وعمل في صحيفتكم إن شاء الله تعالى يكتب ثوابه.

---

يا رسول الله ولكنّه لَحْمٌ تُصُدِّقَ به عَلَى بَرِيرَة فأهدته لَنَا فقال هُوَ صَدَقة عليها وَهَدِيَّة لَنَا.

(1) النّجش من البيوع الفاسدة المنهي عنها، وهو الزيادة في ثمن السلعة عن مواطأة لرفع سعرها ولا يريد شراءها ليغرّ غيره بالشراء بهذا السّعر الزائد. ابن رشد، بداية المجتهد، ج 2، ص 134.

(2) استعارة مكنية شبّه الدّهر بالإنسان الذي يمكنه الضرب.



– 210 –

## ومن أخرى في التوصية بولد أبي عبد الله بن مرج الكحل

ويصلكم به فلان وَالِدُه[1] مَن تعلمون مكانه من الشعراء، وأمداحه /105/ في الكبراء، وبلَدُه لي بَلد، وولدُه عندي وَلَدٌ، وأنا لعمر الله ربّيت هذا الفتى، ولهفي على زمن ومكان يُقالان في جواب أين ومتى[2].

– 211 –

## ومن رسالة إخوانية

تخصّكم يا سيدي وأخي حفظ الله ودادكم، وأعطاكم من فضله وزادكم، تحيّة ودّ خلّصت يقينه من الشك، وأخلصت نضاره عند السّبك، فهو بيدي أنفس ذخيرة، وأنا من حفظه والاعتداد به على أصحّ بصيرة.

ووافاني كتابكم المبرور جامعا على اختصاره، ملاقيا ريح بياني بإعصاره، لا جرم أنه أغراها بالرّكود، وأبداها كبعض الكوادن عند الضّمر القود.

ومنها: والحمد لله الذي صدّق فيكم رائد الفراسة، وجعلكم كشعر العنبري من الحماسة، ورأيتكم في الرّتبة التي لعطف الجدل بها ارتياح، وفي خطو الأمل منها انفساح.

– 212 –

## رسالة يوصي فيها بأحد المقرئين

كتابي إلى سيدي الذي مجده لفلّ الأيام فئة، ووِرده هو العذب الخالص والموارد كدرة حمئة، أبقاه الله وسؤدده في ترقٍّ، وحقه عند العام والخاص أكبر حقٍّ، وعندي له توقير وتعظيم، وشكر أنا عليه مقيم.

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن علي المعروف بابن مرج الكحل الذي مات سنة 634 هـ/1236 م، وقد تقدّم التعريف به في هامش الرسالة رقم: 114 من السفر الأول.

(2) يريد جزيرة شقر مسقط رأس ابن عميرة وهي بلدة ابن مرج الكحل أيضا.

وموصّله فلان وهو نادرة من نوادر الإحسان، وأعجوبة من أعاجيب الزمان، منطق تروق حلاوته، وتالٍ للكتاب المعجز تعجز تلاوته، من رآه لم يحفل بمن قال أو تقوّل، ومن سمعه فكأنما سمع /106/ الصّدر الأول، وكما قيل إن الخطّ الحسن يزيد الحق ظهورا، فكذلك الأداء الرّائق يكسو الكتاب المنير نورا.

ومن شاء أصغى إليه إذا مدّ وقصّر، وأخفى وأظهر، ورقق وفخّم، وقلب وأدغم، وحقق وسهّل، وحدر وتمهّل[1]، وأخرج الحروف بلا استكراه، وميّزها بمخارجها دون اشتباه[2]، وحينئذ يحكم له بأنه أوتي ما قدره جليل، وعلم ما لا يعلمه إلّا قليل، ومَن هذه وسيلته، فما تجحد فضليته، وهو يرد من مجدكم على من يقتدح زنده، ويعرف ما عنده، وهو وليّ ما يراه من إضافته إلى ظلّه، وإصابته بسجلّه، لا زال محلا للتأهيل، مأوى لأبناء السبيل.

– 213 –

## وأجاب مَن أخبره عن سيل إشبيلية وهجوم الرّوم عليها

كتابي إلى سيدي الذي عند وُدّه تحفظ الأواصر، وعلى مجده تثني الخناصر، أبقاه الله للعلياء تزهى بكماله، والآمال تأخذ من جاهه وماله، من رباط الفتح وسيادته سراجي إن أليلتُ، وموضع احتجاجي كلما استدللت.

ووصلني كتابه المكرّم المبرور بعد مطلٍ للأيام أنسبه، وأمدٍ بطوله كنت أرقبه، حتى وافى كالثراء بعد الإفلاس، والرّجاء عقب اليأس، ولمحته فخلتني في سِنَةٍ، ووزنت مسرّتي به فوجدت لها أرجح زنةٍ، ولم أدر وأنا لألفاظه مُرَدِّد، ولعهد

(1) كلّها طباق الإيجاب.

(2) هذه من مصطلحات فنّ قراءة القرآن بالقراءات السّبع الذي يكون ابن عميرة قد قرأه على شيوخ عصره في مرحلة دراسته، وقد استعمل بعض هذه المصطلحات في قصيدة سابقة مدح فيها والي بجاية. ومن المعروف أنّ هذا الفنّ قد عرف ازدهارا كبيرا في الأندلس التي أنجبت اثنين من أئمّة هذا الفنّ تجاوزت شهرتهما حدود الأندلس والمغرب إلى المشرق، وأصبحت مؤلفاتهما في هذا الفنّ عمدة الدّارسين في العالم الإسلامي وهما أبو عمرو الدّاني وأبو القاسم ابن فيرّه الشاطبي.



الشباب به مجدّد، أبالرّيحان ذي النضارة حُييت، أم بالألحان من المائة المختارة[1] عنيت.

ومنها: وإذا قسنا ما بقي لنا منه والله يبقيه، بما أفاته الدّهر الذي لم يدع شيئا عليه يتقيه، وجدنا أنفسنا قد ربحنا عليه، وسمحنا له بكل ما في يديه، فلا عدمنا منه أجلّ عوض /107/ عن فائت، وأعزّ جانب على العهد الكريم ثابت، وذكر أنه كتب إليّ قبل هذا ولا والله ما انتابني من قِبَلِه منتاب، ولا وردَ عليّ منه منذ سنة كتاب، وهي وإن كانت مدة لأقل الحمل، فإنها عندي على عدد الحصى والرّمل.

وأخبر عن سيل حمص[2] الجارف للأصل والفرع، الذاهب بالزرع والضرع[3]، وأن الرّوم شربوا ما أسأر، وذهبوا بما لا يمكن أن يحصر، فيا لله لحزون أعيت الاستدراك، وبروق أمطرت الهلاك، وكم ذا يبقى العليل مع قوة منهدّة، وحدّة من المرض في زيادة شدّة، وهل بقي للمدافعة اسم، أو سلم ما يكون عليه أو به حرب أو سلم[4]، ولأجل هذه الزلازل، وما يتوقى من هذه النوازل، رضي أصحابنا بالدّون، وركنوا إلى الهدون[5]، ثم استثمروا من ذلك ما بلغ من معاطاة، وأمور غير

(1) ذكر أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني أن الخليفة العباسي هارون الرّشيد أمر المغنين، وهم يومئذ متوافرون، أن يختاروا له مائة صوت (لحن) فاختاروها، ثم أمرهم باختيار عشرة منها فاختاروها، ثم أمرهم أن يختاروا منها ثلاثة ففعلوا. ج 1، ص 8.

(2) هي مدينة اشبيلية التي كانت قد تعرّضت، قبل هذا السّيل الذي يذكره ابن عميرة هنا، إلى سيول كثيرة أشنعها ذلك الذي وقع سنة 597 هـ/1200م وجرف ستة آلاف دار، وقتل مئات الأشخاص، وأصبح حدثا يُؤرّخ به. وقد اشتهرت اشبيلية بهذا السيل حتى قال شاعرها:

لله حمص أيّما بلدة ... لو أنّنا نأمن ثعبانها

طاف بها والرّيح روح له ... فابتلع الأرض وسكانها

ومن أسباب هذا السيل اتساع النهر عند اشبيلية، فكان إذا حان حمله في أيام الأمطار أشفت على الغرق وتوقع أهلها الهلاك. ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص 239. المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 480.

(3) جناس ناقص بين "الزرع والضرع".

(4) طباق الإيجاب بين "حرب وسلم".

(5) واضح من هذا الكلام أنّ ابن عميرة كان مقتنعا بأنّ اشبيلية سوف تسقط في يد النصارى، ولا فائدة من تمسّك أهلها بالدفاع عنها، إذ لا طاقة لهم بذلك، وما عليهم إلّا أن يسلكوا ما

مغطاة، وكيف غاب عن سيّدي أن هذا المعنى حوله كانت الدّندنة، ومن أجل إسناده وُصِلت العنعنة، فالآن أبطل النص كل قياس، وأمكن الجهر على رأي أبي نواس.

-214-

## وكتب إلى سيّد يهنّئه ويوصيه برجل أقيل من منصبه

كتابي إلى سيّدي الذي بودّه أقول، وعن عهده لا أحول، أبقاه الله جبلا بظله نلوذ، وأملا إذا تشعّبت السّبل فهو المأخوذ، من رباط الفتح وحقه قبل الحقوق يُؤدّى، وجلاله بالنفوس النفيسة مُفدّى.

ووصل فلان فقرّر ما عند سيّدي من الاعتناء، والفضل الذي يقصر عنه باع الحمد والثناء، وبالله إنه ليورد الآن من ذلك ما هو للنفس قوت، ولصلاة /108/ الشكر وقوت، ومما أخبر به تشريف المقام السعيد الذي ملأ القلوب ابتهاجا، وأوسع صبح المسرّة تألقا وانبلاجا، وقد علم سيّدي أنّا معشر المقيمين في ذراه، المقتسمين فضل ما أولاه، نلهج بما يصله من النعم الجسيمة، ويتعاهده من بركات الدار الكريمة، لمكان النعمة عليه، ولأنّا نراها في أيدينا إذا كانت في يديه، فالجذل يتضاعف مرّتين، والمسرّة تعود مسرّتين.

وهذا موضع الإلمام بما أمسكت عنه في هذه الأيام، فلان تعلمون انقطاعه، والاختصاص الذي شهره وأذاعه، وقد أخذتم بيده، وأقمتم من أوده، وولي بعناية فيه وضعتموها، وحرمة عليه خلعتموها، ثم كان الصّرف فما اكترث له، ولقد هوّنه واستسهله، وأما الأمر الذي لا يمكن احتماله، والكلم الذي يعسر اندماله، إعراض عنه جرى، وقبول لحديث هو مما يفترى، وهو يعول من يلزمكم عوله، ويقول ما لا ينكر قوله، ويتمثل إدلالا بالقربى، وسؤالا لما أبطل من العتبى: [الكامل]

والله مـــا نـــدري إذا مـــا فاتـــنا     طلـــب إلـــيك مـــن الـــذي نـــتطلّب

سلكه أهل شرق الأندلس قبلهم من الهدون والرّكون إلى النصارى.



فاصـبر لعادتـك التـي عوّدتـنا     أو لا فارشـدنا إلـى مَـن نـذهب

-215-

## رسالة إلى الفقيه أبي الحسن الرّعيني (1)

[الطويل]

ولـم أر مـثل الفـضل مـن أهلـه     ولا أجلّ من النعماء من كفّ منعم

ولا كـيد مـن ذي أيـاد يفـضّها     حـياة لمعـدوم ثـراء لمعـدم

وقـد خـصّني منها بـسجل عـناية     تناولـته ظمـآن مـن يـد مفعـم

فللّـه مـنه مـن يـسلّم فـضله     وإن رغـم الأعـداء غيـر المـسلّم

/109/ تأخـره والله يبقـيه حجّـة     على مـن يقـول: الفضلُ للمتقدّم(2)

وأقلامـه للملـك مـنها مـؤيّد     كمـا أيّـدَ الـسّنيُّ بالمـتكلّم

ومـا حكمهـا إلا كـسيف سَميه     لـيوم وغـى فـي كافـر أو محكّم

ومـا أنـا شـيعي ولـي إن ذكـرته     علـى سـحب نعمـاه وقـوف مـسلم

أبـا حسن حاولت شكرك مقدما     ولكـن ثنتنـي عـنه هيـبة مجحـم

ويـا ليتنـي تمّمـته إذ مَلّكتنـي     فكانـت يـدا مـن مالـك لمـتمّم

جزيت عن الإخوان خيرا فإنهم     قنًى منك فـي كـفّ المقيم المقوّم

يا سيّدي الذي وافتني عارفته فكانت مُناي، ورأيت كتابه فقلت يا بشراي، لله يد أولتني مسرّتين، وملكتني مرّتين.

ومنها: فعدت تحته حسيرا، وأردت وصفها فلم أطق له تفسيرا، وقد فضضت الكتاب المبرور عن كلمٍ هنّ الدّرّ، ومعان هيَ النّجوم الزّهر، وسرّحت طرفي في روض من سماء البلاغة سقياه، وبأداة الفكر يحاول جناه، وما يقال فيمن كان البيان نكرة فعرّفه، وكهاما فأرهفه، ومعمّى ففكّه، ومختلطا فأجاد تخليصه

(1) تقدّم التعريف به في هامش الرسالة رقم: 113 من السفر الأول.

(2) البيت نفسه خاطب به ابن عميرة أبا عثمان سعيد صاحب منورقة. ابن سعيد، اختصار القدح، ص 49.

وسبكه، حتى أنشأه نشأة أخرى[1]، وأرِي منه الآية الكبرى[2]، وزوى عن الذين ادّعوه وجه القبول، ونفض عليهم غبار الخمول، فاسكتوا وخير أحوالهم السّكوت، وجاءت حجّة للشمس فأذعن لها الكافر المبهوت.

وأما شكري لسيدي فما كنت أرضى له إلا قلمه المختال، وفكره السيّال، وتلك اللهجة التي معها للصدق رواء، ولها في يد الحق لواء[3]، وأمّا لفظٌ ليس عليه طلاوة، أو خاطرٌ عليه من العيّ غشاوة، فأقلّ من أن يعد بشكر يد يتوارى بها في النادي، ويتمارى في أنها في سوق الأيادي، فكيف بهذه التي مُلكُ جانبيها كسروي، /110/ وكتاب غريبيها رُعيني لا هرويّ[4]، فأما البراءة فلا صعب إلا وهي منه أصعب، والطمع فيها مما يضحك منه أشعب، وكيف لا وأشعب عاصر الطبقة العليا، وعاشر أجواد الدنيا، وما كان يصنع لو قعد مكاننا، ويرحم الله لبيدا فكيف لو أدرك زماننا.

-216-

## وأجاب أحد إخوانه يتشوّق إليه

[البسيط]

يـا غائـبا سـلبتني الأنـسَ غيبتُه    وكيف صبري وقد كابدت بينهما

دعـواي أنـك فـي قلبـي يعارضـها    شوقي إليك فكيف الجمع بينهما[5]

ولو اجتمعنا لكففنا الدّمع، وكفينا هذا الجمع، وبطل الشوق حتى كأنه ما

(1) الاقتباس من الآية رقم 47 من سورة النجم.
(2) الاقتباس من الآية رقم 20 من سورة النازعات.
(3) جناس ناقص بين "رواء ولواء".
(4) هو أبو عبيد أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المؤدّب الهروي الفاشاني نسبة إلى هراة إحدى مدن خراسان الكبار وفاشان من قراها. كان من العلماء الأكابر وصاحب كتاب الغريبين المشار إليه، جمع فيه بين تفسير غريب القرآن الكريم والحديث النبوي، وقد ذاعت شهرة هذا الكتاب في الآفاق لأنّه من الكتب النافعة وعليه كان الاعتماد. مات الهروي في رجب سنة 401 هـ/1010 م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 1، ص 95.
(5) ورد البيتان عند ابن القاضي في جذوة الاقتباس، ج 1، ص 146.



أدّ، ولا سكن الفؤاد، ولكن أنّى وكيف، والعين الساهرة لا تحس الطيف، ومن لنا من الأيام بيوم أعتاب، ومن الحوادث بحديث عتاب، وقبلنا أعيت من قارع خيلها، وعارض سيلها، وسام أجدلها أن لا ينقضّ، وجندلها أن يدع الرّضّ، ومن العناء هرم يروضه القوم، وقرم يراد منه الصوم.

وصلت مخاطبتكم المبرورة الجليلة معنى وعبارة، الجميلة حسنا ونضارة، المودعة من نكت البيان ما أراده مَن كلف بأدواته، وألف دواء دواته، فقيل له نكّبْ عن مزاحمة هذا المنكب، وهيهات منك غبار ذاك الموكب، خُض مع القوم كما خاضوا، وأفِض من حيث أفاضوا[1]، ودع مباراة من زاد مدّه على أمدهم، وقيل له إنك لست كأحدهم.

واستوفيت ما أحكمته من أوصاف الصّفاء، وحكمتَ به لضاحي ظنّ الجفاء، من امتداد فيء الوفاء، وحكته من أن قاعدة /111/ الخلة لا تبدل أرضها، ونيّة الصداقة لا يجوز رفضها، فأزاح الشبهة الدليل، وأحيى الحشاشة[2] ذلك النفس البليل، وقلت إن صرفت العين بقيت ولاية التوهّم، وإن لم يكن ماء فقد نزلت آية التيمم[3]، على أن ابن الأخ[4] مَنْ إداوته مِن إدواته أفرغ، ولوضوء صلاة الصلة أسبغ، فنابت الغدوة عن الرّوحة، ووقع الغصن موقع الدّوحة، ولقد وجدته من نجب نجيبا، وكلّمته فشفا سائلا ومجيبا[5].

وتقدّمت مراجعتكم بما تهيأ في قضيّة الغريم المطل، على المطلِ المحل، وعندما حُدّ من الأمد، يستوفي إن شاء الله بقية العدد، وابن الأخ قد شاهد هذه المواطن، وهو يشرح الظاهر من الأمور والباطن، بحول الله تعالى.

(1) الاقتباس من الآية رقم 199 من سورة البقرة.
(2) الحُشاشة رُوح القلب ورَمَقُ حياة النفس. وكلّ بقية حُشاشة. والحُشاش والحُشاشة بقية الرّوح في المريض. قال الفرزدق:

إذا سَمِعَت وطءَ الرّكاب تنفست    حُشاشَتها فـي غيـر لحـم ولا دَم

لسان العرب، ج 6، ص 284.
(3) هي الآية رقم 43 من سورة النساء.
(4) يريد ابن أخ المكتوب إليه.
(5) طباق الإيجاب بين "سائلا ومجيبا".

– 217 –

## وقال مجاوبا لبعض الجلة[1]

[الكامل]

قالــوا تأخّــر عــن جــوابك سـيّد ... مــا فــي تعطّفــه علــيك خفــاء

فأجبــتهم بأبــي تأخّــره الــذي ... هــو فــي الـضمير محـبّة وصـفاء

هــذا جفــاء طــيّه بــرٌّ وكــم بــرٍّ ... يــراه النــاس وهــو جفــاء

والقــول إن كــان الــوفاء بــه كمــا ... أرجــو فعــندي بالثــناء وفــاء

– 218 –

## رسالة إلى القائد أبي بكر بن عيسى يوصيه بأديب كي يسند إليه عملا

كتابي أيها السيد الجحجاح، والماجد الذي لا يخطئ أمله النجاح، أبقاك الله مفدّى بالسّراة، مفادا أجلّ المسرّات، من مرسية وليس إلا خلوص عهده في جدّة، وعمله لا يحيط بردةٍ، وعقده لا ينفك من إحكام وشدّة.

وحامله فلان[2] /112/ يسّر الله أربه، وأنجح منقلبه، ورد هذه الحضرة المباركة مهّدها الله فأطاب الثناء، وأنصف بشكره ذلك العلاء، وقرّر من لياذه بالماضي المقدّس الأعلى[3] أجزل الله ثوابه ما شهدته، وشكر من نواله الذي كان فيه أسوة أمثاله ما عرفته وعهدته، وهو منحه الله جدّ مستعمل، ولا ردّه مردّ مهمل، ممن كنت أعرفه على وجه مجمل.

فلما حصل التفصيل أتانا منه منطق العرب الأصيل، ما شئت من قواف تنثال، وبديهة بها تضرب الأمثال، وقياسات لا تنتج غير الخلف، ومقطعات لا تقف

(1) هكذا جاء العنوان في الأصل.

(2) لعلّه يشير إلى الأديب أبي الرّبيع سليمان بن علي المعروف بكثير الأديب، لأنّ الوصف الوارد في هذه الرّسالة ينطبق مع أحوال هذا الأديب في ترجمته الواردة عند ابن سعيد في اختصار القدح، ص 189، والغبريني في عنوان الدراية، ص 239.

(3) يشير إلى الرّئيس أبي الحسين يحيى بن عيسى والد المكتوب إليه.



دون الألف، ينتمي من نافع إلى كرم وخير، فإن نسبناه إلى أدبه فهو ابن كثير[1]، وإن تأملنا منزعه ألحقناه بالشاذ، وإن أخذنا بضرب من فكاهته وجدناها من الملاذ، وسمع أن ناسا قالوا إن اللغة تثبت قياسا فأزرى بهذا القول السخيف، وأحدث طريقا في التصريف، وأقدم في الألفاظ على الوضع والتحريف، ولقد كثر به إعجاب الأصحاب، وأطربهم أمره كله أشد الإطراب، وعرفوا من حاله ما أكد له ميثاقا، وأثمر عندهم إشفاقا، وكان قد ذكر له جهات قلب[2] والأغوار، وإنها قاصية الأنظار، وصالحة به في حالي الضرورة والاختيار.

وخوطب مجدكم في شأنه بما ذكر من أويّه إلى مجدكم الصميم، وانقطاعه إلى سلفكم الكريم، فإن راشه اعتناؤكم طار، وإن أنجده علاؤكم غار، وبالله إنه لمكان الاصطناع، وأهل أن يقطع من التفاتكم بعض الإقطاع، ومجدكم أولى من رق لغربته، ونفّس من كربته، وجعله ببعض الأنظار، وشغله عما ابتلي به من هذه الأشعار، لا زال باقيا طول الآماد، راقيا /113/ على رتب الأمجاد، واقيا من الأيام وخطبها المعتاد، والسلام الكريم يخصكم به معظم جلالكم، العارف بكمالكم، أخوكم المعتد بمكانكم، المباهي برفيع شأنكم، ابن عميرة[3].

(1) هو أبو معبد عبد الله بن كثير مولى عمرو بن علقمة الكناني، أحد القرّاء السبعة، قيل إنّه فارسي، وقيل إنّه قرشي من بني عبد الدّار. واختلف العلماء في قراءته فقيل إنها موقوفة عليه لم تتجاوزه إلى أحد وقيل غير ذلك. توفي سنة 120 هـ/737 م. انظر ترجمته ومصادرها عند الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 17، ص 220.

(2) قلب: كانت قاعدة مورور بالأندلس ودار الولاية بها، وهي مدينة كبيرة كثيرة الزيتون والثمار ولها بطائح سهلة وجبال شامخة. الحميري، الرّوض المعطار، ص 429.

(3) كتب ابن عميرة هذه الرسالة في سنة 634 هـ/1236 م أو في التي بعدها أيام تواجده بمرسية وأثناء حكم المكتوب إليه مدينة شاطبة.

/127/ المُحال، وعلى ذلك فهذا المرض وإن كان أسرف، فأخوكم بحمد الله على البُرءِ قد أشرف، ولا زائد عنده يطالعكم به عرّف الله منكم سارًّا، ولا أعدمكم من فضله صيّبا دارًّا، وهو تعالى يطيل بقاءكم، ويحرس مجدكم وإخاءكم، بمنّه والسّلام.

– 232 –

## وكتب إلى سيد يتطلع إلى أخباره

سيّدي الأوحد، وعمادي الأمجد تولى الله مجدكم بحراسته وزاد قدركم نفاسة إلى نفاسته، كتبته كتب الله لكم اعتصارا للمنى، واهتصارا[1] لأطيب الجنى، والنفس بكمالكم صبّة، وعندي كما تعلمون ثناء واعتناء ومحبّة.

ووصلت كتبكم الأثيرة على حين عاتبت عليها الأيام، ونفضت عنها الوهاد والآكام، وكنت من سفركم شديد الإشفاق، داعيا بما تجريه الأقدار من جميل الاتفاق، حتى عرفت أنكم بالحضرة العلية أيدها الله خيّمتم، وفي ظلها الظليل أقمتم، ثم استوفيت خبركم من إعلامكم، وظهر لي ما ظهر من فحوى كلامكم، وفهمت غرضكم، وعلى نهجه كتبت، وحيث ذهب فإليه ذهبت، فطالعوني بما يتجدد لكم فعيني إليه ناظرة، وجوانحي نحوكم طائرة، وفلان جاء عتابه من فل وفلان، وقيل أكتب إليه دون توان، فبعدت ونزحت، وأعرضت وأشحت، ومزمع السّفر إلى ما وراءه، رجوت له أن يسبر آراءه، ولكن قد صمّم، والله يخير له أينما يمّم.

– 233 –

## رثاء الأمير أبي يحيى بن أبي زكرياء الحفصي

[الكامل]

إثْـر الـسرور الحـزن أقبـل سـاعيًا ... سـرعان مـا انقلـب المبـشر ناعـيًا

---

ديوان أبي تمام، ج 2، ص 166.

(1) جناس ناقص بين "اعتصارا واهتصارا".



/128/ ناعٍ نعى عند الأصيل ويومنا ... طلـق فأبـصرناه جهمـا داجـيًا

ورمـى بهـا شـنعاء خـرّت عـندها ... شـمّ الجبال ولـم يـزلن رواسـيا

بينـا الـنفوس مـن النعـيم شـرابها ... عـاد الـذي تـسقى حميما حامـيا

ولفـور مَـا رعـت الجمـيم أصـابها ... قـدرٌ فـصارت للمـرار رواعـيا

يـا يـوم الاثنـين انفـردت بحـادث ... فـيه يقينـا لـم تجـد لـك ثانـيا[1]

صدّقت رؤيـا مـن رأى خير الـورى ... تـركوه قالـوا فـي بجايـة شـاكيا

ومـن الملائـك إثـر ذلـك جـاءه ... مـن كـان مـنهم بالـوفاة مناجـيا

أفظـع بهـا رُؤيـا محدثـنا بهـا ... فـيما حكـاه نعـى النبـي الهاديا

[وتأوُّلهـا] أن رؤيـة مـوته فـي ... موضـع تجنـي علـيه دَوَاهـيا[2]

فـإذا بداهـية الدّواهـي جـرّدت ... عـضبا[3] يقـدّ جماجمـا وهـواديا[4]

ومـشت جهـارا للأنـام فـصرّعت ... مـن كـان مـنهم قاعـدا أو ماشـيا

في يوم مات المصطفى مات الذي ... وجدتـه سـنّته علـيها جاريـا

واختـار مقـتديا بمـن هـو أسـوة ... لخـيار[5] أمـته الـرّفيق العالـيا

---

(1) يشير إلى يوم الاثنين الذي مات فيه ببجاية الأمير الحفصي أبو يحيى زكرياء الذي كان وليا للعهد. وإذا كانت المصادر التاريخية تتفق على أنّ وفاة هذا الأمير كانت سنة 646 هـ/1248 م، فإنّها تهمل ذكر اليوم والشهر باستثناء ابن عذاري الذي يقول إنّ وفاة هذا الأمير كانت قبل وفاة والده أبي زكرياء يحيى نحو أربعة أشهر علما أنّ وفاة الأخير كانت في العشر الأواخر من شهر جمادى الآخرة سنة 647 هـ/1249م. وكان بالإمكان تحديد هذا التاريخ من خلال عقد البيعة الذي أنشأه ابن عميرة عن أهل بجاية بولاية العهد للأمير المستنصر بعد وفاة أخيه لولا أنّ ناسخ الرسائل أو جامعها تصرّف في تشويه تاريخ العقد واستبدله بكلمة كذا. ك 233، 78-83. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 352. ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص 391. ابن قنفذ، الفارسية، ص 110. الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 30.

(2) في ك 233: تأوّلوها.

(3) العضب هو السيف القاطع.

(4) الهوادي هي الأعناق.

(5) في ك 233: كخيار.

-219-

## رسالة شكر وثناء إلى الأمير أبي جميل زيان بن مردنيش

تخصّ حضرة المولى[1] تولاها الله بكل عناية تكلؤها، ونعم لا يزال جوده وحده يزرؤها، أفضل ما يُهدى من تحيّة وسلام، ويتعيّن من لثم واستلام، ورحمة الله وبركاته دائمة أطول دوام، وليس إلا إقرار بالواجب، وإشادة بتلك المناقب، وشكر لا أزال فيه أمام الناظم والناثر وإمام القائل والكاتب، وكم من يد له عندي رُمت تعدادها فما استطعت، وسرت في مدى الثناء عليها فانقطعت، وإنها منّي عند من يرى شكرها شرعا وطبعا، ويطوف بمناسكها ألفًا إذا كان الطواف سبعا، وما أكثر سؤاله، عن الأحوال قِبَلَ المولى وسروره، بكل ما يبلغه من سلامة ذاته الشريفة، وأمان شرفه المحوط من الأحوال المخيفة.

فنسأل الله أن يزيده من فضله ونعمته، وأن يرفع قدره إلى منزلة همته، فلا أدري أجلّ منها شأنا، ولا أعرف فوقها مكانا، والحال قِبَلِي على ما يسرّ المولى رضًى عن الأقدار، وتوطينا على القرار، والله يصون جانب المولى، ويبقى منه كمالا ليس فيه لولا، وجلالا لا نطيق شكر ما أزل من الفضل وأولى، بمنّه وكرمه والسلام الكريم الطيب العميم يخصه به شيعته وصنيعته، ومن عنده عسكر الثناء قلبه وساقته وطليعته، ابن عميرة ورحمة /114/ الله تعالى وبركاته.

-220-

## رثاء الأمير أبي زكرياء الحفصي

[الخفيف]

مَن يعزّي دين النبي البشير ... فلقد جلّ رزؤه في الأمير

ولقد غاله الرّدى يوم أودى ... بإمام الهدى بخطب كبير

ورمى صدره بأنفذ سهم ... وقعُه في القلوب قبل الصدور

(1) تقدّم التعريف بالمكتوب إليه في هامش الرّسالة رقم: 12.



نبأ ما هوى بجانب رَضْوَى ... وهفا ركنه بركن ثبير[1]

مازج الماء فاستحال أجاجًا ... كل عذب المذاق منه نمير

وطوى الأرض فادلهمّت وكانت ... في سنًى يخطف العيون ونور

فجفون منها انسكاب الغوادي ... وقلوب فيها احتدام الهجير

أسفا للحياة أبدل منها ... ظلها عند طيبه بالحرور

ولوجه الزمان لاح عليه ... في حزن من بعد أيّ سرور

ولطير الرّجاء راحت خماصا ... بعدما جدّ جدّها في البكور[2]

فاتها الرزق بالفضاء فعادت ... وإليها شزرا عيون الصقور

إن من غرّه لدنياه طيف ... من خيال لجامح في الغرور

أو لم يسمعوا بصرعى الليالي ... أو لم يُوعَظوا بمرّ الدّهور

أين قصر السّدير حال وأقوى ... بعد ما قيل أين ربّ السّدير[3]

وملوك على الخَوَرْنَق ما ... استأثر عنهم إلا ببطء المسير[4]

(1) رَضْوَى جبل بالمدينة المنورة، وهو من ينبع على مسيرة يوم، ومن المدينة على سبع مراحل، ميامنه طريق مكة ومياسره طريق البريراءِ لمن كان مصعداً إلى مكة وهو على ليلتين من البحر الأحمر ويتلوه جبل عزور، قفاه حجارة وبطنه غَور يضربه الساحل. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 51.

وثبير هو أعلى جبال مكة وأعظمها، علوّه نحو ميل ونصف، وهو الذي عنى امرؤ القيس: كأن ثبيراً في أفانين ودقه.، وهو من الناحية المتصلة بمنى، وثبير وحِراء ما بين الشرق والشمال من مكة وهو الذي كانت قريش تعني بقولها: أشرق ثبير كيما نغير. وهي أربعة أثبرة: ثبير بمكة وهو هذا، وثبير غينا، والثالث ثبير الأعرج، والرّابع ثبير الأحدب. الحميري، الروض المعطار، ص 149.

(2) جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي ورواه عمر بن الخطاب عن النبي قال: لو أنّكم كنتم تَوكّلُون على الله حقّ توكُّلِهِ لَرُزِقتم كما يُرزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا. أي تغدو بُكرة وهي جِياع وتروح عِشاءً وهي مُمتلِئة الأجوافِ.

(3) وردت الإشارة إلى السدير في هامش الرسالة رقم: 91.

(4) تقدّم التعريف بقصر الخورنق في أحد هوامش الرسالة رقم: 17 من السفر الأول.

ذهبوا بين شائد ومشيد … قد تقضّى وزائر ومَزُور
بينما المرء من نعيم وعزّ … خلف سور ومن وراء ستور
والليالي سلم له لا يبالي … عذرت أم وفت وفاء قصير
إن تصدّت له المنى نافرات … صادها منه قيد كل نفور
أو تداعت له الخطوب ثناها … ولها نحوه التفات الحدور
بغتته المنون فانقاد لمّا … خطمت أنفه انقياد الأسير
ورأى أهله على ما يقاسي … حضروه ولاتَ حين حضور[1]

-221-

## رسالة توصية في شأن رجل أندلسي من ذوي الأحساب

/115/[2]... على وجهه، والمذكور من ذوي الأحساب في الأندلس وممّن جمع النسبة السّنية، والتحلي بالخلال السّرية، وله من كلى طرفيه منصب نبيه، وبيت وجيه، وكان منه ومن جدّه فلان ما عُلِمَ أثره، وتأدّى إلى المجلس السامي خبره.

وبعد أن كان ما كان، قصد هذا المكان، وأقام عندنا صدرا في الجملة، متخلّقا بأخلاق الأعيان الجلّة، ثم آثر المسير إلى حضرته فاعتاض من هذه الدار تلك الدّار، واختار قصدها ونعم ما اختار، وإنما يَرِد إن شاء الله على برّ يتسوّغه معينا، وينزله من رتب الخاصة مكانا مكينا، وشرف المجلس الأعلى بذلك كفيل، والشكر عليه حفيل[3]، أبقاه الله ومعاليه باهرة، وأياديه متظاهرة، وسطوته لأعدائه قاهرة.

(1) القصيدة مبتورة النهاية لسقوط ورقتين من المخطوط تحملان رقم 59 و60 حسب الترقيم القديم للمخطوط.
(2) الرّسالة مبتورة البداية للسبب نفسه.
(3) جناس ناقص بين "كفيل وحفيل".



-222-

## وخاطب أحد إخوانه معزيا في أبي الحسن بن واجب القيسي[1]

[البسيط]

ما بالنا نرغب في عيشة … نائية راحتها نائية
أعن غرور بأباطيلها أم … لوقوع الرّيب في القانية
كلا فوعد الله حق وما … تغر ما جملته فانية
لكن عَمًى عمّ فلم تستبن … محجّة للمهتدي بادية
نجزع للموتى كأنا نرى … أنفسنا من بعدهم ناجية
ونأمل المكث طويلا وها … ركابنا في إثرهم وانية
فنسأل الله لنا عصمة … من الهوى كافلة كافية
ورحمة تلحق عند الرّدى … أنفسنا بالأنفس الزاكية

ومولانا عائد على يوم المسيء بما يمحو ما أثبته في أمسه، /116/ جواد بالرّحمة وكيف لا وقد كتبها على نفسه[2]، أوجدنا عن حكمة، وأوسعنا كل نعمة، ومنحنا من قوّة الاكتساب، ما جعله سببا لنيل الثواب، وبيّن لنا أن جزاء الإحسان الإحسان[3]، وأن فيما بعد الموت هو الشّان، فلو أنّا أعددنا لتلك الحال، وأعدمنا الرّكون إلى المحال، لم نَرُع للعمر إذا تزف، وللرّحيل إذا أزف، لكن فرّطنا في العمل، فأفرطنا في الوجل، فآه لعمر فان، وأجل دان، وسير حثيث غير وان، وخطوب ذات ألوان.

وقد وصلني خطاب العماد الأعلى بوفاة من كنّا مؤملين لحياته، متأمّلين كمال ذاته، الفقيه الحسيب الماجد أبي الحسن بن واجب

(1) من شيوخ ابن عميرة الذين ذكرهم في إجازته الواردة في الرسالة رقم: 177، وقد تقدمت الإشارة إلى مصادر ترجمته في هامش هذه الإجازة.
(2) يشير إلى الآية رقم 12 من سورة الأنعام.
(3) يريد الآية رقم 60 من سورة الرّحمن.

أوسعه الله غفرانه، وبوّأه رضوانه، فإنّا لله وإنا إليه راجعون رِضًى بالقضاء وتسليما، وعند الله نحتسبه أخا كريما، وسريا ما أظهر خيما، وأطيب حديثا وقديما.

ولقد ردّدت النفس حسرتها، وأسبلت العين عبرتها، ورماها بسهمه هذا الفاجئ الفاجع واضطربت الجوارح، واضطرمت الجوانح، ثم ثاب إلى أنه القدر السّابق، والظعن الذي لا يمهل فيه السّائق، وإنه مقام لا يسلك فيه الطّمع سبيلا، ولا تغني فيه الخدع فتيلا، فسلمت اعتبارا، وسلوت اضطرارا، واستأنفت قرارا، ودافعت الهمّ وإن أعياني مرّة مِرارا، ولا شك أن سيّدي أثبت فؤادا، وأثقب زنادا، فهو أولى بالإقصار، وأحقّ بالاستبصار، وأدرى بصفات هذه الدّار، وحركات الليل والنهار[1]، وإنما نقتبس من أدبه، ونلتمس الأخذ بمذهبه، والله يصل علوّه، ويحقق سلوّه، والسّلام[2].

–223 –

## وكتب يوصي بشاعر ركبه دين من فداء أسر

/117/ السيد الأعلى عمّر الله به نادي السّيادة، ولا أعدمه من نعمه تمادي الزيادة، في علو شأنه، ودنوّ إحسانه، كمثل جنّة بربوة[3]، حظ منتجعها ما شاء من حظوة، توتي أكلها ضعفين، وتملأ بداني جناها اليدين، وسامي محلّها يفوت رأي العين، لا بل كالشمس لها مسير في الرّابعة،

(1) طباق الإيجاب بين "الليل والنهار".

(2) توفي أبو الحسن بن واجب بسبتة يوم الجمعة 19 من ربيع الآخر سنة 637 هـ/1239م، وعليه فإنّ ابن عميرة يكون قد كتب هذه الرّسالة بعد هذا التاريخ بقليل أي بعد مغادرته مدينة سبتة، وهو ما تؤكّده عبارته التالية الواردة في معرض حديثه عن هذا الشيخ في نص إجازته المذكورة: "ثم كانت سفارته التي عرض له في عقبها خدَر، وما أمكنه من بعدها إلى بلده صدرٌ، وبزمانته (مرضه) تلك انتهى إلى سبته، وبها اجتمعت معه في أول سنة سبع وثلاثين وستمائة، فكنت أغشاه كثيرا وآتيه من الأحاديث بما كان يستطرفه، وأجد عنده من حلاوة الفكاهة ما كنت أعرفه، وبعد أن فارقته مثيرا بفرقته لوعة الغربة، أدركته رحمه الله منيته بتلك التربة.

(3) الاقتباس من الآية رقم 265 منم سورة البقرة.



وشرف على النيرات الطالعة، وضوؤها في البسيطة مشرق، وعلى الأجسام الكثيفة متفرّق، وأنا وإن كنت غفلا من فخار وَشمه، نائيا إلا عن ذكره واللهج باسمه، فلي منه لقاءة مازلت أرى بها جيد جدّي حاليا، وإسناد استنادي عاليا، ثم انخراطٌ في سلك شيعته يلحفني من عنايته ظلا، ويُلحقني بأحقهم محلا.

وهذا فلان من بذ في الإحسان، وفاق أهل البيان في النظم الذي بلغه أهل هذا الزمان، يبرز منه ما هو شرك العقول، وشرف المقول، مع تصرّف في ضروب المؤانسة يلعب بالنّهى، ويورد على كل سمع ما اشتهى، وحصل منه في قبضة الإسار أخرق بالمشي في قيد الأسر، معسر إلا من بدائعه الغر، وبعدما كان منه ما كان، وخرج بفداء بقي عليه أكثره إلى الآن، أصاب أخا له أصغر منه قد اجتمع عليه لزة الإسار، وأزمّة الإعسار، فحار بين حقين حق شغلت به ذمته، وآخر تطلب به مروءته وهمته، ولم ير إلا الضرب في البلاد متصديا لمن يعرفه، مترجيا من نوافل البرّ ما هذا مصرفه.

وطلب منّي تنبيه المجلس السامي عليه حين أمّل أن يلقى عميد الفضلاء بتلك الساحة، ويلقي دلوه هناك مع الدّلاء الممتاحة، فرأيته قد عرّضني لخطّة ما كنت ألتمسها بالوهم، وظنّ بي رتبة /118/ هي منّي مناط النجم، ثم ثاب إليّ أن ذلك الفضل لا يفند على الإساءة، ولا يثرب على فلتة هي مثل نظرة الفجاءة، وإنه يقرب من هذا المتقرب إليه، ويقرن صفحه عنّي بالتعطّف عليه، وهذا الظنّ وإن كان القلم يعثر منه في ذيل الخجل، ويشهد على نفسه بالزلل، فأرجو أنه يطابق الوجود، ويجد على وفقه ذلك الجود، والشكر على تحقيقه غاية يعجز عنها القول، ويسمح بالإغضاء عن تقصير يقع فيها ذلك الطول، والله يضاعف قِبَلَ المجلس المرفع إحسانه، ويبقي منه عين الزمان ولسانه، ولا يخليه من كلاءة تعمر مكانه، ونعمة تصاحبه ما صحب بنانه بنانه، والسّلام.

– 224 –

## ظهير الخليفة الموحّدي الرّشيد بتوطين أهل شرق الأندلس برباط الفتح

هذا ظهير[1] كريم أمر به فلان[2] للمنتقلين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة ومَن جرى من سائر بلاد شرق الأندلس مجراهم[3]، وعراهم من غِيَر الأيام ما عراهم، حين أنهى [ذو الوزارتين الشيخ الأجلّ، الأثير الأكرم الأعز الأفضل، أبو علي بن الشيخ الأجلّ الأكرم أبي جعفر بن خلاص أدام الله تعالى أثرته وكرامته][4]، ما أصابهم من الجلاء، ودهاهم من أمر الأعداء، وسعى لهم سعي من يقضي لهم حق الجوار[5]، ويلتمس لهم مكانا للقرار، ومنزلا لإلقاء عصا التسيار، وعند ذلك أذن لهم أعلى الله إذنه، وجدّد سعده ويمنه، في النقلة إلى رباط الفتح عمّره الله بقضيضهم وقضّهم، وأن يتخذوا مساكنه وأرضه بدلا من مساكنهم وأرضهم، ويعمروا منه بلدا يقبل منهم أولى من قبل، ويحملهم إن شاء الله وخير البلاد ما حمل، فإنه مناخ للتاجر والفلّاح، وملتقى للحادي /119/ والملّاح، والمرافق من برّه وبحره موجودة في فصول السنة، مؤذنة لقاطنه بالعيشة الهنيّة والحال الحسنة[6].

ولهم أفضل ما عهده رعايا هذا الأمر العزيز أدامه الله من التوسعة على قويّهم كي يزداد قوة، والرّفق بضعيفهم حتى ينال يسارا وثروة، وأن يتوسّعوا في الحرث ففي أرضه هناك[7] متسع، ويتبسّطوا في كلّ ما لهم منه معاش وبه منتفع، ويغرسوا الكروم وأنواع الشجر على عاداتهم ببلادهم، ويتأثلوا الأملاك لأنفسهم

---

(1) ورد هذا الظهير عند ابن المرابط في زواهر الفكر، ص 239 وما بعدها.

(2) هو الخليفة الموحّدي الرّشيد بن المأمون بن المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن.

(3) في زواهر الفكر: بلاد الشرق مجراهم.

(4) في الأصل فلان والزّيادة من زواهر الفكر.

(5) في زواهر الفكر: يقضي فيهم بالجوار.

(6) عن الأهمّية الفلاحية والتجارية برّا وبحرا لمدينة الرباط، انظر كتاب الاستبصار لمجهول، ص 140.

(7) في زواهر الفكر: هنالك.



وأولادهم وأولاد أولادهم[1]، وكل ما يعمرون من الضياع، ويقتنون من الأصول والربّاع، فله حكم التسويغ على الإطلاق والدّوام، ولا يلزمون فيه شيئا من وجوه الإلزام، ولا يطلبون بغير حقوق الشرع التي جعلها الله في أموال أهل الإسلام، وأقوالهم في مقاديرها مصدّقة، وأمانيهم كلها لهم وللاحقين بهم محققة[2].

والولاة والعمال حفظهم الله مأمورون بأن يحفظوهم من كلّ أذى يلمّ بجانب من جوانبهم، أو يعوق عن مأرب كبير أو صغير من مآربهم، وأن يكرموا غاية الإكرام نبهاءهم وأعيانهم، ويولوهم من حسن الجوار ما ينسيهم أوطانهم، حتى تندفع عنهم كل شبهة من شبه الحيف، ويجمع لهم بين الرّعاية لحرمة البلدي والعناية بحقّ الضيف، إحسانا منه أعلى الله أمره، وأوزع شكره، ينسحب على جماعتهم وأفذاذهم، ويحملهم على موجب اعتلاقهم بهذا الأمر العلي أدامه الله وملاذهم[3].

فمن وقف عليه من الطلبة والعمال أكرمهم الله فليعمل /120/ بحسبه، ولا يعدل عن كريم مذهبه، إن شاء الله تعالى [وهو المستعان لا ربّ سواه، كتب في الحادي والعشرين لشعبان المكرّم من سنة سبع وثلاثين وستمائة][4].

---

(1) يبدو أنّ هذه الأملاك الممنوحة لهؤلاء المستوطنين الأندلسيين كانت ملكا للسلطة الموحدية، فقد جاء عن هذه الأراضي المحيطة بقصبة الرّباط في المن بالإمامة ما يلي: وما حواليها أرض محرث براحٍ ومسرح، متملك للمخزن ولأهل سلا ولابن وجاد من أهل اشبيلية، فاشتراه الخلفاء من أربابه وخلص لهم. ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 357.

(2) إلى جانب ما أعطاه الظهير لهؤلاء المستوطنين من كامل الحقوق في التوسع في الحرث والتبسّط في مختلف وجوه المعاش والتملّك للأراضي فقد أعفاهم من دفع مستلزمات الخراج.

(3) هذا الظهير يعتبر وثيقة في غاية الأهمّية بالنسبة لتاريخ مدينة الرباط، فهو يدلّنا على أقدم جالية أندلسية استوطنت الرباط، إذ اعتاد مَن أرّخوا لهذه المدينة الحديث عن الجاليات الأندلسية التي هاجرت إلى الرباط بعد هذا التاريخ والتركيز عليها سيما تلك التي نزحت مع مطلع القرن الحادي عشر الهجري/17 م.

(4) الزّيادة من زواهر الفكر.

- 225 -

## رسالة في العتاب والاستعطاف إلى قاضي الجماعة بمراكش أبي إسحاق المكادي

مثل السيد الذي راق بكرمه الأنام، ورضّ بشيمه الأيام، ورمى هدف المشكلات فقرطس مصيبا، وسما إلى المعلوات فلم يدع فيها لأحد نصيبا، هو أغزر علما، وأرسخ حلما، وأعلى قيمة، وأكرم شيمة[1]، من أن يستخف نهاه واشٍ، أو يمشي إليه ماشٍ، وحاشاه أن يؤاخذ بعثرة دراها، وزلة يسمعها أو يراها، والظن بمجده العالي أن يكرّ على الإساءة بالصفح، ويمحو أثر الخطيئة بخلقه السّمح، هذا إذا جاء خبرها متواترا وكان كالصبح[2] لا يلقى ضوءه ساترا، فكيف إذا كان إفكا مأثورا، أو هباءً منثورا، فما باله أعلى الله قدره، ولا حطّ عن فلك السيادة بدره، صدّ بوجهه وكتابه، وأقعد تحت المولم المُمِضّ من عتابه، ونأى بجانب إليه نأوي وأمرض وبما عنده كان التداوي.

وما خلتني ولو أخذت غير المأخوذ، وفارقت المشهور إلى المشذوذ، وقلت إن الجهمي بالتشبيه مصرّح[3]، والمعتزلي لكلام النفس مصحّح، وزعمت أن الأشعرية تنفي الرّؤية[4]، وأصحاب الحديث لا يرون الرّقية[5]، وأبحت نكاح الأمة لمن يجد الطول[6]، وحدثت عن ابن عباس أنه

(1) جناس ناقص بين "قيمة وشيمة".

(2) تشبيه تمثيلي ذكر المشبّه والمشبّه به والأداة ووجه الشّبه.

(3) الجهميّة طائفة من أصحاب جهم بن صفوان وهو من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله مسلم بن أحوز المازني بمرو في آخر دولة بني أميّة، وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء، ولم يكن يرى التشبيه في حق الله تعالى. الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، ص 86.

(4) من المعروف أنّ الأشاعرة يقولون برؤية الله عزّ وجلّ خلافا للمعتزلة الذين ينفون ذلك.

(5) عن الأحاديث التي يرويها المحدّثون في جواز التداوي بالرّقية، انظر الأحاديث التي أخرجها البخاري في صحيحه.

(6) عند جمهور الفقهاء لا يجوز زواج الحرّ بالأمة إلا بشرطين: أولهما عدم الطول أي عدم القدرة على نكاح الحرّة، وثانيهما خوف العنت (الزنا). واستدلوا على هذا بقوله تعالى:
=



كان يرى العول[1]، وادّعيت الإجماع في مسألة الجدّ[2]، ولم أعتبر الشبهة في درء الحدّ[3]، ورميت بالبلادة إياسا[4]، وقلت إن أبا حنيفة ما كان يحسن قياسا[5]، إلا وفضله يقضي عن هناتي /121/ ويلبسني على علّاتي، ويحمل أمري على أن الغربة شعثته، ويرى سهوي أن حوادث الأيام أحدثته، فيعتمد كسري بجبره، ويدخلني تحت ثقاف حجره، ولو علمت أن ملامه عزيمة، وأن الذي بلغه له عنده قيمة، لمزقت ثوب الجلد، وشققت جيب الكمد، لكني أقول هي عضة مثقف بل عظة متوقف، وما لجرح إذا أرضاه ألم، وأهلا بما رآه فيه برءُ أو سقم[6].

= ﴿ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾. إلى قوله تعالى: ﴿ ذلك لمن خشي العنت منكم، وأن تصبروا خير لكم ﴾. الآية رقم 25 من سورة النساء. ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد، ج 2، ص 35.

(1) العول من مصطلحات علم المواريث وقد تقدّم تعريفه في هامش الرسالة رقم: 108 من الجزء الأول. وقع أول مرّة في خلافة عمر بن الخطاب بإجماع الصحابة في مسألة المرأة التي ماتت وتركت زوجا وأختين شقيقتين. وبعد موت عمر اظهر ابن عباس خلافه فلم يؤخذ بمذهبه لمخالفة الإجماع. ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد، ج 2، ص 284.

(2) لم يرد في مسألة ميراث الجد مع الإخوة شيء من الكتاب ولا من السنة، وإنما ثبت حكمهم باجتهاد الصحابة، لذلك اختلف الفقهاء فيها.

(3) عن درء الحدود بالشبهات جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي وروته السيدة عائشة عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال: "ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلّوا سبيله فإنّ الإمام أن يخطئ في العفو خير من يخطئ في العقوبة".

(4) هو إياس بن معاوية المزني قاضي البصرة الشهير (توفي سنة 121 هـ/738 م). كان يُضرب به المثل في الذكاء والرأي والسؤدد والعقل.

(5) القياس من الأصول التي يُؤخذ بها إذا لم يتوفر النص من القرآن أو السنة أو قول الصحابة، وهو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه لعلة جامعة بينهما. وقد بلغ أبو حنيفة الذروة في الاستنباط بالقياس، وبه بلغ ما بلغ في المرتبة الفقهية. أبو زهرة، تاريخ المذاهب الاسلامية، ص 376.

(6) سترد هذه الرّسالة مكررة تحت رقم (269) من هذا السفر.

– 226 –

## وخاطب القاضي أبا الحسن بن قطرال شاكرا وشاكيا من الرّمد

كتبته إلى سيّدي[1] تولاه الله بكلائته، وعصمه من الدّهر أن يمسّه بمسائته، من مكناسة والحال على ما يسرّه لولا بقية من الرّمد آلت جربا، ولم تبق في الكتابة أربا، وقيل لا حيلة في طرده، إلا بجرده، وحسبت أن الأمر قريب، وأن المجتهد مصيب، فاذعنت لعامل لا يدري الإبقاء، وقاتل لا يحسن الإلقاء، فإذا الدّم يسيل، والجلد يستحيل، وهمزة الحديد لا يدخلها التسهيل، ونعمته في الجفن منها الخفيف والثقيل، ومرّت بي ساعة كلها فظاظة وفضاعة وأنا الآن في ورطة احتماء، وثأطة[2] مُدّت بماء، والله يرزقنا العافية، ويجنبنا الخطوب العادية.

وكنت خاطبت سيدي في جانب الوزير الحكيم أبي بكر بن صاف أدام الله كرامته وما طرأ على ابنه من أسر ألوى بصبره، واضطره إلى السعي في أمره، وطلبت أن يضرب له في الوصيّة هنالكم بسهم يكون به للابتداء، /122/ وينبني عليه الفداء.

وبلغني ما كان في ذلك من جدّه الذي استروح منه أبوه ريح الفرج، وضوّع له روض الثناء يزيد على الروض في الطيب والأرج، وقد جاءه كتاب بعض إخوته

(1) هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد الأنصاري المعروف بابن قطرال من مواليد سنة 562 هـ/1166 م بقرطبة وقيل بمدينة فاس، من تلاميذ أبي بكر بن الجد وابن أبي زمنين وأبي العباس بن مضاء وغيرهم. امتحِن بالأسر في مدينة أبّدة حين تغلب عليها النصارى بعد معركة العقاب سنة 609 هـ/1212 م. كان من رجال العلم والعمل، أديبا كاتبا بليغا مع دماثة الخلق ولين الجانب. تولّى القضاء بقرطبة وبلنسية وشاطبة وغيرها من المدن الأندلسية، وبسبتة وفاس من العدوة المغربية. مات وهو يتولى خطة المناكح وأحكام النساء بمراكش سنة 651 هـ/1253 م. ابن الأبار، التكملة، ج 3، ص 241. ابن الزبير، صلة الصلة، القسم الرابع، ص 144. ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص 190.

(2) ثأطة مُدّت بماء: مثل يُضرب للرّجل يشتد موقه وحمقه. والثأطة: الحمأة (الطّين الأسود)، لأنّ الثأطة إذا أصابها الماء ازدادت رطوبة وفسادا. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 210.



بشيرا، وألقاه على وجه أمله فارتدّ بصيرا[1]، وسيّدي يخرج من ضمان عِدّته بانجازها، ويرى فرصة هذه المآثر فيبادر بانتهازها، وعندي على ذلك شكر أنافح به نسيم الرّياض إذا هبّ، وأعمل فيه عمل من طبّ لمن حبّ، والله يديم رفعتكم والسلام.

– 227 –

## رسالة إلى العراقي والقيجاطي يوصيهما برجل من بيت نباهة

كتبته أيها السيّدان المعظّمان، وقاكما الله نوب الزمان، وأبقاكما عِلقين لا توازنان الأعلاق الثمان، من فلانة وبركة الخلافة المعتضدية أيّدها الله خير مسبل، وخير حاضرُ ومستقبل، والحمد لله على ذلك وأنا على ما يجب من حبّ في حبّة القلب رسخ، وتعظيم عندي منه الأصل الذي يُصحّح النّسَخ، ولو وجدت عبارة من هذا المعنى لسقتها، ويا ظمئي لتلك الشمائل المعسولة أن أروى منها كما ذقتها.

ويصل به إن شاء الله فلان وهو من بيت نباهة، وعلى ما يليق بمثله من صيانة ونزاهة، وكان وصل إلى هذا الموضع الذي لم يبق من فوائده ما يبض بمثل الشراك، بل ولا ما يعدل نفاثة المسواك[2]، فرأى العودة إلى الباب الكريم شرّفه الله حيث جناب الرّحمة منفسح، وقلب الوارد عليه فرح، وله في فضل السيدين المعتمدين أمل هو حسب الوافد، وقصب عين /123/ الغائب والشاهد، وقد عوّدا هذا الصّنف عادة غيرهما يشكو نصبها، أو يقصّر عن غاية ما سوى كريم الطبع نصبها، وهذا الفاضل خليق منها بالسّعي الذي يقيمه بعد الميل، وينبت حاله إنبات الحبّة في حميل السّيل[3]، وعين تلك العناية معاذ الله أن تأخذها سِنَة، والعمل بذلك

(1) الاقتباس من الآية رقم 96 من سورة يوسف.

(2) النُّفاثة: الشَّظيّة من السواك تبقى في فم الرجل فينفثها. يقال لو سألني نُفاثة سِواكٍ من سِواكي هذا، ما أعطيته، يعني ما يتشظّى من السواك فيبقى في الفم، فينفيه صاحبه. لسان العرب، ج 2، ص 196.

(3) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه ورواه أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا دخل أهل الجنّةِ الجنّةَ وأهل النّارِ النّارَ، يقول الله مَن كان في =

الكمال لا يشهد له لسان بل ألسنة، إيهٍ يا سيديّ أردتما معرفة ما استقر عليه التنفيذ وقد ألقيت من ذلك إلى راجلي الواصل مع هذه العجالة ما ينهيه، ويقتضي مبارك الاعتناء فيه، إن شاء الله تعالى وهو يديم رفعتكم والسّلام.

– 228 –

## وأجاب أحد إخوانه كان قد أخبره بنزول الغيث بعد صلاة الاستسقاء

تخصّكم أيها الأخ العماد الأرفع، والعتاد الأنفع، والكريم الواحد، والجواد الماجد، تحيّة الإعظام والإجلال، والقيام بمحامد ذلك الجلال، والشكر بمحاسن تلكم الخلال.

وقد وردت مخاطبتكم الخطيرة المباركة تحل من النظير، وتحلى كقطع الروْض النضير، وتقرّر من صدق الوداد ما يقتضيه ذلك المجد اللباب، والحسب الذي لا تدانيه الأحساب، والفضل الذي تلاقت على براهته وبضاعته البواعث والأسباب، ومثله ولا مثل له يذهب ذلك المذهب، ويقول ما يعجز عنه لسان الشكر وإن أطنب وأسهب، وأفضتم في نعم الله على عباده بالمقام[1] الأميري[2] ومن ذا يقدرها حق قدرها، ويُقضيها حق شكرها، وقد عمّت الأنام وأرغمت من المشركين الأنوف، وأدارت عليهم في مواطن الفتوح الحتوف، وكم /124/ لهذه الدّعوة العليّة من آثار تبلى الأيّام وذكرها جديد، وتدرس المباني وبناؤها مشيد.

ووقفت أيّها السيّد على ما عرّفتهم به من سقي الله لتلكم البلاد بالدّعوة المجابة، والسّحب الصّيبة غير المنجابة حتى أخصبت الماحل، وسقى جدب الرّوض السّماء النازل، فما أكرم ذلك الموقف الذي استشرفت إليه الملائك،

–

قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون قد امتُحِشوا وعادوا حُمما فيلقون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبّة في حميل السّيل.

(1) هنا يبدأ المقطع الوارد من هذه الرسالة في ص 257 من ك 233، والبتر سببه سقوط ورقة من المخطوط.

(2) يريد الأمير المتوكل ابن هود القائم بالدّعوة العبّاسية.



وأسعد ذلك الدعاء بالقبول حين تداركه القطر المتدارك، والحمد لله الذي أنزل شفاء القلوب بنزوله، وأسعد القائم بالدّعوة العبّاسية من الإجابة نظير ما كان من الإجابة لسلفها الكريم في حرم رسوله[1]، وإيّاه أسأل سبحانه ما عوّد من نصر وظفر، ويجعل نظره للبلاد والعباد أفضل نظر، ولا يخليه من توفيقه وإسعاده في كل ورد وصدر.

– 229 –

## وكتب إلى سيّد يشفع في كاتب مؤرّخ

كتابي إلى السيّد أدام الله سعادته، وسهّل له من كل أمل مقادته، من فلانة وحالي وحال مَن قِبَلي على ما يسرّه من السّلامة والعافية، والنعمة الكافية المتوافية، والحمد لله.

ويصل به فلان وصل الله إسعاده، ويسّر بغيته ومُراده، وهو بحر الآداب، وصدر الشعراء والكتاب، وإمام التواريخ والأنساب يعرف المصادر والموارد، ويذكر الوفيات والموالد[2]، ويحشر ذكره الدّمم البوالي والأمم البوائد، وسيرد عليكم منه وارد معه الدّلو والرّشاء، وناطق يضع لسانه حيث شاء، وقد قصد ذلك المجد العمادي حرس الله فناءه، وأدام سناءه، شائما برق نعمته التي أعفاها من ليّ، وخبط بها في كل حيّ، ونعم المُمَهِّد /125/ له سعيكم المبارك، ورأيكم الذي لا

(1) يشير إلى ما أصاب المسلمين من قحط وجدب سنة 18 هـ/639 م وهو عام الرّمادة، فخرج الخليفة عمر بن الخطاب لأداء صلاة الاستسقاء ومعه العبّاس بن عبد المطلب جدّ العباسيين وعمّ رسول الله فقال: اللهم إنا نتقرّب إليك بعمّ نبيّك صلى الله عليه وسلم، وبقيّة آبائه وأكبر رجاله، فإنك تقول وقولك الحق: ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة﴾ فحفظتهما بصلاح آبائهما، فاحفظ اللهم نبيك صلى الله عليه وسلم في عمّه، فقد دلونا به إليك مستشفعين مستغفرين. وكان العبّاس قد طال عمره وعيناه تذرفان ولحيته تجول على صدره وهو يقول: اللهم أنت الرّاعي فلا تهمل الضالة، ولا تدع الكسير بدار مضيعةٍ، فقد صرخ الصغير ورق الكبير وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم فأغنهم بغناك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا ييأس إلا القوم الكافرون. فنزل المطر وأغيث الناس. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 390.

(2) طباق الإيجاب بين "الوفيات والموالد".

يداني ولا يشارك، وقد عرف أنه ملجأ من حطّ هنالك رحله، وشكا جدب الزمان ومحْله، فأمّلكم بكتابي، والله يفتح له من بابي، ومجدكم يصدق التأميل، ويفعل الفعل الجميل، إن شاء الله تعالى والسلام.

-230 -

## وخاطب أحد إخوانه يعاتبه

كتبته أيّها الأخ الذي يعرف ودادتي، ويشهد بها قبل شهادتي، حفظ الله منك صفيّا والصفاء مريب، وفيّا والوفاء غريب، من رباط الفتح وأنا لك حيث تهوى، وعهدك عندي على غرّه يطوى، ومن غمره إذا أردت الريّ أروَى، وكتبك التي عوّدتنيها، وكنت أعد النفس بها وأمنّيها، قد صمّ صداها على الدّاعي، فأقام على فقدها الناعي، فما الذي عرض دون إرسالها، وزوى عنّي وجه إقبالها، أتيةٌ فلستَ من رجاله، أم كسلُ فإلى متى تتعثر في أذياله، وما أظن بك غيره فإنه خضاب عليك بطئ النّصول، بل مقوم لك تقويم النصول.

وصل أخوك يحيى وحيّاه الله من متوكّل على خالقه، رافع عصاه على عاتقه، رأى أن الإنسانية هي التجرّد، و[... ][1] هي التي يُنفى بها الهمّ ويطرد، فقبض عليها بأنامله الخمس، وسَارَ بها حتى بلغ مغرب الشمس، لكنه وجدها تغرب على قوم ليلهم السُرى، ونهارهم للحرب لا للقِرَى، ورأى وجوهًا أنكرها، وحنّ إلى أرضه لما تذكرها، فقلت له سر راشدا، وأغش المعاهد راعيًا ورائدًا، إلى أن تقتحم العقبة، وتلقى أولئك الطلبة، فتبلّغهم سلامي، وتعلمهم من الأحوال ما يقصر /126/ عنه إعلامي، والله يبلّغه مأمنه، ويريه من نصب السّفر أخفّه وأهونه، وهو تعالى يديم عزتكم بمنه والسلام.

(1) كلمة يتوسطها بياض في الأصل.



-231 -

## وكتب إلى أحد أصدقائه معتذرا ومعزيا في والدته[1]

تحيّة كريمة تحمل من الرّوض نفحاته، وتنزل من الفضل بأجلّ ساحاته، وتقرّر من الودّ ما يقارنه إجلال، ولا يقاربه إخلال، بل هو للوفاء ربع محلال، ومن الصّفاء كأنه عذب زلال، وللتعظيم وظيفة مؤدّاة، وللشكر والثناء من القلب واللسان محلّ وأداة.

وقد وصل خطابكم الكريم المبرور دالا من الودّ على ثابت لا ينسخ، ومن العهد على ما هو أرسى من ثهلان[2] وأرسخ، فتلقيته تلقّي الضمآن للنفاخ، واللّهفان لوشيك الإصراخ، إلا أنه وإن كان ورد على نفس بها صبّة، فلقد صادفها في حُمّى صعبة[3]، خطمت بسورتها القويّة، وأبطلت أداة الرّويّة، فكأن زهرة الاستنشاق، وريحانة عشاق، أذهب ملّم الألام، وأشعر بطاعة الطبيعة للأوهام، وقبل ما كان وافني نعي الحَصَانِ الرّزان، الرّاجحة الميزان، الخليق حزنها بأن يكون أشد الأحزان، والدتكم نفعها الله بما أسلفته، وكافاها بكلّ همّ لأبناء الحاجة كفته، فبينا أنا في التعزية مُروّ، ولضعف القريحة مُقوّ، دهم المرض، فاستعصى ذلك الغرض.

ولقد كنت ذهبت إلى العزاء في الأم المتوفاة، والأخرى الباقي بها رمق الحياة، فما بلغت الفكرة شأوها، حتى بكت العين شجوها، فطال اعتبار، وقلت لنفسي لا أنتِ أنتِ ولا الديّار ديّار[4]، كلّ عن حاله حال، وصار باغي فيئته يبغي

(1) تقع هذه الرسالة في الصفحة الأولى من نسخة ك 233 حسب الترقيم الجديد، علما أنّ الورقة الأولى من هذه النسخة مبتورة حسب الترقيم القديم.

(2) ثهلان: جبل ضخم بالعالية. وقيل هو جبل لبني نمير بن عامر بن صعصعة بناحية الشريف به ماء ونخيل. واشتقاقه من الثهل وهو الانبساط على وجه الأرض. والعرب تضرب المثل بهذا الجبل في الثقل فتقول: أثقل من ثهلان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 88. الحميري، الروض المعطار، ص 151.

(3) لم يشتك ابن عميرة في رسائله من المرض إلّا في هذه الرّسالة من الحمّى التي نزلت به، وفي أخرى تقدّمت قبل قليل، من الرّمد الذي كان يلمّ به أحيانا.

(4) يشير إلى بيت أبي تمام:

لا أنت أنت ولا الديار ديار    خفّ الهوى وتولت الأوطار

تبكي شريعته بعيني بنته إذ     أنشدت عن لوعة هي ما هيا
صبّت عليّ مصائب لو أنها     صبّت على الأيام عُدن لياليا
يا حسرتي للمجد ضعضع ركنه     ولكوكب العلياء أصبح هاويا
[وببهجة] الدنيا ورونقها دَجَا     ما كان للأبصار منها باديا[1]
أودى الأمير فما وفى لمُصَابه     من صبره معه رآه وافيا
أودى أبو يحيى فسؤرُ حياتنا     لسنا نبالي أن يكون الفانيا
أودى فكل سبيل جود لاحب     قد كان للعافين أصبح عافيا
ومجاهل الأنزاح عدن معالما     وعمائر الأفراح صرن فيافيا
أأمِيرُنا وكفى بنا ولهًا عَرَا     ألبابنا ألا تجيب الدّاعيا
ما بال يومك طول حسرتنا جنا     ولعهدنا بك لا تقرّ الجانيا
/129/ما بَالُ نورك قد خبا ولطالما     كانت أشعته تضيء الناديا
ما بال بشرك ماؤه غيّضته     عنّا ألم يك من جبينك هاميا
اعزز علينا أن حللت بمنزل     يا بُعدَه ونراه منّا دانيا
اعزز علينا أن نبا بك موطن     أزمعت عنه رحلة وتنائيا
اعزز علينا أن مضيت لوجهة     ما معقب منها الوداع تلاقيا
أوليّ عهد المسلمين فجعتهم     ومتى يسوس الخلق مثلك واليا
أوليّ عهد المسلمين تركتهم     قرحى القلوب حواضرًا وبواديا
حضرت جيادك أن تراها تمتطى     فمن الذي استخلفت فيها رائيا
ووفودك اجتمعوا فلِمَ أعرضت عن     من كان منهم من نوالك راجيا
والباب غصّ بوارد وبصادرٍ     فابرز إليهم آمرًا أو ناهيًا
وبَنوك زيّ الحزن قد لبسوا     فمالك لا تفنّد لابسًا أو كاسيا
قد كنت لا ترضى بغير سرورهم     أفصرت للأحزان منهم راضيا
هيهات منا أن تجيب وإنما     هي نفثة لو كان شيئًا شافيا
والوُجدُ هوّنه عليك وإنّه     ليدقّ أعناق الليوث ضواريا

(1) في ك 233: ولبهجة.



خلفٌ كريم قد أتى لهلاله     أن يملأ الدنيا ضياءً باقيا
وكمال بدر التمّ عند بلوغه     ستًا لأوّل عمره وثمانيا
لأغيضنّ الدّمع فيك تحرّقا إن     كان دمع العين يشفي جاريا
ولألزمنّ القلب بعدك لوعة     تبقى على الأحشاء جمرا ذاكيا
ومتى سلا أحد فقد ضيّعت ما     أوليتني إن كنت بعدك ساليا
صلّى الإله عليك من مستودع     قبرا وفي الفردوس أصبح ثاويا
وسقاك من حوض النبي محمد     وأراكه بيمينه لك ساقيا
وتعاهدت مثواك في بطن الثرى     غرّ السّحاب روائحًا وغواديًا[1]
ولروحك الفوز الذي تلقى به     حور الجنان مُصافحا ومُصافيا[2]

-234-

## فصول من المواعظ[3] أنشأها على طريقة الإمام أبي الفرج ابن الجوزي[4]

/130/ يا من فسخت الشهوات همّته، وشغلت الطاعات ذمّته، أنت مُثقل الظهر بالدَّين، وقد صرعك الهوى بالفم واليدين[5]، صلّوا على صاحبكم، أشفيت أيها المغرور على الهلكة، أنت في مِلك الهوى وإنّه لسيّئ الملكة، إن كرهت مؤونة الرّق فهي ثقيلة، ومع أن العبد لا مال له فثمّ حيلة، كاتبه إلى أجل يمكنك الكسبُ فيه، واستعن بالصّالحين فربّما وجدت من يُعجّل لك العتق ويمضيه، أما سمعت

(1) طباق الإيجاب بين "روائحا وغواديا".
(2) جناس ناقص بين "مصافحا ومصافيا".
(3) عن الكتابة في الزهديات والمواعظ وانتشارها بالأندلس في عصر ابن عميرة، انظر بن شريفة، أبو المطرف، ص 299 وما بعدها.
(4) هو الإمام الحافظ الواعظ جمال الدّين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي القرشي التيمي البغدادي البكري نسبة إلى أبي بكر الصدّيق (510-597 هـ/1116-1200م)، صاحب التصانيف المشهورة في أنواع العلوم كالتفسير والحديث والفقه والوعظ والزّهد والتاريخ والطّب وغيرها. انظر ترجمته ومصادرها عند الصفدي في الوافي بالوفيات، ج 18، ص 109 وما بعدها.
(5) استعارة مكنية شبه الهوى بالإنسان.

قصّة جويرية بنت الحارث[1].

**ومنها**: شرّة الشّره مُردية، والقناعة إلى السّلامة مُؤدّية، طلب القوت حلال، فأما الزيادة فوبال، لو لم يكن للنحل فضل عن طعامه، لأمن شرّ الشائر طول عامه.

**ومنها**: راجع نفسك فإنها بالسّوء أمّارة، وسمها بالصّلاح فليس عليها منه أمارة، واخلع عليها لبوس العجب فإنه يطوف بها في سكك البطالة، ويطيل سفرها في المحظور ولا خير في تلك الإطالة، **(أعروهنّ يلزمن الحجال)**[2]، إنها لتقف بك موقف الموئس، وتخونك خيانة المُومس، فليس من الحقّ أن تلقاها بوجه غير جَهمٍ، وترغب بها عن عسرة معاوية وعصى أبي جهم[3].

**ومنها**: أين أرباب الزهادة، أين أنضاء العبادة، أين الرّكع السّجود، أين دُموع من خشية الله تجود، أظلمت الأرض بعدهم، وشكت الدّنيا فقدهم، وعدمت القلوب إخلاصَهم، وتمنّت المساجد أشخاصهم، فلطالما أطالوا بها القيام، وصفّوا فيها الأقدام، فمواقفها تشتاقهم، وقائفها لا يشتبه عليه إلحاقهم، إنّ هذه الأقدام بعضها من بعض قَبِلَهم من إليه فرّوا /131/ وضمّهم إلى جواره فقرّوا، ما أمرّ طعم العيش وقد مرّوا، وأظلم جوّ السّرور بعدما استسرّوا: [الطويل]

وما سرّ قلبي منذ شطت بك النوّى … نعـيمٌ ولا أنـس ولا متـصرف

---

(1) هي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، كان والدها رئيسا لبني المصطلق وهو الذي خرج لمحاربة النّبي صلى الله عليه وسلم في السنة السادسة للهجرة، ولكن النبي أغار عليه وسبى النساء والذراري من قومه، وكان من جملة السّبي جويرية ابنته التي وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبته على نفسها، ثم جاءت النبي تستعين به فأدّى عنها وتزوجها، وأعتِق بسبب هذا الزواج مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا، فسمّيت هذه الغزوة بغزوة بني المصطلق والمريسيع. ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 307.

(2) يريد الحديث الذي أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ورواه مسلمة بن مخلد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اعْرُوا النِّسَاءَ يَلْزَمْنَ الْحِجَالَ".

(3) يشير إلى حديث فاطمة بنت قيس التي جاءت إلى النبي (ﷺ) فذكرت له أن أبا جهم بن حذيفة ومعاوية بن أبي سفيان خطباها، فقال: أما أبو جهم فرجل لا يرفع عصاه عن النساء، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، ولكن انكحي أسامة بن زيد. أخرجه أبو داود في سننه.



ولا ذقت طعم الماء إلّا وجدته … سوى ذلك الماء الذي كنت أعرف

ولم أشهد اللّذات إلا تكلّفا … وأيّ نعيم يقتضيه التكلّف

تطيب بذكرهم أفواه الرّواة، وتمثل رؤيتهم أوقات الخلوات: [الخفيف]

إنّ لي عند كل نفحة بستان … من الورد أو من الياسمين

نظرة والتفاتة لك أرجو أن … تكوني حللت ممّا يليني

تكفّل البرّ بمحبّة من تكلفه، وضمن له إلف من أراد أن يتألّفه، وكل امرئ يولي الجميل مُحبّب[1]، ما أكثر أعوان السّلس الباذل، وأقل إخوان الشكس الباخل، قالت العقاب للطّير يئست الرّعيّة أنتنّ لم ترغبن عن سيرة السّباع، فيما أوجبته لأميرها من الاتّباع، فقالت لأنّ ذلك يطعمها من اكتسابه، وإن رأيت عند أحدنا صَيدًا فالويل له إن جعله من حسابه.

**ومنها**: إذا عرجت شياطين الهوى إلى سماء العقل وجدتها مُلئت حرسًا شديدًا وشهبا، تطلب عزّة النفس والرقيب قريب، **﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾**[2]، إنّها لتسافر إلى عالم الكسب فتعترضها[3] في تلك الفلاة، وتختلها[4] عند الغفلات، والحارس ينادي يا خيل الله اركبي **﴿إلّا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب﴾**[5].

**ومنها**: يا هذا فيك قوتان[6]: الحِلم والغضب[7] آخى بينهما العقل، وشرطه عليهما الإنصاف والعدل، ولكليهما شان، وكمال هو له قربان، والطّبع الغويّ لا يردّ إغواءً، بل يزيده المنع إغراءً، /132/ **أحبّ شيء إلى الإنسان ما مُنِعا**، فمتى أفرط

---

(1) هذا من استرسال المثالين في مصراعي البيت الواحد وأصله:

وكل امرئ يولي الجميل محبب … وكل مكان ينبت العز طيب

الثعالبي، يتيمة الدّهر، ج 1، ص 61.

(2) الآية رقم 65 من سورة الإسراء.

(3) في ك 233: فيعترضها.

(4) في ك 233: يختلها.

(5) الآية رقم 10 من سورة الصافات.

(6) في ك 233: أيتها الصّورة الآدمية.

(7) طباق الإيجاب بين "الحلم والغضب".

الغضب فيما يصدر عنه، تُقُبِّل من أخيه ولم يُتقبل منه، ﴿**إنّما يتقبّل الله من المتّقين**﴾[1]، فإن سالمه الحِلم أو استسلم له، بسط يده إليه فقتله، فتبقى الصّورة جيفة تدعو إلى تنظيف المكان، وتضطرّ إلى اعتدال الإنسان، والتأسّي بما لا يتأنّس من الحيوان، ﴿**يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب**﴾[2].

**ومنها:** عظ نفسك فشأنها أهمّ عليك، وإن اتسعت لغيرها فليكن ممّا يرجع أمره إليك، ابدأ بمن تعول[3]، وَلِيَ عمر بن عبد العزيز فمِن أبدع ما ورد في سيرته، ابتداؤه بردّ المظالم من أهل بيته وعشيرته، (**إن أوّل ربا أضعه ربا عمّي العبّاس**)[4].

**ومنها:** واعجبًا أبو طالب يحذر على ابن أخيه معرّة عمر، والقضاء يقول كُفيت الحذر، لا تشغل بالرجل بالك، فهو له لا لك، **قضاها لغيري وابتلاني بحبّها**[5]، أين مخافة تعيير النساء، من الإقدام[6] على مقارعة الرّؤساء، مرض أبو طالب وأدنى عوده، فحموه عن ما لم يكن تعوّده، قالوا أترغب عن ملة الوالد، وتدين بعبادة الواحد، وكان قد أشرف على البرء التام، فترك تدبير الطبيب لقول العوام، فانقلبت حُماه محرقة قاتلة بالذات، ولم يكن في قوّة الصناعة إلّا التخفيف بالمبرّدات، **وجدته في غمرات من النّار فأخرجته إلى ضحضاح**[7].

---

(1) الآية رقم 27 من سورة المائدة. وهو يشير إلى ابني آدم قابيل وهابيل.

(2) الآية رقم 31 من سورة المائدة.

(3) يريد الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه ورواه أبو هريرة عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم قال: اليَدُ العليَا خَيرٌ من اليد السُّفلى، وابدَأ بمن تَعُولُ، وخَيرُ الصّدقة عن ظَهر غِنًى، ومَن يَستَعفف يُعِفّهُ الله ومَن يَستَغن يُغنِهِ الله.

(4) يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام في خطبة حجّة الوداع: ألا وإن ربا الجاهلية موضوع، وأوّل ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب. ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 251.

(5) يشير إلى قول الشاعر قيس بن الملوح متيّم ليلى ومجنون بني عامر:

خليلــيّ لا والله لا أملــك الــذي ... قضى الله في ليلى ولا ما قضى ليا

قــضاها لغيــري وابتلانــي بحــبّها ... فهــلّا بــشيء غيــر ليلــى ابتلانــيا

الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 24، ص 226.

(6) "من الإقدام" ناقصة في ك 233.

(7) يشير إلى ما ورد في صحيح مسلم أنّ العباس قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ أَبا طَالِب كان يَحُوطكَ ويَنصرُكَ فهل نَفَعَهُ ذلك، قال: نعم وجَدتُهُ فِي غَمرَات من النّار فَأَخرَجتُهُ -



**ومنها:** في ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بلغ مرض عمر المنتهى، وفطن لمضرّة المنهيّ عنه فانتهى، استعان على النّضج في وقته، بما تناول من الدّواء في بيت أخته[1]، ثم حضر نادي النبوّة، ومن أحمد /133/ علاماته ثبوت القوّة، قيل إنّه على الباب بالسّيف واقف، ولأوقات البُحران[2] شدائد تهول إلّا مَن هو عارف، فأذن العمّ الكريم[3] في إدخاله، وقد تفرّس في وجه الطبيب الأكبر حقيقة حاله، فاعجب لبُحران أبرّ على البحَارين، وأبرأ في الحين[4].

كان في ظلم الضلالة، فأشرقت عليه أنوار الرّسالة، ﴿**الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾[5]، جاء وقلبه كالجلمود الجامد، وعاد وهو قرارة أعذب الموارد، ﴿**وإنّ من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار**﴾[6]، كان مُنِي بقرينين قريبين، أبي جهل والشيطان، فمنذ وصل الحقّ قطعهما، واستقام على الجادّة فما أقام معهما، لم يحوجاه بمضادّة الطبيعة للطبيعة، إلى مراجعة في القطيعة، فآلى هذا ألّا يكلّمه ابتداء، ولم يلقه الآخر سالكا فجًا إلّا نكب عنه فرقا لا حياء.

**ومنها:** لله درّ الأنصار، كانوا أهل النّزل والدّار، ومن أدب المضيف أن يبذل في حاجة الضيف جهده، ولا يسأله شيئا ممّا عنده، إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلّون عند الطّمع، توهّموا عند قسمة[7] غنائم حنين ارتفاع علّة المنع، فعرّضوا بأن يقسم لهم مع سائر الجمع، وإنّما قالوا ذلك على جهة الاختبار، فعرفوا أنّه لا نقض

---

-

إلَى ضَحْضَاحٍ.

(1) هي فاطمة بنت الخطاب زوجة سعيد بن زيد.

(2) البُحران: لفظ يوناني معرب، وهو عند الأطبّاء التغيّر العظيم الذي يحدث في المرض دفعة إلى الصّحة أو إلى العطب، وذلك التغيّر يكون على ثمانية أصناف. التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج 1، ص 310.

(3) هو حمزة بن عبد المطلب عمّ الرسول عليه الصلاة والسلام.

(4) في هذا المقطع إشارة إلى قصة إسلام عمر بن الخطاب وهي معروفة.

(5) الآية رقم 257 من سورة البقرة.

(6) الآية رقم 74 من سورة البقرة.

(7) في ك 233: قسم.

في سبب الجوار: [الطويل]

أحِنّ إليهم والزيارة سهلة    وأشتاقهم والعهد بالرّمل ما انقضى
وأسألهم والمال لست أريده    لأعرف منهم ما أريد من الرّضى

جرت هذه القصّة بعد أخرى صدر فيها الاختيار من سيّد /134/ البشر، وقد أشار وقت الأحزاب إلى إعطاء نصيب من الثمر، فتكلّم ناس وسكت السّعدان[1]، والحال تقول مرعًى ولا كالسّعدان[2]، فلمّا علم الرّسول ما عند القوم من البأس، ردّ على شرذمة الكفر باليأس، فنادى منهم لسان الإدلال، يوم تكلّموا عند قسمة الأنفال[3]، هذه بتلك.

ومنها: في ذكر أبي بكر الصّديق رضي الله عنه: كمال الصّدّيق فوق كلّ كمال، ومقامه لدرجة النبوّة تال، كيف ينكر الأنام مكانته من الرّسول عليه السّلام، وقد عرفتها الأرض وجبالها، حتى اتصلت من جوف الغار إلى بطن التراب حبالها، له إليه[4] صلوات الله عليه أشرف النّسب، ولقد بيّن قوله بالقول المعطي للوجود والسّبب، ما فَضِلَكم بصلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في نفسه كان أمره إيّاه بإمامة النّاس من باب الخاصّ أُريد به العام، ووجه الإحالة تأخير غيره عن ذلك المقام، ولو أريدت الصّلاة وحدها لكان له في أهليتها مشاركون، ولما قيل يأبى الله

(1) هما الصحابيان سعد بن معاذ وسعد بن عبادة سيدا الأنصار. ويشير ابن عميرة هنا إلى ما وقع في غزوة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة حين خرجت قريش وحلفاؤها من قبائل بني سليم وغطفان وحاصروا المدينة المنورة وتصدّى لهم المسلمون بحفر الخندق. ولما اشتدّ الحصار وطالت مدّته أقدم عليه الصلاة والسلام على عمل يفضي إلى تخاذل الأحزاب فاتصل بعيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان وعرض عليهما الصلح مقابل ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بقومهما فيخلو بقريش، وقبل توثيق هذا الصلح استشار السّعدين في ذلك فرفضا وفضلا الحرب على الصلح. ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 234.

(2) مرعى ولا كالسعدان: مثل يُضرب للشّيء يفضل على أقرانه وأشكاله. والسّعدان نبات وهو من أنجع المراعي. وأول من قال ذلك الخنساء بنت عمرو بن الشريد. الميداني، مجمع الأمثال، ج 2، ص 299.

(3) في ك 233: الإقبال.

(4) في ك 233: "إليه" ناقصة.



ذلك والمسلمون: [البسيط]

أكاتم الناس رأيي فيك عن عذر    وأستر الحبّ جهدي وهو فضّاح[1]
وإن رمزت بما في النفس منك فكم    كناية هي في التحقيق إفصاح

أُفرِدَ بصلاة المسجد الذي تأكّد فضله، لانفراده من أصلها الذي هو الإيمان بما لم يكن لأحد مثله، وقد وجد عين هذه العلّة مؤثرا في جنس الحكم لا تبقينّ في المسجد خوخة إلّا سُدّت إلّا خوخة أبي بكر[2]، قُبض عليه السّلام فاضطربت الجوارح، واضطرمت الجوانح، وغلب الرّجاء يأس، وتعلّل ببقاء حياته ناسٌ /135/ [الكامل]

خبر عييت به وربّ قضية    ما ردُّ سامعها لها من عيّه
فطفقت يوم قضى بسمعي لائذا    عن جملة الأخبار خوف نعيّه

لولا التعلّل بذلك المحال، لزهقت نفوس عند تلك الحال، لكن جاء الصّدّيق فصدّق الوفاة[3]، وصادق الثبات، عجبًا له استشعر العزاء وحدَه، وما وجد أحد من الصحابة وَجْدَهُ: [الوافر]

ونحن أولاك ليس لنا معاب    يراه قائل فينا وقال
ترقّ نفوسنا شغفا وتبقى    لدى اللأواء أمثال الجبال
على الأعداء نار ذات شُعْر    وللأحباب كالماء الزلال

ومنها: المرء بخيره، لا بغيره، وبفضيلته، لا بفصيلته، تقوى الرّجل سببٌ تهن عنده الأسباب، ونسب تهون معه الأنساب، دُعي إلى الإسلام أخو جُمَح[4] فجمح، وما جنح، وكان في رقّه بلال فرقّ فؤاده، وسَهُل قياده، هذا بحبشيّته في

(1) في ك 233: حذر.

(2) يشير إلى الحديث الذي ورد في صحيح البخاري ورواه ابن عباس عن النبي عليه الصلاة والسلام أنّه قال في مرضه الذي مات فيه: إنّه ليس مِن النّاس أحد أَمَنَّ عَليّ في نفسه وماله مِن أبي بكر بن أبي قحافة ولو كنت متّخذا مِن النّاس خليلا لاتّخذت أبا بكر خليلا ولكن خلّة الإسلام أفضل، سُدّوا عَنّي كلّ خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر.

(3) يريد وفاة الرّسول صلى الله عليه وسلم.

(4) هو أميّة بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمَح الذي كان يعذب عبده بلال بن رباح حين أسلم فأعتقه منه أبو بكر الصديق.

السّعداء، وذلك على قرشيته من البُعداء، اشتفى منه بعذاب أقرضه إيّاه، فقضاه يوم القليب[1] ووفّاه، لم يَرْعَ له ولاية الحق، فأعرض فيه عن حُرمة المستحق، أغرى به سفهاء مكة، فحشر عليه سراة يثرب، أقعده في الرّمضاء حتّى حَمِي، فضربه بسيوف الأنصار حتّى برد: [الكامل]

صاحب رجاء غدٍ عسى الأيّام ... أن يرجعن قومًا كالذي قد كانوا
واستعمل البقيا حذار جناية ... تجزى بها فكما تدين تُدان
ضلّ امرؤ اتخذ الإساءة عادة ... ويرى المثوبة أنها إحسان

ومنها: المشتاق وَاجِدٌ وفاقد فهو يتوسّل بواسطة الموجود، للإطلاع على بهجة المفقود، قلبه في شغل، وسبيله تتفرّع إلى سُبُل، فإن كان له بَصرٌ بأعلام الطّريق، أفضى إلى /136/ السّعة من الضّيق، وإن أضلّها تحيّر في السّلوك، وتوحّل في الشكوك، وقد تصوّر الغاية على الوجه المشوّق، فهو يطلبها مع المغرب والمشرق، يهجر النوم رجاء ما يكسبه[2] في عالم الرّويّة، وربما آثره لما عسى أن يقتبسه من حضرة الرّبوبيّة: [الكامل]

غُمض يحيل على السّهاد بزورة ... وكذا السّهاد على الرّقاد يُحيل
حالان أخلفتا فهل من حالة ... أخرى يكون بها إليك سبيل

فاز العارفون بهداية الصّراط المستقيم، والنهاية إلى[3] النعيم المقيم، **﴿فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين﴾**[4]، خرجوا عن العوارض النفسيّة، وابتهجوا بما انفتح لهم من الغوامض القدسيّة، **﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**[5]، شرّفهم الحق بثنائه، واستثناهم الشيطان وكانوا أغنياء عن استثنائه، **﴿إلّا عبادك منهم المخلصين﴾**[6]، إيّاهم بشّر مولاهم بالقرب منه، فإن سُؤالهم في الحقيقة هو السّؤال

(1) يريد المكان الذي أُلقي فيه قتلى المشركين في غزوة بدر ومنهم أميّة بن خلف.
(2) في ك 233: يكتسبه.
(3) في ك 233: على.
(4) الآية رقم 17 من سورة السّجدة.
(5) الآية رقم 38 من سورة البقرة.
(6) الآية رقم 40 من سورة الحجر.



عنه، **﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب﴾**[1].

ومنها: يا هذا إن كنت من أهل الأعمال فما هم على هذه الصّفة، وإن ادّعيت في أرباب القلوب فأين بهجة المعرفة، ضرب بعض المعلمين بالموسيقى وقال لتلميذه أفهمت قال: نعم، قال: ما أرى عليك سُرُور الفهم، للقلوب درجات في الرقيّ، وعلامات على السّعيد منها والشقيّ، فما اتصل منها بعالم الإبداع، حصل على حقيقة الإطّلاع، وكان تنعّمه غير مُعرّض للانقطاع، وأمّا ما انحط إلى الوهاد، وأخلد إلى جانب الكون والفساد، فإنّه عُرضة للانفعالات، ومظنّة لتبدل الحالات، وتجدّد الإستحالات، حصل الأوّل بمحلة ينأى عنها التأثّر، وأقام الآخر في منزلة آفاتها تكثر، سخرت الرّيح لموت أحد المنافقين /137/ علامة على مَمَاتِه، وقيل في الشمس والقمر إنّهما لا يكسفان لموت أحد ولا حياته.

ومنها: إذا سبقت السّعادة، تساوقت الهداية والإرادة، ومع فقدهما يثمر النقص الازدياد، ويجني على المرء الاجتهاد، إن تدانت القلوب فالمساءة تغتفر، والمسافة لا تعتبر، نافق ابن أُبَيّ[2] مع الجوار، وآمن العبّاس[3] على بعد الدّار، هذا أُكْرِهَ على الخروج إلى بدر، وذلك انخذل بثلث الناس يوم أُحُد، هاجرت نفس العبّاس وهو في منزله، ونيّة المؤمن أبلغ من عمله، ثمّ نزّهه الله عن موقف الطّلقاء، فجمع له شرف الهجرة وكرامة اللقاء.

ما أعزّ الطاعة عند أولي البصائر، وأنكد المخالفة حتّى في الظاهر، يوم بدر أعان عليه ملك كريم، ويوم السُّقيا أحيا الأرض به مَن يحيي العظام وهي رميم، حلّ وثاق الأزمّة عن الأرض المغبرّة الفجاج، وعن الأسارى وهم ليوث الهياج، فكان وسيلة العُناة ليلة تألم وما تكلم[4]، وشافع للأرض وساكنها يوم قُدّم للدّعاء فتقدّم،

(1) الآية رقم 186 من سورة البقرة.
(2) يريد عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين في المدينة المنورة على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام.
(3) يقصد العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله.
(4) كان العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ممّن خرج مع المشركين يوم بدر، فأسِر فيمن أسِر منهم، وكان الصحابة قد شدّوا وثاقه، فسهر النّبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ولم ينم فقال له بعض أصحابه: ما أسهرك يا نبيّ الله، فقال: أسهر لأنين
-

استسقى وهو في مقام الإذلال فتصرّف في القول كيف شاء، [وكان تلك الليلة في محلّ الشكوى فاكتفى بأنينه الذي ساء][1]، كان في دعاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حياء الغمام، وحياة الأنام، فحين انهلّ من القطر أغدقه وأعمّه، وادّ لو حضر ذلك اليوم أبو طالب عمّه، لم يذكر العبأس وهو إليه أقرب، وكيف يُعجبه بالسّقيا وهو من جهته أعجب وأقرب[2].

ومنها: يا هذا أما لتقصيرك حدٌّ، أما لك إلى الله مردٌّ، أما ينقضي لك في طلب الفانيّة كدّ، أنت في تدبير دنياك أصنع من سُرفة[3]، وفي أمر آخرتك أخرق من حمامة[4]، /138/ إن انبعثت لحقّ نفسك ففند في إهابك، ومتى ذهبت في شهوة بدَنِك كنت السّليك في سرعة ذهابك، أيّها المجاهر بالمعصية أتشهد أنّ من يراك يراك؟ إن قلت نعم فاحذر عاقبة اغترارك، وإن قلت لا فتأخّر قبل أن تحرق بنارك، أين أنت من رجال صدقوا ما عَاهَدوا الله عليه، وسبقوا إلى الأمد[5] الذي دَعَاهُم إليه، اشترى منهم أنفسهم المقبوضة في معترك[6] الهيجاء، ومعترك الأعداء بالجنة التي أكرم فيها مثوى الشهداء، فلمّا تمّ لهم العقد الميمون، وتميّز عندهم الثمن والمثمون، اغتبطوا بصفقة لأحد العِوَضين، فيها حكم النقد، وتنزّهوا عن طلب زيادةٍ على ما تعيّن وقت العقد، ولذلك أعرضوا عن الغنائم، ورأوا أن متاع الدّنيا مثل أحلام النائم.

---

العباس. فقام رجل من القوم فأرخى من وثاقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مالي لا أسمع أنين العباس. فقال رجل: أنا أرخيت من وثاقه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فافعل ذلك بالأسرى كلهم. ابن كثير، السيرة النبوية، ج 2، ص 462.

(1) هذه الجملة ناقصة في ك 233.

(2) في ك 233: أغرب.

(3) أصنع من سرفة: من الأمثال العربية. والسرفة دويبة صغيرة تثقب الشجر وتبني فيه بيتا. وقيل هي دودة القزّ. ويقال: واد سرف، أي كثير السرفة. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 569.

(4) أخرق من حمامة: من الأمثال العربية. لأنّ الحمامة لا تحكم عشها، وذلك أنها ربما جاءت إلى الغصن من الشجرة فتبني عليه عشها في الموضع الذي تذهب به الريح وتجيء. فبيضها أضيع شيء، وما ينكسر منه أكثر مما يسلم. الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 354.

(5) في ك 233: الأمر.

(6) في ك 233: معتكر.



ومنها: مورد الرّحمة عِدٌّ، ونور الحق لا يُحرَمه مستعدّ، المعرفة بساط عُرض للمثول، والفيض عامٌّ وإنّما الاختلاف في القبول، من مسالك العارفين ما هو أوضح وأعرف، ولهم طُرق في الوصول بعضها أوثق وأشرف، والتفاوت واقع في الممثل المحسوس، كما يقع في ما يرتسم في النفوس، عرضت الجنّة على نبيّنا عليه السّلام في عرض الحائط[1]، ووجد أنس بن النضر[2] ريحها دون أُحُد، هذا الأمي يقف من الخطّ على سواده، فأمّا القارئ فيثبت معناه في فؤاده، أدرك قومٌ شَبَحَ دِحية[3] وعرّف الرّسول عليه السّلام أنّه جبريل.

ومنها: في ذكر عثمان رضي الله عنه: لذي النّورين الكرامة المضاعفة، والسوابق المتعارفة، أيّ يدٍ كيدِه عند الفخار، وقد نابت عنها في بيعة الرّضوان يد المختار، كانت غزوة تبوك عقبة أعان على جوازها، بل /139/ عروسًا انتدب لجهازها، فنقدها جلّ ماله، واحتمل من مُؤنها ما طابت نفسه باحتماله، أنهلّ الغمام بدعاء النّبي الأمّي فتكفل للحيّ، والنبات بالخصب والرّيّ، وضمن هو إرواء النّوعين، بما يبذل[4] في بئر رومة من العين، فكان الأثر في مأثرته الكريمة، على الشطر من أثر الرّسول في سقي أدِيمة[5]، فيما سقت السّماء العُشر، وفي النّضح نصف العشر[6]، جمع القرآن جمعين: أحدهما في حفظه، والآخر عند الاختلاف في لفظه، فهو ذو النّورين، باعتبارين، أحدهما هذا المعنى، والآخر ما أفرد به من الصّهر المثنّى.

---

(1) جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم ورواه أنس بن مالك عن النبي عليه الصلاة والسلام قال:. والّذي نَفْسُ محمّد بيده لقد عُرِضت عليّ الجنّة والنّار آنفا في عُرْض هذا الحائط فلم أرَ كاليوم في الخير والشّرّ.

(2) هو الصّحابي أنس بن النضر بن ضمضم الأنصاري عمّ أنس بن مالك الأنصاري، قتل في غزوة أحد شهيداً. مشى بسيفه فاستقبله سعد بن معاذ فقال أي سعد هذه الجنة وربّ أنس أجد ريحها. قال سعد بن معاذ: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة من بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم. ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 88.

(3) هو الصّحابي دِحية بن خليفة الكلبي شبيه صورة الرّجل التي كان يأتي فيها جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

(4) في ك 233: بذل.

(5) في ك 233: الدّيمة.

(6) يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام في زكاة الحبوب: فيما سقت السماء العشر، وفيما سقي بالنضح نصف العشر.

لحى الله الطّعن عليه وقائليه، وأوجب العذاب واللّعن على قاتليه، أفّ لهم أيّ باب كسروا، وعن أي ناب كشروا، ثلّوا بمصرعه عرش الإمامة، وسلّوا سيف الفتنة إلى يوم القيامة، اعتذر إليهم بالصّحيح، فردّوا عليه بالقبيح، فوا أسفًا الملائكة تستحي من وجهه، والشياطين لا تستخفي بنجهه، بُشّر صاحباه بالجنة دون تقييد، وبُشِّر هُوَ بها على بلوى ذات ميّس شديد، فاشتركوا في أجر الشكر على الدّرجة العلياء، وانفرد هو بثواب ما التزمه من الصّبر عند البلاء.

- 235 -

## ومن إنشائه في هذا النّحو

الحمد لله الذي فتق عن أزهار الموجودات كمائم صنعته، وزيّن الفلك الدّوّار بما أشرق من كواكبه وأنار فأظهر ما خطّه قلم القدرة في رقعته، وجلا عرائس النجوم الزاهرة، سافرة عن محاسنها الباهرة، كلّ منها يعجب بخلقته، ويرفل في خلعته، فالقمر يستوفي تمامه، والمشتري يسعى أمامه، /140/ كالملك يسير في ضوء شمعته، والبروج متلألية بمواضعها، متتالية في مطالعها، وأمير الجوزاء يجوز في رفعة من أنجم منطقته، وإكليله وهقعته، وفي السّماء مصابيح النجوم، مقدّرة بقدرة الحيّ القيوم، قد تميّز البطيء منها بإبطائه، والمسرع بسرعته، وفي الأرض آيات ظاهرات، وقطع متجاورات، كلّ أفق منها يميس في شارة بزّته، ويميد في نضارة قطعته، ونشهد[1] أنه الله الذي لا إله إلا هو نوّر قلوب العارفين بما أشرق عليها من أنوار الهدى وأشعته، وحَبَاهُم من رضاه بالحلل الفاخرة، ودلّهم على طريق تجارة الآخرة، فما أسعد الفائز منهم بقبول سلعته، ووسع الخلائق بجوده وحلمه، وما نقص علم جميعهم من علمه إلا كما نقص العصفور من البحر قبل أن يجرأ على كمال جرعته.

ونشهد أن محمدا نبيّه الكريم، ورسوله الرّؤوف الرّحيم الذي شرف الوجود بميمون عزّته، ومبارك طلعته، وأدناه بالحس والمعنى، حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فيا لعُلوّ مكانه ورفعته، وأيّده بما ظهر من معجزاته ضاعف الله عليه دائم

(1) في ك 233: يشهد.



صلواته، فنَبَعُ الماء من يمينه حطم غرب الجاحدين بنبعته، وتفرق العدو وقد استبسل، وأشياع الجمع وقد استكمل، قد شهد بهما حديث رميته، وقصّة قصعته.

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين سخوا بنفوسهم في نصرته، وشدّوا أيمانهم على بيعته، ورضي الله عن صدّيق الأمة الذي ردّ إلى الإسلام والسّنة كل شارد في ردّته وبدعته، وعن فاروقها مُزيح قيصر عن مُلكه، ومُسلم كسرى إلى هلكه، بما ملأ القلوب من هيبته وروعته، /141/ وعن ذي النورين المحي ليلة الأطول خاليا مع طول قنوته وهطول دمعته، وعن أبي السّبطين الذي طرح الخاتم وهو ماض في ركعته، وطلّق الدنيا ثلاثا حتى لا يبقى لها طمع في رجعته، وعن جميع الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين ما اهتدى[1] الرّائد لطريق نجعته، وأنس السّاهد بلذيذ هجعته.

- 236 -

## فِقَرٌ على البسملة

اسمُ من علّم آدم الأسماء، اسمُ من بسط الأرض ورفع السّماء، اسمُ من كان عرشه على الماء، وقد كان ولا ماء، اسمُ من بإذنه تنزل الملائكة والروح، اسمُ من على ذكره يغدو العارف ويروح[2]، اسم من بأمره قام الدّين المشروع واستقام الصّدر المشروح[3]، اسمٌ ما أطيبه في الأفواه، وأحلاه على لسان المنيب الأوّاه، وأولاه بأن يقوى به كل عقد واهٍ، أعد عليّ يا قارئ بسم الله: [الوافر]

| | |
|---|---|
| ذكرت اسم الحبيب فهاج وجدي | وفاضت عبرتي في صحن خدّي |
| وبتّ كأن لي فوق الحشايا | حسًّى هو للأسنّة فوق حدّ |
| فأذني للعواذل ذات وقر | ونيران اشتياقي ذات وقد[4] |
| وما وجدي بمنصرم على ما مضى | من طيب أيامي بنجد |

(1) في ك 233: استوى.

(2) طباق الإيجاب بين "يغدو ويروح".

(3) جناس ناقص بين "المشروع والمشروح".

(4) جناس ناقص بين "وقر ووقد".

وجـدتك يـا نـسيم الـرّيح عـذبا — كأنـك بالعـذيب حـديث عهـدِ
أفـادك سـرّ هـذا الطيب مـسرى — هـنالك بـين بانـاتٍ ورنـدِ
ولـولا قـرب عهـدك باللّـوى لـم — تجـد هـذا القـبول علـيك عـندي
فطارحنـي لـساكنه حديـثا — كمـاء المـزن ممتـزجا بـشهد[1]
وعَلّـل بالمنـى صَـبّا كئيـبًا — أسـيرَ جـوًى قتـيل نـوى وبُعـدِ
/142/ يعزّ عليه عيش ليس يحظى — مـن الأحـباب فـيه ولـو بـوعدٍ[2]
فـيا ربّ الأنـام وأنـت مولـى — لعـزّته ضـراعة كـل عـبدِ
بفـضل نبـيّك الهـادي تجـاوز — بعفـو منك عـن خطئي وعمـدي

اللهم صلّ عليه من نبيّ توّجته بتاج الكرامة، وشرّفته في دار المقامة، وخصّصته بالمقام المحمود يوم القيامة، صلّوا على من رأى من آيات ربّه الكبرى، صلّوا على من أعطي صكّ[3] ﴿سبحان الذي أسرى﴾[4]، وخرج إليه توقيع ﴿ونيسّرك لليسرى﴾[5].

-237-

## فِقَرٌ على آي من القرآن

لقد علا قدر هذا النبيّ الهادي، وغطّى على الأنوار نوره البادي، وأين من ناداه ربّه بالوادي، ممّن أحضره عنده في النادي، تأمّل ما جرى واعرف ما اتفق، ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾[6]، سماء الهداية فوقك فارجع البصر كرتين[7]، وأنت

(1) في ك 233: يطارحني.
(2) في ك 233: بعهد.
(3) كلمة "صكّ" ناقصة في ك 233.
(4) الآية رقم 1 من سورة الإسراء.
(5) الآية رقم 8 من سورة الأعلى.
(6) الآية رقم 1 من سورة العلق.
(7) إشارة إلى الآية رقم 4 من سورة الملك.



أبدا لديغ الهوى والمؤمن لا يلدغ من جحر مرّتين[1]، الدنيا ضرّة[2] الآخرة ولا يطيب عيش بين ضرّتين، يا سلمان الحيرة متى ترشد إلى ذات النخل بين حرّتين[3]، خلِّ سدفة الرهبان بالنبوّة باهرة[4] الفلق، ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، يا ساعيا في هلاكه وقد كاد، تالله لو كان سعيك في النجاة لما زاد، ارض بالمنقطع إن حُرمت الإسناد، هيهات لا تدعك شدّة الفرق، ﴿إقرأ باسم ربّك الذي خلق﴾، قصّرت في طلب الماء وما تحسن أن تتيمّم، وغرّتك السّلامة وحسبك داءً أن تسلم، لا أنت مع مَن علم ولا مع مَن تعلّم، إن ركنت إلى نادي أبي جهل أخذتك زبانية جهنم، إن لم تبلغ درجة من فاز وسبق، فلا تحرم منزلة /143/ أفلح إن صدق: [الرجز]

هـل مـن آسٍ علـى سقامي يقـف — هـل مـن نـاس[5] يكـف دمعًـا يكـف
مـن بعـدكم لقيت مـا لا أصـف — جـنب يتجافـى وفـؤاد يجـف
مـا لـيل محـبكم بلـيل الـنائم — هـيهات مـنام ذي الفـؤاد الهـائم
قـد أقلقنـي هـذا الغـرام الـدائم — والـوجد يـزيد فـيه لـوم اللائـم[6]

يا من كوم الغفلة فاتك طيب الأزهار، يا راقد الطبع أين أنت عن نسيم الأسحار، يا أعمى الهوى غاب عنك وضح النهار، طالت غيبتك عنا فأيّ يوم تكون في الزوّار: [الرجز]

(1) يريد الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه ورواه أبو هريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: لا يُلدَغُ المؤمن من جُحر واحد مرّتين.
(2) تشبيه بليغ للدّنيا بالضرّة.
(3) يشير إلى قصة إسلام الصحابي سلمان الفارسي الذي ظل يتنقل من راهب إلى آخر بحثا عن الحقيقة حتى دلّه آخرهم وهو راهب عمّورية على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: أي بني، والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرّتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. ابن كثير، السيرة النبوية، ج 1، ص 300.
(4) في ك 233: ظاهرة.
(5) في ك 233: ياس.
(6) جناس ناقص بين "الدّائم واللّائم".

أشواقكم من بعدنا أشواقنا ... أم هل لما معكم فتور تناس
ولعمركم إنّ اصطباري بعدكم ... في ذمّة تشكو من الإفلاس
هي فاقة منه ومن عهد الرّضى ... أفعندكم بهما الغداة مواسِ
لا العيش حين فقدتكم عيش ... ولا ناس أراهم بعدكم بالنّاس
حبّي لكم أنا واقف مع نصّه ... والباب عندي ليس باب قياس
وأرى مثيرات الأسى بجوانحي ... فِكَرا لتبلواها يعزّ الآسِ
وأنت على قلبي فها أنا عائذ ... بالله من وسواسها الخنّاس
الله يعلم أنكم في وحدتي ... عنكم أحاديثي وفي جُلّاس
مالي غنى عنكم وإن بَعُد المدى ... أو للنفوس غنى عن الأنفاس
نادمتكم والأنس قهوتنا فهل ... بقيت لديكم فضلة في الكأس
وصحبتكم والعيش غضّ فاسمحوا ... بصبابة من مزنه الثجّاس
ولقد ذوت أغصانه عندي فهل ... معكم جنًا من غصنه الميّاس
حالٌ على كذب الرجاء بها وإن ... أثرته أقضى لصدق اليأس

العمر قد مضى ولم يبق إلا[1] القليل، وأنت تعيش بالمنى والتعليل، يا غاديا لهدم كعبة القلب ألم نجعل كيدهم في تضليل[2]، لقد /144/ أقدمت على الفلاة بلا دليل، واقتحمت النار وما أبعدك عن قوة عزم[3] الخليل، أين الإخوان والأتراب، طاحوا والله وأكلهم التّراب، وأرمّت العظام وعفا الخراب، بينا البلبل يغرّد إذ نعب الغراب، وفجئت الفجيعة فما لذ النوم ولا ساغ الشراب:

صاح بهم صائح الرّحيل فما ... فيهم على البين واحد سلما
وجاس بالرّوع عقر دارهم ... من بعد ما كان سربهم جرما[4]
فهم عباديد في البلاد ولا ... شمل لفلّ الخطوب منتظما

(1) في ك 233: غير.
(2) الاقتباس من الآية رقم 2 من سورة الفيل.
(3) كلمة "عزم" ناقصة في ك 233.
(4) في ك 233: حرما.



قد أقسم الدّهر أن يهزمهم ... وجنّب الحنث ذلك القسما[1]
يا سائلي عن بكائي بعدهم ... بكيت دمعا حتى بكيت دما[2]

يا هذا كم ذا التعلّل بالمنى، والقول أنا وأنا، وهذا الرّحيل قد دنا، والباني قد شرع في هدم ما بنا، يا ويل المُقتني والمُقتنى، يا أسف الجاني على ما أسلف وجنا، إن حلتم عن عهدنا فلا تقطعوا بيننا الأسباب، وإن منعتم الدّخول فلا تبرحوا عن[3] الباب، واظبوا عن التقاط القشر رجاء أن تدركوا اللّباب، وعلى كلّ حال فالهجر عند العشاق، أخفّ من الفراق:

أحباب فؤادي كم أقاسي الضرّا ... لا صبرَ على فراقكم لا صبرا
عودوا للمغاني وأعيدوا الهجرا ... قد مِتّ وقربكم حياة أخرى

-238-

## وقال يتشوّق إلى أحد إخوانه

[الخفيف]

كلّ شيء من الحبيب حبيب ... وبذكر اسمه زماني يطيب
سقمي قد عرفته ثم مالي ... غير[4] ذكر الذي ذكرت طبيب
فيه يستفيق صبّ معنّى ... وإليه يرتاح قلب كئيب
/145/ يا حبيبا نأى أيأتي زمان ... فيه للمستهام منك نصيب
إن تعجّبت من بقائي يوما ... بعدما غبت إنه لعجيب

(1) في ك 233، وفي الذيل والتكملة، 1/5، ص 355: يمزّقهم.
(2) سترد هذه الأبيات مكرّرة في الرسالة رقم (263) من هذا السفر.
(3) في ك 233: من.
(4) في ك 233: عند.

- 239 -

## قصيدة بمناسبة شفاء أبي علي بن خلاص صاحب سبتة من مرض

[الكامل]

هبنا مجاراة الجياد فلا عجب ... إن لم نقم للمعلوات بما وجب

وبدا لنا تقصيرنا عنهم فلم ... نر جرينا معهم يعدّ من الأدب

حتى إذا بلغوا المدى وتراجعوا ... بين الرّخيّ البال والمرخي اللّبب

حُمنا على ما أسأروه فلم نجد ... ماءً به يبقى لمستسق أرب

وغريبة من قال فيها إنها ... في جنسها[1] أمّ الغرائب لم يُعَب

إنّا قعدنا مقعد استحسانهم ... هذا أجاد وذاك نقّح ما كتب

ومن الذي ولّى الحكومة في القنا ... خطّية من لا يطاعن بالقصب

فلئن جزونا في الذي يُروى لهم ... عنّا بإغضاء شكرنا من كثب

أو كانت الأخرى فما منّا وإن ... عادُوا سوى عود بجنبيه حلَب

الحمد لله الذي آلاؤه ... بالحمد تشفع بالمزيد وتجتلب

أبقى علينا سيّدا فيه المُنى ... وبه الغنى لا باللّجين ولا الذهب

وأتمّ نعماه ومدّ ظلالها بشفاء ... ذي نعمى بها تشفى الكرب

لأبي علي في المعالي رتبة ... عنها بطول الرغم تنحط الرّتب

[ومذاهب] في الفضل غير خفية ... أربى على الموروث منها المكتسب[2]

فخرت قضاعة منه بالقوم الذي ... ينهى بها لأجلّ بيت في العرب

وسمت به فوق الكواكب همّة ... هي للمنى تسمو لها أقوى سبب

يا ماجدا تفديه منّا أنفسٌ ... وجدت لها بذراه أكرم منقلب

لا عادت الشكوى إليك فإنّها ... شكوى ألمّت بالمكارم والحسب

وتجاوزتك النائبات فما نرى أحدا ... سواك يجير من صرف التّرب

(1) في ك 233: حسنها.

(2) في ك 233: مواهب.



/146/ الله أعطانا سلامتك التي ... بحصولها للطالب انقطع الطّلب

بل أنت موهبة الإله حكت لنا ... بنداك أن من المواهب ما يهب

- 240 -

## وله من قصيدة

[الوافر]

إذا ما كنت مسرورا بهجري ... فإنّي من سرورك في سرور

وإن لم ترض ذكرك في لساني ... غلبت عليه مضطرا ضميري

وما غير الصدى شافٍ لقلبي ... إذا حلأت[1] عن عذب النّمير

ولست أراك تنكر أنّ عندي ... هوى يلقى هواك بلا نكير

أخلت سواك أضرم حرّ وجدي ... أغير الشمس مضرمة الهجير

ومن نظري إليك يفيض دمعي ... كذا شأن البدور مع البحور[2]

وما غرّ الفؤاد غداة ريشت ... له اللحظات بالرّشاء الغرير

ومن لي باهتصاري خوط بانٍ ... حراسته إلى الأسد الهَصُور

حبيب إن أشار بقبض نفسي ... برئت بها إلى كف المشير

سقاني بالكبير الحبّ صرفا ... فما أنكرت من طرب الكبير

وقد سفر الهوى منه لقلبي ... فكيف رأيت فعلي بالسّفير

أقمت بجنة منه ولكن من ... الأحشاء ألقى في سعير

ولي نظر وراء الدمع أرمي ... به فيحار في خطر العبور

[وبيعته] اشتياقي مثل حاد ... حثيث السّير يحدو بالحسير[3]

فكان كرنّح الهمم استقلت ... بما شامته من فضل الأمير

(1) في ك 233: جلأت.

(2) جناس ناقص بين "البدور والبحور".

(3) في ك 233: يبعثه.

- 241 -

## رثاء أبي القاسم محمد بن أبي علي بن خلاص الذي مات غريقا(1)

[الكامل]

هـل يعلـم الناعـي غـداة نعـاه ... أنّـي ولـم أكذبـه مـن صـرعاه
/147/ ألقى بها شنعاء من ألقى لها ... سـمعا بأفجـع حـادث يلقـاه
وأتـى بـه خبـرا وددنـا أنـه فـي ... لفظـه خطـل وفـي معـنـاه
بُعـدا لـه مـا فـاه إلا بالتـي ... دهـيت بـه الأسـماع والأفـواه
أجرى الدّموع كأنها سبل الحيا ... بحديـثه ذاك الـذي أجـراه
ورَمَـى فـلا قلـب حمته ضلوعه ... إلا وقـد أصـماه حـين رَمَـاه
فحشا الحشا لهبا لدمع فـاض ... مـن عيني قـد استحييت لـو أطفاه
ودَجَى الصّباح بمقلتي فتحرّجت ... عـن نظـرة تختار غيـر دجـاه
أفّ لدنيا لـيس يهـواها امـرؤ ... إلّا جـزته بـضدّ مـا يهـواه
سمها إذا أعطتك صفقة عهدها ... غيـر الـوفاء فإنهـا تأبـاه
واستغن عنها ما استطعت فإن ... فـي فقـر الفتـى منها يكـون غناه
إن الـذي فـيها يـرغّبه إذا لـم ... يعمـه أهـل لأن يـنهاه
والعمـر لمحـة بـارق لا بعـد فـي ... أدنـى مـداها عـن طـويل مـدَاه
وحـياة صـاحبه تمـرّ كأنمـا ... فـيها يمـثل مـا يـراه(2) كـراه
لا فـرق بـين حديـثه عمـا جـرى ... فـي حـال رؤيتـه وفـي رؤيـاه
عجبًا لمـن يغتـرّ بالدنـيا أمَـا ... صـدَقته عـن غاراتهـا دنـياه

(1) في سنة 643 هـ/1245 م بايع أهل اشبيلية وأهل سبتة الأمير أبا زكرياء الحفصي، فبعث أبو علي بن خلاص صاحب سبتة هدية مع ابنه أبي القاسم محمد إلى الأمير أبي زكرياء بتونس في أسطول كان قد أنشأه، ولكن هذا الأسطول غرق في البحر بعد إقلاعه وهلك فيه أبو القاسم والكاتب أبو اسحاق إبراهيم بن سهل وكلّ من كان فيه. ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين؛ ص 378. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 305.

(2) في ك 233: رآه.



وبَلَـى لقـد صـدَقته لكـن حـبّها ... عمّـا وعـاه بقلـبه ألهـاه
والحبّ داء كـم أصـمّ أخـا النّهـى ... عمّـا يـراد بـه وكـم أعمـاه
فـي كـل يـوم للـرّزايا غـارة ... جـيش الـرّدى فـيها يسل ظباه
وبكـل ربـع للمـنايا وقعـة ... تغشاه بالخطـب الـذي يخشاه
أفـبعد رزء ابـن الوزيـر مـصيبة ... جلـد الجلـيد بهـا تهـدّ قـواه
أو قـبل مـصرعه لمطـرور الأسـى ... وقـع تقـد الـشابري قـناه
هـذا هـو الـرّزء الـذي لا حـادث ... فـيما مـضى إلا وقـد أنـساه
هذا هو الخطب الذي بين الحشى ... ضـرَمٌ لـه شـبّت هـناك لظـاه
/148/ أودى الـرّدى بفتـى عهـدناه ... ومـن قمـر الـسّماء سـناؤه وسـناه
أودى بمقتـبل الـشبيبة مـرتّقٍ ... بـين الكهـول بفـضله وحجـاه
أودى بفـرع للـسيادة لـم يـزل ... للائـذين بـه يلـذ جـناه
مـن كـان تـسمو للعلـى عيـناه ... وتـصمّ عـن سـمع الخنـى أذنـاه
يـا حسرتي يـا ابـن الكرام عليك ... مـن مـاض بـلا عـود وياحـزناه
تفـديك نفـسي يـا محمـد سـيدًا ... أمـل لنفـسي لـو تكـون فـداه
تفـديك نفـسي يـا محمـد ماجـدًا ... بفعالـه المحمـود شـاد عُـلاهُ
تفـديك نفـسي يـا محمـد واحـدًا ... جـدوى الجمـوع أقـل مـن جـدواه
مـا أنـس لا أنـس الوقـوف إزاءه ... يـوم الـوداع وقـد همـت عيـناهُ
بـشرٌ يخالطـه الوجـوم كلاهمـا ... مـن ناظـر أو ظاهـر أبـداه
وتجلّـد لـم تـستطعه لـرقة قـد ... كـان أرصـدها لـيوم نـواه(1)
أذكـت لظـى الأحـشاء لـيلة فقـده ... إن كـان يـوم وداعـه أبكـاه
يـا وحـشة الأيـام بعـد محمّـد لمّـا ... خـلا مـن شخـصه معـناه
وَارَحْمتـى للمجـد راسـيه هـوَى ... بنـيانه وانقـضّ مـن أعـلاه
مـا كـان إلا البـدر شـخص محمّـد ... عـند الكمـال محاقـه وافـاه(2)

(1) في ك 223: يستطعه.

(2) تشبيه بليغ شبّه في البيتين شخص وجه المرثي بالبدر والنور.

- 241 -

## رثاء أبي القاسم محمد بن أبي علي بن خلاص الذي مات غريقا[1]

[الكامل]

هل يعلم الناعي غداة نعاه ... أنّي ولم أكذبه من صرعاه

/147/ ألقى بها شنعاء من ألقى لها ... سمعا بأفجع حادث يلقاه

وأتى به خبرا وددنا أنه في ... لفظه خطل وفي معناه

بُعدا له ما فاه إلا بالتي ... دهيت به الأسماع والأفواه

أجرى الدّموع كأنها سبل الحيا ... بحديثه ذاك الذي أجراه

ورَمَى فلا قلب حمته ضلوعه ... إلا وقد أصماه حين رَمَاه

فحشا الحشا لهبا لدمع فاض ... من عيني قد استحييت لو أطفاه

ودَجَى الصّباح بمقلتي فتحرّجت ... عن نظرة تختار غير دجاه

أفٍّ لدنيا ليس يهواها امرؤ ... إلّا جزته بضدّ ما يهواه

سمها إذا أعطتك صفقة عهدها ... غير الوفاء فإنها تأباه

واستغن عنها ما استطعت فإن ... في فقر الفتى منها يكون غناه

إن الذي فيها يرغّبه إذا لم ... يعمه أهل لأن ينهاه

والعمر لمحة بارق لا بعد في ... أدنى مداها عن طويل مدَاه

وحياة صاحبه تمرّ كأنما ... فيها يمثل ما يراه[2] كراه

لا فرق بين حديثه عما جرى ... في حال رؤيته وفي رؤياه

عجبًا لمن يغترّ بالدنيا أمَا ... صدّقته عن غاراتها دنياه

---

(1) في سنة 643 هـ/1245 م بايع أهل اشبيلية وأهل سبتة الأمير أبا زكرياء الحفصي، فبعث أبو علي بن خلاص صاحب سبتة هدية مع ابنه أبي القاسم محمد إلى الأمير أبي زكرياء بتونس في أسطول كان قد أنشأه، ولكن هذا الأسطول غرق في البحر بعد إقلاعه وهلك فيه أبو القاسم والكاتب أبو اسحاق إبراهيم بن سهل وكلّ من كان فيه. ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص 378. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 305.

(2) في ك 233: رآه.



وبَلَى لقد صدّقته لكن حبّها ... عمّا وعاه بقلبه ألهاه

والحبّ داء كم أصمّ أخا النّهى ... عمّا يراد به وكم أعماه

في كل يوم للرّزايا غارة ... جيش الرّدى فيها يسل ظباه

وبكل ربع للمنايا وقعة ... تغشاه بالخطب الذي يخشاه

أفبعد رزء ابن الوزير مصيبة ... جلد الجليد بها تهدّ قواه

أو قبل مصرعه لمطرور الأسى ... وقع تقدّ الشابري قناه

هذا هو الرّزء الذي لا حادث ... فيما مضى إلا وقد أنساه

هذا هو الخطب الذي بين الحشى ... ضرَمٌ له شبّت هناك لظاه

/148/ أودى الرّدى بفتى عهدناه ... ومن قمر السّماء سناؤه وسناه

أودى بمقتبل الشبيبة مرتّقٍ ... بين الكهول بفضله وحجاه

أودى بفرع للسيادة لم يزل ... للائذين به يلذ جناه

من كان تسمو للعلى عيناه ... وتصمّ عن سمع الخنى أذناه

يا حسرتي يا ابن الكرام عليك ... من ماض بلا عود ويا حزناه

تفديك نفسي يا محمد سيدًا ... أمل لنفسي لو تكون فداه

تفديك نفسي يا محمد ماجدًا ... بفعاله المحمود شاد عُلاهُ

تفديك نفسي يا محمد واحدًا ... جدوى الجموع أقل من جدواه

ما أنس لا أنس الوقوف إزاءه ... يوم الوداع وقد همت عيناهُ

بشرٌ يخالطه الوجوم كلاهما ... من ناظر أو ظاهر أبداه

وتجلّد لم تستطعه لرقة قد ... كان أرصدها ليوم نواه[1]

أذكت لظى الأحشاء ليلة فقده ... إن كان يوم وداعه أبكاه

يا وحشة الأيام بعد محمّد لمّا ... خلا من شخصه معناه

وَارَحْمتى للمجد راسيه هوَى ... بنيانه وانقضّ من أعلاه

ما كان إلا البدر شخص محمّد ... عند الكمال محاقه وافاه[2]

---

(1) في ك 223: يستطعه.

(2) تشبيه بليغ شبّه في البيتين شخص ووجه المرثي بالبدر والنور.

مـا كـان إلا الـنور وجـه محمّـد    أودى بـه القـدر الـذي أخفـاه
طـال انـتظار إيابـه مـن غيـبة    لا نهـتدي فـي لـيلها ودُجـاه
أتـرابه حـضروا فـأين نديّـه    وعفاتـه انتظـروا فـأين نـداه
ومعاهـد قـد كـان بـدر سمائها    عـبث الكـسوف بـنورها ومحـاهُ
خانـته سـابحة حسبنا أنهـا    تـردى بـه وعـثارها أرداهُ
فـي حـيث لا كـفٌّ إلـى منجاته    تهـوي ولا أذن إلـى نحـواهُ[1]
بـل فـي خضمٍّ تحت لـيل منهما    ومـن الـشدائد تلتقـي الأشـباه
يـا بحر مـا أدهى عقوقك عـندما    أنكلـت[2] عـن عمـد أخـاك أباهُ
/149/هو دُرّة قد حازها عِوضَ الذي    مـن درّه فـيما مـضى خُـزّناهُ
ولقـد مـضى عـنّا بـصفقة غـابنٍ    فـيما تـناوله ومـا أعطـاه
أمحمّـد مـا أنـت أوّل مـن دعـا    ربّ الـورى فأجـاب حـين دَعـاه
هـي غايـة لا حـيّ يحبس دونهـا    مـنّا ولـو فـي العـيش مُـدَّ مـداه
فاذهـب كمـا ذهـب الـوفاء فإنـه    كـان الغـريب وأنـت كـنت أخـاه
وأبـو علـي إن تعـزّيه العُلـى    فـالله جـلّ وعـزّ قـد عـزّاه
وكـتابه نعـم المُعـزّي وعـدُه    ووعـيدُه لمـن اهـتدى بهُـداه
جـلّ المـصاب فـلا نهـوّنه وقـد    ألقـى كلاكلـه بـنا رضـواه
لكـن نقـول هـو القـضاء ومالـنا    مـن مخلّـص عمّـا قـضاه الله
مـا مـات نجلك يـوم سافر عـنك    بـل يـوم استهل وأبـصرت عيـناه
والبحـر إن يهلـك بـه فحـياته    فـي بحـرها قـد كـان مـن هلكـاه
فاصـبر أخـي فللمـصائب لـوعة    فـاز الـذي بـثوابها تغـشاه
وسـقى الغـريب بـل الغـريق مـن    الرّضـى مـا يـرتوي مـنه إذا يُـسقاه
والله يـا أملـي ولـيّك إنـه    لا صـرف عـن أمـلٍ لمـن والاهُ

(1) في ك 233: نجواه.

(2) في ك 233: أثكلت.



– 242 –

## رسالة في التشوّق إلى الهجرة والانتقال إلى تونس

عـتب الـزمان علـيه حتـى أعتـبا    وأتـاه يجلـو العـذر عمّـا أذنـبا[1]

عـبد الحـضرة العلـية أبقاهـا الله تأخـذ عطايـا الفـتح مـسلّمة، وتتلقـى أمـداد النـصر مُـزْدفة ومـسوّمة، يقعـد مـن صـريح العـبودية لهـا بـين الـسّحر والنحْـر[2]، ويقـبّل مـا بينه وبينها مـن بـساطَي البـرّ والبحـر[3]، ويرتجـي مـن القبول وطـوله، مـا إذا تخطـى إليـه مـن قـوله، فـذلك مجمـوع أمالـه مـن دنـياه، وطلـوع إقـباله الـذي تنـسّم ريّـاه فأحـياه، ولا أمـل للعـبد يـدخل فـي /150/ زمـرته، ويقـرن حـجّ الـرّجاء بعمـرته، إلا أن تـتم لـه هجـرته، وينتهـي عملـه مـن أيـن ابتدأت فكـرته، وإنمـا عـين المُـدلج إلـى واضـح الـصباح، وسـؤال المجـدب عن لواقح الريّاح.

ومـنذ أمكـن الـتخلّص مـن قـيد الـضرورة، وانحـتمت عـزيمة الحـج علـى الـضرورة، جعـل العـبد إلـى الـباب الكـريم وجهـه، ولـم يـر جـزاءً لـصلاة الخلـوص لـو أنهـا عـن منكـر الـنكوص لـم تـنهه، فماطلـت الأحـوال غـريما ملحًـا، ومـسيمًا مـن حالـه ممرضـا وبنيـته وبـصيرته مـصحا، والبحـر تجـيش مجاريـه، وتخـيس بالعهـد جـواريه، ومـازال يتوعّـر فـي أيـده وقهـره، ويـتوعّد بـضيق صـدره وعـدو ظهـره، وعـند صـدر الأسـطول المـبارك كانـت النـية فـي الـورود، والتقـضي[4] عـن عهـدة القعـود، فـإذا لكـل حاملـة تمـام، وعلـى كـل

(1) بهذا البيت استهل المؤلف قصيدته التي مدح بها أبا زكرياء الحفصي. انظر القصيدة كاملة في الرّسالة رقم (66) من السّفر الأول.

(2) جناس ناقص بين "السّحر والنّحر".

(3) طباق الإيجاب بين "البرّ والبحر".

(4) في ك 233: التفصّي.

مستودع ختام[1]، وأولات الأحمال قد أدّاها الحمل، ونادى دودها من ركب عودها يأيها[2] النّمل، وسوّى القسم بين الضرائر فما أنكر التساوي، ولم يخطئ من قابل قول: اركب معنا بجواب سآوي[3]، فلم يكن بدّ من البقاء إلى مدّة مزجاة، تحت عدّة مرتجاة.

– 243 –

## وله من رسالة إلى أبي علي بن خلاص[4]

وكنت بعد بيعة مكناسة[5] خرجت بنيّة الهجرة التي ولجت بابها، ومهّدت إلى أسبابها، وأقبلت إلى هذه الوزارة المباركة أدام الله علاءها مستظهرا بمقدمات سعيها، ونتائج رأيها ورعيها، فذكرَت حركتي على وجه وافق الغرض، لولا إبطاء فيه عرض، وعندما صدر الأسطول المبارك تجدّد رأي أشبه الارتجال، في أن يحملني والعيال[6]، فإذا السّطور مقربات... [7].

(1) إلى هنا ما تقدّم ورد مكررا في الرسالة رقم (66) من السفر الأول.

(2) في ك 233: يأيّتها.

(3) يشير إلى الآيتين رقم 42 و43 من سورة هود.

(4) كان أبو علي بن خلاص قد كتب في شأن ابن عميرة رسالة إلى الأمير أبي زكرياء الحفصي يخبره فيها بعزمه على الحركة إلى تونس، فتلقى الدعوة من الأمير المذكور ولكنه لم يتمكن من تلبيتها بسرعة كما كان يريد.

(5) من المعروف أنّ هذه البيعة تمّت في 20 ربيع الأول سنة 643 هـ/1245 م كما جاء في آخرها وقد تقدّمت في الجزء الأول.

(6) حول عدم تمكّن المؤلّف من السفر في الأسطول الحفصي من سبتة إلى تونس انظر رسالته الأخرى الواردة في هذا المعنى تحت رقم (112) من السفر الأول من هذا الكتاب.

(7) الرّسالة مبتورة النهاية لسقوط ورقة من المخطوط تحمل رقم 79 حسب الترقيم القديم للمخطوط.



– 244 –

## [رسالة عن الوزير أبي علي بن خلاص إلى الفقيه أبي بكر بن محرز][1]

والودّ أدام الله عزتكم بُردُه المحبّر وعهده المحبّب، وأواصره المستحكمة سبب لا ينفك عنه المسبّب، وما سببه يعلم الله بواحد، ولا شريعته لكل وارد، بل هو المصون في حرز مثله، المضنون به على غير أهله، فإنّ شائبة شابت، ونائبة قيل إنها نابت، فالدليل لا تمنع الشبهة من قيامه، والماء الكثير لا ترفع القلّة شيئا من أحكامه، وكم يسارة اعتبرها الشرع معفوة، ولم ير لها في تغيير الحكم قوة، ومُوثركم أدام الله عزتكم أولى الناس بالثبوت على عهدكم، والثقة بكريم وُدّكم، وقد مضى ما مضى، وثبت اللزوم في العقد بما دلّ على الرّضا.

وكان ابنكم المبارك أبو فلان[2] ][3] /151/[4] قد وصل هذا الموضع[5] بنيّة

(1) هو الشيخ الفقيه أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن سليمان الزهري المعروف بابن محرز (569–655 هـ/1173–1257 م)، من أهل بلنسية قرأ عل علماء الأندلس وأجازه بعض أهل المشرق. كان أحد رجال الكمال علما وإدراكا وفصاحة، مع الحفظ بالفقه والتفنن في العلوم، والمتانة في الآداب وحفظ اللغات والغريب، وله شعر رائق بديع. رحل إلى بجاية بعد سنة 640 هـ/1242 م واستوطنها فكانت تقرأ عليه الكتب الفقهية وكتب الحديث وكتب اللغة والأدب. كان رأس الجماعة الأندلسية وشيخها ببجاية، كلّ كان يأتي إلى منزله وعنده مجتمعهم كابن الأبار وابن سيد الناس وابن الجنان وابن عميرة نفسه بعد التحاقه ببجاية. ابن الأبار، التكملة، ج 2، ص 153. تحفة القادم، ص 206 وما بعدها. الغبريني، عنوان الدراية، ص 241 وما بعدها.

(2) ترك ابن محرز بعد وفاته ولدين هما أبو عامر وأبو جعفر، وقد أشار إليهما الغبريني في معرض حديثه عن جنازة والدهما عندما تأخر الإمام عن صلاة الجنازة. الغبريني، المصدر نفسه، ص 243. ولسنا نعرف أيّ الولدين المقصود هنا لأنّ الناسخ أو جامع الرسائل تصرّف في الاسم. وانظر عن الولد الثالث الذي مات قبله الرسالة الموالية.

(3) الزيادة من ك 233 بسبب ضياع الورقة رقم: 79.

(4) وُضِعت هذه الورقة خطأ في آخر المخطوط حسب الترقيم الجديد، فأعدناها إلى ترتيبها الصحيح هنا وهو رقم 80 حسب الترقيم القديم للمخطوط.

(5) يريد مدينة سبتة.

اللحاق بكم فأقام به مدّة قرّة عين المعاين، سافر وجه المحاسن، مقيما كأنه في وطنه، مقدّما عند الطلبة بكمال أدبه وذكاء فِطَنِه، كلّ يقول فرع من ذلك الأصل بسق، ونجيب إذا حضر الرّهان سبق، ولقد فاوض فيما تقدّمت الإشارة إليه مفاوضة صادف وقت الحاجة بيانها، ودلّ على صحيفة الخلوص عنوانها، وسيرد عليكم منه إن شاء الله ما[1] يسرّكم بطلعته، ويشرح لكم الأحوال بالبيان الذي أخذ عنكم علم صنعته.

-245-

## رسالة عزاء إلى الفقيه أبي بكر بن محرز في ولده

كتابي إلى سيّدي وإمامي، دوري عند أوامي، وظهيري على أيّامي، أنسأ الله أجله، وهنّأه من سبل المعارف ما نهج[2] له، من فلانة وتعظيمي لقدره على علمي به، ولزومي أدب القيام بحقه ممّا أخذت من تأديبه، والأيّام وإن عاقت وعقّت، وقست وما رقّت، وأبعدت خِلّا أوجب إعظامه، وفرّقت شملا ما كان أحسن نظامه، فذلك عهد للنفس إليه التفات الرّؤوم إلى الواحد، وكلف الظمآن بالعذب البارد، وفيما تمثل به بعضهم: [الطويل]

فإن كنت عنّي سائلا أو محدّثا ... فعودي على مرّ الزمان صليب

وأنا فلا عودي صليب، ولا صدري رحيب، ولا أفادني تجريب، أشكو إلى الله أمورا أتمّها مضاء العمر في التّرّهات، ورعي الخاطر مراعي الشبهات.

ومما زادني شجنا إلى شجن، وأبكاني وحدي لا مع ورقاء على فنن، ما بلغني من وفاة /152/ الابن النجيب فلان[3] رحم الله غربته، وسقى تربته، فإنها اشتقّت سُؤرَ جلدي، وصدعت أشعار كبدي، وأثكلتني نجيبا كنت تبيّنته، أنيسا كم أشتقته في مواطن الغربة وتمنيته، وإني لأقدر موقع رزءه من فؤادكم، ثم أرجع إلى معرفتي بطاعتكم للآداب الشرعية وانقيادكم، فأعلم أن الصبر درَعتم، وإلى جانبه

(1) في ك 233: من.
(2) في ك 233: جنح.
(3) واضح من كلام ابن عميرة أنّ ابن محرز كان له ولد آخر مات قبله.



انقطعتم وللأمر به والمثيب عليه أطعتم.

وإن فاتت سنّة العزاء عند الصّدمة النازلة، لم يفت رسم الهناء بالمثوبة الآجلة، بل وبأخرى هي من عاجل بشرى المؤمن، وفي قسم الإحسان الذي[1] هو جزاء المحسنين[2]، وهي قرة العين بهذا الولد[3] النجيب المبارك أبي فلان طلع منه علينا بهذه البلدة غصن من تلك الدّوحة، مغبرُّ القدم في سبيل العلم بين الغدوة والروحة[4]، فما ترك عينا إلا ملأها، ولا شبهة إلا درأها، ولا مرقاة تزلّ عنها الأقدام إلا ارتبأها، وبالمشابه فيه من أبيه أرّتناه وشبابه في عنفوانه، وأتحفتنا به ناطقا بلسانه، مغترفا من بحر بيانه، ما شاء من لؤلؤه ومرجانه[5].

وكم أراد اللحاق بكم والأحوال تشدّ مذاهبه، والبحر يمنع جانبه، طورا يقال مطاياه تندّ عن الرّكب، وتارة سلاليره[6] هي كالسّنانير[7] في سرعة الوثب، حتى صدر الأسطول المبارك وفيه بحمد الله أمكن السفر، وأكتب الظفر، وشكرا لهذه الوزارة المعظمة[8] فإنها أحسنت قولا وعملا، وسقت نهلا وعللا، ورعت في هذا الولد المبارك حقين: حقا له وجب قبل أن يستكمل سنه، وحقا لوالده وإنه وإنه، وقد فاوضها مفاوضة حسنة أثبت فيها ومَحَا، وأجاد الإعراب في نحوه الذي نَحَا، وهو إن شاء الله يُطلع /153/ عليكم السّرور ببهجته، ويشرح لكم الأمور بلهجته، زاد الله عينكم به قرة، وأبقاه في وجه الزمان غرّة، وهو تعالى يديم حياتكم، ويضاعف لكم الخلف بما أبقى لكم عما فاتكم بمنّه.

(1) في ك 233: إليه.
(2) في ك 233: المحسن.
(3) هو الولد المشار إليه في الرّسالة السابقة.
(4) طباق الإيجاب بين "الغدوة والرّوحة".
(5) في ك 233: من جمانه.
(6) السّلالير مفردها سلّورة، وهي مركب متوسط الحجم، يُستخدم في الحرب والسّلم، وله ثلاثة أشرعة وأربعون مجذافا، وقد سُمّي بهذا الإسم لأن شكله يشبه شكل السلار وهو نوع من الطيور. المجالي سحر، تطور الجيش العربي في الأندلس، ص255.
(7) مفردها سنّور وهو الهرّ.
(8) يريد الوزير ابن خلاص صاحب سبتة.

-246-

## رسالة إلى أحد إخوانه انقطعت عنه كتبه

كتبته أيها الأخ الكريم، والوليّ الذي بحقّ ودّه[1] التقديم، وعلى حفظ عهده أقيم، أبقاكم الله في عزّة حماها ممنوع، وثنايا للأماني منها طلوع، والودّ منطق هذّبته العبارة الحجازية، أو معنًى تجنبته الألفاظ المجازية، وكانت كتبكم المبرورة في هذه المدة السالفة وردت أرسالا، فأوردت من معينها سلسالا، وشفتني جوابا فيما قدّمتُ عنه سؤالا، ثم كان ورودها أغبّ، ووجيفها دبّ، وفئام سفرها أبطأ تسارعها، وأيّام نفرها انقطع تتابعها، فرأيتني عادةً منتزعة، وسماءً لم تبق من ديمتها قزعة، وخشيت بعض ما يخشى، ولم أدر أين أسلك مِن جانبَيْ هَرْشَى[2]، ثم قلت العوادي شتى، والمسافات قطعها قد لا يتأتى، وما كل وقت يتفق ركوب، ويساعد من الريح هبوب، وقد يسوق الاتفاق مجهولا، ويحضر من لا يصلح رسولا، فتنازعتني هذه الخواطر، وسألت الله دفع ما أحاذر.

وقد كان في بعض كتبه تبرُّمُ بما شغل فكره، وميل إلى ما أجرى ذكره، وأظنّ جوابي وصله وحقّه أن يكون بابا من أبواب التعجّب، وكتابا يفرد لنوادر التقلب، وتكون هذه النادرة بلقاء قيدت إليه، وعنقاء صيدت لتعرض عليه، ولا أشك أن الباعث له /154/ على ذلك إغماء قد انقضى بإفاقته، وماء غسل الإناء بعد إراقته، وأنا مستطلع من أنبائه ما هو ألذ بمسمعي من اتفاقات[3] الألحان، وفي عينيّ من طاقات الرّيحان.

---

(1) في ك 233: قدره.

(2) كلا جانبي هرشى لهن طريق: مثل يُضرب فيما سهل إليه الطريق من وجهين. وهرشى ثنية في طريق مكة المكرمة إلى قرية من الجحفة يُرى منها البحر ولها طريقان، فكل من سلكهما كان مصيباً. الميداني، مجمع الأمثال، ج 2، ص 123.

(3) في ك 233: متفقات.



-247-

## وله من رسالة أجاب به بعض إخوانه

كتابي إلى سيّدي حرس الله كماله، وأنعم باله، وحقه عندي أكبر الحقوق قدرا، وأولاها بأن يصدر كتابا ويكتب صدرا، والحبّ فيه نبأ[1] أغنت السلامة عن تكسيره، ومضمر لا يفي اللّسان بشريطة تفسيره، فأما الشوق فثاو، ليس لكلمه مداو، وأخذت من وصبه بأمرّ قسط، ودهيت من زنده بأحرّ سقط.

ووصلت مخاطبته كالشمول ما فيها حرج، أو كالرّوض المطلول له بهجة وأرج، فقلت أهلا بالزائرة الحسناء، السّنية من بيت السّنية[2]، فدتها المهج، حين أدّتها اللّجج، وتحلى بها النحر، عندما تخلى عنها البحر.

-248-

## وأجاب بعض تلاميذه عن رسالة صدّرها بشعر

[مجزوء الكامل]

أهـلا بهـا مـن تحفـة ... منسوبة لأجـلّ متحف

كتبته وأنا بنجابتك جذل، ولإجابتك ممتثل، وقد وافت رقعتك المبرورة ولا أحسن من نظمها إلا نثرها، ولا من فِقَرِها إلا شعرها، وسُررت بالنوعين، وعوّذتهما من العين، وقرّ ناظري بابن لي في تدريبه شقص، وعندي على ازدياده من آدابه حرص، وقد لعمري زاد، واستحق الاستبداد، /155/ وبلغ طلعه الإرطاب، وبدأ صلاح ثمره بل طاب، فإن باع فالحكم اللزوم، وإن أمسك خاصمت خولان مخزوم.

وأشار إلى مجاوبتي أن ألتمس عينها، فقد أسقط عن ذمتي دينها، ويكفي منه إتّباع بالمعروف، أو اقتناع بهذه الحروف، وذكر الأحوال المنذرة بقِصر العشيّة، ولا ندري أيها الولد المبرور ما في المشيّة، وفي المقهورين بمكة أسوة الهجرة الحبشيّة.

---

(1) في ك 233: بناء.

(2) في ك 233: السّناء.

-249-

## وكتب إلى سيّد يوصيه برجل

ترد على سيدي[1] العماد أبقاه الله جبلا نلوذ بظله، ونعلم أن[2] القطع عقم الأيام بمثله، هذه العجالة المنوطة بحامل يعرف حاله وخلاله، ويدرى تشتت أمره واختلاله، وقد أقام هنا ما قُدّر له، واستوعر آخرا ما كان استسهله، ولجأ إلى سيدي الأرفع ليأسو كلمه أو يشير بأسوه، ويسله آمِرًا أو مباشرا بالفضل الذي ارتوى الأنام من صفوه، وليعلم أنه أولى حملة الصنائع بحملها وحمدها[3]، وأحقهم بمعونة السيادة المجيبية ورفدها، والسلام عليه ما كان له في الشرف أصل سام، وفي الكرم برق هام، ورحمة الله تعالى وبركاته.

-250-

## وخاطب أبا علي بن خلاص بعد بيعة مكناسة لأبي زكرياء الحفصي

[الطويل]

وكانت لعمر الله أوقات شدّة ... بقاء الفتى فيها كقبض على الجمر

صبرنا لها حتى تجلّت وإنما ... تفرج أيّام الكريهة بالصّبر

كتبته أيها السّيّد السند، والهمام المعتمد، أبقاكم الله /156/ في عزّ نضرة أفنانه، وشرف لا يهدّ بنيانه، من مكناسة بعد أن حُلّ الوثاق، ونُفّس الخناق، وتطاولت إلى هذه البشرى الأعناق، فقد كانت الحياة منغّصة، والقيم مسترخصة، وعيون الأوجال محدقة، ومخائل الأحوال لإرجافات الإنزال مصدّقة، فأتى الله بالفرج وباب[4] الشدة غضوض، وطرف الرّجاء مغضوض، وأصل الإرادة بالقياس المأخوذ من العادة مرفوض، فالحمد لله على قدر ما أولى من النعماء، وكشف من

(1) في ك 233: السيّد.

(2) في ك 233: على.

(3) جناس ناقص بين "حملها وحمدها".

(4) في ك 233: ناب.



الغمّاء، حمدا يملأ بين الأرض والسّماء، ويحكم في إمداد نعمه بالمزيد والنّماء[1].

وجملة الأمر أن كسوف الأحوال عندما شارف الانجلاء، وانصرفت اليد العادية من هذه الجهة شلاء، ألمّ بساحتنا الجيش الذي وقاه الله كل مساءة، وكانت عليه من عينه أجمل كلاءة، ومعنا واحد مختلّ القوى الحسّية، معدود في الحمر الإنسية، ساعده أولو النّهى ريثما أحكموا أمرهم[2]، وساسوا جمهورهم، ثم لقوا زعيم الكتيبة، ولله هو من ميمون النقيبة، فهشّ وأدنى، وأنس بكل معنى، وفي اليوم الثاني قيل لا ضير، ودخل الجواد وأخرج العير، وكان يظن أنه لا يترك، وأن الثأر فيه يدرك، فقلّ عند القوم أن يبسط إليه يد طالبهم، أو يبوء بشسع نعل صاحبهم، وقد سرّحوه آمنا، ودخلوا البلد دخولا هادنا، بحمد الله ساكنا، والشيخ أبو فلان تولّى الأمر بكليته، وأبرمه بصدق مرتبته وطويّته، وهو رجل البلد بكل اعتبار، وفي كل إيراد وإصدار.

أوجزت الخبر والمشافهة المرجوة إن شاء الله تأتي على كل سرّ وإعلان، وتغني عما يُحال به على فلان وفلان، وأنا أرتقب جواب سيدي وشيكا بكل ما يقرّب أسباب الظعن، ويتقلّد /157/ به عندي منّة من المنن، بحول الله وهو سبحانه يديم اعتلاءكم[3]، ويحرس مجدكم المؤثل وسناءكم، بمنه، والسلام الكريم، الزّاكي العميم، يخص سيدي كثيرا ورحمة الله تعالى وبركاته، كتب موقر جلاله، العارف بكماله، المعتد بشرف ذاته وكرم[4] خلاله، ابن عميرة.

(1) كان ابن عميرة قد حوّل بيعة أهل مكناسة لصالح أبي زكرياء الحفصي، ولمّا انتهى خبر هذه البيعة إلى الخليفة الموحدي السعيد شرع في الحركة إليهم بجيش عظيم، فخافه أهل مكناسة وبعثوا إليه معتذرين نادمين وجدّدوا بيعتهم له من إنشاء الكاتب ابن عبدون، وبعد رفع الحصار عن المدينة كتب ابن عميرة هذه الرسالة إلى صديقه ابن خلاص يشرح له بعض ظروف هذه الحادثة ويعده بمشافهته في الباقي، وهو يصف في هذا المقطع معاناته وإحساسه بالخطر وهول المحنة.

(2) في ك 233: أمورهم.

(3) في ك 233: اعتناءكم.

(4) في ك 233: كريم.

-251-

## وله من رقعة

كتبت عن ضمير اندمج على سرّ اعتقادك صدره، وتبلج في أفق ودادك بدرُه، وسال على صفحات ثنائك مسكه، وسار في راحتيْ سنائك ملكه، فأنا أقود إليك النفس قود المسلّم، وألتزم البرّ منك التزام المجلّ المعظّم.

-252-

## وأجاب أبا بكر بن حجّاج قاضي الجماعة يصف بلاغته

ما هذا المطلع الذي أفتن في أساليبه المفاتح، وملأ غربه من قليبه الماتح، وانتزعه صاحبه من كتاب أضاء التوفيق من تلقائه، وهُدِي الهدهد إلى إلقائه[1]، فقرنت بغُنم الإيّاب مسألته، وقرئت آية من الكتاب بسملته، ولم يعد وزجل الجناح بريدُه، وعُجل النجاح يسبقه إلى ما يريده، أن أنجى من السّباء السّبية، ونزع من أنوف قومها الأنفة والحميّة، فخام على[2] الزّياد بأس خميسهم، واستقام على الانقياد قياس بلقيسهم، فأهلا من تلك الرّقعة بالرّوض النضير، وحبذا ما أفادته من بديع التنظير، أحضرت الريح مُدنية كل قاص، والجن بين بنّاء وغوّاص، والطير لا تعلق بها حبالة اقتناص، ولما استولت /158/ على كل أمد، وحصلت من البيان على ملك لا ينبغي لأحد، وطئت وادي نمله، وكانت في غفلة عن حمله، فغشيها من معرّة الجيش، ما أذهلها عن طيب العيش، ولم تجد مسكنا إليه تعود، فحطمتها تلك الجنود.

أقسم بمضوّع طيبها، ومصنّف غريبها، وموشّع أفوافها، ومشعشع سلافها، وناظم عقودها، وراقم برودها، وفاتق نورها الرّائق، وفالق فجرها الصّادق، لقد زفها محجوبة بأمضى من القنى والصّوارم، منسوبة إلى أشرف من بيت الأراقم، أنف خاطبها بدم مضرّج، ورغبة طالبها ما عليها معرّج، ومن العقائل ما يترفع عن

(1) في ك 233: لقائه.

(2) في ك 233: عن.



الإشكال، وتجلّ أن تجد كفؤا من الرّجال، فعاذرها على الإباء منصف، وعاضلها من الأباء لا يقال إنه متعسف.

فأما منشئها والبلاغة تشهد أنه حكم يحسن استنباطه، ويدري كيف يخرج أو ينقّح مناطه، فلقد أودع غرر المحاسن بياض رقعة، وأهدى منها رياض نجعة، وأباح بها حِمَى رَيعه أو رعيه يذهب بالعيلة والعيمة[1]، ويفيد الغنى ربّ الصّريْمة والغنيمة[2]، فيا لأوصافها التي نثرت ورد الخدود، وهصرت أغصان القدود، وفتنت بأعجب من حسن الدلّ، وبسمت عن مثل البرد المنهلّ، وأقادت قلب العميد من سحر المُقلّ، وأسلمت سوالف الغيد لنهب القُبل، ألفاظ لو كنّ حصى كنّ جوهرا، أو طيبا فاح مسكا وعنبرا، أو وقتا وجدناه سحرًا، أو حديثا لم يكن إلا سمرًا، إلى معانٍ أعارت الدرّ نفاسته، وصنعة بزّت البديع مقداره ورياسته، وكرّهت إلى ابن أوس[3] شعره وحماسته، فلله ذلك الطبع المتجّ، والكمال الذي به معاشر أهل الأندلس يحتجّ، لقد حاز معلّى القداح، وخَرّجَ /159/ أحاديث شرفه من المسندات الصّحاح، وما ضرّنا وقد دفعنا لقطع المهامه، ووقعنا بين أنياب المكاره، وفارقنا أول أرض نقع الغليل شرابها، ومسّ الجلد ترابها، حين اعتضدنا[4] منها بسيد الفضلاء، وحامل راية الحسب والعلاء: [البسيط]

| | |
|---|---|
| أدراك يـا مجـد مـا أقيـال حجّـاج | مـن آل حجّـاج الغـرّ الكـرام ومـا |
| مـنها بغيـر نـزاع موضـع التـاج | بـيت بـيوت المعالـي هامـة ولـه |

وهذا عِوَض نرى أنّا ربحنا منه على الأيام، واعتضنا بها[5] منه أوفر الأقسام، وما أفاض فيه السيد المعتمد من ذكر أطابه، وبرّ طرّز به خطابه، فاعتدادي به اعتداد

(1) جناس ناقص بين "العيلة والعيمة".

(2) يشير إلى ما رواه البخاري في صحيحه عن زيد بن أسلم عن أبيه أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه استعمل مولى له على الحِمَى فقال له: اضمم جناحك عن المسلمين واتق دعوة المظلوم فإنّ دعوة المظلوم مستجابة وأدْخِل رَبّ الصُّرَيْمَةِ وَرَبّ الْغُنَيْمَةِ. يريد صاحب الإبل القليلة والغنم القليلة.

(3) هو أبو تمام حبيب بن أوس الشاعر المعروف.

(4) في ك 233: اعتضنا.

(5) كلمة "بها" ناقصة في ك 233.

الشحيح بالعلق الثمين، بل الشمال بأختها اليمين[1]، بل الحُمس[2] بجوارها من البلد الأمين، وقد أبلغني من ورد من الإخوان مشافهة ما وجدته لعقد الرأي الجميل تسجيلا، واستضفته إلى غرّة الفضل تحجيلا، وما أنبّهه فإنه بنفسه ينتبه، ولا أدلّه على طرق البرّ فعلى غيره تشتبه، والله يديم علاءه والسّلام.

-253-

## مدح الوزير أبي زكريا يحيى بن عطوش

[الطويل]

نأت عنك من أكناف وجرة دُورُها ... وقد أفلت بعد الطلوع بدُورُها

وكانت سطورا بيّنات لناظر ... فقد خفيت بعد البيان سطورها

ومرّت بها ريحا صبا وصبابة ... وكلتاهما أخنى عليها مرورها

ذكرتُ بها عهدا لذكراه لوعة ... تهيج تباريح الجوى وتثيرها

وفاترة الألحاظ ما كان يدّعي ... بفتك على الألحاظ لولا فتورها

إذا ما انثنت أعيا القضيب انثناؤها ... وإن سفرت[3] أخفى الصباح سفورها

وما أنت منها حين شط مزارها ... وردّ على أعقابه من يزورها

/160/وحالت خطوب دونها وتطاولت ... لغير مدى أيامها وشهورها

قلوب يكاد الشوق منا يطيرها ... إلى دِمن عند اللّوى لا تطورها

وبُعد على الأوطان لا أوبة له ... فيجمع شمل الغائبين حضورها

عسى حادثات الدهر بعد اعتدائها ... يكف أساها أو يفك أسيرها

لعمري لقد زادت جمالا خلافة ... أبو زكرياء الهمام وزيرها

وقد رضيت منه بأروع ماجد ... أوامرها نيطت به وأمورها

(1) طباق الإيجاب بين "الشمال واليمين".

(2) الحُمْس: قريش لأنهم كانوا يتشدّدون في دينهم وشجاعتهم فلا يطاقون، وقيل: كانوا لا يستظلون أيّام منى ولا يدخلون البيوت من أبوابها وهم محرمون ولا يَسْلأُون السّمن ولا يلقطون الجُلّة. لسان العرب، ج 6، ص 57.

(3) في ك 233: أسفرت.



وشدّت أراخي الملك منه رجاحة ... إذا هفت الأحلام يرسو ثبيرها

موارد حلم لا يكدّر صفوها ... وفضل أناة لا يطيش وقورها

وراحة [مقصور] على الجود عندها ... يبين لأيدي الباذلين قصورها[1]

إذا هو أعطى أمسكت سحب الحيا ... وعند عطاياه يقلّ كثيرها

من القوم آفاق المكارم بينهم ... أضاء سناها أو تألق نورها

إذا شهدوا الهيجاء هابت ليوثها ... وإن واصلوا النعماء هانت بحورها

وإن تفخر [الأحياء] في موضع جرى ... لهم فيه ذكر صدّ عنه فخورها[2]

ومن كابن عطّوش ظهيرا لدولةٍ ... إذا دولة لم يغن عنها ظهيرها

أغرّ نماه الشم من قومه إلى ... أرومة مجد كالصباح ظهورها

أخطّاب علياه دعوها لكفؤها ... فما عند غير الكفء تلقى مهورها

شكرت الذي أولى قياما بحقّه ... فما ارتبط النعماء إلا شكورها

ومازال منه الصّدق في الوعد شيمة ... على حين ألوى بالمواعد زورها

وإنّي لأرجو منه عين عناية ... يقرّ بنفسي أن يراني بصيرها

وحق عليه حفظ عادة فضله ... وأوّل راض سنّة من يسيرها

فدامت له الحسنى يطول سرورها ... وجوزي بالحسنى يطاول سورها

-254-

## وخاطب السيد أبا العبّاس الموحّدي في حق شاعر أندلسي

تعتمد المولى الأعلى وصل الله إعزازه، وأبقاه يتولى الفضل /161/ فيذهب بحقيقته مجازه، ويسند الجود فتعلو به رواية من استجازه، تحيّة تسري الركائب بلطيمتها، وتمري[3] الجنائب صوب ديمتها، ونثامن بها من كل شيء كريمته فلا تبلغ

(1) في ك 233: مقصود.

(2) في ك 233: الأيّام.

(3) جناس ناقص بين "تسري وتمري".

قيمته معشار قيمتها، وعبد يده البيضاء، يشغله أداء حقها عن القضاء، ويتقلّد من حرمتها حساما مرهوب الانتضاء مشهور المضاء.

وحامل الخدمة الفقيه أبو عبد الله بن خالص[1] أدام الله كرامته وهو الفذّ الوحيد، والشاعر المجيد، والطالع بأفقنا الأندلسي شهاب ذكاء راقت إنارته، وروض أدب رفّت نضارته، ولقد كان هذا الشأن وحامله أثير، ومنتحلوه عدد كثير، تسلّم له فيه الدّعوى، وتنشر محاسنه وبها صحف الأباء تُطوى، والعبد أحد من شاهد سبق جواده، وودق عهاده، فرآه صَهْصَلِق الصّهيلَ[2]، مؤتلق الغرّة والتحجيل، وصحب منه الفتى كل الفتى، والزاري بسحر شعره على من بالسّحر أتى، ثم طوّحت بي وبه الطّوائح، وأيأس من خير القليب الماتح والمائح، ورمت الأقدار به هذا المغرب وعينه حمئة، والواحد فيه تعتوره من الخطوب مائة، وبعد أن شارف هنالك نضرة العود، وجاوز حضرة الجود، بدا له أن يتبقل بعد الجميم، ويتنقل في هذا الإقليم، وحلّ هذا البلد فلولا ذرّية بعضها من بعض، وبقيّة من حسب خالص وكرم محض، جادته سماؤها والأرض هامدة، والأكفّ جامدة، لكان أضيع من مُغنّ وسَطٍ، وأضيق مجالا من حيّة في سفطٍ، ونعم ما قيل: [السريع]

كِنَاسُ مكناسة بيض الظبا ... ظباؤه محمرّة عاديه
وساحة الأنس بها أصبحت ... عافية لولا بنو العافيه[3]

/162/ وها هو قد أزمع الكرّ، وولّى وجهه ذلك الشرف الأغرّ، وأقبل نحوه يفوت شأو الرواسم، ويفتّ مسك ثنائه في جيوب الرّياح النواسم، ويقتاده أمل سيره يدني النازح، وطيره يزجر منه السانح، وللمقام الأعلى أيده الله ظل على أمثاله يفيء، وبشير بإقباله قبل نواله يستضيء، وحسب النّوى وإن شطت، والآمال وإن

(1) في ك 233: خلاص.

(2) أي شديد الصّوت.

(3) بنو العافية بيت كبير قديم ينتمون إلى موسى بن أبي العافية الذي اشتهر بعدائه للأدارسة وقيامه عليهم، وكان قد حالف الفاطميين ثم انقلب عليهم ووالى الأمويين في الأندلس. وقد ترجم لبعض أعلامهم ابن القاضي في جذوة الاقتباس وهو منهم.



استشطت[1]، أن يكون صباح إدلاجها، وصلاح ما أحالته الأيام من مزاجها، فبه يجبر مهيض الجدود، وإليه ينسب مستفيض الجود، أبقاه الله في محيّاه سعيدا، ومن غير دنياه بعيدا، ولمآثر سلفه الكريم معيدا، بمنّه والسلام الكريم الطيب يخصّ به ناديه الأرفع عبده الشاكر فلان ورحمة الله تعالى وبركاته.

– 255 –

## وله من رسالة

وفلان وصل الله حراسة قدره، رأى القودَ أشفى لصدره، وهو يذكر أن معه من يقتصّ جهارا وغيلة، بل يقتل بالواحد قبيلة، وتلك منه غير مأمونة، لا سيما إذا وجد أيسر معونة، والكاتب يغترّ بأحلام[2]، ويرى أنه في حمى من الحمام، فالحمد لله الذي عصمه، وببركتكم حقن دمه، فقد كنت أفكر في غربته، وأقول أتى به الحين إلى تربته، وفلان إذا قال فعل، وذائقه وذائده كلاهما يجد الصّاب والعسل، ويلقى البيض والأسل.

– 256 –

## رسالة إلى أبي الحسن الرّعيني في حقّ ابن عبدون

/163/ كتابي إلى سيدي وأوثق عُددي، والواحد الذي هو جملة عددي، أبقاه الله منه مواسيا إلى كرمه نأوي، وآسيا نأخذ منه مبدأ التداوي، من مكناسة وعندي حبّ وشوق لهما بقلبي ازدواج، وبينهما بالانفراد بالفؤاد ضجاج واحتجاج.

ووصلتني رقعته الخطيرة المباركة بديعة الإيجاز، باهرة الإعجاز، مشتملة من مكنون الدّرر، وعيون الفِقَر، على نكت للأحلام مستفزة، وغرر هي من صنعة الكلام في أجمل بزّة، ولقد نبذ إليّ منها البيان أشرف نبذه، ومسّني طائف الهمّ فكانت أنجع عوذه، ووجدت بها وجد السّاري بقمر السّماء، والظمآن بنمير الماء، وإنما هي ليالي منسوقة، وقلم هو الملك وأقلامنا له سوقة، فحسبها أن تخشع له من أفق الفاقه، ويشرع في جبرها ما شرع في الخمر من الإراقة، وذكر سيّدي ما عنده

(1) في ك 233: اشتطّت.

(2) في ك 233: الأحلام.

في اللقاء الذي استسقيتُ غواديه، واشتقتُ إلى لثم ناديه، وأنّ له في ذلك قرّة العين، وانتصافا في عادية البين، وأنا أقول: [البسيط]

يـا مـن يـسائل عنّـى الظاعنـين إذا    مـا كـنت بـي هكـذا صبّا فكـيف أنـا

والله ييسّر من ذلك ما يديل من الفراق، ويفل غرب الأشواق.

وحامل مخاطبتي هو الشيخ الفقيه الأجل الكاتب أبو عبد الله بن عبدون[1] أدام الله كرامته وهو فتى الفتيان، وابن نجدة البيان، ولله منه من يقدر سرده، وينمنم بُرده، إن نظم نصب سريّ السّريّ[2]، وغاض بحر البحتري، وإن كتب فكيل الميكالي[3] فيه تطفيف، وصبا الصّابي[4] لا يبقى له حفيف، فكلتا الصنعتين أخذ كتابهما بقوة، وانتجع مرعاهما وهو ذو حوّة، فهو ينتقي منها ما يشاء، ويرد قليبها /164/ ومعه الدّلو والرّشاء.

وقد بلغ سيّدي خبره الذي يأتي عليه الخبر، ونزعه الذي يقوم به لمساجله العذر، ويرد الآن على الباب العلي الكريم أسماه الله منفسح الأمل في وروده، متعرّضا للسّقيا من سماء جوده، وله في سيّدي رجاء استمرت مريرته على شزر، وتأنق في صفته بمنطق لا هراء ولا نزر، ومازال مجده يصدّق الآمال، ويزن بموازينها الرجال، وهذا لعمر الله أرجحهم وزنا، وأغدقهم مزنا، وأهداهم إذا سلك

(1) هو أبو عبد الله محمد بن عبدون بن قاسم الخزرجي نسبة، المكناسي دارا ووفاة، الأديب الشهير والأستاذ المقرئ والكاتب البارع. كان إماما جليلا فقيها علّامة فاضلا، شاعرا مجيدا نادرة نابغة. دخل مدينة فاس وكان شاعر العدوة المغربية في وقته، توفي في شهر ذي القعدة من سنة 659 هـ/1260 م. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص 96. ابن غازي، الروض الهتون، ص 55. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج 1، ص 284. ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 3، ص 578.

(2) هو أبو الحسن السّري بن أحمد بن السّري الكندي الرفاء الموصلي الشاعر المشهور. الثعالبي، يتيمة الدهر، ج 2، ص 117 وما بعدها.

(3) رئيس نيسابور أبو محمد عبد الله بن اسماعيل الميكالي من الكتاب البلغاء. الثعالبي، يتيمة الدهر، ج 4، ص 382.

(4) هو أبو اسحاق إبراهيم بن هلال بن هارون الصّابي الحرّاني الكاتب المعروف.



سهلا أو حزنا، وفضل سيّدي إن شاء الله يؤويه إليه، ويخلع عنايته عليه[1]، جاريا في ذلك على عادة أنا أولى من بها أشاد، وجرّب منها الإنجاد والإرشاد، والشكر على ما يجده المذكور من إقباله، والاعتناء بأحواله، رحب المجال، مفعم السّجال، مقسّم بين الرّويّة والارتجال، والله يديم علاءكم، ويحرس مجدكم وسناءكم، بمنه والسلام الكريم يخصكم به معظم مقداركم، وموجب توقيركم وإكباركم، فلان ورحمة الله تعالى وبركاته.

– 257 –

## رسالة إلى القاضي أبي الحسن بن قطرال[2]

كتابي إلى سيّدي المستضاء ببصيرته، المجتمع على ارتضاء سيرته، أبقاه الله طود سكينة، وبحر معارف معينة، ولا زالت الأيام تزهى من محاسنه بأبدع زينة، من فلانة وأنا بحقه معترف، ومن غمره مغترف، ونحوه بشكري وثنائي منصرف.

وكان صحبني إلى هذا الموضع الفقيه أبو /165/ الوليد بن مثنى أعزه الله منوط الهمّة بالطلب، وافر الحظّ من الأدب الغريزي والمكتسب، يرتاح للألفاظ العلمية، ويسأل عن الانّية والكمّية، ويحرص على أن يعرف أسلوب الاحتجاج، وضروب الإنتاج، فأما العربية فطالما أحكم أمرها، وضرب زيدها وعمرها، وانتجع أقصى ريفها، وأمعن في أبنيتها وتصاريفها، فما شئت من إمتاع، ونبل ينفق على كل مبتاع.

ثم غاب عنّي غيبة لفقد مكانه أرّتني، وبالسّؤال عنه أغرتني، وما لبث أن طلع عليّ طلق الأسرّة، متهاون الجلدة بالقرّة، وعليه من الملابس صنوف، كتان وصوف، ومنظر بالبهاء موصوف، فقلت ظاهر لا بدّ من تفتيشه، وطائر أنكر ما أراه من ريشه، كيف أشبهت الصّيد الأعزّة، ومن أين اقتنيت هذه البزّة، أظفرت في مغارة بركاز، أم طرت إلى غارة بجناحي باز، حتى حويت نفلا ورضخا، وارتويت نضحا ونضخا، فما زاد على أن أنشد: [الطويل]

(1) استعارة مكنية شبه فيها العناية بالثياب أو ما يمكن أن يخلع.

(2) تقدّم التعريف بابن قطرال في هامش الرّسالة رقم: 226.

فقلــت لهــم لا ذا ولا ذاك ديدنــي ولكننــي أقبلت مــن عــند خالــد[1]

فقلت ومن هذا الذي ضربت له المثل، وأنزلت به الأمل، فقال وهل بقيت أراكة تسمح بقدر المسواك، أو عين تبضّ بمثل الشراك، فأخبر أنه بقية أندلسنا، المفدّى بأنفسنا، مَن وصفُه يغني عن التسمية، وسهمه في صدور النوائب من السّهام المصميّة.

وإنما فارقني الإفلاس، من[2] يوم ضمّتني معه فاس، فحينئذ ارتفع الشك، وميّز الإبريز الحكّ، وعزيت المنّة لربّها، وسرت العارفة من مهبّها، وجاءت على هذا الصاحب لحاء على فننه، وإنحاءً على زمنه، تُعَوّذُه من كلّ /166/ فقر، وتنشد مدائحه فلا تخفى على ذي وقر، فللّه ذلك الفضل الذي بهر جمالا، وأبى على تحيّف الأيام إلا كمالا، ولقد أمكن الردّ به على من يقول إنما تستطاع المروءة إذا كانت أموالها فاضلة، وأيدي الثروة دونها مناضلة، فإنا وجدناه يفعم سجلها والرّكيّة بكيّة، ويتكلف أفعالها وإنما هي أقوال محكيّة، وليست بأول يد أصاب بها موضع الاستحقاق، وأبقاها أطواقا في الأعناق، والله يصل سعادته، ويشكر له عادته، بمنه والسلام الكريم يخصّه به معظّم مقداره، وموجب إكباره، اللّهِجُ بسماع ما يسرّه[3] من أخباره، ابن عميرة، ورحمه الله تعالى وبركاته.

-258 -

## وأجاب أحد إخوانه من فاس مخبرا إياه بجلوسه للتعليم

أطال الله بقاء سيّدي الذي نأتمّ به بالفذّ، ونتلو شكره بين الترتيل والهذّ، صدرت العجالة إليه من فاس [4] وأنا بحقّه عليم، وعلى عهده مقيم، وعندي له توقير

(1) البيت لأبي تمام.

(2) كلمة "من" ناقصة في الأصل والزيادة من ك 233.

(3) في ك 233: يسرّ.

(4) كان ابن عميرة أثناء مقامه بمدينة مكناسة يتردّد على مدينة فاس، وقد ترجم له ابن القاضي في جذوة الاقتباس باعتباره من الأعلام الداخلين إليها. وهو يعلم صديقه في هذه الرسالة بأنّه كان يقعد للإقراء والتعليم بهذه المدينة قصد ارتياد الأنس وتنفيس ما به من كرب.



وتعظيم، وقد وصلني كتابه الأثير المبرور أشهى ما كنت إلى تنسّم ريّاه، وتوسّم محيّاه، ففضضته عن كلم هنّ الدّرُّ، ومعان كما تألقت الأنجم الزُّهر، ولقد ذكرت به عهدا مضى، وزمانا كان فانقضى، فليت شعري هل له معَاد، أو بعد عتاد هذه الخطوب إسعاد.

وذكر سيّدي ما فاوضه فيه فلان بعد أن أخذ في طريق إنصافه، ووصفه بالمحمود من أوصافه، من أن ابنه فلانا يحضر عندي فيمن غرّه منّي سراب الفلاة، أو شراب ما نضب من القلات[1]، وما يقال في وقت يظنّ به أن /167/ المعلّى له كرم، والحباحب معه ضرم، وإنما هي ساعات يطلب لكربتها تنفيس، ويرتاد في وحشتها أنيس، والبلد وقاه الله فيه أعيان وجلّة، وطلبة هم بهالته أهلّه، وما كنت أظنّ أن هذا الزمن المحرج يلد أمثالهم، ويبني لأحد مثل ما بنى لهم، وهذا الطالب المبارك له في نفسي نفاسة، وعندي فيه فراسة، وقد جلّ في عينيّ كلّه، وحلّ منّي مكانا قلّ من يحلّه، وإشارة سيدي زادتني فيه توثيقا، وأرتنيه بكل حظ من برّي خليقا، أبقى الله سيّدي لفضل يكون إليه مرشدا، ولضالته ناشدا ومنشدًا، وهو تعالى يديم عزته والسّلام.

-259 -

## وأجاب ابن الشيخ[2] حين كتب إليه من بجاية يعرض له باللقاء أيام قضائه بسلا

[الطويل]

مُـشرّقنا يبغـي لقــاءَ المُغـرِّب أمــانٍ نــراها مــثل عــنقاء مغــرب

و[كـيف] لـنا بالـصّدق مـنها وبيننـا مَهَامِهُ إن تخبر بها العين تكذبِ[3]

(1) مفردها قلْت وهي النّقرة في الصّخرة أو الجبل يستنقع فيها ماء السماء في الشتاء. وفي المثل "أبرد من ماء القلات". لسان العرب، مج 2، ص 72.

(2) تقدّم التعريف بالفقيه أحمد بن يحيى بن أسد الأنصاري المعروف بأبي القاسم ابن الشيخ في أحد هوامش الرسالة رقم: 94.

(3) في ك 233: كم.

وزخـرة طـام نفـس مـن هـو مـودعُ      غـوَارِبُه نهـب بـراحة مُـنهب

فلهفـي علـى عهـد تقضّى فلم يـدع      فـؤادًا بطـول البث غير مُعذّب

مناسـك وَصْـل [أغـبقت] بتفـرق      أشتّ وأنأى من فراق المحصّب(1)

وعيش مضى مـا العيش بعد ذهابه      وإن كـان فيه مـا يطيب بطيّب

– 260 –

## وله من رسالة في الشكوى والشوق

وما حالُ من جرّعه البينُ صَابَه، ورماه سهمُهُ فأصابه، فهو /168/ يندب زمانا ما له ردٌّ، وطلولا ليس لأحبته بها عهد، ويروم إطفاء اللّوعة ونارها مشبوبة، ويطلب طريق السّلوة وهي عنه محجوبة، أنأيُ عن الوطن والسّكن فبِمَ التعلّل، وإحرام من ميقات الشجن في مشقات الزمن فمتى التحلل.

ومنها: وأنا بين أسى يقدّ مفاض الصّبر، وذكرى أجد لها انتفاض العصفور من القطرِ، فليت شعري يَنْضُوُ الشجن الطويل، أيرجى له إبلال، ووادي الإذخر والجليل، متى يلمّ به بلال(2): [الرجز]

مَهْجُـورُكم علـى الرّضـى دُلّـوه      ظمـآنكم مـن المنـى عُلّـوه

مـا أشـكل مـن سـؤاله حلّـوه      أو للـيأس بعـد بعـدكم خلّـوه

ومنها: [الرجز]

أرضـى بكـم وقـد رضيتم كمـدي      أشـتاقكم وأنـتم فـي خلـدي

عِبتُـم وَلهـي ولـيت أمـري بـيدي      بـالله أمـا تـرون ريّـا لـصدَي

ومنها: [الرجز]

آهـا لـزماننا الـرّطيب النـضر      سـقيا لعُهُـودنا بـشطّ النهـر

هـل تمكـن عـودة لـذلك العـصر      هـيهات وهـل يعـود ماضـي العُمـر

---

(1) في ك 233: أعقبت.

(2) يريد ما أنشده أبو حنيفة لبلال، وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك في هامش الرسالة رقم: 47 من السفر الأول.



– 261 –

## جواب آخر إلى ابن الشيخ حين كتب إليه من سبتة

[الكامل]

قالـوا أخ لـك قـد قـدِم      سـلم الـوفاء إذا سَـلِم

يحيـى بـه مـا كـان مـن      رسـم التـصافي قـد عُـدِم

فعـرفت مـن يعـنون مـن      فـقال بوصـف منـتظم

وأجـبت إن مـن مـرادكم      يحيـى فقالـوا لـي نعـم

سقيًا للمبشر بقفوله، وأهلا بالطالع غبّ أفوله، وحيّ الله زمانا من غيبته رثى لنا، وبأوبته أنعم بَالنَا، والدّهر /169/ وإن كان إذا سر عاجل، وإذا عاد قاتل، ومتى وطئ تحامل، فإنه ربما أكذب الظنون وخالفها، ووقع بالجائزة ثم ضاعفها، ورضي فتوسّع في رضاه، واقتضى القليل الحقير فأعطى الجليل الخطير من اقتضاه، كفعله معنا في هذا الأخ الذي بلونا محض الكرم من أخلاقه، وقاسينا أشدّ الألم لفراقه، ثم ظفرنا منه بالضالة المنشودة، والعارية المردودة، والعلق الذي فقدناه فدهينا بالإفلاس، ثم وجدناه فغنينا عن الناس، ولله أبوه، وما تحمّل من الشوق مُحبّوه، وهذا شوق تجاذبته الشعراء، واختلفت فيه الآراء، والقائل إن النّأي يخفف أمره، والقرب يلهب جمره، نرى أنه كذب إذا ذكرنا ما كابدناه، وصدق إذا تأمّلنا ما نحن الآن وجدناه، فكيف حال الأخ في سفر رمى به المرامي، وأقحمه من الخطوب بحرها الطّامي، ونقله بين الفجاج الغبر، والأمواج الخضر: [الكامل]

طـورًا علـى ظهـر المطـيّ وتـارة      فـي بطـن أنثـى بالمـنون خـداجها

بـسراة قفـر مطمـئنّ مَـرُجُه      أو لجّـة مـرتجة أمـواجها

شـكرا لمـن أدّى إليـنا مـنهما      أمنـية هـي فـي المُنـى نحـتاجها(1)

إن العُلَـى وإن ادّعـى ابـن فـتوة      فـيها فـبابن الـشيخ يُعـصَب تاجهـا

لله مـنه شـمائل معـسولة      كالخمـر مـن مـاء الـسّماء مِـزاجها(2)

---

(1) في ك 233: يحتاجها.

(2) تشبيه مجمل شبّه الشمائل بالخمر.

– 262 –

## رسالة شكر إلى سيّد بشّره بخلاص أخيه من الأسر

[الكامل]

نفسي الفداء لسيّدٍ    أهدى البشارة بالأخ[1]
فغدوت أزهى بالكتاب    على الأنام وأنتخي
/170/ورأيتني استصرخت منه    بماجد هو مُصرخي
عقد المودّة منه لم    يُحلل ولما يفسَخ
وله عليّ أجلّ    شكر بالعبير مُضمّخ

أهلا بكتاب حشوه دُرَر، وصفوه ما فيه كدر، ألبسني مهديه منّة قعدت تحتها حسيرا، وأردت نعتها فلم أطق له تفسيرا، وماذا أقول فيمن تملّكني مرتين، وأولاني مسرّتين، وأبى فضله عندي إلا أن يرد مثنى مثنى، ويزيد على وصف مَن وصف وثناء مَن أثنى.

ومنها: وبشّر السّيد المعتمد بخلوص أخي من الغماء، وخروجه إلى النّور من الظلماء، بعد أن عاين السيف مخضوبًا، وأحسّ من ماء الحياة نضوبا، وبعد أن أطبق شفتيه على السمّ، ووطئ برجليه[2] أذناب الحيّات[3] الصمّ، فسبحان من شاء أن يشاهد تغلب عبدة الأوثان، ودخول الكفر على الإيمان، والدّماء محقونة، وكل مخدّرة مصونة، والمؤمن يمشي في حِمى الملحد، والمثلث يذبّ عن حريم الموحّد، وهؤلاء بالشهادة يتلفظون، ولحدود الملّة في زعمهم يحفظون، وقد

(1) يُستفاد من رسائل ابن عميرة أنّه كان له أخ وأخت ذات أولاد وكانا يقطنان جزيرة شقر وبقيا فيها إلى حين سقوطها في يد المسيحيين سنة 639 هـ/1241م. والذي يُفهم من هذه الرسالة أنّ أخاه تعرّض يومئذ لمحنة الأسر وكاد يُقتل على يد النصارى، فكتب ابن عميرة في شأنه إلى سيّد ماجد يستصرخه كي ينقذه من شدّته. فتدخل هذا السيد، الذي لم يسمّه جامع الرسائل، وكان على صلة بالمسيحيين فأنقذ هذا الأخ وكتب إلى ابن عميرة رسالة يبشّره فيها بخلاصه فأجابه بهذه الرسالة شاكرا. ولم نعلم شيئا عن مصير هذا الأخ بعد هذه الحادثة وهي المناسبة الوحيدة التي تحدّث فيها عنه.

(2) في ك 233: برجله.

(3) في ك 233: الحياة.



أجهضوا ذوات الأحمال، وعاثوا في النفوس وفي المال[1].

ومنها: وقد خرج القول إلى ما لم يجْرِ في الفكر، ولا دخل في حساب البياض والحبر، وما هو إلا تكلف هاجه هائج الكرب، وحسرة جرت خطوة منها على القلب، والعجب تشاغلي عن الشكر الذي كان يجب أن يعبّ به عبابي، ويمتلئ منه كتابي، لكن هذه حيلة من حيل العيّ، وحَيْدَة لا تخفى على الألمعي، وسيّدي يبسط عذري، ويقبل النزر من شكري، ويكلني لحُبّي الذي /171/ هو كنزي وذخري.

– 263 –

## رسالة في وصف رحلة أحد أصدقائه إلى مكناسة

[الكامل]

نفسي الفداء لمن أفاد برقعة    في طيّها حُلل الرّبيع منشّرة
ولقد لثمت سطورها أشرابه    عفت الثغور مؤشّرة

فأهلا بها من زائرة فتّانة، سافرة عن صنعة بين رقة ومتانة، خريدة يرتدّ عنها الطّرف مهابة، ويصبو إليها الحليم صبابة، بينا أنا في هموم تساور، ووحشة من قسوتها تفرق القساور، لا يثبت فكري على أمل، ولا ينظر طرفي إلّا إلى طلل، طلعت عليّ ومعها بهجة الشباب، ورواء الأحباب، فتناولت منها دمية المحاريب، ومهاة في زيّ الأعاريب، رعت الأراك، وأفلتت الأشراك، وتوسّدت من نجد أرطاه، وذعرت على ماء العذيب قطاه، وجاءت وقد نمّ عليها قيصوم[2] وشيح، ومسح عطفيها بطل مشيح، من بصير بالسجاعة والشجاعة[3]، مغير مع حملة السّيف

(1) يشير ابن عميرة هنا إلى عدل النصارى وحقنهم لدماء المسلمين وحمايتهم لهم والذبّ عن حريمهم، وانتقاده للمسلمين الذين كانوا يجهضون ذوات الأحمال ويعيثون في الأنفس والمال. وهذا موقف غريب ومناقض لما جاء في رسائل ابن عميرة الأخرى وهو يتناول أحداث النكبة.

(2) من الأعشاب البرّية وهو طيب الرّائحة، وورقه هدب وله نورة صفراء وهي تنهض على ساق وتطول. قال الشاعر: بلاد بها القيصوم والشيح والغضى. لسان العرب، ج 12، ص 486.

(3) جناس ناقص بين "السجاعة والشجاعة".

واليراعة، فيا لمكاره وصفها، ومهامه اعتسفها، ومياه لم تسم المناسم فلاتها، ولا اعتورت الأيدي قلاتها، فلو مرّ بها تأبّط شرّا، لتخبّط شهرا، ولو وطئها رجل السّليك، لطار فرقا من الأيك، وناداها إليك إليك، لكنه خاضها مفوزا، وقطعها مستوفزا، وانتهى منها إلى مأسدة، صرعاها غير موسّدة، فاقتحمها والدّليل قد رغب في التعريس[1]، والنوم قد خاط عين الأنيس، وسكنوا من القلوب النوافر، وناموا ولا نومة أحلى منها عند المسافر.

/172/ ثم هبّوا وعين الغزالة ترمقهم، وسهام الملامة ترشقهم، وعماد الرّكب قد لاذ بقائم سيفه، وأنف من أن تخزيه الأعراب في ضيفه، فنادى في الخليط، وأنبهم على التفريط، وسار بهم والجياد تملي وخدها على المسالك، وتفلي وحدها ناصية الفلى بالسنابك، ثم لما غار من النشاط ماؤه، وثار في وجه الهجير حِرْباؤه، عاج بهم إلى واد ملتف الخمائل، بعيد العهد بالرّاحل والنازل، ذكّر بمعاهد ألفناها، مع جيرة أمنّا قطيعتهم وما خفناها، صلوا من الخطوب بنار محرق، وذهبوا على حكمها بين مغرّب ومشرّق، فلم يبق لنا بعدهم إلا عويل، وشجن طويل: [المنسرح]

صَاحَ بهم صائح الرّحيل فما    منهم على البين واحد سلما
وجاش بالرّوع عقر دارهم    من بعد ما كان سربهم حرما
فهم عباديد في البلاد ولا    شمل لفلّ الخطوب منتظما
قد أقسم الدّهر أن يمزقهم    وجنّب الحنث ذلك القسما
يا سائلي عن بكائي بعدهم    بكيت دمعا حتى بكيت دمًا[2]

أثبت هذه الأبيات لسيدي لأنّي نظمتها عن شجن انتابني الآن منتابه، وهاجه منّي كتابه.

(1) التّعريسُ: نزول القوم في السفر من آخر الليل، يَقعُون فيه وقعَةً للاستراحة ثم يُنيخون وينامون نومة خفيفة ثم يثورون مع انفجار الصبح سائرين ومنه قول لبيد:

قلّما عرّس حتى هِجْتُه    بالتباشير من الصّبح الأوّل

لسان العرب، ج 6، ص 136.

(2) وردت هذه الأبيات مكررة في الرسالة رقم (237) من هذا السفر.



ونرجع إلى بقية السير الذي أغرى بقرع الظّنبوب[1]، وأفضى من المكروه إلى المحبوب، ذكر رواحه عن ذلك الوادي والعشي قد أذهب وقت الاختيار، وأبدى على الشمس خلوق الاصفرار، ونزل ببهت فبهت الذي أمن، وشُدِهَ من تياسر عن الطريق أو تيامن، وهو فيهم كالليث مطلًا على فريسته، مدلا عند خيسته، فلو رآه أبو كبير، وفطن له فطانة خبير، للام نفسه على لاميّة أجادها، وعلى غيره خلع نجادها، وعلم /173/ أنه أولى بتلك الصفات، وأجلد على قطع الفلاة.

ثم لما قضى من السّير أربًا، وشكا إليه الركب نصبا، مال إلى دوح ملتف غصونه، ومنزل أخفى من السّرّ في صدر من يصونه، وهنالك عشّى وما اغتبر، وأقام وعيناه إلى أذني أغرّ، يشق به الظلماء فعل أبي الطيب، ويناجيه متى شاء بالخفيّ المتغيب، ولمّا فضّ النهار سلكه، وفتّ الظلام مسكه، هتف بالرفيق، وركب متن الطريق، وسار وسنى الشعرى متألق، والثريّا ابن ماء محلّق[2]، والمشتري قد أبدى صفحته، والجوّ قد أهدى نفحته، حتى ألمّ بسور مكناسة، فأحرز الخلاصة وخلف وراءه الكناسة، ثم دخل المدينة بسلام، ونزل بها على سادة أعلام، سكنوا دارًا[3] عليها مسحة من ديارنا، ونفحة من رندنا وعرارنا، وحبّذا ما ذكر بأرض الأندلس، وأيّ ركاز لمن فاز منه بالخمس، طوّلت على سيدي مع فكر تبلّد، وهمّ كلما أخلفته تجدّد، وأردت أن أجاريه في مداه، وأكافيه على ما أهداه، فجريت بحسير، وجزيت عن كثير بيسير، والسلام والرحمة والبركة.

(1) الظّنبوبُ: حَرْفُ الساقِ اليابِسُ من قدُم. وقيل: هو ظاهرُ الساق، وقيل: هو عظْمه. وقرعُ الظّنبوب: أن يقرَعَ الرّجلُ ظنبوب راحلته بعَصاه إذا أناخَها ليركبها رُكوبَ المُسْرِع إلى الشيء. وقيل: أن يَضربَ ظنبوب دابته بسَوْطِه ليُنزِقَه إذا أراد رُكوبَه. ومن الأمثال: "قرع له ظنبوبه". أي جدّ فيه ولم يفتر. الميداني، مجمع الأمثال، ج 2، ص 55. لسان العرب، ج 1، ص 572.

(2) يشير إلى قول ذي الرّمة:

وردت اعتسافاً والثريا كأنها    على قمة الرأس ابن ماء محلق

لسان العرب، ج 1، ص 58.

(3) في ك 233: ديارا.

– 264–

## تهنئة الكاتب ابن عطية بخلاصه من الأسر

أهلا بالعجالة المقتضبة، والرّسالة الواردة من زعيم الكتبة، بشّرت بطيران واقع نسره، وخلاصة[1] من فاجع أسره، وقررت أن أنفي من إخفار ذمتها فيه أنفت، وبكلفة ما لعلّه يستوفيه كلفت، ويا لهذا الأمل الذي يهوى /174/ بأمله من حالق، ويضع دون حظّهم أكبر عائق، وقد أبت حرفته أن ترعى قدرا، أو تعتام إلا صدرًا.

وقديما غلبت تغلب على أبي وائلها، وتبّا لها فقد غالت بغوائلها، حتى ضمن النّضار، وأعطى القنا الخطّار، ومنّاهم الخيل تكرم عن أن تباع أو تعار، فلولا فتى حمدان، وحفاظه الذي به دان، وإنه خاض إلى آسريه، حشى ليل كان يسريه، لطال غيظه على القدّ، وأعيت عاريته على المستردّ، وكانت بضاعته في هذا الشأن مزجاة، فاستعجل من الأسر نجاة[2].

فأما الحارث بن سعيد[3]، وناهيك من مدى في الكمال والكلام بعيد، فهنالك عظمت البليّة، وخضعت تلك النفس العليّة، وعضّ القيد ما شاء، وغاض الأيد ولا دلو ولا رشاء، وعلى رغم الفضل ما قاسى تلك الشدائد، وسيّر تلك

---

(1) في ك 233: خلاصه.

(2) يشير في هذا المقطع إلى قصة أبي وائل تغلب بن داود بن حمدان ابن عمّ سيف الدولة الحمداني وخليفته على حمص، حين أسره المبرقع وألزمه شراء نفسه بعدد من الخيل وجملة من المال، فأسرع سيف الدولة من حلب يغذ السير حتى لحقه في اليوم الثالث بنواحي دمشق فأوقع به وقتله ووضع السيف في أصحابه فلم ينج الا من سبق فرسه، وعاد سيف الدولة إلى حلب ومعه أبو وائل جريحا وبين يديه رأس الخارجي على رمح وذلك سنة 338 هـ/949 م. وللمتنبي قصيدة دالية مدح فيها سيف الدولة ورثى ابن عمّه المذكور بعد موته. الثعالبي، يتيمة الدّهر، ج 1، ص 13. ديوان المتنبي، 2/1، ص 269.

(3) هو أبو فراس الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني الشاعر المعروف، ابن عمّ ناصر الدولة وسيف الدولة ابني حمدان. وكانت الروم قد أسرته في بعض وقائعها، وهو جريح قد أصابه سهم بقي نصله في فخذه، ونقلته إلى خرشنة وهي قلعة ببلاد الروم والفرات يجري من تحتها، ثم منها إلى القسطنطينية حيث نظم رومياته المشهورة، وذلك في سنة 348 هـ/959 م، وفداه سيف الدولة في سنة 355 هـ/965 م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 2، ص 58.



الرّوميات على لبّة الدّهر قلائد، كأنه لم يعلم أن اقتداره عليها جلب آفته، وقرّب إلى المكروه مسافته.

وببيتكم شاهد ذلك الناس[1]، وفيكم آل عطيّة اطّرد هذا القياس، ولله سبحانه ألطاف يخفي عيانها، ويدقّ سريانها، تديل الفرج من الشدة، وتعيد الخلِق إلى الجدّة، وتجبر الكسير وقد استحكم وهنه، وتخلّص الأسير بعد أن علق وهنه.

– 265 –

## تهنئة أحد أصدقائه بتقلّد الوزارة للخليفة الموحدي المعتضد

تحية مباركة كريمة تعتمد مجدكم العالي كالصّبح لاح متنفسه، والرّوض فاح روضه ونرجسه، ورحمة الله تعالى وبركاته من فلانة وليس ببركة الخلافة المعتضدية إلا خيرات تعتاد حينا فحينا، ومسرّات يزداد بها المؤمن /175/ يقينا.

واجتاز من هنا فلان فكان جهينة الأخبار، وعيبة الأسرار، لا جرم أن الأمور شفى ببيانها، وأغنى عن عيانها، ثم طرّز خبره، وملأ سرورا كل من حضره، بما ذكره عن الخلافة أنها قادتكم[2] وزارتها، وأطلعتكم بأفقها المنير[3] شمسا قد استكملت إنارتها، فالآن دُفع البرد لراقمه، ووُضِع الدرّ في يد ناظمه، بل نقول الآن امتدّ للوجيه أمد سبقه، وأخذ عكاشة السّيف بحقه، وتناول القوس باريها، وجرت الأمور أفضل مجاريها.

والحمد لله الذي وثق جانب الاستظهار، ووفق لهذا الاختيار، وأرى أولياءكم فيكم أملا في قبضته الخير الموعود، وبنهضته تنهض الجدود، وهذه المسرّة سمع أخوكم نبأها، فاستقبل حياة ثانية وابتدأها، وأخذ منها بحظ لو قسم

---

(1) بعد هذه التهنئة التي قامت على توظيف المعلومات التاريخية والتمثيل بمن نكبوا بالأسر كأبي وائل وأبي فراس الحمدانيين، نجد ابن عميرة يستشهد على ذلك بالإشارة إلى النكبات التي حلت ببيت آل عطية الذي ينتمي إليه المكتوب إليه وتحديدا مأساة الكاتبين أبي جعفر بن عطية وأخيه أبي عقيل.

(2) في ك 233: قلدتكم.

(3) في ك 233: المبين.

على القلوب كلها لملأها، وما عسى أن يصف من موقعها منه والعبارة وإن أطالت الألسنة ذيولها، وأوضحت غررها وحجولها، مقصّرة عن مداه، واقعة من أمدها عند أدناه، والله يوزعنا شكر نعماه، ويحفظ علينا من فضله ما أولاه.

– 266 –

## وكتب إلى سيّد يوصيه برجل

تحية مباركة كريمة ترد محلّكم الأسنى، وسيادتكم جزى الله إحسانها بالحسنى، ورحمة الله تعالى وبركاته، تتوارد موحدا ومثنى، وليس إلا إجلال وتكريم، وخلوص أخوكم عليه ثابت مقيم.

ويصلكم فلان وبيته من[1] قومه وسيط، ولسراج أمله من مشكور خدمته سليط، وله موات سعى لها سعيه، واستحق بها إكرامه ورعيه، وسأل تنبيه مجدكم /176/ عليه ليجد منه قبولا، ويدرك به مأمولا، وسيادتكم تريه اعتناءً، وتوليه إدناءً، وتفسح له من التفاته ورعي مقدماته مدى يملأ الأرض عليه شكرا وثناءً، وليس بأول أمل بضبعه جذبتم، وناهل لمورده أعذبتم.

– 267 –

## رسالة إلى أحد أصدقائه يصف بلاغته

كتابي إلى سيدي الذي بسيادته أباهي، ومن جهته أسقي غرس جاهي[2]، أبقاه الله يرقى درجها، والمحَامِد يلقى أرجها، ولازالت محاسنه تحملها الأيام في جباهها غررًا، وتتقلدها على لبّاتها دررا، وتضعها في تصانيفها متونا وعلى حواشيها طررًا.

من فلانة، وجانبه الرفيع ركني الأشد وظلّي الممتد، وغربي الأمضى الأحدّ، أنبط به والمياه غائرة، واستنبط والعلل قاصرة، وادخل في جواره فاسكن الأبلق الفرد، وأصول بقراره فأصرع الأسد الورد.

ووصلني خطابه المبرور أشهى ما كنت إلى الظفر بعيانه، والنظر في عنوانه،

---

(1) في ك 233: في.

(2) استعارة مكنية شبّه فيها الجاه بالغرس.



وفضضته عن كلم إن قلت درّ فالدّرّ حجرُ من الأحجار، أو وشي فالوشي مبتذل في أيدي التجار، ومن أين للنّوعين، حقيقة في رأي العين، بمنظر كمنظره، أو جوهر يشترك في عين اللفظ مع جوهره، قرأت نظمه فحرت، وصرت إلى نثره فسحرت، وأردت أن أقول فقيّدني الحصر، ورمت أن أطول ففضحني القصر[1]، ولقد لاكها مَن حُرمنا قوة لوكه، وجناها من عنده الورد وما لنا غير شوكه، فكم ذا نحضر رهانه بسكيت[2]، ونعارض إيوانه بأوهن بيت، ولولا مكان المجد /177/ العالي من النفوس، وحقّ له يؤدّى على الرؤوس، لكان الأولى والقلم مغلوب على أحرفه، مسلوب أهلية تصرّفه، أن يجدّد عليه حجرا، ويوسع صنيعته هجرًا، لكن ذلك الواجب ليست معه أوليّة، ولا تذخر عنها بديهة ولا رويّة.

ذكر سيّدي الخطبة التي لأمت بين الأكفاء، ودعا لها داعي السعادة قبل ما يقال في العادة من البنين والرفاء، وأي مرغب للراحة عن خمسها، بل أيّ تباين بين قمر السّماء وشمسها، وما أزين بالزوجين، أن يكونا من علائهما في أوجين، حتى تتكافأ قيمة وقيمة، وتعمر منزل الكريم كريمة.

– 268 –

## رسالة في الاعتذار إلى أبي عمران الفازازي[3]

كتابي إلى سيدي الذي لي بحبّه امتياز، وعندي من برّه ما هو حقيقة لا مجاز، أبقى الله منه بدرًا بسماء العُلى مشرقا، وصدرا في مناسب المناقب معرقا، من رباط الفتح وعندي له مودّة هي طبيعة، وخلوص نفس لدواعيه مطيعة، أجد لساني من ذكره لا يخلو، وقلبي به كلفا لا يسلو، وحقه عندي على الحقوق يرتفع ويعلو، ولي منه نفس لم ترض إرثها من العلياء، وحظها من شرف الآباء، حتى استحدثت

---

(1) الحصر والقصر من مصطلحات أهل المعاني وهما بمعنى واحد ويعرفان بالتخصيص وهو جعل بعض أجزاء الكلام مخصوصا بالبعض بحيث لا يتجاوزه ولا يكون انتسابه الا إليه. التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج 2، ص 1320.

(2) السُّكَيْتُ والسُّكَّيْتُ بالتشديد والتخفيف: هو آخر ما يجيءُ من الخيل في الحلبة من العَشْر المعدودات إذا أُجْرِيَتْ، أي يبقى مسكتا. لسان العرب، ج 2، ص 44.

(3) تقدّمت الإشارة إلى الفازازي في هامش الرّسالة رقم: 169 من هذا السفر.

شرفا فيه رونق الحدوث، وله زيادة على الموروث.

ووصلتني مخاطبته المبرورة فأبرزت من وجوه الحسن الوضاح الأبلج، وحكت في عيني الصباح في عين من أدلج، وشاهدت منها البيان متشخّصًا، والبلاغة وجد مختارها ملخّصًا، /178/ ونضارها مخلصا، فعلّمتني والطّرس عنها سافر، والطرف فيها مسافر، أنّ في الألفاظ غُرَرًا، ومن المعاني دُرَرًا[1]، ومن[2] البيان ليس لمن تكفف ناسه، وتكلف أجناسه، ودخل حلبته بسكيت، ونسج منه أوهن بيت، لكنه لمن أخذ كتابه بقوة، وعُدّ في بيته أشرف أبوّة، وورد حياضه والوارد يحلأ، ورعى أكنافه والكلأ بها يُحمى ويُكلأ، وليس إلا هذا السّري الذي سُلّ من سراة، وضوعف مجده مرّات: [الوافر]

وحسبك ما تأثّل من معالٍ رواها عن أخٍ وأبٍ وعمّ

فرائيهم إذا حضروا بنادٍ يرى زهر النجوم وبدر تمّ

وذكر سيدي عن كتاب كان قد سيّره، وانتظر الجواب عليه فلم يَرَه، وقد كان ألقي إليّ رائقا برقمه، خاليا من اسمه فأنكرت خطّه، ولم أعرف الزند ولا سقطه، وحسبته من أحد الأندلسيين فقلت عهدي بذلك الجسم دون روح، ومتى كان الخيام بذي طلوح[3]، وأجبته عنه وقلبي غير مِطوَاع، وخاطري خاطر مُرتاع.

فلما رأيت كتابكم علمت أن الأول تِربُه، وأنّ شِرْبَ هذا من البلاغة هو شربُه، وخطّأت حدسي ولمت على هذا السّهو نفسي، وقلت لو كنت مُعْرِبًا لعرفت من الخيل صهيلها، أو بطلا ميّزت من الظبا صليلها، ولكن ما يقال في فكر ينبط من صمّاء، ويخبط خبط عشواء، ويمري ولا خلف يدرّ، ويسري وكل ضوء عنده

---

(1) جناس ناقص بين "غررا ودررا".

(2) في ك 233: أنّ.

(3) يشير إلى قول جرير:

متى كان الخيامُ بذي طُلوحٍ سُقيتِ الغيثَ أيتها الخيامُ

وذو طلوح اسم موضع في حزن بني يربوع بين الكوفة وفيد. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 39.



يستسرّ، فغريمه ممطول معنًى، والمتمنّي[1] عليه لا يجد متمنًّى.

وما أفاض فيه سيّدي من تقريض هو به أحق، وأوصاف من معاليه تؤخذ وتشتق، فطراز لست أحسنه، ومرام يتعاطاه الخاطر فلا يمكنه، وإنما استملى [من خصائصه، ونطق عن ودّ خصّني بخالصه، وعندي والله بإزائه حبّ أضفيه، وثناء أوفيه، وذكر لمآثره أطنب فيه، وكتابي هذا والحامل قد شمّر، ورائسه قد أوسق وعمّر، والريح طيبة، وغوارب الموج متغيبة، وقد نُشِر الشراع، وحان الجدّ والإسراع، فهو إلى القارب متوثب، وعلى طلب الإمهال مشرّب، قد طمس وجه الاعتذار، وصمّ سمعا عن الإنذار، فلم يكن بدّ من حذف التطويل، والاكتفاء بالقليل، والطريق بعد جرد، ومع اليوم إن شاء الله غد، وسيدي يعذر إن أغبت، ويغضي إذا كتبت][2].

– 269 –

## رسالة في العتاب والاستعطاف إلى قاضي الجماعة بمراكش أبي إسحاق المكادي

/179/ مثل السيد الذي راق بكرمه الأنام، ورضّ بشيمه الأيام، ورمى هدف المشكلات فقرطس مصيبا، وسما إلى المعلوات فلم يدع فيها لأحد نصيبًا، هو أغزر علما، وأرسخ حلما، وأعلى قيمة، وأكرم شيمة، من أن يستخف نهاه واش، ويمشي إليه ماشٍ، وحاشاه أن يؤاخذ بعثرة دراها، وزلة يسمعها أو يراها، والظن بمجده العالي أن يكرّ على الإساءة بالصفح، ويمحو أثر الخطيئة بخلقه السمح، هذا إذا جاء خبرها متواترا، وكان كالصّبح لا يلقى ضوءه ساترا، فكيف إذا كان إفكا مأثورا، أو هباءً منثورًا، فما باله أعلى الله قدره، ولا حطّ عن فلك السيادة بدره، صد بوجهه وكتابه، وأقعد تحت المولم الممضّ من عتابه، ونأى بجانب إليه نأوي، وأمرض وبما عنده كان التداوي.

---

(1) في ك 233: التمنّي.

(2) الزيادة من ك 233، لأنّ الرّسالة مبتورة النهاية لسقوط ورقتين من المخطوط تحملان رقم 94 و95 حسب الترقيم القديم للمخطوط.

وما خلتني ولو آخذت غير المأخوذ[1]، وفارقت المشهور إلى المشذوذ، وقلتُ إن الجهميّ بالتشبيه مصرّح، والمعتزلي لكلام النفس مصحّح، وزعمت أن الأشعرية تنفي الرّؤية، وأصحاب الحديث لا يرون الرّقية، وأبحت نكاح الأمة لمن يجد الطّول، وحدثت عن ابن عبّاس أنه كان يرى العول، وادعيت الإجماع في مسألة الجدّ، ولم اعتبر الشبهة في درء الحدّ، ورميت بالبلادة إياسًا، وقلت إن أبا حنيفة ما كان يحسن قياسًا، إلا وفضله يغضي عن هناتي، ويلبسني على علاتي، ويحمل أمري على أن الغربة شعثته، ويرى سهوي أن حوادث الأيّام أحدثته، فيعتمد كسري بجبره، ويدخلني /180/ تحت ثقاف حجره، ولو علمت أن مَلامه عزيمة، وأن الذي بلغه له عنده قيمة، لمزّقت ثوب الجلد، وشققت جيب الكمد، ولكني أقول هي عضّة مثقف، بل عظة متوقف، وما لجرح إذا أرضاه ألم، وأهلا بما رآه فيه بُرءُ أو سقم[2].

-270 -

## وأجاب رجلا أندلسيا سأله عن مكان مناسب للاستقرار به

يا سيدي الذي قلبي به كلفٌ، ولساني بالقصور عن شكره معترفٌ، وافى كتابك على غفلة، واستوفى ما لم يكن عندي من رحلة ونقلة، فعجبت من صنيع الأيّام، وسوء أثرها في هذا الأنام، وقلت لشدّ ما فرّقت ما ألّفت، وضربت ثم دفّفت، وحرّكت هذا الفاضل وكان يؤثر السّكون، وجشمته أمورا شاء الله أن تكون.

ذكر سيدي أنه ظعن حين رأى شرر الشّرك يترامى، وفارق وطنا من نفس إيالته كان يتحامى، فكيف به يتبوأه، والعدوّ له فيه أقبح أثر وأسوأه، وكيف لا وهو مع المسلم على بصيرة من قهره، وليس منه إلا من شرب من نهره، وذلك العهد الموهوم، والعمل المفهوم، إنما كانا[3] وصية جرى فيها التنفيذ، وقضية أخذها عن

---

(1) ما تبقّى من الرّسالة ناقص في ك 233.

(2) تقدّمت هذه الرّسالة مكرّرة تحت رقم (225) من هذا السفر.

(3) في ك 233: كان.



المعلّم التلميذ، وظنّ أن ذلك يضع إصرًا، ويكون إلى المنى جسرا، وهيهات هي خدع زِبْرِجُهَا غير خفي، وزيفها لا يجوز على صيرفي، بل قد صارت إلى أصل[1] ناهش، وعرضت على محاسب مناقش.

فأما ما ذكر من الارتياد، وأراد من الترجيح بين البلاد، فهذا مدى رحبٌ، والقول فيه صعب، إلا أني أقول إنّ هذا المكان[2] فيه لعمري مرافق، وأشياء توافق، وضواحيه ملتقى ذئب وقسور، ومُغار عرب وبربر[3]، /181/ فالحارث بها في أشد عنتٍ، والمقيم كالمسافر هو وماله على فلتٍ، وتجارة البلد ما بها بأس، بل يعيش منها ناس، والحرث فيما يلي هذا المكان كان يسهل، إلّا أن مؤنته تثقل، ويُتَحَدّثُ عن[4] آسفي[5] أنها أخصب الأرجاء، وأقبلها للغرباء، فهذا ما نقوله وارتياد الجانب إذا نأى الجار، ونبت الدّار، سنة عمل الأبرار[6]، ﴿وربّك يخلق ما يشاء ويختار﴾[7].

-271 -

## وأجاب أحد أصدقائه حين أخبره بقرب سقوط جزيرة شقر

يا سيدي الذي أعددته ذخري، وأفردته بشكري، أبقاكم الله واحدا في سراة الإخوان، شاهدا على سماحة الزمان بالأعلاق الثمان، كتبته من فلانة وعندي تعلّل بالخيال منكم إذا زارني، وشوق لو أن شوقا أطار أحدا لأطارني.

ورد عليّ كتابكم بعد بطئ شديد، وعن عهد بعيد، بعد أن عاتبت فيه الأيام،

---

(1) في ك 233: صلّ.

(2) يريد مدينة رباط الفتح التي كان يتولّى خطة القضاء بها يومئذ.

(3) لعلّه يشير إلى ما كان يقوم به عرب بني هلال بالتحالف مع قبائل بني مرين من غارات على نواحي الرباط.

(4) في ك 233: على.

(5) عن مدينة آسفي المغربية الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي بين الصويرة والجديدة، انظر نزهة المشتاق للإدريسي، ج 1، ص 240.

(6) في ك 233: عمل بها الأبرار.

(7) الآية رقم 68 من سورة القصص.

وراودت عليه الأحلام، وبعد أن فتشت عنه كل بحريّة، وقعدت له على كل ثنية، حتى سنح كالحبيب الواصل، ونفح مثل النسيم في الأصائل.

ومنها: وذكر أحوال البلاد، وتزاحم الأضداد، وأنها خطوب أمرّ بكل فم شرابها، ونعب على كل علم غرابها، فيا لمعين جفّ، وقطين خفّ، وطالبٍ من الحوادث ما اكتفى ولا كفّ، وذكر عن المسقط[1] أنه قريب الأجل، والسّاكن فيه كثير الوجل، وكيف لا يوجلون، وما الذي إليه يلجأون، اللهم اجعلهم في ذمتك، وابقهم في كنف عصمتك.

– 272 –

## وله من رسالة

/182/ تعتمدكم حرس الله مجدكم الذي أرجّح طارفه على التالد، وأوثر مورده على الموارد، تحيّة حبّ خلصت سريرته، واستحكمت مريرته، وكانت النيّة أن أخاطبكم مبتدئا، وأنقع بمنافثتكم فؤادا ظمئا، ثم أبطأت ليكون لكم السّبق، وأجحمت[2] فكان التقدم لمن هو به أحقّ.

– 273 –

## ومن صدور مخاطباته

**فصل:** سيدي أبقى الله مجدكم معمور الفناء، مخصوصا بالثناء، وملابسه فضفاضة، والنعم الجزيلة قِبَله مفاضة.

**فصل:** أخصّ سيدي أطال الله بقاءه، وقرّب عليّ بغيتي وليست[3] إلا لقاءه، بتحية الودّ الذي أنا على حفظه مقيم، والشكر لخلته التي أرى أن الزمان بمثلها عقيم، وللشوق تحكّم يغلب حاضره الماضي، ولا يسأم غريمه التقاضي.

**فصل:** أخصّ سيدي بتحية الودّ الذي قد علمه يقينا، والإخاء الذي ثبت ويثبت ما حيينا إن شاء الله وبقينا، وليس إلا حبّ أعددته ذخرا، وشوق تقيمه حال

(1) يريد جزيرة شقر.
(2) أجحم كأحجم أي كفّ.
(3) في ك 233: وليس.



وتقعده أخرى.

**فصل:** كتب الشيّق إلى لثم راحته، الحريص على المثول بساحته، /183/ فلان وقد آن إن شاء الله أن يظفر بالقرب من بان، وينطق بأنس اللقاء من أحصرته الوحشة فما أبان[1].

– 274 –

## وكتب يتشوّق إلى أحد إخوانه الأندلسيين

كتبته إلى أخي دام له البقاء، وصديقي إذا عزّ الأصدقاء، والودّ كما يعلم نسبة مشهورة، وعدّة مذخورة، وسبيل آهلة معمورة، وقد كنت من أجله ذا قلب وجل، وخاطر مشتعل، حتى قيل إنه خرج عند حلول الفاقرة، واستيلاء الطائفة الكافرة، وبلغني أنه استكمل النجاة، وأحرز السلامة المرتجاة، فنعمت والبال كاسف، وسررت والحزن متكاثف، وغيّضت دمع العين، وقلت ويل أهون من ويلين.

ثم قيل لي إنه لبّى دعوة المخدوم، ولا علم لي بما كان بعد القدوم، والنفس[2] إلى تلك الأحوال مشتاقة، وبها[3] علم الله إلى معرفتها فاقة، وما رأي فلان وهل له رغبة في الائتلاف ولو فعل لَرِيش الجناح، وأمكن النجاح، فإن أمكن في هذا سعيٌ فلا يترك، وإن حُرّك لحظّه فليقل له تحرّك، والله يحفظ على الأخ الكريم جميل عادته، ويصل له أسباب سعادته، بمنّه والسلام[4].

– 275 –

## تقديم رجل على شغل زكاة العين

عن إذن فلان يتقدم فلان[5] على شغل زكاة العين بفلانة، ويؤدّي فيها حق

(1) وردت هذه الفصول عند ابن المرابط في زواهر الفكر، ص 227.
(2) في ك 233: النفوس.
(3) في ك 233: بنا.
(4) تقدّمت هذه الرّسالة مكرّرة تحت رقم (153) من هذا السفر.
(5) كلمة "فلان" ناقصة في ك 233.

الأمانة، على الكمال، ويستقل بما أسند إليه منها أتم الاستقلال، ويتوخّى المعدلة بين /184/ أرباب الأموال، وبيت مال المسلمين بحيث لا يحيف على أحد، ولا يقصّر في الإنماء والتوفير عن أبعد غاية وأمد، بحول الله تعالى.

-276 -

## إقرار رجل على منصب

أمضينا بعهدنا هذا لفلان جميع ما مضى عليه العمل واقتضاه نظره من التنفيذات، والعطيات وكافة التصرّفات، بفلانة إمضاءً لا يلحقه مباحثة ولا تعقب، ولا تدركه مناقشة ولا تعسّف ولا تسبّب.

-277 -

## ظهير بتولية الوزارة

عن إذن فلان يستقرّ مكتوبنا هذا بيد فلان أدام الله علاءه، وحفظ كفايته[1] وغناءه، يجد به مكان العزة مكينا، ومورد الكرامة عذبا معينا، وسبيل الحرمة المتأكدة واضحا مستبينا، ويتقلّد وزارتنا تقلد تفويض وإطلاق، ويلبس ما خلع عليه منها لبسة تمكّن واستحقاق، وينزل من رتبتها العلياء منزلة شرفها ثابت وجمالها[2] باق، ويسوّغ الدّار المخزنية التي يسكنها بفلانة تسويغا يُملّكُهُ إياها أصحّ تمليك، ويفرده بها من تشريك[3]، إن شاء الله تعالى.

-278 -

## ومن صدر رسالة

تحية كريمة لها من الرّوض نفحته، وعليها من وجه الصّباح مسحته، تتأدّى إلى سيدي مشعشعة الكأس، أرجة الأنفاس، ورحمة الله تعالى وبركاته، والتعظيم لقدره... [4].

---

(1) في صبح الأعشى، ج 10، ص 306: عنايته.

(2) في صبح الأعشى: حماها.

(3) في صبح الأعشى: ويُفرد فيها من غير تشريك.

(4) هنا ينتهي السّفر الثاني من المخطوط ولا نستطيع تقدير الورقات المبتورة من آخره.

# فهارس الكتاب

## فهرس الآيات

# فهرس الأحاديث

# فهرس الأمثال

# فهرس القوافي

| القافية | البحر | الشاعر | الصفحة |
|---|---|---|---|
| النّعمان | الكامل | ابن عميرة | 312 |
| بمزنه | الطويل | ابن عميرة | 380 |
| حسن | المنسرح | ابن عميرة | 383 |
| بينهما | البسيط | ابن عميرة | 436 |
| الياسمين | الخفيف | ابن عميرة | 461 |
| كانوا | الكامل | ابن عميرة | 466 |
| تليها | الخفيف | ابن عميرة | 204 |
| نائيةْ | البسيط | ابن عميرة | 443 |
| صرعاه | الكامل | ابن عميرة | 478 |
| عاديه | السريع | - | 494 |
| عُلّوه | الرجز | ابن عميرة | 500 |
| حيّ | الطويل | ابن عميرة | 162 |
| الدّنيا | الطويل | ابن عميرة | 304 |
| ناعيًا | الكامل | ابن عميرة | 456 |
| عيّه | الكامل | ابن عميرة | 465 |

# فهرس الأعلام

# فهرس الأماكن

## فهرس المصادر والمراجع

• ابن الأبار أبو عبد الله محمد، التكملة لكتاب الصلة. تحقيق عبد السلام الهراس. الدار البيضاء: دار المعرفة، 1995.
- المعجم في أصحاب القاضي الصدفي. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1967.
- الحلة السيراء. تحقيق حسين مؤنس. القاهرة: دار المعارف، 1985م.
- تحفة القادم، تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986.
• ابن الأثير علي بن محمد، الكامل في التاريخ. بيروت: دار الكتاب العربي، 1983.
• ابن أنس أبو عبد الله مالك، الموطأ. إعداد أحمد عرموش. بيروت: دار النفائس، 1982.
• ابن أبي دينار محمد الرعيني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. بيروت: دار المسيرة، 1993.
• ابن أبي زرع علي بن عبد الله، الأنيس المطرب بروض القرطاس. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973.
- الذخيرة السنية. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.
• ابن حجر شهاب الدّين أحمد، الدّرر الكامنة. القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1966.
• ابن حزم علي بن أحمد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة: دار المعارف، 1962.
• ابن الخطيب أبو عبد الله محمد، الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق عنان محمد عبد الله. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1975.
- أعمال الأعلام. نشره ليفي بروفنسال. بيروت: دار المكشوف، ج 2، 1956.
- معيار الاختيار. الرباط: المعهد الجامعي للبحث العلمي بالمغرب، 1977.

- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، المقدّمة. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992.
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992.
- ابن خلدون يحي بن محمد، بغية الرّواد، تحقيق حاجيات. الجزائر: المكتبة الوطنية، 1980.
- ابن خلكان أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار القلم، 1971.
- ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد. بيروت: دار الفكر، 1995.
- ابن زيدان عبد الرحمن، إتحاف أعلام الناس. تقديم عبد الهادي التازي. الدار البيضاء: مطابع إديال، 1990.
- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب. تحقيق شوقي ضيف. القاهرة: دار المعارف، 1964.
- اختصار القدح المعلى، تحقيق إبراهيم الأبياري. القاهرة: دار الكتاب المصري، 1980.
- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر. جدّة: دار المدني.
- ابن شريفة محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره. الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1966.
- ابن صاحب الصلاة عبد الملك، تاريخ المن بالإمامة. تحقيق عبد الهادي التازي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987.
- ابن عبد البر أبو عمر يوسف، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق البجاوي. القاهرة: مكتبة نهضة مصر، دون تاريخ.
- ابن عبد الحكم أبو القاسم عبد الرحمن، فتوح مصر وأخبارها، تحقيق محمد الحجيري. بيروت: دار الفكر، 1996.
- ابن عبد ربّه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق سعيد العريان. القاهرة: مطبعة الاستقامة، 1953.





- ابن عبد الملك أبو عبد الله محمد، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. تحقيق إحسان عباس ومحمد بن شريفة. بيروت: دار الثقافة. الرباط: مطبعة المعارف، 1974- 1984.
- ابن عساكر علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق. بيروت: دار الفكر، 1998.
- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. بيروت: دار الثقافة، مصور عن طبعة بريل ليدن، 1948. والقسم الخاص بالموحدين. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985.
- ابن عميرة الضّبّي، بغية الملتمس، تحقيق روحية السويفي. بيروت: دار الكتب العلمية، 1997.
- ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. تحقيق محمد الأحمدي. القاهرة: دار التراث، 1972.
- ابن القاضي أحمد المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط: دار المنصور، 1973.
- ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق النيفر والتركي. تونس: الدار التونسية للنشر.
- ابن كثير اسماعيل، تفسير ابن كثير. بيروت: دار الأندلس، 1986.
- ابن الكردبوس أبو مروان عبد الملك، الاكتفاء في أخبار الخلفاء. مدريد: صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1971.
- ابن المرابط محمد بن علي المرادي، زواهر الفكر وجواهر الفقر، تحقيق حسن محمود فليفل. الرياض: مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1997.
- ابن منظور أبو الفضل محمد، لسان العرب. بيروت: دار صادر، 1992.
- ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
- أبو تمام حبيب بن أوس، ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبده عزام. القاهرة، 1951 -1956.

- أبو زهرة محمد، تاريخ المذاهب الاسلامية. القاهرة: دار الفكر العربي، دون تاريخ.
- أبو المطرّف أحمد بن عميرة المخزومي، تاريخ ميورقة، تحقيق محمد بن معمر. بيروت: دار الكتب العلمية، 2007.
- أبو موسى أحمد، النثر الفني الأندلسي في عصر الموحدين. دمشق: مكتبة الأسد، 1997.
- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. عمان: دار الشروق، 1997.
- الإدريسي أبو عبد الله محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1994.
- أرسلان شكيب، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، القاهرة: المطبعة الرحمانية، 1936.
- أشباخ يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين. ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط2، 1996.
- الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1950- 1974.
- أمبروسيو هويثي ميرندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية. ترجمة عبد الواحد أكمير، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2004.
- إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر. بيروت: دار الكتب العلمية، 1991.
- آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة حسين مؤنس. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1955.
- البحتري، ديوان البحتري. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1987.
- البخاري محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق مصطفى البغا. بيروت: دار ابن كثير، 1987.
- المتنبي أبو الطيب، ديوان المتنبي بشرح البرقوقي عبد الرحمن. بيروت: دار





الكتب العلمية، 2001.

- البكري أبو عبيد، المسالك والممالك. تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري. تونس: الدار العربية للكتاب، 1992.
- البيذق أبو بكر بن علي، أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق حاجيات. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974.
- التجاني أبو محمد عبد الله، رحلة التجاني. تونس: المطبعة الرسمية، 1958.
- التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج. طرابلس: منشورات كلية الدعوة الاسلامية، 1989.
- التهانوي محمد علي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1996.
- الثعالبي أبو منصور عبد الملك، يتيمة الدّهر. القاهرة: مطبعة الصّاوي، 1934.
- الحموي أبو عبد الله ياقوت، معجم البلدان. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1984.
- الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، 1984.
- الخطيب التبريزي أبو زكرياء يحي، الكافي في العروض والقوافي. بيروت: دار الكتب العلمية، 2003.
- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة. بيروت: دار إحياء العلوم، 1998.
- الخفاجي شهاب الدّين، نسيم الرّياض في شرح شفاء عياض. بيروت: دار الكتاب العربي.
- الرّعيني علي بن الفخار، برنامج شيوخ الرّعيني، تحقيق ابراهيم شبوح. دمشق، 1962.
- الرافعي مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، بيروت: دار الكتاب العربي، ط4، 1974.
- رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية. بيروت: مكتبة لبنان، 1991.

- رضا عبد الغني الكساسبة، النثر الفنّي في عصر الموحدين. الاسكندرية: دار الوفاء، 2004.
- الزركشي أبو عبد الله ابراهيم بن محمد، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تحقيق محمد ماضور. تونس: المكتبة العتيقة، 1966.
- الزركلي خير الدين، الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، 1995.
- الزهري أبو عبد الله محمد، كتاب الجعرافية. تحقيق محمد حاج صادق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ.
- الزوزني الحسين بن أحمد، شرح المعلقات السّبع. بيروت: دار الكتب العلمية.
- السيد سابق، فقه السنة. بيروت: دار الكتاب العربي، 1985.
- السيوطي جلال الدّين، بغية الوعاة. بيروت: المكتبة العصرية، دون تاريخ.
- تاريخ الخلفاء. بيروت: المكتبة العصرية، 1995.
- الشريف السبتي أبو القاسم محمد، رفع الحجب المستورة. القاهرة: مطبعة السعادة، 1344 هـ.
- الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل. بيروت: دار المعرفة، 1980.
- الصّابوني محمد علي، المواريث في الشريعة الاسلامية. القاهرة: دار الحديث، 1962.
- الصفدي خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2000.
- صلاح جرار، جزيرة شقر الأندلسية المكان والإنسان في الأدب الأندلسي. مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 34، السنة 12، حزيران 1988.
- الطبري أبو جعفر محمد، تاريخ الأمم والملوك. بيروت: دار القاموس الحديث للطباعة والنشر، بدون تاريخ.
- العبدري أبو عبد الله محمد، رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، الرباط: وزارة الشؤون الثقافية، 1968.
- العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1994.





- عزاوي أحمد، رسائل موحدية، (منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالقنيطرة). الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2001.
- عز الدّين عمر موسى، الموحدون في الغرب الاسلامي، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1991.
- عنان محمد عبد الله، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القسم الأول والثاني، 1964.
- الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، دراسة تاريخية أثرية، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1961.
- الغبريني أبو العباس أحمد، عنوان الدراية. تحقيق رابح بونار. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط5، 1981.
- الفيروز أبادي محمد بن يعقوب، القاموس المحيط. ضبط وتوثيق يوسف البقاعي، بيروت: دار الفكر، 1995.
- القلقشندي أبو العباس أحمد، صبح الأعشى. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية.
- مؤنس حسين، فتح العرب للمغرب. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ.
- المباركفوري صفي الرّحمن، الرّحيق المختوم. الجزائر: الشهاب للنشر والتوزيع، 1987.
- المجالي سحر عبد المجيد، تطور الجيش العربي في الأندلس. الأردن: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 1996.
- مجهول، مخطوط لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكتاب.
- مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار. الاسكندرية: مطبعة جامعة الاسكندرية، 1958.
- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. بيروت: دار الأندلس، د تاريخ.
- المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد

العريان ومحمد العربي العلمي، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1978.
• المعري أبو العلاء، سقط الزند. بيروت: دار الكتب العلمية، 1990.
• المقري أبو العباس أحمد، نفح الطيب. تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1968.
- أزهار الرّياض في أخبار عياض. الرباط: صندوق إحياء التراث الاسلامي، 1978.
• المنوني محمد، ورقات عن حضارة المرينيين، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1996.
• الميداني أبو الفضل أحمد، مجمع الأمثال. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ط2، دون تاريخ.
• النباهي المالقي، تاريخ قضاة الأندلس. بيروت: دار الأفاق الجديدة، 1983.
• النجار عبد الوهاب، الخلفاء الراشدون. بيروت: دار القلم، 1986.
• النخيلي درويش، السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية، 1974.
• النيسابوري أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم. بيروت: دار الجيل ودار الأفاق.
• الونشريسي، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد الخامس، 1957.

# فهرس الموضوعات

## فهارس الكتاب